

تاريخ
الأدب العربي
١

العصر الجاهلي^٣

تأليف
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الثانية والعشرون



دار المعارف

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

للباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين كتبٌ مختلفة في تاريخ الأدب العربي أدّت كثيراً من الفائدة والنفع منذ ظهورها ، غير أن من الحق أنه ليس بين هذه الكتب ما يبسط الحديث في أدبنا وأدبائنا على مرّ التاريخ من الجاهلية إلى العصر الحديث بسطاً مفصلاً دقيقاً . وأغزُرُ هذه الكتب وأحَفَلُها مادة كتابُ «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان ، وهو دائرة معارف جامعة ، لا تقتصر على الحديث عن شعرائنا وكُتّابنا ، بل تُفيض في الكلام عن فلاسفتنا وعلمائنا من كل صَنَفٍ وعلى كلِّ لون ، مع استقصاء آثارهم المطبوعة والمخطوطة في مشارق الأرض ومغاربها والإشارة إلى ما كُتِبَ عنهم قديماً وحديثاً. وهذه العناية من وصف التراث العربي جميعه جعلت بروكلمان لا يُعنى عناية مفصلة ببحث العصور والظواهر الأدبية ولا ببحث شخصيات الأدباء بحثاً تاريخياً نقدياً تحليلياً، إذ شغلته عن ذلك مواد كتابه المتنوعة الكثيرة .

ولإذن فأنا لا أبالغ إذا قلت إن تاريخ أدبنا العربي يفتقر إلى طائفة من الأجزاء المبسطة تُبَحِّثُ فيها عصوره من الجاهلية إلى عصرنا الحاضر كما تبحث شخصياته الأدبية بحثاً مُسْنِهاً ، بحيث ينكشف كل عصر انكشافاً تاماً ، بجميع حدوده وبيئاته وآثاره وما عمل فيها من مؤثرات ثقافية وغير ثقافية ، وبحيث تنكشف شخصيات الأدباء انكشافاً كاملاً ، بجميع ملامحها وقسماتها النفسية والاجتماعية والفنية .

وقد حاولتُ أن أنهض بهذا العيب ، وأنا أعلم ثِقَلِ المثونة فيه ، فإن كثيراً من الآثار الأدبية القيمة لا يزال مخطوطاً لما يُنَشَرُ ، وكثيراً مما نُشَرُ في حاجة إلى أن يعاد نشره نشرًا علمياً . وهناك بيئات أدبية يغمرها غير قليل من الظلام ، إما لقلة ما بين أيدينا من تراثها الأدبي ، وإما لأن الباحثين لم يكشفوا دروبها ومناجمها كشفاً

كافياً . يُضاف إلى ذلك أن تحليل آثار الأدباء وتقويمها ليس عملاً سهلاً ، لكثرة ما يداخلها من عناصر الحياة والفن المتشابكة ، ولأنها تتألف من معان وأساليب جميلة ، وهى لا تخضع خضوعاً مطلقاً لقواعد العلم وقوانينه ، حقاً تخضع للطريقة العلمية، ولكن باستمرار تظل فيها جوانب خاضعة للذوق ونفاذ البصيرة والإحساس المرهف . وذلك كله مما يضاعف الجهد على من يريد تأريخ أدبنا العربى تأريخاً مفصلاً دقيقاً على اختلاف عصوره وتفاوت بيئاته ، غير أنه يضاعف فى الوقت نفسه لذته فيه ، إذ يرى أمنيته فى إتقان عمله بعيدة عسيرة، لا يمكنه بلوغها إلا بشق النفس، فيجد ويلج، ويمضى فى الجيد والإلحاح، حتى يظفر بما يريد، مؤمناً بأنه لا يقول الكلمة الأخيرة فيما يبحثه ، إذ البحث الأدبى لا يعرف الكلمة الأخيرة فى مسألة من مسائله .

ومعنى ذلك أن هذا الجزء من تاريخ أدبنا العربى الخاص بالعصر الجاهلى — والذى ستتلوه أجزاء أخرى تتناول بقية عصور هذا التاريخ — لا أزم أنه يحمل إلى القراء الصورة الأخيرة لهذا العصر ، كما لا أزم أن الأجزاء التالية ستحمل الصورة الأخيرة للعصور المتعاقبة . وإنما أزم أن هذه الصورة هى التى استطعت رسمها مع ما بذلت من جهد واصطنعت من نهج وتحريّت من دقة ، وقد يأتى بعدى من يعدّل فى جانب من جوانبها بما يهتدى إليه من حقائق أدبية غابت عني فى بعض العصور أو بعض البيئات والشخصيات الأدبية . وتلك طبيعة الأبحاث يكمل بعضها بعضاً ولا تزال فى نمو مطرد . والله أسأل أن يلهمنى السداد فى القول والفكر والعمل ، وهو حسبي ، ونعم الوكيل .

شوق ضيف

القاهرة فى ٢٠ من ديسمبر سنة ١٩٦٠

تمهيد

١

كلمة أدب

كلمة أدب من الكلمات التي تطور معناها بتطور حياة الأمة العربية وانتقالها من دور البداوة إلى أدوار المدنية والحضارة . وقد اختلفت عليها معانٍ متقاربة حتى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم ، وهو الكلام الإنشائي البليغ الذي يُقصد به إلى التأثير في عواطف القراء والسامعين ، سواء أكان شعراً أم نثراً .

وإذا رجعنا إلى العصر الجاهلي فنقّب عن الكلمة فيه لم نجد لها تجرى على ألسنة الشعراء ، إنما نجد لفظة أدب بمعنى الداعي إلى الطعام ، فقد جاء على لسان طرفة بن العبد^(١) :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدبَ فينا ينتقِر^(٢)

ومن ذلك المأدبة بمعنى الطعام الذي يُدعى إليه الناس . واشتقوا من هذا المعنى أدبَ يادُب بمعنى صنع مأدبة أو دعا إليها .

وليس وراء بيت طرفة أبيات أخرى تدل على أن الكلمة انتقلت في العصر الجاهلي من هذا المعنى الحسي إلى معنى آخر ، غير أننا نجدها تُستخدم على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم في معنى تهذيبي خلقي ، ففي الحديث النبوي : « أدبني ربّي فأحسن تأديبي »^(٣) ويستخدمها شاعر مخضرم يسمى سهم بن حنظلة

(١) انظر ديوان طرفة (طبعة الوارد) القصيدة

رقم ٥ بيت ٤٦ .

(٢) المشتاة : الشتاء ، الدعوة الجفلى :

العامة ، الآدب : الداعي إلى الطعام ،

لا ينتقِر : لا يختار أناساً دون آخرين .

(٣) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر

لابن الأثير (طبع القاهرة ١٣١١ هـ) ج ١

ص ٣ .

الغَنَوَى بنفس المعنى إذ يقول ^(١) :

لا يمنعُ الناسُ مني ما أردتُ ولا أعطيتهم ما أرادوا حُسْنَ ذَا أدبا

وربما استُخدمت الكلمة في العصر الجاهلي بهذا المعنى الخلقى، غير أنه لم تصلنا نصوص تؤيد هذا الظن . وذهب « نالينو » إلى أنها استُخدمت في الجاهلية بمعنى السنة وسيرة الآباء مفترضاً أنها مقلوب دأب، فقد جمع العرب دأباً على آداب كما جمعوا بئراً على آبار ورأياً على آراء، ثم عادوا فتوهوا أن آداباً جمع أدب، فدارت في لسانهم كما دارت كلمة دأب بمعنى السنة والسيرة . ودلوا بها على محاسن الأخلاق والشِّيم ^(٢) . وهو فرض بعيد، وأقرب منه أن تكون الكلمة انتقلت من معنى حسى وهو الدعوة إلى الطعام إلى معنى ذهني وهو الدعوة إلى المحامد والمكارم ، شأنها في ذلك شأن بقية الكلمات المعنوية التي تستخدم أولاً في معنى حسى حقيقى ، ثم تخرج منه إلى معنى ذهني مجازي .

ولا نمضي في عصر بني أمية حتى نجد الكلمة تدور في المعنى الخلقى التهذيبي ، وتضيف إليه معنى ثانياً جديداً، وهو معنى تعليمي فقد وجدت طائفة من المعلمين تسمى بالموذَّبين ، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء ما تطمح إليه نفوس آبائهم فيهم من معرفة الثقافة العربية ، فكانوا يلقِّنونهم الشعر والخطب وأخبار العرب وأنسابهم وأيامهم في الجاهلية والإسلام . وأتاح هذا الاستخدام الجديد لكلمة الأدب أن تصبح مقابلة لكلمة العلم الذي كان يُطلق حينئذ على الشريعة الإسلامية وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث النبوي وتفسير القرآن الكريم .

وإذا انتقلنا إلى العصر العباسي وجدنا المعنيين التهذيبي والتعليمي يتقابلان في استخدام الكلمة ، فقد سُمي ابن المقفع رسالتين له تتضمنان ضرورياً من الحكم والنصائح الخلقية والسياسية باسم « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » . وبنفس هذا المعنى سُمي أبو تمام المتوفى سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م الباب الثالث من ديوان

^(١) انظر الأصمعيات (طبع دار المعارف) عصر بني أمية لكارلوناينو (طبع دار المعارف)

رقم ١٢ بيت ٣٠ .

ص ١٤ وما بعدها .

^(٢) تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى

الحماسة الذى جمع فيه مختارات من طرائف الشعر ، باسم باب الأدب . وينطبق هذا المعنى تمام الانطباق على كتاب الأدب الذى عقده البخارى المتوفى سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠ م فى مؤلفه المشهور فى الحديث والمعروف باسم الجامع الصحيح ، كما ينطبق على كتاب الأدب الذى صنفه ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٨ م. وفى هذه الأزمنة أى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة وما تلاهما من قرون كانت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم ، وأخذوا يؤلفون بهذا المعنى كتباً سموها كتب أدب مثل « البيان والتبيين للجاحظ » المتوفى سنة ٢٥٥هـ وهو يجمع ألواناً من الأخبار والأشعار والخطب والنوادر ، مع ملاحظات نقدية وبلاغية كثيرة . ومثله كتاب « الكامل فى اللغة والأدب للمبرد » المتوفى سنة ٢٨٥هـ وقد وجه اهتمامه إلى اللغة لا إلى البلاغة والنقد كما صنع الجاحظ ، وقدم فيه صوراً من الرسائل النثرية التى ارتقت بصناعتها فى تلك العصور ، جاء فى مقدمته : « هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب ما بين كلام منشور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطبة شريفة ورسالة بليغة ». وما ألفت فى الأدب بهذا المعنى كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ والعقد الفريد لابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨هـ وزهر الآداب للحصرى المتوفى سنة ٤٥٣هـ .

ولم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمى الخاص بصناعتى النظم والنثر وما يتصل بهما من الملح والنوادر ، فقد اتسعت أحياناً لتشمل كل المعارف غير الدينية التى ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعى والثقافى ؛ فقد جاء على لسان الحسن ابن سهل المتوفى سنة ٢٣٦هـ : « الآداب عشرة ، فثلاثة شهرجانية^(١) ، وثلاثة أنوشروانية^(٢) ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن ، فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصولج ، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية ، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس ، وأما الواحدة التى أربت عليهن فمقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم فى المجالس^(٣) . وبهذا المعنى الواسع نجدتها عند إخوان الصفا فى القرن الرابع للهجرة ، فقد دلوا بها فى رسائلهم إلى جانب

(١) الشهرجانية : نسبة إلى الشارقة أو

الشهاريج وهم أشراف الفرس .

(٢) الأنوشروانية : نسبة إلى كسرى

أنوشروان ملك الفرس من سنة ٥٣١-٥٧٩ م.

(٣) انظر زهر الآداب للحصرى (طبع

مصر) ج ١ ص ١٤٠ .

علوم اللغة والبيان والتاريخ والأخبار على علوم السحر والكيمياء والحساب والمعاملات والتجارات^(١) . ولا نصل إلى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ حتى نجدها تطلق على جميع المعارف دينية وغير دينية ، فهي تشمل جميع ألوان المعرفة وخاصة علوم البلاغة واللغة ، ومن ثم قال : « الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارهم والأخذ من كل علم بطرف »^(٢) .

ومنذ القرن الثالث للهجرة نجد الكلمة تدل – فيما تدل عليه – على السنن التي ينبغي أن تراعى عند طبقة خاصة من الناس ، وألفت بهذا المعنى كتب كثيرة مثل أدب الكاتب لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم المتوفى حوالى سنة ٣٥٠ هـ . وتوالت كتب مختلفة في أدب القاضي وأدب الوزير وأخرى في أدب الحديث وأدب الطعام وأدب المعاشرة وأدب السفر إلى غير ذلك . على أن أكثر ما كانت تدل عليه مقطعات الأشعار وطرائف الأخبار .

وأخذت الكلمة منذ أواسط القرن الماضى تدل على معنيين : معنى عام يقابل معنى كلمة Litterature الفرنسية التي يطلقها الفرنسيون على كل ما يكتب في اللغة مهما يكن موضوعه ومهما يكن أسلوبه ، سواء أكان علماً أم فلسفة أم أدباً خالصاً ، فكل ما ينتجه العقل والشعور يسمى أدباً . ومعنى خاص هو الأدب الخالص الذى لا يراد به إلى مجرد التعبير عن معنى من المعانى ، بل يراد به أيضاً أن يكون جميلاً بحيث يؤثر في عواطف القارئ والسامع على نحو ما هو معروف في صناعتى الشعر وفنون النثر الأدبية مثل الخطابة والأمثال والقصص والمسرحيات والمقامات .

(١) راجع الرسالة السابعة من القسم الرياضى في رسائل إخوان الصفا .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) ص ٤٠٨ .

تاريخ الأدب

واضح الآن أن تاريخ الأدب لأمة من الأمم إما أن يلتزم فيه المؤرخ المعنى العام لكلمة أدب ، فيؤرخ فيه لأعلام الثقافة والفكر والأدب في الأمة تاريخاً عاماً ، وإما أن يلتزم فيه المعنى الخاص ، فيؤرخ للشعراء والكتّاب تاريخاً خاصاً بالأدب وتطوره وظواهره ، مع مقدمات تاريخية واجتماعية وثقافية عامة ، ومع بحث شخصيات الأدباء ومذاهبهم الفنية بحثاً تاريخياً نقدياً تحليلياً . ولعل أهم مَنْ أَرخُوا للأدب العربي بالمعنى الأول العام بروكلمان ، وكتابه : « تاريخ الأدب العربي » أشبه بدائرة معارف عامة تستقصى الآثار المطبوعة والمخطوطة في مشارق الأرض ومغاربها للفلاسفة والعلماء العرب من كل صنف وللشعراء والكتّاب من كل نوع ، بحيث يمكن أن يسمّى تاريخه تاريخاً للتراث العربي ودراسة له ببليوجرافية . وعلى منوال بروكلمان نسج جرجى زيدان في كتابه : « تاريخ آداب اللغة العربية » وفؤاد سزكين في كتابه : « تاريخ التراث العربي » . وكتاب بروكلمان أغنى وأخصب مادة .

ومؤرخ الأدب العربي إما أن ينهج هذا النهج الواسع ، وإما أن ينهج النهج الثانى الذى أشرنا إليه ، فيقف بتاريخه عند الشعراء والكتّاب مفصلاً الحديث في شخصياتهم الأدبية وما أثر فيها من مؤثرات اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية ، ومتوسعاً في بيان الاتجاهات والمذاهب الأدبية التى شاعت في كل عصر . ومن المحقق أن المؤرخ للأدب العربي بمعناه الخاص يأخذ الفرصة كاملة كى يؤرخ لهذا الفرع المونق من فروع الأدب بالمعنى العام ، وهو الفرع الذى يُراعَى فيه الجمال الفنى والتأثير في ذوق القارئ والسامع وإثارة ما يمكن أن يثار في نفسيهما من مشاعر وعواطف متباينة . فهو يؤرخ للأدب الخالص تاريخاً مفصلاً لا يكتفى فيه بالنبد الموجزة عن الاتجاهات والفنون الأدبية ولا بالتراجم المجملة عن الشعراء والكتّاب ، على نحو ما يصنع بروكلمان في تاريخه العام ، بل يكتب في ذلك الفصول الواسعة مطبقاً المناهج الحديثة في دراسة الأدب الخالص ومن أنتجوه من الأدباء .

وكان من آثار سيطرة العلوم الطبيعية والتجريبية في القرن الماضي على العقول الغربية أن نادى بعض مؤرخي الأدب هناك بوجوب تطبيق مناهجها وقواعدها على الدراسات الأدبية ، وحاول نفر منهم أن يضع للأدب قوانين كقوانين الطبيعة ، وتقدم سانت بييف (Sainte-Beuve) يدعو إلى العناية بشخصيات الأدباء وتعقب حياتهم المادية والمعنوية ومؤثراتها ، حتى تتبين ما ينفرد به الأديب وما يشترك فيه مع سواه من الأدباء ، فإذا تبينا الطرفين أمكن أن نضع الأدباء في فصائل وأسرع على نحو ما يصنع علماء النبات إذ يرتبونه في أنواع وفصائل نباتية مختلفة . وبالمثل يضع مؤرخو الأدب أصحابه في طبقات وفصائل على أساس ما يقوم بين الأديب وفصيلته من تشابه ، وهو تشابه تستخلص منه قوانين الأدب العلمية وما يمتاز به أصحاب كل فصيلة من خصائص وصفات . وتلاه تين (Taine) يقرر أن هناك قوانين ثلاثة يخضع لها الأدب في كل أمة وهي الجنس والزمان والمكان ، وكأنه أراد أن يحوّل تاريخ الأدب إلى ضرب من التاريخ الطبيعي ، فأدباء كل أمة يخضعون لهذه القوانين الثلاثة خضوعاً جبرياً ملزماً ، فلكل جنس خواصه ، ولكل زمان أحداثه وظروفه الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ولكل مكان ميزاته الإقليمية والجغرافية ، وتلك هي مؤثرات الأدب ، بل قوانينه التي تطبع الأدباء بطوابعها الدقيقة . ولاحظ مؤرخو الأدب ونقاده أنه تجاهل شخصيات الأدباء وفرديتهم ومواهبهم وأصالتهم ، ولو أن قوانينه صحيحة لكان كل أديب صورة مطابقة للأدباء الآخرين ، ولما تميز أديب من سواه . والواقع يشهد عكس ذلك فلكل أديب شخصيته التي تجعل منه أديباً بعبينه ، له مقوماته .

وبجانب هذين المنهجين في دراسة تاريخ الأدب وجد منهج ثالث عند برونيتير (Brunetiere) الذي فُتن بمذهب داروين المعروف في التطور ونشوء الكائنات العضوية وارتقاؤها ، وكان (سبنسر) سبقه إلى نقله من العضويات إلى المعنويات ، وطبقه على الأخلاق والاجتماع ، فحاول هو أن يطبقه على الأدب وفنونه المختلفة ، واختار لهذا التطبيق ثلاثة فنون ، هي : المسرح والنقد الأدبي والشعر الغنائي ، فتتبع كلا في نشأته ونموه وتطوره وما عمل فيه من مؤثرات ، وذهب إلى أن الفنون الأدبية مثل الكائنات الحية تخضع للتطور ، وقد يتولد بعضها من بعض

على نحو ما تولد الشعر الغنائي الرومانسي في القرن التاسع عشر من الوعظ الديني الذي شاع بفرنسا في القرن السابع عشر ، فهذا الشعر لم يتطور عن شعر مماثل له ، سبقه ، وإنما تطور أو تولّد عن فن آخر على نحو ما يتطور أو يتولد كائن عضوي من كائن آخر .

وهذه الموجة الحادة التي اندفع خلالها هؤلاء المؤرخون في القرن التاسع عشر يريدون أن يلحقوا تاريخ الأدب بالعلوم الطبيعية ويطبقوا عليه قواعدها لم تلبث أن هدأت في أوائل هذا القرن العشرين بتأثير نمو العلوم الإنسانية ، فإن هذه العلوم أثبتت أن عالم الإنسان يخضع لقوانين أعمق من القوانين الطبيعية وأن تاريخ الأدب ينبغي أن لا يلحق بالعلوم الطبيعية وإنما يلحق بالدراسات الإنسانية مثل التاريخ والقانون والسياسة وعلمى الاجتماع والنفس . وسرعان ما أخذ مؤرخو الأدب ونقادهم يطبقون على الأدب نظريات اللاشعور الفردي وعقّد الجنس ومكبوتاته واللاشعور الجماعي ورواسب الحياة الإنسانية البدائية التي تتجلى في الأساطير وما يتصل بها والعلاقات الاجتماعية والإنتاجية .

وسنحاول أن نؤرخ في أجزاء هذا الكتاب للأدب العربي بمعناه الخاص مفيدتين من هذه المناهج المختلفة في دراسة الأدب وأعلامه وآثاره ، فنقف عند الجنس والوسط الزماني والمكاني الذي نشأ فيه الأديب ، ولكن دون أن نبطل فكرة الشخصية الأدبية والمواهب الذاتية التي فسح لها سانت بييف في دراساته . وكذلك لن نبطل نظرية تطور النوع الأدبي ، فما من شك في أن الأنواع الأدبية تتطور من عصر إلى عصر ، وقد يتولد بعضها من بعض فيظهر نوع أدبي جديد لا سابقة له في الظاهر ، ولكن إذا تعمقنا في الدرس وجدناه قد نشأ من نوع آخر مغاير له ، على نحو ما يلاحظ ذلك من يدرس فن المقامة في العصر العباسي ، فإنها في رأينا تولدت من فن الأرجوزة وما ابتغى به أصحابه في العصر الأموي عند رؤية ونظرائه من تعليم الناشئة والموالي ألفاظ اللغة العربية الغريبة وتراكيبها العويصة . فاقتران هذه الغاية بالأرجوزة يلفتنا إلى نفس الغاية في المقامة عند بديع الزمان والحريري وما بين الفنين من صلات وروابط . ولا بد أن نستضيء في أثناء ذلك بدراسات النفسانيين والاجتماعيين وما تلقى من أضواء على الأدباء وآثارهم . ويجانب ذلك لا بد أن نقف

عند أساليب الأدباء وتشكيلاتهم اللفظية وما تستوفى من قيم جمالية مختلفة ، ولا بد من المقارنة بين السابق واللاحق في التراث الأدبي العربي جميعه .

٣

تقسيمات تاريخ الأدب العربي وعصوره

أكثر من أرنخوا للأدب العربي وزعوا حديثهم في هذا التاريخ على خمسة عصور أساسية ، هي (١) عصر الجاهلية أو ما قبل الإسلام (٢) والعصر الإسلامي من ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠ م وهو العصر الذي تكونت فيه الدولة العربية وتمت الفتوح الإسلامية . ومن المؤرخين من يقسم هذا العصر قسمين ، فهو إلى نهاية عصر الخلفاء الراشدين يسمى عصر صدر الإسلام ، وما يليه إلى آخر الدولة الأموية يسمى العصر الأموي . (٣) والعصر الثالث هو عصر العباسيين أو العصر العباسي ويستمر إلى سقوط بغداد في يد التتار سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م. ويقسم بعض المؤرخين هذا العصر قسمين : العصر العباسي الأول ويمتد نحو مائة عام ، والعصر العباسي الثاني ويستقل ببقية العصر . ومن المؤرخين من يقسمه ثلاثة أقسام ، يبقى فيها على القسم الأول بنفس الاسم ، أما العصر العباسي الثاني فيقف به عند سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥ م وهي السنة التي استولى فيها بنو بويه على بغداد والتي أصبحت الخلافة العباسية منذ تاريخها اسمية فقط ، ويمتد العصر العباسي الثالث إلى استيلاء التتار على بغداد . وقد يقسم بعض المؤرخين هذا العصر العباسي الثالث قسمين ، فيقف بالقسم الأول عند دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ويستقل القسم الثاني أو العصر العباسي الرابع ببقية العصر . (٤) وباستيلاء التتار على بغداد يبدأ العصر الرابع ويستمر إلى نزول الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م (٥) ثم العصر الحديث الذي يمتد إلى أيامنا الحاضرة .

وسنبقى في كتابنا على العصرين الأولين ، أما العصر الثالث وهو العصر العباسي فسندخل عليه بعض التعديل ، وذلك أننا سنبقى على قسمين منه : عصر عباسي أول ينتهي بانتهاء خلافة الواثق سنة ٢٣٢ هـ ، وعصر عباسي ثان ينتهي باستيلاء

البويهيين على بغداد سنة ٣٣٤ هـ . ومن هذا التاريخ إلى نهاية العصور الوسطى نبتدىّ عصراً رابعاً نمده إلى العصر الحديث وهو عصر الدول والإمارات ، فقد تفككت أوصال الدولة العباسية وظهرت إمارات وخلافات ودول كثيرة كإمارات الفرس في إيران وما وراءها وسيف الدولة الحمداني في حلب والفاطميّين ثم الأيوبيّين والمماليك والعثمانيّين في مصر والأمويّين ثم ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين ومن خلفهم في الأندلس . وحرى أن يبحث الأدب العربي في هذا العصر الرابع ويؤرّخ في كل إقليم على حدة ، فيكون هناك جزء لإيران والعراق وجزء لمصر والشام والجزيرة العربية وجزء للأندلس وبلاد المغرب ، وقد ينمو البحث وتتولد أجزاء أخرى ، حتى إذا انتهينا من ذلك أرخنا للعصر الخامس وهو العصر الحديث وقسمناه بدوره أجزاء على البلاد العربية .

ولا أشك في أن هذا التقسيم الجديد لعصور الأدب العربي أكثر دقة ومطابقة لتطوره وللظروف المختلفة التي أثرت فيه فإن بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجري تحتل المكانة الأولى في الحركات الأدبية ، بل لقد نافستها في الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها في النهوض بالشعر والنثر تفوقاً واضحاً .

الفصل الأول الجزيرة العربية وتاريخها القديم

١

صفة الجزيرة العربية^(١)

تشغل جزيرة العرب الجنوب الغربى لآسيا ، وقد سماها أهلها جزيرة لأن الماء يدور بها من ثلاث جهات فى جنوبها وغربها وشرقها ، فهى شبه جزيرة ، وليس فى الأرض شبه جزيرة تضاهيها فى المساحة . ويرى علماء الجيولوجيا أنها كانت متصلة بإفريقية فى الزمن المتعمق فى القدم ، ثم فصلهما منخفض البحر الأحمر الذى يمتد فى غربها ، كما يرون أنه كان يغطى جزءاً منها فى العصر الجليدى مروج خضراء ، وكانت تجرى بها بعض أنهار ، ولا تزال تشهد عليها أودية جافة عميقة . ويطل عليها فى الجنوب المحيط الهندى وفى الشرق بحر عُمان وخليج العرب . وتترامى متوغلة فى الشمال على حدود فلسطين وسوريا غرباً والعراق وبلاد الجزيرة شرقاً .

وكان جغرافيو اليونان والرومان يقولون إنها ثلاثة أقسام : العربية الصحراوية والعربية الصخرية أو الحجرية والعربية السعيدة ، أما العربية الصحراوية فلم يعيّنوا حدودها ولكن يفهم من كلامهم أنهم كانوا يطلقونها على البادية الشمالية التى تصاقب بلاد الشام غرباً وتمتد شرقاً إلى العراق والحيرة . وكانت تقع فى شمالها مملكة تدمر التى حكمتها أسرة الزبّاء المشهورة . وأما العربية الصخرية فكانوا يطلقونها على شبه جزيرة سيناء والمرتفعات الجبلية المتصلة بها فى شمالى الحجاز وجنوبى البحر الميت ، وهى التى أقام فيها النبط مملكتهم واتخذوا مدينة سلع « بطرا »

٨٦ وما بعدها وكتاب تاريخ العرب (مطول)
لفيليب حتى (الترجمة العربية) ج ١ ص ١٥
وما بعدها وكتاب « قلب جزيرة العرب » لفؤاد حمزة

(١) انظر فى صفة الجزيرة العربية
كتب الجغرافية العربية و كتاب تاريخ العرب
قبل الإسلام لحواد على (طبع بغداد) ج ١ ص

حاضرة لهم ، وامتدت هذه المملكة في عهد الحارث الرابع أوائل القرن الأول للميلاد إلى دمشق ، غير أن الرومان استولوا عليها سنة ١٠٦ م . أما العربية السعيدة فكانت تشمل وسط الجزيرة وجنوبها ، أو بعبارة أخرى كل ما وراء القسمين الأول والثاني . وربما دل ذلك من بعض الوجوه على أن هذا القسم الثالث كان يدين بالولاء للدول الجنوبية مثل معين وسبأ .

ويقسم جغرافيو العرب الجزيرة إلى خمسة أقسام ، هي : تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن ، وتهامة هي المنطقة الساحلية الضيقة المطلة على بحر القلزم أو البحر الأحمر . وتسمى في الجنوب باسم تهامة اليمن ، وقد يبلغ عرضها في بعض الأماكن خمسين ميلا ، وكان العرب القدماء يسمونها الغور لانخفاض أرضها ، وهي أرض رملية شديدة الحرارة ، وقد قامت بها بعض المرافق والثغور مثل الحديدية في اليمن ومثل جدة وينبع في الحجاز . ويقع في شماليهما ثغر صغير يعرف باسم الوجه ، ويظن أنه كان ثغر مدينة الحِجْر المعروفة الآن باسم مدائن صالح . وفي جنوبي الوجه قرية الحوراء وربما كانت هي الموضع الذي أرسى فيه إليوس جالوس القائد الروماني بجيوشه سنة ٢٤ ق . م وهي الغزوة التي أراد بها أن يفتح بلاد اليمن وباءت بالفشل الذريع .

وتمتد في شرق تهامة سلسلة جبال السَّراة من الشمال إلى الجنوب فاصلة بينها وبين هضبة نجد ومؤلفة إقليم الحجاز المعروف ، وتكثر في هذا الإقليم الأودية والمناطق البركانية ، والخرّات وهي أراض رملية تعلوها قمم البراكين . وإذا وجدت في هذه الأراضى آبار وعيون آذنت بالخصب وقيام القرى الكبيرة مثل المدينة أو يثرب ووادي القرى في شماليها وهو يقع بينها وبين العُلا وكانت تسمى قديماً دادان . ومن مدن هذا الوادي قُرْح وكانت تقام بها سوق عظيمة في الجاهلية ومدينة الحِجْر أو مدائن صالح وقومه من ثمود . ونزل اليهود ببعض قرى هذا الوادي مثل خَيْبَر وفَدَك ، وامتدوا إلى تَيْمَاء في الشمال ويثرب في الجنوب . وكان ينزل في هذه الجهات قبل الإسلام قبائل عُدْرة وبلَسيّ وجُهَيْنَة ، وقُضاعة وكانت تمتد عشائرها إلى شبه جزيرة سيناء . وعثر المنقبون في وادي القرى على نقوش عربية جنوبية وأخرى شمالية كالثمودية واللّحيانية . وأهم مدن الحجاز مكة واسمها

عند بطليموس مكربا (Macoraba) وكانت قبل الإسلام تمسك بزمام القوافل المصعدة إلى البحر الأبيض والمنحدرة إلى المحيط الهندي، وكان بها الكعبة بيت أصنامهم حيثئذ فكان العرب يحجون إليها ويتجرون في أسواقها ويتعاونون ما يحتاجون إليه . وعلى بعد خمسة وسبعين ميلا إلى الجنوب الشرق من مكة تقع الطائف، وقد أقيمت على ظهر جبل غزوان، وتحف بها أودية وآبار كثيرة أتاح للمملكة النباتية أن تزدهر هناك من قديم ، وقد عُثِر فيها على نقوش ثمودية .

وينبسط الحجاز شرقاً في هضبة نجد الفسيحة التي تنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العروض وهي بلاد اليمامة والبحرين . ويسمى العرب جزءها المرتفع مما يلي الحجاز باسم العالية ، أما جزؤها المنخفض مما يلي العراق فيسمونه السافلة، بينما يسمون شرقها إلى اليمامة باسم الوشوم وشمالها إلى جبلى طي: أجاً وسلمى باسم القصيم، وهو عندهم الرمل الذي ينبت الغضا وهو ضرب من الأثل، وإليه يُنسَبُ أهل نجد فيسمون أهل الغضا. وشمال نجد صحراء النفود وهي تشغل مساحة واسعة ، إذ تبتدىء من واحة تيماء وتمتد شرقاً نحو ٣٠٠ ميل وتزخر بكثبان من الرمال الحمراء ، تتخللها مراعي فسيحة . وإذا اقتربت من العراق مدت ذراعاً لها نحو الجنوب، فتفصل بين نجد والبحرين متسمية باسم الدهناء أو رملة عالج وهي منازل قبيلتي تميم وضبة في الجاهلية والإسلام، حتى إذا أحاطت باليمامة انبطحت في الرُّبْع الخالي وهو صحراء واسعة قاحلة يظن أنها تبلغ نحو خمسين ألف ميل مربع، وهي تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين عُمان ومهرة والشَّحْر وحضرموت من جهة ثانية ، وتندمج فيها صحراء الأحقاف التي تمتد إلى الغرب فاصلة اليمن من نجد والحجاز . وهذه الصحارى التي تطوق نجداً في الشمال والشرق والجنوب قفار متسعة، وخيرها القسم الشمالى إذ تكسوه الأمطار في الشتاء حلة قشبية من النباتات والمراعى . ووراء هذا القسم في الشمال بادية الشام وهي كثيرة الأودية والواحات وبادية العراق أو بادية السماوة ، وواضح أنهما لا تعدان من نجد .

وتشمل العروض اليمامة والبحرين وما والاها. وعدَّ ياقوت في معجم البلدان اليمامة من نجد ، وكانت عند ظهور الإسلام عامرة بالقرى، مثل حِجْر وكانت حاضرتها ، ومثل سدوس ومنفوحة وبها قبر الأعشى ، ويقال إنها كانت موطن

قبيلتي طَسَم وجديس البائدتين . وقد عُثِرَ فيها على نقوش سبئية متأخرة . وتمتد البحرين من البصرة إلى عُمان وبها كانت تنزل قبيلة عبد القيس في الجاهلية ، وهي تشمل الآن الكويت والأحساء وجزر البحرين وقطر ، وتكثر في هذا الإقليم الآبار والمياه وخاصة في الأحساء ، ومن مدنه القديمة هَجَر وفي أمثالهم « كجالب التمر إلى هجر » ، والقَطِيف وكانت تسمى أيضاً الخطّ وإليها تنسب الرياح الخطية . وفي جنوبي البحرين عمان ومن مدنها صُحار ودُبا وكان بها سوق مشهورة في الجاهلية . وعُرف سكان هذه المنطقة من قديم بالملاحه واستخراج اللآلي .

أما القسم الخامس من الجزيرة وهو اليمن فيطلق على كل الجنوب ، فيشمل حضرموت ومهرة والشَّحَر ، وقد يطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وهو الإطلاق المشهور الآن . وتتألف اليمن من أقسام طبيعية ثلاثة : ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن وجبال موازية للساحل هي امتداد سلسلة جبال السراة ثم هضبة تفضي إلى نجد ورمال الربع الخالي ، وبها كثير من الأودية والسهول والثمار والزروع بفضل أمطار الرياح الموسمية الغزيرة وقد وصفها القرآن الكريم بأنها « جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ » . وأتاح ذلك لسكانها أن يقيموا فيها دولا وحضارة منذ أواخر الألف الثاني قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادي . ويسمى قسمها الشمالي المجاور للحجاز باسم عَسِير ، وكانت تنزله قبيلة بَـجِيلَة في الجاهلية ومن أشهر مدن اليمن زَبِيد وظَفَّار وصنعاء وعدن ونَجْرَان . ومن أشهر وديانها تَبَالَة وبَيْشَة وكانت به مأسدة . وتمتد شرقي اليمن حضرموت على ساحل بحر العرب ، وإقليم مهرة ، والشَّحَر ومعناه في اللغة الجنوبية الساحل ، وتنمو في جباله أشجار الكُنْدُر وهو اللُّبَان الذي اشتهر به جنوبي بلاد العرب في الجاهلية .

ومناخ الجزيرة في جملته حار شديد الحرارة ، وتكثر في نجد رياح السموم التي تهب صيفاً ، فتشوى الوجوه شيئاً ، وألطف رياحها الرياح الشرقية ويسمونها الصَّبَا ، وأكثر شعراؤهم من ذكرها . أما ريح الشمال فباردة وخاصة في الشرق إذ تتحول إلى صقيع في كثير من الأحيان . والأمطار عامة قليلة إلا في الجنوب حيث تهطل أمطار الرياح الموسمية في الصيف ، وإلا في الشمال الغربي حيث تهطل أمطار الرياح الغربية شتاء . وكثيراً ما يتحول المطر إلى سيول جارفة في اليمن وشمال الحجاز ؛ وقد

وصف امرؤ القيس في معلقته سيلاً جارفاً حدث بالقرب من تيماء حيث
 سكنت منازل بني أسد . وتقل الأمطار في الداخل ولقمتها سموها غيثاً وحيّاً (من
 الحياة) واستنزلها الشعراء على ديار معشوقاتهم وقبور موتاهم . ومتى احتبست الأمطار
 جفت الأرض وأجذبت وحلّ الهلاك والفناء على القطعان والرّعاء . ولطول ما كان
 يحدث لهم من ذلك سموا الجذب سنة ، فيقولون : أصابتنا سنة أتت على الأخضر
 واليابس . ومن أجل ذلك كثرت عندهم الرحلة في طلب العُشب والكلأ ، فترحل
 القبيلة بإبلها وأغنامها إلى مراعي جديدة . وليس في الجزيرة بحيرات إلا ما يقال من
 أن هناك بحيرة مالحة في الرّبع الحالى ، وليس بها كذلك غابات ولا أنهار جارية .

وفي الجنوب والشرق وقرى الحجاز واليمامة تكثر الزروع والثمار وتتناثر بعض
 الفواكه ، وقد اشتهرت اليمن وما والاها قديماً بأشجار اللبان والطيب والبخور ،
 كما اشتهرت حديثاً بأشجار البن ، وتشتهر الطائف بالكروم ، ولم يكونوا يعتمدون
 عليها وحدها في الخمر بل كانوا يعتمدون أيضاً على مدن الشام . والنخلة أهم
 الأشجار في الجزيرة كلها . ويتردد على ألسنة شعراء نجد ذكر طائفة من الأزهار على
 رأسها العرار والمخزّامى وطائفة من الأشجار على رأسها الغضا والأثل والأرطى
 والسّدر (الطلح) والحنظل والضّال والسّلم .

أما الحيوان فقد صور شعراؤهم كثيراً من ألبه مثل الخيل والإبل والأغنام
 ووحشيه مثل الأوعال والظباء والنعام والغزال والزراف وحمار الوحش وأتّنه وثور
 الوحش وبقرة ومثل الأسد والضبع والذئب والفهد والنمر . ودارت الطيور الجارحة
 على ألسنتهم مثل الحداة والصقر والنسر والغراب ، وقلما وصفوا منها دون أن يذكروا
 القُطا وهو يشبه الحمام . وذكروا كثيراً الجراد ، وتحدثوا عن النّحل واشتهرت به
 هذيل التي كانت تعنى ببيوته وخلاياه . ومن زواحفهم الثعبان والعقرب والورل
 والضب ، وفي أمثالهم : « أعقد من ذنب الضب » .

الساميون^(١)

تطلق كلمة الساميين على مجموعة من الشعوب في الشرق الأوسط دلت القرابة بين لغاتها على أنها كانت في الأصل تتكلم بلهجات متقاربة تطورت إلى لغات سميت جميعاً باسم السامية أخذاً من اسم سام بن نوح الذي ورد ذكره في التوراة، وهي تسمية اصطلاحية ، فليس هناك أمة تسمى بالأمة السامية إنما هناك صلات لغوية بين طائفة من اللغات تدل على أنها ترجع إلى أصل لغوي واحد ، إذ تتشابه في أصول أفعالها وأزمانها وفي كثير من أصول الكلمات والضمائر والأعداد . وقد قسمها علماء اللغات إلى شمالية وجنوبية وقسموا الشمالية إلى شرقية وغربية ، أما الشرقية فاللغة الأكديّة (البابلية والآشورية) وأما الغربية فاللغة الأوجريّة (لغة نقوش رأس شمرا) والكنعانية (الفينيقية والعبرية والمؤابية) ثم الآرامية . وقسموا الجنوبية إلى عربية شمالية وهي الفصحى وعربية جنوبية وهي لغة بلاد اليمن وما والاها في الزمن القديم ، ثم الحبشية .

وتساءل العلماء عن المهد الأصلي لأسلاف الناطقين بهذه اللغات السامية المختلفة ، وتعددت إجاباتهم في هذا الصدد ، فمن قائل إنهم نشأوا مع الحاميين في موطن واحد ، لعله في شمالي إفريقيا أو في ناحية الصومال ، ومنه هاجر الساميون إلى بلاد العرب عن طريق باب المندب أو عن طريق شبه جزيرة سيناء ، ومن قائل إنهم نشأوا مع الآريين في أواسط آسيا أو في أرمينية ، ومن قائل إنهم نشأوا في شمالي سوريا ، ومن قائل إنهم نشأوا فيما بين النهرين . ومهما يكن المهد القديم لأصل نشأتهم الذي يتعمق في عصور ما قبل التاريخ فإن الباحثين يتفقون على أن موطنهم في العصور التاريخية هو الجزيرة العربية ، فقد نزلوا بها واستقروا فيها

تاريخ الحضارات القديمة لطف باقر (الطبعة الثانية) ج ١ ص ١١٥ وما بعدها و ج ٢ ص ٢٣٢ - ٣٠٦ .

(١) راجع في الساميين وموطنهم الأول وأسرم تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ج ١ ص ١٤٨ وما بعدها وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ج ١ ص ٨ وما بعدها ومقدمة في

وعاشوا حياة مشتركة اكتسبوا خلالها هذا التشابه في لغاتهم .

ودفعهم جَدُّب الجزيرة ونخصب ما حوطا من العراق والشام واليمن إلى الهجرة في موجات يتلو بعضها بعضاً في فترات متباعدة وكأنما كانت الجزيرة تشبه خزاناً كبيراً يفيض على ما حوله في الحين بعد الحين . وأول موجة فاضت من هذا الخزان موجة الأكديين (البابليين والأشوريين) خرجت من الجزيرة إلى العراق في أواخر الألف الرابع ق . م وأوائل الثالث فوجدت هناك السومريين وقد عاشوا مدة تحت حكمهم ، تأثروا فيها بلغتهم ودينهم وعاداتهم وكل ما سبقوهم إليه في الحضارة والعمران . ولا نغضى طويلاً في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م حتى نجدهم يقيمون مملكة لهم يتخذون حاضرتها مدينة أگد كان أهم ملوكها سرجون الأول (في حدود ٢٣٥٠ ق.م) الذي مد فتوحه حتى وسعت دولته العراق والجزيرة والشام ، فكانت تلك أول دولة سامية عُرِفَت في الشرق الأوسط . ولم تلبث أن انهارت ، فقامت على أنقاضها دويلات مستقلة ، وتقدمت دولة بابل في أوائل الألف الثاني ق . م فأعادت الأمور إلى نصابها ، ومن أشهر ملوكها حمورابي الذي تولى الملك في القرن الثامن عشر ق.م وكان سياسياً ومشرعاً عظيماً ، واشتهر بين المؤرخين بمسلته التي سجل عليها في ثلاثمائة سطر شريعته ، وهي تصور تصويراً دقيقاً القانون البابلي القديم . وامتازت هذه الدولة بشخصية سامية حية ، فقد ازدهر القانون في عهدها وازدهر الأدب بفرعيه من الشعر والقصاص . على أننا لا نغضى طويلاً حتى نفد أمم غير سامية من الشرق — هم الكشيون — فتخرَّب بابل ؛ ولا يلبث الحيثيون وهم من أمم آسيا الصغرى أن يقضوا عليها في أوائل القرن السادس عشر ق.م . وبينما كانت بابل تعاني من الكشيين والحيثيين كان إخوانهم الذين هاجروا معهم من الجزيرة العربية ويمموا نحو الشمال فيما بين النهرين وهم الآشوريون ينهضون ، ومعنى ذلك أنهم من نفس الموجة الأكديّة . وتاريخهم يتضح منذ القرن الرابع عشر ق.م وقد اتخذوا نينوى في بعض عصورهم حاضرة لهم ، وكانت دولتهم حربية عسكرية ، واستعمروا الشام وآسيا الصغرى واستولوا على بابل وحاربوا مصر ، ولغتهم الآشورية تخالف البابلية في بعض خصائصها ، وقد ازدهرت في عهدهم علوم الطب والفلك والرياضيات كما ازدهرت فنون الأدب . ولا نصل إلى القرن السابع ق.م

حتى تنهكهم حروبهم ، ويهجم عليهم الميديون من هضبة إيران ، ويستولوا على حاضرتهم نينوى . فتستقل عنهم بابل وتقوم بها الدولة البابلية الحديثة أو دولة الكلدانين (٦٢٦ — ٥٣٨ ق.م) الذين اشتهروا بإتقانهم لعلم الفلك كما اشتهر ملكهم بختنصر بتخريبه لبيت المقدس . وسرعان ما يقضى عليهم الفرس بقيادة كورش سنة ٥٣٨ ق.م ويخضعون لدولتهم المعروفة بالكيانية . ويدور الزمن دورة وإذا الإسكندر المقدوني في القرن الرابع ق . م يستولى على الشرق الأوسط ، وبذلك ينتهى تاريخ هذه الموجة السامية القديمة موجة الأكديين من بابليين وأشوريين .

والموجة السامية الثانية التى خرجت من الجزيرة العربية هى موجة الكنعانيين ، وقد بدأت فى خروجها منذ أوائل الألف الثانى ق. م ويممت الشام وسواحل البحر الأبيض الشرقية ، وأسست هناك مدناً تجارية مثل صيدا وصور وجبيل وبيروت . وكان اليونان يسمون أهل السواحل من هذه الموجة باسم الفينيقيين ، وقد أسسوا لهم مستعمرات فى إفريقية وآسيا الصغرى والأندلس وهم الذين اخترعوا الخط الأبجدى وعندهم انتشر فى العالم . ومن هذه الموجة الأوجريتيون الذين تغلغلوا فى شمالى سوريا وقد وصلتنا عنهم نقوش رأس شمرا فى شمالى اللاذقية وفيها شعر وحكم . ومن هذه الموجة أيضاً المؤابيون الذين استقروا فى شرق الأردن وأسسوا به مملكة فى القرن العاشر ق . م ، وكذلك منها العبريون الذين استقروا فى فلسطين منذ القرن الثالث عشر ق.م وقد استولى الآشوريون على مملكتهم الشمالية فى القرن السابع ق.م. وهدم بختنصر ملك بابل حاضرتهم أورشليم فى القرن السادس ق.م وأجلى سكانها إلى بابل . ولا تلبث الآرامية أن تغلب على لغتهم ، إلا أنهم ظلوا يحافظون عليها فى تعاليمهم الدينية وفى بعض كتاباتهم .

والآراميون هم ثالث الموجات السامية الكبيرة التى خرجت من الجزيرة العربية قبل الميلاد ، وقد بدأ خروجهم منذ منتصف الألف الثانى ق.م. والمظنون أنهم كانوا بدواً رحلاً يتنقلون شمالى صحراء النفود فى باديتى الشام والعراق ويتغلغلون إلى خليج العقبة غرباً وجنوبى الفرات شرقاً . وقد استطاعوا أن يكوّنوا لهم إمارة بين بابل والخليج العربى ، عرفت باسم كلد ومنها أخذ اسم الكلدانين . ونراهم فى القرن الثالث عشر ق.م ينزحون إلى أراضى الرافدين دجلة والفرات فى الشمال ، ويعرف

هؤلاء النازحون باسم آرام النهرين . ولا نلبث أن نراهم في القرنين الحادى عشر والعاشر ق.م يبلغون أوج قوتهم فيغيرون على شمالى الشام ويكثرون به دويلات صغيرة بين حلب وجبال طوروس ، وقد استولوا على دمشق وأسسوا بها مملكة اشتبكت فى حروب طويلة مع الفينيقيين والعبريين . وكان لها دور مهم فى شئون التجارة فقد كانت قوافلها الصلة بين العراق والشام وآسيا الصغرى ، وكانت تلتقى فى شمالى الحجاز بقوافل اليمن وقوافل النوبيين من الحجازيين . وظلت للآراميين هذه الأهمية التجارية بعد سقوط دويلاتهم ، فإنها سرعان ما سقطت إذ لم تكن تجمعها وحدة سياسية تشد من أزرها أمام هجمات الآشوريين ، ففقدوا عليها واحدة بعد أخرى . وقد أخذوا عن الفينيقيين أبجديتهم بسبب اختلاطهم بهم فى التجارة وكتبوا بها لغتهم . ولما سقطت دويلاتهم تفرقوا فى ممالك غربى آسيا ، فكان ذلك سبباً فى انتشار لغتهم وثقافتهم وحضارتهم ، إذ وجدت أمم العراق وإيران سهولة فى أبجديتهم ، مما جعل الدولة الكيانية تتخذها إحدى لغاتها الرسمية ، وقد أصبحت اللغة اليومية للآشوريين والبابليين والعبريين والفينيقيين ، وربما كان من الأسباب المهمة فى ذلك سهولة نحوها بالإضافة إلى سهولة أبجديتها . وتقوم الحرب بين الفرس والروم ويتخذون من بلادهم ميداناً لها ، فيتأثرون بحضارتيهما ، وبذلك أصبحوا ورثة الحضارات القديمة فى هذا المحيط : الحضارة الفارسية والرومانية والبابلية والآشورية والفينيقية . وقد كتبت الأناجيل بالآرامية إذ كان يستخدمها حواريو المسيح كما كتبت بها معظم المؤلفات الدينية للكنائس الشرقية ، ولها لهجات عدة ، أهمها اللغة السريانية التى كانت منتشرة فيما بين النهرين ، وقد اتخذتها المسيحية لغة أدبية لها ، وهى اللغة التى كان يدرس بها الطب والعلوم الطبيعية بجانب اليونانية فى مدارس الرُّها فيما بين النهرين ومدرسة جنديسابور الفارسية وغيرهما . ومن لهجاتها أيضاً لهجة الصابئة فيما بين النهرين . وقد ظلت بلهجاتها المختلفة لغة حية فى الشرق الأوسط إلى أن جاء الإسلام فقضت عليها وعلى لهجاتها لغة القرآن الكريم ، وإن ظلت معروفة فى بعض البيئات .

والموجة السامية الأخيرة هى موجة العرب الجنوبيين وما تفرع عنها من موجة حبشية ، وقد بدأت فى أواخر الألف الثانى ق.م متجهة إلى الجنوب وساحل المحيط

الهندي . ويظهر أن جماعات ممن نزلت في تهامة اليمن هاجرت إلى السواحل الإفريقية ، بقصد التجارة وتغلغت في هضبة الحبشة وكونت هناك مملكة ، نشبت بينها وبين العرب الجنوبيين سلسلة من الحروب انتهت بقضائها على دولتهم في سنة ٥٢٥ م . وقد اعتنق حكامها المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي .

٣

العرب الجنوبيون^(١)

تقسم الظروف الطبيعية بلاد العرب قسمين كبيرين ، تفصل بينهما صحراوات واسعة ، تجعل حياة كل منهما تختلف عن الأخرى . فبينما تحضر الجنوبيون كان الشماليون في الحجاز ونجد يعيشون معيشة بدوية ، إذ كانوا في الحملة بدواً رُحَّلًا ينتقلون وراء مساقط الغيث ومواضع العُشْب والكَلأ. ونشأت عن ذلك فروق واسعة بين القسمين المتناقضين فبينما ظل الشماليون يحيون في الغالب حياة بدوية إلا ما تسرب إليهم من الحضارات الأجنبية المجاورة في العراق والشام نهض الجنوبيون بحضارة لا تزال حصونها وهياكلها وقلاعها وأبراجها قائمة لم تندثر اندثاراً تاماً . وقد استطاعوا أن يَشِيدُوا سَدَّ مَأْرَبٍ لحبس الماء في فصل الأمطار ، مما يدل على أنه كان لديهم نظام محكم لتدبير شئون الزراعة وتوزيع المياه ، فقد أقاموا السدود والصحاريج ، وكانت أرضهم مهياة لتزدهر فيها حياة نباتات وأشجار واسعة بفضل مياه الأمطار الموسمية وطرق الرى الصناعية . ونشأت بينهم وبين بلاد العراق والشام ومصر علاقات تجارية واسعة فقد كانت قوافلهم تجوب الصحراء العربية شرقاً وشمالاً منذ الألف الثاني ق . م تحمل توابل الهند ورقيق إفريقيا وأفوايه اليمن وعروضها من اللبان والطيب والبخور وتعود محمَّلة بعروض البلاد التي تتجر فيها .

وكان المعروف عن هؤلاء العرب الجنوبيين قليلاً ، فهو لا يتجاوز إشارات

المستشرقين ترجمة فؤاد حسنين على (نشر
وزارة التربية والتعليم) وانظر تاريخ العرب
قبل الإسلام لحواد على ٢٧٥/١ ، ٨/٢ -
٢٧٦ ، ١٣٦/٣ - ٢١٤ .

(١) انظر في أصل تسمية العرب باسمهم
كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد على
١٦٩/١ وراجع في تاريخ العرب الجنوبيين
كتاب التاريخ العربي القديم لطائفة من

وردت عنهم في العهد القديم وفي بعض الآثار المصرية والبابلية والآشورية وفي كتابات المؤرخين والجغرافيين من اليونانيين والرومانيين ، ثم ما كتبه العرب عنهم بعد الإسلام ، وتختلط به الأساطير . وظل تاريخهم غير واضح إلى أواسط القرن الماضي ، فقد جد علماء الغرب في قراءة نقوشهم المنتشرة على الأبراج والهياكل والنُصُب والأحجار ، وهي مكتوبة بخط يسمى الخط المَسْنَد ، وهو خط سامي قديم ، وقد عرف هؤلاء العلماء اللغة التي كتبت به ولهجاتها ، فهي لغة سامية قريبة من الحبشية والعربية الشمالية ، انبثقت فيها لهجتان أساسيتان هما المعينية والسبئية .

ومن هذه النقوش استطاع الباحثون أن يعرفوا الحضارة العربية الجنوبية بدياناتها وآلهتها وأنظمتها الحكومية ودولها وملوكها ، واستقر بينهم أنه كانت هناك خمس ممالك هي مملكة معين وكانت حاضرتها معين في الجوف اليمنى ثم مملكة سبأ في جنوبها وعاصمتها مأرب ، ومملكة قتبان في الجنوب الغربي لسبأ وعاصمتها تَمَنَع ، والمملكة الأوسانية جنوب قتبان ، ثم مملكة حضرموت وحاضرتها شبوة . ويظهر أنه كان للمعنيين دولة قوية منذ القرن الثاني عشر ق.م وقد سيطروا على القتبانيين والحضرميين ، أو بعبارة أدق سيطروا على طريق القوافل التجارية لا في الجنوب فحسب ، بل أيضاً على طول الطريق إلى الشمال ، فقد وجدت نقوش معينة في شمالي الحجاز بدادان في منطقة العلا الحالية وفي الحِجْر أو مدائن صالح ، مما يدل على أنهم أنشأوا في هذه الجهات مراكز لقوافلهم التجارية كي تحميها ، وأغلب الظن أنه كان لهم بها حاميات نزلت بها بعض عشائرتهم . ومع مرور الزمن غلبت عليهم طوابع العرب الشماليين . فكاتبوا بذلك أول من حمل الحضارة الجنوبية إلى إخوانهم في الشمال .

ولا نصل إلى القرن السابع ق.م. حتى يغلب السبثيون على المعينين ويمدوا سلطانهم بعد ذلك على الاتحاد الجنوبي كله ، كما يمدونه على مراكز المعينيين في الشمال ، وقد تحولت إلى أيديهم أزمة القوافل التجارية ، واتخذوا مأرب حاضرة لهم ، وقصة سدّها وخرابه مشهورة ، وكذلك قصة ملكتها بلقيس مع سليمان عليه السلام . وحدث حوالي سنة ٢٧٠ ق.م أن أنشأ بطليموس الثاني أسطولا بحرياً في البحر الأحمر يحمل إلى مصر عُرُوض الهند وإفريقية الشرقية فأحدث ذلك اضطراباً في

شئون السبثيين الاقتصادية، ونازعهم ملوك ريدان أصحاب ظفار وغلبوا عليهم وعلى الدول الجنوبية منذ سنة ١١٥ ق.م. وكانوا يتلقبون باسم ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات ، وهم الحميريون . ودولتهم آخر الدول العربية الجنوبية ، ولا نصل إلى سنة ٢٤ ق.م حتى نجد إليوس جالوس وإلى الرومان على مصر يجهز حملة كبيرة لفتح بلاد الحميريين والاستيلاء على ما بأيديهم من مفاتيح تجارة التوابل والأفاويه ، وفشلت حملته فشلاً ذريعاً . غير أن الرومان اتجهوا إلى الملاحة في البحر الأحمر، ويقال إنهم استولوا على ميناء عدن واتخذوها قاعدة لتموين سفنهم، فشلوا بذلك تجارة الحميريين وساءت أحوالهم الاقتصادية، فأهملوا شؤونهم العمرانية، وأخذ الخراب يدب في البلاد ، وظهر لهم خصم ثان هو ملوك الحبشة الذين حاربوهم واستولوا على بلادهم في منتصف القرن الرابع الميلادي وظلوا بها نحو عشرين عاماً ، عادت بعدها الدولة الحميرية ، ولكنها لم تعد إلى سابق قوتها ، فإن القبائل الشمالية أخذت تُغير عليها كما أخذ كثير من عشائرها يهاجر إلى الشمال . وفي نقوشهم ما يدل على أن الأعراب نزلوا بديارهم منذ القرن الرابع الميلادي واستقروا فيها ، وقد أخذت لغتهم تتغلب في بعض الجهات على لغة البلاد الأصلية كما أن من هاجر من عرب الجنوب إلى الشمال غلبت عليه لغة الشماليين ، مما أهدأ لانتصار العربية الشمالية على العربية الجنوبية في أواخر العصر الجاهلي .

وفي هذه الأثناء تغلغت اليهودية في الجزيرة العربية منذ اضطهد أباطرة الرومان اليهود في القرن الأول للميلاد ، واندفعت بعثات دينية مسيحية إلى الجنوب ، واعتنقت مدينة نجران في القرن الخامس هذا الدين الجديد ، وربما كان السبب في هذه البعثات المنافسة الشديدة بين فارس وبيزنطة . وأفرع ملوك حمير تغلغل النصرانية في ديارهم ، خوفاً من تحولها إلى البيزنطيين ، فناهضوها وأيضاً فإنهم كانوا يخافون من ملوك الحبشة المسيحيين أن يدخلوا عن طريقها بلادهم . ونشب هناك صراع حاد بين اليهودية والنصرانية ، ولا نلبث أن نرى ذا نواس آخر الملوك الحميريين يعتنق اليهودية ويحاول القضاء على المسيحيين في نجران ، فأوعزت بيزنطة إلى النجاشي أن يغزو اليمن ، فغزاها سنة ٥٢٥ واستولى عليها وضمها إلى بلاده . وظل هذا الاحتلال الحبشي نحو خمسين عاماً، ثارت فيها اليمن ثورات عنيفة ، وأخيراً استنجد

أهلها بالفرس أعداء بيزنطة ، فردوا الأحباش وظلوا بها حتى سنة ٦٢٨ م إذ اعتنقوا باذان عاملهم الإسلام . وبذلك ينتهى التاريخ القديم للعرب الجنوبيين .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن عرب الجنوب لعبوا دوراً واسعاً فى تاريخ الحضارة العربية القديمة ، وكانت حضارتهم عربية صافية لم تأت منهم من الخارج ، بل نمت وتطورت فى الداخل ، إذ كان لهم قوانينهم وأنظمتهم وديانيرهم ، وكان لهم قدام راسخة فى عمارة القصور والهياكل وتشيد السدود . وكانوا يؤمنون بالسيارات الفلكية والنجوم ، وأثرت ديانتهم الوثنية فى العرب الشماليين إذ يُظن أنهم أخذوا عنهم — كما أخذوا عن الآراميين — عبادة الكواكب ، وكانت تقوم على أساس ثلاث هو القمر واسمه عند المعينيين ود ، وكان إلههم الأكبر ، وتليه الشمس التى اعتبروها زوجها وهى اللات ، ومنهما ولد عثر أو العزى أى الزهرة أو فينوس . وبجانب هذا الثلاث كان عندهم آلهة أخرى ترمز لبعض النجوم أو بعض الطير أو بعض مظاهر الطبيعة ، وكانوا يقدمون لها القرابين ويبنون الهياكل ويقوم عليها كهنة ذوو نفوذ كبير . ويظهر أنه كان لهم أدب دينى كثير ، إلا أن الإسلام قضى عليه كما قضى على الأدب الوثنى فى الشمال . وقد حملوا مع قوافلهم وهجراتهم دينهم وحضارتهم إلى العرب الشماليين ، فأثروا فيهم أثراً بعيدة . وظلوا حتى ظهور الإسلام يشكلون عنصراً مابيناً لهم ، على الأقل من حيث النسب ، فكانوا يدعون القحطانيين أو اليمنيين ، بينما دعى عرب الشمال باسم العدنانيين أو النزاريين . ويلاحظ أن قبائلهم المهاجرة اختارت فى الأكثر جوار الأمم المتحضرة ، فنزلت غسان وقضاعة ومن إليهما فى الشام ونزلت لخم فى العراق . ومنهم من نزل فى داخل الجزيرة وأظهر ميلاً إلى التحضر والاستقرار كالأوس والخزرج فى المدينة وكندة فى الشمال . على أن من تم منهم اندماجهم فى البدو تلاشت فيه هذه النزعة مثل طي فى جبلى أجأ وسلمى . ومن يتعقب القبائل القحطانية فى الإسلام يرى أنها كانت تحترم النظام المطلق ، بينما كان يمحتم النزاريون .

العرب الشماليون^(١)

هم العرب العدنانيون الذين كانوا يسكنون في الحجاز ونجد وتمتد عشائرتهم وقبائلهم إلى باديتي الشام والعراق ، وقد ظلوا يعيشون معيشة صحراوية بدوية تعتمد في أكثر الأحيان على رعى الإبل والأغنام . ولم تهبط لهم هذه الحياة الاستقرار في سكنى دائمة ، إلا حيث توجد بعض الواحات في الحجاز . ويظهر أنهم أنشأوا في بعض الأزمنة مملكة لهم بالحبوف (دومة الجندل) في أقصى الشمال بين العراق والشام ، وقد خضعت لنفوذ الآشوريين إذ نرى ملوكهم يفخرون بالانتصار عليها . كما نراهم يفخرون بالانتصار على الثموديين في شمالي الحجاز حيث كانوا يقيمون في العُلا والحجر (مدائن صالح) . وقد اتخذ نابونيد آخر ملوك دولة بابل الثانية أو الحديثة تيماء حاضرة له من سنة ٥٥٠ إلى سنة ٥٤٥ ق.م مما يدل على أنه كان بها حضارة زاهية .

وكل الدلائل تدل على أن العرب الشماليين لم يتجمعوا قبل الميلاد في وحدة سياسية تجمع شملهم ، فقد كانت طبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق والانقسام ، ولم يهتدوا في أثناء ذلك بهدى كهدى الإسلام يجمع كلمتهم ويؤلف بينهم ، ويجعل منهم دولة واحدة ، تلعب دوراً واضحاً في التاريخ القديم . وقد كشفت نقوش آرامية في تيماء الواقعة شمالي مدائن صالح تدل على أنه قام ، فيها مستعمرة آرامية تجارية في القرن الخامس ق.م . وكان للمعنيين مستعمرة في ناحية « العُلا » شمالي الحجاز ، كشفت فيها نقوش معينة كثيرة ، وكانت تسمى معين مُصْران ، وكان سكانها من عرب الجنوب ، وقد نقلوا إليها عباداتهم وهياكلهم المقدسة ، وما زالوا ناشطين في التجارة ، حتى نشأت دولة النبط في سلع «بطرا» ، فكانت هي التي تنقل تجارة الجنوبيين إلى الشام ومصر ، حتى إذا دالت دولتهم في مستهل القرن الثاني الميلادي حملها اللحيانيون الذين كانوا ينزلون في دادان (العُلا الحالية) .

٣٧٤ ، ٢٧٧/٢ وما بعدها ، ٥/٣ وما بعدها ،
٤٢٣/٣ وما بعدها .

(١) انظر في تاريخ العرب الشماليين كتاب
تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ١/٢٢٠ -

واللحيانيون عرب شماليون ، كتبوا نقوشهم بالخط المعيني المسند مما يدل على أثر الجنوبيين فيهم ، ولعلمهم كانوا يختلطون بقوم منهم ، وقد كتب النموديون ، الذين كانوا يقيمون هم أيضاً في شمالي الحجاز وكانوا عرباً مثلهم ، بهذا الخط الجنوبي ، الذي انتشر إلى منازل العرب في الصفا بحوران جنوبي دمشق ، مما يؤكد علاقة وثيقة بين هذه الأجزاء وعرب الجنوب حين كانوا يسيطرون على طريق القوافل التجارية من القرن الثامن إلى القرن الثالث ق.م وهو القرن الذي قامت فيه إمارة عربية في شمالي الجزيرة هي إمارة النبط ، فقد كان أهل هذه الإمارة يأخذون عن الجنوبيين تجارتهم ويحملونها بدورهم إلى الشام ومصر ، واتخذوا « بطرا » حاضرة لهم ، هكذا ورد اسمها عند اليونان ولعله ترجمة لاسمها الذي جاء في التوراة وهو « سلع » ، وكانت الحِجْر (مدائن صالح) حاضرتهم في الجنوب بينما كانت بُصْرَى حاضرتهم في الشمال . ويظهر أن قبائل من هؤلاء النبط كانت قد سبقت إلى الإغارة على بلاد الآراميين شمالاً ، فتحضرت بحضارتهم واستخدمت كتابتهم الآرامية في نقوشها ، بينما ظلت تتكلم العربية في أحاديثها اليومية . وبذلك نلتقي عند هؤلاء النبط بنقوش عربية كتبت بالخط الآرامي على نحو ما التقينا عند اللحيانيين والتموديين بنقوش عربية كتبت بالخط المعيني المسند ، غير أن الخط الآرامي هو الذي انتصر فقد تطورت نقوشه حتى انتهت إلى الخط العربي الذي أشاعه الإسلام .

والمظنون أن الأنباط لم ينتزحوا من نجد إلى شمالي الحجاز ، بل نزحوا من بادية الشام ، واستطاعوا أن ينهضوا بحضارة راقية لا تزال تدل عليها آثارهم في بطرا حاضرتهم الكبيرة . وقد ظلت دولتهم نحو أربعة قرون ، من القرن الثالث ق.م. إلى أوائل القرن الثاني الميلادي ، وكانت العلاقة بينهم وبين البطالسة ثم بينهم وبين الرومان حسنة ، إذ حالفهم ولم يتعرضوا لاستقلالهم حتى كانت الفتنة اليهودية على عهد طيطوس ، ففرض الرومان على استقلالهم وضموا بلادهم إلى دولتهم الرومانية سنة ١٠٦ للميلاد .

وعاد العرب الشماليون إلى الظهور في مملكة تدمر شمالي بادية الشام في أثناء القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، وكانت السيادة فيها لهم ، غير أن السكان كان

أكثرهم من الآراميين . ووقفت تدمر صامدة خلال المنافسة الشديدة بين روما والفرس لحطة حياد التزمته ، زادت في قوتها ومنعتها ، وأصبحت من أهم المراكز التجارية . وبلغ من علو شأنها أن استولى ملكها أذينة على سوريا كلها واعترف به الرومان إمبراطوراً على المشرق ، إلا أنهم عادوا فنكسروا عهودهم في عهد زنوبيا (الزباء) إذ حاربوها وقضوا عليها سنة ٢٧٣ م ودمروا تدمر فلم تقم لها بعد ذلك قائمة . وظلت سيرة هذه الملكة وأبيها أذينة في ذاكرة العرب إلى ما بعد الإسلام ، وإن شابها الأسطورة وبعدت عن أساسها التاريخي الصحيح .

٥

النقوش ونشأة الكتابة العربية^(١)

لا يكاد يخلو حَجَرٌ في جنوب الجزيرة العربية وقلبها وشمالها من نقش تذكارى نقشه كتاب محترفون أو غير محترفين من الرعاة ورجال القوافل ، يذكرون فيه أسماء آلهم متضرعين إليها أن تحميهم ، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قربان ، وقد يكتبونها على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء عشائرتهم وما قام به الميت من أعمال وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم .

ولا تخلو ديار أمة سامية من هذه النقوش التي أتاحت لعلماء الساميات اكتشاف تاريخ هذه الأمم من جهة وقيام دراسة اللغات السامية وخصائصها ومعرفتها تطورها ومقارنتها بغيرها من أخواتها من جهة ثانية . وبذلك وقفوا وقفاً دقيقاً على حقائق هذه اللغات وحضارات أهلها وثقافتهم ودياناتهم وكل ما اتصل بهم من رقى وتطور على مر العصور والأزمان .

ص ٤٢٣ وما بعدها ، ج ٧ ص ٣٦ وما بعدها
وكتاب تاريخ الأدب العربى لبلاشير (ترجمة
إبراهيم الكيلاني - طبع دمشق) ج ١ ص ٧٠
وما بعدها .

(١) انظر هنا كتاب أصل الخط العربى
وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام لتحليل يحيى
نامى (بحث فى مجلة كلية الآداب المجلد الثالث ،
العدد الأول) وكتاب تاريخ العرب قبل
الإسلام لجواد على ج ١ ص ١٠ و ج ٣

وقد عُرِف الأكديون في العراق بخطهم المسماري أو الإسفيني ، بينما عرف عرب الجنوب بخطهم المسند ، ومنه نشأ الخط الحبشي وخطوط اللهجات العربية الشمالية القديمة وهي اللحيانية والثمودية والصفوية . واللحيانيون — كما قدمنا — قبيلة عربية شمالية ، كانت تسكن في منطقة العلا ، ونراهم يستعملون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل ، وقد اختلف في تاريخهم ، فمن الباحثين من يرجعهم إلى القرون الأولى ق.م ومنهم من يتأخر بهم إلى ما بعد الميلاد ، بل منهم من يتأخر بهم إلى القرن الخامس إذ ضعفوا وتلاشوا في قبيلة هذيل . وعدّهم الهمداني من بقايا جرهم ، ولعله يشير بذلك إلى صلتهم باليمنيين ويظهر أنهم كانوا يدينون لهم بالولاء . أما الثموديون فيعود تاريخهم إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون ، وقد عاشوا إلى ما بعد الميلاد وكانت منازلهم كما مرّ بنا في الحجر (مدائن صالح) وحولها ، ويظهر أنهم أصيبوا بكارثة عظيمة ، فثارت بهم بعض الزلازل أو بعض البراكين ، وفي القرآن الكريم « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » . وقد خلّفوا كثيراً من النقوش كتبوها بالخط المسند المعيني . وهم مثل اللحيانيين والصفويين كانوا يستخدمون « ها » أداة للتعريف بدلا من أل . وأما الكتابات الصفوية فعُثِرَ عليها في الحرة الواقعة بين جبل الدروز وتلول أرض الصفا . وكلمة الصفويين لا تعني شعباً معيناً أو قبيلة معينة ، إنما هي اصطلاح حديث للدلالة على تلك الكتابات التي عُثِرَ عليها في تلك الجهات . وقد عُرِف من دراستها أنها كتبت بالخط المعيني وأنها لهجة عربية قديمة كالثمودية واللحيانية ، وكثير من نقوشها يرجع إلى القرون الأولى للميلاد ، ويظهر أن من كتبوها كانوا بين التبدى والتحضر ، فمنهم البدو الرعاة ومنهم الفلاحون ، ولهم قرى ومزارع ، وربما كان لهم تجارات .

وهذه النقوش الصفوية والثمودية واللحيانية عربية كما قدمنا برغم أنها كتبت بالخط المعيني الجنوبي ، فخصائصها اللغوية قريبة من خصائص العربية التي نزل بها القرآن الكريم ، وإن اختلفت عنها في أداة التعريف وفي بعض الصفات اللغوية ، إلا أنها على كل حال تصور طوراً من أطوار اللغة العربية الشمالية ، وقد احتوت على كثير من أسماء الرجال وأسماء الآلهة والأصنام .

وبجانب هذه النقوش نجد نقوشاً أخرى بالخط النبطي ، وهي تتشر في بطرا

حاضرة ملكهم وما حولها وفي الحجر حاضرتهم الجنوبية وبُصرى بحوران في الشام عاصمتهم الشمالية وما يتصل بهذه الجهات في شرق الأردن وجبل الدروز ، وقد مربنا أنهم كانوا الصلة بين العرب الجنوبيين وحوض البحر المتوسط ، وبلغ من قوتهم أن كان يخشاهم اليهود وبقية أمم الشام حتى أهل روما كانوا يخشونهم ، فعملوا على القضاء على دولتهم حتى تم لهم ذلك كما قدمنا سنة ١٠٦ للميلاد . ولم ينته بذلك تاريخهم ، فنقوشهم تستمر إلى القرن الثالث الميلادي ، ويظهر أنهم تلاشوا بعد ذلك في العرب . وكانوا يتكلمون في أحاديثهم اليومية العربية ، إلا أنهم اختلطوا بالآراميين عن طريق التجارة وأخذوا عنهم أبجديتهم أو خطهم وكتبوا به نقوشهم ، ولذلك قد يعدم بعض الباحثين من الآراميين ، ولكن من المحقق أنهم كانوا عرباً يتخاطبون بالعربية .

ولما سقطت دولتهم وانتشروا في الحجاز ونجد أخذ شيوخ العرب وأمراؤهم يتخذون خطهم في كتابة نقوشهم وهجروا الخط اللحياني والتمودي والصفوي . وسرعان ما تطور هذا الخط النبطي الآرامي إلى الخط العربي الذي كُتب به القرآن الكريم والمؤلفات الإسلامية . وهناك روايات عند المؤرخين المسلمين تزعم أن الخط العربي منشؤه الحيرة وأنه نُقل منها إلى مكة والحجاز . غير أن هذه الروايات لا تتفق ووثائق النقوش التي كشفت في الحجاز ودرسها علماء اللغات السامية ، فقد وجدوا نقوشاً حجازية وغير حجازية تصور انتقال الخط الآرامي إلى خط نبطي ، ثم انتقال هذا الخط إلى الخط العربي . والمعروف أن الحيرة قبيل الإسلام كانت نصرانية وكانت تزخر بالثقافة السريانية ، كما كانت تكتب بالخط السرياني قلم المسيحيين في هذه الأنحاء . ولا يعقل أن يكونوا هم الذين تطوروا بالخط النبطي واشتقوا منه الخط العربي ، لأنه لم يشع في ديارهم ولأنه كان خط الوثنيين في شمالي الحجاز . وقد يكون مرجع هذا الوهم في روايات المؤرخين الإسلاميين أن الخط الكوفي نما وازدهر في الكوفة ، فظنوا أن هذه البيئة هي التي ابتكرت الخط العربي وأنه نما وتطور في الحيرة .

والحق أنه إنما حدث له هذا النمو والتطور في الحجاز نفسها ، فقد كانت بها حياة تجارية مزدهرة ، جعلتهم يأخذون الخط المعيني . أولاً ، ويتطورون به إلى

خطوطهم اللحيانية والثودية والصفوية . ثم لما ظهرت مملكة النبط واستخدمت الخط الآرامى وتطورت به ، وتفرق أهلها بعد سقوطها فى داخل الجزيرة وعلى طول طريق القوافل التجارية نشروا قلمهم النبطى ، فهجّر عرب الحجاز القلم المعينى وأخذوا يحاولون النفوذ من الخط النبطى إلى خطهم العربى الجديد متطورين به ضرورياً من التطور حتى أخذ شكله النهائى .

وليست المسألة مسألة فرض واحتمال ، وإنما هى مسألة نقوش حملت إلى علماء الساميات الدليل القاطع الذى لا مطعن فيه على هذه الحقيقة ، فقد عثروا على نقوش فى شمالى الحجاز وعلى طول طريق القوافل إلى دمشق تثبت تطور الخط النبطى تطوراً سريعاً إلى الخط العربى . وأهم هذه النقوش على الترتيب نقش عثر عليه ليمان فى قرية أم الجمال غربى حوران ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٢٧٠ م وهو لفهر بن سُلَى الذى كان مريباً بلخديمة ملك تنوخ ، وخطه نبطى إلا أنه يمتاز بظهور روابط بين الحروف . ويليه نقش النمارة الذى اكتشفه دوسو وماكلر سنة ١٩٠١ على بعد ميل من النمارة القائمة على أطلال معبد رومانى شرق جبل الدروز ، بالقرب من الأماكن التى عثُر فيها على الكتابات الصفوية ، وقد كُتِبَ شاهداً لقبر ملك من الملوك اللخمين يسمى امرأ القيس بن عمرو ، وأُرِّخَ بشهر كسلول من سنة ٢٢٣ بتقويم بَصْرَى وهو يوافق شهر كانون الأول (ديسمبر) من سنة ٣٢٨ م وهذا نصه :

تِى نَفْس مَر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التج
وملك الأسدين ونزرو وملوكهم وهرَّب مذحجو عكدى وجا
بِرَجَى فى حبيج نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه
الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه
عكدى . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

ويلاحظ أن الكاتب بدأه فى السطر الأول بكلمة تِى الإشارية التى للمؤنث لأنها داخلة على نفس ولعلها هنا بمعنى جسد ، وقد استخدم ذو بمعنى الذى ، وهى لغة معروفة بين بعض القبائل مثل طي ، كما استخدم كلمة أسر بمعنى عصب وعقد ، وهو من معانيها فى المعاجم العربية . وقد حذف الألف من كلمة « التاج » ،

ولم يكونوا يشتونها حيثئذ . وليس في هذا السطر كلمة غريبة سوى بر التي استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهي آرامية . ونراه في السطر الثاني يضيف واواً إلى نزر و مذحجو وفقاً لكتابة النبط التي تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدي فلعلها عكديا ، حذفت منها الألف ، وفي المعاجم العكد : القوة . ويريد بالأسدين قبيلتي أسد . ونراه في السطر الثالث يستخدم كلمة بزجي من فعل زجا بمعنى دفع أي باندفاع ، ومعنى حبّج في المعاجم أشرف وكأنها استعملت في النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ، وشمر من الملوك الحميريين . واستخدم كلمة نزل بنيه الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب . وفي السطر الرابع ووكلهن بإضافة نون التوكيد إلى الفعل بعد الضمير . ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم . وفي السطر الخامس يلسعد ذو ولده أي لیسعد الذي ولده .

وواضح أن النص يمثل طوراً من أطوار اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم فكلّماته جميعاً عربية ما عدا كلمة بر الآرامية ، وقد استخدمت فيه أل أداة للتعريف . وإذا أردنا أن نكتبه ونقرّبه إلى لغتنا اليوم كتبناه على هذا النحو :

هذه نفس (قبر) امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها الذي عقد التاج
وملك قبيلتي أسد ونزاراً وملوكهم وشتت مذحجاً بالقوة وجاء
باندفاع (بانتصار) في مشارف نجران مدينة شمر . وملك معدا وولي بنيه
الشعوب ، ووكّله الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه
في القوة . هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول ، ليسعد الذي ولده

ولعل في هذا النص ما يدل على أن اللغة العربية التي سيشرفها القرآن الكريم بنزوله فيها كانت قد أخذت تبسط سلطانها إلى شمال بلاد العرب منذ أوائل القرن الرابع الميلادي . وتوجد الروابط بين الحروف في هذا النص وتتخذ الحروف شكلاً أكثر استدارة .

ولهذا النص أهمية تاريخية بعيدة ، فهو يتحدثنا عن ثاني ملوك الحيرة جدد المناذرة ويذكر أنه ملك قبيلتي أسد وقبيلة نزار وملوكهم ، وشتت قبيلة مذحج ، وانتصر على جموع نجران . ولعل هذه أول إشارة ثابتة تاريخياً لعرب الشمال على عرب الجنوب ومدينتهم نجران . ويحدثنا النص أيضاً أنه ملك معداً وولي بنيه على الشعوب

والقبائل الكبيرة ، وقد عقدت المعاهدات مع الفرس والروم ، ولم يبلغ ملك مبلغه في القوة . وليس هذا كله ما يحدثنا به النص ولا كل دلالاته ، ف وراء ذلك دلالة أعمق ، إذ يقول هذا الملك ملك العرب كلهم ، وتلك — ولا ريب — أول محاولة في إيجاد وحدة سياسية للعرب الشماليين ، بعد أن دمر الرومان دولتهم في بطرا وتدمر . على أن إمارة الحيرة لم تلبث أن خضعت للفرس ، وقد خضع الغساسنة في الشام للبيزنطيين وأخذت البعثات المسيحية تغزو الشمال في غربيه وشرقيه . ولعل ذلك ما جعل العرب يلتفون حول مكة ، وخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها واحتلتها الحبشة ثم الفرس . وقد نقلوا إليها من الجنوب والشمال أصنامهم ، فكانت دار كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وأخذت تقوم بما كانت تقوم به اليمن من نقل التجارة وعروضها بين المحيط الهندي وحوض البحر المتوسط .

ونمضي بعد نقش النمارة نحو مائة وثمانين عاماً ، فنلتقي في زبد الواقعة جنوبي شرق حلب بنقش وُجد على باب أحد المعابد هناك أُرخ سنة ٥١٢ م وفيه نرى خصائص الكتابة العربية الجاهلية تتكامل . ومن غير شك حدثت تطورات متعددة بينه وبين نقش النمارة ، أعدت لهذه الصيغة العربية الخالصة التي نجدها فيه أو بعبارة أدق في خطه . وعلى شاكلته نقش حَرَّان السَّجَا الذي عُثر عليه في الشمال الغربي لجبل الدروز جنوبي دمشق وهو مؤرخ بسنة ٥٦٨ م .

ومعنى هذا كله أن الخط العربي نشأ وتطور شماليّ الحجاز ، وأنه لا يرجع في نشأته وتطوره إلى بلاد العراق ، فتلك الوثائق السابقة دليل لا يرقى إليه الشك في أنه نشأ من الخط النبطي وتطور حتى أخذ صيغته النهائية في أوائل القرن السادس الميلادي في تلك البيئة الوثنية العربية الخالصة . وهو يختلف اختلافاً تاماً عن الخط الكوفي ذي الزوايا الذي يُرسم في أشكال مستديرة . فالحجاز هو موطنه ، وهو الذي نشره في محيط العرب الشماليين على طول الدروب والطرق التي كانت تسلكها قوافل المكيين التجارية .

الفصل الثاني العصر الجاهلي

١

تحديد العصر

قد يتبادر إلى الأذهان أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقبة وأزمنة ، فهو يدل على الأطوار التاريخية للجزيرة العربية في عصورها القديمة قبل الميلاد وبعده . ولكن من يبحثون في الأدب الجاهلي لا يتسعون في الزمن به هذا الاتساع ، إذ لا يتغلغلون به إلى ما وراء قرن ونصف من البعثة النبوية ، بل يكتفون بهذه الحقبة الزمنية ، وهي الحقبة التي تكاملت للغة العربية منذ أوائلها خصائصها ، والتي جاءنا عنها الشعر الجاهلي . ولاحظ ذلك الجاحظ بوضوح إذ قال : « أما الشعر (العربي) فحديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهّل الطريق إليه امرؤ القيس بن حُجر ومهلهل بن ربيعة .. فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له — إلى أن جاء الله بالإسلام — خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فماتى عام »^(١). وهي ملاحظة دقيقة ، لأن ما قبل هذا التاريخ في الشعر العربي مجهول ، ونفس تاريخ العرب الشماليين يشوبه الغموض منذ قضى الرومان على دولتهم في بطرا وتدمر ، إلا بعض أخبار فارسية وبيزنطية قليلة وبعض نقوش عثر عليها علماء الساميات ، وتشير تلك النقوش والأخبار إلى إمارات الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة ومملكة كندة في شمالي نجد ، غير أن معلوماتنا عن هذه الإمارات فيما وراء القرن السادس الميلادي محدودة ، وهي إنما تتضح في العصر الجاهلي الذي نتحدث عنه ، إذ حمل إلينا العرب كثيراً من الأخبار عن تلك الإمارات وأمراءها الذين كانوا يستولون فيها على الحكم ، كما حملوا إلينا كثيراً من

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ٧٤ / ١ .

الأخبار عن مدن الحجاز وخاصة مكة بيت الكعبة المقدسة ، وكذلك عن القبائل وما كان بينها من أيام وحروب .

من أجل هذا كله نقف بالعصر الجاهلي عند هذه الفترة المحدودة أى عند مائة وخمسين عاماً قبل الإسلام ، وما وراء ذلك يمكن تسميته بالجاهلية الأولى ، وهو يخرج عن هذا العصر الذى ورثنا عنه الشعر الجاهلي واللغة الجاهلية ، والذى تكامل فيه نشوء الخط العربى وتشكله تشكلاً تاماً كما قدمنا فى غير هذا الموضع . فذلك العصر المتميز الواضح فى تاريخ العرب الشماليين هو العصر الجاهلي .

وينبغى أن نعرف أن كلمة الجاهلية التى أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذى هو ضد العلم ونقيضه ^(١) ، إنما هى مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والنزق ، فهى تقابل كلمة الإسلام التى تدل على الخضوع والطاعة لله جل وعز وما يطوى فيها من سلوك خلقى كريم . ودارت الكلمة فى الذكر الحكيم والحديث النبوى والشعر الجاهلي بهذا المعنى من الحمية والطيش والغضب ، فى سورة البقرة : (قالوا أتتخذنا هُزُوراً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) وفى سورة الأعراف : (خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) وفى سورة الفرقان : (وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . وفى الحديث النبوى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذرٍّ وقد عير رجلاً بأمه : « إنك امرؤ فيك جاهلية » . وفى معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي :

ألا لا يعجهلنُ أحدٌ علينا فنجهلُ فوق جهلِ الجاهليتنا

وواضح فى هذه النصوص جميعاً أن الكلمة استُخدمت من قديم للدلالة على السفه والطيش والحق . وقد أخذت تطلق على العصر القريب من الإسلام أو بعبارة أدق على العصر السابق له مباشرة وكل ما كان فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية والأخذ بالثأر واقتراف ما حرّمه الدين الحنيف من موبقات .

(١) انظر مادة جاهلية فى دائرة المعارف الإسلامية .

الإمارات العربية في الشمال (الغساسنة - المناذرة - كندة)

لنيس بين أيدينا وثائق توضح في دقة نشأة هذه الإمارات ، التي ظهرت على صفحة التاريخ إثر قضاء الرومان على تدمر ، فتاريخها قبل العصر الجاهلي أو قبل أواخر القرن الخامس الميلادي يحيط به الغموض ، ويظهر أن الرومان وخلفاءهم البيزنطيين اتخذوا من الغساسنة في الشام إمارة تحجز بينهم وبين البدو وغاراتهم وتساعدهم في حروبهم ضد الفرس ومن كان يؤيدهم من عرب المناذرة أو الحيرة في العراق . وبالمثل اتخذ الساسانيون ملوك الفرس من دولة المناذرة درعاً تحميهم من غارات البدو وجنوداً تقف في صفوفهم في أثناء حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين والغساسنة . وبين الطرفين قامت إمارة كندة في شمالى نجد ، وكانت تدين بالولاء فيما يبدو لملوك اليمن الحميريين : ملوك سبأ وذى ريدان ويمنات .

والغساسنة^(١) يعودون في رأى نسب إلى العرب إلى أصل يمنى ، فهم من عرب الجنوب الذين نزحوا إلى الشمال مع قبائل أخرى كثيرة أهمها جندام وعاملة وكلب وقضاعة . وقد أقاموا إمارتهم في شرق الأردن ، ولم يتخذوا لها حاضرة بعينها فتارة تكون حاضرتهم الجحولان أو الجابية ، وتارة تكون جلولاء أو جلق بالقرب من دمشق . وقد يكون في ذلك ما يدل على أنهم ظلوا بدواً يرحلون بخيامهم ولابلهم وأنعامهم من مكان إلى مكان في تلك الأنحاء . ويقال إنهم أول نزولهم بالشام اصطدموا بعرب يسمون الضجاعة ، تغلبوا عليهم ، وأصبحوا سادة تلك المنطقة التي حلوا فيها ، وقرَّبهم الرومان منهم والبيزنطيون ومنحوهم ألقاباً رسمية من ألقابهم .

ويزعم مؤرخو العرب أن مؤسس سلالتهم جفنة بن عمرو مزريقياً ، ولذلك

(١) انظر في الغساسنة تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني ، وكتاب « أمراء غسان » لنولدكه ترجمة قسطنطين زريق وبندلي جوزى ، وتاريخ العرب قبل الإسلام

لخواد على ١١٨/٤ وما بعدها ومحاضرات في تاريخ العرب لصالح أحمد العلى ٤٤/١ وتاريخ سورية ولبنان وفلسطين لفيليب حتى (نشر دار الثقافة بيروت) ٤٤٦/١ .

يسمون آل جفنة ، وأول ملك من ملوكهم يمكن الاطمئنان إلى أخباره من الوجهة التاريخية هو جبلة الذي غزا فلسطين سنة ٤٩٧ للميلاد ، وخلفه ابنه الحارث (٥٢٨ - ٥٦٩) ويسمى أحياناً الحارث بن أبي شمر ، وقد لعب دوراً مهماً في حروب الإمبراطور جستنيان ضد الفرس وعرب العراق ، فأنعم عليه بالإكليل ، واعترف بسيادته المطلقة على جميع العرب في الشام ومنحه لقب فيلارك ومعناه شيخ القبائل ، ولقب البطريق ، وهو أعظم الألقاب في الدولة البيزنطية بعد لقب الملك . وقد اشتبك مع المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة في حروب طاحنة ، وقع في أثنائها أحد أبنائه في قبضته سنة ٥٤٤ فقدمه المنذر ضحية للعزى . وثار الحارث لنفسه في يوم حكيمة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ إذ أوقع بالمنذر موقعة فاصلة قُتل فيها ، وفي أمثال العرب : « ما يوم حليمة بسر » .

وتعد أيام الحارث بن جبلة أزهى أيام مرت بالغساسنة ، إذ امتد سلطانهم من بطرا إلى الرصافة شمالى تدمر . وكانوا قد دخلوا في المسيحية منذ القرن الرابع الميلادى ، وزار الحارث القسطنطينية ، فاستقبل استقبالاً حافلاً ، واستطاع أن يثبته أولى الأمر هناك بتعيين يعقوب البرادعى أسقفاً على الكنيسة المونوفيسيتية السورية فنشر عقيدته في سوريا وبين الغساسنة . وخلفه ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨١) فسار سيرته في تأييد العقيدة المونوفيسيتية التي لم تكن تتفق مع عقيدة البيزنطيين الرسمية ، كما سار سيرته في حروبه مع المناذرة ، فاشتبك مع قابوس ملك الحيرة منذ سنة ٥٧٠ في سلسلة معارك أهمها معركة عيّن أباغ وفيها انتصر عليه انتصاراً حاسماً تغنى به الشعراء طويلاً . وتبدل الدلائل على أن خلافاً نشب بينه وبين البيزنطيين ، لعل مرجعه إلى تأييده للعقيدة المونوفيسيتية ، وربما خافوا منه أن يثور عليهم كما نارت الزباء على الرومان من قبل ، فحرموه من الإعانات التي كانوا يقدمونها إليه وإلى أبيه ، وقلبوا له ظهر الحجن ، ولكنهم عادوا إلى مصالحته ، حتى إذا حانت لهم فرصة منه قبضوا عليه ونفوه إلى صقلية ، وثار أبنائه بقيادة النعمان عليهم ، غير أنه لقي نفس المصير حوالى سنة ٥٨٤ .

ومنذ هذا التاريخ تمزقت وحدة الغساسنة ، إذ تجزأت إمارتهم أجزاء ، على كل جزء أمير كبير أو صغير ، ويلمع اسم الحارث الأصغر ، ويظهر أن جيوشه كانت

تشتبك مع القبائل النجدية في حروب دامية ، وقد أسرف في إحداها شأساً أخا علقمة ابن عبدة الشاعر التميمي المشهور ، فرحل إليه يمدحه^(١) رجاء أن يفك أخاه من أسره ، ونراه يذكر في مديحه معاركه وما كان ينزله بأعدائه من خسائر ، يقول :

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ صَوَاعِقُهَا لَطِيْرُهُنَّ دَبِيبٌ^(٢)
فَلَمْ تَنْجُ إِلَّا شَطْبَةً بِلْجَامِهَا وَلَا طَيْرٌ كَالْقَنَاةِ نَجِيبٌ^(٣)
وَلَا كَمِيٌّ ذُو حِفَاطٍ كَأَنَّهُ بِمَا ابْتَلَّ مِنْ حَدِّ الظُّبَاتِ خَضِيبٌ^(٤)
وَأَنْتَ أَزَلْتَ الْخُنْزَوَانَةَ عَنْهُمْ بِضَرْبٍ لَهُ فَوْقَ الشُّمُونِ دَبِيبٌ^(٥)
وَأَنْتَ الَّذِي آثَرَهُ فِي عَدُوِّهِ مِنَ الْبُؤْسِ وَالنُّعْمَى لَهُنَّ نُدُوبٌ^(٦)

وكان لابنيه النعمان وعمرو جيوش قوية ، تجوب نجداً والصحراء الشمالية وتدين لها القبائل بالطاعة ، ويظهر أن جيوش عمرو اشتبكت في حروب مع بني أسد وبني فزارة ، ووقع كثير من أسرى القبيلتين في يد عمرو ، فقصده النابغة الذبياني يمدحه متوسلاً إليه في فكأكمهم ، فأكرمه ، كما أكرمه أخوه النعمان ، ودبج فيهما مدائح كثيرة ، لعل أروعها قصيدته البائية التي يقول فيها^(٧) :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجِيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سِيُوفَهُمْ بِهِنَ قُلُوبٌ مِنْ قِرَاعِ الْكِتَابِ

الفرس المتحفزة للوثوب ، شبهها بالقناة في الضمور .

(٤) الكمي : الشجاع ، والظباة : جمع ظبة وهي حد السيف ، وخضيب : مصبوغ بالدماء .

(٥) الخنزوانة : الكبر ، وشؤون الرأس : ملتي عظامها .

(٦) ندوب : جروح .

(٧) مختار الشعر الجاهلي لمصطفى السقا (طبع الحلبي) ص ١٥٩ .

(١) يذكر أكثر الرواة أن علقمة إنما قصد بقصيدته الحارث بن جبلة (انظر ديوان علقمة بشرح الشنتمري طبع الجزائر سنة ١٩٢٥ ص ٢٥) وراجع القصيدة في المفضليات . وقد دحض نولدكه هذه الرواية ذاهباً إلى أن القصيدة في مديح الحارث الأصغر . انظر جواد علي ١٤٣/٤ .

(٢) صابت : مطرت ، يقول أصابتها الصواعق فلم تقدر على الطيران فدبت تطلب النجاة .

(٣) الشطبة : الفرس الطويلة ، والطمر :

وعمر وهو ممدوح حسان بن ثابت ، وقد كان ينزل به وبغيره من أمراء الغساسنة ، وله فيه مطولة مشهورة يقول في تضاعيفها^(١) :

أولاد جَفَنَةَ حول قَبْر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المُفْضِلِ
بيضُ الوجوه كريمةٌ أحسابهم شَمُّ الأنوف من الطَّراز الأولِ

وعلى نحو ما كان ينزل به كان ينزل بجبله بن الأيهم الذي لحق الفتوح الإسلامية ، وحارب في صفوف الروم ، ثم أسلم وعاد فتنصر في عهد عمر بن الخطاب ، ورحل إلى بيزنطة . ويقال إنه حين أسلم دخل المدينة في موكب حافل من حاشيته وكان يضع على رأسه تاج أجداده تزيينه لأولئكتان كانتا فيما مضى قرطين لأم الحارث بن جبلة .

وفي أخبار الغساسنة المتأخرين ما يدل على أنهم كانوا يصيرون حظوظاً من الترف والنعيم ، فقد وصف حسان بن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم ، فقال : « لقد رأيت عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالهرايط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة . . . وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها . وكان إذا جلس للشراب فُرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين ، وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة ، وأوقد له العود المندى إن كان شاتياً ، وإن كان صائفاً بطن بالثلج وأتى هو وأصحابه بكساء صيفية ، يتفضل هو وأصحابه بها في الصيف ، وفي الشتاء الفراء الفسك وما أشبهه . ولا والله ما جلست معه يوماً قط إلا خلع على ثيابه التي عليه في ذلك اليوم^(٢) » .

ويقابل الغساسنة في الشام المناذرة^(٣) في العراق ، وهم من لخم ، ويعود بها النسابون إلى أصل يمني ، هي وبعض قبائل عربية نزلت هناك مثل تنوخ . وقد

(١) ديوان حسان (طبعة ليدن) ص ١٦ .
(٢) أغاني (ساسة) ١٤/١٦ .
(٣) انظر في المناذرة تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ٥/٤ - ١١٧ ،
وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حقي
(الترجمة العربية) ١٠٧/١ ومحاضرات
في تاريخ العرب لصالح أحمد العلي
١٥/١ وما بعدها .

احتذى الفرس الساسانيون معهم سياسة الرومان والبيزنطيين أعدائهم التقليديين مع عرب الشام . وربما كان جاذبة الأبرش أهم ملك أسطوري ظهر في هذه الأنحاء قبل اللخميّين ، ويقال إنه كان يعاصر الزباء ، وخلفه ابن أخته عمرو بن عدى اللخمي وهو رأس المناذرة . وتاريخهم أكثر وضوحاً من تاريخ الغساسنة ، وربما كان ذلك يرجع إلى أن ملوك الفرس دونوا تاريخهم ، فأخذ عنهم العرب ، على أن ابن الكلبي يزعم أنه استخرج تاريخهم من بيع الحيرة وأديرتها .

وكان هؤلاء العرب العراقيون ينزلون في الخيام أولاً ، ثم تحولوا إلى قرية في الجنوب الشرقي من النجف الحالية ، كانت تقع في منطقة خصبة يرويها نهر الفرات ، وهي الحيرة (تحريف لكلمة حرتا في السريانية ومعناها الخيم أو المعسكر) وسرعان ما نصب عليها الساسانيون المناذرة ليحموهم من غارات البدو ويساعدوهم في حروبهم ضد الرومان والبيزنطيين وأحلافهم من الغساسنة عرب الشام . ويقال إن سابور (٢٤١ - ٢٧٢) هو الذي نصب عمرو بن عدى ، وتتابع من بعده خلفاؤه من بيته ، وربما كان ابنه امرؤ القيس الذي عُثر على نقشه في النخلة كما أسلفنا يدين بالولاء للفرس والروم جميعاً . أما من خلفوه فكانوا يدينون بهذا الولاء للفرس وحدهم . ومن أهمهم النعمان الأعور أو السائح ، وكان له جيش قوى يتألف من كتيبتين هما الشهباء والدوسر ، واشتهر ببناؤه قصرى الخورنق والسدير ، ونرى الملك الساساني الذي كان يعاصره وهو يزدجرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠) يرسل أكبر أبنائه إليه ، لينشأ في قومه ، وليتعلم الفروسية والصيد ، وهو بهرام جور . ولما توفي يزدجرد أراد الفرس إقصاءه عن العرش فتدخل النعمان ، وأيده بجيش ممكنه من استرداد عرشه ، فأعلى ذلك من شأن المناذرة والحيرة . وهياً لها موقعها في طرق القوافل أن كانت مركزاً مهماً للتجارة ، فعاش المناذرة معيشة يسودها غير قليل من الترف ، بسبب التجارة التي كانوا يشاركون فيها وبسبب ما كان عندهم من حياة زراعية . ومن غير شك يسبق المناذرة الغساسنة في الرخاء ، ولعل ذلك ما جعل حياتهم أكثر استقراراً بالقياس إلى غساسنة الشام ، كما جعلهم أكثر حضارة ورقياً .

وأزهى عصورهم عصر المنذر بن ماء السماء (حوالي ٥١٤ - ٥٥٤ م) وقد

ساعت العلاقات بينه وبين قبّاذ ملك الفرس في أوائل حكمه ، ولعل ذلك يرجع إلى أن قبّاذ اعتنق المزدكية واتخذها ديناً رسمياً للدولة وحاول أن يفرضها على المناذرة فأبى المنذر ، فعزله وولى مكانه الحارث بن عمرو أمير كندة ، ولكن الأمور سرعان ما تطورت فتوفى قبّاذ ، وخلفه كسرى أنوشروان وكان يكره المزدكية والمزدكيين ، فأعاد المنذر إلى حكم الحيرة ، ونشبت بينه وبين الحارث الكندى وأبنائه سلسلة حروب قضت عليهم جميعاً . وربما كان من أسباب القضاء عليهم استيلاء الحبش على اليمن وانهلال ملك الحميريين هناك ، منذ سنة ٥٢٥ . ومهما يكن فقد تحولت قبائل نجد وشرق الجزيرة إلى الحيرة ، فدان معظمها للمنذر بالولاء ، ويظهر أنه مدّ سلطانته إلى عُمان كما تحدثنا بذلك الأخبار . وقاد منذ عاد إلى عاصمته سنة ٥٢٩ حروباً طاحنة ضد الغساسنة والبيزنطيين كُتب له النصر في كثير منها ، ونستطيع أن نقف على مدى انتصاراته في هذه الحروب من معاهدة عُنُقِدَت بين البيزنطيين والفرس سنة ٥٣٢ أدّوا له فيها ما أدّوه للفرس من أموال . واشتهر بين العرب بأن كان له يومان : يوم نعيم ويوم بؤس ، فكان أول من يطلع عليه في اليوم الأول يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه في اليوم الثاني يقتله ، ومن قتله في هذا اليوم المشثوم عبيد بن الأبرص ، ويقولون إنه راجع نفسه ، فأقلع عن هذه العادة السيئة ، ويقال أيضاً إنه قتل — وهو ثمل — نديمين له ، فلما صحا من سكره وعرف ما قدمت يداه ندم وأمر ببناء صومعتين عليهما ، وهما الغريّتان اللذان يذكّران في أشعار العرب . وقد يكون هذا كله من باب الأسطورة ، وربما كان الغريان نصيبين من الأنصاب التي كان العرب الوثنيون يهرقون دماء الأضحيات والذبائح عندها . وما زال المنذر يشن الحرب على الغساسنة حتى قتل في يوم حليلة كما أسلفنا .

وخلفه ابنه عمرو بن هند (٥٥٤ — ٥٦٩ م) وينسب إلى أمه في بعض الروايات دير هند في الحيرة ، وربما كانت نصرانية ، أما هو فكان وثنيّاً على دين آبائه ، وكان طاغية مستبدّاً ، وفيه يقول أحد الشعراء^(١) :

أَبَى الْقَلْبُ أَنْ يَهْوَى السَّدِيرَ وَأَهْلَهُ وَإِنْ قِيلَ عَيْشٌ بِالسَّدِيرِ غَرِيرٌ

(١) أغاني (طبعة الساسي) ١٢٦/٢١ .

به البَقُّ والحُمَّى وأَسَدُ خَفِيَّةٍ وعمرو بن هندٍ يَعْتَدِي ويجورُ

ولقبه العرب بالحرَّق لأنه نذر أن يقتل مائة رجل من تميم حرقاً وبراً بنذره في يوم أواره بالجمامة . واشتبك مع تغلب وطيئ في بعض معاركه ، ويظهر أن سلطانه امتد على قبائل كثيرة في شرقي نجد وشمالها وغربها ، وكان بحكم استبداده يتعرض له كثير من الشعراء بالهجاء ، وقصته مع طرفة والمتلمس مشهورة . وينسب إليه شعر كان ينظمه ، وقد أصبحت الحيرة في عهده مركزاً أدبياً مزدهراً ، إذ كان يجزل العطاء للشعراء ، فوفد عليه كثيرون منهم عمرو بن قميثة والمسيب بن غلاس والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم التغلبي الذي يقال عنه إن ابن هند لقي مصرعه على يده ثاراً لكرامة أمه ليلي حين أهينت في بيته .

وولى أمر الحيرة بعد عمرو قابوس ثم المنذر الرابع ، ولم تطل مدتهما ، وبذلك فصل إلى النعمان الثالث ابن المنذر الرابع المكنى بأبي قابوس (٥٨٠ - ٦٠٢) وقد نشأ في حَجَرِ أسرة مسيحية هي أسرة عدى بن زيد العبادي ، ولعل ذلك سبب تنصره فهو أول من تنصّر من ملوك الحيرة الوثنيين . وكان سلطانه يمتد إلى البحرين وعمان ، وكانت له قوافل تجارية أو لطائم تجوب الجزيرة . وسار سيرة عمرو بن هند في رعايته للشعراء ، فوفد على بابيه منهم كثيرون مثل أوس بن حَجَر والمنخل اليشكري وليبد والمثقب العبدى وحجر بن خالد الذي يقول فيه ^(١) :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجد كمثل أبي قابوسَ حزمًا ونائلاً

وهو ممدوح النابغة الذبياني ، وله فيه غير قصيدة ، وحدثت جفوة بينهما ، بسبب وفود النابغة على الغساسنة ، وأرسل له بمجموعة طريفة من قصائده يعتذر إليه وهي من أجود ما خلف الجاهليون ، وفي إحداها يقول :

نُبِّئتُ أن أبا قابوسَ أوعدني ولا قرارَ علي زارٍ من الأسدِ

وكان الشعراء يتعرضون له بالهجاء أحياناً وينالون منه ، على نحو ما نرى عند يزيد بن الجذاعة الشنّي من بني عبد القيس ^(٢) وعبد قيس بن خُفّاف البُرْجُمي

(٢) انظر المفضليات (طبع دار المعارف)
رقم ٧٨ ، ٧٩ .

(١) الحيوان ٥٨/٣ والمرزوق على ديوان
الجمامة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر)
ص ١٦٤٠ .

التميمي^(١) . ويظهر أن النعمان لم يكن سهل القياد ، ويقال إنه قتل عدى بن زيد فضاق به كسرى الثاني ملك الفرس واستدبره إلى حاضرتة بالمدائن ، وألقاه في غيابة السجن ، ثم قتله ، ويقال إنه رمى به تحت أرجل القبيلة فمزقته إرباً . ولم يول الفرس بعده أحداً من هذا البيت فقد نصبوا على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي ، وثارت قبيلة بكر حمية للنعمان على إياس والفرس وهزمتها شر هزيمة في يوم ذى قار . وبقيت الأمور مضطربة حتى استولى على الحيرة خالد بن الوليد سنة ٦٣٣ م .

واحتلت الحيرة وأمراؤها خيزراً كبيراً في أقاصيص العرب وأخبارهم وأشعارهم فطالما تحدثوا عن الغريسيين وقصرى الخورنق والسدير، وطالما قصوا عن أمراءهم الحقيقيين والأسطوريين مثل جسديمة الأبرش . ويظهر أن المناذرة عرفوا من تقاليد الملك أكثر مما عرف الغساسنة ، وكانوا أوسع منهم سلطاناً إذ دانت لهم بالطاعة اليمامة والبحرين وعمان وقبائل العراق وعلى رأسها بكر وتغلب وكذلك كثير من قبائل نجد وخاصة بعد انحلال مملكة كندة . وعلى نحو ما أكثر الشعراء في مديح النعمان بن المنذر وأسلافه أكثروا من استعطافهم حتى لا تغزوهم جيوشهم^(٢) وقد يشكون من ثقل الضرائب وما كانوا يدفعون ويؤدون من الإتاوات في أسواق العراق وفي غير أسواق العراق^(٣) .

• وكل الدلائل تدل على أن الحياة كانت مزدهرة في الحيرة قبيل الإسلام ، وكان أكثر سكانها من القبائل العربية ، وكان يجاورهم العباديون من النصارى ، ويظهر أنهم كانوا أخلطاً من العرب وغير العرب . كما كان يجاورهم الأحلاف من بعض العرب ومن النبط : سكان العراق من بقايا الأكديين والآراميين ، وكانوا يحترفون الزراعة ، وكانت هناك بجالية فارسية ، تمتن بعض المهن والحرف ، ويظن أنه كان هناك بعض اليهود . وكانت الحيرة كما قدمنا سوقاً تجارياً كبيراً ، وكل ذلك أعدّ لأن تتحضر ، وأن تتأثر بالثقافة الهيلينية الفارسية التي كانت تعم في تلك الأنحاء .

(٣) المفضليات رقم ٤٢ البيت ١٦ - ١٧
وقارن مع رقم ٤١ البيت ١٧ .

(١) الحيوان ٣٧٩/٤ .
(٢) الأصعيات (طبعة دار المعارف)
رقم ٥٨ .

وبين إمارة الحيرة وإمارة الغساسنة قامت إمارة ثالثة في شمال نجد كان أمراؤها يدينون - قيا يظهر - بالولاء لليمن ، وهي إمارة كندة^(١) ، ويرجع النسابون بها - كما رجعوا بالغساسنة والمناذرة - إلى عرب الجنوب ، وقد ظلت شعبة كبيرة منها تقيم في مواطنها الأصلية بحضرموت إلى أن جاء الإسلام . وعُثر على نقوش تؤكد قيام هذه الإمارة الكندية في القرن الرابع الميلادي .

وأشهر ملوكها في القرن الخامس حُجْر الملقب بأكل المرار ، وقد استطاع أن يفرض سيادته على القبائل الشمالية في نجد وأن يمد نفوذه إلى اليمامة وتخوم إمارة المناذرة ، ويقال إن بكرًا تغلب دانتا له بالطاعة . وخلفه ابنه عمرو المقصور ، وقد يكون في هذا اللقب ما يدل على أن سلطانه كان محدوداً ، وفي عهده نقضت بكر وتغلب ولاءهما له ، ولم تلبث الحرب أن استعرت بين القبيلتين أربعين عاماً ، وهي حرب البسوس المشهورة .

وأعقبه ابنه الحارث ، وفي عهده بلغت كندة ذروة مجدها ، فقد خضعت له قبائل نجد ، وبلحأت إليه بكر وتغلب فأصلح بينهما ، وأقام على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه معديكرب كما أقام على أسد ابنه حُجْرًا وعلى قيس عيلان ابنه سلمة ، وعقد محالفة بينه وبين إمبراطور بيزنطة ، ووجه همه إلى الإغارة على المناذرة وزوج أخته المنذر بن ماء السماء ، وانتصر في غير موقعة . ولم يلبث قباذ ملك الفرس أن خلع المنذر وعينه والياً على الحيرة كما مر بنا في غير هذا الموضع ، غير أن قباذ لم يلبث أن توفي ، فعاد ابن ماء السماء إلى الحيرة ، ويقال إنه أوقع بالحارث هزيمة نكراء ، قتل فيها وقتل معه أكثر من أربعين أميراً من بيته . ودس المنذر بين أبنائه ، فتحاربوا وسقط شرحبيل وسلمة في ميادين الحرب وجُنَّ معد يكرب ، وانتقضت قبيلة أسد على حُجْر أبي امرئ القيس وقد حاول أن يسترد ملك أبيه ولكن المنذر كان له بالمرصاد ، فقشلت محاولاته وباءت بالخذلان ، ويقال إنه رحل إلى إمبراطور بيزنطة يستعين به في محاربة المنذر خصمه ، غير أنه لم يعد

تاريخ العرب لصالح أحمد العلي ٦٨/١ وتاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ١١٤/١ وما بعدها .

(١) انظر في كندة وأمراؤها Olinder, The Kings of Kinda وتاريخ العرب قبل الإسلام لحواد على ٢١٥/٣ - ٢٧٣ ومحاضرات في

من رجليه ، فقد مات دون أمنيته ، وشعره يفيض بالحقد على ابن ماء السماء وأصحابه الخيريين ، بينما يفيض شعر عبید بن الأبرص شاعر بني أسد بالسخرية منه وبيان عجزه عن استرداد ملك آبائه مع الوعيد الشديد والتهديد .

٣

مكة وغيرها من مدن الحجاز^(١)

في منتصف الطريق المعبّد للقوافل بين اليمن والشام تقوم مكة في واد من أودية جبال السّراة ، تحفه الجبال الجرداء من كل جانب ، وقد وصفها القرآن الكريم بأنها « بوادٍ غير ذي زرع » . وهي تتراءى لنا في العصر الجاهلي ممسكة بزمام القوافل التجارية ، كما تتراءى لنا أكبر مركز ديني للوثنية الجاهلية . ويقال إنه كان يسكنها في غابر الأزمنة قبائل من جرهم وبقايا من الأمم البائدة ، ثم نزلتها قبيلة خزاعة اليمنية حين هاجر كثير من القبائل اليمنية إلى الشمال ، ولعلها نزحت إليها لتسيطر على هذا المركز التجاري المهم . ولا نصل إلى منتصف القرن الخامس حتى يظهر بها قصي ومعه قبيلة قريش فيستولى عليها ويخرج منها خزاعة . ولا يعرف بالضبط أصل قريش ، وهل هي من عرب نجد أو من العرب الأنباط الذين تراجعوا ناحية الجنوب أمام غزو الرومان لبلادهم . وقد دعم مكانتها غزو الأحباش المسيحيين لليمن ، فتحولت أفئدة العرب الوثنيين إليها ، وفزعت أرسقراطيتهم الشمالية والجنوبية إلى هذا المركز البعيد عن أعدائهم ، وحاول أبرهة والى الحبشة على اليمن أن يستولى عليها سنة ٦٧٠ أو ٦٧١ فباعت حملته بالفشل الذريع ، فزاد ذلك في تقديس العرب لها وإعظامها وعسدها رمزاً لاستقلالهم وعزتهم وقوتهم ، إذ لم تدن لآي ملك أجنبي ، وفي ذلك يقول حرب بن أمية^(٢) :

أبا مَطَرٍ هَلُمَّ إِلَى صَلَاحٍ فَتَكْفِيكَ النَّدَامَى مِنْ قَرِيْشٍ

وما بعدها ودائرة المعارف الإسلامية وكتابي مكة والطائف قبل الهجرة ، للامنس .

(٢) الحيوان للجاحظ ١٤١/٣ وصلاح هنا: مكة .

(١) انظر في هذه المدن تاريخ العرب قبل

الإسلام ١٨١/٤ وما بعدها وصلاح أحمد العلي

ص ٧٧ وما بعدها وفيليب حتى ١٤٤/١

فتأمنَ وسَطَهم وتعيش فيهم أبا مطرٍ هُدَيْتَ لخير عَيْشٍ
وتنزلَ بلدةً عزَّتْ قديماً وتأمنَ أن يزورك ربُّ جيشٍ

وقد هيا لها التصادم المستمر بين الفرس والروم أن تزدهر بها التجارة ، فقد كان الطريق بين العراق والشام مقفلاً ، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تهبط فيها . وكانت قوافلها تجوب الصحراء العربية إلى الجنوب في اليمن وحضرموت وإلى الشرق في الحيرة وإلى الشمال حيث تذهب إلى بَصْرَى في الشام وإلى غزة ومصر . وفي الوقت نفسه كانت راعية الكعبة وأصنامها وأوثانها ، وبذلك كان أهلها أشرف العرب وكان كثير منهم يعترفون لهم بالسيادة ، يقول ابن الفقيه : « إن أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية إتاوة قط ، ودانت لهم نخزاعة وثقيف وعامر بن صعصعة ، وفرضوا على العرب قاطبة أن يطرحوا أزواد الحِلِّ إذا دخلوا الحرم ، وهم بعد أعزَّ العرب ، يتأَمِّرون عليهم قاطبة » ^(١) وكانوا يأخذون منهم إتاوة تسمى الحريم إذا نزلوا في بلدهم ^(٢) كما كانوا يأخذون إتاوة من التجار الأجانب إذا ألموا بهم ، وكان ينزلها بيدزطيون وفرس للتجارة ^(٣) يدل على ذلك الصحابيُّان الجليلان : صُهَيْبُ الرومي وسلمان الفارسي .

وكل ذلك يؤكد مكانتها وزعامتها على العرب ، فهي بيت تجارتهم وبيت كعبتهم المقدسة ، فيها يقيمون أعيادهم الدينية ، كما يقيمون أسواقهم التجارية كسوق عكاظ ومجنة وذى الحجاز . ولم تكن أسواقاً تجارية فحسب ، بل كانت أسواقاً أدبية أيضاً ، تعرض فيها سلع الشعر ، فيتنافس الشعراء ويقوم بينهم المحكمون من أمثال النابغة فيحكمون للمتفوق ببراعته . وبذلك هيأت لحركة أدبية واسعة النطاق ، سيطرت فيها لغتها بحكم مكانتها الدينية وتنقلها بتجارتها في أسواق العرب خارج ديارها ، فأصبحت لغة الأدب الرفيعة .

ولعل في هذا كله ما يدل على عظم شأنها في الجاهلية ، وقد زعم لامنس في

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه (طبعة أوربا) (٣) انظر O'leary, Arabia Before

Muhammad (London, 1927) P. 184

ص ١٨ .

وراجع مروج الذهب للمسعودي (طبعة باريس)

١٤٨/٢

(٢) الاشتقاق لابن دريد ص ١٧٢ وأخبار

مكة للأزرق (طبعة أوربا) ص ١٧٥ .

كتابه عنها أنها كانت جمهورية كجمهورية البندقية التجارية^(١) ، وقد وقف طويلاً عند ملكها ونظامها التجاري المعقد ، ومعروف أنه كان بها ملاً يجتمع بدار الندوة ، وهو مجلس شيوخ مصغر ، لم يكن يدخله إلا من بلغ أربعين سنة ، وكانوا يختارون على ما يظهر حسب ثرائهم وخدماتهم التي يؤدونها وهم سادة بطونها في البطاح وكانوا ينظرون في شئونها التجارية والدينية . وكانت تشبه مصرفاً كبيراً ، به المكايل والموازن والبيع الحاضر والمؤجل والربا وصنوف المضاربة المختلفة . واشتهر فيها بيتان بالثراء هما بيتا الأمويين والخزوميين ، وكان للأولين أكثر قافلة بدر ، ولعل ذلك ما جعل أبا سفيان يرأسها ، وفي الاشتقاق لابن دريد معلومات طريفة عن ثروات الخزوميين وكان منهم من يسمى ربّ مكة^(٢) . ولم يكن الثراء خاصاً بهذين البيتين فقد كان عبد الله بن جُدعان وهو من تيمّم ثرياً ثراء مفرطاً ، وشبهه بعض الشعراء بقيصر ، فقال^(٣) :

يوم ابن جُدعان بجَنب الحَزْوَرَه كأنه قَيْصَرُ أو ذو الدُّسْكَرِه

وكان كثير من العرب يرى سادة قريش فوق آل جفنة الغساسنة ، بل فوق كسرى وآل كسرى ، وكانوا يقصدونهم بالمديح طلباً للعطاء والنوال ، ومديح أمية بن أبي الصلت في عبد الله بن جدعان مشهور .

وبهذا كله كانت مكة أهم مدينة عربية في الجاهلية إذ كانت مثابة للعرب وأمناً . وكان مجتمعها يتألف من قريش البطاح الذين ينزلون حول الكعبة ، وهم : هاشم وأمّية ومخزوم وتيمّم وعدى وجُمَح وسهم وأسد ونوفل وزهرة ، وكانوا أصحاب النفوذ فيها ، ومن قريش الظواهر الذين ينزلون وراءهم ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالي ، والعبيد وكان أكثرهم من الحبشة ، ويظهر أنهم كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، ولعل مما يدل على كثرتهم أن هنداً بنت عبد المطلب أعتقت في يوم واحد أربعين عبداً من عبيدها^(٤) ، وكانوا يقومون على حرف ومهن كثيرة . ومن غير شك كان يعيش سادة قريش معيشة مترفة ، بحكم ثرائهم واتصالهم بالفرس

(١) Lammens, LaMecque, P. 175

مادة حزورة ٤٤٤/٢ . والحزورة : الراية .

(٢) الاشتقاق ص ٦٠ و ٩٢ .

(٤) المحاسن والأضداد ص ٧٧ وقارن بالأغاني

(٣) معجم ما استعجم للبكري (طبعة السقا)

(طبعة دار الكتب) ١ / ٦٥ .

والروم ، ويقال إنهم كانوا يصيفون في الطائف ويشتون في جدة ، ونجد في سورة الزخرف استهزاء بمن ينشأ في الحلية والزينة^(١) . ويقال أيضاً إن عبد المطلب جد الرسول صلى الله عليه وسلم دُفن في حُلَّتَيْن قيمتهما ألف مثقال من الذهب^(٢) . ومن يقرأ أخبار قوافلهم التجارية يخيل إليه أن مكة كانت قافلة كبيرة مقيمة ، تخرج منها القوافل إلى الجنوب والشمال والشرق ، ودعاهم ذلك إلى أن يعقدوا معاهدات بينهم وبين القياصرة^(٣) والنجاشيين والأكاسرة^(٤) ، كما دعاهم إلى عقد معاهدات بينهم وبين القبائل التي كانوا يمرون بها في طرقهم التجارية^(٥) .

ولكن هذا جميعه ينبغي أن لا يجعلنا نبالغ مبالغة لامنس ، فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية ، فمع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية فيها كان مجتمعها قبيلاً ، فهو لا يعدو اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض في حِلْف لغرض سداثة الكعبة من جهة والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى . ولا سلطان لعشيرة على عشيرة ، بل كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة عليها لأحد ، وكل ما هناك أن اشتراكهم في مصلحة واحدة خفف من غلواء هذه الحرية ، ولكنه تخفيف لا يخرج بنظام الجماعة القرشية عن النظام المعروف في القبائل الجاهلية ، ووجود مَلَأ فيها أو مجلس شيوخ لا ينقض هذه الحقيقة . إذ لم يكن عمله يعدو عمل مجالس القبائل ، فقد كان في كل قبيلة مجلس يتكون من رؤساء العشائر ، ينظر في شئونها حسب قوانين العرف والعادة ، ولكنه لم يقض على حرية الأفراد ، فقد كان كل فرد متمتعاً بحريته ، مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة . وهذا نفسه هو النظام الذي كان سائداً في مكة قبل الإسلام ، فللفرد حرية وللجماعة عليه حقوق لا تتناقض مع هذه الحرية .

والى الجنوب الشرقى من مكة على بعد خمسة وسبعين ميلاً تقوم الطائف على ارتفاع يبلغ نحو ستة آلاف قدم وسط رياض وبساتين تجعلها أشبه ما تكون بقطعة من رياض الشام ، وجعلها ارتفاعها طيبة الهواء ، فكان القرشيون كما قدمنا يصطافون فيها حيث يجدون كل الثمرات كما يجدون الحمر الصافية . وكانت

(٤) اليعقوبى ٢٨٢/١ والطبرى نفس الصفحة السابقة .

(٥) اليعقوبى ٢٨٠/١ .

(١) سورة الزخرف ، آية رقم ١٨ .

(٢) تاريخ اليعقوبى (طبعة أوربا) ١٣/٢ .

(٣) اليعقوبى ٢٨٠/١ والطبرى (طبعة

أوربا) ١٠٨٩/١٢ .

تنزلها قبيلة ثقيف الوثنية ، وهناك قصة تزعم أنها من بقايا ثمود ، وربما كان لهذه القصة أصل صحيح ، وأن التموديين حين تقوضت إمارتهم في الشمال هاجروا إلى الطائف كما هاجر اللحيانيون إلى منازل هذيل بين مكة والمدينة ، وقد يدل على ذلك أننا نجد النساين يذكرون من بطون هذيل بني لحيان ، وكأنهم ظلوا يحتفظون في أحد بطونهم باسمهم القديم . ولم تكن حياة الثقيفيين تختلف عن حياة القبائل البدوية النجدية في شيء سوى ما أتاحتهم لزروعهم وثمارهم من الاستقرار على نحو ما استقرت قريش في مكة .

ونمضي إلى شمالي مكة على بعد نحو ثلاثمائة ميل ، فنلتقى بيثرب التي ذكرها بطليموس في جغرافيته كما ذكرتها الكتابات المعينية ، وهي تقوم في واد خصب ، تكنفه مرتفعات يعلو بعضها بعضاً ، وتكثر الآبار والعيون في هذا الوادي كثرة أتاحت له أن يصبح واحة جميلة تكتظ بالنخيل والأشجار والزروع ، مع الجو المعتدل ، إلا في بعض فترات الصيف ، إذ تشتد بها الحرارة ، ولكنها لا تبلغ حرارة مكة القاسية .

ويقال إن العمالة أول من سكنوا المدينة أو يثرب ، وظلوا بها حتى نزلها اليهود في القرن الثاني الميلادي على أثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين ، والمظنون أنهم الذين سموها باسم المدينة (مدينتا) وهو اسم آرامي . وقد ظلوا على دين آبائهم إلى أن جاء العرب هددى الإسلام الحنيف ، واتخذوا العربية في حياتهم اليومية ، وإن ظلوا يحتفظون بالعبرية في طقوسهم الدينية وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم زيد بن ثابت أن يتعلم لسانهم ولغتهم^(١) ، وظهر بينهم غير شاعر كان ينظم بالعربية مثل كعب بن الأشرف^(٢)

وما زال هؤلاء اليهود مسيطرين على المدينة حتى وفدت عليهم قبائل الأوس والخزرج الأزدية من الجنوب ، فأصبحوا هم سادتها الحقيقيين ، وقد اتخذوا العربية الشمالية لساناً لهم ، وكانوا وثنيين يحجون إلى مكة وأصنامها ، مثلهم مثل بقية العرب . ولم يكونوا يعتمدون على التجارة مثل المكيين ، إنما كانوا يعتمدون

النبوية لابن هشام وطبقات الشعراء لابن سلام ،
والأغاني ٩٧/١٩ ، ١٠٦ .

(١) انظر البلاذري (طبعة أوربا) ص ٤٧٤ .

(٢) راجع في شعراء اليهود بالمدينة السيرة

على زروع بلدهم وثمارها ، بينما كان اليهود يقومون على الحرف والصناعات ، وخاصة صناعة الأسلحة والأقمشة . ويظهر أن النصرانية كانت معروفة هناك في السيرة أن شخصاً كان بها يسمى عبد عمرو بن صيفي خرج على الرسول وحاربه مع قريش ، وكان قد تهرب في الجاهلية ولبس المسوح^(١) .

وتدل دلائل مختلفة على أن حياة الأوس والخزرج لم تكن تختلف في شيء عن حياة البدو في الخيام ، مع أنهم سكنوا أطام المدينة . ومن أكبر الدلالة على ذلك أنهم كانوا يتحاربون على نحو ما تتحارب القبائل البدوية ، وأكبر الظن أن اليهود هم الذين عملوا على الوقعة ونشر العداوة والبغضاء بينهم ، حتى يشغلهم عنهم ، وكانوا يصنعون لهم الأسلحة التي استخدموها في تلك الحروب الدامية . وفي كتب التاريخ والأدب أيام ومواقع لهم كثيرة مثل يوم سمير ويوم حاطب ويوم السراة ويوم فارع ويوم الربيع ويوم البقيع ويوم معبس ومضرس ويوم الفجار ويوم بعاث . وتخرجت الظروف تخرجاً شديداً بين الأوس والخزرج حتى غدا كأنه من المستحيل أن يكفوا عن هذه الأيام والحروب وكأنما تعاهدوا على الفناء ، لولا أن نزل بينهم الرسول صلى الله عليه وسلم فأصبحوا بنعمة الله إخواناً إذ دخلوا في دينه الخفيف أفواجاً ، وتحولوا إليه يشدون أزره وينصرونه حتى أضاعت بتعاليمه الجزيرة العربية من جميع أطرافها ومسالكها ودروبها .

وكان لليهود في شمالي المدينة قرى خاصة بهم أشهرها نخير وفدك ونياء ، وما زالوا بها حتى أخرجهم عمر من الجزيرة فأصبحت عربية خالصة . والمظنون أن هؤلاء اليهود مثلهم مثل يهود المدينة نزلوا في هذه القرى حين اضطهدهم الرومان منذ أوائل القرن الثاني الميلادي ، واتخذوا العربية لساناً لهم ، وعبروا بها عن عواطفهم ، فجري الشعر على ألسنة نقر منهم ، لعل أشهرهم السموع صاحب حصن الأبلق بنياء وكان معاصراً لامرئ القيس ، ويقال إن أمه كانت عربية من غسان ، ولعل ذلك العرق فيه هو الذي أنطقه بالشعر العربي ، وكان أخوه شعبة شاعراً مثله . ومن المؤكد أن عرب الجاهلية لم يكونوا يطمثون إلى هؤلاء اليهود جميعاً ، ولذلك لم يؤثر في حياتهم الدينية فقد ظلوا بعيدين عنهم .

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ٢/٢٣٤ .

القبائل البدوية

يقسم النسابون هذه القبائل ، بل قبائل العرب الشمالية جميعها ، قسمين كبيرين : قسم عدنانى مضرى ، هو عرب الشمال المنحدرون من عدنان ونزار ومضر ، وقسم قحطانى ينحدر من قحطان (ولعله يقطان المذكور فى الإصحاح العاشر من التوراة) وقد هاجر هذا القسم من الجنوب ، من اليمن وحضرموت وعاش بين العرب الشماليين . وتشكك بعض المستشرقين فيما ساقه رواة الأخبار من هذا التقسيم وما يندرج فيه من أنساب القبائل الشمالية عامة^(١) ، وقالوا إنه من وضع القرن الأول للهجرة وما كان من منافسات بين مكة التى نسبت إلى عدنان والمدينة التى نسب العرب فيها من الأوس والخزرج إلى قحطان ، وتداخلت عوامل سياسية واقتصادية مكّنت من انتشار فكرة هذا التقسيم ، كما مكّنت من ترتيب الأنساب العربية فى نظامها المعروف . ويبالغ بعض المستشرقين فينكر جملة أن يكون عرب الجنوب قد هاجروا إلى الشمال ، ويظن ذلك حديث خرافة .

ولكن من يرجع إلى الشعر الجاهلى يجد فيه الفخر باليمنية والقحطانية والعدنانية والمضرية ، كما يجد فيه العصبية مشتتة بين القبائل على أساس الاشتراك فى الدم وفى أب واحد أو أم واحدة ، ومن التحكم أن نجرى وراء ظنون لا دليل عليها . وحقاً تختلف النسابون فى أصل بعض القبائل وهل هى عدنانية أو قحطانية مثل خُزاعة وقضاعة وخثعم ولكنه اختلاف محدود ، والرأى الصحيح أن هذه القبائل قحطانية . ومن الثابت الذى لا شك فيه أن القحطانيين هاجروا بتأثير ظروف اقتصادية وسياسية إلى الشمال ، وأن هذه الهجرات بدأت منذ أزمان مبكرة ، فقد كان المعينون على ما يظهر يضعون حاميات فى طرق قوافلهم التجارية ، ولما ضعفت الدولة الحميرية : دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت واليمنات هاجر كثير من

من كتاب سميث :

Kinship and Marriage in Early Arabia.

(١) راجع فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام

لجواد على ٢٢٠/١ وما بعدها وتاريخ الأدب

العربى لبلاشير ٢١/١ وما بعدها والفصل الأول

الجنوبيين إلى الشمال ، وخاصة بعد سيل العرم الذي خرب سدَّ مأرب . ويؤكد ذلك أننا نجد للقبيلة الواحدة فروعاً وشعباً مختلفة في الجزيرة العربية ، فكندة التي هاجرت إلى الشمال وأسست لها مملكة أو إمارة في شمالي نجد كانت لا تزال بقيتها الكبرى تقيم في حضرموت حين ظهور الإسلام ، ونجد في أسماء رجالها نفس الأسماء الجنوبية مثل شرحبيل بن الحارث ومعديكرب أخيه ، كما مر بنا في الحديث عن إمارة كندة . وكانت عشائر من إباد لا تزال تنزل في شمالي نجران بينما يمت عشائر منها حوض الفرات ، أما الأزد فقد توزعت عشائرها بين شمالي اليمن وعمان ، والمدينة حيث أقام الأوس والخزرج ، وشمالي الجزيرة في الشام حيث نزل بنو غسان^(١) . وفي هذا دلالة واضحة على أن هجرة الجنوبيين إلى الشمال لا يعثرها الشك . وهاجرت تنوخ إلى البحرين ، ثم استقرت في جنوبي العراق حيث أسست أهم عشائرها ، وهي لخم ، دولة المناذرة في الحيرة . ولما نزحت قبائل همدان من حضرموت إلى الجوف اليمنى بين مأرب ونجران هاجرت قبيلة طيء إلى الشمال واستقرت في جبلي أجأ وسلمى . وهاجرت قبائل أخرى إلى شمالي الحجاز وانتشرت في بادية الشام وأهمها قضاة وبهراء وجُهمينة وبلى التي نزلت في مساكن ثمود وجُذام وكلب وعاملة اللاتي نزلن في حدود فلسطين وعُدرة التي نزلت بالقرب من تيماء ووادي القرى . ومن هاجر من الجنوب أيضاً نخزاعة وكانت مستقرة قبيل الإسلام في منطقة مكة وبجيلة وكانت تنزل جنوبي الطائف .

ويقابل هذا القسم القحطاني اليمنى قسم عدناني مضرى ، ومن أهم قبائله قريش في مكة ، وثقيف في الطائف ، وعبد القيس في البحرين ، وبنو حنيفة في اليمامة ، وتميم وضبة في صحراء الدهناء ، وبكر وعشائرها الكثيرة التي تمتد من الشمال الشرقي للجزيرة إلى اليمامة والبحرين ، ويرد إليها النسابون بنى حنيفة وبنى عجل وشيبان وذُهل ، ثم تغلب وكانت تتوغل أكثر من بكر في شمالي الجزيرة صوب الشرق ، وكان يجاورها بنو النمر ، بينما كانت تنزل أسد في شمالي نجد وتنتشر عشائرها إلى تيماء . ومن هذه القبائل العدنانية أيضاً كنانة وهذيل بالقرب من مكة ،

(١) انظر مادة إباد والأزد في دائرة المعارف الإسلامية وكذلك مادة نخشم .

وقيس عيلان في نجد ، وأهم قبائلها هوازن ، وسليم ، وعامر وعشائرها كلاب وعقيل وقُشَيْر ومزينة وبنو سعد ، وغطفان وفرعاها الكبيران : عبس وذُبْيَان . وفي المفضليات قصيدة لطريقة للأخنس بن شهاب يحصى فيها منازل كثير من هذه القبائل (١) .

وهذه الأنساب التي قدمناها كان يؤمن بها العرب إيماناً شديداً ، وظلوا على هذا الإيمان في الإسلام ، فتكثروا على أساسها في مجموعتين كبيرتين : مجموعة قحطانية يمنية ، ومجموعة مضرية عدنانية ، وكان التنافس شديداً بين الطرفين ، وكثيراً ما جرّ إلى منازعات في الكوفة والبصرة كما جرّ إلى حروب في الجيوش المقاتلة في أقصى الشرق بخراسان وفي أقصى الغرب بالأندلس ، فكانت تتجمع عشائر كل فريق حين تصطدم مصلحة عشيرة يمنية بمصلحة عشيرة مضرية ، وسرعان ما تنشب بين الفريقين معارك دامية .

ومن المؤكد أن عرب الجاهلية كانوا يتمسكون بهذه الأنساب التي أجمعناها عنهم ورثها أبناؤهم في الإسلام ، وهي تؤلف علماً واسعاً عند العرب هو علم الأنساب ، وكأنهم رأوا في النسب ما نراه نحن الآن في الوطن ، فكل قبيلة تؤمن بنسبها وتعتز به وبأنها تعود إلى أصل واحد ، فهي من دم واحد ولحم واحد ، ومن أجل ذلك عبروا عن القرابة باللحمة كما عبروا عن عشائرتهم وفروعهم بالبطن والفخذ . وهذه القبائل جميعها المتبدية منها والمستقرة في مدن كمكة والحيرة كانت تتحد في نظمها السياسية ، وهي نظم قبلية ، تقوم على أساس القبيلة واشتراك أبنائها في أصل واحد وموطن واحد ، وهو موطن متنقل مع المراعى ، وكذلك اشتراكها في تقاليد وعُرف تتمسك بهما تمسكاً شديداً . وكان الرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة هو العصبية ، وهي عصبية قبلية ، ليس فيها شعور واضح بالجنس العربي العام ، وحقاً تكونت عندهم إمارات في الشمال ، ولكنها ظلت تقوم على أساس العصبية القبلية ، وإن بدا في تضاعيفها شعور ضئيل بالوحدة ، لا بين القبائل الشمالية فحسب ، بل بينها وبين القبائل الجنوبية ، فقد كان أمراء هذه الولايات من العرب الجنوبيين كما يقول رواة الأخبار والنسابون ، وإنما نقول

(١) المفضليات ، القصيدة رقم ٤١ .

شعوراً ضئيلاً ، لأن أصحاب هذه الإمارات لم ينفذوا فعلاً إلى فكرة الأمة العربية أو الجنس العربي بحيث يجمعون العرب تحت لواء واحد ، إنما كل ما هناك اتحاد قبلي ، له رئيس .

ومن الاتحادات التي كانت تجمعهم اتحادات الأحلاف ، ويُظَنُّ أن هذه الاتحادات لعبت دوراً كبيراً في تكوين القبائل إذ كانت تنضم العشائر الضعيفة إلى العشائر القوية الكبيرة لتحميها وترد العدوان عنها ، يقول البكري : « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضاً على البلاد والمعاش واستضعاف القوى الضعيف ، انضم الدليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم »^(١) ومن القبائل التي تمثل ذلك خير تمثيل قبيلة تنوخ في العراق ، فقد انضم إليها وتلاشى فيها كثير من القبائل والعشائر العراقية^(٢) .

وبمجرد أن تدخل القبيلة في حلف يصبح لها على أحلافها كل الحقوق ، فهم ينصرونها على أعدائها ويردون كيدهم عنها في نحورهم . وقد تنفصل بعض قبائل الحلف لتنضم إلى حلف آخر يحقق مصالحها ، ومن ثم كنا نجد دائماً أحلافاً تضعف ، وتحل محلها أحلاف أخرى . وقبائل قليلة لم تدخل في أحلاف ، ولذلك سميت باسم جمرات العرب ، لما كان فيها من شجعان يكفونها في الحروب ، على أن هذا كثيراً ما كان يؤول بها إلى أن تنهك في المعارك ، أما القبائل المتحالفة فكانت تهاب لحشونة مَسَّها . وأصل الحلف والتحالف من كلمة الحلف بمعنى اليمين الذي كانوا يقسمونه في عهودهم ، وكانوا يغمسون أيديهم في أثناء عقد أحلافهم في طيب أوفى دم ، وكانوا يقولون^(٣) : الدم الدم والهدم الهدم ، لا تيزيد العهد طلوع الشمس إلا شدةً وطول الليالي إلا مدّاً ، ما بَلَّ بحر صوفة وأقام رَضْوَى في مكانه ، إن كان جبلهم رَضْوَى وإلا ذكروا ما يجاورهم من جبال . وربما أوقدوا النار عند تحالفهم ، ودعوا الله على من ينكث العهد بالحرمان من منافعها ، ويقال إن قبائل مرة بن

(١) معجم ما استعجم للبكري (طبعة السقا) (٢) انظر مادة تنوخ في دائرة المعارف الإسلامية .
(٣) انظر الحيوان للجاحظ ٣/٤ .

عوف الذبيانيين تحالفت عند نار ودنوا منها حتى محشتهم (أحرقتهم) فسمى حلفهم باسم المحاش . ومن الأحلاف المشهورة في مكة حلف المطيبين وقد تعاقد فيه بنو عبد مناف وبنو زهرة وبنو تميم وبنو أسد ضد بني عبد الدار وأحلافهم ، ويقال إنهم غمسوا أيديهم في جفنة مملوءة طيباً . وأكرم من هذا الحلف حلف الفضول وفيه تحالفت قبائل من قريش على أن لا يجذوا بمكة مظلوماً إلا نصره وقاموا معه حتى ترد عنه مظلومه . ومن أحلاف العرب المشهورة حلف الرّباب ، وهم خمس قبائل : ضبة وثور وعُكل وقيم وعدى ، وحلف عبس وعامر ضد ذبيان وأحلافها من تميم وأسد وحلف الخمس بين قريش وكنانة ونخزاعة .

وكان لهذه القبائل جميعاً المتحالفة وغير المتحالفة مجلس يضم شيوخ عشائرها^(١) وهو ندوتهم ، التي ينظرون فيها شئون قبيلتهم . وكان كل فرد يستطيع أن يحضره وأن يتحدث فيه ، ولم يكن له موعد معين ، وفي العادة كانوا يجتمعون مساء وكلما حزب أمر أو ظهر ما يدعو إلى الاجتماع ، فيتناقشون ويتحاورون ، وقد يخطبون ، أو يستمعون إلى بعض ما ينظمه شعراؤهم ، وفي أثناء ذلك يدلي ساداتهم بحكمهم وتجاربهم في الحياة ، وإلى ذلك يشير زهير بن أبي سلمى إذ يقول في مديح هــريم بن سنان وقومه^(٢) :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوههم وأنديّةٌ يَنْتَابُهَا القولُ والفعلُ
وإن جثتهم ألفيتَ حول بيوتهم مجالسٌ قد يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الجهل
وكانت قرارات هذه المجالس نافذة ، فجميع أفراد القبيلة تدعن لها ولا تشذ عليها .

وغالباً ما يتقدم شيوخ القبيلة شيخ كبير مجرب ، هو سيدها ، له حنكة وحكمة وسداد في الرأي وسعة في الثروة ، وهو الذي يقود القبيلة في حروبها ويقسم غنائمها ويستقبل وفود القبائل الأخرى ، ويعقد الصلح والمحالقات ، ويقيم الضيافات ، غير أنه ينبغي أن لا يفهم من ذلك أنه كانت له أو لشيوخ القبيلة سيادة واسعة ،

(٢) ديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية)

(١) انظر في مجالس القبيلة وحقوق سيدها
وراجباته القسم الثالث من كتاب لامنس :
Le Berceau de l'Islam,

فسيادته رمزية ، وإذا بغى كان جزاؤه جزاء كُليب التغلبي حين بغى وطغى على أحلافه من بكر ، فقتلوه ، مما كان سبباً في نشوب حرب البسوس المشهورة .

فالسيد في القبيلة إنما هو الشخص الأملح الذي حنكته التجارب ، وغالباً ما يرث سيادته عن آبائه ، حتى يتم له الحسب الرفيع ، وليس له أى حقوق سوى توقيره ، أما واجباته فكثيرة ، فلا بد فيه من الشجاعة والكرم والنجدة وحفظ البحار وإعانة المعوز والضعيف ، ولا بد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات ، ولا بد أن يكون حلماً متسامحاً ، وإلى ذلك كله يشير معاوية سيد بني كلاب حين يقول^(١) :

لئننى امرؤ من عَصْبَةٍ مشهورة	حُشِدْ لَهُمْ مَجْدٌ أَشَمُّ تَلِيدٌ ^(٢)
أَلْفُوا أَبَاهُمْ سَيِّدًا وَأَعَانَهُمْ	كِرْمٌ وَأَعْمَامٌ لَهُمْ وَجَدود
إِذْ كُلُّ حَيٍّ نَابَتْ بِأَرْوَمَةٍ	نَبَتْ الْعِصَاهُ فَمَا جَدٌ وَكَسِيدٌ ^(٣)
نَعَطَى الْعَشِيرَةَ حَقًّا وَحَقِيقَهَا	فِيهَا وَنَغْفِرُ ذَنْبَهَا وَنَسُودُ
وَإِذَا تَحَمَّلْنَا الْعَشِيرَةَ نُقَلَّهَا	قَمْنَا بِهِ وَإِذَا تَعُودُ نَعُودُ ^(٤)
وَإِذَا نَوَافِقُ جُرْأَةٍ أَوْ نَجْدَةٍ	كُنَّا ، سُمَيٍّ ، بِهَا الْعَدُوَّ نَكِيدُ ^(٥)
بَلْ لَا نَقُولُ إِذَا تَبَوَّأَ جِيرَةً	إِنْ الْمَحَلَّةُ شِعْبُهَا مَكْدُودُ ^(٦)

وواضح أن السيد في رأى معاوية لابد أن يكون شريف الأصل والأرومة ، من عشيرة لها مجد فسيح الفناء ، ولا بد أن يرعى حقوق هذه السيادة ، وهى الحلم والصفح عن السفهاء وكظم الغيظ مع العفو والمغفرة ، ولا بد له أن يبذل المال والنفس في بخنايات القبيلة وأن يسارع إلى النجدة والحرب وأن يكون كريماً مضيافاً ،

(١) المفضليات ، القصيدة رقم ١٠٤ .

(٢) الحشد : الذين يحتشدون ويجمعون لللمات ، والتلید : القديم .

(٣) الأرومة : الأصل ، العضاء : شجر ضخم من أشجار البادية ، الماجد : ذوالجد ، والكسيد : الدون .

(٤) الثقل : الغرم والدية .

(٥) سُمَيٍّ : مرخم سمية ، وحذف ياء النداء .

(٦) الشعب : ما انفرج بين جبلين ،

مكدود : فى ضيق وشدة . يقول إنه لا يعتذر لأضيافه بما يلم به من شذائده .

إذا نزل به جار أضافه وأعانه وحفظ له كل ما يمكن من حقوق الجوار . وكان من أهم ما يقوم به السيد لإصلاح ذات البين في القبيلة ولتمُّ شعُها ، مستعيناً في ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها . ودائماً لا بد له من استشارتهم ، بل لا بد له من أن يستمع إلى كل فرد من أفراد القبيلة ، فهم جميعاً أكفاء يتساوون في الحقوق . ومن أهم ما يدل على هذه المساواة نظام الإجارة ، وهي حق التوطن في القبيلة ، إذ كان لكل فرد فيها أن يجير من يشاء ، وإذا أجار شخصاً أصبحت قبيلته ملزمة به ، وأصبح له ما لأفرادها من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات .

وكان أفراد القبيلة جميعاً يضعون أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها ، وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر ممن سولت له نفسه من القبائل الأخرى أن يعتدى على أحد أبنائها ، فكل فرد فيها يضحى لها بنفسه كما يضحى لها بماله ، فهي حياته وكيانه ، وهو مع اعتزازه بفرديته وشخصيته وحرية يعيش لها وداخل إطارها ، مدفوعاً في ذلك بعصبية شديدة ، وهي عصبية سيطرت على نفوسهم ، وقدسوها تقديساً كان أعظم من تقديسهم للشعائر الدينية ، فتلك الشعائر تشركهم فيها قبائل أخرى ، أما شعائر العصبية القبلية فلإنها خاصة بالقبيلة وأبنائها الذين يجمعهم دم واحد ونسب واحد . وربما تسامح الواحد منهم في دينه ، إذ لم يكن يهمه في كثير من الأحوال ، أما في العصبية فإنه لا يتسامح في أي واجب من واجباتها ، ومن خير ما يصور ذلك قول دُرَيْد بن الصَّمَّة (١) :

وما أنا إلا من غَزِيَّةٍ إن غَوَتْ غَوَيْتُ وإن تَرَشَّدُ غَزِيَّةٌ أَرشِدُ

فغيه ورشده مرتبطان بعشيرته غزية ، فإن ضلت ضل معها وأمعن في ضلاله ، وإن اهتدت اهتدى معها وأمعن في هداه .

وكانت القبيلة من جانبا تعطي لأبنائها عليها نفس الحقوق ، فهي تنصرهم في الملمات التي تنزل بهم ظالمين أو مظلومين ، فحسب أحدهم أن يستغيث فإذا السيوف مشرعة ، وإذا الدماء تتصبب على أتفه الأسباب . وقد تحولوا بسبب اختصامهم على المراعى واتخاذهم الغزو وسيلة من وسائل عيشهم إلى ما يشبه كتائب حربية ،

(١) الأصعيات (طبع دار المعارف) ص ١١٢

وانظر المرزوق على الحماسة ٨١٥/٢ .

فكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والجلاد والإغارة على من حولها من البدو والحضر ،
وهي دائماً شاكية السلاح حتى تحمي حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها ، ولذلك
كانت الشجاعة مثلهم الأعلى ، فداًئماً يفتخرون ببطولتهم وبعدد من قتلوا في
حروبهم مما يدور في أشعارهم ويدور معه اعتدادهم بسيوفهم اليمانية والهندية ،
ولبعضها أسماء اشتهرت بينهم ، وكما يعتدون بسيوفهم نراهم يعتدون برماحهم وقسيهم
ودروعهم وتروسهم وببيضاتهم أو خوذاتهم ، وأشاد فرسانهم بالخيال إشادة بالغة
وسموا أسماء كثيرة .

٥

حروب وأيام مستمرة

لعل أهم ما يميز حياة العرب في الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على
سفك الدماء حتى لكأنه أصبح سنة من سنهم ، فهم دائماً قاتلون مقتولون ،
لا يفرغون من دم إلا إلى دم ، ولذلك كان أكبر قانون عندهم يخضع له كبيرهم
وصغيرهم هو قانون الأخذ بالثأر ، فهو شريعتهم المقدسة ، وهي شريعة تصطبغ
عندهم بما يشبه الصبغة الدينية ، إذ كانوا يحرمون على أنفسهم الخمر والنساء والطيب
حتى يثأروا من غرمائهم . ولم يكن لأى فرد من أفراد القبيلة حق ولا ما يشبه الحق
في نقض هذه الشريعة ولا في الوقوف ضدها أو الخروج عليها ، فما هي إلا أن
يُقْتَلَ أحد منهم ، فإذا سيوف عشيرته مسلولة ، وتتبعها العشائر الأخرى
في قبيلته ، تؤازرها في الأخذ بثأرها ، ويتعدد القتل والثأر بينها وبين القبيلة
المعادية ، وتتوارثان الثارات حتى يتدخل من يصلح بينهما ويتحمل الديات
والمغارم ، ولم يكونوا يقبلونها إلا بعد تفاقم الأمر وإلا بعد أن تأتى الحرب على
الحرث والنسل ، أما قبل ذلك فكانوا يعدونها سبة وعاراً ، وفي ذلك يقول عبد العزى
الطائي^(١) :

رقم ٤٢ البيت ١٥ والأصعيات القصيدة رقم
٤٤ البيت ١ ، ٢ .

(١) حماسة البحترى (طبع بيروت) ص
٢٨ وانظر ٢٩ ، ٣١ والمرزوق على الحماسة
٢١٥/١ - ٢١٦ وراجع المفضليات ، القصيدة

إذا ما طلبنا تَبَلُّنا عند معشرٍ أبينا حِلَابَ الدَّرِّ أو نشربَ الدِّمَا^(١)
 فهم لا يرضون بالدية ويرونها ذلاً ما بعده ذل أن يستبدلوا بالدم الإبل والبانها ،
 فالدم لا يشفيهم منه إلا الدم ، وكأنما أصبح سفكه غريزة من غرائزهم لا تزايلهم ،
 فهم يطلبونه وهم يتعطشون إليه تعطشاً شديداً على شاكلة تأبط شراً إذ يقول^(٢) :

قليلُ غِرارِ النومِ أكبرُ همُّه دَمُ الثَّأْرِ أو يلقي كَمِيًّا مُسَفَّعا

فأكبر ما يهتم به وينصب له طلبُ الثَّأْرِ ولقاء بطل سفعت وجهه الهواجر .
 وأكثر حروبهم كان يجرها نزاع بين بعض الأفراد في قبيلتين مختلفتين ،
 إما بسبب قتل أو بسبب إهانة ، أو بسبب اختلاف على حد من الحدود ، وحينئذ
 تشتبك عشيرتا هؤلاء الأفراد ، وتنضم إلى كل عشيرة عشائر قبيلتها ، وقد تنضم
 أحلافهما ، فتنتشر نيران الحرب بين قبائل كثيرة ، وصور ذلك شاعر الحماسة
 إذ يقول^(٣) :

الشيء يبدوه في الأصل أصغرُه وليس يَصُلِّي بكل الحرب جانبيها
 والحرب يلحق فيها الكارهون كما تدنو الصُّحاح إلى الجَرَبِ فتُعديها

فهى تبدأ صغيرة ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم وتعظم بمرور الزمن ، فتصبح لها
 عدوى كعدوى الحرب ، لا يفلت منها راغب فيها ولا كاره ، فالجميع يصطلون
 بنارها ، بل يترامون فيها ترامي القراش ، فهى أمنيتهم ومبتغاهم ، يقول زهير^(٤) :

إذا فزعوا طاروا إلى مستغيثهم طوالَ الرماح لا ضِعافٌ ولا عُزْل^(٥)
 فإن يُقْتلوا فيُشْتَفَى بدمائهم وكانوا قديماً من منايهم القتلُ

فجميعهم يطفرون إلى المستغيث بخيلهم ورماحهم ، وتدور رحى الحرب فيقتلون

(١) التبل : الثأر ، وحلاب الدر : كناية

(٣) المرزوق ١/٤٠٧ .

عن الإبل التي تحلب وتشرب البانها .

(٤) ديوان زهير ص ١٠٢ .

(٢) المرزوق على حماسة أبي تمام ٢/٤٩٢

(٥) الأعزل مفرد عزل : من لا سلاح له ،

غرار النوم : قليله ، والكمى : الشجاع .

ونزعوا : أغاثوا .

من أعدائهم ويشفون حقدهم ويقتل منهم أعداؤهم ويشفون غليلهم . يقول دريد ابن الصمة^(١) :

وإِنَّا لِلَّحْمِ السَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ وَنُلْحِمُهُ حِينًا وَلَيْسَ بَذَى نُكْرٍ^(٢)
يُغَارُ عَلَيْنَا وَاتْرِينَ فَيُشْتَفَى بِنَا إِنْ أَصَبْنَا أَوْ نَغِيرَ عَلَى وَتْرِ^(٣)
قَسَمْنَا بِذَلِكَ الدَّهْرِ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا فَمَا يَنْقُضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ

ومثل قبيلة دريد قبائل العرب جميعها ، فهم طعام السيوف ، يطعمونها أعداءهم ، ويطعمهم أعداؤهم لها في غير نكران ، فهم دائماً واثرون وموتورون ، وحياتهم مقسومة على هذين الحدين وإلى هذين الشطرين . ولم يكونوا يرهبون شيئاً مثل الموت حتف الأنف بعيداً عن ميادين القتال ، ميادين الشرف والبطولة ، حيث يموتون طعناً بالسيوف والرماح ، وحيث تتناثر أشلاؤهم وتأكلها السباع ، يقول الشنفرى^(٤) :

وَلَا تَقْبُرُونِي إِنْ قَبِرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ وَلَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرٍ
فهو يتمنى أن لا يقبر ، وأن يترك بالعراء في ساحة الحرب تنوشه السباع ، ويبشر أم عامر وهي الضبع بجسده ، حتى يخلد في سبجل قتلى الجاهلية المجيد . وكانوا يسمون حروبهم ووقائعهم أياماً ، لأنهم كانوا يتحاربون نهاراً ، فإذا جَسَّهم الليل وقفوا القتال حتى يخرج الصباح . وأيامهم وحروبهم كثيرة ، وهي تدور في كتب الأدب والتاريخ ، ويقال إن أبا عبيدة المتوفى سنة ٢١١ للهجرة صنف في ألف يوم ومائتين منها كتاباً اعتمد عليه من جاءوا بعده ، ولم يصلنا هذا الكتاب ، وإنما وصلنا شرحه لنقائض جرير والفرزدق وفيه طائفة كبيرة منها . وألف فيها من بعده كثيرون أحصاهم ابن النديم في المقالة الثالثة من الفن الأول بكتابه الفهرست . وفي كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني وشرح حماسة أبي تمام للتبريزي منشورات منها كثيرة . وعقد لها ابن عبد ربه في العقد الفريد وابن الأثير

(٣) الوتر : الثار ، واطرين : قاتلين

ومسبيين الوتر .

(٤) المرزوق ٢/ ٤٨٧ .

(١) المرزوق ٢/ ٨٢٥ .

(٢) نكير ونكر : نكران وامتراء ،

ونلحمه : نطعمه اللحم .

في الجزء الأول من كتابه الكامل والنويرى في نهاية الأرب فصولاً طويلة ، وكذلك صنع الميداني في الفصل التاسع والعشرين من كتابه مجمع الأمثال إذ تناول منها مائة واثنين وثلاثين يوماً ضبط أسماءها وذكر القبائل التي اشتركت في كل منها .

وتسمى هذه الأيام والحروب غالباً بأسماء البقاع والآبار التي نشبت بجانبها مثل يوم عَيْشَن أَبَاغ وكان بين المناذرة والغساسنة ومثل يوم ذى قار وكان بين بكر والفرس ويوم شِعْب بَجَلَة وكان بين عبس وأحلافها من بنى عامر وذبيان وأحلافها من تميم . وقد تسمى بأسماء ما أحدث اشتعالها مثل حرب البسوس وحرب داحس والغبراء .

ومن أيامهم المشهورة يوم خَزَاز وكان بين ربيعة واليمن من مَذْحِج وغيرهم ، ويوم طَخْفَة بين المنذر بن ماء السماء وبنى يربوع ، ويوم أُوَارَة الأول بينه وبين بنى بكر ويوم أُوَارَة الثاني بين ابنه عمرو بن هند وبنى تميم ، ويوم ظهر الدَّهْنَاء بين بنى أسد وطى ، ويوم الكُلاب الأول بين بنى بكر وعشائر من تميم وضبة بقيادة شرحبيل ابن الحارث الكندي وبين تغلب والنمر وبهراء بقيادة أخيه سلمة وأيام الأوس والخزرج ومر ذكرها في غير هذا الموضع ، ويوم حَوَزة الأول بين سُلَيم وغطفان ، ويوم اللّوى بين غطفان وهوازن ، ويوم الكلاب الثاني بين تميم وبنى عبد المدان النجرائين ويوم الوقيط بين تميم وربيعه وكذلك يوم جَمْدود وذى طُلُوح والغبيط وزُبالة ومبايض والجفار ، ويوم الرَّحْرَحَان بين قيس وتمر وكذلك الصراثم والمروت والنَّسَار ، ويوم الشقيقة بين ضبة وبنى شيبان ، ويوم بُزَاخَة بين ضبة وإياد ، ويوم دارة مَأْسَل بينها وبين بنى عامر . وكانوا لا يقتتلون في الأشهر الحرم ، ومع ذلك وقعت فيها بعض مناوشات تسمى بأيام الفِجَار بين كنانة وهوازن يومها الأول ، أما يومها الثاني فكان بين كنانة وقريش وبين بنى عامر وتبعته ذلك أيام أخرى . وسنقف قليلاً عند حرب البسوس وحرب داحس والغبراء لأنهما من أشهر حروبهم وأطولها زمناً .

أما حرب البسوس فقد اشتعلت بين قبيلتي بكر وتغلب في أواخر القرن الخامس الميلادي ، وكان سببها اعتداء كليب سيد تغلب — وكان قد طغى واشتد بغيه — على ناقة للبسوس خالة جَسَّاس بن مرة سيد بنى بكر ، إذ رمى ضرعها بسهم ،

فاختلط لبنها بدمها . ولما علم جساس بما حدث ثار لكرامته ، وسنحت له فرصة من كُلايب فقتله ، ودارت رحى حرب طاحنة ظلت — فيما يقال — أربعين سنة ، فكثرت أيامها مثل يوم عُنَيْزَة وكان سجالات بين الطرفين ، ويوم واردات وكان لتغلب على بكر ويوم قضّة (تجلاق اللحم) وفيه انتصرت بكر . ولما أنهكت الحرب الفريقين لحا إلى الحارث بن عمرو الكندي ، فأصلح بينهما ، وأقام كما مرّ بنا على بكر ابنه شرحبيل وعلى تغلب ابنه سلمة . ونمت في العصور الإسلامية أساطير حول هذه الحرب وبطلها التغلبي المهلهل أخى كلاب ، وألفت عنه قصة شعبية باسم « الزير سالم » .

وأما حرب داحس والغبراء فكانت في أواخر العصر الجاهلي ، وكان السبب في نشوبها سباقا على رهان بين الفرسين ، فسميت باسميهما ، وكان قد أجراهما سيدا عبس وذبيان : قيس بن زهير وحذيفة بن بدر . وأوشك داحس أن يفوز ، غير أن رجلا من ذبيان كان قد كمن له : فاعترضه ونفّره ، فعدل عن الطريق ، وبذلك سبقته الغبراء . وأبى قيس أن يعترف بهذا السبق وطُلب الرهان المضروب ، وحدث صدام بين الفريقين لم تلبث الحرب أن اندلعت على إثره ، وظلت سنوات طويلة حتى تدخل سيدان من ذبيان هما هرم بن سنان والحارث بن عوف المرّي ، فتحملا ديات القتلى . وبذلك وضعت الحرب أوزارها بين القبيلتين ومن كان قد انضم إليهما من الأحلاف ، فقد انضمت عامر إلى عبس بينما انضمت تميم وأسد إلى ذبيان . وعلى نحو ما نمت الأساطير حول المهلهل بطل حرب البسوس نمت حول عنبرة بطل هذه الحرب ، وكان من عبس ، فألفت عنه قصة شعبية مشهورة لا نبعد إذا قلنا إنها تحولت إلى إلياذة كبرى للعرب وفروسيّتهم الرائعة .

الفصل الثالث الحياة الجاهلية

١

الأحوال الاجتماعية

كانت القبيلة في العصر الجاهلي تتألف من ثلاث طبقات : أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم والنسب ، وهم عمادها وقوامها ، والعبيد ، وهم رقيقها المحلوب من البلاد الأجنبية المجاورة وخاصة الحبشة ، والموالي ، وهم عتقائوها ، ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم عنها لكثرة جرائمهم وجنایاتهم ، وكانوا يعلنون هذا الخلع على رؤوس الأشهاد في أسواقهم ومجامعهم ، وقد يستجير الخلع بقبيلة أخرى فتجيره ، وبذلك يصبح له حق التوطن في القبيلة الجديدة ، كما يصبح من واجبه الوفاء بجميع حقوقها ، مثله مثل أبناؤها .

ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك المشهورة ، وكانوا يمشون على وجوههم في الصحراء ، فيتخذون الذهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم ، على نحو ما نعرف عن تأبط شرًا والسُّلَيْك بن السلَكة والسَّنْفَرى . على أن منهم من كان يظل في قبيلته لفضل فيه مثل عروة بن الورد ، وكان كريماً فياضاً ، وأثر عنه أنه كان يجمع إلى نخيمته فقراء قبيلته عبيس ومعوزيها ومرضاها ، متخذاً لهم حظائر يأوون فيها ، قاسماً بينه وبينهم مغامه^(١) .

وهذا الخلع إنما كان يحدث في حالات شاذة ، أما بعد ذلك فإن أفراد القبيلة كانوا متضامنين أشد ما يكون التضامن وأوثقه ، وهو تضامن أحكم عُراه حرصهم على الشرف وقد تكونت حوله مجموعة من الخلال الكريمة ، لعل خير كلمة تجمعها هي كلمة المروءة التي تضم مناقبهم ، من مثل الحلم والكرم والوفاء وحماية الجار وسعة الصدر والإعراض عن شتم اللئيم والغضب عن العوراء .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٧٨/٣ وما بعدها .

ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من إجداب وإحمال فكان الغنى بينهم يتفضل على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح لإبله في سنين القحط ، يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين لضيافته الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه . ومن سننهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلاً على الكُشبان والجبال ، ليهتدى إليهم التائهون والضالون في الفياض ، فإذا وفدوا عليهم آمنوهم حتى لو كانوا من عدوهم . ويدور في شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين ، يقول عوف بن الأحوص^(١) :

ومستنبح يخشى القواء ودونه من الليل بابا ظلمة وستورها^(٢)
رفعت له ناري فلما اهتدى بها زجرت كلابي أن يهر عقورها^(٣)
فلا تسألني وأسألني عن خليقتي إذا رد عافى القدر من يستعيرها^(٤)
ترى أن قدرى لا تزال كأنها لدى الفروة المقرور أم يزورها^(٥)
مبرزة لا يجعل السر دونها إذا أحمدا النيران لاح بشيرها^(٦)
إذا الثول راحت ثم لم تفد لحمها بألبانها ذاق السنان عقيرها^(٧)
واشتهر عندهم بالكرم الفياض كثيرون^(٨) ، مثل حاتم الطائي الذي ضربت الأمثال بكرمه ، وهو يصوره في كثير من شعره كقوله^(٩) :

إذا ما بخيل الناس هرت كلابه وشق على الضيف الغريب عقورها

(١) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ١٣٦/٥ .

(٢) مستنبح : من ينبح حتى ترد عليه الكلاب ، فيعرف أن حيا قريباً منه ، القواء : الفلاة . . .

(٣) يهر : ينبح نباحاً خفيفاً ، العقور : العاقر .

(٤) 'عافى القدر : مستعيرها .

(٥) ذو الفروة : المسائل ، المقرور :

الذي اشتد به البرد .

(٦) بشيرها هنا : ضوؤها .

(٧) الشول : الإبل العظيمة التي لا تحلب ، راحت : رجعت ، يقول إذا رجعت الإبل من مراعيها عقرها لأهل الحى والضيقة .

(٨) انظر في أجواد الجاهلية كتاب المخبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٣٧ .

(٩) الحيوان ١/٣٨٣ .

فإني جبانُ الكلب بيتي موطاً جوادٌ إذا ما النفسُ شَحَّ ضميرها

وكانوا لا يقدرّون شيئاً كما يقدرّون الوفاء ، فإذا وعد أحدهم وعداً أوفى به وأوفت معه قبيلته بما وعد ، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه . وجعلهم ذلك يعظمون الأحلاف فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب . وبلغ من اعتدادهم بهذه الحصلة أن كانوا يرفعون لمن يغدر منهم لواء في مجامعهم وأسواقهم ، حتى يلحقوا به عار الأبد . يقول الحادرة لصاحبه سمية^(١) :

أَسْمَى وَيَحْكُ - هَلْ سَمِعْتَ بِغَدْرَةٍ رُفِعَ اللُّوَاءُ لَنَا بِهَا فِي مَجْمَعٍ

وليس هناك خلة تؤكد معنى العزة والكرامة إلا تمدحوا بها ، فهم يتمدحون بإغاثة الملهوف وحماية الضعيف والعفو عند المقدرة ، كما يتمدحون بالأنفة وإباء الضيم ، وكيف يقبلون الضيم ، وهم أهل حرب وجلاد ، يقول المتلمس^(٢) :

إِنَّ الْهَوَانَ حِمَارُ الْأَهْلِ يَعْرِفُهُ وَالْحَرُّ يَنْكُرُهُ وَالرَّسْلَةُ الْأَجْدُ^(٣)
وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يُرَادُّ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانُ : عَيْرُ الْأَهْلِ وَالْوَيْدُ^(٤)
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَعْقُولٌ بِرُمْتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَبْكِي لَهُ أَحَدٌ

فهم لا ينكرون شيئاً مثل إنكارهم للهوان والضميم ، فهما السؤاة الكبرى والمثلبة العظمى إذ يعنيان الذل وأن القبيلة استبيحت فلم تعد تستطيع الدفاع عن كرامتها . وكل شيء إلا الهوان ، وكان أقل شعور به يثيرهم ، على نحو ما مر بنا من ثورة عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند حين علم بإهانة أمه في بلاطه ، وكان نازلاً معها عنده ، فاستل سيفه وقتله ، وتغنى شعراء تغلب طويلاً بهذا الحادث مفاخرين بعزتهم . وكان للشجاعة والفروسية عندهم منزلة ليس فوقها منزلة ، بحكم حروبهم الدائرة التي لا تنى ولا تفتر .

وكان سادتهم يمثلون هذه الحصال جميعاً في أقوى صورها ، مضيفين إليها

(١) المفضليات ص ٤٥ .

(٣) الرسالة : الناقة الذلول ، الأجد : الموثقة الخلق .

(٢) حماسة البحترى ص ٢٠ .

(٤) العير : الحمار .

حنكة وحكمة بالغة، وقد اشتهر من بينهم حكام تجاوزت ألعيتهم حدود قبائلهم^(١)، مثل عامر بن الظرب وأكثم بن صيفى، وكانت تفرع إليهم القبائل فى خلافتها الكبيرة التى يصعب حلها فى دائرة قبائلهم وشيوخهم، وقد يفرعون فيها إلى الكهنة والعرافين.

على أن هناك آفات كانت تشيع فى هذا المجتمع الجاهلى، لعل أهمها الخمر واستباحة النساء والقمار، ونحن نجد الخمر تجرى على كل لسان، وقد اشتهر بالحديث عنها وعن كثوسها ودنانها وحوانيثها ومجالسها أعشى قيس وعدى بن زيد العبادى الحيرى، وعرض لها كثيرون فى أشعارهم مفاخرين بأنهم يحتسونها ويقدمونها لرفاقهم. وأكثر من كان يتجربها اليهود والنصارى، وكانوا يجلبونها لهم من بصرى وبلاد الشام ومن الحيرة وبلاد العراق، ويقال إنهم كانوا يضربون خيامهم فى بعض الأحياء أو فى بعض القرى ويضعون فوقها راية تعلن عنهم، فيأتىهم الشباب ليشرّبوا وليسمعوا بعض القيان ممن يصاحبهم. وكان من الشباب من يدمن عليها حتى تنفر منه قبيلته، وقد تخلعه لما يتدنّى فيه من رذائل، على نحو ما يروى عن البراء بن قيس الكنانى أحد أدلاء القوافل فى الجاهلية، إذ كان سكّيراً فاسقاً، فخلعه قومه وتبرأوا منه^(٢). ويقول طرفة فى معلقته :

وما زال تشربى الخمرَ ولذتى وبئى وإنفاقى طرينى ومُتَلَدِى^(٣)
إلى أن تحامتنى العشيرةُ كلها وأفرِدتُ إفرادَ البعير المعبّد^(٤)
ولولا ثلاثُ هن من عيشة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عُودى^(٥)
فمنهن سَبَقُ العاذلات بشربةٍ كُميئت متى ما تُعلّ بالماء تُزِيدُ^(٦)

(١) انظر فى حكام العرب كتاب الحبر ص

١٣٢.

(٢) أغانى (طبعة الساسى) ٧٥/١٩.

(٣) الطريف : المال الحديث، والمتلد :

المال القديم.

(٤) تحامتنى : تعجبتنى، المعبد : الأجرب.

(٥) عود : جمع عائد أو عائدة، ويقصد

من يعودونه عند الوفاة ويبيكونه. والجد : الحظ

والبخت.

(٦) الكيت : الخمر، يقول إنه يياكر

شرب الخمر قبل انتباه العراذل.

وكررى إذا نادى المضاف محنباً كسيد الغضا نبهته المتورد^(١)
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب^(٢) ببهكنة تحت الخباء المعمد^(٣)

وواضح أنه يجعل من خلال الفتى هذه الحصال الثلاث ، وهى الخمر والفروسية أو الشجاعة فى الحرب والتمتع بالنساء . على أن هذه الفتوة التى بصورها طرفة كانت تتسامى عند كثير من فرسانهم مثل عنزة ، بل حتى من صعااليكهم مثل عروة ابن الورد وسنعرض لذلك فى موضع آخر .

ومهما يكن فقد كانت الخمر وما يتبعها من استباحة النساء شائعة فى هذا العصر ، وكان يشيع معها القمار أو الميسر ، وكانت عاداتهم فيه أن يذبحوا ناقة أو بعيراً ، ويقسموا ما يذبحونه عشرة أجزاء ، ثم يأتوا بأحد عشر قدحاً ، يجرون عليها قمارهم ، وكانوا يجعلون لسبعة منها نصيباً إن فازت ، وعلى أصحابها غرم إن خابت ، وأكبرها نصيباً يسمى المئعلى . أما الأربعة الباقية فلاحظ لها حتى إن فازت .

وأكبر الدلالة على شيوع هذه الآفات بينهم الآيات الكثيرة التى هاجمتها فى القرآن الكريم وما وضعه الإسلام لها من عقاب صارم حتى يكف العرب عنها ، وقد شدد فى عقوبة استباحة النساء ، وأكثر من النهى عن الخمر والميسر من مثل قوله تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما) وقوله جلّ وعز : (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويضدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وقد وصف الخمر بأنها (رجس من عمل الشيطان) . ونجد فى الحديث النبوى نهياً كثيراً عنها وأن الله لعنها ولعن عاصرها ومعتصرها وشاربها^(٤) وقد جعل لها

(١) المضاف : الخائف المذعور ، والمحنب :

الفرس الذى فى قوائمه أو ضلوعه انحناء قليل ،

والسيد : الذئب ، والغضا : شجر ، نبهته :

هيجته ، المتورد : الجرى . يقول : إذا

استغاث به خائف عطف فرسا يسرع فى عده

إسراع ذئب الغضا الجرى . حين تهيجه .

(٢) الدجن : النيم ، البهكنة : المرأة الجميلة ،

المعمد : المرفوع بالعماد .

(٣) انظر كتاب الأشربة فى سنن أبى داود

وابن ماجه والنسائى والبخارى ، وراجع دائرة

المعارف الإسلامية فى مادة خمر .

الرسول صلى الله عليه وسلم حدثاً : أربعين جلدة ، ولما وجد عمر أن بعض العرب لا يزال يتورط في شربها رفع جدها إلى ثمانين .

وهذا كله يشهد شهادة قاطعة بانتشار هذه الآفات بين عرب الجاهلية ، وفي أخبار الأعشى أنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم رغب في الوفود عليه بالمدينة ومديحه ، وعلمت قريش فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان إنه « ينهاك عن خيال كلها بك رافق ولك موافق » فلما سأله عنها أجابه : الزنا والقمار والخمر ، فعدل الأعشى عن وجهته^(١) . وعلى نحو ما هاجم الإسلام هذه الآفات هاجم قانونهم الدموي المقدس : قانون الأخذ بثأر ، فهدمه هدماً وأبطله إبطالا إذ جعل حقه للدولة لا للأفراد ، وأقام لهم نظاماً سماوياً ربيعاً لمجتمعهم ليس هنا محل بحثه .

وحتى الآن لم نتحدث عن المرأة ومكانتها في هذا المجتمع ، وقد كان هناك نوعان من النساء : إماء وحرّات ، وكانت الإماء كثيرات ، وكان منهن عاهرات يتخذن الأخدان ، وقينات يضربن على المزهرة وغيره في حوانيت الخمارين ، كما كان منهن جوار يخدمن الشريقات ، وقد يرعين الإبل والأغنام . وكن في منزلة دانية ، وكان العرب إذا استولدوهن لم ينسبوا إلى أنفسهم أولادهن ، إلا إذا أظهروا بطولة تشرفهم على نحو ما هو معروف عن عنزة بن شداد ، فإن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن أثبت شجاعة فائقة ردت إليه اعتباره .

وكانت الحرة تقوم بطهي الطعام ونسج الثياب وإصلاح الخباء ، إلا إذ كانت من الشريقات المخدمات ، فإنه كان يقوم لها على هذه الأعمال بعض الجوارى . وتدل دلائل كثيرة على أن بنات الأشراف والسادات كان لهن منزلة سامية ، فكن يحترن أزواجهن ، ويتركنهم إذا لم يحسنوا معاملتهن^(٢) . وبلغ من منزلة بعض شريقاتهن أنهن كن يحمين من يستجير بهن ويرددن إليه حريته إذا استشفع بهن ، على نحو ما ردت فكية إلى السُلَيْك بن السلوك حريته حين وقع أسيراً في يد عشيرتها من بني عوار^(٣) . وكانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من عرضهم ، ولم يكن شيء

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٦/٩ .

والأما ١٠٦/٢ والمحرر ص ٣٩٨ .

(٢) انظر الأغاني ١٣/١٠ وما بعدها

(٣) الأغاني (طبعة الساسي) ٣٧/١٨

يشيرهم كَسَبَتْنِي نِسَاءُهم وهم بعيد عن الحى ، فكانوا يركبون وراءهم كل وعذر حتى يلحقوا بهم وينقذوهم ويغسلوا عار سبيهن عنهم ، وهو عار عندهم ليس فوقه عار . وكانوا يصحبونهم معهم فى الحرب ، وكن يشددن من عزائمهم بما ينشدن من أناشيد حماسية ، حتى إذا قتل فارس ندبته ندباً حاراً حاضات على الأخذ بثأره والانتقام من قتلته . وتلمع فى هذا الجانب أسماء كثيرات على رأسهن النساء ومراثيها فى أخويها صخر ومعاوية مشهورة . وكن يَسْتَشْطِن غضباً إذا رضيت العشيرة بأخذ الدية ، حقناً للدماء ، على نحو ما تصور ذلك كبشة أخت عمرو بن معد يكرب ، وقد قُتل أخ لها (١) :

فإن أنتم لم تشاروا واتدبتم فمشوا بأذان النعم المصلم (٢)
فهى ترى أن عشيرتها إن قبلت الدية فى أخيها أعطت عن يد وهى صاغرة
صغار الأسرى الذين تُجندع آذانهم ، بل صغار النعم المصلم المقطوعة آذانه .
وتقول أم عمرو بنت وقدان فى أخ لها قُتل وقد فكرت عشيرتها فى قبول ديته (٣) :

إن أنتم لم تطلبوا بأخيك فذروا السلاح ووحشوا بالأبرق
ونخذوا المكاحل والمجاسد والبسا نُقب النساء فبئس رهط المرهق (٤)
فهم إن لم يثأروا لأخيها حق عليهم أن يلقوا السلاح ويمضوا على وجوههم إلى مكان بعيد بالأبرق ، فيتزينا بزى النساء ، ويتعطروا ويتزينوا بزيتن . وكانوا يفرون من الحرب حين لا يكون من الفرار بد ، إلا أن تكون معهم النساء ويروهن فارات وقد حسرن عن وجوههن ، حينئذ يشبتون فى المعركة ويناضلون حتى الدماء الأخير (٥) :

وكان جماهن يشيرهم ، وينطق ألسنتهم بوصفه ووصف ما كن يتزين به من

(١) المرزوق ٢١٨/١ وقارن الأصمعيات

(٢) المرزوق ١٥٤٦/٣ .

ص ١٥٧ .

(٤) المجاسد : جمع مجسد وهو الثوب المشبع

(٢) اتدبتم : أخذتم الدية ، وآذان النعم

صبغة ، والنقب : جمع نقبة ، وهى إزار للمرأة .

(٥) المرزوق ١٧٧/١ .

مصلمة خلقة .

طيب وحلى وثياب على نحو ما تصور ذلك معلقة امرئ القيس إذ يقول :

وتُضْحِي فَتَيْتُ الْمَسْكُ فَوْقَ فَرَّاشِهَا نَوُومُ الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفْضُلِ
ويقول المنخل اليشكري في فتاته^(١) :

الكاعب الحَسَناء تَرُ قُلُ فِي الدَّمَقِيسِ فِي الْحَرِيرِ

ولم يقفوا عند جمالها الجسدى ، فقد فطنوا إلى جمالها المعنوى وما تتحلى به من شيم ونخصال كريمة ، على نحو ما يقول الشَّشَفَرَى في زوجته أميمة^(٢) :

لَقَدْ أَعْجَبْتَنِي لَأَسْقُوطَا قِنَاعُهَا إِذَا مَا مَشَتْ وَلَا بِذَاتِ تَلْفُتٍ
تَبَيْتَ بُعَيْدَ النَّوْمِ - تُهْدِي غَبُوقَهَا لَجَارَاتِهَا إِذَا الْهَدْيَةُ قَلَّتْ^(٣)
تَحِلُّ بِمَنْجَاةٍ مِنَ اللُّومِ بَيْتَهَا إِذَا مَا بَيوتُ بِالْمَذْمَةِ حُلَّتِ
كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نِسِيًّا تَقْصُصُهُ عَلَى أُمِّهَا وَإِنْ تَكَلَّمْتَ تَبَلَّتْ^(٤)
أُمِيمَةٌ لَا يُخْزِي نَثَاها حَلِيلُهَا إِذَا ذُكِرَ النَّسْوَانُ عَفَّتْ وَجَلَّتْ^(٥)
إِذَا هُوَ أَمْسَى آبَ قُرَّةَ عَيْنِهِ مَأْبَ السَّعِيدِ لَمْ يَسَلْ أَيْنَ ظَلَّتْ^(٦)

فصاحبته وقور خجول ، لا يسقط قناعها في أثناء سيرها ولا تلتفت حولها ، وهي كريمة مؤثرة تؤثر جارتها في الجذب بغبوق اللبن ، وقد حصنت بيتها عن كل لوم أو ذم يلحقها ، وهي شديدة الحياء ، ومن أجل ذلك لا ترفع رأسها عن الأرض في مسيرها ، حتى ليظن من يبصرها أنها تبحث عن شيء ضاع منها . وإذا اعترضها شخص وكلمها أوجزت ومضت لقصدها وغرضها . وإن الحديث العَطِير عنها في العشيرة ليملاً زوجها زهواً وخيلاء ، إنها مثال العفة والجلال . وإنه ليرفعها عن كل شك وتهمة ، فإذا أمسى وعاد إليها من المرعى أو بعد رحلته

(١) الأصمعيات ص ٥٥ .

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الغبوق : اللبن الذي يشرب في العشي .

(٤) النسي : الشيء المنسى أو المفقود ،

تقصصه : تتعقب أثره ، أمها بفتح الهمزة :

قصدها . تبت : أوجزت .

(٥) النثا : الحديث عن الشخص ، الحليل :

الزوج .

(٦) آب : رجع .

الطويلة عاد قريير العين بها سعيداً ، فلا يسألها أين كانت لأنها موضع ثقته .
وتدور في كتب الأدب قصص وأشعار كثيرة تصور هُيام بعضهم بهم ،
وكانوا دائماً يفتتحون قصائدهم بذكرهن وما كان لهم من ذكريات معهن في بعض
المعاهد والمنازل ، ويمزجون ذلك بالدموع ، على نحو ما يقول امرؤ القيس في
مطلع معلقته :

قفا نَبِّكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بسِقْطِ اللُّوى بين الدُّخولِ فحَوْملِ

فالمرأة لم تكن في الجاهلية مهمة ، بل كان لها قدرها عندهم ، كما كان لها
كثير من الحرية ، فكانت تمتلك المال وتتصرف فيه كما تشاء ، وقصة اتجار
الرسول صلى الله عليه وسلم في أموال السيدة خديجة أم المؤمنين مشهورة . وقد دعم
الإسلام هذه الحرية ، فحرم أن تُعْضَلَ المرأة وتمنع من الزواج بعد وفاة زوجها
كما حرم زواج المَقْت ، وهو أن يجمع الرجل بين أختين ، وحرم الشَّغار ، وهو أن
يتزوج شخص "أخت صديق له على أن يزوجه أخته ، وأيضاً فإنه حرم أن يتزوج
الابن امرأة أبيه بعد موته أو أن يتزوج عدة رجال امرأة واحدة ، إلى غير ذلك
مما كانوا يبيحونه : وتلك كانت عادات عندهم ، وهي تلازم الأمم في عصور
بداوتها ، ولكن ينبغي أن لا نفهم منها أن المرأة كانت مهدرة الحقوق في الجاهلية ،
أما ما سجله عليهم القرآن الكريم من وأدهم للبنات في قوله تعالى : (وإذا بُشِّرَ
أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به
أيمسكه على هُونٍ أم يدُسُّه في الترابِ ألا ساء ما يحكمون) فأكبر الظن أن من
كانوا يصنعون ذلك منهم أجلاف قساة القلوب كانوا يخشون عليهن من الفقر
أو السبي ، إذ كان سباؤهن كثيراً في الجاهلية ، وكانوا يعدون ذلك سُبَّةً ما بعدها
سبة .

المعيشة

لم يكن العرب يعيشون في الجاهلية معيشة واحدة ، فقد عُرِفَت الزراعة في الجنوب والشرق وواحات الحجاز مثل يثرب وخيبر وفي الطائف ووادي القُرى . وعاش أهل مكة على التجارة ، إذ كانوا يحملون عُروضها وسلعها بين حوضي المحيط الهندي والبحر المتوسط . وكانت قوافلهم تجوب الصحراء شمالا وجنوبا في طرق معلومة كما كانت تجوبها شرقا في طريقين معروفين : طريق إلى الخليج الفارسي من شرق مكة وكان يمر بمدينة الرياض الحالية ، وطريق ثان كانوا يذهبون فيه شمالا إلى خيبر ، ثم يخترقون الصحراء في وادي الرُّمَّة ، ويظن أنه كان مجرى نهر في عصور ما قبل التاريخ ، ومنه يهبطون إلى الحيرة . وكان يصحبهم في هذه القوافل أدلاء يحموتهم الضلال في مجاهل الصحراء ^(١) ، ومن أشهرهم فُرات ابن حيان ، كما كان يصحبهم خفراء يحمون قوافلهم من ذؤبان البادية وقراصنتها أو صعاليكها الذين تعودوا النهب والسلب ^(٢) ، وقد يبلغون ثلاثمائة عدداً ، ومن أهم القبائل التي كانوا يخشون ذؤبانها قبيلتا هذيل وفهيم . وكانوا ينقلون من الجنوب : من اليمن وحوض المحيط الهندي وإفريقية الشرقية اللبان والطيب والبخور والجلود وثياب عدن النفيسة وتوابل الهند ورقيق إفريقية والصمغ والعاج ، كما كانوا ينقلون من الطائف الزبيب ومن مناجم بني سليم الذهب . كل ذلك كانوا ينقلونه إلى حوض البحر المتوسط ويعودون محملين بالأسلحة والقمح والزيت والخمر والثياب القطنية والكتانية والحريرية ^(٣) .

فكرة في الجاهلية كانت مدينة تجارية عظيمة ، وكان بها الكعبة أكبر معابد العرب حينئذ ، فكانوا يحجون إلى أصنامهم وأوثانهم فيها ، وتقيم لهم قریش الأعياد والأسواق كسوق عكاظ ^(٤) ، وكانت أكبر أسواقهم ، وكانوا يقيمونها في نجد

(١) المغازي للواقدي (طبع كلكتا) ص ٣٦ ،

١٩٦ ، والمخير ص ١٨٩ :

(٢) المخير ص ٢٦٤ .

(٣) انظر مكة في دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) راجع في تحقيق عكاظ رسالة بعنوان موقع

عكاظ لعبد الوهاب عزام (طبع دار المعارف) .

بالقرب من عرفات من منتصف ذى القعدة إلى نهايته ، ولم تكن سوقَ تجارة فحسب ، بل كانت سوقاً للخطابة والشعر أيضاً ، وقد استمع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قُسر بن ساعدة وهو يخطب في الناس . وقالوا إنه كانت تقام للنابغة فيها قُبَّة ويقد عليه الشعراء يعرضون شعرهم ، فمن أشاد به طار اسمه . وكثيراً ما كانوا يفتدون الأسرى فيها وتدفع الديات ، وأيضاً كثيراً ما كانت تقوم المفاخرات والمنافرات . وعُرف غير واحد بأن الناس كانوا يحتكمون إليه فيها ، ويذكر في هذا الصدد أناس من تميم مثل الأقرع بن حابس . ومعنى ذلك كله أن عكاظاً كانت أشبه بمؤتمر كبير للعرب ، فيه يجتمعون وينظرون في خصوماتهم ، ومنازعاتهم ، وكل ما يتصل بهم من شئون . ومن أسواق قريش أيضاً ذو الحجاز بالقرب من عكاظ ، وكانت تظل هذه السوق منعقدة إلى نهاية الحج .

وبجانب هاتين السوقين الكبيرتين كان للعرب أسواق أخرى كثيرة يميرون فيها كما يريدون ويشترون ويبيعون ، ومن أهمها سوق دَوْمَة الجندل في شمالي نجد وسوق خيبر وسوق الحيرة وسوق الحِجْر باليمامة وسوق صُحار ودَبَا بعمان وسوق المشقَر بهجر وسوق الشَّحَر وسوق حضرموت وسوق صنعاء وعدن ونجران . وكان لكل سوق من هذه الأسواق وقت معلوم تعقد فيه ^(١) .

ولم يكن عرب نجد يفيدون من هذه الأسواق فقط البيع والشراء فإن قوافل عُرُوضها القرشية وغيرها كانت تجعل لكثيرين منهم بُجَعلاً نظير حمايتها ، وكانت تتخذ منهم الخفراء والأدلاء ، فتنفحهم بأموالها . على أنه ينبغي أن لا نظن أن أهل مكة جميعاً كانوا أثرياء ، فقد كان بجانب الأثرياء فقراء وصعاليك كثيرون ، وكان الفرق شاسعاً بين ثراء السيد الشريف وفقير المعوز البائس ، كما كان بها رقيق كثير .

وراء المجتمع المكي كان يعيش العرب في تهامة ونجد وصحراء النفود وبوادي الشام والدهناء والبحرين معيشة بدوية تعتمد على رعى الأغنام والأنعام . وكانوا لا يفضلون شيئاً على حياتهم الرعوية البدوية ، لا يفضلون الزراعة ولا الصناعة ، بل يحتقرونهما ويزدرونهما ، فلا حياة مثل حياتهم حياة البساطة والحرية التي

العرب قبل الإسلام لجواد علي ٢٢٣/٤ .

(١) انظر في أسواق الجاهلية كتاب المحبر ص ٢٦٣ ، واليعقوبي ٣١٣/١ وتاريخ

لأنَّ حَـدَّ . ووقفت الصحراء تحميهم وتحرس تقاليدهم ولغتهم وتقيم أسواراً من دونهم ودون هذه الحياة الصحراوية ، وهى حياة كان غذاؤهم فيها بسيطاً ، فقليل من الشعير يكفيهم ، وإذا أضيف التمر واللبن فذلك غذاء رافه ، وكان لباسهم بسيطاً كغذائهم ، وهو ليس أكثر من ثوب طويل يضمه فى وسطه منطقة وقد تلفه عباءة ، وغطاء للرأس يمسكه عقال .

ولكن لا تظن أن هذه الحياة البسيطة كانت سهلة ، فقد كانت الصحراء مليئة بالخواف والمخاطر ، إذ فيها غير قليل من الوحوش والسباع والحشرات والحيات ، وفيها القفار الجرداء الزاخرة بالحنادق والمهاوى ورياح السموم ، وفيها حنادس الليل المظلم المخيف التى كانت تلقى فى روعهم بالخيالات والأوهام وما تمثل لهم من السَّعالى والجن والغيلان . وفى تضاعيف ذلك كان العرب يتربص بعضهم ببعض ، إذ كانت حياتهم كما قدمنا حياة حربية دامية ، وكاد أن لا يكون هناك حى أو عشيرة بل أسرة إلا وهى واطرة موتورة .

وقد تحولت هذه الحياة الحربية من بعض وجوها إلى مصدر من مصادر رزقهم ، إذ كانوا يتخذون الغزو وسيلة من وسائل عيشهم ، وهو عيش مشوب بالضنك والشظف وهذا الصراع العنيف الذى كانوا يخوضونه ضد مخاطر الصحراء ومن يترصدهم من الأعداء ، وصوّر ذلك تصويراً طريفاً تأبط شراً فى كلمة له ، فقال (١) :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُتَمَسَّى بِغَيْرِهَا
وَيَسْبِقُ وَقَدْ الرِّيحَ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي
إِذَا خَاطَ عَيْنِيهِ كَرَى النُّومَ لَمْ يَزَلْ
وَيَجْعَلُ عَيْنِيهِ رَبِيبَةً قَلْبِهِ

جَحِيشًا وَيَعْرَوْرَى ظَهْرَ الْمَهَالِكِ (٢)
بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شِدَّةِ الْمَتَارِكِ (٣)
لَهُ كَالِيٌّ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانٍ فَاتَكَ (٤)
إِلَى سَلَّةٍ مِنْ حَدٍّ أَخْضَرَ بَاتَكَ (٥)

الشد : العلو ، المتدارك : المتلاحق .

(٤) خاط عينيه كرى النوم : نام ، الكالى :

الرقيب ، الشيحان : الجاد فى الأمر .

(٥) الربيبة : الرقيب والديديان ، والسلة :

الواحدة من سل السيف ، والأخضر : السيف ،

وباتك : القاطع .

(١) المرزوق ٩٥/١ وأمالى القالى ١٣٨/٢

وزهر الآداب ١٨/٢ .

(٢) يظل هنا : يغدو ، المومة : الفلاة ،

جحيشاً : منفرداً ، يعرورى : يركب .

(٣) وفد الريح : أولها ، ينتحى : يقصد ،

منخرق : سريع ، يقصد العدو السريع ،

إِذَا هَزَّهٗ فِي عَظْمٍ قِرْنٍ تَهَلَّلَتْ نَوَاجِدُ أَفْوَاهِ الْمَنَآيَا الضَّوَاحِكِ (١)

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك (٢)

وتلك كانت حياة أكثرهم ، فهم يقطعون مفازة في النهار ، فإذا جنتهم الليل وجدتهم في مفازة أخرى وقد ركبوا ظهور المهالك والمعاطب ، لا يستصحبون رفيقاً غالباً سوى أرجلهم التي تعودت العدو السريع . وهم دائماً مفزعون حتى في النوم ، فإذا ناموا لم ينم قلبهم بل ظل يكلوهم ويرعاهم خيفة عدو راصد من وحش أو إنسان ، بل إن النوم لا يكاد يلم بعيونهم إلا غراراً ، فهي معلقة بسيوفهم التي لا تلبث أن تستقر في صدور من يهجمون عليهم ، فيضحك الموت ويكشر عن أنيابه الغلاظ . وعلى هذه الشاكلة هم دائماً مستوحشون ، بل إنهم ليؤثرون الوحشة ويستحبونها إذ يرون فيها الأنس ، فأنسهم في التفرد بالقلوات والقفار التي تمرسوا بها وعرفوا مسالكها ودروها معرفة تجعلهم لا يضلون قصدهم ، كما لا تضل الشمس قصدتها ، بل يهتدون دائماً إليه .

وهذه الحياة القاسية المخوفة هي التي دفعتهم إلى الإشادة باحتمال الشدائد والبحرأة والشجاعة ، فإن القبيلة إن لم يكن لها حماة يذودون عنها تخطفتها القبائل من حولها وفنيت فيها . وكان أهم حيوان أعانهم على احتمال هذه الحياة المجاهدة البعير الذي يتحمل — مثلهم — مشاق الصحراء ولا يرهقه عطش ولا جوع ولا ما يحمله من أثقال . فهو رفيقهم المفضل الذي يوافقهم ، ولذلك طالما أشادوا به في شعرهم . وكثيراً ما يصفون معه الحيوانات التي تصادفهم من مثل أتن الوحش وحمارها وبقر الوحش وثورها والنعام والظباء . وكان فرسانهم يتفقون أيامهم على صهوات الجياد يرتادون بها مجاهل الصحراء ويلقون عليها الأعداء ، وقد يتخذونها لصيد الوحش على نحو ما يصور لنا ذلك امرؤ القيس في معلقته وزهير في لا ميته (٣) .

وكان صيد الحيوان الشغل الشاغل لكثيرين منهم ، فكانوا يدرّبون الكلاب عليه ويضربونها تضرية ، حتى تصبح من الجوارح الفاتكة ، وفي شعرهم قطع كثيرة تصف المعارك التي كانت تنشب بينها وبين الأتن وحمارها أو البقر وثورها .

(١) القرن : الكف والنظير ، تهلت : (٢) أم النجوم : الشمس .

تلاّت وأشرقت . (٣) انظر ديوان زهير ص ١٢٤ وما بعدها .

وفي معلقة لبيد وصف بارع لأتن وحمارها ، ثم لبقرة وحشية تعقبها الرماة بنبههم ، ولما يشسوا أن يصيبوا منها مقتلاً أرسلوا في إثرها جوارح الكلاب فنشبت معركة حامية قتلت فيها البقرة كلبتين هما كساب وسُخام ، يقول :

حتى إذا يشس الرماة وأرسلوا غُضْفاً دواجن قافلاً أعصامها^(١)
فلحِقْنَ واعتكرت لها مدريّة كالسمهرية حُدّها وتماها^(٢)
لتدودهنّ وأيقنت إن لم تذد أن قد أحمّ مع الحتوف حِمَامُها^(٣)
فتقصّدت منها كساب فضُرْجَت بدمٍ وغودر في المكرّ سُخَامُها^(٤)
ولأوس بن حجر قصيدة فائية^(٥) وصف فيها حمار الوحش وصفاً بديعاً ، ثم وصف الصائد وصفاً مسهباً ، أرانا فيه ناموسه وكيف كان يختبئ للوحش على عين ، حتى إذا ورد الحمار ختله بسهمه ، غير أنه أخطأه .

ويظهر أن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم ، إنما كان هم فقراهم ومعوزيهم ، ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم اللذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم ، ولعل ذلك ما جعل عمرو بن معد يكرب يهجو قوماً بأنهم يعيشون على الصيد ، إذ يقول^(٦) :

أبني زياد أنتم في قومكم ذنبٌ ونحن قُرُوعٌ أصلٌ طيّب
نصلّ الخميس إلى الخميس وأنتم بالقهر بين مربّقي ومكّلب^(٧)
جيدٌ عن المعروف سعى أبيهم طلبُ الوعول بوفضةٍ وبأكلب^(٨)

وكما كانوا يصيدون الوعول أو الماعز الجبلي كانوا يصيدون الوحش ، ويتردد وصفهم له في أشعارهم ترددّاً واسعاً ، وهو تردد أتاح للجاحظ في حيوانه سيولا

-
- (١) الغصف : الكلاب المسترخية الآذان ، الدواجن : الضاريات وقيل الملمات ، وقافلاً : يابساً ، والأعصام : قلائد من آدم تجعل في أعناق الكلاب .
(٢) اعتكرت : رجعت وعطفت ، والمدريّة القرون الحادة . ، والسمهرية : الرماح .
(٣) الحمام : الموت ، وأحم : حان .
(٤) تقصّدت : قتلت من قوتهم رماه فأقصده .
(٥) انظر ديوانه بتحقيق محمد يوسف نجم (طبع دار صادر بيروت) رقم ٣٠ .
(٦) حيوان ٣٠٩/٢ .
(٧) الخميس : الجيش . المربق : الصائد بالريقة وهي العروة في الحبل ، والمكّلب : الصائد بالكلاب .
(٨) الوفضة : جعبة للسهم من آدم .

من هذه الأشعار .

وتلك كانت معيشتهم بين صيد للوحش وصيد للإنسان ورعى للأنعام والأغنام ، فتلك موارد رزقهم ، وليس معنى ذلك أنهم كانوا متساوين في هذا الرزق ، فقد كان في كل قبيلة السادة الذين يملكون مئات الإبل والفقراء الذين لا يملكون شيئاً . وتحول كثير من هؤلاء الفقراء إلى قطاع للطرق يسلبون وينهبون ويقتلون على نحو ما هو معروف عن تأبط شرّاً والشنفرى وأضرابهما . وما كان يقوم به هؤلاء الذؤبان أو الصعاليك كانت تقوم به القبائل برمتها أحياناً حين تكفّ السماء عنهم غيثها وتجذب ديارهم وتشمحل ، فلا يكون أمامهم سوى الغزو وشن الغارات ، ولعل ذلك هو الذى دفعهم دفعاً إلى الإشادة بالكرم والكرماء ، وقد أشادوا طويلاً بهذه الفضيلة كما أسلفنا ، وهى إشادة طبيعية في هذه الصحراء المقفرة المهلكة ، التى يحفّ بها المحل والجذب من كل جانب .

٣

المعارف

ليس بين أيدينا ما يدل على أن العرب الجنوبيين أوروأ عرب الشمال حضارة واضحة ، ويظهر أنهم لم يخطوا في طريق الحضارة خطى واسعة ، فقد كان عندهم علم بالزراعة وهندسة إرواء الأرض وإقامة المدن ، ولم يكن عندهم ثقافة ذات معالم بيّنة ، وحتى من وجهة التنظيم السياسى كان يعمهم النظام الإقطاعى ، ولذلك حينما ضعفت دولتهم الأخيرة دولة سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنات أو الدولة الحميرية تحولوا سريعاً إلى قبائل بدوية .

ومما لا ريب فيه أن العرب الشماليين كانوا على صلة بالحضارات المجاورة ، فقد كان تجّار مكة يدخلون في مصر والشام وبلاد فارس ، وكان الحيريون يتصلون مباشرة بالفرس ، كما كان الغساسنة يتصلون بالروم ، وقد تنصروا ، وشاعت النصرانية في قبائل الشام والعراق ، ونزل بينهم كثير من اليهود في الحجاز واليمن . وكل ذلك معناه اتصال العرب الشماليين بالأمم المجاورة وحضاراتها ، ولكن يبدو أن ذلك كان يجرى في حدود ضيقة وأنه وقف في جمهوره عند تأثيرات بسيطة كأن يأخذوا عن الفرس والروم بعض فنون الحرب أو يعرفوا بعض أخبارهم وأساطيرهم ، ففى السيرة

النبوية أن قريشاً حين جمعت العرب — بعد موقعة أحد — لغزو المدينة أشار سلمان الفارسي على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحفر الخندق ، حتى لا يستطيعوا اقتحام المدينة عليه ، وكأنه كان أعلم من حوله بأساليب الحرب^(١). وفي السيرة أيضاً أن النضر بن الحارث كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفينديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهو لا يزال في مكة) مجلساً فذكر فيه الله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نعمة الله خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس وأبطالهم الأسطوريين^(٢) .

فالعرب الشماليون لم يكونوا منقطعين عن التأثيرات الحضارية الأجنبية ، غير أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما وصل إليهم من هذه التأثيرات ، فقد كانوا لا يزالون في طور السداجة البدوية ، وكل ما يمكن أن يقال إنهم كانوا في نهاية هذا الطور . وقد وقف من قديم قوم يقارنون بينهم وبين الشعوب المتحضرة من حولهم كالفرس والروم ، وكان على رأسهم الشعوبية ، وهي مقارنات تقوم على التحكم ، لأنها تقارن بين بدو ومتحضرين ، وقد مر الفرس والروم بطور بداءة كما مر العرب ، ولم يكن لهم فيه حضارة ولا نظر علمي دقيق . ومثل هذه المقارنات ما بعثه الغربيون منذ القرن الماضي من الموازنة بين الساميين جميعاً عرباً وغير عرب وبين الآريين ، على نحو ما هو معروف عن رينان^(٣) ، فقد ذهبوا يزعمون أن الآريين هم الجنس المفضل الذي أحدث الحضارة ، وكأنهم يريدون أن يبرروا صنيع ساستهم واستعمارهم للشعوب السامية . . وهي نظرية لا تؤيدها الحقائق العلمية الخالصة ، إذ لا يستطيع أحد أن يثبت نقاء سلالة جنسية بعينها ، لها نسب صريح ، وأيضاً فإن هذه النظرية تتناسى أثر البيئة والظروف التي تلم بالشعوب ، ومن المحقق أن الحضارة الإنسانية ليست من عمل جنس واحد ، فقد تعاونت على تكوينها أجناس متباينة ، ولكل جنس فيها نسبه المتعادلة . ويدخل في هذه المقارنات المضللة ما نجده عند ابن خلدون

(١) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ٢٣٥/٣ . (٢) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد

على ١٦٨/١ .

(٢) السيرة النبوية ٣٢١/١ .

من حكمه على العرب بأنهم ليسوا أصحاب صناعات ولا علوم^(١) ، لأن ذلك إنما ينطبق عليهم في الجاهلية ، أما في الإسلام فقد عرفوا الصناعات ونهضوا في الميادين العلمية والفلسفية نهضة كانوا فيها أساتذة العالم في عصوره الوسيطة . ويقول أوليري : إن العربي مادي ، ضيق الخيال والعواطف^(٢) ، وكأنه يتجاهل أديهم وما يزخر به من أنخيلة ومشاعر ، وهو تعميم جنسى لا دليل عليه ، وكأنما قادتة إليه نظرية الأجناس البشرية وما يدعو إليه أصحابها من تفوق الجنس الآرى على ما سواه من أجناس .

وندع هذه المقارنات المضللة وما سقط منها من أحكام خاطئة إلى بيان ما كان لدى العرب في الجاهلية من معارف ، لعل أهمها علمهم بالأنساب والأيام وما ينطوى في ذلك من المناقب والمثالب ، مما سجله العباسيون في مجلدات ضخمة . وكأنهم رأوا في ذلك كله تاريخهم ، فكانوا يروونه ويحفظونه أبناءهم ، واشتهر عندهم كثيرون في هذا الباب من أبواب الرواية .

ويلي هذا النوع من المعارف معرفتهم بالنجوم ومطالعها وأنوائها وأمطارها ، يقول الجاحظ : « وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء لأن من كان بالصحاحص الأماليس^(٣) — حيث لا أمانة ولا هادى مع حاجته إلى بعد الشقة — مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه^(٤) ، ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجذب وضنه بالحياة اضطرتته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ، ولأنه في كل حال يرى السماء وما يجرى فيها من كوكب ويرى التعاقب بينها والنجوم الثوابت فيها وما يسير منها مجتمعاً وما يسير منها فardاً^(٥) ، وما يكون منها راجعاً ومستقيماً . وسئلت أعرابية فقيل لها : أتعرفين النجوم ؟ قالت : سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً على كل ليلة . ووصف أعرابي لبعض أهل الحاضرة نجوم الأنواء ونجوم الاهتداء ونجوم ساعات الليل والسعود والنحوس ، فقال قائل لشيخ عبادى كان حاضراً : أما ترى هذا الأعرابي

(٣) الصحاحص : الأرض المستوية ،

الأماليس : التي ليس بها ماء ولا شجر .

(٤) يؤديه : يعينه .

(٥) فardاً : منفرداً .

(١) المقدمة (طبع المطبعة البهية) ص

٢٥٢ وفي مواضع متفرقة .

(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة

الأولى) ص ٣٩ نقلاً عن كتاب أوليري :

Arabia Before Muhammad.

يعرف من النجوم ما لا نعرف ؟ قال : من لا يعرف أجذاع^(١) بيته^(٢) ؟ ! .
وهي معرفة أداهم إليها فرط الحاجة ، ويقول صاعد بن أحمد المتوفى سنة ٤٣٥ هـ :
« كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغايها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها
على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك في
أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق ولا على سبيل التدريب في العلوم^(٣) » .

وبهذا القياس نفسه كانت معارفهم الطبية ، فقد عرفوها بالتجربة مثل الكى
بالنار وفوائد بعض العقارات النباتية . وكان ينتشر بينهم في تضاعيف ذلك كثير
من الخرافات كإيمانهم بأن دم السادة يشفى من الكلب وأن عظام الميت تشفى من
الجنون وأن روحاً شريرة تحلّ في المريض ، وكانوا يتداون منها بالعزائم والرقى .
فطهرهم كان قاصراً ولم يكن مبنياً على قواعد عقلية ، وحقاً ما يقول ابن خلدون :
« للبادية . . طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ،
متوارثة عن مشايخ الحى وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على
قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج ، وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان
فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كتملة وغيره^(٤) » . ومن أهم معارفهم الطبية
معارفهم البيطرية ، وخاصة فيما اتصل بالخيول والإبل ، فقد عرفوا شياتها وما يزيها
ويعيبها وما يتصل بذلك من علل وأمراض وأدواء كالجرب وما كانوا يداوونه به .
وقد تحدثوا طويلاً عن حيواناتهم وخصائصها حديثاً بل أحاديث أفاد منها الجاحظ
في حيوانه ، غير أنه يعلق على ذلك بقوله : « وإنما أعتمد على ما عند الأعراب ،
وإن كانوا لم يعرفوا شكل ما أحتاج إليه منها من جهة العناية والفلاية^(٥) ولا من جهة
التذاكر والتكسب ، ولكن هذه الأجناس الكثيرة ما كان منها سبغاً أو بهيمة
أو مشترك الخلق فإنما هي مبثوثة في بلاد الوحش من صحراء أو واد أو غائط
أو غيضة أو رملة أو رأس جبل ، وهي في منازلهم ومناشئهم ، فقد نزلوا كما ترى
بينها وأقاموا معها . . وربما بل كثيراً ما يبتلون بالناب والخلب وباللدغ واللسع
والعض والأكل ، فخرجت بهم الحاجة إلى تعرف حال الجاني والجراح والقاتل

(١) الأجذاع : سيقان النخل تجعل سقفاً للخيمة .

(٢) الحيوان ٣٠/٦ .

(٣) طبقات الأمم لصاعد (طبع بيروت)

ص ٤٥ .

(٤) المقدمة ص ٣٤٦ .

(٥) الفلاية : النظر العلمى .

وحال المجنى عليه والمجروح والمقتول ، وكيف الطلب والهرب ، وكيف الداء والدواء لطول الحاجة ولطول وقوع البصر ، مع ما يتوارثون من المعرفة بالداء والدواء^(١) . وكانت عظم عناية خاصة بالفراسة والقيافة ، وهي تتبع الأثر في الأرض والرمل ، ولهم في ذلك أقاصيص طويلة ، وطبيعي أن تنمو عندهم القيافة ليتتبعوا من يضل منهم في الصحراء ، أو ليتتبعوا الأعداء الذين يغيرون عليهم وينهبون أموالهم ونساءهم في غيبتهم عن أحيائهم .

وهذه الضروب جميعها من المعرفة ضروب أولية ، تقوم على التجربة الناقصة ولا تؤسس على قاعدة ولا على نظرية ، فهم في جمهورهم بدو ، ليسوا أصحاب علم ولا نظر عقلي مؤسس على أسلوب علمي . ولعله من أجل ذلك شاعت عندهم العيافة وهي التنبؤ بملاحظة حركات الطيور ، وقد اشتهر بها بنو أسد وبنو لُحَب ، وكانوا يتيامنون بها ويتفاءلون إن جرت . يمنة ويتشاءمون إن جرت يسرة ، ولهم في الطيرة أحاديث كثيرة ، قال الجاحظ : « وأصل التطير من الطير إذا مرَّ بارحاً (ميامناً) وسانحاً (مياسراً) أو رآه يتفلى وينتف ، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم أو الأعضب أو الأبر زجروا عند ذلك وتطيروا . . فكان زجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوا ذلك في كل شيء . . وللطيرة سمت العرب المنهوش بالسليم والبرية بالمفازة وكسّوا الأعمى أبا بصير والأسود أبا البيضاء وسموا الغراب بحاتم . والغراب أكثر من جميع ما يتطير به في باب الشؤم^(٢) . ولا يمانهم بباب الطيرة كانوا يستقسمون بالأزلام والقداح ، وهي سهام ، كانوا يكتبون عليها عبارات يصدرون عنها مثل الأمر والنهي والمتر بص ، وهي غير أزلام القمار وقداحه . وكل هذا يدل على أن التسبيب العقلي عندهم كان ضعيفاً ، وأنهم كانوا لا يحسنون ربط المسببات بأسبابها ربطاً محكماً ، وهذا طبيعي فقد كانوا في طور البداوة ، فلم يكونوا يفهمون الارتباط بين العلة والمعلول ، وكانوا لا يتعمقون في بحث الأشياء ، إنما كانوا ينظرون إليها نظراً عارضاً أو خاطفاً . يقفون عند الجزئيات ، ولا يتعلقون بمدرجات كلية أو نظرات شاملة فكل ذلك لا يطوف بالدائرة التي يحويها دائرة الحياة الفطرية الساذجة . وحقاً شاعت عندهم الحكمة ، ولكن لا بمعناها

(١) الحيوان ٢٩/٦ .

(٢) الحيوان ٢٢٨/٢ وما بعدها .

الذى عُرِفَتْ به فى العصور الإسلامية وهو الفلسفة ، وإنما بمعنى الخبرة المحدودة التى تصورها عبارة من العبارات القصيرة . ومن أمثالهم « فى بيته يؤتى الحكم » وهو من يحكم بين الناس فى منافراتهم ومفاخراتهم وخصوماتهم . وربما اشتقت الكلمة من هذا المعنى ، فالحكم هو العاقل المجرب الذى يحقق بحكمه العدل ويمنع الخصام . وكذلك كانت الحكمة ، فهى تنبئ عن معرفة الشخص بالحياة ، ووقوفه على طرقها المستقيمة التى تهدى سبيل الرشاد .

وكررت الحكم والأمثال عندهم ، وألفت فيها كتب ضخمة فى العصر العباسى ، من أشهرها كتاب « جمهرة الأمثال » للعسكرى و « مجمع الأمثال » للميدانى . واشتهر عندهم حكماء كثيرون كانوا يفصلون بينهم ، ويتناقلون ما يجرى على ألسنتهم من وصايا وتعاليم يفيدون منها فى حياتهم ، يقول الجاحظ : « ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء (الفطنة) لقمان بن عاد ولقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن يربوع . . ولؤى بن غالب وقس بن ساعدة وقصى بن كلاب . ومن الخطباء البلغاء والحكام والرؤساء أكرم بن صيني وربيع بن حذار وهرم بن قطبة وعامر بن الظرب ولبيد بن ربيعة »^(١) . وللقمان سورة فى القرآن الكريم ، ويقال إنه كانت له حكم معروفة عند الجاهليين جمعوها فى صحيفة تدعى مجلة لقمان ، ففى أخبار سويد بن الصامت أنه « قدم مكة حاجاً أو معتمراً ، فتصدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الله عز وجل وإلى الإسلام ، فقال له سويد : لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال له رسول الله : وما الذى معك ؟ قال : مجلة لقمان ، يعنى حكمة لقمان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها على ، فعرضها عليه ، فقال : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل منه : قرآن أنزاه الله على ، وهو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد ، وقال إن هذا القول حسن ، ثم انصرف ، وقدم المدينة على قومه ، فلم يلبث أن قتله الخزرج ، فكان رجال من قومه يقولون : إنا لنراه مات مسلماً ، وكان قتله يوم بُعث^(٢) » .

(٢) أسد الغابة ٢ / ٣٧٨ .

(١) البيان والتبيين (طبعة عبد السلام هارون) .

وتتملى كتب الأمثال والأدب بما دار على لسان لقمان وغيره من حكماء
الجاهلية من حكم، مثل قول أكم: «مقتل الرجل بين فسكيه» وقول عامر بن
الظرب: «رب زارع لنفسه حاصد سواه». وفي الشعر الجاهلي كثير من هذه
الحكم، وهي تذكّر في ثنايا كلامهم من مثل قول طرفة في معلقته:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والديهر ينقص
ومن اشتهر بهذه الحكم الأفوه الأودي وليد وعبيد بن الأبرص، وفي خاتمة
معلقة زهير طائفة كبيرة منها على شاكلة قوله:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسهم^(١)
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن هاب أسباب المنية يلقيها ولو رام أسباب السماء بسلم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وكان أكثر حكمهم يستقي من مروءتهم وسننها التي وصفناها فيما مر من
حديثنا، وهي تجرى مجرى التعاليم التي ينبغي أن يأخذوا بها في حياتهم. وقد وقف
شعراؤهم كثيراً عند فكرة الحياة والموت والديهر وما يرمى به الناس، وكانوا يرون
أنه لا مفر من الموت ولا حيلة منه، فلا ينفع إزاءه صحة ولا شباب ولا قوة،
وكثيراً ما يذكرون من سبقهم إليه متخذين من ذلك عظمهم، يقول قيس بن
ساعدة^(٢):

في الذاهبين الأولين من الشعوب لنا بصائر
لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجعون قومي إلا ي من الباقيين غابر

(١) المصانعة: الترفق والمداواة، يضرس:

(٢) حماسة البحترى ص ٩٩ وانظر البيان

بعض، المنسم: خف البعير.

والتبيين ٣٠٩/١.

أيقنستُ أني لا محالة حيث صار القومُ صائراً

وكثيراً ما يتسعون بهذه النظرة ، فيخرجون عن إفناء الزمان لعشائهم وقبائلهم إلى إفنائه للدول والملوك من حولهم ، فالليالي والدهر والأزمان في كل وقت تهدم جداراً كبيراً إما من ملك أو دولة ، وحتى الأنبياء وسليمان الذي سُخِّرَتْ له الجن تلفتُ نفوسهم جميعاً وهلكوا كما هلك من قبلهم ، ويهلك من بعدهم^(١) .

ودائماً يكررون أن الدهر بالمرصاد وأنه لا يؤمنُ في صباحه ومساءه ، ولهم في عتابه على فجيعته لهم بالأهل محاورات طريفة ، كقول زهير إن صح أنه له^(٢) :

يا من لأقوامٍ فُجِعَتْ بهم كانوا ملوك العرب والعجم

استأثر الدهرُ الغداة بهم والدهرُ يرميني ولا أرمي

لو كان لي قرناً أناضلُهُ ما طاش عند حفيظةٍ سهمي^(٣)

أو كان يعطى النصفَ قلت له أحرزتَ قسمك فآله عن قسمي^(٤)

يا دهر قد أكثرتَ فجَعَتْنَا بسرَاتنا ووقرتَ في العظم^(٥)

وسلبتنا ما لستَ مُعقبنا يا دهر ما أنصفتَ في الحكم

وعلى هذه الشاكلة كان لهم ضرب من التفكير في حقائق الحياة والموت ،

كما كان لهم حكم كثيرة مقتبسة من حقائق مجتمعهم ومعاشهم . وليس في ذلك كله فلسفة ، ولكن فيه البساطة والفطرة وما يدل على حنكتهم وتجربتهم الحسية الواقعية .

(١) حماسة البحتري ص ٨٣ وانظر

المفضليات ص ٢١٧ .

(٢) حماسة البحتري ص ١٠٥ وانظر

الديوان (طبعة دار الكتب) ص ٣٨٥ .

(٣) الحفيظة : الغضب .

(٤) النصف : العدل .

(٥) السراة : السادة ، وقرت : صدعت .

الدين^(١)

كانت كثرة العرب في الجاهلية وثنية تؤمن بقوى إلهية كثيرة تنبث في الكواكب ومظاهر الطبيعة ، وفي أسماء قبائلهم ما يدل على أنهم كانوا قريبي عهد بالطوطمية (Totemism) إذ تلتف جماعة حول الطوطم تتخذة حاميتها والمدافع عنها من مثل كلب وثور وعلبة . وقد آمنوا بقوى خفية كثيرة في بعض النباتات والجمادات والطير والحيوان ، وليس بصحيح ما يزعمه رينان من أنهم كانوا موحدين^(٢) ، فقد كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى كما جاء في القرآن الكريم ، وكانوا يتعبدون لأصنام وأوثان كثيرة اتخذوها رمزاً لآلهتهم ، ويفيض كتاب الأصنام لابن الكلبي في بيان هذا الجانب . ويظهر أن عبادة النجوم والكواكب دخلت عندهم من قديم ، وقد جاءتهم من الصابئة وبقايا الكلدانيين ، كما جاءتهم من لدن عرب الجنوب الذين كانوا يرجعون بآلهتهم إلى ثالث مقدس ، كما مر بنا ، هو القمر أو ود ، والشمس أو اللات ، والزهرة أو العزى . ونراهم يقدسون النار ، ويظهر ذلك في إيقادهم لها عند أحلافهم ، واستمطارهم السماء وتقديم القرابين إليها^(٣) . ويقال إن المجوسية كانت متفشية في تميم وحمان والبحرين وبعض القبائل العربية^(٤) ، والمجوس كما نعرف ثنوية يؤمنون بإلهين يدبران العالم هما النور والظلمة أو الخير والشر .

وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً ، وقد صوروها أو نحتوها رمزاً لآلهتهم ، وقد يرون في بعض الأحجار والأشجار والآبار ما يرمز إليهم ، ففي أخبارهم أن العزى كانت لغطفان ، وهي شجرة بوادي نخلة شرقي مكة ، وقد قطعها خالد بن الوليد ، وهو يقول :

الإسلام لمحمد عبد المعيد خان وتاريخ العرب القديم ترجمة فؤاد حسنين على .
(٢) راجع جواد على ٢٠/٥ وما بعدها و ٥٣/٥ وما بعدها حيث يذكر رأي رينان وآراء غيره من المستشرقين .
(٣) انظر الحيوان ٤٦١/٤ وما بعدها .
(٤) جواد على ٢٨٤/٦ وما بعدها .

(١) انظر في ديانات الجاهليين الجزين الخامس والسادس من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على
وكتاب روبرتسن سميث :
Lectures on the Religion of the Semites.
وبقايا الوثنية العربية لوهوزن : — Rste Arabis
chen Heidentums . والأساطير العربية قبل

يا عَزَّ كُفْرَانِكَ لَا مُبْحَانِكَ . إِنِّي رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ^(١)

ويشير القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم ، فيقول جل وعز : (أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ويقول سبحانه وتعالى : (ولا تدركنَّ ودًّا ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً) . وكانت عبادة اللات أوالشمس شائعة بين العرب الجنوبيين وفي الحجاز ، وكان معبدها في الطائف ، ويقال إنه كان صخرة مربعة بيضاء بنتٌ عليه ثقيف بيتاً وكانت قریش وجميع العرب يعظمونه^(٢) ، ويتردد في أسمائهم وهب اللات وعبد شمس ، وعبد العزى ومثلها مثل اللات في تعظيم قریش والعرب لها وتقديسها . وكانت مناة صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وربما كان في اسمها ما يدل على أنها ترمز إلى إله الموت ، فهي إلهة القضاء والقدر ، وكانت معظمة عند هذيل ونخزاعة والعرب جميعاً وخاصة الأوس والخزرج إذ « كانوا يحجون إلى مكة ، ويقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رءوسهم ، فإذا نفروا أتوا مناة وحلقوا رءوسهم عندها ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك »^(٣) . وودّ كما قدمنا من الآلهة الجنوبية ، وهو يؤلف مع اللات والعزى ثلاث الأب والأم والابن ، وكان صنمه بدومة الجندل ، وظل منصوباً هناك إلى أن جاء الله بالإسلام^(٤) . وكان سواع صنم هذيل وكنانة ، وهو حجر كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مضر^(٥) ، وربما كان في اسمه ما يدل على أنه إله الشر والهلاك ، ويغوث وهو صنم مذحج وعشائر من مراد وهوازن^(٦) . وكان يعوق صنم همدان وخولان وما والاهما من القبائل^(٧) . وفي اسمه واسم يغوث ما يشير إلى أرواح حافظة ، فمعنى يغوث يعين ، ومعنى يعوق يحفظ

(١) الأصنام لابن الكلبي ص ١٧ وما بعدها ومادة العزى في معجم البلدان .

(٢) الأصنام ص ١٦ والمخير لابن حبيب ص ٣١٥ ومعجم البلدان في اللات .

(٣) الأصنام ص ١٤ وأخبار مكة للأزرق (طبعة المطبعة المأجدية) ٧٣/١ ومعجم البلدان في مناة والمخير ص ٣١٦ .

(٤) الأصنام ص ٥٥ وما بعدها والمخير ص ٣١٦ ومعجم البلدان في «ود» .

(٥) الأصنام ص ٥٧ وجميع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ٣٦٤/١٠ ومادة رهاط ، حيث أقاموه ، في معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان لياقوت .

(٦) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والمخير ص ٣١٧ والطبرسي ٣٦٤/١٠ ومعجم البلدان في يغوث .

(٧) الأصنام ص ١٠ ، ٥٧ والطبرسي ٣٦٤/١٠ ويعوق في معجم البلدان .

ويمنع . وكان نسر معبود حمير^(١) ، وانتشرت عبادته في الشمال ، ويشير اسمه في وضوح إلى الطائر المعروف باسمه ، وفي الطبرسي : « كان ودّ على صورة رَجُل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر من الطير »^(٢) .

ووراء هذه الأصنام التي ذكرها القرآن الكريم أصنام كثيرة كانت تتعبد لها قريش والقبائل العربية في الجاهلية ، ويقال إنه كان في الكعبة عند فتح الرسول صلى الله عليه وسلم لمكة ثلاثمائة وستون صنماً^(٣) ، وكان أعظمها عند القرشيين هُبَل : « وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، وجعلتها له قريش من ذهب : وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة قِداح ، مكتوب في أحدها : « صريح » والآخر : « مُلصَق » . فإذا شكّوا في مولود أهدوا إليه هدية ، ثم ضربوا بالقِداح (السهام) فإن خرج (صريح) ألحقوه بأبيه ، وإن خرج (ملصق) دفعوه . وقدحٌ على الميت ، وقدح على الزواج .. وإذا اختصموا في أمر أو أرادوا سفراً أو عملاً أتوه فاستقسموا بالقِداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه .. وعنده ضَرَب عبد المطلب بالقِداح على ابنه عبد الله »^(٤) . وباسمه كان ينادى أبو سفيان في معركة أحد ويصيح : اعلُ هبل .

ومن أصنام قريش المشهورة إساف ونائلة ، ويقال إنهما كانا شخصين أتيا أعمالاً سيئة فُسِّخا حجّرين ، وعبدتهما الناس ، وكان أحدهما ملاصقاً للكعبة ، وثانيهما في موضع زمزم ، ويقال إن إسافاً كان بإزاء الحجر الأسود وكانت نائلة بإزاء الركن اليماني^(٥) . ومن أصنامهم مناف وبه سمي عبد مناف .

ومن الأصنام المشهورة رضا وتَيْم وشمس لقيم وذوالخلصة وهو صنم خشب وبَجيلة وأزد السراة ، ويقال إنه كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ، وكان موضعه بتبالة وله بيت يحجون إليه^(٦) . وذو الشَّرَى وكان له معبد ضخم في

(٤) الأصنام ص ٢٨ والطبرسي ٣٦٤/١٠ .

(٥) الأصنام ص ٢٩ والمخير ص ٣١٨

والطبرسي ٣٦٤/١٠ .

(٦) الأصنام ٣٤ ، ٤٧ والأزرق ٢٥٦/١

والمخير ص ٣١٧ .

(١) الأصنام ص ٥٧ والطبرسي ٣٦٤/١٠

ومادة نسر في معجم البلدان واللسان وتاج العروس .

(٢) الطبرسي ٣٦٤/١٠ .

(٣) انظر الجزء الثاني من ابن الأثير في

ذكر فتح مكة .

سُلع (بطرا)^(١) ويظهر أن عبادته قديمة ، وهو يقابل الإله ديونيسوس عند اليونان إله الخصب والخمر .

وكانوا يتخذون عند هياكل هذه الأصنام والأوثان أنصاباً من حجارة يصبون عليها دماء الذبائح التي يتقربون بها إلى آلهتهم ، وكانوا يقدسون هذه الأنصاب ويعدون لها مقراً لبعض الأرواح . وفي القرآن الكريم : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) . والأزلام هي القداح كما مر بنا .

وفرق بين الصنم والوثن ، فالصنم يكون غالباً تمثالا ، أما الوثن فيكون غالباً حجراً ، وقد يسمى الصنم بالوثن ، يقول ابن الكلبي : « واستهترت العرب في عبادة الأصنام ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به كطوافه بالبيت .. فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها ، فاتخذها رباً وجعل ثلاثة أثافي ليقدره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك . وكانوا ينحرون ويدبحون عند كلها ويتقربون إليها »^(٢) .

وهذه البيوت التي اتخذوها لأصنامهم كان منها كعبات كبيرة يحجون إليها ككعبة ذي الحليفة وهي الكعبة الحجازية وكعبة الطائف وهي بيت صنمهم اللات ، وأشهر كعباتهم كعبة مكة حارسة الوثنية في الجاهلية ، وهي التي وصلتنا عنها تفاصيل كثيرة توضح ما كانوا يتخذون في حَجِّهم إليها من شعائر . وكانوا يطوفون بها أسبوعاً ويسعون بين الصفا والمروة ، ويُظَنُّ أنه كان على كل منهما صنم ، ويقال إنه كان على الصفا إساف وعلى المروة نائلة . وكانوا يقفون بعرفة ويفيضون منها إلى المزدلفة ثم منى . وكانت إفاضتهم في عرفة عند غروب الشمس ، أما في المزدلفة فعند شروقها ، وكان يتولَّى الإجازة في الأولى بعض التيمييين . وفي الكعبة الحجر الأسود وكانوا يقبركون به ويتمسحون بأركان الكعبة جميعها . ويقال إن طوافهم بأصنامهم كان سبعة أشواط وكانوا يختلفون في طوافهم ، فمنهم من يطوف عرياناً وهم الجلة^(٣) ، ومنهم من يطوف في ثيابه وهم الحُمس^(٤) من قريش

(١) الأصنام ص ٣٧ وتاج العروس (٣) المحبر ص ١٨٠ وما بعدها .
واللسان في مادة الشرى .
(٢) الأصنام ص ٣٣ .
(٣) المحبر ص ١٧٩ والأزرق ١١٤/١ .
(٤) المحبر ص ١٧٩ والأزرق ١١٤/١ .

وكنانة وخزاعة، ويصور لنا الأزرق طواف العريان بقوله : « يبدأ بإساف فيستلمه (يعتنقه) ثم يستلم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سبعاً استلم الركن (حيث الحجر أو الحطيم) ثم استلم نائلة ، فيختم بها طوافه ، ثم يخرج فيجد ثيابه كما تركها لم تمس فيأخذها ، فيلبسها ، ولا يعود إلى الطواف بعد ذلك عرياناً^(١) . » .
وقد أبطل الإسلام العرى في الطواف ، كما أبطل كثيراً من تقاليد الحُمس^(٢) .
وكان من تقاليدهم رمي الجمرات في منى وتقديم العتائر أو الضحايا وذبحها عند الأنصاب وكذلك تقديم الهدايا من الزروع والغلات ، وفي القرآن الكريم : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحسرت والأنعام نصيباً ، فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون) . وتدل الآية الكريمة على أنهم كانوا يجعلون لله نصيباً ، ثم يعودون فيجعلونه لآلهتهم الصغرى أو لأصنامهم . وذكر القرآن الكريم البهيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وأولاهن الناقة أو الشاة يحرمون لبنها والانتفاع بها ، والثانية مايسيب (يترك) نذراً للآلهة فلا يمنع من ماء ولا كلاً ، والثالثة ناقة أو شاة تحمل سبعة أبطن ، فإذا كان السابع ذكراً ذُبِح وأكل منه الرجال والنساء ، وإن كان أنثى استحيوه ، وإن ولدت توأمًا : ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وحرّموا ذبحه على أنفسهم . أما الحام فالبعير ينتج عشرة أبطن من صلبه ، ويقولون : قد حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

ويظهر أنه كانت عندهم طقوس كثيرة في نذورهم وقرابينهم ، وقد هدمها الإسلام هدمًا ، وأيضاً كانت هناك شعائر وطقوس كثيرة في الحج نفسه لعل أهمها التلبية ، يقول ابن حبيب : « وكانوا يلبّون إلا أن بعضهم كان يشرك في تلبيته ، وكان نسك قريش لإساف ، تقول : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك . وكان لكل قبيلة بعدُ تلبية ، فكانت تلبية من نسك للعزى : لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ما أحببنا إليك . وكانت تلبية من نسك لللات : لبيك اللهم لبيك ، لبيك ، كفى بيتنا بنيّة ، ليس بمهجور ولا يلية ، لكنه من تربة زكية ، أربابه من صالحى البرية . . . وكانت تلبية من نسك لود :

(١) الأزرق ١١٤/١ .

(٢) الأزرق ١١٦/١ وما بعدها .

لبيلك اللهم لبيلك ، لبيلك معذرة إليك . وكانت تلبية من نسك لدى الخلصة :
لبيلك اللهم لبيلك ، لبيلك بما هو أحب إليك . . . (١) .»

وجعلوا للحج أربعة أشهر معلومات ، سموها الأشهر الحرم ، وهي رجب
وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وكان الحج إلى مكة في ثالثها ، وفي اسمه ما يدل
على أن الحج المعظم للكعبة القرشية كان فيه . وكانت هذه الأشهر حراماً عندهم
فلا يستباح دم ، ولا تنشب حروب ، إلا ما كان من حرب الفجار ، وعدت
انتهاكاً عظيماً لحرمات البيت . وكأنما كانت هذه الأشهر هدنة لهم ، ومُعِيناً لبعدهم
عن الأماكن المقدسة في الوصول إليها دون أن تُمسّ نذورهم . وكانوا فيها يتجرون
ويعيرون ويقيمون أسواقهم كسوق عكاظ .

وكانت هناك جماعات تقوم على سِدانة بيوتهم المقدسة ، ويسمونهم الحجابة ،
وكانت في مكة لبني عبد الدار ، وبجانب هؤلاء السدنة كهان كانوا يدعون معرفة
الغيب وأنه سخر لهم طائف من الجن يسترق لهم السمع فيعرفون ما كُتب للناس في
ألواح الغد . ومن عُرف بذلك سطيح الذئبي وشيق بن مصعب الأنماري وعوف بن
ربيعة الأسدي وسلمة الخزاعي وسواد بن قارب الدوسي وعزّي سلمة (٢) . ونجد
بجانب الكهنة كاهنات مثل الشعثاء والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير وكاهنة
ذى الخلصة (٣) . وفي أخبار الإسلام الأولى ما يدل على أنه كان يلحق ببيوت
الأصنام بغايا ، وكانوا سبباً في ثورة بحضرموت قضى عليها أمية بن أبي المهاجر
لعهد أبي بكر الصديق (٤) .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أنهم كانوا يؤمنون إيماناً واسعاً بالأرواح
وأنها تحل في كل ما حولهم من مظاهر الطبيعة ، وكان منها أرواح خيرة ،
هي الملائكة وأرواح شريرة هي الشياطين . وفي القرآن الكريم : (وجعلوا الملائكة
الذين هم عباد الرحمن إناثاً شهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويسألون) . فكانوا

(١) المحبر ص ٣١١ .

(٢) السيرة النبوية (طبع الحلبي) ١٥/١
والكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ٣٠١/١
وأغاني (طبعة دار الكتب) ٨٤/٩ وطبعة
الساسي ٧٠/١٥ والسيرة الحلبية (طبع

بولاقي) ٥/١ .

(٣) انظر مجمع الأمثال للميداني ٩١/١ ،

٢٢٣/١ ، ٥٤/٢ .

(٤) المحبر ص ١٨٤ .

يزعمون أنها بنات الله ، وكانوا يعبدونها — كأصنامهم — من شفعاتهم عند الله وشركائه ، وحكى القرآن اعتقادهم في ذلك إذ يقول جلَّ وعز : (ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون) . وفي القرآن سورة للجن وكانوا يخافونها ويتعبدونها ويجعلون بينها وبين الله نسباً ، يقول جلَّ وعز : (وجعوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون) . وفي أساطيرهم أو قل في معتقداتهم أن الجن هي التي تصد الثيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب فهلك . يقول الجاحظ : وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لكدر الماء أو لقلة العطش ضربوا الثور ليقتحم الماء ، لأن البقر تتبعه^(١) ، فكانوا إذا امتنعت ظنوا ذلك من عمل الجن وإيحاءهم . ولهم فيها كثير من الأساطير ، عرض لها الجاحظ في الجزء السادس من حيوانه ، فتحدث عن مواطنها في رأيهم وأنها تتركب النعام والظباء والحشرات وأنها تتصور في صور كثيرة ، وتتوالد مع الناس ، وقد تستهويهم وتمتلكهم أو تخبلهم ، ويسمَّع ليلاً عزيفهم وهتافهم . ومنهم من يألف الكهان ويخدمهم وهو الرقي ، ومنهم من صورته على نصف صورة الإنسان ويسمى شيقاً ، ولكل شاعر شيطانه الذي ينفث فيه الشعر . ومنهم السعلاة ، والغول وهي من سباعهم ، ويزعم تأبط شراً في شعر يضاف إليه أنه لقيها في ليلة مظلمة وهو يسعى في فلاة ، فنازلها وما زال بها حتى قتلها وهو لا يعرفها ، يقول^(٢) — إن صح أنه قائله — :

فلم أنفك متكئاً عليها لأنظر مصبحاً ماذا أتاني
إذا عينان في رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان
وساقا مخدج وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان^(٣)

وهؤلاء الوثنيون كانوا ينكرون الرسل وأن هناك إلهاً واحداً قال جلَّ وعز : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملائة منهم أن امشوا واضبروا على آلهتكم إن

(٣) مخدج : ناقص الخلق ، الشواة :

الأطراف ، الشنان : جلد القربة البالي .

(١) انظر الحيوان ١٨/١ وما بعدها .

(٢) الأغاني (سأسي) ٢١٢/١٨ .

هذا الشيء يُراد، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق) . وكانوا لا يؤمنون ببعث ولا نشور يقول جل ذكره : (وقالوا إن هـى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) وقال : (وقالوا ما هـى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون) وقال : (وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) . ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلى حتى نجد استعداداً لفكرة الإله الواحد، وخاصة عند طائفة كانت تدعى باسم الحنفاء ، وكانت تشك في الدين الوثنى القائم وتلتمس ديناً جديداً يهديها في الحياة . يقول ابن إسحق : « اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه ويسبحون له ويعكفون عنده ويدرون (يطوفون) به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً ، فخلص منهم أربعة نفر نجياً ، ثم قال بعضهم لبعض : تصادقوا وليكنم بعضهم على بعض قالوا أجل ، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وعبيد الله ابن جحش وعثمان بن الحويرث وزيد بن عمرو بن نفيل فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله ما قومكم على شىء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجرٌ نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً ، فإنكم والله ما أنتم على شىء . ففترقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ، فأما ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانية وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والمسيئة والدم والذبائح التى تذبح على الأوثان وقال أعبد رب إبراهيم »^(١) ومعروف أنه أسلم وكان من الصحابة الأولين المقدمين .

وأكبر الظن أن كلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه كما يدل على ذلك اشتقاقها ، ولم يكن هؤلاء الحنفاء في مكة وحدها ، فقد كانوا منتشرين في القبائل ، إذ تعدّ كتب الأدب والتاريخ منهم قس بن ساعدة الإيادى وأبا ذر الغفارى وصيرمة

ابن أبي أنس أحد بني النجار في المدينة وعامر بن الظرب العدواني ونخالد بن سنان العبسي وأمية بن أبي الصلت الثقفي وعمير بن جندب الجهني . ويمكن أن ندخل فيهم كثيرين ممن حرّموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام (١) مثل عبد المطلب بن هاشم وقيس بن عاصم التميمي وحنظلة الراهب ابن أبي عامر غسيل الملائكة . ولا نرتاب في أن صنيع هؤلاء إنما كان شكاً في حياتهم الدينية ، وكل ذلك يؤكد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال ، فما انبلجت أضواء الإسلام ، حتى اعتنقه العرب ودخلوا فيه أفواجا .

٥

اليهودية والنصرانية

لا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نجد اليهود منتشرين في اليمن والحجاز (٢) ، والمظنون أنهم هاجروا من موطنهم الأصلي في فلسطين إلى الجزيرة على أثر اصطدامهم بالقيصر طيطوس (Titus) وهدمه للهيكل سنة ٧٠ للميلاد ، وكذلك اصطدام القيصر هدریان بهم سنة ١٣٢ في هذه الأثناء فر كثير منهم إلى الحجاز ، وسقط غير قليل منهم إلى اليمن . وقد تكون هجراتهم أقدم من ذلك ، ولكن ليس بين أيدينا نصوص وثيقة ، نعرف منها بالضبط مراحل وفودهم على الجزيرة سواء في الحجاز أو اليمن ، وحتى هجراتهم في أيام طيطوس وهدريان غير واضحة تماما .

وقد استطاع يهود اليمن في أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى في أوائل القرن السادس الميلادي أن يؤثروا في ملك من ملوك التبابعة هو ذونواس ، وأن يدخلوه في دينهم ، وقد دفعوه دفعاً إلى التنكيل بنصارى نجران وتحريقهم ، وفي ذلك نزلت الآيات الكريمة : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَنْحَادِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) .

(١) المجلد ص ٢٣٧ .

السادس وكذلك كتاب مرجليوت :
The Relation between Arabs and
Israelites Prior to the Rise of Islam.

(٢) راجع في اليهودية بجزيرة العرب كتاب
تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد : على الجزء

وربما كان السبب الحقيقي في استجابته لليهود أنه كان يخشى من تغلغل النصرانية في بلاده وأن يفتح ذلك الأبواب لنصارى الحبشة ، فيستولوا عليها بدون مقاومة . على أن الأحباش سرعان ما انتقموا لإخوانهم ، فأزالوا دولة ذى نواس سنة ٥٢٥ وظلوا نحو خمسين عاماً ، حتى أجالهم عنها أهلها بمساعدة الفرس .

ويظهر أن هذه الفترة التي قضها الأحباش النصارى هناك كانت سبباً في تفرق اليهود وخروج كثيرين منهم من اليمن وتشتتهم في البلاد . ولكن ظلت بقايا هناك ، دخل كثيرون منها في الإسلام من مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبّه ، ولهما في الإسرائيليات التي شاعت بين المسلمين ومؤرخيهم أثر كبير .

وأهم من يهود اليمن يهود الحجاز ، وكانوا قبائل وجماعات كثيرة انتشرت في واحات الحجاز : يثرب وخيبر ووادي القرى وتيماء ، وكان في يثرب منهم عشائر كثيرة أهمها بنو النضير وبنو قريظة وبنو قيسنقاع وبنو بيهدل ، وقد نزل بينهم الأوس والخزرج كما قدمنا ، وفرضت القبيلتان عليهم سيادتهما . وكانوا يشتغلون بالزراعة والصياغة والحداة وصناعة الأسلحة ونسج الأقمشة ، وكانوا يعمدون عمداً إلى الإيقاع بين القبيلتين العربيتين ، فاشتبكنا في حروب دامية ، حتى جمعهما الرسول صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فأصبح أفرادها بنعمة الله إخواناً متحابين . وناهض اليهود الرسول ، فكانوا يثيرون معه مناقشات ومجادلات صورها القرآن الكريم ، وذهبوا يحاولون الوقعة بين المسلمين ، ويؤلبون عليهم قريشاً وغير قريش ، مما اضطر الرسول عليه السلام إلى إجلائهم عن المدينة . وفي السيرة النبوية لابن هشام وطبقات ابن سعد ما يدل على أنهم كانوا يتدارسون دينهم في دار ندوة لهم تسمى المدراس وأنهم كانوا يقرأون التوراة واللمشنة والزبور (مزامير داود) بلغتهم القديمة العبرية ، ولكنهم اتخذوا العربية لغتهم اليومية ، ونظم فيها بعضهم شعراً عربياً .

وعلى نحو ما تعرب يهود يثرب تعرب يهود خيبر ووادي القرى وفدك وتيماء ، واشتهر بينهم غير شاعر كالسموأل بن عادياء ، وقد قاوموا الإسلام وأظهروا له العداوة والبغضاء ، فحاربهم الرسول ، وانتصر عليهم ، ولم يلبث عمر أن أمر بإجلاء كل من ليس له عهد منهم ، فخرج جمهورهم من الجزيرة ، ولم يبق منهم إلا نفر قليل . وليس بين أيدينا ما يدل على دلالة على أنهم خلفوا آثاراً واضحة في الجاهليين ،

فقد ظل العرب الشماليون بعيدين عنهم وعن دينهم ، لا يتأثرون به في قليل ولا كثير ، وإن حاول بعض المستشرقين إثبات هذا التأثير ^(١) .

وقد انتشرت النصرانية في اليمن وشمال الجزيرة الغربي والشرقي ^(٢) ، ويُظن أن انتشارها في اليمن بدأ منذ القرن الرابع الميلادي ، وكان من أهم الأسباب في انتشارها هناك بعثات دينية كان يشجعها القياصرة ، ولعلمهم أرادوا بذلك النفوذ إلى فرض سلطانهم على البلاد وتحول كنوز قوافلها إليهم . ولا نصل إلى العصر الجاهلي حتى نرى النصرانية منتشرة في نجران وغيرها ويظهر أن نجران كانت أهم مواطنها ، وقد نكبهم ذو نواس نكبته المشهورة التي أشرنا إليها فيما أسلفنا ، ودخل الأحباش بقيادة أبرهة ، فدعمت النصرانية واعتنقها كثيرون ، وبُنيت لها كنائس في غير مدينة . ومن أشهر كنائسها كنيسة نجران ، وفي السيرة النبوية أن وفدًا منها قدم على الرسول صلى الله عليه وسلم وكان فيه العاقب والسيد ، وهما الرئيسان السياسيان كما كان فيه أسقفهم وحبرهم أبو حارثة بن علقمة ، وكان « قد شرف فيهم ودرس كتبهم حتى حسن علمه بدينهم ، فكانت ملوك الروم من النصرانية قد شرفوه ومولوه وأخدموه وبنوا له الكنائس » ^(٣) . ويقال إن أبرهة أنشأ كنائس كثيرة في مدن اليمن ، واهتم بزینتها وزخرفتها ، أشهرها القليس في صنعاء ، وهي تعريب لكلمة Ecclesia اليونانية بمعنى الكنيسة ، ويقال إنه « نقشها بالذهب والفضة والفسيفساء والأوان الأصباغ وصنوف الجواهر . . وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزّع والحجارة المنقوشة بالذهب . . ونصب فيها صلبانًا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنوس » ^(٤) . ويظهر أنه استعان في بنائها بأنقاض من قصور ملوكهم السابقين ومعابدهم القديمة ، وقد حولها المسلمون إلى مسجد لا يزال قائمًا إلى اليوم .

وكانت النصرانية منتشرة بين عرب الشام من الغساسنة وغيرهم مثل عاملة وجندام وكلب وقضاة ، وكانوا على مذهب اليعاقبة أو المنوفيين ، وهم القائلون بأن

(٣) انظر وفد نجران في سيرة ابن هشام ٢٢٢/٢ .

(٤) مادة القليس في معجم البلدان لياقوت وتفسير الطبري ١٩٣/٣٠ .

(١) انظر جواد على ٩١/٦ وما بعدها وكذلك ص ١٧٧ وما بعدها .

(٢) انظر في النصرانية بجزيرة العرب تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على ، الجزء السادس ، والنصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو .

للمسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً . ولذلك يسمون أصحاب الطبيعة الواحدة ، وصاحب هذا المذهب هو يعقوب البرادعي المولود حوالى سنة ٥٠٠ للميلاد ، وقد دخل فى مذهبه — كما قد منا — الغساسنة ومنهم من عرب الشام .

ونفذت النصرانية إلى عرب العراق أيضاً إلى تغلب وإياد وبكر ، وتغلغت فى الحيرة على الرغم من ملوكها الوثنيين فكان يعتنقها بها العباديون ، وأغلب الظن أنهم سمو بذلك تمييزاً لهم من جيرانهم الوثنيين ، فهم عباد الله . ولم يكونوا يعاقبة كعرب الشام ، وإنما كانوا غالباً نساطرة نسبة إلى نسطوريوس (Nestorius) المتوفى سنة ٤٥٠ للميلاد وكان يرى أن للمسيح طبيعتين أو أقنومين : أقنوم الناسوت وأقنوم اللاهوت . وقد تأخرت الهيئة الحاكمة من آل المنذر فى التنصر ، ويقال إن هذا أم عمرو بن المنذر ابنت ديراً هناك ويقال بل بنسبته هند بنت المنذر ، وقد دخل أخوها النعمان فى النصرانية ، وهو آخر المناذرة .

وكان الرقيق الحبشى الذى تزخر به مكة نصرانياً ، ويظن أنه كان بها بجالية من الروم النصارى^(١) ، ويقال إنه كان بها عبدان نصرانيان أصلهما من عين التمر^(٢) وإنه كان بها جوار روميات^(٣) ، ويقال إن شماسا زار مكة فى الجاهلية^(٤) ، وكان يعيش فى مَرَّ الظهران راهب مسيحي^(٥) . ويزعم اليعقوبى أن قوما تنصروا من قريش قبيل الإسلام منهم ورقة بن نوفل وعتبة بن أبي لهب وعثمان بن الحويرث الأسدى^(٦) . والمظنون أنه كان فى المدينة بعض النصارى ، وإليهم يشير حسان فى رثائه للرسول صلوات الله عليه — إن صح أنه له — إذ يقول^(٧) :

فرحت نصارى يشرب ويهودها لما توارى فى الضريح الملحد

وكانت النصرانية منتشرة فى طي ودومة الجندل . وهى على هذا النحو كانت تختلف عن اليهودية التى لم تدع فى القبائل . على أنه ينبغي أن لا نبالغ فى تصور من تنصروا من العرب قبل الإسلام ، ونظن أنهم قاموا بتعاليم النصرانية قياماً دقيقاً ،

(٤) ابن هشام ١/٣٤٩ وأسد الغابة ٣/٣٧٥

(٥) السيرة الحلبية ١/٧٥ .

(٦) تاريخ اليعقوبى ١/٢٩٨ .

(٧) ديوان حسان (طبعة هرشفلد)

ص ٥٩ .

(١) O'Leary, Arabia Before Muhammad

p. 184.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص ٢١٢ .

(٣) أسد الغابة ١/٣٨٧ ، ٤٤ / ٢٣٢ ،

١٩٤/٥ ، ٤٦٢ .

فقد عرفوا الكنائس والبيع والرهبان والأساقفة والصوامع ، ولكنهم ظلوا لا يتعمقون في هذا الدين الجديد ، وظلوا يخاطونه بغير قليل من وثنيته ، وربما كان مما يوضح ذلك خير توضيح قول عدى بن زيد العبادي^(١) :

سعى الأعداء لا يألون شراً على رب مكة والصليب

فهو يجمع في قسمه بين رب مكة الوثنية ورب الصليب ، وكذلك كان أكثر العرب من النصارى ، فهم مسيحيون وثنيون في الوقت نفسه . ومن يقرأ شعره لا يجد فيه فكرة التثليث المعروفة في النصرانية .

والحق أن نصارى العرب في الجاهلية إنما عرفوا ظاهراً من دينهم ، وقلما عرفوا حدوده ، وقد سقطت إلى أشعارهم وأشعار الوثنيين أنفسهم كلمات ومصطلحات كثيرة منه ومن شخوصه وطقوسه ، فنذا امرئ القيس وقوله^(٢) :

يضيئ سناه أو مصابيح راهب أهان السليط في الذبال المفتل

والشعراء يرددون ذكر الرهبان ومحارب كنائسهم ، يقول الأعشى^(٣) :

كدمية صور محرابها بمذهب ذي مرمر مائر

وطالما تحدثوا عن نواقيسهم وقدرعها في أواخر الليل ، يقول المرقش الأكبر في بعض شعره^(٤) :

وتسمع تزقاء من البوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس^(٥)

وعرض النابغة الذبياني في مديحه للغساسنة لتدينهم ، ولبعض أعيادهم كعيد الشعانين ويسميه السباسب إذ يقول فيهم^(٦) :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

(٤) المفضليات (طبعة دار المعارف) ص ٢٢٥ .

(٥) التزقاء : الصياح . والهدوء : أوائل الليل .

(٦) مختار الشعر الجاهلي للسقا ص ١٦٢ .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١١/٢ .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبعة دار

المعارف) ص ٢٤ . و السليط : الزيت .

(٣) الديوان (طبعة جابر) القصيدة رقم ١٨ .

وذكر أوس بن حجر عيد الفصح الذي كانوا يحتفلون به فيوقدون المشاعل
ويضيئون الكنائس بالقناديل والمصابيح ، يقول^(١) :

عليه كمصباح العزيز يُشْبِهُه لِفِضْحٍ ويحشوه الذُّبَالُ المفتلاً

وجرى على لسانهم كثير من أسماء الأنبياء ، من مثل داود ، وكان يشتهر عندهم
بنسجه للدروع المتينة القوية، ومن ثمَّ يقول سلامة بن جندل في وصف بعض
الدروع^(٢) :

مُدَاخَلَةٌ من نسج داود شَكَّهَا كَحَبِّ الْجَنَّا من أبلُم متفلق^(٣)

وقد يتحدثون عن ملكه في صدر حديثهم عن الملوك البائدين وكيف يعتدى
الدهر على الناس فلا يبقى ولا يندر.

ويكثر في شعر الأعشى وأمية بن أبي الصلت وعدى بن زيد القصصُ عن
الأنبياء وسيرهم قصصاً نظن ظناً أنه موضوع . وهو إن قبل من عدى النصراني فإنه
لا يقبل من الأعشى ، وكان وثنيا . وتبدو في شعر بعض الشعراء نزعة إلى
التفكير في الحياة والموت على نحو ما أسلفنا في غير هذا الموضع ، كما يبدو في شعر
نفر منهم لإيمان بالله ، كقول عبید بن الأبرص في معلقته - إن صح أنه له - :

من يسأل الناس يعزموه وسائلُ الله لا يعيبُ

ويزعم بعض المستشرقين أن الرواة الإسلاميين هم الذين وضعوا لفظة الجلالة
في شعر الجاهليين بدلا من كلمة اللات التي تتفق معها في الوزن^(٤) . وفي معلقة
زهير :

فلا تكتمنُ الله ١٠ في نفوسكم ليخفي ومهما يُكْتَمِ الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيُدْخَرُ ليوم الحساب أو يعجل فيُنْقَمِ

(٣) مداخلة: محكمة النسج ، شكها: أحكها ،

الأبلم : بقلة لها قرون بها حب يابس .

(٤) جواد على ٣٠٥/٦ .

(١) ديوان أوس ص ٨٤ .

(٢) الأصمعيات (طبعة دار المعارف)

ص ١٥٠ .

فإنه يعلم خائنة الصدور وما تخفى ، ويعاقب كل إنسان على ما قدمت يداه
عاجلاً أو آجلاً في يوم الحساب ، وإذا صح البيتان لزهير كان ذلك دليلاً على أنه
ممن تحنفوا قبل الإسلام .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل على أن وجود النصرانية في الجزيرة قد أثر في
الشعر آثاراً مختلفة لا في شعرائها الخاصين بل أيضاً في بعض الشعراء الوثنيين ، وكان
من آثار ذلك ظهور جماعات المتحنفين ، وتسرب فكرة البعث والحساب إلى
نفر من الجاهليين .

الفصل الرابع اللغة العربية

١

عناصر سامية مغرقة في القدم^(١)

أشرنا في غير هذا الموضع إلى أن اللغات السامية تتشابه في كثير من الكلمات والضمائر والأعداد تشابهاً يثبت القرابة بينها ، وهو تشابه يفيدنا في معرفة نمو كل لغة من هذه اللغات وتطورها على مر التاريخ حتى تشكلت في صورتها الأخيرة . وقد أبلى علماء الساميات بلاء مشكوراً في الدراسة المقارنة لهذه اللغات من حيث الصيغ والألفاظ والتصرف والإعراب والأصوات ، وهي دراسة تفيدنا فائدة جُلّى في التأريخ لكثير من الظواهر اللغوية ومعرفة قديمها من حديثها . فإن لاحظنا تشابهاً بين لغتين من هذه اللغات في ظاهرة بعينها ورجعنا إلى اللغات الأخرى ووجدنا نفس التشابه كان معنى ذلك أن الظاهرة قديمة وأنها ترتقي إلى العصر الذي كانت هذه اللغات متحدة فيه . وقد يقع التشابه في الظاهرة في لغتين غير متجاورتين ، فلما أن يرجع إلى أصل قديم ، ولما أن يكون ثمرة تطور تاريخي في كل منهما أدّى إلى نفس النتيجة ، أما إذا كانتا متجاورتين كالعربية والآرامية فلما أن تكون الظاهرة قديمة ترجع إلى أزمان اتحادهما ، ولما أن تكون إحداها تأثرت الأخرى . ولعل في هذا ما يدل على أن أسلافنا توسعوا أكثر مما ينبغي حين درسوا الدخيل في عربيتنا ، فوقفوا عند ألفاظ كثيرة وقالوا إنها سريانية آرامية ، غير ملتفتين إلى أن طائفة من هذه الألفاظ ترجع إلى الأصل السامي القديم ، فلا يقال إن العرب أخذوها من السريان ولا إن السريان أخذوها من العرب ، بل يقال إنها من الكلمات السامية

الإسلام لجواد علي ومحاضرات خليل يحيى ناي
بكلية الآداب في جامعة القاهرة .

(١) راجع في هذه العناصر كتاب « التطور
النحوي للغة العربية » لبرجشتراسر (طبع القاهرة
١٩٢٩) والجزء السابع من تاريخ العرب قبل

القديمة التي تداولها الساميون في زمان اتحادهم قبل تفرق لهجاتهم وتطورها إلى لغات مستقلة لها مشخصاتها وسماتها الصرفية وغير الصرفية .

ونضرب مثالا آخر أثار ضجة واسعة بين المستشرقين ، وهو ما زعمه فولر من أن القرآن الكريم كان في بادئ الأمر غير مُعَرَّب ، إذ كان بلهجة قریش الدارجة ، وهي لهجة — فيما يزعم — كانت غير معربة ، وكانت تختلف عن لهجة الشعر الجاهلي الخاضعة لقواعد النحو والعربية ؛ ومضى يقول إن النحاة المتأخرين هم الذين صاغوه في لغة البدو المعربة . وقد رفض كثير من المستشرقين وعلى رأسهم بوهل ونولدكه وجاير هذا الرأي رفضا باتاً^(١) ، ويقول يوهان فك : « أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربي وهو القرآن قد حافظ أيضاً على غاية التصرف الإعرابي فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالا للشك في إعراب كلماته ، إلا أن مواقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثراً للشك فيه كذلك ، انظر مثلاً آية ٢٨ من سورة فاطر : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وآية ٣ من سورة التوبة : (أن الله يرى من المشركين ورسوله) وآية ١٢٤ من سورة البقرة : (وإذا ابتلى إبراهيم ربه) وآية ٨ من سورة النساء : (وإذا حضر القسمة أولو القربى) فثل مواقع الكلمات في هذه الآيات . . . لا يمكن أن يكون إلا في لغة لا يزال الإعراب فيها حياً صحيحاً . يُضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه في مثل آية ١٣٠ من سورة النحل : (وهذا لسان عربي مبين) وصريح من هذا أنه لم يقم عند محمد ومعه فرق هام بين لغة القرآن وبين لغة العرب أي قبائل البدو^(٢) .

وما يثبت بطلان رأى فولر أيضاً أنه لم يُعرف عن قبيلة عربية من القبائل الشمالية أنها اتخذت لهجة دارجة خالية من قواعد النحو والعربية . وقد نسي أو تناسى أن قراءات القرآن الشريف توقيفية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو أنه قرأه على الصحابة في لهجة غير معربة لقضى على اللهجات المعربة من حوله . وعلى الرغم من وضوح فساد هذا الرأي وبطلانه نجد كاله (Kahle) يحاول أن يدل

ليوهان فك ص ٣ وما بعدها .

(٢) العربية ليوهان فك ص ٣ .

(١) انظر مادة قرآن في دائرة المعارف

الإسلامية وتاريخ القرآن لنولدكه وكتاب العربية

على صحته ، تارة بما وجدته من نصوص متأخرة تحث على مراعاة الإعراب في ترتيل القرآن ، وتارة بما يزعمه من أن قراء القرآن الأولين رحلوا لمخالطة عرب البادية ، حتى يفقهوا قواعد شعرهم النحوية والصرفية ويطبقوها على الذكر الحكيم^(١) ، وهو يستمد في الشطر الثاني لقوله وزعمه من قولرز ، أما الشطر الأول فواضح البطلان ، لأن هذه النصوص إنما تشير إلى مخافة العلماء في عصور اللهجات العامية المولدة من أن يهجم بعض العامة على قراءة القرآن قراءة غير معربة .

وإذا رجعنا إلى تاريخ اللغات السامية وعرضنا هذه المسألة تبين لنا أنها تفقد السند التاريخي ، فإن الإعراب في الفصحى ليس خاصة مستحدثة نشأت بين بعض قبائل العرب وفي بعض لهجاتهم البدوية بعد أن لم تكن موجودة ، وإنما هو خاصة سامية قديمة تشترك فيه مع العربية الأكديّة ، كما تشترك في بعضه الحبشية وغيرها من اللغات السامية . وحدث في سنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين أن اكتشف العلماء في رأس شمرا بالقرب من اللاذقية نقوشاً كثيرة ترجع إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد في موضع كان يعرف قديماً باسم أوجريت (Ugarit) وجدوا في حل رموزها ، وسرعان ما وجدوها تقرب من اللغات السامية ومن العربية القديمة ، فسموها باسم موضعها تمييزاً لها ، ولاحظوا أن هذه اللغة الأوجريتية يشيع فيها الإعراب مثل العربية ، وأيضاً فإنهم وجدوا فيها ظواهر المنع من الصرف ، وكان المظنون أنه خاصة عربية .

ومعنى ذلك أنه ثبت بين علماء الساميات أن ظاهرتي الإعراب والمنع من الصرف قديمتان في اللغات السامية وأن العربية احتفظت بهما ، بينما فقدتهما مع الزمن أكثر هذه اللغات ، فهما ليستأمن الظواهر المستجدة ، بحيث يمكن أن ينسبا إلى بعض قبائل البدو كما وهم قولرز وكاله ، وإنما هما من الظواهر السامية القديمة ، وليس بين أيدينا نص واحد يشهد بأن قريشاً أو بعض قبائل العرب الشماليين ضعف عندهم الإعراب فأهملوه في لهجتهم الخاصة ، بل كان الإعراب عامّاً بينهم جميعاً في الشرق والغرب ، وفي الحجاز ونجد وغير الحجاز ونجد ، فمن الخطأ البين أن يزعم زاعم أن الإعراب كان مهملاً في لغة قريش ، فإن ذلك مجرد حدّس لا قيمة له .

(١) راجع ما ساقه عبد الحليم النجار من تعليقات في كتاب العربية المذكور .

ومن ظواهر العربية التي أكدت اللغة الأوجريزية أنه قديم ظاهرة التعريف بـآل ، وهي تقابل حرف الهاء الذي كان يستخدمه العبريون والآراميون في التعريف ، وكان الأولون يلحقونه ببدء الكلمة والآخرين يلحقونه بآخرها . وكان أصحاب النقوش الصفوية من قدماء العرب يجارون العبريين في استخدام هذا الحرف في التعريف ومثلهم المثوديون واللحيانيون . واستخدم النبط في نقوشهم آل استخداماً واسعاً ، إذ نراهم يضعونها مع أسماء آلهتهم مثل الله والللات والعزى ، وقد تحذف الألف منها في الكتابة فيكتبون وهب الله وعبد الله هكذا وهب لى وعبد لى بإشباع الكسرة ومدها بحيث تتولد منها الياء ، ويقول اللغويون إن الأزديشعون حركات الإعراب ومعنى ذلك أن الإشباع قديم في العربية . ويدل حذف الألف في مثل وهب لى أن النبط كانوا يسهلون الهمزة ولا يحققونها على نحو ما أثر عن قريش وأهل الحجاز في عدم تحقيق الهمزة لا في آل وحدها بل في كلمات كثيرة ، فيقولون في أسأل : سأل . وكل ذلك معناه أن أداة التعريف في العربية قديمة وأن تسهيل الهمزة حدث قبل العصر الجاهلي ، إذ كانت تميل إليه بعض القبائل العربية ممن كانوا يسكنون في غربي الجزيرة مثل النبط والحجازيين .

وإذا أخذنا نقارن بين صيغ الفعل في العربية وصيغته في اللغات السامية وجدنا همزة التعدية في صيغة أفعال العربية تشيع في اللغتين الحبشية والسريانية ، بينما تعبر العربية والسبئية وبعض اللهجات الآرامية عنه بالهاء ، فهفعل عندهم تقابل أفعال في العربية ، وكان اللحيانيون والمثوديون يستخدمون الصيغتين جميعاً . وفي الوقت نفسه نجد النقوش اليمنية ما عدا السبئية ، وتقصد المعينية والقبتانية والأوسانية والحضرية تعبر عنه بسفعل ، وتعبر عنه الأكديّة بشفعل واحتفظت العربية على نحو ما نعرف بالسين في وزن استفعل ، ومن ثم ذهب ليمان إلى أن أداة التعدية كانت في الأول سيناً ، ثم صارت شيئاً في الأكديّة ، وصارت السين هاء عند بعض الساميين ، ثم صارت الهاء همزة في العربية والسريانية والحبشية^(١) . ولعل من الطريف أن من يرجع إلى العربية يجد فيها بقايا من هذه الصيغ جميعاً كصيغة هراق

المجلد العاشر في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ص ٢٥ وما بعدها .

(١) انظر مقالة ليمان عن « بقايا اللهجات العربية في الأدب العربي » بالجزء الأول من

الماء بمعنى أراقه . يقول ابن يعيش : « اعلم أنهم قالوا أهراق فن قال هراق فالهاء عنده بدل من همزة أراق على حد هردت أن أفعل في أردت ونظائره »^(١) وكأنه كان بينهم من يجمع في التعدية بين الهمزة والهاء ، ومن يكتفى بإحداهما في مثل هذه الكلمة ، ويظهر أن هذا كان كثيراً إذ ينص ابن يعيش على أن له نظائر متعددة ، فيقولون هراح في أراح وهنار في أنار وهكذا . وفي القاموس المحيط الهذروف كعصفور : السريع ، وهذرف : أسرع . ومعنى ذلك أن بين الأسماء صيغاً احتفظت بتلك الهاء لأنها اشتقت من أفعالها ، يقول صاحب القاموس : « الهِجَزَع كدرهم : الجبان لأنه من الجزع » .

أما وزن سفعل الذي استخدمته بعض اللهجات العربية الجنوبية القديمة كالمعينية فإن العربية احتفظت به في صيغة استفعل . وفي المزهر من مزيد الثلاثي هفعل في مثل هلقم إذا أكبر اللقم وسفعل في مثل سنبس بمعنى نبس^(٢) . ويمكن أن يُردَّ إلى هذه الصيغة كثير من الأفعال التي تبتدئ بالسین ، كما يرد إلى صيغة هفعل كثير من الأفعال التي تبتدئ بالهاء ، فهدر مثلاً يمكن أن يكون أصلها در وأضيفت إليها الهاء وخففت الراء ، وسكن أصلها كان من كان التامة ، ثم حذفت الألف . وبهذا القياس يمكن أن ننعم النظر في بعض الكلمات المبدوءة بالسين فردها إلى صيغة شفعل الأكديّة ، فشسع يمكن أن يكون أصلها شوسع من وسع وشوش من وشّ وهكذا . وكأن العربية كانت تستخدم في بعض أزميتها القديمة كل هذه الصيغ ، ثم تطورت بصيغة هفعل إلى أفعل وأثرتها معرضة عن الصيغ الأخرى لأنها أخف في النطق وأيسر .

ومن الظواهر التي تتقارب فيها العربية من أخواتها السامية الضمائر ؛ إذ نرى مثلاً : أنا تختص بالمتكلم مع زيادة مميزات عددية أو جنسية في بعض اللغات ، بينما تختص التاء بضمير الرفع المتصل ، وقد تخلفها الكاف كما في الأكديّة ، على نحو ما جاء على لسان بعض الرجاز يهجو ابن الزبير^(٣) :

يا بن الزبير طالما عصيكا وطالما عنيئتنا إليك

فقال عصيك بدلا من عصيت . وكما تتشابه اللغات السامية في الضمائر تتشابه في

(٣) النوادر في اللغة لأبي زيد (طبعة بيروت) ص ١٠٥ وأنساب الأشراف للبلاذري ١١/٤٨ .

(١) شرح المفصل للزنجشري ١٠/٥

(٢) المزهر للسيوطي ٢/٤٠ .

أسماء الصلة والإشارة ، ويدل الاسم الموصول « ذو » عند الطائيين على أن الأسماء الموصولة كانت في الأصل أسماء إشارة ، وهو في الحبشية « ذ » وفي السريانية « د » ، و « دى » في النقوش النبطية . وأيضاً فإن هذه اللغات تتشابه في كثير من حروف العطف وحروف الجر وأدوات الاستفهام وفي الميل إلى المخالفة بين الذكر والأنثى رغبة في الازدواج كما يتضح في العدد ومخالفته للمعدود في الجنس وفي تأنيث الفعل مع جمع التكسير المذكور .

وتشترك العربية مع أخواتها السامية في أن الأسماء الثنائية أقدم أسماؤها ، وفي العربية أمثلة كثيرة منها احتفظت بها ، وقد أخذت — كأخواتها — تشتق منها الثلاثي وغيره أو تولدهما ، ومن أقدم ما اتبعته في ذلك تضعيف الحرف الثاني أو زيادة واو أو ياء في أوله أو زيادة حرف لين في وسطه أو نهايته . وقد تتكرر المادة الثنائية مثل حصحص وصرصر وسلسل . ولعلماء الساميات أبحاث في الكلمات التي تشترك فيها العربية مع غيرها من اللغات السامية والتي يمكن أن تعد من أقدم عناصرها ، وهم يردون بعضها إلى أسماء الإنسان وأحواله مثل ذكر وأنثى وأب وأم وابن وبنت وأخ وبعل وبكر وأمة وضرة ، ومن الأفعال القديمة المتعلقة بهذه الأسماء: ولد وملك . ومن هذه الأسماء المشتركة أسماء الحيوانات مثل نمر وذئب وكلب وخنزير وإبل وثور وحمار ونسر وعقرب وذباب ومعها فعل نبح . ومن أسماء النباتات عنب وثوم وقثاء وكمون وزرع وسنبلة . ومن أعضاء البدن رأس وعين وأذن وأنف وفم ولسان وسن وشعر ويد وظفر وركبة وكتف وذنب وقرن وعظم وكرش وكبد وكلية ونفس ودم ، ومعها تسمع وطعم . وصفات مثل شيب ويمين وموت وقبر . ومن أجزاء العالم سماء وشمس وكوكب وأرض وحقل وماء ومنبع وبئر ، ومما يتبعها ظل ويوم وليلة وبرق ولهب . ثم بعض أسماء البيت وأقسامه وما يتبعه مثل بيت وعمود وعرش وقوس وحظ أصل معناه السهم وحبل وإناء ومما يتبعها من الأفعال رمى . ومن المأكولات والمشروبات قمح ودبس وسكر ويتبعها طحن وطبخ وقل . وإلى جانب ذلك عدد كبير من الأفعال والأسماء مثل كان ونشأ وعلا وقدم وقرب وبكى وصرخ وأخذ وذكر وسأل وبشر ورحم وبل ونقل ونقب وصغر ورعى وسقى وركب ونظر وفقد وسلم وذبح وبارك ووقر ، ومثل اسم وكل وأسماء العدد إلى العشرة والمائة^(١)

(١) راجع في ذلك كله برجستراسر ص ١٤٠ وما بعدها .

وهناك أسماء وأفعال تشترك فيها العربية مع اثنتين أو ثلاث أو أربع من اللغات السامية، والحكم في مثل هذه الكلمات مشكل، فلما أن تكون من الكلمات السامية الأصلية، أو تكون بعض الفروع اختصت بها بعد تفرقها، بمعنى أنها نشأت بينها، وتكونت في زمن متأخر. ومن علماء الساميات من يظن أن ما تنفرد به العربية من كلمات لا توجد في أخواتها السامية هو من السامي الأصل احتفظت به بينما سقط من أخواتها، ويذهب برجشتراسر إلى أن « هذا بعيد عن الاحتمال للغاية ولا يجوز افتراضه إلا على فرض كون اللغة العربية أقرب إلى اللغة السامية الأم من أخواتها . . وهذا من الأوهام التي لا سبب لها، فإن اللغة العربية ترقى رقياً بعيداً بالقياس إلى أخواتها الساميات . . ولا بد من أن نفترض أن اللغة العربية اخترعت ألوا من الكلمات الجديدة ولا عجب في ذلك بعد ما شاهدناه مراراً من ميلها إلى التخصص وإلى اختراع العبارات الجديدة المحدودة »^(١) ويضرب مثيلين لذلك : كثرة ما اخترعته في باب الإبل وأوصافها وشيائها وأمراضها وأدوائها من أسماء، ومثل ثان هو ما اخترعته من أدوات النني، إذ تشترك مع اللغات السامية في أدواته الأساسية « لا » ثم تنفرد بما اشتقته من أدوات كثيرة لا يوجد منها في أخواتها سوى ليس، إذ نجد فيها لم بزيادة الميم وحذف الألف، ولما بزيادة ما على لم، ولن بزيادة النون، وأضافنا إلى ذلك أدوات جديدة هي ما وإن وغير، وبذلك عددت وظائف النني ونوعتها .

ومعنى كل ما قدمنا أن هناك عناصر في العربية ترجع إلى أقدم أزمنتها، وأخرى جديدة، وقد عقد ليتمان مقالين طويلين^(٢) بحث فيهما أسماء الأعلام في اللغات السامية متخذاً منها ما يدل على تاريخها وصيغها وأديانها وعاداتها . ولا حظ أن منها أسماء مركبة وأسماء مفردة وأسماء اسمية وأسماء فعلية وأسماء دينية وأسماء دنيوية وأسماء مكانية وأسماء زمانية وأسماء تخص أمنية أو فرحاً أو صفة أو دعاء وأسماء لرجال مشهورين أو نساء مشهورات، بالإضافة إلى أسماء أجنبية . ومن طريف ما لاحظته أن النبط كانوا يلحقون في كتابتهم ونقوشهم الواو بآخر الأعلام أحياناً، يقول : والواو هذه تشير إلى أن الاسم معرب، وأما الأسماء المبنية فكتبوها بلا واو في آخرها . وأخذ

المجلد العاشر، العدد الثاني، والمجلد الحادي

عشر، العدد الأول .

(١) برجشتراسر ص ١٤٢ .

(٢) انظر مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة

العرب بعد ذلك هذه الواو من الخط النبطي فألحقوها بعمر و فرقا بينه وبين عمر^(١) وقارنَ مقارنات واسعة بين الأعلام في العربية منذ الجاهلية وبين لهجاتها القديمة من صفوية ونبطية ، وأدلى في هذا الصدد بملاحظات جيدة .

وعلى هذا النحو لا يزال علماء الساميات يقارنون مقارنات طريفة بين العربية الجاهلية وما سبقها من لهجات كتبت في نقوش قديمة ، كما يقارنون بينها وبين العربية الجنوبية اليمنية وغيرها من أخواتها السامية محاولين استخلاص عناصرها وظواهرها المغرقة في القدم ، والتي جددت على مر التاريخ . وقد لاحظوا أنها هي والحبشية واللهجات اليمنية القديمة تُكثر من جموع التكسير كثرة مفرطة ، كما لاحظوا أنها هي والعربية الجنوبية أو اليمنية تتميزان بوجود حرف الظاء فيهما ، وما يميزها أيضاً بحرف الضاد ، ولهم كلام كثير فيه وفي مخرجه ، وتبادله مع الظاء واللام في بعض الكلمات .

٢

لهجات عربية قديمة^(٢)

عثر علماء الساميات على نقوش أربع لهجات عربية قديمة ، منها ثلاث كتبت بالخط المسند الجنوبي ، وهي اللهجة التمودية واللّحيانبة والصّفوية ، وواحدة كتبت بالخط الآرامي ، وهي اللهجة النبطية . وقد جاء ذكر ثمود في القرآن الكريم مراراً ، وكانوا ينزلون في مدائن صالح وما حولها ، وتمتد عشائرتهم غرباً إلى البحر الأحمر وشرقاً إلى جبلى أجأ وسلمى ، وقد تردد ذكرهم عند الإغريق والرومان وفي كتابات آشورية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد . وترجع نقوشهم التي عثر عليها إلى القرون الأخيرة قبل الميلاد والقرون الأولى بعده ، وهي تنتشر في كثير من البلاد ، فهي فضلا عن وجودها في أماكن إقامتهم وسكناتهم نجدتها مبعثرة في الطائف وطور سيناء ومصر بوادي الحمامات ، وربما كان في ذلك ما يدل على أن أهلها

ليمان في العدد الثاني من الجزء العاشر بمجلة كلية الآداب، وكذلك مقالته : « لهجات عربية شمالية قبل الإسلام » في الجزء الثالث من مجلة مجمع اللغة العربية .

(١) مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر ، العدد الثاني ص ٤٣ .

(٢) انظر في هذه اللهجات الجزء السابع من تاريخ العرب قبل الإسلام بلواد على ومقالة

كانوا أصحاب تجارة واسعة . ونقوشهم قصيرة وجمهورها مما كتبوه أو نقشوه ليسجلوا أسماءهم للذكرى ، وقليل منها أدعية لأهلهم ، وهى صعبة القراءة لأن خطهم مشتق من الخط المسند الجنوبي ، مثلهم مثل اللحيانيين والصفويين ، وهو خال من الشكل ومن علامات الإشباع والحركات والتشديد . ومما يزيد فى صعوبته أيضاً ، أو بعبارة أدق مما يزيد فى صعوبة الأحكام اللغوية عليه أن جميع نقوشه بضمير الغائب وأنهم كثيراً ما يحذفون منه بعض الحروف كالنون من ابن والضمير من « لى » وأيضاً فإنه تختلط به آثار عبرية وآرامية .

وهذه النقوش مع أنها كُتبت بالخط المسند الجنوبي نقوش "للعرب الشماليين ، فاللغة التى تعبّر عنها عربية شمالية ، ويتضح ذلك فى تراكيبها الصرفية والنحوية وفى اشتقاقات أفعالها وأزمنتها . ونجد عندهم صيغة المثنى بجانب صيغة الجمع كما نجد نفس أسماء الإشارة والأسماء الموصولة والضمائر وحروف الجر من مثل اللام والباء وإلى وعلى وحرف العطف واو . غير أن أداة التعريف الشائعة عندهم هى الهاء لا أل ، وكذلك الشأن عند اللحيانيين والصفويين ، أما عند النبط فهى أل ، ومن هنا يصح أن نطلق على الأولين اسم أصحاب لهجات الهاء ، وهم فى ذلك يتطابقون مع العبريين ، وأيضاً فإنه يشيع عند التموديين واللحيانيين تعدية الفعل الثلاثى بالهاء بدلا من الهمزة ، مثلهم فى ذلك مثل العبريين والسبثيين ، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

واللهجة القديمة الثانية هى اللهجة اللّحيانية نسبة إلى منازل أهلها من بنى لحيان الذين ذُكروا فى نقوشها ، وقد عثر عليها علماء الساميات منشورة فى شمالى الحجاز بمنطقة العلا الحالية ، وكانت حاضرتهم تسمى دادان بالقرب من مدائن صالح ، ويختلف الباحثون فى تاريخهم وهل كانوا قبل الميلاد أو بعده ، بل منهم من يتأخر بهم حتى القرن الخامس للميلاد . وتلقانا فى نقوشهم نفس الصعوبات التى تلقانا فى نقوش التموديين من نقص الشكل وحروف العلة والمد والتشديد . وهم يعرفون بالهاء على شاكلة التموديين ، وقد يعرفون بأل أو باللام على شاكلة العربية الجاهلية ، وقد يجمعون بينهما مثل هليحمى بمعنى الحمى . وهم يشبِقون بين صيغ الفعل على صيغتي هفعل وسفعل ونراهم يلحقون بالماضى تاء التأنيث كما نراهم يشيرون بالذال

وזה وذات . ومن أسماؤهم الموصولة من وما وذو المعروفة في لهجة طيء . ومن آلهتهم التي يرددون ذكرها بعل والعزى ومناة وود وإلهة . ومن أسماؤهم عبد ود وعبد شمس وعبد مناة وبعيث وعمر وطود . ومن ألفاظهم رب ويوم وبيت وحية وشيعة وحره ورتاج وإيلاف وكبير وقديس وصانع ونحاس ووارث وعابد ومقدر ومنعم . وهم يكتنون وينسبون على نحو ما نعرف في الفصحى ، وأيضاً نجد عندهم التذكير والتأنيث والإفراد والتثنية والجمع السالم والمكسر وهم يجمعون الذكور بالواو والنون والياء والنون كما يجمعون الإناث بالآلف والتاء . ومن أدوات الجر والإضافة عندهم الباء واللام وفي ومن ومع وقبل وبعد. وتحت ولدى وخلف ، ونراهم ينفون بلا .

أما اللهجة الصفوية فقد نسبت إلى جبل الصفاة القائم في شرق حوران ببادية الشام ، ولم توجد النقوش به ، وإنما وجدت في الحرة الواقعة بينه وبين حوران ، ولم ينسبها علماء الساميات إليها بحيث يقولون النقوش الحرية مخافة اللبس لأن الجزيرة العربية تمتلئ بحرات كثيرة ، لذلك رأوا نسبتها إلى الجبل المذكور ، واتخذوه علماً عليها ، وقد عثروا على نقوش منها في مواضع أخرى كالحرة الواقعة في جنوبي دمشق والصالحية على الفرات . وواضح أنها لا تنسب إلى قوم بأعيانهم أو إلى أمكنة بعينها ، إنما هي تسمية اصطلاحية . وخطتها مشتق من الخط المسند الجنوبي كاللهجتين السابقتين ولذلك يصادف العلماء فيه نفس الصعوبات التي أشرنا إليها ، ومما يزيد بها صعوبة أن رسوم حروفها تتشابه فالباء تشبه الظاء والخاء تشبه التاء وكذلك تشبه اللام النون والهاء الصاد ، وقد يبدأ الكاتب من اليمين إلى اليسار وقد يعكس الاتجاه فيبدأ من اليسار إلى اليمين .

ونقوشهم قصيرة وشخصية ، وقد يضمونها وثائق تملك أو أدعية للآلهة ، وقد يذكرون تاريخ نقشها فيؤرخونه بتاريخ بصرى أو ببعض حروب النبط والروم . وهي تسبق الميلاد وتمتد بعده قروناً . ونرى أداة التعريف الشائعة عندهم الهاء ، وقد وردت عندهم أسماء قليلة معرفة بالآلف واللام مثل الأوس والعبد . وتشيع عندهم إضافة المنعوت إلى النعت على شكلة الحبشية والعبرية المتأخرة وبعض اللهجات الجاهلية ، فيقولون مثلاً « جبل الأحمر » بدلاً من الجبل الأحمر ، ويتبع اسم الإشارة المشار إليه ولا يتقدمه فيقولون أو يكتبون « جو ، ذ » أي هذا الوادي ، بالضبط

كما نصنع في عاميتنا المصرية فنقول « النهاردا » بدلا من هذا النهار . وتلقانا عندهم ذو الطائية التي تُستخدم اسماً موصولا في مثالها المشهور « بثرى ذو حفرت وذو طويت » أى الذى حفرت والذى طويت .

وهذه اللهجة بصفة عامة أقرب إلى عربية الجاهليين من اللهجتين اللحيانية والثمودية سواء في الضمائر واستخدام العدد أو في أسماء الأعلام وصيغ الفعل ، فنحن لا نجد عندهم هفعل ، بينما نجد الفعل المبني للمعلوم والمبني للمجهول ، وهى تشابه مع العربية الفصحى في تصريف الأفعال ومصادرهما ففعل مصدره تفعيل أو تفعلة وفاعل مصدره فيعال أو مفاعلة وأفعل مصدره إفعال وانفعل مصدره انفعل وهلم جرا . ونراها تدخل تاء التانيث على الكلمة للفرق بين المذكر والمؤنث ، وتشيع فيها أدوات الجر المعروفة في العربية الفصيحة ، وتعطف بالواو والفاء ، وتنادى بها وبيا . والحروف جميعها هى نفس حروف عربيتنا عدداً ، ويشيع تسهيل الهمزة فيها ، وخاصة في أول الكلمة فعندهم ونس بدلا من أنس وودم بدلا من آدم . وكانت قبيلة هذيل تصنع نفس الصنيع فتقول وشاح بدلا من إشاح . ومن ذلك أنهم يقولون واكل بدلا من آكل على نحو ما نصنع في لهجاتنا العربية المعاصرة ، وهم لا يدغمون الحرف الثانى مع الثالث في الأسماء المشتقة من الفعل المضاعف مثل ظن فيقولون أو يكتبون ظانن ، بالضبط كما ننطق في عاميتنا مادد بدلا من ماد . ومن أفعالهم المنقوصة التى احتفظت بها العربية : شتى وبنى وأتى ونجا ورعى ودعى ، ودائماً لام الفعل الناقص عندهم ياء . ومن العبارات التى وردت فيها هذه الأفعال : « نجى من هسلطان » أى نجى من السلطان و « رعى هضأن » أى رعى الضأن و « هأبل » أى الإبل و « همعر » أى المعز و « هبقر » أى البقر . وفي نقش من نقوشهم « ورعى هأبل سنة مرق نبط جوذ » أى رعى الإبل سنة مرق النبط بهذا الوادى . ومعنى كلمة مرق في النقش مر ، وهى تستخدم بنفس هذا المعنى في لهجاتنا المصرية . ومن آلهتهم رضا واللات ومناة وبعل وشيع هقوم أى شيع القوم وهو إله مشهور عند النبط ، قيل إنه لا يشرب الخمر وكذلك عابدوه .

ولو أنه جاءتنا نماذج طويلة من نقوش الصفويين وأبناء عمومتهم الثموديين

واللحيانيين لأمكن الحكم بدقة على لهجاتهم جميعاً ، في صورة واضحة ، ومن المؤكد أنها تصور ضرورياً من نمو العربية وتطورها في طريق اكتمالها ، ومن المهم أن نعرف أن هذه النقوش جميعاً تنتهى بالقرن الثالث الميلادى . وأقرب منها إلى فصحانا نقوش النبط الذين عاشوا في شمالى الحجاز وكونوا لهم إمارة اتخذوا مدينة سَلْع (بطرا - Petra) حاضرتها الكبرى ، وموقعها الآن وادى موسى في جنوبى فلسطين . وكان لهم في الجنوب حاضرة صغرى هى الحِجْر وموضعها الآن يسمى مدائن صالح ، وكان لهم في الشمال حاضرة صغرى ثانية هى بُصْرَى بحوران في الشام . وظلت هذه الإمارة مزدهرة من القرون الأخيرة قبل الميلاد إلى سنة ١٠٦ م ، كما قدمنا ، إذ قوضها الرومان ، غير أن النبط عادوا إلى الظهور ثانية في تدمر وكونوا بها إمارة ظلت إلى سنة ٢٧٣ إذ خشي الرومان من اتساع سلطان أمراءها ، فحاربوا ملكتها زنوبيا ، وما زالوا بها حتى أسروها ودمروا حاضرتها تدميرا . وبذلك ينتهى تاريخ النبط ، ويظهر أنهم لعبوا دوراً واسعاً في التجارة ، فقد كانت قوافلهم تتسلم العُرُوض من عرب الجنوب ومن النُوديين واللحيانيين وتحملها إلى العراق وحوض البحر المتوسط .

والنبط عرب شاليون كانوا يتكلمون العربية الشمالية في أحاديثهم اليومية ، غير أنهم اختلطوا بالآراميين ، وكتبوا بأبجديتهم فظهرت في نقوشهم آثار آرامية كثيرة ، إذ نراهم يستعرون منهم بعض كلماتهم وقد يبتقون في خطهم على بعض خصائص لغتهم . وهم كذلك خالطوا الروم والمصريين والعبريين ، فظهرت في نقوشهم أسماء قليلة أخذوها منهم ، يمكن أن تكون هذه الأسماء لأشخاص روميين ومصريين وعبريين عاشوا في إمارتهم .

وتمتد نقوش النبط في الأنحاء التى سيطروا عليها ، وقد كتبوها بالخط الآرامى المشتق من الخط الفينيقى ، وهى مشورة في الحِجْر ووادى موسى وتيماء وشرق الأردن وسيناء وحوران بُصْرَى ودمشق وصيدا وجبل الدروز ، وتنتهى بالقرن الثالث الميلادى مثلها مثل النقوش السابقة . وكثير منها عثر عليه علماء الساميات في القبور وعلى أبوابها وفوق الصخور ، وهى تكتظ بذكر قرابينهم وما نذروه لآلهتهم ، وقد يؤرخون لها بأسماء ملوكهم ، وكثيراً مايؤرخونها بالسنة التى انتهت فيها دولتهم الأولى وهى سنة ١٠٦ .

وأصحاب هذه النقوش من النبط يختلفون اختلافاً واضحاً عن أصحاب المجموعة السابقة من اللحيانيين والتموديين والصفويين في استخدامهم لأداة التعريف العربية ، فبينما كان يشيع عند الأولين استخدام الهاء في التعريف كما قدمنا كان يشيع عندهم استخدام أل المعروفة في فصيحنا ، على أنهم قد يجارون الآراميين في تعريفهم الكلمات بإلحاق ألف في نهايتها فقد نجدهم يكتبون القبر « قبرا » والمسجد « مسجدا » ولكن الغالب عليهم استخدام أداة التعريف العربية « أل » . وربما صنعوا ذلك في كتابتهم فحسب ، مجارة للآراميين الذين أخذوا منهم خطهم وأبجديتهم ، أما في حياتهم اليومية ولغتهم الدارجة فكانوا يستخدمون أل كما يدل على ذلك شيوعها في كتابتهم . وقد ميزوا في نقوشهم كما قدمنا بين الأعلام الممنوعة من الصرف والمصرفة فكانوا يضيفون للأخيرة واواً دلالة على تنوينها ، مما بقيت آثاره في الخط العربي في مثل عمرو وعمر .

وهاتان الظاهرتان : أى استخدام أل في التعريف والواو في آخر الأعلام المصروفة يقرب بين هذه اللهجة والفصحى الجاهلية . ومما يلاحظ أنهم يكتبون أحيانا في كتابة أل باللام وحدها فيقولون أويكتبون عبد البعل هكذا عبد لبعل بحذف الألف ، وكأنهم سهلوها وجعلوها همزة وصل لا قطع . وإذا رجعنا إلى خصائص هذه اللهجة وجدناها حقاً شديدة الصلة باللغة الجاهلية ، فهي لا تكاد تفرق عنها في أبواب الضمير والفعل وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة والنسبة والتصغير وحروف الجر والعطف وكذلك الشأن في التذكير والتأنيث للاسم والفعل . ونجدهم يذكرون بين آلهتهم الله جلّ وعز . وتدور في نقوشهم كلمات عربية كثيرة مثل سلام ونذر ونذور وحب وخلد وحسن ولطف ورءوف وسعود ومراة وأمة وعبد ورب وسعد ، ويتقدم اسم القبيلة لفظ أل أو بنى مثل آل قصى وبنى سهم .

واستخرج ليتمان من نقوشهم ثلاثمائة اسم تتفق مع الأسماء العربية وهي مدونة في كتابه : (Nabataean Inscriptions) من مثل أمين ، أمة ، أمة الله ، أوس ، إياس ، أوس الله ، أوس البعل ، بدر ، بكر ، تيم ، تيم الله ، تيم ذوشرا (يعنى عبد ذى الشرا) جذيمة ، إجرم ، جمل ، حجر ، حارث ، حارثة ، حنظل ، حيان ، رجب ، زيد ، سبع ، سعد ، سلم ، مسلم ، سكيئة ، سمية ، أسود ، صعب ،

عدى ، عقرب ، على ، عمر ، عمير ، عميرة ، عياض ، غالب ، غانم ، غوث ،
مغير ، فهر ، قصي ، كعب ، لحم ، مجد ، امرؤ الله ، امرؤ القيس ، مبعن ،
مالك ، نصر ، نزار ، نعيمة ، نقيب ، تنوخ ، هاني ، وائل ، وحش ، ورد ،
وهب ، وهبان ، وهب الله .

والنبطية بذلك كله تعد وثيقة الصلة بعربية الجاهلية ، وهو طور قريب
منها قريباً شديداً . ومن المؤكد أن العرب أخذوا يتطورون بلغتهم تطوراً سريعاً
في القرون الأولى للميلاد بالضبط كما أخذوا يتطورون بالخط النبطي مشتقين منه
خطهم العربي على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع .

٣

نشوء الفصحى

ليس من السهل تحديد الزمن الذي اتخذت فيه لغتنا العربية شكلها النهائي
الذي تصوره الفصحى الجاهلية ، وهو شكل كامل النضج سواء من حيث الإعراب
والتصريف والاشتقاق أو من حيث التنوع الواسع في الجموع والمصادر وحروف
العطف وأدوات الاستثناء والنفي والتعريف والتنكير والانتهاء بالمنوع من الصرف
إلى نظام تام منضبط مضافاً إلى ذلك احتفاظها بحروف ومخارج لم تحتفظ بها
لغة سامية احتفاظاً كاملاً ، وهي الثاء والحاء والذال والظاء والضاد والغين .

وهذه الصورة التامة لفصحانا لم تصل إليها إلا بعد مراحل طويلة من النمو
والتطور ، وقد رأينا نماذج منها في نقوش كتبت بأبجدية مشتقة من أبجدية المسند
الجنوبي ، وهي نقوش الثموديين واللحيانيين والصفويين ، ونقوش أخرى كتبت
بأبجدية الآراميين ، وهي نقوش النبطيين ، غير أنها جميعاً لا تصور هذا التكامل
الذي انتهت إليه الفصحى ، والذي تمثله نصوص العصر الجاهلي منذ أواخر القرن
الخامس الميلادي ، وأوائل السادس ، فهل تم لها ذلك التشكل النهائي مع ظهور
الشعر الجاهلي أو أن ذلك تمّ في حقب أبعد منه ؟ .

ليست الإجابة على هذا السؤال سهلة يسيرة ، لسبب بسيط أو طبيعي ، وهو

أنه ليس بين أيدينا نقوش كثيرة ، نستطيع أن نعرف منها بالضبط الزمن الذي يعد بدءاً حقيقياً للفصحى . وحقاً عثر علماء الساميات كما قدمنا في غير هذا الموضع على نقوش تمتد من أواخر القرن الثالث الميلادي إلى القرن السادس ، غير أنها قليلة ، ثم هي قصيرة ، وأكثرها في أمور شخصية ، وليس بينها نص أدبي أو نص طويل يمكن أن نتبين في تضاعيفه جملة الخصائص اللغوية لتلك اللغة التي كان يتحدث بها كتبة هذه النقوش ، وجميعها على لسان الشخص الثالث الغائب ، وليس بينها نص على لسان مخاطب أو متكلم ، وهي تخلو خلواً تاماً من الشكل والحركات وحروف العلة وعلامات الإعراب .

على أن من يرجع إلى هذه النقوش يجدها تقترب اقتراباً شديداً من فصيحان ، وقد وقفنا في الفصل الأول عند أقدمها وهو نقش النمارة المؤرخ بسنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وهو لامرئ القيس ثاني ملوك الحيرة ، وُضع على قبره في النمارة شرقي جبل الدروز ، وقد لاحظنا أن كاتبه استخدم كلمة بر الآرامية بدلا من ابن العربية ، غير أن النقش بعد ذلك تام في عروبه سواء من حيث الأسماء والأفعال ، أو من حيث استخدام أداة التعريف العربية أل . وأيضاً فإن خطه المكتوب به مع اشتقاقه من الخط النبطي يعد مقدمة للخط العربي . إذ توجد فيه الروابط بين الحروف كما تتخذ الحروف فيه شكلاً أكثر استدارة .

ولعلنا لا نبعد إذ اتخذنا هذا النقش بدءاً لتكون الفصحى ، وقد لُقب امرئ القيس فيه بلقب ملك العرب ، وهي أول مرة نعر فيها على هذا اللقب ، وقد يكون في ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن العرب أخذوا يفكرون في إنشاء وحدة سياسية لهم منذ هذا التاريخ ، وكانوا قبله لا يفكرون في هذه الوحدة ولا في أن يستقلوا بخط خاص بهم يميزهم أو يميز كتابتهم من كتابة المسند الجنوبية وكتابة الآراميين الشمالية .

ومعنى ذلك أننا نتخذ من هذا النقش رمزاً لإحساسهم إحساساً عميقاً بوجوب اتحادهم إزاء الدول التي كانت تناهضهم في الشمالين الغربي والشرقي ، ونقصد دولتي الروم والفرس ، فقد قضى الروم على دولة أسلافهم من النبط في سلع وتدمر وفرضوا سيادتهم على القبائل العربية المجاورة لهم ، وبالمثل فرض الفرس سيادتهم

على الحيرة وقبائل العراق . وهذا في الشمال ، أما في الجنوب فقد هاجم الحبش اليمن واستولوا عليها في أواسط القرن الرابع لمدة عشرين عاماً ، وعادوا في سنة ٥٢٥ فاستولوا عليها .

والذي لا ريب فيه أن هذه الأحداث جعلت العرب يشعرون أنهم مهددون في الشمال والجنوب ، وليس ذلك فحسب ، فإنهم رأوا الديانتين اليهودية والنصرانية وكذلك الديانة الفارسية المجوسية ، رأوا كل هذه الديانات تغزو دينهم . وكان هذا كله حافزاً لهم أن يقاوموا من يريدون أن يتخطفوهم ، فنمت شخصيتهم السياسية ، وأخذوا يكونون لهم إمارات مختلفة في الشمال ، يتجمعون حولها ، والتفت قلوبهم وأهواؤهم حول مكة بيت أصنامهم وكنبتهم الكبرى . وفي هذه الأثناء أخذوا يسقطون إلى الجنوب منذ القرن الرابع ليؤازروا إخوانهم اليمنيين في مقاومة عدوهم المشترك من الأحباش ، وكان اليمنيون يرحبون بهم ، لما يقدمونه لهم من عون ومساعدة .

وليس هذا كل ما نلاحظه ، فنحن نلاحظ أيضاً أن زمام القوافل التجارية يتحول إلى مكة ، فلم يعد بيد اليمنيين المهديين بالأحباش ولم يعد بيد النبط المهديين بالروم ، وإنما أصبح بيد المكيين البعيدين عن الدولتين ، وربما كانوا يرجعون في أصولهم إلى النبط ، وكأنما هبطوا إليها بعيداً عن الروم وجيوشهم وما يبغون من فرض سيادتهم عليهم . والمظنون أن التهوديين هبطوا بدورهم إلى الطائف ، أما اللحيانيون فسقطوا إلى منازل هذيل .

وفي هذه الأثناء أخذت شخصية هؤلاء العرب الشماليين اللغوية تنمو نمواً سريعاً ، كما أخذ خطهم هو الآخر ينمو في سرعة ، على نحو ما يصور لنا ذلك نقش زبد المؤرخ بسنة ٥١٢ للميلاد . وزبد خربة بين قنسرين ونهر الفرات ، ونقشها مكتوب بثلاث لغات : العربية واليونانية والسريانية ، وهو يتضمن أسماء أشخاص بنوا كنيسة بموضعه ، وأهميته ترجع إلى أن خصائص الخط العربي الجاهلي تتكامل فيه . ومن المؤكد أنه حدثت تطورات مختلفة في الحقبة الممتدة بينه وبين نقش النمارة هيأت له هذه الصيغة الخطية النهائية . وعلى مثاله نقش حران اللّجا المؤرخ بسنة ٥٦٨ للميلاد ، وقد وُجد على باب معبد بنوه في الشمال الغربي لجبل الدروز جنوبي دمشق ، وجميع كلماته وعباراته عربية ، وهو يمضي على هذا النحو :

« أنا شرحيل (شرحيل) بر (بن) ظلمو (ظالم) بنيت ذا المرطول (المعبد) سنة ٤٦٣ بعد مفسد (خراب) خير بعم (بعم) ». وهو يشير إلى غزو أحد أمراء غسان لخير ، وقد ألحقت بكلمة ظالم واو وفقاً لقواعد النبط في كتابة أعلامهم المنصرفة ، وحذف حرف العلة من كلمة « عام » وهي نفس الصورة المألوفة في الأعلام الإسلامية الأولى .

ونرى من ذلك أن الخط العربي تكامل مع أوائل القرن السادس كما تكاملت الفصحى نفسها وأخذت شكلها النهائي بشهادة نصوص الشعر الجاهلي التي يرجع أقدمها إلى أواخر القرن الخامس ، فمنذ هذا التاريخ تقاربت لهجات القبائل ، وأصبحت هناك لغة أدبية عامة ، هي الفصحى ، ينظم بها شعراء العرب جميعاً شعرهم . وتدل دلالات كثيرة على أن هذه اللغة أخذت تنتشر لا بين القبائل الشمالية وحدها ، تلك التي عاشت في الشمال ، فقد حملتها إلى الجنوب القبائل التي تسقط فيه ، وانجذب كثير من الجنوبيين إلى المحيط اللغوي الشمالي ، وخاصة من كانوا يجاورون الشماليين مثل سكان نجران وقبائل الأزدي في جنوبي الحجاز .

ومعنى ذلك أنه كان يعاصر اكتمال الفصحى حركة تعريب قوية في الجنوب ، ولنا نريد أن نبالغ في هذه الحركة فإنها إنما كانت تتناول القبائل الشمالية من هذا الجنوب ، أما في داخل اليمن وفي ظفار فقد كانت اللغة الجنوبية لا تزال سائدة كما تدل على ذلك نقوشهم . ونستطيع الآن أن نفهم قول أبي عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعريبتنا »^(١) فإنه ينص على أن لسان اليمنيين الداخلين ومن يجري مجراهم هو الذي يخالف لسان العرب الشماليين . بل لعلنا لا نبعد إذا قلنا إن اليمنيين الداخلين أنفسهم أخذوا في التعريب ، فإن من يرجع إلى وثيقة أبرهة التي دونها سنة ٥٤٣ للميلاد عند ترميمه لسد مأرب^(٢) يلاحظ تواتراً تقارباً في الكلمات أسماء وأفعالا من اللغة الشمالية ، وحقاً تحتفظ الوثيقة بجملة الخصائص اللغوية للغة الجنوبية ، لكننا نجد في تضاعيفها صيغاً تشبه الصيغ

المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي وتعليق جواد علي عليها .

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة

دار المعارف) ص ١١ .

(٢) انظر هذه الوثيقة في الجزء الأول من

العربية شبيهاً تاماً ، من مثل : « كن لهو خلفتن وقسد » أى كان له خليفة وقاسد ، وكلمة قاسد معناها قائد فى اللغة الجنوبية .

فنحن لا نصل إلى العصر الجاهلى الذى نتحدث عنه حتى نجد الفصحى قد تكاملت وتكامل معها خطها ، وأخذت تغزو العربية الجنوبية ، وتنتصر عليها انتصارات تختلف قرباً وبعداً ، فهى فى الجهات القريبة منها تكتسحها اكتساحاً ، وهى فى الجهات البعيدة تؤثر تأثيراً يختلف قوة وضعفاً . على أنه ينبغى أن نعرف بأن اليمينيين كانوا فى نقوشهم يحافظون على لغتهم القديمة المرتبطة بدينهم وآلهتهم ، أما فى حياتهم اليومية وخاصة فى أطرافهم الشمالية فإنهم كانوا يتحدثون بعربيتنا الفصحى .

٤

لهجات جاهلية (١)

على الرغم من شيوع لغة أدبية عامة فى العصر الجاهلى كانت هناك لهجات كثيرة تميزت بها بعض القبائل ، وظلت آثارها واضحة على ألسنتها إلى القرن الثانى للهجرة ، فسجلها اللغويون ، غير أنهم لم يعنوا غالباً بنسبة هذه اللهجات إلى أصحابها فقد كانت تهمهم الصحة اللغوية من حيث هى ، وكأنهم يريدون التنبيه على ما يخالف اللغة الأدبية العامة التى نزل بلسانها القرآن الكريم . ونحن لا ننكر أنهم نصوا أحياناً على القبيلة التى تنطق اللهجة الشاذة ، ولكنهم لم يعمموا ذلك فيما حملوه إلينا بحيث أصبحنا أمام ركام واسع من لهجات لا نستطيع تعيين القبيلة أو القبائل التى كانت تنطق بها إلا فى الندرة والحين بعد الحين ، فمن ذلك الكشكشة والكسكسة ، وهما تخصان ضمير المخاطبة ، إذ كان بعض تميم وأسد ، وقيل أيضاً بعض بنى ربيعة يلحقون بكاف المخاطبة شيئاً فى الوقف ، وفى الوصل أحياناً ، فيقولون : رأيتكش وعليكش وبكش وكانت بعض قبائل ربيعة تلحق السين بدل

كلية الآداب بجامعة القاهرة ، المجلد العاشر ،
العدد الأول وكتاب Ancient West-Arabian
لرايين .

(١) انظر فى هذه اللهجات كتاب المزهر
للسيوطى فى مواضع متفرقة وكتاب الصاحبى فى
فقه اللغة لأحمد بن فارس ومقالة إيمان بمجلة

الشين فتقول رأيتكس وعليكس وبكس ، وكان منهم من يحذف الكاف ويضع مكانها الشين أو السين .

ومن ذلك العننة ، وهي في تميم وبعض قيس وأسد ، إذ يجعلون الهمزة عيناً في بعض الكلمات ، فيلفظون استعدى بدلاً من استأدى ، ويلفظون أعدى بدلاً من أدى ، ويقال إن بعض بني طيء كان يقول دأنى عوضاً عن دعنى . وكان هناك من يلفظ لعل لأن ، بإبدال اللام أيضاً نوناً ، وقالوا بدلاً من أن وأن عن وعن .

وتقرب من العننة الفحفحة ، وكانت في هذيل إذ تبدل الحاء عيناً ، ويقال إن بني ثقيف كانوا يصنعون صنيع الهذليين في ذلك فيقولون في حتى عتي . وهذه اللهجات جميعاً كانت تشيع في بعض القبائل الشمالية المضربية ، ومثلها التضجع وهو الإمالة ، إذ كانت تميم وقيس وأسد تميل إلى إمالة الألف ، وكان الحجازيون ينطقونها بتفخيم فلا يُميلون . ويظهر أن ذلك لم يكن عاماً في القبيلة الواحدة ، فقد كان بعض الأفراد يميل وبعضهم لا يميل ، يقول سيبويه : « اعلم أنه ليس كل من أمال الألفات وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه فينصبُ بعضٌ ما يُميل صاحبه ، ويُميل بعضٌ ما ينصب صاحبه . وكذلك من كان النصب في لغته لا يوافق غيره ممن ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأولين في الكسر (الإمالة) فإذا رأيت عربياً كذلك فلا ترينه خلطاً في لغته ولكن هذا من أمرهم » . ونستطيع أن نمد ملاحظة سيبويه إلى اللهجات الشاذة التي حكيناها ، فمن الممكن أن يكون بعض أفراد القبيلة قد تبع اللغة الأدبية العامة ، بل من الممكن أن تكون بعض العشائر في قبيلة بعينها قد هجرت لهجة قبيلتها ، ولعل هذا هو سبب اختلاط نسبة هذه اللهجات عند اللغويين إذ نرى بينهم اختلافاً في الكشكشة مثلاً هل كانت في تميم أو كانت في بكر أو كانت في قيس أو كانت فيهم جميعاً ، وأغلب الظن أن مرجع هذا الاختلاف إلى ما لاحظته سيبويه في الإمالة من أن عشيرة أو أفراداً في قبيلة تميل قد لا تميل ، وبالمثل يمكن أن يكون ذلك نفسه حدث في اللهجات الشاذة التي رويت عن بعض القبائل المضربية .

وقد نسب اللغويون إلى قبائل مضربية وأخرى قحطانية ما سموه الاستنطاء إذ

كانت قبائل هذيل وقيس والأزد والأنصار في يثرب تبدل العين نوناً في مثل أعطى فتقول أنطى ، وأغلب الظن أن هذا ليس إبدالاً كما لاحظ ليتمان ، وإنما هما فعلان مختلفان .

وهناك لهجات نسبها اللغويون إلى القحطانيين ، من ذلك التثنية في قضاة وبهراء إذ يكسرون الفعل المضارع فيقولون : تعلمون وتكتبون وتنجحون كما نصنع في عاميتنا المصرية . ومن ذلك العجعة في قضاة إذ يجعلون الياء المشددة جيماً ، فيقولون تميمج في تميمي ، وقال ابن فارس إن إبدال ياء المتكلم جيماً وجد عند بني تميم ، وقال الزمخشري إن بني حنظلة التميميين كانوا يبدلون الياء المشددة لصيغة النسبة جيماً مشددة .

ونسب الرواة إلى قبيلة كلب اليمنية ما سموه الوهم ، وهو كسر الهاء في ضمير الغائبين وإن لم يكن قبلها ياء ولا كسرة فيقولون : منهم وعنهم وبينهم . وسُمع عن قوم منهم ما سمي بالوكم إذ يكسرون الكاف في ضمير مخاطبين إذا سبقها ياء أو كسرة ، فيقولون : عليكم وبكم بكسر الكاف فيهما . واشتهرت حمير وأهل اليمن وبعض عشائر طيء بالطمطممانية ، وهي إبدال لام التعريف ميماً ، فيقولون في السهم والبر والصيام : امسهم ، وامبر ، وامصيام ، وهذا ليس إبدالاً ، وإنما هي لهجة يمنية ، إذ كانوا يعرفون بالألف والميم ، ولعل في ذلك ما يدل على صحة ما ذهب إليه النسابون من أن طيء قبيلة يمنية ، ولا تزال لذلك بقية في عاميتنا المصرية إذ نقول بدلاً من البارحة إمبارح وأول إمبارح . ومما ينسب إلى بعض القبائل اليمنية الشنشنة إذ يجعلون كاف الخطاب شينا مطلقاً ، فيقولون بدلاً من لبيك اللهم لبيك لبيش اللهم لبيش ، وهم في ذلك يلتقون بأصحاب الكشكشة في بعض وجوهها من المضريين . وينسب إلى بعض الحميريين أنهم كانوا يجعلون السين تاء في بعض الكلمات فيقولون : النات بدل الناس . ويستشهد اللغويون على ذلك بقول علباء بن أرقم :

يا قَبَّحَ اللهُ بنى السُّعَلاتِ عمرو بن يربوعٍ شرار الناتِ

ليسوا أعفَاء ولا أكيات

وواضح أنه استعمل النات بدل الناس والأكيات بدل الأكياس . على أن هذا الشاعر ليس حميرياً وإنما هو من بكر ، وأكبر الظن أنه اضطر لذلك من أجل القافية ورويها .

وفي كتب اللغة كثير من هذه اللهجات الشاذة التي كانت تنفرد بها بعض القبائل ، وقد عقد السيوطي في المزهرة فصلاً لألفاظ اختلفت فيها لغة تميم والحجازيين ، ويمكن أن نمد هذا الفصل للبحث فيما كان بين القبائل الشرقية والغربية من خلافات لغوية . ولعل أهم ما سجله اللغويون من فروق بين التميميين والحجازيين أن الأولين كانوا يحققون الهمزة وكان الثانون يسهّلونها فمثل سأل يسأل سؤالاً عند الأولين يقابل سأل يسأل سؤالاً عند الثانين ، ومثل رثأت وعباءة ونبي عند الأولين يقابل رثيت وعباية ونبي عند الثانين . ويظهر أن ذلك لم يكن يطرد في كل الكلمات ولا على جميع الألسنة في الجانبين المتقابلين من الجزيرة . وكان التميميون يدغمون الحرف الثاني في الثالث في أمرٍ مثل ردّ ، بينما كان يفك الحجازيون الإدغام فيقولون : ارددّ ، وهذه أيضاً فيما نظن كانت مسألة حيسّ ، فكان بين الفريقين من يجارى الفريق الآخر . ومما اشتهر بينهما من فروق إهمال ما عند التميميين في نحو ما زيد قائم وإعمالها عند الحجازيين فيقولون ما زيد قائما ، ومن ذلك أيضاً أن الحجازيين كانوا يُجْزَوْنَ « هلم » مجرى أسماء الأفعال مثل صه ، فيلزمونها طريقاً واحداً في مخاطبة المفرد والمفردة والاثنتين والاثنتين والجماعتين ، فيقولون : هلم يا رجل وهلم يا امرأة وهلم يا رجلان وهلم يا امرأتان وهلم يا رجال وهلم يا نساء ، أما التميميون فكانوا يجزونها مجرى الأفعال ، فيقولون : هلم وهلمى وهلموا وهلممن يا نسوة ، وبلغه الحجازيين نزل القرآن الكريم في قوله تعالى : « والقائلين لإخوانهم هلم إلينا » . ومن ذلك أمس عند الحجازيين فإنها تلزم البناء على الكسر ، أما التميميون فكانوا يقولون أمسى في الرفع وأمسى بفتح السين في البحر والنصب . ومن ذلك هيهات فإنها تلزم فتح التاء عند الحجازيين بينما تلزم الكسر عند التميميين فيقولون هيهات ، ورؤى فيها الإعراب بالحركات . ومن ذلك تنوين الترنم في قوافي الشعر ، فقد كان الحجازيون يطلقون القافية ، ليفرقوا بين الشعر الذي يغنى والكلام المنشور ، وكان التميميون يبدلون المدّ في القافية نونا ، على نحو ما عُرِف عن جرير في قصيدته :

أَقْلَى اللوم عاذل العتابنِ وقولى إن أصبتُ لقد أصابنِ

فقد أبدل المدّ نوناً في « العتابن » و « أصابن » وهو يحذف في لغة الحجازيين ، فيصبح البيت على هذا النمط :

أقل اللوم عاذل والعتابا وقولي إن أصبتُ لقد أصابا

وروى اللغويون كثيراً من اختلاف الفريقين في همس الحركات والجهر بها ومدّها ، فبينما يمد الحجازيون الألف في مثل كلاب يقصرها التميميون فيقولون كلب ، وبينما يقول الأولون ناداه يقول الثانون : ندّه ، وبذلك ننطق في عاميتنا المصرية ، ويقول الحجازيون خمس عشرة بتسكين الشين وتميم تفتحها ، ومنهم من يكسرهما ومن يثقلها ، ويقول الحجازيون يبطش بكسر الطاء ويقول التميميون يبطش بضمها ، ويقول الحجازيون مرية بكسر الميم ويقول التميميون مرية بضمها ، ويقول الحجازيون الحج بكسر الحاء ويقول التميميون الحج بفتحها ، ويقول الحجازيون اتخذت وونخذت ويقول التميميون اتخذت ، ويقول الحجازيون قلنسية بالياء ويقول التميميون قلنسوة بالواو ، ويقول الحجازيون ينقدالدراهم ويقول التميميون ينتقد ، ويقول الحجازيون القير ويقول التميميون القار ، ويقول الحجازيون الكراهة ، ويقول التميميون الكراهية ، ويقول الحجازيون ليلة ضحيانة (مصحية) ويقول التميميون إضحيانة ، ويقول الحجازيون منذ ويسقط التميميون النون فيقولون مذ ، ويقول الحجازيون برأت من المرض بفتح الراء في الفعل ويقول التميميون برئت بكسرهما ، ويقول الحجازيون أنا منك براء ، ويقول التميميون برىء ، ويقول الحجازيون قلوت القمح وأقلوه قلوأ ويقول التميميون قليته وأقلبه قلى ، ويقول الحجازيون لى بك إسوة وقدوة بكسر أولهما ويضمه التميميون فيقولون أسوة وقدوة بالضم ، ويقول الحجازيون : الشفع والوتر بفتح الواو في الوتر ، ويكسرهما التميميون فيقولون الوتر ، ويقول الحجازيون وكدت والتميمون أكدت .

ولعل خير مرجع يصور الاختلافات بين الفريقين هو قراءات القرآن الكريم ، فمثلا في قوله تعالى : (فنظرة إلى ميسرة) قرأ الجمهور نظرة بكسر الظاء وهي لغة قريش ، وقرأ مجاهد والضحاك نظرة بسكون الظاء وهي لغة تميم ، وقال جل ذكره : (ورضوان من الله أكبر) وقرئت رضوان بكسر الراء وهي لغة الحجازيين وقرئت بضمها وهي لغة تميم وبكر ، وقال تبارك وتعالى : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) وقرأ الجمهور كسالى بضم الكاف وهي لغة الحجازيين ، وقرأها الأعرج بالكسر وهي لغة تميم وأسد ، وقال : (وليجدوا فيكم غلظة) وقرأ الجمهور غلظة

بكسر الغين وهي لغة الحجازيين ، وقرأها السلمي وأبو حيوة بالضممة ، وهي لغة تميم ، وقال : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما) وقرأ الجمهور يستحي بياءين ، وهي لغة أهل الحجاز وقرأ ابن كثير يستحي بياء واحدة ، وهي لغة تميم ، وقال : (ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسول) وقرئت الرسل بتسكين السين وهي لغة الحجازيين ، وقرئت بضمها وهي لغة التميميين ، وقال : (وإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) وقرئت الهدى بتسكين الدال وتخفيف الهاء ، وهي لغة أهل الحجاز وقرئت بكسر الدال وتشديد الباء ، وهي لغة تميم ، وقال : (وآتوا حقه يوم حصاده) وقرئت الحصاد بكسر الحاء وهي لغة الحجازيين وبفتحتها وهي لغة تميم وقيس ، وقال تبارك وتعالى : (وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً) وقرئت عشرة بتسكين الشين وهي لغة الحجازيين وقرئت بكسرها وهي لإحدى لغات تميم فيها كما قدمنا .

وهناك لهجات كثيرة نسبت إلى بعض القبائل ، فقد قالوا إن بنى مازن كانوا يبدلون من الباء ميماً ، فيقولون : باسمك بدلاً من ما اسمك ، ويقولون بكة بدلاً من مكة والبوابة بدلاً من المومة وهي الفلاة ، ويقال إن اطبأن بدلاً من اطمأن لغة في بنى أسد . ولا نعرف بالضبط أكان ذلك يشيع في كل الكلمات الميمية أو أن ذلك كان خاصاً ببعض الكلمات . ويقال إن بعض بنى تميم كان ينطق أثاثي بدلاً من أثافي جمع أثفية ، ولعل كلمة تم بمعنى فم عند إخواننا الشاميين قد تطورت عن ثم ، فقلبت الفاء فيها أولاً ثاء ثم أصبحت مع الزمن تاء تخفيفاً . ويقال إن بنى عبد القيس في البحرين كانوا يقولون رنز بدلاً من رز وأرز ، كما كانوا يقولون إنجاص في إجاص ، ويقال إن بعض بنى تميم كانوا يقولون في أفلت أفلط بالطاء ، ويقال إن قريشاً كانت تقول التابوت بينما كان الأنصار في يثرب يقولون التابوه ، ويروى عن بعض الطائيين أنهم كانوا يقلبون تاء الجمع المؤنث هاء في الوقف فيقولون البناء والأخواه في البنات والأخوات . ويقال إن بعض ربيعة كانوا يقولون ذكر في ذكر ، على نحو ما نعرف في عاميتنا ، ويقال أيضاً إن بعض التميميين كانوا يبدلون السين صاداً في مثل سوق وساق ، وفي عاميتنا راص بمعنى رأس . وتبادل الضاد والظاء في كثير من الكلمات ، ففي لغة تميم فاضت نفسه ، وفي لغة الحجازيين

والقيسيين والطائيين فاظت نفسه بالظاء . ومن هذه اللهجات أن طيئاً كانت تفتح الفعل اليأى في مثل بقى ورضى فتقول ببقى ورضى ، وكانوا يقولون في مثل توصية وجارية وناصية مما يأؤه مفتوحة توصاة وجارة وناصاة . وأثر عن هذيل أنها كانت تستخدم متى حرف جر بمعنى من ، وأنها كانت مثل كنانة والحجازيين تقول نعم بكسر العين بدلا من نعم وأنها كانت تكسر الباء في ابن فتقول ابن ، وأنها كانت تقول إشاح في مثل وشاح ، ومر بنا أنها كانت تقلب الحاء عيناً في مثل حتى ، فتقول عى ، وأنها كانت تقول في مثل أعطى أنطى ، وكانت تقلب الألف ياء في مثل عصاى وهواى وفتاى فتقول عصى وهوى وفتى وكانت تنطق مثل قال وباع إذا بنيا للمجهول قول وبوع بقلب الألف واواً ، وكانت لا تشيع كسرة المنقوص بل تهمسها وتخطفها كما جاء في بعض القراءات : (والليل إذا يسر) بدون ياء .

وقد عقد أحمد بن فارس في كتابه « الصحاحي » فصلاً حاول فيه أن يضبط اختلاف لهجات العرب ، فقال : « اختلاف لغات العرب من وجوه : أحدها الاختلاف في الحركات كقولنا نستعين بفتح النون وكسرها ، قال الفراء هي مفتوحة في لغة قریش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون . ووجه آخر : الاختلاف في الحركة والسكون مثل قولهم معكم بفتح العين وتسكينها . ووجه آخر ، هو الاختلاف في إبدال الحروف نحو أولئك وأولالك . . ومنها قولهم أن زيداً وعن زيداً . ومن ذلك الاختلاف في الهمز والتلين نحو مستهزئون ومستهزون . ومنها الاختلاف في التقديم والتأخير نحو صاعقة (في لغة الحجازيين) وصاعقة (في لغة التميميين) . ومنها الاختلاف في الحذف والإثبات نحو استحييت واستحييت وصددت وأصددت . ومنها الاختلاف في الحذف الصحيح يُبدلُ حرفاً معتلاً نحو أما زيد وأيما زيد . ومنها الاختلاف في الإمالة والتفخيم في مثل قضى ورمى ، فبعضهم يفخم وبعضهم يميل . ومنها الاختلاف في الحذف الساكن يستقبله مثله ، فمنهم من يكسر الأول ومنهم من يضم فيقول : (اشترُوا الضلالة) و (اشترُوا الضلالة) . ومنها الاختلاف في التذكير والتأنيث فإن من العرب من يقول هذه البقر وهذه النخيل ، ومنهم من يقول هذا البقر وهذا النخيل . ومنها الاختلاف في الإدغام نحو مهتدون ومهدون . ومنها الاختلاف في الإعراب نحو ما زيد قائماً وما زيد قائم ، وإن هذين وإن هذان ،

وهذان بالألف دائماً لغة لبني الحارث بن كعب . . ومنها الاختلاف في صورة الجمع نحو أسرى وأسارى . ومنها الاختلاف في التحقيق والاختلاس نحو يأمركم بضم الراء وتسكينها ونحو عفى له بتسكين الفاء وكسرها . ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل هذه أمة وهذه أمت . ومنها الاختلاف في الزيادة نحو أنظر وأنظور . وقال ابن فارس إنه « يقع في الكلمة الواحدة لغتان كقولهم الحصاد والحصاد بكسر الحاء وفتحها ، ويقع في الكلمة ثلاث لغات نحو الزجاج والزجاج والزجاج بضم الزاي وفتحها وكسرها ، ويقع في الكلمة أربع لغات . . . ويكون فيها خمس لغات نحو الشمال والشمل والشمل والشمال والشئمل . ويكون فيها ست لغات نحو قسطاس بضم القاف وكسرها وبإبدال السين صاداً مع ضم القاف وقُسَّطَاط وقِسَّطَاط وقُسَّطَاط .

وراء هذه الاختلافات في نطق الكلمات كان بينهم اختلاف كثير في التعبير عن بعض المسميات مما نشأ عنه كثرة المترادفات في العربية مثل الذهب والعسجد والغيث والمطر والقمح والبر ، قال الجاحظ في البيان والتبيين : « القمح لغة شامية والحنطة لغة كوفية والبر لغة حجازية » ويقول المفسرون في تفسير قوله تبارك وتعالى : (وفومها) الفوم هو الحنطة . وكما يكون الترادف في الأسماء يكون في الأفعال مثل تقاتلوا وتعاركوا وتحاربوا وتواقعوا وتخاصموا . وكثيراً ما ينشأ الترادف من اختلافات لهجاتهم في حذف بعض الحروف أو إبدال بعضها ببعض مثل جدث وجدف بمعنى القبر ومثل تابوت وتابوه وثابوت ومثل اذكر واذكر وساط وشاط بمعنى اختلط ، ومثل لثام ولفام في لغة ومثل سجعت الحمامة وسججت بالحاء ومثل حظوة وحظفة في لغة .

والترادف في العربية كثير كثرة مفرطة ، وهو يُردُّ في جمهوره إلى اختلاف اللهجات واختلاف القبائل فيما وضعته للمعاني الحسية والذهنية من أسماء وأفعال ، فإن اللغويين جمعوا كل ما دار على ألسنة القوم ، وبذلك اتسعت مادة المعجم العربي اتساعاً شديداً ، وهو في حقيقته معجم عدة لهجات ، نُظمت في سلك واحد هو العربية ، وحقاً ميَّز اللغويون في مباحثهم الشواذ والشوارد والنوادر والمنكر والمتروك وغير الفصيح وساقوا في ذلك شواهد احتفظ السيوطي في المزهرة بكثير منها ،

ولكنهم حين ألفوا المعاجم حشدوها فيها جميعاً . وقد ذهبوا يحصون أسماء السيف مثلاً ويقولون إنها خمسون ، وبالمثل أحصوا أسماء الأسد والفرس والبعير ، وأمدتهم الاختلافات اللغوية بين القبائل بمدد لا ينفد أو بعبارة أدق لا يكاد ينفد في ذلك كله . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن لغة من اللغات لا يمكن أن تجارى العربية في هذا الباب : باب الترادف ، فهو باب واسع فيها ، وقد أعدها ليشيع فيها أسلوب من التكرار الصوتي والترادف الموسيقي عند الجاحظ وأضرابه .

ومما يرجع أيضاً إلى اللهجات الجاهلية وتباين التعبير فيها عن المسميات وتعددده باب الأضداد ، إذ نجد كلمة واحدة تستعملها قبيلة بمعنى ، ثم تشيع عند قبيلة ثانية لا بمعنى مغاير له فحسب ، بل بمعنى مضاد يناقضه ، مثل جلال بمعنى عظيم فإننا نجد المعاجم تنصّ على أنها تأتي بمعنى حقير ، ومن ذلك الجَوْن يوصف به الأسود والأبيض ويدلّ عليهما ، ومثله البَسَل بمعنى الحلال والحرام . وعلى شاكاة التضاد في الأسماء قد يكون التضاد في الأفعال فتعبر عن معنيين متناقضين مثل رجا بمعنى رغب وخاف ومثل شرى بمعناها الذي نعرفه وهو اشترى وبمعنى باع الذي يضاده . وتكثر الأضداد لنفس السبب الذي كثرت من أجله المترادفات ، وهو أنها ليست من استعمال قبيلة واحدة ، وقد أفرد اللغويون لها بسبب كثرتها أبحاثاً وكتباً مثل كتاب الأضداد لابن الأنباري . ونحن إنما نقصد ما يتضح فيه التضاد مما مثلنا به ، فإن اللغويين وسّعوا مفهوم الضد ، حتى شمل ما يكون بين استعمالين من فروق ضئيلة في المعنى مثل ناء بمعنى حمل ، وبمعنى حمل بمشقة ، وأيضاً فإنهم أدخلوا في الأضداد ما نشأ عن المجاز والاستعارة ، كاستخدام العرب كلمة السليم للملدوغ بأفعى تفاؤلاً . فهذا ونحوه لا يُعدّ من الأضداد بمفهومها اللغوي الدقيق ، إنما الذي يعد من الأضداد مثل ما ذكرناه ومثل الرهوة بمعنى الارتفاع والانحدار ومثل الصَّريم بمعنى الليل والصبح والصارخ بمعنى المغيث والمستغيث والزبية للمكان المرتفع ولحفرة الأسد . ومرجع ذلك كما قلنا أنهم كانوا في الجزيرة متباعدين ، فقد تطلق قبيلة كلمة على مسمى ، ولا تسمع بها القبيلة البعيدة ، فتضعها لمسمى يضاده ويكون ذلك اتفاقاً ومحض مصادفة قال أبو عبيد في باب الأضداد من كتابه الغريب المصنف : سمعت أبا زيد بن أوس الأنصاري

يقول : « السَّدْفَةُ في لغة تميم الظلمة والسدفة في لغة قيس الضوء .. ولقت الشيء الملقه لَمَقًا إذا كتبتة في لغة بني عقيل وسائر قيس يقولون لَمَقْتَهُ بمعنى محوته »^(١). وعن ابن دريد : « خرج رجل من بني كلاب أو من سائر بني عامر بن صعصعة إلى ذي جَدَن (من أقبال حمير) فأُطْلِع إلى سطح ، والمُلك عليه ، فلما رآه الملك اختبره ، فقال له : ثَبْ أي اقعد ، فقال : ليعلم الملك أني سامع مطيع ، ثم وثب من السطح . قال الملك : ما شأنه ؟ فقالوا له : أبيت اللعن ! إن الوثب في كلام نزار الطفر (القفز) فقال الملك : ليست عربيتنا كعربيتهم »^(٢). ولم يكن هذا التضاد بين لغة نزار الفصحى ولغة الجنوبيين الحميرية فحسب ، بل كان أيضًا في كثير من الكلمات التي كانت تدور على ألسنة القبائل الشمالية لتباعد أوطانها .

ولا نريد أن نمضي في تصوير الاختلافات بين لهجات القبائل في الجاهلية أكثر من ذلك ، لسبب طبيعي وهو أننا لا نستطيع أن نستوعبها في صحف معدودة ، إنما أردنا أن نكشف عن بعض جوانبها ليتضح أنه كانت في الجاهلية لهجات كثيرة ، سجل منها اللغويون أطرافاً ، ومن غير شك لم يسجلوها جميعاً لأنها لم تكن تعنيهم في حد ذاتها ، إنما كان يعينهم التنبيه على ما يخالف الفصحى التي تُنظم بها الشعر الجاهلي ونزل بها القرآن الكريم ، ومن أجل ذلك لم ينصّوا في أكثر الأحوال على القبيلة التي كانت تنطق باللهجة الشاذة ، وأيضاً فإنهم مع نصّهم أحياناً على القبيلة لا نستطيع أن نتبين كما قدمنا هل كل أفرادها كانوا يصطنعون تلك اللهجة أو أن ذلك كان خاصاً ببعض عشائرها أو ببعض أفرادها . ولعل في هذا كله ما يوضح صعوبة دراسة اللهجات الجاهلية ، فعلى الرغم من مادتها الوفيرة التي جمعها اللغويون تظل غير واضحة ويظل المجال واسعاً فيها للظن والتخمين ، وخاصة حين نحاول أن نضع حدوداً للهجة قبيلة بعينها كلهجة تميم أو لهجة هذيل . ونفس القدماء اضطربوا في نسبة كثير مما نسبوه إلى القبائل ، فتارة يجعلونه لتمييم أو لعشيرة تميمية وتارة يجعلونه لقيس أو لعشيرة قيسية ، وأخرى يجعلونه لقضاعة أو عشيرة يمنية ، وقد يُشركون بين قبائل متباعدة في الظاهرة اللغوية الواحدة .

(١) المزهر ١/٣٨٩ .

(٢) المزهر ١/٣٩٦ .

سيادة اللهجة القرشية

يدل ما بين أيدينا من شعر جاهلي دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية اصططلحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحي كان الشعراء على اختلاف قبائلهم وتباعدها وتقاربها ينظمون فيها شعرهم ، فالشاعر حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى هذه اللهجة الأدبية العامة ، ومن ثم اختفت جملة الخصائص التي تميزت بها كل قبيلة في لهجتها فلم تتضح في شعر شعرائهم إلا قليلاً جداً . وقد اختلفت آراء^(١) المستشرقين في هذه اللهجة التي كان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، فقال نولدكه إن الاختلافات بين اللهجات في الأجزاء الأساسية من جزيرة العرب ، مثل الحجاز ونجد وإقليم الفرات ، كانت قليلة ، وقد تركبت منها جميعاً هذه اللهجة الفصحى . وتبعه جويدي يقول إنها ليست لهجة معينة لقبيلة بعينها ، إنما هي مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم . وذهب فيشر إلى أنها لهجة معينة ، ولكنه لم ينسبها إلى قبيلة من القبائل . وذهب نالينو إلى أنها لغة القبائل التي اشتهرت بنظم الشعر والتي جمع اللغويون والنحاة من أهلها مادتهم اللغوية وشواهدهم ، وهي قبائل معد التي جمع ملوك كندة كلماتها تحت لواء حكم واحد قبل منتصف القرن الخامس الميلادي . وفي رأيه أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية ، وتهدبت في زمن مملكة كندة ، وصارت اللغة الأدبية السائدة بين العرب . ويرى هارتمان وفولرز أنها لهجة أعراب نجد واليمامة وقد أدخل فيها الشعراء تغيرات كثيرة ، ومضى فولرز يزعم أن بقية بلاد العرب كانت تتكلم لغة مخالفة ، ليصل إلى رأيه الذي سبق أن دحضناه ، وهو أن القرآن الكريم نزل بلغة شعبية مكية ، ثم كُتب بعد ذلك بالأسلوب الفصيح . وزعم بروكلمان أن الفصحى كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات وإن غلبتها جميعاً^(٢) .

(١) راجع في هذه الآراء مقالة جواد علي من لهجات العرب قبل الإسلام في كتاب الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (نشر مكتبة

النهضة في القاهرة) .
(٢) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ٤٢/١ .

وعلى ضوء من رأى نالينو حاول بلاشير أن يقيم حدوداً لهذه اللهجة الأدبية معتمداً على القبائل التي كان يأخذ عنها اللغويون والنحاة مادتهم ، وهي تميم وقيس وأسد وهذيل وعُلى هوازن وبعض العشائر الكنانية والطائية ، وجعل هذه الحدود محصورة بين خطين يمتد أحدهما على مسافة بضعة أميال من جنوبي مكة متجها شرقاً إلى الخليج العربي في البحرين ويمتد ثانيهما في الشمال من ضواحي يثرب إلى شمالي الحيرة . وذهب يزعم أن الفصحى مشتقة من الشعر الجاهلي والقرآن معاً وأن القرآن لا يستند على اللهجة المكية وإنما على لغة هذا الشعر ، وهي لغة تولدت من لهجة محلية ارتفعت إلى مرتبة لغة أدبية ، ولم يبين لنا هذه اللهجة التي تسامت على أخواتها ولا أسباب تساميتها ، ومضى يشكك في أن تكون لهجة قريش هي التي حققت لنفسها هذا التسامي^(١) .

وواضح أن كل هذه الآراء تعتمد على الفرض والحدس ، وقد أراد بها أصحابها أن يناقضوا أشد المناقضة ما استقر في نفوس أسلافنا من أن هذه اللهجة الفصحى إنما هي لهجة قريش التي نزل بها الذكر الحكيم ، يقول أبو نصر الفارابي : « كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسامحةً وأبينها إبانة عما في النفس »^(٢) ويقول أحمد بن فارس نقلاً عن إسماعيل بن أبي عبيد الله : « أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومخالفهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبي الرحمة محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل قريشاً قُطبان حرمه وجيران بيته الحرام ، وولاته ، فكانت وفود العرب من حُجَّاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاضرون إلى قريش في أمورهم . . . وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصنى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب ، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم ولا عجرفية^(٣) قيس

(١) انظر تاريخ الأدب العربي لبلاشير (٣) العجرفية : التقعر وطلب الغريب وما بعدها . ٧٧/١

(٢) المزهر للسيوطي ٢١١/١ .

(٣) العجرفية : التقعر وطلب الغريب .

ولا كَشَكْشَة أسد ولا كسكسة ربيعة»^(١) . ويقول ابن خلدون « كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم » فصانها بعدها عن الأعاجم من الفساد والتأثر بأساليب العجم « حتى إن سائر العرب على نسبة بُعْدِهِمْ من قريش كان الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية »^(٢) .

وفي رأينا أن المستشرقين جانبهم التوفيق في الحدس والفرض حين رفضوا نظرية العرب في أن الفصحى هي عين اللهجة القرشية ، فقد ذهبوا يطلبونها في لهجات القبائل النجدية ، متناسين أن شيوع لهجة بعينها لا بد أن تقرن به حالة سياسية أو روحية أو حضارية ، تهيئ لها هذا الشيوع والانتشار ، بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة ، فتتخذها أداة لأدبها بينما تظل وحداتها الصغيرة تتحدث في حياتها بلغاتها المحلية . وما تزال اللغة الأدبية في الديوع ، حتى تظفر بتلك اللغات المحلية التي تستخدم في الحياة اليومية العملية .

ونحن إذا طلبنا سبباً لتفوق لغة قبيلة في نجد على جميع اللغات واللهجات المجاورة لها أعوزنا ذلك كما أعوز المستشرقين ، بينما إذا طلبنا ذلك في قريش وجدنا أسباباً كثيرة تعين عليه ، فقد كانت مهوى أفئدة العرب في الجاهلية ، وكان لها عليهم نفوذ واسع بسبب مركزها الديني الروحي والاقتصادي المادي ، إذ كانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم ، وكانت قوافلها تجوب أنحاء الجزيرة العربية ، وكان العرب يجتمعون إليها في أعيادها الدينية وفي أسواقها القريبة والبعيدة .

ومعنى ذلك أن هناك أسباباً دينية واقتصادية أعدت لهجة مكة لتسود اللهجات القبلية في الجاهلية ، وقد تداخلت فيها أسباب سياسية ، فإن القبائل العربية كانت ترى تحت أعينها هجوم الدول المجاورة من الفرس والروم والحبش على أطرافها ، كما كانت ترى هجوم الديانتين المسيحية واليهودية على دينها الوثني ، فتجمعت قلوبها حول مكة ، وهوت أفئدتها إليها . وبذلك كله تهيأ للهجة القرشية أن يعلو سلطانها في الجاهلية اللهجات القبلية المختلفة ، وأن تصبح هي اللغة الأدبية التي يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأفكارهم وأحاسيسهم . وقد تدل على ذلك بعض

(١) انظر الصاحبى في فقه اللغة (طبعة) (٢) راجع الفصل الثانى والثلاثين من القسم المؤيد) ص ٢٣ .
السادس في مقدمة ابن خلدون ص ٤٠٩ .

الدلالة سوقها عكاظ ، فقد كانت سوقاً أدبية كما كانت سوقاً تجارية ، وكان الخطباء يرتجلون فيها خطبهم وينشد الشعراء قصائدهم ، ولم يُروَ ذلك عن سوق سواها ، ومما يدعم هذا الدليل ما قاله الرواة من أن العرب « كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردوه منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبسة التميمي ، فأنشدهم قصيدته : ” هل ما علمت وما استودعت مكتوم “ فقالوا : هذا سمط الدهر ، ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته : ” طحابتك قلب في الحسان طروب “ فقالوا : هاتان سمطا الدهر « (١) .

وإذن فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية لا في الحجاز ونجد فحسب ، بل في كل القبائل العربية شمالاً وغرباً وشرقاً ، وفي اليمامة والبحرين ، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران . ومما يؤكد ذلك أن الوفود اليمنية التي وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يحدثنا رواة الأخبار والسيرة النبوية أنها كانت تجد صعوبة في التفاهم معه ، وأيضاً فإنه كان يرسل إليهم دعاة يعظونهم ويعلمونهم الشريعة الإسلامية من مثل معاذ بن جبل ، ولو أنهم لم يكونوا يعرفون العربية الفصحى لكان إرسال هؤلاء الدعاة عبثاً . وكل هذه دلائل تدل على أن حركة تعريب واسعة في الجنوب حدثت قبيل الإسلام .

أما في الشمال فقد كانت الفصحى معروفة في كل مكان ، وكان الشعراء يتخذونها لغة لشعرهم ، ومما يدل على ذلك دلالة قاطعة سرعة استجابتهم للقرآن الكريم ودعوته ، فإنهم كانوا يفهمونه بمجرد سماعه ، فإذا عرفنا أنه نزل بلغة قريش تحتم أن تكون هي اللغة الأدبية التي كانت سائدة . أما ما يردده اللغويون من أن القرآن الكريم نزل على سبع لغات منها خمس بلغة العَجَز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عُلَيا هوازن مثل سعد بن بكر بن معاوية وثقيف فذلك في رأيي إنما هو تفسير منهم للحديث النبوي : « أنزل القرآن على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه » فقد فسروا الحروف باللغة أو اللهجة ونظروا فوجدوا لهجات العرب ولغاتها

كثيرة ، فاختاروا منها سبعة هي أفصحها ، وهي التي كان يرحل إليها اللغويون لجمع مادتهم اللغوية الصحيحة ، وقد اختلفوا في بعضها . وفي رأينا أن الحديث لا يراد به تخصيص ، وإنما يراد به الترخيص لقبائل العرب أن تقرأه بلهجاتها المختلفة متى جاءت بها الرواية الصحيحة من مَدٍّ وإمالة وتحريك للحروف وتسكين وتشديد تسهيلاً عليهم وتيسيراً حتى لا يجدوا مشقة وثقلاً في نطق بعض ألفاظه .

روى الرواة عن أبي حاتم السجستاني أنه قال في كتابه الكبير في القراءات : « قرأ على أعرابي بالحرَم (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طيبى لهم وحسن مآب) فقلت : طوبى ، فقال : طيبى ، فلما طال على قلت : طوطو قال : طى طى »^(١) . فلم يستطع أن يثنى طبعه لأن لهجته القبلية في مثل طوبى مما وزنه فعلى تنطقه طيبى على وزن فعلى بكسر الفاء ، فتقلب الواو ياء والضممة في أول الكلمة كسرة . ولم ينفع في الأعرابي لَفْتُ أبي حاتم ولا تمرينه له على نطق طوبى . ولثل ذلك تعددت قراءات القرآن الكريم ، تخفيفاً للمشقة عليهم في تلاوته . وفعلاً قرأوه بلهجاتهم ، المرخص بها ، وكان ذلك سبب اختلاف قراءاته التي دونها العلماء .

ونعتقد أن تفسير الحديث بأن القرآن نزل بسبع لغات معينة هي أفصح لغات العرب هو الذى ضلل المستشرقين ، فإنهم ظنوا أنه نزل بلغات قبائل نجدية ولم ينزل بلغة قريش ، وكأنهم لم يلاحظوا أن نفس هذه القبائل التي عيَّنها اللغويون هي أقرب القبائل إلى قريش ، ومن هنا جاءت فصاحتها ، ولعل ذلك هو الذى جعل الطبرى يذهب إلى أن لغة قريش نفسها كانت تستوعب الأحرف السبعة التي أشار إليها الحديث النبوى . وليس بمعقول أن يترك الرسول لغة قومه الذين بُعث فيهم إلى لغات أقوام آخرين ، وفي القرآن الكريم نفسه : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) فالقرآن بشهادته إنما نزل بلغة قريش ، وما دام المستشرقون مسلمون بأنه نزل بالفصحى ، مع استثنائنا لقولر وأضرابه ، فإن هذه الفصحى إذن هي نفس لغة قريش التي لم يكن بها عِوَج من لغات أو لهجات شاذة كالعننة والكشكشة وكسر أول المضارع .

(١) الحصانص لابن جنى بتحقيق محمد على النجار
(طبع دار الكتب المصرية) ٧٥/١ - ٧٦ .

وربما كان من الأسباب التي ضللت المستشرقين أيضاً ودفعتهم عن محجة الصواب أنهم وجدوا اللغويين حين أخذوا يجمعون مادتهم اللغوية يرحلون إلى قبائل نجدية منحازين عن قريش ، وكأنهم نسوا أن الزمن قد تغير وأن مكة دخلها أعاجم كثيرون في الإسلام وأن الفصحى فيها في أثناء القرن الثاني قرن جمع اللغة وتدوينها دخلتها شوائب من الأعاجم والموالي الذين كثروا فيها كثرة مفرطة . ومن أجل ذلك رحل اللغويون إلى قبائل نجد التي كانت لا تزال تحتفظ بصفاء لغتها . وقد شاع أن أفصح العرب لعصرهم عُلُيّا هوازن وسفلى تميم وأسد وكنانة وهذيل . ويوضح أبو نصر الفارابي السبب في أنهم اقتصروا على تلك القبائل في جمع اللغة فيقول : « والذين عنهم نُقلت العربية وبهم اقتُدى عنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتمر وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم . وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سُكّان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ لا من لحم ولا من جُذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ، ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد وعمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكّان البصرة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدعوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ^(١) » .

فاللغويون في القرن الثاني حين أقبلوا على القبائل النجدية يجمعون منها مادتهم إنما كانوا يتحرّون ينباع التي لا تزال نقية صافية ، وليس في عملهم ما يشكك أي تشكيك في لغة مكة في أثناء العصر الجاهلي وفترة نزول القرآن الكريم ، فقد التمسوا بغيثهم في القبائل المجاورة لقريش مثل كنانة وهذيل وبعض عشائر قيس .

ومن المؤكد أن الفوارق في الجاهلية بين لهجة مكة ولهجات هذه القبائل كانت ضئيلة وأن هذه الفوارق كانت تتسع كلما ابتعدنا جنوباً أو شرقاً أو شمالاً . على أنه ينبغي أن لا نبالغ في تصورها ، فإن الشعراء تضافروا منذ أوائل العصر الجاهلي على إذاعة اللهجة المكية في قبائلهم بما كانوا ينظمون فيها من أشعارهم .

ومعنى ذلك أن لهجة قريش لم يبدأ ذيووعها وانتشارها بين العرب في الإسلام عن طريق القرآن الكريم كما ظن ذلك بعض الباحثين ، فقد كانت ذائعة منتشرة بينهم منذ العصر الجاهلي ، بل منذ أوائله ، فأقدم نصوصه كأحدثها نُظم بهذه اللهجة القرشية التي اتخذوها لغة أدبية عامة لهم ، والتي سُمّيت بعد بالفصحى ، فقد كانوا يشعرون بروعتها ، فاندفعوا يحاكونها ، وقد امتلأت نفوسهم بأهلها ومكانتهم الروحية والاقتصادية والسياسية . ومن غير شك بلغ انتشار هذه اللهجة الذروة في الإسلام ، فقد أقبل العرب في كل مكان شمالاً وجنوباً على الارتشاف من أفوايق لغته ، وقد أخذ يعمّمها لا في أنحاء الجزيرة القاصية وحدها ، بل في كل بلد إسلامي شرقاً وغرباً ، فإذا أعلامها تخفق على الدروب من أواسط آسيا إلى مشارف المحيط الأطلسي .

الفصل الخامس رواية الشعر الجاهلي وتدوينه

١

رواية العرب للشعر الجاهلي

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن العرب الشماليين نمو الخط النبطي وتطوروا به إلى خطهم العربي منذ أوائل الجاهلية أو لعلمهم وصلوا إلى ذلك قبل فجرها ، فقد وجدت نقوش مختلفة تشهد بذلك ، ونرى شعراءهم يشيع عندهم تشبيه الأطلال ورسوم الديار بالكتابة ونقوشها من مثل قول المرقش الأكبر (١) :

الدَّارُ قَفْرٌ والرسومُ كما رَقَشَ في ظهر الأديم قَلَمٌ
ويقال إنه كان يحسن الكتابة وإنه كتب على بعض الرّحال قصيدة له حين وقع أسيراً في يد بعض العرب (٢) ، ويقول سلامة بن جندل (٣) :

لَمَن طَلَلْ مِثْلَ الْكِتَابِ الْمُنَمَّقِ خَلَا عَهْدُهُ بَيْنَ الصُّلَيْبِ فَمُطَرِّقٍ
ولعله يقصد بالكتاب الصحيفة ، ويقول لبید في مطلع معلقته :
عَفَّتِ الدِّيارُ محلُّها فمُقَامُها بِجِنَى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجامُها (٤)
فمدافعُ الرِّيانِ عُرِّيَ رَسْمُها خَلَقًا كما ضَمِنَ الوَحْيُ سِلامُها (٥)
وجلا السيولُ عن الطلولِ كأنها زُبُرٌ تُجَدُّ متونُها أَقلامُها (٦)

المجلس ، وننى : موضع بحمى ضرية ، والغول والرجام : جبلان أو موضعان .
(٥) مدافع الريان : موضع ، والرسم : آثار الديار ، وخلقا : دروسا ، والوحى : جمع وحى وهو الكتابة ، والسلام : الحجارة الرقيقة .
(٦) الزبر : جمع زبور وهو الكتاب ، وتجدد : تجدد .

(١) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ ، رَقَشَ : زين ونمق .
(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣٠/٦ .
(٣) الأصمعيات (طبعة دار المعارف) ص ١٤٦ والصليب ومطرَق : موضعان .
(٤) عفت : درست وأحمت ، تأبد : توحش ، والمحل : حيث يحل القوم . والمقام :

فهو يشبه رسوم الديار بالوحى أو الكتابة فى الحجارة الرقيقة ، ويقول إن السيول جلت التراب عن الطلوع ، حتى لكأنما آثار الديار كتب طمست فأعيد بعضها على بعض وترك ما تبين منها ، فهى مختلفة . ويقول الأحنس بن شهاب التغلبى (١) :

لأبنة حِطَّان بن عَوْفٍ منازلٌ كما رَقَّش العنوانَ فى الرِّقِّ كاتبٌ

ويقول الحارث بن حِلَازة اليشكرى البكرى (٢) :

لمن الديار عَفَوْنَ بالحُبْس آياتها كمهارق الفُرْس

ويدور هذا التشبيه كثيراً فى أشعارهم ، مما قد يدل على أن كثيرين منهم كانوا يعرفون الكتابة ، بل إن فريقاً منهم ، كما يقول الرواة ، كان يعرف الكتابة الفارسية على نحو ما حدثونا عن لقيط بن يعمر الإيادى وعدى بن زيد العبادى (٣) . ومما لا شك فيه أن الكتابة كانت شائعة فى الخواصر وخاصة فى مكة التاجرة . وفى السيرة النبوية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فداء الأسرى القرشيين الكاتبين فى بدر أن يعلم الأسير منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة (٤) ، وكان من يكتبون بين يديه الوحى وفيما يعرض من أموره وأمور المسلمين فى عقودهم ومعاملاتهم كثيرين (٥) . فالكتابة كانت معروفة بل كانت شائعة فى الجاهلية ، ورُويت أخبار متفرقة تدل على أن بعض الشعراء استخدمها بلاغاً شعرياً لقومه فى بعض ما حزبه من الأمر (٦) . وغلا كرنكو فزعم أن نظم الشعر فى الجاهلية كان مرتبطاً بها وبمعرفتها بدليل اختلاف القراءات للفظ الواحدة ، وأيضاً فإن استخدام الشاعر لبعض القوافى النادرة يدل على أنه كان يلاحظ العين أكثر مما يلاحظ الأذن (٧) .

(١) المفضليات ص ٢٠٤ والرق : الجلد الرقيق .

(٢) المفضليات ص ١٣٢ والحبس بتثليث الحاء : موضع ، وآياتها : علاماتها ، والمهارق : الصحف .

(٣) أغاني ١٠١/٢ وطبعة الساسى ٢٤/٢٠

والشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ١٨٠/١

(٤) طبقات ابن سعد ١/٢ : ١٤ .

(٥) الوزراء والكتاب للجهمشيارى (طبعة

الجلبي) ص ١٢ .

(٦) انظر الباب الثانى . فى كتاب مصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد (طبع دار المعارف) .

(٧) انظر مقالة له بعنوان The Use of Writing

for the Preservation of Ancient Arabic

Poetry نشرت مع مقالات أخرى فى كتاب :

A Volume of Oriental Studies to E.G.

Browne, Edited by J.W. Arnold.

وأكبر الظن أن اختلاف القراءة إنما نشأ في عصر التدوين أو بعبارة أخرى في القرن الثاني للهجرة ، وأيضاً فإن الشعر فن سمعي ، وليس فناً بصرياً .

والحق أنه ليس بين أيدينا أى دليل مادى على أن الجاهليين اتخذوا الكتابة وسيلة لحفظ أشعارهم ربما كتبوا بها بعض قطع أو بعض قصائد ، ولكنهم لم يتحولوا من ذلك إلى استخدامها أداة في نقل دواوينهم إلى الأجيال التالية ، فقد كانت وسائلها الصعبة من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخل تجعل من العسير أن يتداولها الشعراء في حفظ دواوينهم ، إنما حدث ذلك في الإسلام ، بفضل القرآن الكريم وما أشاعه من كتابة آيه وتحول جمهور العرب معه من أميتهم الكبيرة إلى قارئين يتلون . ولا نكاد نمضى طويلاً في العصر الإسلامي حتى تتحول العربية من لغة مسموعة فحسب إلى لغة مسموعة مكتوبة ، وهو تحول شارك فيه العرب والمستعربون . وكل ما بين أيدينا من روايات عن كتابة بعض الأشعار في الجاهلية إنما يدل على أن الكتابة كانت معروفة ، وخاصة في البيئات الآخذة بشيء من الحضارة ، ونقص المدن مثل مكة والمدينة والحيرة ، ولكنه لا يدل بحال على أنها اتخذت أداة لحفظ الشعر الجاهلي ودواوينه ، ولو أنهم كان لهم كتاب جمعوا فيه أطرافاً من أشعارهم لما أطلق الله جل وعز على القرآن اسم الكتاب ، فلا كتاب لهم من قبله لا في الدين ولا في غير الدين .

أما ما يقال من أن المعلقة كانت مكتوبة ومعلقة في الكعبة فمن باب الأساطير ، وهو في حقيقته ليس أكثر من تفسير فسر به المتأخرون معنى كلمة المعلقة ، فقد جاء في العقد الفريد أنه بلغ من شغف العرب بالشعر أن « عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبها بماء الذهب في القباطى المدرجة وعلقتها في أستار الكعبة ، فمنه يقال : مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير . . والمذهبات السبع ، وقد يقال لها المعلقة »^(١) ولو أنهم تنبهوا إلى المعنى المراد بكلمة المعلقة ما لجأوا إلى هذا الخيال البعيد ، ومعناها : المقلدات والمسمطات ، وكانوا يسمون فعلاً قصائدهم الطويلة الجيدة بهذين الاسمين وما يشبههما^(٢) ، وقد

(٢) البيان والتبيين ٩ / ٢ .

(١) العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف

والترجمة والنشر) ١١٩ / ٦ .

نفي ابن النحاس الأسطورة فقال : « لم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة^(١) » .

ونستطيع أن ندخل في هذا الباب باب الأساطير ما يروى عن حماد الراوية من أن النعمان بن المنذر المتوفى سنة ٦٠٢ للميلاد « أمر فنُسخت له أشعار العرب في الطنوج - الكراريس - ثم دفنها في قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد (حوالى سنة ٦٧ هـ) قيل له : إن تحت القصر كنزاً ، فاحتفزه ، فأخرج تلك الأشعار ، فمن ثَمَّ أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة^(٢) » ويقول ابن سلام : « وقد كان عند النعمان بن المنذر منه (من شعر العرب في الجاهلية) ديوان فيه أشعار الفحول وما مُدح هو وأهل بيته به ، فصار ذلك إلى بنى مروان ، أو صار منه^(٣) » . ويكفى أن يكون أصل الخبر حماداً المتهم في روايته لنشك فيه ، بل إنه يحمل في أطوائه ما يجعلنا نهمه ، فهو ينتهى عنده إلى تعليله به كيف أن أهل الكوفة أعلم بالشعر من أهل البصرة ، وكأنما ساقه حماد الكوفى لبيان سابقة الكوفة على البصرة في الشعر القديم والعلم به ، والمنافسة بين البلدين في هذا الباب معروفة .

وإذا كان القرآن الكريم على قداسته لم يُجمَع في مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول ، وبعد مشاورة بين أبي بكر رضوان الله عليه والصحابة ، فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عندهم في الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه في كتاب ، إنما نشأ ذلك في الإسلام وبمرور الزمن . أما في الجاهلية فكانوا يعتمدون فيه على الرواية وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته ، ويتلقاها عنه الناس ويروونها . ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذى فاض بالشعر الجاهلى إنما هو الرواية الشفوية ، وقد ظلت أزماناً متتالية في الإسلام ، ويدل على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوى ظل في أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة . وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعتمدوا إلى تدوينه تدويناً عاماً إلا بعد مرور

(١) انظر معجم الأدباء لياقوت في ترجمة

في القصر الأبيض .

حماد ٢٦٦/١٠ .

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبعة

دار المعارف) ص ٢٣ .

(٢) راجع الخصائص لابن جنى (طبعة دار

الكتب) ٣٩٢/١ ومعجم البلدان لياقوت

نحو قرن على الهجرة الشريفة فأولى أن يكونوا قد تبعوا ذلك في الشعر الجاهلي ، ولم يكن ركناً في الشريعة الإسلامية ولا كانت تقوم عليه حاجاتهم الدينية الملحة . ومن يرجع إلى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائماً الرواية وأنها وسيلة انتشاره في القبائل ، فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها وقد نفذ شعرهم من خلالها إلى آفاق الجزيرة ، يقول المسيّب بن عكس^(١) :

فلاَهْدِينْ مع الرياح قصيدةً منى مُغْلَغَلَةً إلى القَعْقَاعِ^(٢)
تَرْدُ المياه فما تزال غريبةً في القوم بين تمثّل وسماعٍ

فقصيدته تنتشر في القبائل ، ويردها الناس مستمعين إليها ومتمثلين بأبياتها ، ويقول عميرة بن جُعل نادمًا على هجائه لقومه وشيوعه في العرب وأنه لم تعد له حيلة في رده^(٣) :

نَدِمْتُ على شَتَم العشيرة بعدما مضت واستتبَّت للرواة مذهبُها
فأصبحتُ لا أستطيع دَفْعًا لما مضى كما لا يردُّ الدُّرُّ في الضَّرْعِ حالبُها

، فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيبة لنشره وذيوعه ، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافاً هي طبقة الشعراء أنفسهم ، فقد كان مَنْ يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعراً يروى عنه شعره ، وما يزال يروى له ولغيره حتى ينفق لسانه ، ويسيل عليه ينبوع الشعر والفن . ونص "صاحب الأغاني على سلسلة من هؤلاء الشعراء الرواة الذين يأخذ بعضهم عن بعض ، وقد بدأها بأوس بن حجر التميمي ، فعنه أخذ الشعر ورواه حتى أجاد نظمه زهير بن أبي سلمى المزني ، وكان له راويتان كعب ابنه والحطيئة ، وعن الحطيئة تلقن الشعر ورواه هُدْبة بن خَشْرَم العُدْري ، وعن هُدْبة أخذ جميل صاحب بشينة ، وعن جميل أخذ كثير صاحب عزّة^(٤) .

(٣) الشعر والشعراء ٦٣٢/٢ وقارن مع

المفضليات ص ١٠٠ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ٩١/٨ .

(١) المفضليات ص ٦٢ .

(٢) مع الرياح : يريد أنها تذهب كل

مذهب ، مغْلَغَلَة : نافذة تنفذ في الناس

ونسلك إليهم السبل البعيدة .

نحن إذن بإزاء مدرسة تامة من الشعراء الرواة تتسلسل في طبقات أو حلقات ، وكل حلقة تأخذ عن سابقتها وتسلم إلى لاحقتها ، ومن أهم ما يلاحظ في هذه المدرسة أن شعراءها أو رواةها كانوا من قبائل مختلفة في شرق الجزيرة وغربها . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن شعراء القبيلة الواحدة كان يروى خلفهم شعر سلفهم ، ونص "القدماء على ذلك في غير شاعر ، فقالوا إن الأعشى كان راوية لحاله المسيب بن علس وكان يأخذ منه^(١) وقالوا إن أبا ذؤيب الهذلي كان راوية لساعدة ابن جؤية الهذلي^(٢) ، ومن يقرأ ديوان الهذليين يجد أواصر فنية قوية تجمعهم وتربط بينهم . وعلى هذا القياس توجد وشائج واضحة بين شعراء قيس بن ثعلبة ، فطرفة يروى للمرقش الأصغر عمه ويأخذ عنه ، ويروى هذا عن عمه المرقش الأكبر ويحتذى على شعره ، وأيضاً فإن فطرفة كان يروى عن خاله المتلمس الذي رُبِّي في أخواله من بني يشكر . وقد لا تكون القبيلة الجامعة الواصلة ، فقد يجمع بين الشعراء سلوك في الحياة كالصعاليك أو الفرسان فيروى بعضهم لبعض ، ويأخذ بعضهم عن بعض ، على نحو ما نلاحظ عند تأبط شرّاً والشنفري أو عند أبي دؤاد الإيادي وزيد الخيل .

ولو أن الرواة لم يرووا لنا هذه الصلات الجامعة أو الرابطة بين الشعراء الجاهليين لحدسناها حدساً من اتفاقهم على تقاليد فنية واحدة مهما شرقنا وغربنا في الجزيرة ، وهي تقاليد جاءت من تمسكهم بنماذج أسلافهم لا يحيدون عنها ولا ينحرفون ، فهي دائماً الإمام المتبع ، وهم كل شاعر أن يتقن معرفتها عن طريق ما يحفظ من شعر أستاذه وشعراء قبيلته ، بل أيضاً شعراء القبائل الأخرى . ولم يكن الشعراء وحدهم الذين يهتمون برواية هذا الشعر ، فقد كان يشركهم في ذلك الاهتمام أفراد القبيلة جميعهم ، لأنه يسجل مناقب قومهم وانتصاراتهم في حروبهم كما يسجل مثالب أعدائهم ، وإلى ذلك أشار بعض بني بكر معييراً تغلب لكثرة ترددها لقصيدة واحدة هي معلقة عمرو بن كلثوم ، وكأن ليس لها شعر سواها ، يقول^(٣) :

أَلْهَى بَنِي تَغْلِبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ قَصِيدَةُ قَالِهَا عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ

(٢) الشعر والشعراء ٢/٦٣٥

(٣) أغاني ١١/٥٤ .

(١) الشعر والشعراء ١/١٢٧ والموشح

للمرزياتي ص ٥١ .

يروونها أبداً منذ كان أولهم يا للرجال لشعرٍ غير مشثوم.

ولم يكن أبناء القبيلة وحدهم الذين يُشيعون شعر شعرائها ، فقد كان كثير من أفراد القبائل الأخرى يشتركون معهم في إشاعته ، إذ كان بينهم جم غفير من الحفظة ، كانوا يتناقلون الشعر وينشدونه في محافلهم ومجالسهم وأسواقهم ، إذ لم يكن لهم شاغل سواه ، وكان يسجل مآثرهم ومثالبهم وأنسابهم وأيامهم وأخبارهم ، ومن ثمَّ قال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه »^(١) فهو كل علمهم وكل حياتهم .

وجاء الإسلام فانكبوا على تلاوة القرآن الكريم ، ولكن لم ينسوا شعرهم أبداً ، حتى منذ بدء الدعوة الإسلامية ، فقد كان الرسول عليه السلام يستحث حسان ابن ثابت وغيره من شعراء الأنصار على هجاء قريش والرد على شعرائها ، وكان كثيراً ما يستنشد الصحابة الشعر ، حتى شعر أعدائه من مثل أمية بن أبي الصلت ، قال الشريد بن سُوَيْد الثقفي : « استنشدني النبي صلى الله عليه وسلم شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : هيه ، هيه ، حتى أنشدته مائة قافية »^(٢) . وكان أبو بكر نسابة راوية للشعر الجاهلي ، وكان يتمثل به أحياناً في خطابه كخطبته المشهورة في يوم السقيفة ، وكذلك كان عمر ، وقلما كان يترك وافداً عليه من قبيلة دون أن يسأله عن بعض شعرائها ، وفيه يقول ابن سلام : « كان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر »^(٣) .

وهذا نفسه شأن الصحابة جميعاً ، فقد كانوا كثيراً ما يتناشدون الأشعار ويقصون بعض الأخبار عن جاهليتهم ، قال جابر بن سمرة : « جالست رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد وأشياء من أمر الجاهلية ، فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(٤) . ومعنى ذلك أن رواية الشعر الجاهلي كانت مستمرة في صدر الإسلام ، وقد أخذت تظهر عوامل تشد من أزرها وتقوى من شأنها ، فقد أخذت تنشأ منذ

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٢ .

(٣) البيان والتبيين ١/٢٤١ .

(٢) ابن سعد ٣٧٦/٥ وخزانة الأدب

(٤) طبقات ابن سعد ٢/١ : ٩٥

وما بعدها .

٢٢٧/١ والمزهر ٢/٣٠٩ .

تدوين عمر للدواوين حاجة شديدة لمعرفة الأنساب ، إذ كانت تلعب دوراً مهماً في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خططوها مثل البصرة والكوفة . وكان بين العرب قديماً من يشتهرون بمعرفة الأنساب ، ولكن في هذا العصر الإسلامي إلى تمامه يصبح هؤلاء النسابين شأن خطير ، إذ كان العرب يرجعون إليهم في معرفة أصولهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقون لهم قطعاً من الشعر تحدد نسبهم ، ومن أشهرهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل ودغفل والنَّخار بن أوس العذري^(١) .

ونحن لا نصل إلى الحرب التي نشبت بين علي ومعاوية حتى تشتعل العصبية القبلية اشتعالاً لم تَخْبُ نيرانه حتى نهاية العصر الأموي ، وكان الشعر الوقود الجزل لهذه العصبية ، فأخذت كل قبيلة تُعنى برواية شعرها الجاهلي الذي يصور مناقبها ومثالب خصومها ، ويتناقله أبناؤها ، فهو جعبة سهامهم التي يوجهونها إلى خصومهم . ومن غير شك كان ذلك أكبر عون على حفظ الشعر الجاهلي ، فقد حملته القبائل طوال القرنين الأول والثاني حتى أدوه إلى العلماء الذين عنوا بتدوينه^(٢) .

وكانت الدولة الأموية عربية النزعة ، فعملت على حفظ هذا التراث ، بما كانت تروى منه ، نجد ذلك عند معاوية وعبد الملك بن مروان وغيرهما من الخلفاء ، وكانوا كثيراً ما يسألون وفود القبائل التي تفقد عليهم عن بعض شعرائها ، وقد ينشدون بيتاً ويسألون عن صاحبه وقصيدته ، ومن تحسن إجابته تحسن له جائزتهم^(٣) ، وكان أبناؤهم على غرارهم « وكانوا ربما اختلفوا في بيت من الشعر أو خبر أو يوم من أيام العرب فيبدون فيه بريداً إلى العراق »^(٤) يسألون علماءها عن صحة الأمر فيه وصوابه . وأقام لهم آباؤهم غير مؤدب يروّيهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها ، ويلقانا هؤلاء المؤدبون في كل مكان يؤدبون الناشئة ، وفي البيان والتبيين فصل طويل يحصى فيه أسماءهم .

ومما يدخل في عناية الأمويين بالشعر الجاهلي ما يُروى عن معاوية من شغفه بالمسامرة ومعرفة أخبار الماضين ، مما جعله يستدعي عبيد بن شريق الجهمي من

(٢) راجع مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣١ وما بعدها .

(٣) انظر الأغاني ٩١/٣ .

(٤) التصحيف والتعريف للمسكوكي ص ٤

(١) انظر في هؤلاء النسابين وفيما نسوقه هنا من اتصال رواية الشعر الجاهلي حتى القرن الثاني الباب الثالث من كتاب مصادر الشعر الجاهلي .

صنعاء اليمن ، ويتخذ سميّاً له يسأله عن الأخبار المتقدمة والملوك السالفة ، وهاله ما عنده من العلم بذلك ، فاتخذ غلماناً يقيّدون في دفاتر ما يذكره من سير الملوك وأخبارها ووقائع العرب وأيامها في الجاهلية وأشعارها^(١) .

ومنذ وقت مبكر في صدر الإسلام نرى القصاص يجلسون للعة في المسجد الجامع ، وكانوا كثيراً ما ينثرون الأشعار الجاهلية التي تتصل بوعظهم في تضاعيف قصصهم ، وقد أخذت تنشأ جماعة مثل أبان بن عثمان بن عفان وعروة بن الزبير تُعنى بغزوات الرسول وما قيل فيها من الشعر ، وأخذ يظهر بجانبهم جماعة تعنى بأخبار العرب الماضين وما كان يجري على ألسنة شعرائهم . وفي أثناء ذلك كان الشعراء الإسلاميون أنفسهم يعنون عناية شديدة برواية الشعر القديم ، وبلغ من اهتمام بعضهم بذلك أن أصبح مؤدبا للناشئة يروونها الشعر القديم على نحو ما نعرف عن الكميت والطرماح^(٢) . ولم يكن هناك شاعر مبرز إلا وهو يروي للجاهليين وينشد من شعرهم ، وفي كتب الأدب إشارات مختلفة إلى ما أخذ العلماء عن أمثال ذي الرمة والفرزدق وجريز ورؤبة من هذا الشعر^(٣) ، وصور الفرزدق مدى روايته ومعرفته للشعر الجاهلي ، فقال في بعض قصيده^(٤) :

وهب القصائد لي النوابيع إذ مضوا
والفحل علقمة الذي كانت له
وأخو بني قيس وهن قتلنه
والأعشيان كلاهما ومرقش
وأخو بني أسد عبيد إذ مضى
وأبويزید وذو القروح وجروّل^(٥)
حلّل الملوك كلامه لا ينحل
ومهلّ الشعر ذاك الأول^(٦)
وأخو قضاة قوله يتمثل^(٧)
وأبو ذؤاد قوله يتنخل

(٥) النوابيع : النابغة الذبياني والجمدي
والشيباني . وأبو يزيد : المخبل ، وذو القروح :
امرؤ القيس ، وجروّل : الخطيئة .
(٦) أخو بني قيس : طرفة ، وهن قتلنه :
يريد القوافي ، لأنه قتل بسبب بعض أهاجيه .
(٧) الأعشيان : أعشى بني قيس وأعشى باهلة .
وأخو قضاة : أبو الطمحان القيني .

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص ١٥٩
والفهرست ص ١٣٢ .

(٢) البيان والنبين ١/٢٥١ ، ٢/٣٢٣ .

(٣) مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٢٥
وما بعدها .

(٤) نقائض جرير والفرزدق ص ٢٠٠
والديوان (طبع القاهرة) ص ٧٢٠ .

وابننا أبي سُلمى زهيرٌ وابنه وابن الفريضة حين جدّ المِقُولُ^(١)
والجعفرى وكان بشرٌ قبله لى من قصائده الكتابُ المُجْمَلُ^(٢)
ولقد ورثتُ لآل أوسٍ منطقاً كالسَّمُ خالط جانبيه الحَنَظَلُ^(٣)
والحارثى أخو الحماس ورثته صَدْعاً كما صَدَعَ الصَّفَاة المِعْوَلُ^(٤)

وينحى إلى الإنسان أنه لم يبق عربى فى العصر الإسلامى وما ولىه من أوائل العصر العباسى إلا وهو يروى الشعر الجاهلى ، إن هو تحدث أو وقف خطيباً ، وتمثل الحجاج بالشعر فى خطابه ذائع مشهور . وإذا كنا لاحظنا فى الجاهلية أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء ، فإننا نلاحظ فى العصر الإسلامى نشوء طائفة من الرواة ، لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لغرض تعلمه ، وإنما يروونه لغرض نشره فى الناس وإذاعته ، وإليهم يشير جرير بقوله فى وصف بعض قصائده^(٥) :

خروجٍ بأفواه الرواة كأنها قرأ هُندوانى إذا هزَّ صمماً^(٦)

وفى أخباره أنه كان له رواية يلزمونه ويأخذون عنه شعره ، وكذلك كان الفرزدق . ولم يكونوا يروون شعرهما فحسب بل كانوا ينقحونه ويهذبونه ، فعن شيخ من هذيل قال : « جئت الفرزدق . . ودخلت على رواته فوجدتهم يعدلون ما انحرف من شعره . . ثم أتيت جريراً . . وجئت رواته وهم يقومون ما انحرف من شعره وما فيه من السناد »^(٧) . وفى رأينا أن ظهور هذه الطبقة من الرواة إنما نشأ من العناية الشديدة برواية الشعر القديم والحديث ، وكأنما لم يعد للناس من شغل وراء هذه العناية ، فمنهم من يتخصص برواية شعر المعاصرين ومنهم من يتخصص برواية الشعر الجاهلى كيونس بن متى راوية الأعشى^(٨) .

(٦) قرأ : متن ، والهندوانى : السيف .

(٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٥٦/٤ وما بعدها .

(٨) راجع فى تحقيق اسم هذا الراوى مصادر الشعر الجاهلى ص ٢٣٨ وما بعدها .

(١) ابن الفريضة : حسان بن ثابت .

(٢) الجعفرى : لبید ، وبشر هو بشر بن أبى حازم .

(٣) أوس : أوس بن حجر .

(٤) الحارثى : النجاشى .

(٥) النقاىض ص ٤٣٠ .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل أوضح الدلالة على أن رواية لا يحصيهم العدد حملوا الشعر الجاهلي إلى عصور التدوين ، فقد حافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد وخاصة الشعراء والرواة ، وبذلك أسلموه للأجيال التالية ، وإن كان قد شابه شيء من الانتحال والوضع على نحو ما سنعرض لذلك في غير هذا الموضع ، ومن غير شك سقط منه كثير في أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمني الطويل ، يقول ابن سلام : « لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير » (١) .

٢

رواة محترفون

ونحن لا نصل إلى نهاية العصر الإسلامي ومطلع العصر العباسي حتى تنشأ طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلي عملاً أساسياً لهم ، وتختلط في هذه الطبقة أسماء عرب وموال ، وأسماء قرآء للقرآن الكريم وغير قرآء ، وهم جميعاً حضريون ، عاشوا غالباً في البصرة والكوفة : ولم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجردة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها ، وكانوا يتخذون لأنفسهم حلقات في المسجد الجامع يحاضرون فيها الطلاب وفي أثناء ذلك يشرحون لهم بعض الألفاظ الغريبة ، أو يفسرون لهم ظروف النص التاريخية .

وأهم هؤلاء الرواة أبو عمرو بن العلاء وحمام الراوية وخلف الأحمر ومحمد ابن السائب الكلبي والمفضل الضبي ، وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو ، وكان بعضهم يرحل إلى نجد أحياناً ليستقى الأشعار والأخبار الجاهلية من ينابيعها الصحيحة ، وكان بين البدو أنفسهم من هاجر إلى الكوفة والبصرة حيث هؤلاء الرواة العلماء ليمدهم بما يريدون . وقد أظهروا في عملهم مهارة منقطعة النظير ، إذ تحولوا يجمعون المادة الجاهلية جميعها ، وكان من أهم الأسباب في ذلك تفسير

ألفاظ القرآن الكريم ، فقد جرت عادة المفسرين منذ ابن عباس على الاستشهاد بالشعر الجاهلي في شرح ألفاظ الذكر الحكيم ، وأيضاً فقد انبرت جماعات تحاول وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها ، واعتمدت في ذلك اعتماداً شديداً على الشعر الجاهلي فهو مادة اللغة ومادة قواعدها وقوانينها التي ينبغي أن تتبع . على أن هاتين الغايتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة ، وأصبحوا يقصدون بجمع هذا الشعر في ذاته ومن أجل نفسه ، وقد حملته إليهم الموجة الحادة من روايته في أثناء العصر الإسلامي ، ومن المهم أن نعرف أنهم قلما يذكرون من حملوا عنهم هذا الشعر ، فهم يغفلون أسانيدهم إلا قليلاً^(١) .

ولا نكاد نمضي في العصر العباسي حتى يكون هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين : مدرسة في الكوفة ومدرسة في البصرة ، وعرف الأولون بأنهم لا يتشددون في روايتهم تشدد الآخرين ، ومن ثم تضخمت رواياتهم ودخلها موضوع ومنتحل كثير . ولعل من الطريف أن نعرف أن الكوفة عرفت في الحديث النبوي بالوضع والانتحال أيضاً حتى كان مالك بن أنس يسميها دار الضرب يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تضرب الدراهم والدنانير وتصنع . يقول أبو الطيب اللغوي : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله وذلك بين في دواوينهم »^(٢) . وندد بهم البصريون كثيراً ، وبادلهم الكوفيون نفس التنديد ، فكان كل منهما يشكك في الآخر^(٣) ، ولكن إذا صفينا هذه التشكيكات والتنديدات اتضح لنا أن رواية البصرة في جملتها أوثق من رواية الكوفة . وليس معنى ذلك أن رواية الكوفة في الحملة كانوا متهمين بخلاف رواية البصرة ، فبين الطرفين جميعاً متهمون ، وموثقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحري .

وربما كان السبب الحقيقي في تقدم البصرة على الكوفة في الرواية أن رأس روايتها وهو أبو عمرو بن العلاء كان أميناً ، بينما كان رأس رواية الكوفة حماداً ، وكان متهماً كثير الوضع ، لا يوثق بما يرويه . وكان أبو عمرو من مؤسسي المدرسة النحوية في البصرة ، وأحد القراء السبعة الذين أخذت عنهم تلاوة الذكر الحكيم ، ولد سنة ٧٠ للهجرة ، وتوفي سنة ١٥٤ و قيل سنة ١٥٩ : « وكان أعلم الناس بالغريب

(١) انظر مصادر الشعر الجاهلي ص ٢٥٥ (٢) مراتب النحويين ص ٧٤ .

وما بعدها . (٣) مصادر الشعر الجاهلي ٤٣٤ وما بعدها .

والعربية وبالقرآن والشعر وبأيام العرب وأيام الناس وكانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف . . ثم إنه تقرأ أي تنسك فأحرقها»^(١) وهو إحراق لا يغير من الأمر شيئاً فإن ما رواه حملة عنه تلاميذه البصريون، وكان إمامهم وقديوتهم . ويحكى عنه أنه قال : « ما زدت في شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، يعني ما يُروى للأعشى من قوله :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا »^(٢)

وحاول بعض الباحثين التشكيك في روايته لهذا الاعتراف^(٣) ، وهو اعتراف يوثق روايته ويزيدها قوة، وفي سيرته ما يدل دلالة قاطعة بأنه كان ثقة ؛ فقد كان تقياً صالحاً ، وكان أحد الأعلام الذين أخذت عنهم تلاوة القرآن الكريم . أما حماد رأس رواة الكوفة فكان من الموالى ، وُلد سنة ٩٥ للهجرة ، وتوفي سنة ١٥٦ وقيل بل سنة ١٦٤ ويقال إنه : « كان في أول أمره يتشطر ويصحب الصعاليك واللصوص ، فنقب ليلة على رجل ، فأخذ ماله ، وكان فيه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد ، فاستحلاه وتحفظه ، ثم طلب الأدب والشعر وأيام الناس ولغات العرب بعد ذلك وترك ما كان عليه ، فبلغ في العلم ما بلغ »^(٤) وربما كان مما يصور هذا العلم ومداه ما يُروى عن مروان بن أبي حفصة من قوله : « دخلت أنا وطُريّش ابن إسماعيل الثقفي والحسين بن مطير الأسدي في جماعة من الشعراء على الوليد ابن يزيد (١٢٥ - ١٢٦) هـ وهو في فُرش قد غاب فيها ، وإذا رجل عنده كلما أنشد شاعر شعراً وقف الوليد بن يزيد على بيت بيت من شعره وقال : هذا أخذه من موضع كذا وكذا ، وهذا المعنى نقله من موضع كذا وكذا من شعر فلان ، حتى أتى على أكثر الشعراء ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا حماد الراوية^(٥) » ويُروى عن الهيثم بن عدي أنه كان يقول : « ما رأيت رجلاً أعلم بكلام العرب من حماد »^(٦) . وهذه المعرفة الواسعة بكلام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها وأيامها جعلتهم يطلقون

(١) انظر البيان والتبيين ٣٢١/١ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤٣/٣ .

(٣) انظر مقالة مرجليوث The Origins

of Arabic Poetry في صحيفة الجمعية

الآسيوية الملكية عدد يولية سنة ١٩٢٥ ص

٤٢٩ وتاريخ الأدب العربي لبلاشير ١١١/١ .

(٤) الأغاني ٨٧/٦ .

(٥) الأغاني ٧١/٦ .

(٦) انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت

٢٦٥/١٠ .

اسم الراوية علماً عليه ، ويروى أن الوليد بن يزيد سأله بم استحقت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : « بأنى أروى لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال الوليد : إن هذا العلم وأبيك كثير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال كثيراً ، ولكنى أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام ، قال : سأمتحنك في هذا ، وأمره بالإشاد ، فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكل به من استخلفه أن يصدقه عنه ، ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين ، وأخبر الوليد بذلك ، فأمر له بمئة ألف درهم ^(١) . وقد يكون في هذا الخبر ضرب من المبالغة ، غير أنه يصور مدى ما استقر في أذهان معاصريه عن معرفته وروايته للشعر الجاهلي .

ومن سوء حظ الكوفة أن كان هذا الراوية البارع فاسد المروعة فاسقاً ماجناً زنديقاً ^(٢) ، وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر وحوكه ^(٣) فكان ينظم على لسان الجاهليين ما لم ينطقوا به ، وكثر منه ذلك حتى عُرف به واشتهر ، يقول الأصمعي : جالسته فلم أجد عنده ثلاثمائة حرف ولم أرض روايته ، ويقال إنه مدح بلال بن أبي بردة المتوفى بعد سنة ١٢٦ بقصيدة ، وكان ذو الرمة حاضراً ، فقال له : إنها ليست لك ، وسرعان ما اعترف بأنها جاهلية ^(٤) ويقال إنه قدم عليه مرة ، فقال له : ما أطرفتني شيئاً ؟ فعاد إليه فأنشده القصيدة التي في شعر الحطيئة بمديح أبي موسى الأشعري (جد بلال) فقال بلال : ويحك يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به وأنا أروى شعر الحطيئة ! ولكن دعها تذهب في الناس ^(٥) وقصته في مجلس أمير المؤمنين المهدي مع المفضل الضبي مشهورة ، فقد زاد ثلاثة أبيات في مطلع قصيدة زهير : (دع

٢٠٩/٥ حيث يروى له أبياتاً محكمة الصنعة.

(٤) الأغاني ٨٨/٦ .

(٥) طبقات فحول الشعراء ص ٤٠ - ٤١

وحاول ناصر الدين الأسد أن يصحح نسبة القصيدة للحطيئة لرواية المدائني ورواية ديوان الحطيئة لها ، ولكن ذلك لا يكتفى لصحة نسبها .

(١) الأغاني ٧١/٦ ومعجم الأدباء ٢٥٩/١٠ .

(٢) الحيوان ٤٤٧/٤ والأغاني ٧٤/٦

وأما المرتضى ١٣١/١ ولسان الميزان ٣٥٣/٢ ،

١٧٣/٣ .

(٣) الزهر ٤٠٦/٢ حيث يذكر أن

الأصمعي روى شيئاً من شعره ، وانظر الأغاني

ذا وعد القول في هرم) فأنكرها المفضل ولما سأله عنها المهدي بكل يمين محرجة اعترف بأنه أضافها من عنده ، فأمر المهدي أن ينادى في الناس بإبطال روايته لكذبه وبصحة رواية المفضل موطنه^(١). وحاول بعض الباحثين التشكيك في القصة^(٢) ، لأن المهدي ولى سنة ١٥٨ بعد وفاة حماد ، ولكن هناك من تأخروا بوفاته إلى سنة ١٦٤ كما قدمنا ، وربما أخطأ الرواة في تعيين الزمان والمكان ، إذ ذكروا أن القصة حدثت في قصر عيساباذ الذي بناه المهدي في سنة ١٦٤ بينما أرخوا لها بسنة ١٥٨ . وحتى على فرض بطلان هذه القصة فإن هذا البطلان لا يدفع التهمة عن حماد ، كما لا يدفعها ما يذكره بعض هؤلاء الباحثين من أن اتهامه الواسع قد يرجع إلى المنافسة بين البصرة والكوفة ، فسيرته كانت سيرة شخص سيئ السيرة خلقياً ودينياً ، وما كان ابن سلام البصري ليقول فيه : « كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية ، وكان غير موثق به : كان ينحل شعر الرجل غيره ، وينحله غير شعره ويزيد في الأشعار »^(٣) . بعامل المنافسة والعصبية ، ونفس البصريين الذين اتهموه وثقوا رواية موطنه ومعاصره المفضل الضبي . فليست المسألة مسألة منافسة بين بلدين ، وإنما هي حقيقة واقعة ، ونفس الرواة الأثبات من بلدته كانوا يشتركون البصريين في نفس التهمة ، فابن الأعرابي الكوفي يروي عن المفضل أنه قال : « قد سُلِّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً ، فقليل له وكيف ذلك ؟ أخطئ في روايته أم يلحن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ »^(٤) .

فالتهمة لم تكن بصرية خالصة ، بل كانت بصرية كوفية ، وربما بالغ بعض البصريين فقال عنه إنه كان يلحن ويكسر الشعر ويصحف ويكذب^(٥) ، ولكن

(١) الأغاني ٨٩/٦ وما بعدها .

(٢) انظر مقدمة لآيل للمفضليات ص ١٨

وما بعدها ومقالة برينلش في مجلة O.L.Z.

عدد ١٩٢٦ ص ٨٢٩ وما بعدها ومصادر

الشعر الجاهل ص ٤٤٢ .

(٣) ابن سلام ص ٤٠ .

(٤) الأغاني ٨٩/٦ ومعجم الأدباء ١٠/٢٦٥ .

(٥) الأغاني ٨٩/٦ وانظر ٢٨٣/٨ .

بعد تجريد التهمة من مبالغاتها تظل عالقة به . ولذلك ينبغي أن لا نقبل شيئاً مما يروى دون أن يأتينا عن الرواة الثقات ، وكذلك ينبغي أن نتشكك فيما يرويه تلاميذه مثل ابن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧ وخلف الأحمر راوية البصرة المشهور إذ كان قد أكثر الأخذ عنه^(١)، ويروى أنه كان يعطى حماداً المنحول فيقبله منه ويرويه^(٢) . ومن رواة الكوفة الذين عاصروا حماداً واشتهروا بالوضع برزخ العروضي وكان من أكذب الناس في الرواية^(٣) ومثله جناد وكان يخلط في الأشعار ويصحف ويلحن^(٤) . وإذا كانت الكوفة أصيبت بمثل هؤلاء الرواة الوضاعين الذين ينحدرون من أصول غير عربية فقد كان من ورأهم رواة ثقات على رأسهم المفضل بن محمد ابن يعلى الضبي المتوفى حوالى سنة ١٧٠ للهجرة وكان عالماً علماً دقيقاً بأشعار الجاهلية وأخبارها وأيامها وأنساب العرب وأصولها ، ويجمع الرواة كوفيين وبصريين على توثيقه ، وقد خلف مجموعة كبيرة من أشعار الجاهليين هي الملقبة بلقب المفضليات ، وهي أروع ما بأيدينا من نصوص الشعر الجاهلي ووثائقه التي لا يترقى إليها الشك .

وإذا ولينا وجوهنا نحو البصرة في الحقبة التي تلت أبا عمرو بن العلاء وجدنا بها خلفاً الأحمر الذى تُسَدَّدُ إليه سهام الاتهام ، ولم يكن يقل عن حماد في معرفته بأشعار العرب وأخبارها ، بل لعله يتقدمه ، إذ كان شاعراً مبرزاً ، وكان بصيراً بالشعر ، وأصل أبويه من فرغانة فهو من الموالي ، وُلد سنة ١١٥ للهجرة وتوفى حوالى سنة ١٨٠ وفيه يقول ابن سلام : « اجتمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببیت شعروأصدقهم لساناً ، وكنا لابنالى إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه »^(٥) غير أن شهادة ابن سلام له لا تعفيه من التهمة الشديدة التي سُلِّطت على روايته ، وقد شهد هو نفسه بها إذ زعم كما قدمنا أنه كان يعطى حماداً المنحول من الشعر ويزيفه عليه فيرويه ، ويقال إنه هو الذى وضع اللامية المنسوبة إلى الشَّنْفَرى^(٦) :

(٤) انظر ترجمته في معجم الأدباء لياقوت

وراجع الفهرست ص ١٣٥ .

(٥) ابن سلام ص ٢١ .

(٦) الأمل ١/١٥٦ .

(١) مراتب النحويين ٤٧ ، ٧٢ .

(٢) الأغاني ٩٢/٦ .

(٣) إنباء الرواة ٢٤٢/١ والفهرست

(طبعة مصر) ص ١٠٧ .

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيئِكُمْ فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأُمِيلُ
 كما وضع اللامية الأخرى المنسوبة إلى تأبط شرًّا أو إلى ابن أخته (١) :
 إِنَّ بِالشَّعْبِ الَّذِي دُونَ سَلْعٍ لَقَتِيلًا دَمُهُ مَا يُطَلُّ

وتصدّى له الأصمعي مرارًا يتهمة بالوضع والنحل ، فقال إنه « وضع على شعراء
 عبد القيس شعراً موضوعاً كثيراً ، وعلى غيرهم ، عبثاً بهم ، فأخذ ذلك عنه أهل
 البصرة وأهل الكوفة » (٢) وعرض مرة لرواة الكوفة يصفهم بأنهم يتقبلون كل ما يرد
 عليهم ، فقال : « رواة غير منقّحين ، أنشدوني أربعين قصيدة لأبي دُوَادٍ الإيادي
 قالها خلف الأحمر ، وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية ، إليها يرجعون وبها يفتخرون » (٣) .
 ويظهر أن البصريين كانوا يتحامون روايته ، بينما كان يحملها الكوفيون رواة حماد
 وأضرابه ، ويقول المبرد فيه موضعاً ذلك : « لم يُرَ أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه ،
 وكان به يُضْرَبُ المثل في عمل الشعر ، وكان يعمل على ألسنة الناس ، فيشبهه كل
 شعر يقوله بشعر الذي يضعه عليه ، ثم نسك فكان يحتم القرآن في كل يوم وليلة ،
 وبذل له بعض الملوك ما لا عظمياً خطيراً على أن يتكلم في بيت شعر شكوا فيه ،
 فأبى ذلك وقال : قد مضى لي في هذا ما لا أحتاج إلى أن أزيد فيه . وعليه قرأ أهل
 الكوفة أشعارهم ، وكانوا يقصدونه لما مات حماد الراوية لأنه كان قد أكثر الأخذ
 عنه ، وبلغ مبلغاً لم يقاربه حماد . فلما تقرأ ونسك خرج إلى أهل الكوفة فعرفهم
 الأشعار التي قد أدخلها في أشعار الناس ، فقالوا له : أنت كنت عندنا في ذلك
 الوقت أوثق منك الساعة ، فبقي ذلك في دواوينهم إلى اليوم » (٤) .

وواضح من ذلك أن الكوفة هي التي حملت رواية خلف بالإضافة إلى
 رواية حماد ، أما البصرة فقد حمل فيها بعض الرواة روايته ، ولكن الكثرة
 وعلى رأسها الأصمعي رفضتها . والأصمعي يقوم في البصرة مقام المفضل
 الضبي في الكوفة ، وقد أشاد معاصروه ومن تلاهم بسعة علمه بالجاهلية

(١) انظر العقد الفريد ١٥٧/٦ والحيوان

١٨٢/١ وانظر مصادر الشعر الجاهل ص

٤٥٨ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٤٧ .

(٣) الموشح للمرزباني ص ٢٥١ وما بعدها

(٤) مراتب النحويين ص ٤٧ .

وأشعارها وأخبارها ، ووثقوه وعدّوه ، وإن كان ذلك لم يمنع بعض منافسيه من النسيْل منه ، ولكنه نيل مردود ، فقد كان في الذروة من الثقة والأمانة ، وهو عربي صليبي ، ولد حوالى سنة ١٢٢ للهجرة وتوفى سنة ٢١٥ وقيل سنة ٢١٦ ، أو ٢١٧ ، وفيه يقول ابن جيتى : « وهذا الأصمعى هو صنّاجة الرواة والثقله ، وإليه عبط الأعباء والثقله . . . كانت مشيخة القراء وأماثلهم تحضره وهو يحدث لأخذ قراءة نافع عنه ، ومعلوم قدر ما حذف من اللغة فلم يشبهه ، لأنه لم يقو عنده إذ لم يسمعه ، وإما إسفافُ مَنْ لا علم له وقول من لا مُسَكَّة به إن الأصمعى كان يزيد فى كلام العرب ويفعل كذا ويقول كذا فكلام معفو عليه غير معبوء به »^(١) ويقول أبو الطيب اللغوى : « فأما ما يحكيه العوام وسقّاط الناس من نوادر الأعراب ويقولون : هذا مما افتعله الأصمعى . . . وأنى يكون الأصمعى كما زعموا وهو لا يفنى إلا فيما أجمع عليه العلماء ويقف عما ينفردون به عنه ، ولا يجوز إلا أفصح اللغات ويلج فى دفع ما سواه »^(٢) . وله مجموعة مشهورة من الشعر القديم هى الأصمعيّات وهى كالمفضليات ثقة ودقة ، ورُويت عنه دواوين كثيرة أشهرها الدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبّدة الفحل .

وكان يعاصره عالمان كبيران هما أبو زيد وأبو عبيدة ، وكان أبو زيد يُعنى بجمع اللهجات واللغات الشاذة وتوفى وقد قارب المائة ، سنة ٢١٤ أو ٢١٥ ، وهو عربي أنصارى خزرجى ، أما أبو عبيدة معمر بن المثنى فولد حوالى سنة ١١٠ وتوفى حوالى سنة ٢١١ وهو من الموالى وكانت فيه نزعة شعوبية صارخة ، ولكن الرواة وثقوه^(٣) وينبغى أن لا نتبعهم فى توثيقه وأن نقدم عليه الأصمعى وأبا زيد ، وكان يهتم بالأنساب والأيام ، وشرح نقائض جرير والفرزدق شرحه المشهور .

وكان بجانب هؤلاء الذين تحدثنا عنهم رواة يختلفون ثقة وتجريحا مثل الهيثم ابن عدى المتوفى سنة ٢٠٦ وكان يهتم بالأخبار التاريخية وتشوب التهمة روايته ، وأكثر منه تهمة فى هذا الباب محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٤٦ للهجرة وابنه هشام المتوفى سنة ٢٠٤ وهما من كبار الوضعيين ويروى عن هشام أنه كان يقول : « كنت

(١) الخصائص ٣/٣١١ .

(٢) إنباء الرواة ٣/٢٨٠ .

(٣) مراتب التصويين ص ٤٩ .

أستخرج أخبار العرب وأنسابهم وأنساب آل نصر بن ربيعة (المناذرة) ومبالغ أعمار منّ ولى منهم لآل كسرى وتاريخ نسبهم من كتبهم بالحيرة ^(١) . وينتظم في سلك هؤلاء المؤرخين الواقدي والمدائني .

وخلف بعد منّ قدّمنا تلاميذهم من رواة القرن الثالث ، وعلى رأسهم أبو عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢١٣ وابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ هـ الكوفيان وكان وراءهما كثير من الرواة في بلادهم مثل محمد بن حبيب وابن السكيت المتوفى حوالي سنة ٢٤٤ وتعلّب المتوفى سنة ٢٩١ . وانتهت الرواية في البصرة إلى أبي سعيد الحسن ابن الحسين السكري المتوفى سنة ٢٧٥ وإليه يرجع الفضل في جمع كثير من الدواوين الجاهلية ، وهو يجمع بين الروايتين البصرية والكوفية .

ويتضح من كل ما أسلفنا أن رواية الشعر الجاهلي أحيطت بكثير من التحقيق والتحريض ، وأنه إن كان هناك رواة متهمون ، فقد كان لهم العلماء الأثبات بالمرصاد أمثال المفضل الكوفي والأصمعي البصري ، وما مثّل الشعر الجاهلي في ذلك إلا مثل الحديث النبوي ، فقد دخله هو الآخر وضع كثير ، ولكن العلماء استطاعوا تمييز صحيحه من زائفه ، وقدّموا لنا كتب الصحيح الستة المشهورة ، وكذلك الشأن في الشعر فقد دخله فساد كثير ، ولكن أصحابه الأثبات استطاعوا — في مهارة بالغة — أن يميزوا صحيحه من زائفه ، غير تاركين منفذاً إلى ذلك سواء في سند الرواة أو في المتن نفسه ، بل إن ابن سلام ليقدمهم على علماء الحديث في هذا الباب ، يقول : « حدثني يحيى بن سعيد القطان قال : رواة الشعر أعقل من رواة الحديث ، لأن رواة الحديث يروون مصنوعاً كثيراً ، ورواة الشعر ساعة ينشدون المصنوع ينتقدونه ويقولون هذا مصنوع ^(٢) . »

فينبغي أن لا نتخذ من كثرة الاتهامات في بيئة الرواية اللغوية مزلقاً إلى الطعن في الشعر الجاهلي عامة ، إنما نطعن على ما طعن الرواة الثقات فيه حقاً ، ونضيف إليه ما يهدينا بحثنا الحديث إلى تزييفه . أما بعد ذلك فتبقى عامة ما رواه أثباتهم كالمفضل والأصمعي صحيحة . وكانا يتحريان تحريماً شديداً .

(١) تاريخ الطبري (طبعة ليدن) القسم (٢) ذيل الأمل ص ١٠٥ .
الأول ص ٧٧٠ .

فلنهمل إذن من الشعر الجاهلي ما جاءنا منه عن أمثال حماد وخلف الأحمر وكذلك ما جاءنا منه عن طريق أصحاب الأخبار المتزيدين أمثال عبيد بن شريّة ومحمد بن السائب الكلبي وابنه هشام وما وضعه القصاص عن العرب البائدة ، وأيضاً ينبغي أن نهمل ما اختلف فيه الرواة ، أما ما اتفقوا عليه أو جاءنا عن أثباتهم فينبغي أن نقبله . وكانوا يأخذون بهذا القياس ، يقول ابن سلام : « وليس لأحد — إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء منه (من الشعر) — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى »^(١) ويقول : « قد اختلفت العلماء في بعض الشعر كما اختلفت في بعض الأشياء ، أما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه »^(٢) . واحتفظ ابن سلام في طبقاته بمادة وفيرة من نقد البصرة للرواية والرواة ، فهو تارة يعدّ للشاعر القصائد الصحيحة النسبة إليه ، وتارة يقف عند بيت أو أبيات بعينها تنسب لشاعر من الشعراء الجاهليين وينص على أنها متحلة ، فن الضرب الأول قوله عن طرفة وعبيد بن الأبرص : « وما يدل على ذهاب الشعر وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة المصححين لطرفة وعبيد بن الأبرص اللذين صحّ لهما قصائد بقدر عشر . ونرى أن غيرهما قد سقط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر ، وكانا من أقدم الفحول فلعل ذلك لذلك ، فلما قلّ كلامهما حُمِلَ عليهما حَمْلٌ كثير »^(٣) ثم عاد فوسّع الشك في شعر عبيد فقال فيه : « قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب ، لا أعرف له إلا قوله :

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْقُطَيْبَاتُ فَالذَّنُوبُ

ولا أدري ما بعد ذلك »^(٤) . ومن الضرب الثاني إنكاره أن يكون النابغة هو الذي قال :

فَأَلْفَيْتُ الْأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كَذَلِكَ كَانَ نَوْحٌ لَا يَخُونُ

وقد عقب على إنكاره بأن أهل العلم أجمعوا على أن النابغة لم يقل هذا^(٥) ،

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن سلام ص ٢٣ .

(٤) ابن سلام ص ١١٦ .

(٥) ابن سلام ص ٤٩ وما بعدها .

وعلى هذا النحو صفتى علماء الرواية واللغة الشعر الجاهلى من شوائب كثيرة علفت به ، وإن كنا لا ننكر فى الوقت نفسه أنهم تناولوا أشياء منه بالتنقيح ، غير أن ذلك كان فى حدود ضيقة ، كأن يبدلوا كلمة مكان كلمة ، أو يقيموا بعض الألفاظ على سنن لهجة قريش ، فقد كانت تسقط على لسان الشعراء أحيانا أشياء من لهجاتهم القبلية ، فكانوا يصلحونها ، وقد يصلحون عروض بعض القصائد ، ولكنهم بصفة عامة حافظوا على جوهر هذا الشعر محافظة تشهد لهم بالدقة وأنهم استطاعوا أن ينقلوا غير قليل منه إلى أجيالهم والأجيال التالية فى صورة تكاد تكون مطابقة تمام المطابقة لأصوله .

٣

التدوين

مرّ بنا أن العرب لم يدوّنوا شعرهم فى الجاهلية ، وأن ما يذكر من أخبار عن كتابة بعض شعرائهم لمقطوعات لهم ، إن صحّ ، فإنه لا يدل على أنهم فكروا فعلا فى تدوين أشعارهم ، إنما هى قطع تكتب على رحل أو على حجر أو جلد لإنباء القبيلة أو بعض أفرادها بحادث . وقد نفينا أن يكونوا علقوا المعلقات فى الكعبة وكذلك رفضنا رواية حماد عن تدوين النعمان بن المنذر لأشعار العرب وما مدح به هو وأهل بيته . ومن الأدلة على ذلك أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أنه نقل عن قراطيس كانت مكتوبة فى الجاهلية ، كما أننا لا نجد راوياً ثقة يزعم أن شاعراً فى الجاهلية ألّق قصيدته من صحيفة مدونة ، إنما كانوا ينشدون شعرهم إنشاداً ، ومن كان منهم يُعيد قصيدته فى حوّل أو أقل من حول كان يعدها فى نفسه ، ويرددها فى ذاكرته ، ثم ينشدها ، ويحتملها الناس عنه ، ومن ثم قال الجاحظ : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام . . فما هو إلا أن يصرف (العربى) وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجا) وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، ثم لا يقيده على نفسه » (١) .

(١) البيان والتبيين ٢٨/٣ .

وظل هذا شأن العرب في صدر الإسلام ، فهم يتناشدون الشعر ولا يقيّدونه إلا قليلا وفي ظروف خاصة ، حتى مُصِّرت الأمصار ، وراجعت العرب الأشعار ، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها في تسجيل غزوات الرسول وأحاديثه وفي تقييد بعض الأخبار التاريخية ، فدوّن زياد بن أبيه كتاباً في المثالب ، ودوّن عروة ابن الزبير غزوات النبي عليه السلام وحروبه ، ودوّن معاوية أخبار عبيد بن شريّة أو بعبارة أدق أمر غلمان به بتدوينها ، وأخذ بعض الصحابة والتابعين يدوّن أحاديث الرسول عليه السلام . وقد يكون في تدوين الأحاديث ما ينير لنا الطريق في تدوين الشعر ، فإن كثيراً من الصحابة والتابعين كان ينكر تدوينها ، ولم تدوّن تدويناً عاماً إلا على رأس المائة ، وكذلك نستطيع أن نقول إنه على الرغم من اهتمام القبائل بشعرها الجاهلي وشعرائها الذين يعدّون مناط شرفها وفخارها لما يسجلون من مناقبها وأمجادها ومثالب خصومها فإنها لم تعتمد إلى تدوين هذا الشعر إلا في حقبة متأخرة من عصر بني أمية .

ويظهر أنهم لم يكونوا يدوّنون أشعار شعرائهم وحدها ، بل كانوا يدونون معها أخبارهم ، ولعل أقدم إشارة إلى هذه المدونات ما أسلفنا من رواية أصحاب الأخبار عن حماد في أول تعلقه بالشعر من أنه نقب ليلة على رجل ، فأخذ ما عنده وكان فيما أخذه جزء من شعر الأنصار ! ويزعم حماد أن الوليد بن يزيد أرسل في طلبه ، فقال في نفسه : « لا يسألني إلا عن طرفيه : قريش وثقيف ، فنظرت في كتابي قريش وثقيف »^(١) ويروى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها ، وأنه طلب لذلك من حماد وجند الكوفيين ما عندهما من هذا الديوان ، ثم رد إليهما ما أخذه منهما^(٢) .

وإن صحت هذه الأخبار كانت دليلاً على أنه أخذت تظهر مع أوائل القرن الثاني مدونات تاريخية للقبائل لعلها هي التي أعدت فيما بعد لتدوين الرواة أشعار كل منها على حدة بنفس الصورة التي نعرفها لديوان هذيل .

ونمضي بعد عصر الوليد بن يزيد فيلقانا أبو عمرو بن العلاء ، وكان يعتمد على الرواية ، ولكنه كان يقيّد إلى جانبها كثيراً من الأشعار والأخبار حتى قالوا إن

(١) الأغاني ٩٤/٦ .

(٢) الفهرست ص ١٣٤ .

كتبه .ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم تقرأ (تنسك) فأحرقها كلها ، يقول الجاحظ : « فلما رجع بعدُ إلى علمه الأول لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية^(١) . وكان حماد على ما يظهر يُعنى بالرواية أكثر من عنايته بالكتابة ، بل لعلمه لم يكن يعنى بالكتابة ، إنما كتب عنه تلاميذه ، يقول صاحب الفهرست : « لم يُرَ لحماد كتاب ، وإنما روى عنه الناس وصنفت الكتب بعده^(٢) . وتروى للمفضل الضبي كتب صنّفها ، فيها أشعار وأخبار^(٣) ومن المؤكد أنه لم يكتب مفضلياته ، وإنما أنشدتها تلاميذه فحملوها عنه .

ولعلنا لانخطئ إذا قلنا إن الرواة الأولين لم يدوّنوا ما روه لطلّابهم ، ولم يكن هذا شأن رواة الشعر وحدهم ، بل كان شأن رواة التاريخ الجاهلي جميعهم مثل محمد بن السائب الكلبي فإن ابنه هشاماً هو الذى حمل مادة أخباره ودوّنها في كتبه ، ونفس الخليل بن أحمد لم يخلف كتاباً في النحو ، بل أُملى إملاءات جمع منها سيبويه كتابه المشهور . وكانوا يتأثرون في ذلك برواة الحديث ، وربما كانت الحاجة عندهم أمسّ ، لأن الشعر يحتاج إلى تلقين حتى لا يلحن فيه من ينشده ، ولذلك كانوا ينبذون في أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث من يلحن فيه بأنه صحنى^٤ يأخذ عن الصحف ، ولا يأخذ شفاها عن مشيخة العلماء باللغة والشعر . ومن ثم ضعفوا من يروى عن المدونات ولم يقبلوا روايته إلا أن يكون قد أخذها عن شيخ ، ولذلك ضعف ابن سلام رواية من يتداولون الشعر القديم من كتاب إلى كتاب ، يقول : « ليس لأحد أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحنى » .

والرواة التالون هؤلاء الرواة المتقدمين هم الذين يرجع الفضل إليهم في تدوين الشعر الجاهلي تدويناً منهجياً قائماً على التوثيق والتجريح ، وعلى رأسهم الأصمعى ، وقد حصر اهتمامه في جمع الشعر الجاهلي في دواوين ومجموعات صحيحة . وكان هؤلاء الرواة المدوّنون لا يكتفون بالسماع من جيلّة الرواة السابقين ، فكانوا يرحلون إلى الصحراء العربية ليتوثقوا مما يروونه على نحو ما هو معروف عن الأصمعى

(٣) إنباء الرواة (طبعة دار الكتب المصرية)

٣٠٢/٣ .

(١) البيان والتبيين ١/٣٢١ .

(٢) الفهرست (طبعة المطبعة الرحمانية)

ص ١٣٥ .

نفسه وعن أبي عمرو والشيباني الذي يقال إنه دخل البادية ومعه دَسْتِجَتَانِ من حبر ،
فما خرج حتى أفناهما بكتّيب سماعه عن العرب (١) .

وكان بعض الأعراب يفقد على الحواضر وقد يقيم فيها ليسدّ هذه الحاجة عند الرواة .
والمهم أنهم لم يكتفوا بالاعتماد على ذاكرتهم صنيع الرواة من قبلهم ، بل كانوا
يدونون ما يسمعون ويحتفظون به ويقرءون منه في مجالسهم وينقله عنهم طلابهم .
وأخذت موجة هذا التدوين تتسع اتساعاً شديداً ، ويستطيع من يرجع إلى الفهرست
وكتب التراجم أن يطلع على هذا النشاط التأليفي الذي لا يكاد يبلغه الحصر والعد ،
فقد ترك هشام بن محمد الكلبي نحو مائة وأربعين كتاباً ، وكانت كتب المدائني لا تقل
عنها عدداً ، بينما خلف الهيثم بن عدي خمسين مصنفات ، وأكثر كتبهم يعد مفقوداً
ومن بينها ما يشير إلى عناية بالشعر ككتاب أخبار خزاعة للمدائني وأخبار طيء
للهميم ، وقد نُشر الأصنام لابن الكلبي وهو يمتليء بالشعر الجاهلي مما يدل على أنه
كان يملأ كتبه به .

على أنه يلاحظُ إزاء هؤلاء المؤرخين أن كثيراً منهم لم يكن دقيقاً فيما يجمع
من شعر ، ولعل ابن إسحق صاحب السيرة النبوية أشهرهم في هذا الباب ، وقد
تصدّى له ابن سلام في طبقاته ، فقال : « وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه وحمل
كل غُشاء منه محمد بن إسحق بن يسار ، مولى آل مخزومة بن المطلب بن عبد مناف ،
وكان من علماء الناس بالسَّيَر . . فقبل الناسُ عنه الأشعار ، وكان يعتذر منها
ويقول : لا علم لي بالشعر أوتي به فأحمله . ولم يكن ذلك له عذراً . فكتب في
السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط وأشعار النساء فضلاً عن الرجال ،
ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعاراً كثيرة ، وليس بشعر إنما هو كلام
مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع إلى نفسه ، فيقول : من حمل هذا الشعر ومن
أدّاه منذ آلاف السنين والله تبارك وتعالى يقول : (ففُطِحَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا)
أى لا بقية لهم ، وقال أيضاً : (وأنه أَهْلَكَ عَاداً الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبَقَ) وقال في عاد :
(فهل ترى لهم من باقية) وقال : (وقرونًا بين ذلك كثيراً) وقال : (ألم يأتكم
نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ) (٢) .

(١) نزهة الألباء للأنباري ص ٦٣ .

(٢) ابن سلام ص ٨ وما بعدها .

وقال ابن سلام أيضاً في ابن إسحق : « فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحق ومثل ما رواه الصحافيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل على علم »^(١) وتعقب ابن هشام في سيرته ابن إسحق ورداً كثيراً مما روى ، أو صحح نسبه .

وواضح أن هذه المنتحلات من الشعر المنسوب إلى عرب الجاهلية الأولى ليس لها أدنى قيمة ، فقد ردها الرواة المحققون ، ومع ذلك يتعلق بها بعض الباحثين المحدثين ليشككوا في الشعر الجاهلي عامة ، مع أن القدماء رفضوها وردوها ، كما رفضوا وردوا رواية المتهمين من الرواة أمثال حماد وخلف . وليس معنى ذلك أننا نريد أن نوسع الأبواب فنقبل كثرة ما يروى عن الجاهليين ، بل نحن نضيّقها تضيقاً شديداً ، فلا نقبل إلا ما أورده الثقة مثل أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي ، فجملة ما روه وثيق .

ولا نبالغ إذا قلنا إن ما رواه هؤلاء الثقات لا يزال مادة غفلاً لم يدرس ولم يفحص ، وقد خلف من بعدهم خلف أتموا تدوين الشعر الجاهلي وأشهرهم في الكوفة أبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي وقد اشتهر الأول بأنه جمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل شعر قبيلة منها وأخرجه للناس كتب مصحفاً وجعله في مسجد الكوفة ، وطبيعي أن يُخرج دواوين القبائل راوٍ كوفي لأن بيوتات العرب وأشرافها كانوا في الكوفة ولم يكونوا في البصرة ، ومن غير شك كانوا من أهم الأسباب التي أعانت على حفظ الشعر الجاهلي وروايته إلى أن دُوّن في القرن الثاني . ويظهر أن الكتب الخاصة بالقبائل لم تكن تكتفي برواية الأشعار بل كانت تضم إليها غير قليل من أخبارهم وأيامهم ، وربما كان هذا هو السبب في أننا نرى مؤرخيهم ينثرون في تاريخهم أشعاراً كثيرة كأنهم يرون أنها سنده وعماده ، على نحو ما تصور ذلك كتب المدائني والواقدي وابن الكلبي . وكان رواة الشعر يمزجون بروايتهم كثيراً من الأخبار التاريخية على نحو ما نرى في شرح النقائض لأبي عبيدة . وقد بقي من دواوين القبائل ديوان هذيل برواية السكري المتوفى سنة ٢٧٥ وفيه تختلط الأشعار بالأخبار ، ومن خير ما يصور ذلك فيه ديوان أبي ذؤيب .

ويدل كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني أنهم دونوا من هذه الأشعار

(١) ابن سلام ص ١١ .

والأخبار تراثًا كبيرًا ، ومعروف أنه يقع في واحد وعشرين مجلدًا ضخماً وأن للجاهليين فيه حظاً موفوراً . وهو يسوق هذه المادة الجاهلية الشعرية التاريخية مقترنة بأسناد ، تصور مصدرها ، محتاطاً إزاء رواته أشد الحيطه ، فمن عُرِف بكذبه نبّه عليه ، وحتى من عُرِف بصدقه كان يراجع روايته على روايات معاصريه ودواوين الشعراء ، مبالغة في الدقة والتحري . والكتاب مؤلف حقاً في القرن الرابع الهجري ، ولكنه يستمد من رواة القرنين الثاني والثالث الهجريين كما يتضح من أسانيده ، فهم الذين جمعوا هذا التراث الجاهلي الضخم ، وأتاحتوا لمن جاءوا بعدهم أن يؤلفوا مؤلفاتهم الكبرى ، سواء أكانت مجموعات شعرية أو أمالي أو أخباراً وتراجم . بل لقد بدأ منذ القرن الثالث تأليف هذه الكتب الجامعة مثل حماسة أبي تمام والبيان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد وعيون الأخبار لابن قتيبة وكتابه الشعر والشعراء .

وربما كان السكري أهم راوٍ ظهر في النصف الثاني من القرن الثالث ، فقد رُويت عنه دواوين كثيرة ، وهو يجمع في روايته بين الروايتين الكوفية والبصرية إذ أخذ عن ابن حبيب وابن السكيت الكوفيين كما أخذ عن الرياشي وأبي حاتم السجستاني البصريين . ونمضى في القرن الرابع الهجري ، فيتكاثر التأليف والتدوين على نحو ما هو معروف عن ابن دريد وابن الأنباري والقالى والمرزبانى ، وعملهم كما ذكرنا مشتق من عمل رواة القرن الثالث ، ونراهم يهتمون — مثل أبي الفرج الأصبهاني في أغانيه — بالسند ، فهم لا يكتفون غالباً بالراوى القريب الذى سمعوا منه ، بل يسلسلون الرواة حتى نصل إلى أبي عمرو بن العلاء أو إلى المفضل الضبي مثلاً . وبذلك قدموا لنا — صنيع سابقهم — مادة الشعر الجاهلي بكل ما تحمل من أسباب ضعف أو ثقته ، وكان كثير منهم لا يزال يرحل إلى البادية صنيع الرواة المتقدمين .

قضية الانتحال

واضح مما قدمنا أن الشعر الجاهلي دخل فيه انتحال كثير ، وقد أشار إلى ذلك القدماء مراراً وتكراراً ، وحاولوا جاهدين أن ينقوا عنه الزيف وما وضعه الوضّاع متخذين إلى ذلك مقاييس كثيرة ، وبلغ من حرصهم في هذا الباب أن أهمل ثقاتهم كل ما روى عن المتهمين أمثال حماد وخلف ، وكان الأصمعي خاصة لهم بالمرصاد ، كما كان المفضل الضبي من قبله ، وتتابع الرواة الأثبات بعدهما يحققون ويمحصون في التراث . ومن أهمهم في هذا الجانب ابن سلام ، فقد دوّن في كتابه « طبقات فحول الشعراء » كثيراً من ملاحظات أهل العلم والدراية في رواية الشعر القديم من أساتذة المدرسة البصرية التي ينتسب إليها ، وأضاف إلى ذلك كثيراً من ملاحظاته الشخصية .

وهذا الكتاب في الحقيقة هو أول كتاب أثار في إسهاب مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي ، وقد ردها إلى عاملين : عامل القبائل التي كانت تتزيد في شعرها لتتزيد في مناقبها ، وعامل الرواة الوضّاعين ، يقول : « لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار »^(١) . فالقبائل كانت تتزيد في أشعارها وتروى على ألسنة الشعراء ما لم يقولوه ، وقد أشار ابن سلام مراراً إلى ما زادته قریش في أشعار الشعراء ، فهي تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم ، وقد أضافت كثيراً إلى شعر حسان^(٢) « ويذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم من كان يقوم بذلك ، مثل داود بن متمر بن نُويرة ، فقد استنشد أبو عبيدة شعر أبيه متمر ، ولاحظ أنه لما نفا شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، وإذا كلامٌ دون كلام متمر ، وإذا هو يحتذى على كلامه ، فيذكر المواضع التي ذكرها متمر والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علم أبو عبيدة ومن كانوا معه أنه يفتعله »^(٣) .

ولعل في هذا ما يدل على أن الرواة من مثل أبي عبيدة كانوا يراجعون ما ترويه

(٣) نفس المصدر ص ٤٠ .

(١) ابن سلام ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ١٧٩ ، ٢٠٤ وما بعدها .

القبائل ، وكانوا يرفضون منه ما يتبين لهم زيفه ، إما بالرجوع إلى أصول صحيحة أو إلى أذواقهم وما يحسنون من نقد الشعر ومعرفتهم بالشاعر ونظمه ، ويسوق لنا ابن سلام شكاً في قصيدة أبي طالب التي روتها قریش في أشعارها والتي يمدح بها الرسول صلى الله عليه وسلم^(١) ، ومعنى ذلك أنهم نظروا في شعر قریش فقبلوا منه ورفضوا^(٢) . وهم يفحصون ويحققون في شعر المدينة كما فحصوا وحققوا في شعر قریش وغيرها من القبائل .

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة كانتا ترويان منتحلاً كثيراً وتنسبانه إلى الجاهليين ، طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه إلى الجاهليين ، ومثّل لها بحماد ، ورأينا فيما مر بنا ، أشباهها له في جَنَاحٍ وخلف الأحمر . وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي ، ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زيف ، وهم رواة الأخبار والسير والقصص ، من مثل ابن إسحق راوى السيرة النبوية إذ كانت تُصَنِّعُ له الأشعار ويُدخلها في سيرته دون تحرز أو تحفظ ، منطلقاً بالشعر العربي من لم ينطقوه من قوم عاد وثمود والعماليق وطسم وجديس .

ورفض ابن سلام والأصمعي وأضرابهما رواية الطائفتين جميعاً ، فلم يقبلوا شيئاً مما يرويه أشباه حماد إلا أن يأتيهم من مصادر وثيقة ، وكذلك لم يقبلوا شيئاً مما يرويه ابن إسحق لا عن الأمم البائدة فحسب ، بل عن عرب الجاهلية أنفسهم ، إلا أن يجدوه عند رواية أثبات ، يقول ابن سلام وقد ذكر أبا سفيان بن الحارث أحد شعراء قریش الذين كانوا يناقضون حسان بن ثابت وشعراء المدينة : إن شعره في الجاهلية « سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل » ثم علق على ذلك بقوله : « ولسنا نعدّ ما يروى ابن إسحق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذاك لهم^(٣) » . فهم كانوا يرفضون جملة ما يرويه ابن إسحق وأشباهه من مثل عبّيد بن شَرِيَّة وينحونه عن طريقهم ، يقول ابن سلام : « وليس يُشَكَّلُ على أهل العلم زيادةُ الرواة ولا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون^(٤) » مما حملاه رواية القصص والأخبار من شعر غَثَّ « لا خير فيه ولا حجة في عربيته ولا أدبٌ يستفاد ولا معنى

(١) ابن سلام ص ٢٠٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢٠٥ .

(٣) ابن سلام ص ٢٠٦ .

(٤) ابن سلام ص ٤٠ .

يستخرج ولا مثل يضرب ولا مديح رائع ولا هجاء مقذع ولا فخر معجيب ولا نسيب مستطرف^(١) .

ففي الشعر الجاهلي منتحل لا سبيل إلى قبوله ، وفيه موثوق به وهو على درجات منه ما أجمع عليه الرواة^(٢) ومنه ما رواه ثقات لا شك في ثقتهم وأمانتهم ، من مثل المفضل والأصمعي وأبي عمرو بن العلاء . وقد يغلب المنتحل الموثوق به ، ولكن ذلك لا يخرج بنا إلى إبطال الشعر الجاهلي عامة ، وإنما يدفعنا إلى بحثه وتمحيصه مهتدين بما يقدم لنا الرواة الأثبات من أضواء تكشف الطريق .

وقد لفتت هذه القضية ، قضية انتحال الشعر الجاهلي أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب ، وبدأ النظر فيها نولده^(٣) سنة ١٨٦٤ وتلاه آلورْد حين نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعلقمة وعنزة فتشكك في صحة الشعر الجاهلي عامة ، منتهيا إلى أن عددا قليلا من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته ، مع ملاحظة أن شكا لا يزال يلزم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كل منها . وتابع كثير من المستشرقين آوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يُروى للجاهليين ، أمثال موير وباسيه وبروكلمان . وكان مرجليوث أكبر من أثاروا هذه القضية في كتاباته إذ كتب فيها مقالا مفصلاً نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعدد يولية سنة ١٩٢٥ جعل عنوانه كما مرّ بنا (أصول الشعر العربي : The origins of Arabic Poetry) ونراه^(٤) يستهله بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثاً عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك ، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه ، وينبئ أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته ، وقد بينا آنفاً بأدلة لا تُدْفَعُ كيف أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين ولكن مرجليوث يذهب هذا المذهب ، ليقول إنه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة ، ثم يعود فينبئ كتابته في الجاهلية ليؤكد أنه نُظِمَ في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم ! . ويقف بإزاء الرواة المتهمين أمثال حماد وجناد وخلف الأحمر وما كان يطعن به بعض الرواة في بعض ، ليزعم أن الوضع في هذا الشعر كان

١/١٧٦ وما بعدها .

(١) ابن سلام ص ٥ .

(٤) لخص ناصر الدين الأسد هذه المقالة

(٢) ابن سلام ص ٦ .

في كتابه مصادر الشعر الجاهلي تلخيصاً دقيقاً

(٣) انظر في مناقشة المستشرقين لقضية

ص ٣٥٣ وما بعدها .

الانتحال، تاريخ الأدب الغربي لبلاشير

مستمراً . ويقول إنه لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم ، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآلهة المتعددة ، إنما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما في الإسلام من مثل الحساب ويوم القيامة وبعض صفات الله . وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي من الشعر الجاهلي ما ينقض زعمه نقضاً ، أما الشعر المصبوغ بصبغة إسلامية بحجة فنسلم بأنه موضوع ، ووضعه ينحصر فيه ، ولا يبطل ما وراءه من أشعار جاهلية . وينتقل مرجليوث من ذلك إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة ، وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب ، ويقول ولو أن هذا الشعر صحيح لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب . وأسلفنا في غير هذا الموضع أن لغة القرآن الفصحى كانت سائدة في الجاهلية وأن الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لهجة قريش ، وسادت بأسباب دينية واقتصادية وسياسية . فكان الشعراء ينظمون فيها متخلين عن لهجاتهم المحلية على نحو ما يصنع شعراء العرب في عصرنا على اختلاف لهجات بلدانهم وأقاليمهم . أما أن الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الحميرية فهذا طبعي لأنها ليست لغته ، وقديماً قال أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا^(١) وقد أخذت الفصحى كما قدمنا تقتحم الأبواب على هذه اللغة في الجاهلية نفسها ، بحيث نستطيع أن نقول إن تعريب الجنوبيين بدأ منذ عهود مبكرة . وآخر أدلة مرجليوث على مزاعمه أن النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة وخاصة اليمنية لا تدل على وجود أي نشاط شعري فيها ، فكيف أتيح لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك . ودحض بروينلش هذا الدليل لأن نظم الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة والظروف الاجتماعية ، وهناك فطريون أو بدائيون لهم شعر كثير مثل الإسكيمو^(٢) .

والحق أن مرجليوث بجانبه الصواب في دعواه ، ولذلك هب كثير من المستشرقين يردون عليه ، مثل بروينلش ولايل ، واحتج عليه الأخير في مقدمته للمفضليات بأن من وضعوا هذا الشعر — على فرض التسليم بذلك — كانوا يحاكون نماذج سابقة

(١) ابن سلام ص ١١ .

(٢) بلاشير ص ١٨٠ .

وتقاليد أدبية موروثة قلدها وحاكوها . ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه ، إذ لا يمكن أن يحاكو شيئاً لم يبق منه ما يتيح لهم هذه المحاكاة ، وإذن فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الإسلاميون وحاكوه ، وحقاً دخله انتحال أمثال حماد وخلف ، ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح ، ينبغي أن نهتدي في معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميّزة . ونراه يعود إلى هذا الموضوع في مقدمته لديوان عبيد بن الأبرص ، فيؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من الجاهلية إلى أن دُوّن نهائياً في العصر العباسي ، وقد يكون أصاب قصائده بعض التغيير ولكن من يرجع إلى الملاحظات مثلاً يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التي تنفرد بها والتي تثبت أنها لصاحبها ، وأعاد ما قاله في المقدمة الأولى من أن تقاليد شعر القرن الأول الهجري تُلزم بوجود الشعر الجاهلي الذي يشترك معها في نفس التقاليد ، وأيضاً فإن فيه من الألفاظ الغريبة ما لم يكن يستخدم في عصر هؤلاء الرواة ممن دونوه مما يدل دلالة قاطعة على أنه صحيح في جوهره .

ونضيف إلى ذلك أن في الشعر الجاهلي صوراً من الأساليب والتراكيب الملتوية التي تخرج على الصورة النحوية الطبيعية ، مما يدل على قدمها وأنها ليست من صنع العباسيين وأيضاً فإن فيه صورة لتهتك خلق لا يمكن أن تقوم إلا في نفس وثني ، على نحو ما يلقانا في معلقة امرئ القيس وحديثه عن الموضع وبسطه لجوانب متعته بالمرأة . ولا يزال المستشرقون إلى اليوم يختلفون في قبول هذا الشعر بحذر والشك فيه شكاً معتدلاً أو متطرفاً ، ومن أدلى بدلوهم منهم في هذا الموضوع بلاشير في الجزء الأول من كتابه : تاريخ الأدب العربي ، إذ تحدث طويلاً مبيناً بل مجسماً الشبهات ، وبينما يحاول الاعتدال أحياناً إذا به يهجم هجوماً عنيفاً^(١) . ومن ألوان هجومه قوله : « نحن نجد في النصوص المذكورة أن الشعراء أياً كان عصرهم أو قبائلهم يستعملون لغة موحدة منزهة بصورة عامة عن كل أثر لهجي ، خاضعة لقواعد تركيبية ، هي بصورة مجملة قواعد نحاة البصرة ، ولا شك في أن القصائد الجاهلية جُرّدت بتأثير الرواة الكبار عن كثير من الظواهر اللهجية ، كما أن التثبيت الكتابي بدوره أتم توحيد اللغة وحتى الأسلوب^(٢) » ويقول : « كل شيء يدعونا إلى الاعتقاد بأن كبار الرواة ومعهم علماء العراق قد أجروا في الشعر القديم إصلاحات ذات صبغة

(١) بلاشير ص ١٨٣ وما بعدها .

(٢) بلاشير ص ١٨٨ .

جمالية^(١)» ثم يقول : « والمدهش هو تعدد الروايات واتساعها داخل كل بيت ، ولا ريب في أنها ناشئة عن ضعف الذاكرة في أثناء الرواية الشفوية وأن عدداً قليلاً منها ناشئ عن عدم اكتمال طريقة الكتابة أو عن استبدالات في المترادفات . وما من شيء يميز لنا التأكيد بأن هذه الفروق الجزئية ليست قديمة ولا تصعد إلى ظهور الأثر نفسه^(٢) » وينتهي من ذلك إلى أن « دراسة النصوص الشعرية (يقصد الصحيحة) تقودنا إلى وضع مبدأ يقضى بعدم امتلاكنا أى أثر شفوي في شكله الأصيل . . ونحن نعلم لكى تتم المأساة أن المقلدات قد امتزجت بالأصول القديمة التى يختلف تحريفها قلة أو كثرة دون أن نتمكن في كثير من الأحيان من كشف هذه الانتحالات^(٣) » .

وواضح أن بلاشير يزعم أن الأصول الصحيحة للشعر الجاهلي اختلطت بالتمازج والقصائد الموضوعة اختلاطاً يتعذر معه أن تميز ، وهو زعم مبالغ فيه ، لأن هذه الأصول كما قدمنا وصلتنا عن رواة ثقات ، وأجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على توثيقها ، بحيث لا يرقى إليها الشك . وهو يزعم أيضاً أن الرواة ونحاة البصرة عدلوا في هذه الأصول بما يتمشى مع القواعد النحوية البصرية من جهة والقواعد الجمالية الأسلوبية من جهة ثانية ، ويتخذ دليلاً على ذلك خلو القصائد الجاهلية من ظواهر اللهجات القبلية ، وقدّمنا أن هذه الظواهر كانت فعلاً تكاد تكون منعدمة في الجاهلية نفسها لأن الشعراء في القبائل المختلفة اصطالحوا على أن ينظموا شعرهم بلهجة قريش ، واتخذوها لغة لشعرهم ، ومن أجل ذلك لم يسقط من لهجتهم في أشعارهم إلا أشياء قليلة جداً ، سجلها هؤلاء النحاة البصريون ، وإلا فقيم هذه الشواذ النحوية التى تمتلئ بها كتبهم . ولم يكن رواة البصرة ونحاتها وحدهم الذين يروون هذا الشعر ، بل كان يرويه معهم رواة الكوفة ونحاتها ، وكانوا مولعين بإثبات الشواذ واعتبارها أصولاً يقاس عليها . أما أن هؤلاء الرواة جميعاً أدخلوا في الشعر الجاهلي إصلاحات ذات صبغة جمالية ، تقوم على متانة اللفظ وجزالته ، فهى دعوى تستلزم ضرباً من الدور ، إذ كانوا يرجعون في هذه الإصلاحات إلى المقاييس الجمالية المبنوثة في هذا الشعر الجاهلي التى تقوم على الرصانة والجزالة ،

(١) بلاشير ص ١٨٩ .

(٢) بلاشير ص ١٨٩ .

(٣) بلاشير ص ١٩٢ .

ثم يصلحونه على أساسها ، وبذلك يجعلهم بلاشير يدورون ، وهو دورٌ باطل ، تنقضه طبيعة الأشياء . والحق أن ثقاتهم نقلوا إلينا هذا الشعر بكل صفاته الجمالية وما داخله من عيوب تركيبية أو شواذ نحوية أو لغوية . على أننا نسلّم بما يقوله بلاشير من أن القصائد أصابها بعض التغيير في أثناء سفرها الطويل من الجاهلية إلى عصر التدوين ، فقد يستبدل الراوى بكلمة أخرى ترادفها ، وقد يغيب عن ذاكرته بعض الأبيات ، وقد يخالف في ترتيب أبيات القصيدة فيقدم فيها أو يؤخر . غير أن ذلك لا يخلّ بصحة ما حمّله ورواه العلماء الثقات الذين نصّوا على المنتحل المصنوع على نحو ما يصور لنا ذلك كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام .

وإذا تركنا المستشرقين إلى العرب المحدثين والمعاصرين وجدنا مصطفى صادق الرافعي يعرض هذه القضية قضية الانتحال في الشعر الجاهلي عرضاً مفصلاً في كتابه « تاريخ آداب العرب » الذي نشره في سنة ١٩١١ ولكنه لا يتجاوز في عرضه - غالباً - سرّد ما لاحظته القدماء^(١) ، ونحن نحمد له استقصاءه للملاحظات كما نحمد له ما وقف عنده من شعر الشواهد للمذاهب النحوية والكلامية ، فقد لاحظ ما دخل هذا الشعر من بعض الوضع ، وهو وضع سجله القدماء أنفسهم ولم يفهم التنبيه عليه .

وخلف مصطفى الرافعي طه حسين فدرس القضية دراسة مستفيضة في كتابه « الشعر الجاهلي » الذي أحدث به رجة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للرد عليه . ولم يلبث أن ألف مصنفه « في الأدب الجاهلي » الذي نشره في سنة ١٩٢٧ وفيه بسط القول في القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلاً ، إذ زودها ببراهين جديدة ، وقد خصص لها في مصنفه أربعة كتب ، هي الكتاب الثاني والثالث والرابع والخامس ، ونراه يعنى في الكتاب الثاني ببيان الأسباب التي تحمل على الشك في الشعر الجاهلي ، ويقدم بين يديها نتيجة بحثه فيقول : « إن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشك في أن ما بقي من الأدب الجاهلي الصحيح

(١) انظر الطبعة الثانية من هذا الكتاب ص ٢٧٧ وما بعدها .

قليل جداً ، لا يمثل شيئاً ولا يدل على شيء ، ولا ينبغي الاعتماد عليه في استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلي^(١) .

وواضح أنه يُبقي في الشعر الجاهلي على بقية صحيحة ، وإن كانت في رأيه قليلة ، ولا تعطينا الصورة الأدبية الوثيقة لهذا الشعر . وقد مضى يبسط الأسباب التي تدفع الباحث إلى الشك فيه واتهامه ، وردّها إلى أنه لا يصور حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية ، كما أنه لا يصور لغتهم وما كان فيها من اختلاف اللهجات ، وتباينها بلهجاتها من اللغة الحميرية . أما من حيث حياتهم فيقول إنه عرضها على القرآن الكريم ، فوجده يمثلها من جميع جوانبها المذكورة تمثيلاً قوياً ، فهو يجادل اليهود والنصارى والصابئة والمجوس ويهاجمهم كما يهاجم الوثنيين والوثنية ، ويُطْلَعنا في تضاعيف ذلك على جملة معتقداتهم ، بينما نجد الشعر — كما يقول — بريئاً أو كالبريء من الشعور الديني القوي والعاطفة المتسلطة على النفس . وقياس الشعر الجاهلي في هذا الجانب على القرآن الكريم مردود أو منقوض ، لأن القرآن كتاب ديني يريد أن يجمع العرب على الإسلام ، فطبيعي أن يعرض لدياناتهم ويناقشها ، ويبين ما فيها من ضلال ، بخلاف الشعر ، فإن شاعراً لم يَدْعُ لدين جديد ، ومع ذلك فإن في كتاب الأصنام لابن الكلبي ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية تصويراً دقيقاً .

وينتقل إلى حياتهم العقلية فيلاحظ أنها غير واضحة في الشعر المنسوب إليهم ، وكأنه يطلب إليهم حياة عقلية راقية أو معقدة ، وكانوا في جمهورهم بدواً لم يتحولوا إلى طور فكري منظم ، وقد عرضنا في غير هذا الموضع لذلك الطور وما يمثله من أشعارهم . ومعنى ذلك أن حياتهم العقلية الفطرية ماثلة في شعرهم . ويخرج من ذلك إلى أن حياتهم السياسية لا تتضح في أشعارهم ، مع أنهم كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، مما يوضحه القرآن الكريم في سورة الروم ، إذ يعرض علينا العرب شيعةً : شيعة تنتصر للروم وشيعة تنتصر للفرس . وهذا في الواقع لا يصدق على العرب جميعاً ، إنما يصدق على قريش وقوافلها التجارية التي كانت تنزل في بلاد الدولتين . ومع ذلك فقد كان شعراء نجد والحجاز يتصلون بالغساسنة من أتباع

(١) في الأدب الجاهلي (الطبعة الأولى) ص ٦٤ .

الروم والمناذرة من أتباع الفرس ويمدحونهم ويهجونهم . ولما نشبت الحروب بين قبيلة بكر والفرس قبيل الإسلام هدّتهم شعراء هذه القبيلة وتوعدوهم طويلاً على نحو ما هو معروف عن الأعشى مثلاً .

ويتحدث عن حياتهم الاقتصادية وأنها لا نظفر بشيء ذي غناء في شعرهم يمثل لنا هذه الحياة ، بينما يمثل لنا الذكر الحكيم العرب طائفتين : طائفة الأغنياء المستأثرين بالثروة وطائفة الفقراء المعدمين ، وليس في الشعر ما يصور ذلك كما يقول ، إنما فيه أن العرب جميعاً أجواد كرام ، على حين يُلح القرآن الكريم في ذم البخل والبخلاء . وهذا القياس أيضاً لا يستقيم ، لسبب بسيط ، وهو أن شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال بين الأغنياء والفقراء^(١) ، وأيضاً فإن شعراءهم إذا كانوا قد أكثروا في مدحهم وفخرهم من ذكر الكرم فإنهم أكثروا في هجائهم من ذكر البخل وشح النفس . ولا بد أن نلاحظ أن كثيراً من القرآن نزل في قريش التاجرة التي بلغ كثير منها مبلغاً عظيماً في الثراء والتي كان يشيع فيها الربا أضعافاً مضاعفة .

ووقف طه حسين طويلاً إزاء لغة الشعر الجاهلي ولاحظ أنه لا يصور اللغتين الشائعتين في الجزيرة : لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية ، بل هو يضيف إلى الجنوبيين أشعاراً بلغة الشماليين . وحقاً أن ما يضاف إلى من كانوا في أقصى الجنوب وداخل اليمن منتحل ، أما من كانوا منهم يجاورون الشماليين فقد تعربوا في الجاهلية مثل مذحج وبلحارث بن كعب . على أنه يطرد القياس فيتشكك في شعراء القبائل اليمنية التي هاجرت من مواطنها الأصلية في الجنوب إلى الشمال مثل كندة وشاعرها امرئ القيس . وما لا شك فيه أن هذه القبائل هاجرت إلى الشمال قبل العصر الجاهلي وتعربت ، فهي ليست يمنية ولا جنوبية من الوجهة اللغوية ، وإنما هي شمالية . وقد وقف عند لهجات الشماليين في الجاهلية ، تلك التي تمثلها قراءات القرآن الكريم ، ولاحظ أن الشعر الجاهلي لا يمثلها ، واتخذ من ذلك مطعناً في صحته ، ومر بنا في غير هذا الموضع أن لهجة قريش عمّت في الجزيرة منذ أوائل القرن السادس الميلادي واتخذها الشعراء لغة أدبية لهم ، ينظمون

وما بعدها و ص ٢٢٧ وما بعدها .

(١) الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي
ليوسف خليف (طبع دارالمعارف) ص ١٣٢

فيها أشعارهم مرتفعين غالباً عن لهجات قبائلهم المحلية ، فلا محل للتساؤل عن هذه اللهجات في شعر الجاهليين ، ولا موضع لاتخاذ ذلك دليلاً على أنه منتحل موضوع . ونراه يتشكك في شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية ، غير أن هذه الشواهد أبيات فردية ، واتهامها ينبغي أن ينحصر فيها وأن لا يتعداها إلى الشعر الجاهلي عامة .

ويخرج طه حسين في مصنفه من هذا الكتاب الثاني إلى الكتاب الثالث ، فيتحدث عن أسباب تحل الشعر ويبسطها بسطاً معتمداً على ملاحظات القدماء ، ونراه يردّها إلى السياسة والدين والقصص والشعبية والرواة ، أما السياسة وأراد بها العصبية القبلية فرآها تلعب دوراً واضحاً في شعر قريش والأنصار ، إذ أضافت قريش إلى نفسها أشعاراً كثيرة ، وقد استكثرت بنوع خاص من الشعر الذي يهجى به الأنصار . ووضح أن هذا لم يكن غائباً عن ابن سلام ، فقد نص عليه وحذّر منه كما أسلفنا ، كما حذر من أشعار وضعتها قريش على لسان حسان . على أن الأشعار جميعها التي وقف طه حسين عندها ليست جاهلية ، وإنما هي إسلامية . وينتقل إلى الدين فيبين دوره في هذا التحل متشككاً في الأشعار التي يقال إنها نُظمت في الجاهلية إرهاباً ببعثة الرسول ، مما رواه ابن إسحق واحتفظ به ابن هشام في سيرته ، ومثله ما يضاف إلى الجن والأُمم القديمة البائدة . ومرّ بنا رَفَضُ ابن سلام لهذه الأشعار وما يمثّلها . وتشكك فيما أضيف إلى شعراء اليهود والنصارى من أشعار ، وكذلك ما أضيف إلى عدى بن زيد العبادي ، ولم يكن القدماء في غفلة عن ذلك^(١) . ونراه يتحدث عن القصص والقصص وأثرهم في وضع الشعر ، ومرّ بنا تنبيه ابن سلام على ذلك عند ابن إسحق وأضرابه . ويعرض للشعبية وما يمكن أن تكون قد نحتلت الجاهليين من أشعار ، لتثبت على لسانهم مثالبهم التي تدعيها ، كما تثبت ثنائهم على الأعاجم . وقد تشكك في هذا الشعر الكثير الذي يضيفه الجاحظ إلى الجاهليين في مصنفه الحيوان ، ليدل على اتساع معرفتهم في هذا العلم : علم الحيوان ، عصبية لهم ، والحق أن هذا لم يكن من أهداف الجاحظ ، فهو نفسه ينفي عنهم العلم الدقيق بالحيوان ، إذ يقول إن معارفهم فيه معارف أولية ، ولأنه إنما دار في أشعارهم لأنه كان مبثوثاً تحت أعينهم وأبصارهم

(١) انظر ابن سلام ص ١١٧ .

في ديارهم^(١) . ويحتم هذا الكتاب بالوقوف عند الوضاعين من الرواة أمثال حماد وخلف ، ومرّ بنا كيف أن القدماء كانوا لهم بالمرصاد . ومعنى ذلك كله أنه في هذا الكتاب إنما يردّ ما نص عليه العلماء السابقون من قضايا ، يريد أن يتسع بها لنقص الشعر الجاهلي جميعه ، وهي إنما تنقص جوانب منه ، وينبغي أن نقف عندها ، وأن لا نذهب مذهب التعميم ، فإن القدماء إنما ذكروا هذا كله ليدلوا على ما أحاطوا به رواية الشعر الجاهلي من سياج قوى ، حتى نميز الصحيح من الزائف والوثيق من المنحول .

ويمضى طه حسين في مصنفه إلى الكتاب الرابع ، وهو دراسة تطبيقية لبيان الانتحال في شعر طائفة من شعراء اليمن وربيعه ويبدأ في دراسته بامرئ القيس ويشكك في شعره ، لأنه يبنى وشعره قرشي اللغة ، ثم هو شعر مضطرب ركيك . ومرّ بنا أنه كان يبنى الجنس ، ولكنه كان قرشي اللغة ، أما أن شعره ركيك والوضع فيه كثير فقد كان يغنيه عن هذا الظن ما يروى عن الأصمعي من أنه قال : « كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا أنه سقا سمعتهما من الأعراب وأبي عمرو بن العلاء »^(٢) . ونراه ينتقل إلى علقمة الفحل فيشك في شعره ، وقد كان ابن سلام لا يثبت له سوى ثلاث قصائد^(٣) . وشك في شعر عبيد بن الأبرص ، وأسلفنا أن ابن سلام لم يكن يعرف له سوى معالقة (أقفر من أهله ملاحوب) وكان يقول إن شعره مضطرب ذاهب . ومضى طه حسين على هذا النحو يشك في شعر عمرو ابن قميئة ومهلل وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وطرفة والمتلمس والأعشى معتمداً على الأحكام الذاتية ، ولو أنه استقصى آراء الرواة الثقات لأعانه ذلك كثيراً في تحقيق أشعارهم جميعاً .

وننتقل مع طه حسين في مصنفه إلى الكتاب الخامس ، وهو خاص بشعراء مضر ، فنراه لا يستبعد أن يكون هناك شعراء مضرّيون وشعر مضرّ ، غير أنه لا يلبث أن يستدرك قائلاً : « لكننا لا نشك أيضاً في أن هذا الشعر قد ذهب وضاعت كثرته ، ولم يبق لنا منه إلا شيء قليل جداً لا يكاد يمثل شيئاً ، وهذا المقدار القليل الذي بقي لنا من شعر مضر قد اضطرب وكثر فيه الخلط والتكلف

(٣) ابن سلام ١١٦

(١) الحيوان ٢٩/٦ وما بعدها .

(٢) مراتب النحويين ص ٧٢ .

والنحل ، حتى أصبح من العسير جداً أن لم يكن من المستحيل تخليصه وتصنيفه^(١) .
ويضيف إلى ذلك أن من الخطأ أن نكتفي في الحكم على الشعر المضرى بالسند
ومن يحمله من الرواة ، أو بالغرابة والسهولة ، ذاهباً إلى أن الباحث في هذا الشعر
ينبغي أن يحكم فيه مقياساً مركباً من خصائص فنية يشترك فيها طائفة من الشعراء
بحيث يكونون مدرسة كمدرسة أوس بن حجر التي تتألف منه ومن زهير وابنه كعب
والخطيئة ، فإن لهذه المدرسة من الخصائص الفنية المشتركة ما يؤكد صحة شعرها
وسلامته من الوضع والانتحال . وكأنه بذلك يهدم شكوكه الواسعة في الشعر الجاهلي ،
فقد رجع أخيراً يسلم بصحة بعض جوانبه ودواوينه . على أننا لا نسلم له بطرد هذا
المقياس في تلك المدرسة نفسها ، فقد لاحظ القدماء أن شعر أوس بن حجر اختلط بشعر
ابنه شريح^(٢) ، واختلف الرواة في بعض ما نسب إليه من شعر هل هو له أو لعبيد
ابن الأبرص الأسدي^(٣) ، وسنرى في درسنا لزهير أن من الخطأ أن نقبل رواية
الكوفيين لديوانه ، فقد حملت زيادات كثيرة ، شك القدماء في أطراف منها ،
ونفس الرواية البصرية سرفض قطعاً وأشعاراً منها ، على الرغم من أنها جاءتنا عن
الأصمعي بل سنرى الأصمعي نفسه يشك في ثلاث قصائد مثبتة في روايته .
والحق أن الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير ، غير أن ذلك لم يكن غائباً عن
القدماء ، فقد عرضوه على نقد شديد ، تناولوا به رواته من جهة وصيغته وألفاظه
من جهة ثانية ، أو بعبارة أخرى عرضوه على نقد داخلي وخارجي دقيق . ومعنى
ذلك أنهم أحاطوه بسياج محكم من التحري والتثبت ، فكان ينبغي أن لا يبالغ
المحدثون من أمثال مرجليوث وطه حسين في الشك فيه مبالغة تنتهي إلى رفضه ،
إنما نشك حقاً فيما يشك فيه القدماء ورفضه ، أما ما وثقوه ورواه أثباتهم من مثل
أبي عمرو بن العلاء والمفضل الضبي والأصمعي وأبي زيد فحري أن نقبله ما داموا
قد أجمعوا على صحته . ومع ذلك ينبغي أن نخضعه للامتحان وأن نرفض بعض
ما روه على أسس علمية منهجية لا لمجرد الظن ، كأن يروى لشاعر شعر لا يتصل
بظروفه التاريخية ، أو تجرى فيه أسماء مواضع بعيدة عن موطن قبيلته ، أو يضاف
إليه شعر إسلامي النزعة ، ونحو ذلك مما يجعلنا نلمس الوضع لمسا .

(٣) ابن سلام ص ٧٦ - ٧٧ .

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٧٠ .

(٢) الحيوان ٢٧٩/٦ .

أهم مصادر الشعر الجاهلي

رأينا علماء البصرة والكوفة ورواتهم يجمعون مادة الشعر الجاهلي ، وقد توزعتها منتخبات عامة ودواوين مفردة للشعراء وأخرى للقبائل غير كتب الطبقات والتراجم وكتب التاريخ واللغة . وسنحاول وصف طائفة منها وبيان مقدار الثقة بها . ونبدأ من المنتخبات العامة بالمعلقات ، وقد مر بنا أنها لم تعلق بالكعبة كما زعم بعض المتأخرين ، وإنما سميت بذلك لنفاستها أخذاً من كلمة العلق بمعنى النفيس ، ويقال إن أول من رواها مجموعة في ديوان خاص بها حماد الراوية^(١) ، وهي عنده سبع : لامرئ القيس وزهير وطرفة وليبد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة . ونراها عند صاحب الجمهرة سبعاً أيضاً ، غير أنه أسقط اثنين من رواية حماد هما الحارث ابن حلزة وعنترة وأثبت مكانهما الأعشى والنابعة ، وربما أضاف حماد الحارث في مقابلة عمرو بن كلثوم التغلبي لأن ولاءه كان في بكر . على أننا لا نمضي في عصر التبريزي حتى نجد أنه يجعلها في شرحه لها عشرًا جامعًا بين الروایتين ومضيفاً قصيدة عبید بن الأبرص : (أقفر من أهله ملحوب) .

وقد عني الشراح بهذه المجموعة ، فشرحوها مراراً ، وطُبع من شروحاتهم شرح الزوزني المتوفى سنة ٥٤٨٦ هـ . وقد كتبه على رواية حماد ، ثم شرح التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢ هـ . وأكبر الظن أن حماداً لم يأخذ حرثته كاملة في قصائد مجموعته ، فقد كانت على ما يظهر معروفة بين العرب ، على أنه ينبغي مقابلتها على دواوين أصحابها ورواياتها الوثيقة .

والمجموعة الثانية في المنتخبات هي المفضليات ، نسبة إلى جامعها المفضل الضبي راوى الكوفة الثقة ، وقد نشرها ليال بشرح ابن الأنباري ، وهي مائة وست وعشرون قصيدة أضيف إليها أربع قصائد وُجدت في بعض النسخ ، وفي مقدمة الشرح

(١) انظر ترجمة حماد في معجم الأدباء

سند كامل لها يرفعه ابن الأنباري إلى ابن الأعرابي تلميذ المفضل ورَبَّيه ، ويقول ابن النديم « هي مائة وثمانية وعشرون قصيدة ، وقد تزيد وتنقص وتتقدم القصائد وتتأخر ، بحسب الرواية عن المفضل ، والصحيحة التي رواها عنه ابن الأعرابي ^(١) » ومعنى ذلك أن في أيدينا أوثق نسخة للمفضليات . وتعلق عبد السلام هرون وأحمد شاكر ناشراها في دار المعارف بنص عن الأخفش يزعم أنها كانت ثمانين ألفاها المفضل على المهدي ، وزاد فيها الأصمعي أربعين ، ثم زاد البقية بعض تلاميذه ^(٢) ، وربما جاء الأخفش اللبس ^(٣) من أن الأصمعيات تلتقى معها في تسع عشرة قصيدة ، وأيضاً فقد وجد الرواة يقولون إن أبا جعفر المنصور حين عهد إلى المفضل بثقيف ابنه المهدي بالشعر القديم اختار له ثمانين قصيدة ، فلما وجدها قد زادت عن الثمانين ووجدها تلتقى مع الأصمعيات في بعض القصائد ظن أن الأصمعي وتلاميذه هم الذين أضافوا فيها هذه الزيادات ، ولو أنه اطلع على رواية ابن الأعرابي خصم الأصمعي لزيله هذا الوهم ، وكأن المفضل اختار أولاً ثمانين ألفاها على المهدي ، ثم زادها إلى مائة وثمان وعشرين كما جاءت في رواية تلميذه ابن الأعرابي .

وهي موزعة على سبعة وستين شاعراً منهم سبعة وأربعون جاهلياً وعلى رأسهم المرقشان الأكبر والأصغر والحارث بن حلزة وعلقمة بن عبدة والشنفرى وبشر بن أبي خازم وتأبط شراً وعوف بن عطية وأبو قيس بن الأسلت الأنصاري والمسئب وبينهم امرأة من بني حنيفة ومجهول من اليهود ومسيحيان هما عبد المسيح بن عسلة الشيباني وتتضح مسيحيته في اسمه ، ثم جابر بن حنن التغلبي ، ونراه يقول في مفضليته :

وقد زعمت بهراً أن رماحنا رماح نصارى لا تخوض إلى الدّم

ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلي سوى هذه المجموعة الموثقة لأمكن وصف تقاليده وصفاً دقيقاً ، فقد مثلت جوانب الحياة الجاهلية ودارت مع الأيام والأحداث

البصري يريد أن يقول إن المفضليات من صنع البصريين والكوفيين جميعاً لما كان لها من شهرة في عصره فاقت شهرة الأصمعيات .

(١) الفهرست ص ١٠٢ .

(٢) ذيل الأمل ص ١٣١ .

(٣) ذهبنا إلى أنه لبس ، وربما كان بعامل التنافس بين البصريين والكوفيين ، فالأخفش

وعلاقات القبائل بعضها ببعض وبملوك الحيرة والغساسنة ، وانطبعت في كثير منها البيئة الجغرافية . وقد جاء فيها غير قليل من الكلمات المندثرة التي لم ترد في المعاجم اللغوية^(١) على كثرة ما أثبتت من الألفاظ المهجورة ، مما يرفع الثقة بها ويؤكددها . والمجموعة الثالثة من كتب المنتخبات العامة الأصمعية نسبة إلى الأصمعي راويها ، وقد نشرها آلورد (Ahlwardt) عن نسخة سقيمة في برلين سنة ١٩٠٢ وأعاد نشرها عبد السلام هرون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطي نقلها عن أصل قديم وهي نشرة علمية جيدة ، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، وهي موزعة على ٧١ شاعراً منهم نحو ٤٠ جاهلياً على رأسهم امرؤ القيس والحارث ابن عباد ودريد بن الصمّة وأبودؤاد الإيادي وذو الإصبع العذواني وسلامة بن جندل وطرفة وعروة بن الورد وقيس بن الخطيم ، وبينهم يهوديان هما شعبة بن الغريض والسموأل . وهذه المجموعة كسابقتها في الثقة بها وعلو درجتها ، وقد جاء فيها أيضاً كثير من الكلمات المهجورة التي لم تثبت المعاجم^(٢) ، غير أنها لم تلعب الدور الذي لعبته المفضليات فلم يتعلق بها الشراح ، ولعل ذلك يرجع إلى قلة غريبها بالقياس إلى المفضليات ، وأيضاً فإن الأصمعي لم يَرَوِ كثيراً من القصائد كاملة ، بل اكتفى بمختارات منها .

والمجموعة الرابعة جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ولا نجد اسمه بين الرواة المشهورين ، غير أنه يتضح من مقدمته لكتابه وما نقله عن الرواة أن بينه وبين رواة القرن الثاني جيلين أو ثلاثة ، فالوسائط بينه وبينهم في السند غير بعيدة ، ولذلك نظن أنه كان يعيش في أواخر القرن الثالث أو أوائل القرن الرابع ، وقد ذكره ابن رشيح المتوفى سنة ٤٦٣ للهجرة في كتابه العمدة^(٣) كما ذكره السيوطي في المزهري^(٤) والبغدادى في الخزائن^(٥) . والجمهرة تضم تسعاً وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام ، في كل قسم سبع قصائد ، والقسم الأول خاص بالمعلقات ، وقد أخذ فيها برواية أنها سبع ، وأسقط منها معلقتي الحارث وعنزة ووضع مكانهما معلقتي الأعشى والنابغة ، ويلى هذا القسم المجمرات وهي

(١) انظر الفهرس الثالث الملحق بالمفضليات (٣) العمدة ٦٠/١ .
 (٢) انظر الفهرس الثالث الملحق بالأصمعية .
 (٣) انظر الفهرس الثالث الملحق بالمفضليات .
 (٤) المزهري ٤٨٠/٢ .
 (٥) الخزائن ١٠/١ ، ٦١ ، ٥٥/٢ .

لعبيد بن الأبرص وعدى بن زيد وبشر بن أبي خازم وأمية بن أبي الصلت ونخداش ابن زهير والنمر بن تولب وعنترة وألحقت قصيدته في النسخة المطبوعة بالمعلقات خطأ. ويلى ذلك المنتقيات أى المختارات ، ثم المذهبات وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين أو مخضرمين ، وربما قصد باسمها أنها تستحق أن تكتب بالذهب ، ثم عيون المراثى ، ثم المشوبات ، وهى لمخضرمين ، شابههم الكفر والإسلام ، ثم الملحمات وجميعها لإسلاميين . وهى مجموعة غنية بالقصائد الطويلة ولكنها غير موثقة الرواية ، فلا بد فى الاعتماد عليها من مقابلتها على روايات صحيحة . وطُبعت الجمهرة مراراً فى بيروت والقاهرة .

ومثل هذه المجموعة فى ضعف سندها مختارات ابن الشجرى المتوفى سنة ٥٤٢ للهجرة ، وهى مختارات من شعر جاهلى وإسلامى ، موزعة على ثلاثة أقسام وأهم من فى القسم الأول الشنفرى وطرفة ولقيط الإيادى والمتلمس ، أما القسم الثانى فمختارات من دواوين زهير وبشر بن أبي خازم وعبيد بن الأبرص ، وأما القسم الثالث فمختارات من ديوان الخطيئة . وطُبعت هذه المجموعة بالقاهرة .

وتدخل فى هذه المختارات دواوين الحماسة ، وقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية ، إذ لا يعرفنا أصحابها بمصادرهم وأشهرها ديوان الحماسة لأبى تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣١ للهجرة وقد شُرح مراراً ، ومن شروحه المطبوعة شرح المرزوق وشرح التبريزى وهو يفيض بالإشارات التاريخية . ونصّ المرزوق على أن أبا تمام أصلح فى الشعر الذى رواه ، يقول : « إنك تراه ينتهى إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيَجْبُر نقيصته من عنده ، ويبدل الكلمة بأختها فى نقده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواوينهم ، فقابل ما فى اختياره بها^(١) » . وحماسته موزعة على عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة وبه سماها ، وهى مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين ، وقلما روى فيها قصائد كاملة . وتلى هذه الحماسة فى الأهمية حماسة البحترى المتوفى سنة ٢٨٤ هـ وهى مقطوعات قصيرة موزعة على مائة وأربعة وسبعين باباً ، وأكثر أبوابها فى نزعات خلقية ، ولم يُعَنَّ القدماء بشرحها . ولابن الشجرى صاحب

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوق (طبع
لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٤/١ .

المختارات حماسة طُبعت في حيدر آباد ، وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلي . وطُبعت أخيراً حماسة الخالدين أو الأشباه والنظائر للأخوين سعيد الخالدي المتوفى سنة ٣٥٠ ومحمد المتوفى سنة ٣٨٠ ولا تزال الحماسة البصرية لعلى بن أبي الفرج البصري المتوفى في القرن السابع غير مطبوعة ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطتان منها . وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين المفردة لقينا منها دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة وقد نشرها ألوارد ، إلا أنه لم يكتب برواية الأصمعي التي احتفظ بها شرح الشنتمري ، بل أضاف إليها زيادات هي في الأكثر منحولات ، ولا تزال في حاجة إلى نشر شرح الشنتمري المتوفى سنة ٤٧٦ وقد استخرج منه مصطفى السقا شرحه على تلك الدواوين والتزم روايته في المجموعة التي سماها باسم مختار الشعر الجاهلي . وطُبِع ديوان امرئ القيس طبعت مختلفة لعل أهمها الطبعة الأخيرة بدار المعارف ، وقد جُمع فيها أبو الفضل إبراهيم رواياته جميعها وقارن بينها مقارنات دقيقة . ونشرت دار الكتب المصرية ديوان زهير بشرح ثعلب ، غير أن من حققوه لم يقابلوا بين هذه الرواية الكوفية ورواية الأصمعي البصرية التي يحتفظ بها الشنتمري في شرحه . وطُبعت دواوين أخرى مثل ديوان النابعة وطرفة وليبد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفري وأوس بن حجر ، إلا أن أكثر هذه الدواوين لا يزال في حاجة إلى نشرة علمية جيدة . وقد نشر لایل ديواني عبید بن الأبرص وعامر بن الطفيل ، وهناك دواوين مخطوطة لما تنشر .

أما دواوين القبائل التي جمع منها الشيباني نيفاً وثمانين ، وعُنى السكري بكثير منها ، ففقدت في الطريق^(١) ، ولم يبق منها إلا قطع من ديوان هذيل نشرت في خمس مجموعات ، أربع منها في أوروبا وهي من صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، طُبعت أولها في لندن سنة ١٨٥٤ بتحقيق كوزجارتن وطُبعت الثانية في برلين سنة ١٨٨٧ بتحقيق فلهاوزن ، وطُبعت الثالثة وهي خاصة بديوان أبي ذؤيب في هانوفر سنة ١٩٢٦ بتحقيق يوسف هل ، وفي سنة ١٩٣٣ نشر القطعة

(١) انظر في تحقيق هذه الدواوين مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٤٣ وما بعدها .

الرابعة في ليزج ، وهي تتداخل مع القطعة الخامسة التي نشرتها دار الكتب المصرية ، ويظهر أن هذه القطعة الأخيرة اختلطت فيها نسخة السكرى بنسخة أخرى مختصرة ولذلك كان يقل فيها الشرح وإسناد الرواية . ويعنى عبد الستار فراج — بمراجعة محمود شاكر — بتحقيق أشعار الهذليين من صنعة السكرى وقد نشرت منه مكتبة دار العروبة جزئين . ومن الحق أن القطع التي وصلتنا من شرح السكرى غاية في النفاسة لأنه يضمها أخباراً وشروحاً فحسب ، بل أيضاً لأنه يقفنا وقوفاً دقيقاً على مصادره ، إذ يذكر دائماً الإسناد في القصيدة والفاظها وأبياتها مثبتاً ما اختلف فيه الرواة البصريون وعلى رأسهم الأصمعي والكوفيون وعلى رأسهم ابن الأعرابي وأبو عمرو الشيباني ومن جاء بعدهم من البغداديين مثل عبد الله بن إبراهيم الجهمي ، ومن بين من ينقل عنهم أبو عبيدة . ومنه نعرف أن الأصمعي كان ينقل عن مصدر من نفس القبيلة هو عمارة بن أبي طرفة الهذلي . وبذلك كانت هذه القطع التي رواها السكرى من ديوان هذيل لا تقل ثقة ولا قيمة تاريخية عن المفضليات والأصمعيات .

ومن الكتب الجيدة التي تشتمل على شعر جاهلي كثير شرح النقائض لأبي عبيدة ، فقد أنشد فيه كثيراً من الشعر الذي قيل في أيام العرب ، وهذا حدوه من كتبوا في أيام العرب مثل ابن الأثير في كامله وابن عبد ربه في عقده . ومن الكتب الجيدة أيضاً طبقات الشعراء لابن سلام ، ومربنا أنه أودع فيه دراسة دقيقة للشعر الجاهلي صحيحه ومصنوعه . أما كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة فربما كان خير ما فيه مقدمته التي يحاول أن يربط فيها شعراء عصره بالمثل الجاهلية القديمة ، أما بعد ذلك فالكتاب فقير في تراجمه وما يُطوى فيها من أخبار وأشعار غير مسندة إلى رواتها . وهناك كتب أدب ألفت في البصرة مثل البيان والتبيين والحيوان للجاحظ والكامل للمبرد ، ومن الخير أن نرد ما بها من شعر إلى روايات بصرية صحيحة ، حتى نكون أكثر طمأنينة ، ويجري مجراها ما في أمالي اليزيدي ومجالس ثعلب من أشعار . وينبغي أن نتلقى كتب الأدب البغدادية مثل عيون الأخبار لابن قتيبة بحذر ، ومثلها أمالي أبي علي القالي ففيها انتحال كثير . ومن المختصرات التي تفيد في المراجعة كتاب المؤلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزباني وكتابه الموشح نفيس في التعرف على كثير مما

وُضع على الشعراء الجاهليين . وهناك أشعار جاهلية كثيرة في كتب النقد مثل نقد الشعر لقدامة والصناعتين لأبي هلال العسكري والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني والعمدة لابن رشيقي ، ومثلها مثل الشواهد الماثورة في كتب اللغة والنحو ينبغي التوثق منها بالرجوع إلى المصادر الأصلية الوثيقة . أما ما جاء في كتب السير والأخبار والتاريخ كسيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ومغازي الواقدي فينبغي أن نرفضه إلا أن تدعمه روايات صحيحة .

وإذا كنا فقدنا كثيراً من الدواوين المفردة ودواوين القبائل وما كان بها من أخبار وأشعار فإن كثيراً من ذلك احتفظ به أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني الذي ترجم فيه للشعراء من القرن السادس إلى القرن التاسع للميلاد ترجمات غنية ، سجل فيها كثيراً من المادة التي فُقدت ، وكان له ذوق عالم ناقد بصير ، فساق من الكتب التي سبقته أطرف ما فيها من أخبار وأشعار ، ولم يسقها مفردة ، بل ساقها بأسانيدھا التي ترجع بها إلى مصادرھا ورواتها الأوائل مثل الأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي وأبي عمرو والشيباني والهيثم بن عدي وخالد بن كلثوم وابن الكلبي وأضرابهم ، ومن خلفهم من جيلة الرواة والمصنفين ، وإذا تعددت الروايات في الخبر ذكرها جميعاً ، وكثيراً ما يقف ليفحص ما ينقله ، فيرفض رواية لأن راويها ابن الكلبي أو ابن خرداذبة أو غيرهما من المتهمين . وقد يشك في مقطوعة أو قصيدة تنسب لشاعر من الشعراء ، فيرجع إلى ديوانه في رواياته المختلفة ، وينص على أنه وجدها أو لم يجدها . وقد يعرض الخبر على التاريخ ليتوثق منه . وفي تضاعيف ذلك يسوق آراء الرواة والنقاد في الشعراء وشعرهم . والحق أنه أكبر مصدر لتاريخ الشعر الجاهلي وأصحابه ، فإذا أضفنا له الأصمعيات والمفضليات وديوان هذيل وما صح من الدواوين المفردة كنا أمام مادة خصبة للبحث والدراسة في الجاهليين وأشعارهم وأخبارهم .

ومن الكتب المتأخرة التي احتفظت ببعض ما فُقد من الروايات والمصنفات القديمة خزانة الأدب للبغدادی المتوفى سنة ١٠٩٣ للهجرة ، وهو شرح على شواهد الرضي شارح كتاب الكافية لابن الحاجب ، وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة . ومثله في هذا الاتجاه شرح السيوطي على شواهد المغني لابن هشام .

الفصل السادس

خصائص الشعر الجاهلي

١

نشأة الشعر الجاهلي وتفاوته في القبائل

لا ريب في أن المراحل التي قطعها الشعر العربي حتى استوى في صورته الجاهلية غامضة ، فليس بين أيدينا أشعار تصور أطواره الأولى ، إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لخصائصه بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغات المحكمة ، وهي تقاليد تلقى ستاراً صفيقاً بيننا وبين طفولة هذا الشعر ونشأته الأولى فلا نكاد نعرف من ذلك شيئاً . وحاول ابن سلام أن يرفع جانباً من هذا الستار فعقد فصلاً (١) تحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين ، وتأثر به ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء ، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل ، وهم عندهما جميعاً أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء في صياغة القصيدة العربية ، وكأن الأوائل الذين أنشأوا هذه القصيدة في الزمن الأقدم ونهجوا لها سُننها طواهم الزمان . وفي ديوان امرئ القيس (٢) .

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لَأَنَّنَا نَبْكِي الدِّيارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خِدامٍ
ولا نعرف من أمر ابن خدام هذا شيئاً سوى تلك الإشارة التي قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف في الأطلال .

وتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات ، إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار ، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل ، وكثيراً ما يشبهون الناقة في

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع) ص ١١٤ وعوجاً : اعطفا . المحيل : الذي أتى عليه أحوال . لأننا هنا : لعلنا .

(٢) ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف)

سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية ، ويمضون في تصويرها ، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاء وفخراً أو عتاباً أو اعتذاراً أو رثاء . وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت في أوزانها وقوافيها ، فهي تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات في وزنها وقافيتها وما تنهى به من روى .

وتلقانا هذه الصورة التامة الناضجة للقصيدة الجاهلية منذ أقدم نصوصها ، وحقاً توجد قصائد يضطرب فيها العروض ولكنها قليلة ، من ذلك قصيدة عبّيد بن الأبرص الأسدي (١) :

أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَالْقُطَيْيَاتُ فَالذُّنُوبُ

فهى من مخلّع البسيط ، وقلما يخلو بيت منها من حذف في بعض تفاعيله أو زيادة على نحو ما نرى في الشطر الأول من هذا المطلع ، وعلى غرارها قصيدة تنسب لامرئ القيس مطلعها (٢) :

عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سِجَالٌ كَأَنَّ شَأْنِيهِمَا أَوْشَالٌ

ومثلهما في هذا الاضطراب قصيدة المرقش الأكبر (٣) :

هَلْ بِالْدِيَارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمٌ لَوْ كَانَ رَسْمٌ نَاطِقًا كَلَّمٌ

فهى من وزن السريع ، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

مَا ذَنْبُنَا فِي أَنْ غَزَا مَلِكٌ مِنْ آلِ جَفْنَةَ حَازِمٌ مُرْغَمٌ

فإنه من وزن الكامل . وعلى هذه الشاكلة قصيدة عدى بن زيد العبّادى (٤) :

تَعْرِفُ أَمْسٍ مِنْ لَمِيسَ الطَّلَلِ مِثْلَ الْكِتَابِ الدَّارِسِ الْأَحْوَلِ

مجرى الدمع . أو شال : جمع وشل وهو الماء القليل .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٢٣٧ .

(٤) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٥٣/٢ .

الأحوال : الذى أتى عليه أحوال وسنوات كثيرة .

(١) انظر القصيدة في المعلقة العشر وفي

ديوان عبّيد . وملحوب والقطيات والذنوب :

أسماء مواضع .

(٢) الديوان ص ١٨٩ سجال : جمع سجل

أى صبب بعد صبب . شأنيهما : مثنى شأن وهو

فهى من وزن السريع وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثانى من هذا البيت :

أَنِعْمَ صَبَاحًا عَلَّقَمَ بَنَ عَدِيَّ أَثْوَيْتَ الْيَوْمَ أَمْ تَرْحَلُ

فإنه من وزن المديد . ويمثل هذه القصيدة فى اختلال الوزن قصيدته (١) :

قَدْ حَانَ أَنْ تَصْحُوَ أَوْ تُقْصِرَ وَقَدْ أَتَى لِمَا عَهَدْتَ عُصْرُ

ومن هذا الباب نونية سُلَيْمَى بن ربيعة التى أنشدها أبو تمام فى الحماسة (٢) :

إِنْ شِوَاءَ وَنَشْوَةٍ وَخَبَبَ الْبَازِلِ الْأُمُونِ

فقد لاحظ التبريزى والمرزوق أنها خارجة عن العروض التى وضعها التحليل . واضطراب هذه القصائد فى أوزانها مما يدل على صحتها وأن أيدى الرواة لم تعبث بها . ومعروف أن الزحافات تكثر فى الشعر الجاهلى ، بل فى الشعر العربى بعامة ، ومما كان يشيع بينهم الإقواء ، وهو اختلاف حركة الروى فى القصيدة كقول امرئ القيس فى معلقته يصف جبل أبان :

كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَذَقِيهِ كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بِيَجَادٍ مَزْمَلُ (٣)

فقد ضم اللام فى نهاية البيت ، وهى مكسورة فى المعلقة جميعها . وفى رأينا أن احتفاظ الشعر الجاهلى بهذه العيوب العروضية مما يؤكد صحته فى الجملة وأن الرواة لم يصلحوه إصلاحاً واسعاً ، كما يزعم بعض المحدثين .

ومهما يكن فليس بين أيدينا أشعار تصور مرحلة غير ناضجة من نظام الوزن والثقافة فى الجاهلية ، فإن نفس هؤلاء الشعراء الذين رُويت عنهم تلك القصائد المضطربة فى وزنها رُوِي عنهم قصائد كثيرة مستقيمة فى وزنها وقوافيها ، مما يدل على أن ذلك كان يأتى شذوذاً وفى الندرة . وزعم بعض القدماء والمحدثين أن الرجز أقدم أوزان الشعر العربى ، وأنه تولد من السجع ، مرتبطاً بالخداء ووقع أخفاف الإبل

(١) الفصول والغايات لأبى العلاء ص ١٣١ .

(٢) انظر التبريزى على الحماسة ٨٣/٣ .

والمرزوق رقم ٤٠٨ . والخبب : ضرب من السير .

البازل : الناقة المستنة . الأمون : الموثقة الخلق .

(٣) أفانين : ضروب وأنواع . الودق : المطر .

البيجاد : كساء مخطط . مزمل : متدثر .

في أثناء سيرها وسرّآها في الصحراء ، ومنه تولدت الأوزان الأخرى^(١) ، غير أن هذا مجرد فرض . وكل ما يمكن أن يقال هو أن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعاً في الجاهلية ، إذ كانوا يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب ، ولكن شيوعه لا يعنى قدمه ولا سبقه للأوزان الأخرى ، إنما يعنى أنه كان وزناً شعبياً لا أقل ولا أكثر . وكان الشعراء الممتازون في الجاهلية لا ينظمون منه ، إنما ينظمون في الطويل والبسيط والكامل والوافر والسريع والمديد والمنسرح والخفيف والوافر والمتقارب والهزج ، وإن كان نظمهم في الثلاثة الأولى أكثر وأوسع .

والحق أنه ليس بين أيدينا شيء من وزن أو غير وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلي وحقيقته الأولى ، وكيف تمّ له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التي تلقانا منذ أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى منذ أوائل القرن السادس الميلادي . ولم تكن تختص بهذا الشعر في الجاهلية قبيلة دون غيرها من القبائل الشمالية عدنانية أو قحطانية ، وآية ذلك أننا نجد الشعراء موزعين عليها ، فمنهم من ينسب إلى القبائل القحطانية مثل امرئ القيس الكندي وعدى بن رَعْلَاء الغساني^(٢) والحارث بن وعلّة الجرمي القضاعي^(٣) ومالك بن حريم الهَمْداني^(٤) وعبد يغوث الحارثي النَجْراني^(٥) والشَّنْفري الأزدي^(٦) وعمرو بن معد يكرب المَذْحِجِي^(٧) ، أما من ينسبون إلى مضر وربيعه فأكثر من أن نسميهم ، وعلى شاكلتهم من ينسبون إلى الأوس والخزرج القحطانيين في المدينة . ونحن لا نستطيع أن نحصى من جرى لسانهم بالشعر حينئذ ، فقد كانوا كثيرين ، وكانت تشركهم فيه النساء مثل الحنساء ، وكان ينظمه سادتهم وصعاليكهم . ويخيل إلى الإنسان أن الشعر لم يكن يستعصى على أحد منهم ، وعدّ ابن سلام في طبقاته أربعين من فحولهم وفحول المخضرمين وقد جعلهم في عشر طبقات وجعل في كل طبقة أربعة ، وأضاف إليهم

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ الأدب

العربي لبروكلمان (طبع دار المعارف) ص ٥١ .

(٢) الأصمعيّات (طبع دار المعارف) ص

١٧٠ .

(٣) المفضليات (طبع دار المعارف)

ص ١٦٤ .

(٤) الأصمعيّات ص ٥٦ .

(٥) المفضليات ص ١٥٥ .

(٦) المفضليات ص ١٠٨ .

(٧) الأصمعيّات في مواضع متفرقة .

أربعة من أصحاب المراثى كما أضاف تسعة في مكة وخمسة في المدينة وخمسة في الطائف وثلاثة في البحرين ، وعدة لليهود ثمانية . ومن يرجع إلى هؤلاء الشعراء يجد بينهم البدوي والحضرى كما يجد بين البدو اليمنى والرّبعى والمضرى .

وترجم أبو الفرج في الأغاني لكثيرين منهم ، وتراجمه هو الآخر إنما تقف عند مقدّمهم الذين دوت شهرتهم ، ووراءهم كثيرون لم يترجم لهم ، يعدون بالمئات على نحو ما يصور لنا ذلك المؤلف والمختلف للآمدى ومعجم الشعراء للمرزبانى . ومن غير شك سقط من ذاكرة الرواة أسماء كثيرون لم يسجلوهم ، ويشهد لذلك قول ابن قتيبة : « والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم واقف ، ولو أنفذ عمره في التنقيح عنهم واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال ، ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » (١) . ومن يقرأ في كتاب المؤلف والمختلف للآمدى يجده يقول كثيراً إن شاعراً بعينه لم يجد له شعراً ولا ذكراً في ديوان قبيلته (٢) . فدواوين القبائل لم تستقص هؤلاء الشعراء استقصاء دقيقاً .

والذى لا ريب فيه أن حظ القبائل المضرية من هذا الشعر الجاهلى كان أوفر من حظ القبائل الرّبعية والقحطانية ، وأقرأ في الأغاني والمفضليات والأصمعيات فستجد لمضر الكثرة الكثيرة من الشعر والشعراء ، وهى كثرة يؤيدها تاريخها في الإسلام ، فقد تفوقت القبائل التى نزلت في العراق على قبائل الشام والأخرى التى نزلت في مصر وبلاد المغرب والأندلس ، لأنها كانت في جمهورها مضرية بينما كانت تلك في معظمها قحطانية .

وكان حظ القبائل المضرية من الشعر متفاوتاً ، وكذلك كانت القبائل الرّبعية والقحطانية ، فقبائل كل مجموعة ليست سواء فيه ، ومثلها المدن فمكة كانت قليلة الشعر (٣) ، وأقل منها نصيباً فيه اليمامة (٤) . ووقف الجاحظ في حيوانه عند جانب

١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩٣ .

(٣) ابن سلام ص ٢١٧ .

(٤) ابن سلام ص ٢٣٤ .

(١) انظر مقدمة لكتابه الشعر والشعراء .

(طبع دار المعارف) ص ٤ .

(٢) راجع المؤلف والمختلف ص ٢٣ ،

٣٨ ، ٦٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٧١ ،

من حظوظ القبائل وتفاوتها في ذلك فقال : « وبنو حنيفة "سكان اليمامة" مع كثرة عددهم وشدة بأسهم وكثرة وقائعهم وحسد العرب لهم على دارهم ، وتُخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكثرة أكلها ، ومع ذلك لم نر قبيلة قط أقل شعراً منهم . وفي إخوانهم عجل قصيد ورجز وشعراء ورجّازون . وليس ذلك لمكان الخصب وأنهم أهل مدر وأكالو تمر ، لأن الأوس والخزرج كذلك ، وهم في الشعر كما قد علمت . وكذلك عبد القيس النازلة قرى البحرين ، فقد نعرف أن طعامهم أطيب من طعام أهل اليمامة . وثقيف "سكان الطائف" أهل دارناهلك بها نخباً وطيباً ، وهم وإن كان شعرهم أقل فإن ذلك القليل يدل على طبع في الشعر عجيب . وليس ذلك من قبل رداءة الغذاء ، ولا من قلة الخصب الشاغل والغنى عن الناس ، وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز . . وبنو الحارث ابن كعب (سكان نجران) قبيل شريف يحجرون مجارى ملوك اليمن ومجارى سادات الأعراب أهل نجد ، ولم يكن لهم في الجاهلية كبير حظ في الشعر ، ولهم في الإسلام شعراء مفلقون . . وقد يحظى بالشعر ناس ويخرج آخرون ، وإن كانوا مثلهم أو فوقهم . . وقد كان في ولد زُرارة (جد بطن من تميم) لصلبته شعر كثير كشعر لقيط وحاجب وغيرهما من ولده . ولم يكن لحذيفة ولا حصن ولا عسيمة بن حصن ولا لحمّل بن بدر شعر مذكور » ^(١).

ومن المحقق أنه فقد كثير من الشعر الجاهلي ، إذ عدت عليه عوادي الرواية وتلك الرحلة الطويلة التي قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين ، ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ لجاءكم علم وشعر كثير » ^(٢) . ونحن لا نبالغ مبالغة أبي عمرو ، فقد بقي منه كثير ألّفت فيه مجلدات ضخام ، إذ حافظت القبائل بكل ما استطاعت على قصائده الطوال ومقطعاته القصار وكثير من أبياته المفردة ، وما زالت تحافظ عليه ، حتى أسلمته إلى أيدي رواة أمراء سجلوه ودونوه .

(١) الحيوان ٣٨٠/٤ وما بعدها .

(٢) ابن سلام ص ٢٣ .

الشعر الجاهلي شعر غنائي

من المعروف أنه يوجد عند الغربيين منذ اليونان أنواع مختلفة من الشعر ، يردها نقادهم إلى أربعة أضرب ، شعر قصصى وتعليمى وغنائى وتمثيلى ، ويمتاز الضرب الأول بأن قصائده طويلة ، فالقصيدة منه تمتد إلى آلاف الأبيات ، وتتوالى فيها حلقات من الأحداث تنعقد حول بطل كبير ، وقد يوجد بجانبه أبطال ، ولكن أدوارهم ثانوية . وهى فى حقيقتها قصة إلا أنها كتبت شعراً ، فالتسلسل القصصى فيها دقيق والانتقال بين أجزائها منطقى محكم ، وهى قصة تفسح للخيال مجالا واسعا ، ولذلك كانت تكثر فيها الأساطير والأمور الخارقة ، وكانت الآلهة تظهر فيها عند اليونان بدون انقطاع . وخير ما يمثلها عندهم الإلياذة لهوميروس وقد نقلها إلى العربية منذ فاتحة هذا القرن سليمان البستاني ، ولكثير من الأمم القديمة والحديثة قصائد قصصية تشبهها ، فللرومان الإنيادة لفرجيل ، وللهنود الرامايانا والمهابهاراتا وللفرس الشهنامة للفردوسى وللألمان أنشودة الظلام وللفرنسيين أنشودة رولان .

والشاعر فى هذا الضرب القصصى لا يتحدث عن عواطفه وأهوائه ، فهو شاعر موضوعى ينكر نفسه ، ويتحدث فى قصته عن بطل معتمداً على خياله ، ومستمداً فى أثناء ذلك من تاريخ قومه ، وكل ما له أنه يخلق القصة ويرتب لها الأشخاص والأشياء ، ويجمع لها المعلومات ، ويكون من ذلك قصيدته ، وعادة ينظمها من وزن واحد لا يخرج عنه . ولم تعزف الجاهلية بهذا الضرب من الشعر القصصى ، وهى كذلك لم تعرف الضرب الثانى من الشعر التعليمى الذى ينظم فيه الشاعر طائفة من المعارف على نحو ما نعرف عند هزيرود الشاعر اليونانى وقصيدته « الأعمال والأيام » التى يصور فيها فصول السنة والحياة الريفية ، وعند هوراس الشاعر الرومانى فى قصيدته « فن الشعر » التى نظمها فى قواعد الشعر ونقده ، وكما هو معروف عن أبان بن عبد الحميد شاعر البرامكة فى قصيدته التى نظم فيها أحكام الصوم والزكاة . وكذلك لم يعرف الجاهليون الشعر التمثيلى الذى يعتمد على مسرح وعلى حركة وعمل معقد وحوار طويل بين الأشخاص ، تتخلله مشاهد ومناظر مختلفة .

فهذه الضروب الثلاثة من الشعر لم يعرفها الجاهليون ، فشعرهم منظومات قصيرة قلما تجاوزت مائة بيت ، وهو شعر ذاتي يمثل صاحبه وأهواءه ، على حين الضروب السابقة جميعاً موضوعية ، فالشاعر فيها لا يتحدث عن مشاعره وأحاسيسه إنما يتحدث عن أشياء خارجة عنه ، سواء حين يقص أو حين يعلم أو حين يمثل ، فهو في كل ذلك يُغفل نفسه ولا يقف عندها ، إنما يقف عند جانب قصصى تاريخي يحكيه أو علمي تهذيبي يرويّه أو تمثيلي مسرحي يؤدّيه ، متجرداً عن شخصه وما يتصل بذاته وأهوائه وعواطفه .

ولكن إذا كان الشعر الجاهلي يختلف عن ضروب الشعر الغربية القصصية والتعليمية والتمثيلية ، فإنه يقترب من الضرب الرابع الغنائي ، لأنه يجول مثله في مشاعر الشاعر وعواطفه ، ويصوره فرحاً أو حزيناً ، وقد وُجد من قديم عند اليونان ، إذ عرفوا المَدح والمُعْجاء والغزل ووصف الطبيعة والرثاء ، وكان يُصْحَبُ عندهم بآلة موسيقية يُعْزَفُ عليها تسمى (لير Lyre) ومن ثَمَّ سمّوه (Lyric) أى غنائى .

وإذن فنحن لا نبعد حين نزعّم أن الشعر الجاهلي جميعه غنائى ، إذ يماثل الشعر الغنائى الغربى من حيث إنه ذاتي يصور نفسية الفرد وما يختلجه من عواطف وأحاسيس ، سواء حين يتحمس الشاعر ويفخر أو حين يمدح ويهجو أو حين يتغزل أو يرثى أو حين يعتذرويعاتب ، أو حين يصف أى شىء مما ينبثُّ حوله في جزيرته . وليس هذا فحسب ، فهو يماثل الأصول اليونانية للشعر الغنائى الغربى من حيث إنه كان يغنىّ خُناءً ، ويظهر أن الشعراء أنفسهم كانوا يغنون فيه ، فهم يروون أن المهلهل غنىّ في قصيدته :

طفلةٌ ما ابنةُ المحللِ بيضا ءلعوبٌ لذيذةٌ في العناق^(١)

ومعنى ذلك أن الشعر الجاهلي ارتبط بالغناء عند أقدم شعرائه . ومن حين إلى حين نجد أبا الفرج الأصبهاني يشير إلى أن شاعراً جاهلياً تغنىّ ببعض شعره من مثل السُّلَيْك بن السُّلَمَكَة^(٢) وعلقمة بن عبدة الفحل والأعشى ، وكان يوقّع

(١) انظر الأغاني (طبعة دار الكتب)

رخصة ناعمة .

٥١/٥ وما في البيت زائدة ، وطفلة :

(٢) أغاني (طبعة الساسى) ١٣٤/١٨ .

شعره على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصنج ، ولعله من أجل ذلك سمي صنّاجة العرب ^(١) . ويقول أبو النجم في وصف قينة ^(٢) :

تَغْنَى فَإِنْ الْيَوْمَ يَوْمٌ مِنَ الصَّبَا ببعض الذي غَنَّى امرؤ القيس أو عمرو
وهو يقصد بعمره ، عمرو بن قسيثة . ويقول حسان بن ثابت ^(٣) :

تَغَنَّ بِالشَّعْرِ إِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ إِنْ الْغَنَاءَ لَهَذَا الشَّعْرِ مَضْمَارُ

فالغناء كان أساس تعلم الشعر عندهم ، ولعلهم من أجل ذلك عبروا عن إلقائه بالإنشاد ، ومنه الحُداء الذي كانوا يحدون به في أسفارهم وراء إبلهم ، وكان غناء شعبياً عاماً .

ويقرن هذا الغناء عندهم بذكر أدوات موسيقية مختلفة كالزهر والدف و كانا من جلد وكالصنج ولعله هو نفسه الآلة الفارسية المعروفة باسم الجنك ، وكالبربط وهو آلة موسيقية وترية شاعت في بلاد الإغريق ، ويقص علينا علقمة بن عبدة أنه وفد على بلاط الغساسنة فاستمع عندهم إلى قيان بيزنطيات يضربن على البرابط ^(٤) وكانوا كذلك في الحيرة يستمعون إلى القيان وهن يضربن على الآلات الموسيقية الفارسية . وأدخلوا كثيراً من هؤلاء القيان إلى جزيرتهم من مثل خليدة وهريرة في اليمامة ^(٥) والأخيرة هي صاحبة الأعشى التي ذكرها في معلقته ، ويروى الرواة أنه كان بمكة قيتان لعبد الله بن جندعان جليهما من بلاد الفرس وكانتا تغنيان الناس ^(٦) وفي أخبار غزوة بدر أنه لما نصح أبو سفيان قريشاً أن تعود قبل أن يوقع الرسول عليه السلام بها قال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ فنقيم عليه ثلاثاً ونسحر الجزر ونطعم الطعام ونُسقيّ الحُمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب ^(٧) . وفي السيرة النبوية أن الرسول أمر يوم فتح مكة بقتل رجل يسمى ابن خطل كان مسلماً ثم ارتد وهرب إلى مكة ، وكان له قيتان تغنيان بهجاء الرسول ، فأمر بقتلهما ، فقُتلت

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠٩/٩٠ (٤) أغاني (سأسي) ١٤/١٦ .
وانظر ترجمته في الشعر وللشعراء ٢١٤/١ . (٥) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١٣/٩ .
(٢) الشعر والشعراء ٦٠/١ . (٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٢٧/٨ .
(٣) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢ . (٧) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٨٢/٤ .

إحداهما ، وفرت الأخرى^(١) . ومر بنا أن أهل يثرب حين وفد عليهما النابغة أمروا
إحدى القيان أن تغني بشعر له فيه إقواء ، حتى يقف على ما فيه من عيب^(٢) .
ويكثر ذكر هؤلاء القيان في شعر الشعراء كما يكثر ذكر ما كن يضر بن عليه من
آلات الطرب ، كقول علقمة في ميمته^(٣) :

قد أشهد الشرب فيهم مِزْهَرَرِيمُ والقوم تصرعهم صهباء خرطومُ
ويقول الأعشى في معلقته :

ومستجيب تخال الصنج يسمعه إذا تُرَجَّع فيه القينة الفضل^(٤)

ولطرفة في معلقته وصف طويل لإحدى هؤلاء القيان . ولعل في ذلك كله ما
يدل على أن الغناء في الجاهلية تأثر بعناصر أجنبية كثيرة .

وكان نساؤهم يؤلفن ما يشبه الجوقات ويتغنين في حفلاتهم لاعبات على
المزاهر^(٥) ، وفي الطبري أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع ذات يوم عزفاً
بالدفوف والمزامير ، فسأل عنه ، فعرف أنه عُرس^(٦) ، وأكبر الظن أنهن كن
يقرن هذا العزف بأناشيد كأناشيد الزفاف المعروفة عند اليونان والرومان . وكن
يؤلفن في الحروب جوقة كبيرة تحمّس وتثير ، ففي الطبري والأغاني أن هنداً بنت
عتبة ونسوة من قريش كن يضر بن على الدفوف في غزوة أحد وكانت هند تغني
في تضاعيف هذا العزف بمقطوعات على شاكلة قولها^(٧) :

إن تُقبلوا نعانق ونفرش النمارق^(٨)
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق^(٩)

- | | |
|---|---|
| (١) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة
الخطي) ٥٣/٤ . | اللابسة ثوباً واحداً . |
| (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠/١١ . | (٥) العمدة ٣٧/١ . |
| (٣) المفضليات ص ٤٠٢ والشرب : جمع
شارب ، رنم : مترنم ، والصهباء : الخمر ،
والخرطوم أول ما ينزل منها صافياً . | (٦) الطبري (طبعة أوربا) ١١٢٦/١ . |
| (٤) المستجيب : العود ، واستماع الصنج
له كناية عن اتساق أنغامهما . الفضل : | (٧) أغاني (طبعة الساسي) ١٦/١٤ وتاريخ
الطبري ١٤٠٠/١ . |
| | (٨) النمارق : جمع نمرقة وهي الطنفسة
والوسادة الصغيرة . |
| | (٩) وامق : محب . |

وبجانب هذا الغناء العام كان عندهم غناء ديني يرتلونه في أعيادهم الدينية ، على نحو ما مر بنا من تلبياتهم ، فكانوا يرددون مثل « أشرق كَبِيرٌ كَيْما نُغِيرُ » . وكانوا في أثناء تقديم ذبائحهم وصبّ دماؤها على الأنصاب المقدسة عندهم يتغنون غناء لعله هو أصل غناء النَّصَب الذي شاع بينهم في الجاهلية . وربما كان في اسم الداجنة والمدجنة ، وهي القينة تغني في الدَّجْن وحين ظهور الغيم في صفحة السماء^(١) ما يدل على أنهم كانوا إذا عزّهم المطر وغلبهم الجَدْب توجّهوا بالغناء إلى آلهة الغيث والخصب .

ومعنى كل ما قدمنا أن الشعر في الجاهلية كان يُصْحَبُ بالغناء والموسيقى ، فهو شعر غنائي تام ، ويظهر أن الغناء لم يكن ساذجاً حينذاك ، فقد عرفوا منه ضروباً مختلفة ، يقول إسحق الموصلي : « غناء العرب قديماً على ثلاثة أوجه : النَّصَب والسِّناد والهزج ، فأما النَّصَبُ فغناء الركبان والقينات وهو الذي يستعمل في المراثي ، وكله يخرج من أصل الطويل في العروض ، وأما السِّناد فالثقل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات ، وأما الهزجُ فالخفيف الذي يُرْقَصُ عليه ويُمَشَّى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحليم . هذا كان غناء العرب قديماً ، حتى جاء الله بالإسلام وفُتحت العراق وجلب الغناء الرقيق من فارس والروم وتغنوا الغناء المحزناً المؤلف بالفارسية والرومية وغنّوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير »^(٢) .

ولعل في اقتران النَّصَب بالمراثي ما يدل على ما قلناه من أنه كان غناء دينياً ، فهم يتغنون به في الموت ، أما السِّناد فلعله الغناء الذي كان يقترن ببعض الآلات الموسيقية ، وأما الهزج فغناء خفيف كان يقترن بالرقص والدف والمزامير ، وهو غناء حفلاتهم ، ولعلمهم كانوا يؤثرون فيه الوزن الذي يساعد على الحركة المعروف باسمه بين أوزان الشعر وهو وزن الهزج ، كما كانوا يستخدمون فيه الرَّمْل والرجز ليطابق الشعر ما يريدون من رقص وسرعة في الحركة .

وعلى هذا النحو نظم شعراء الجاهلية شعرهم في جو غنائي مشبه لنفس الجوّ الذي نظم فيه اليونان شعرهم الغنائي فقد كان الشاعر يغني شعره ، وقد يوقّع هذا الغناء على

(٢) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢٤١/٢ .

(١) انظر مادة دجن في لسان العرب وغيره من معاجم اللغة . وراجع المفضليات ص ١٣٠ .

بعض الآلات الموسيقية . وقد يقوم له بالغناء في شعره قيان وجوقات مختلفة ترقص وتعزف في أثنائه . ويظهر أن الشعر أخذ في أواخر هذا العصر يستقل عن الغناء والموسيقى ، فكان بعض الشعراء لا يغنيه ، وإنما ينشده إنشاداً ، والإنشاد مرتبة وسطى بين الغناء والقراءة .

ونحن إذا رجعنا إلى هذا الشعر وجدنا بقايا الغناء والموسيقى ظاهرة فيه ظهوراً بيناً، ولعل القافية هي أهم هذه البقايا التي احتفظ بها ، فهي بقية العزف فيه ورمز ما كان يصحبه من قرع الطبول ونقر الدفوف . ومثلها التصريح في مطالع القصائد وما كان يعتمد إليه الشعراء أحياناً من تقطيع صوتي لأبياتهم كقول امرئ القيس في معلقته يصف الفرس :

مِكْرٌ ، مِفَرٌ ، مُقْبِلٌ ، مُذْبِرٌ ، مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِيٍّ

ويكثر هذا التقطيع في أشعارهم ، ومن يرجع إلى معلقة لبيد التي يستهلها بقوله :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا بِمِئْنَى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرَجَامُهَا

يجده على شاكلة هذا المطلع يلائم كثيراً بين الكلمتين الأخيرتين ، وكأن البيت قافيتين : داخلية ، وخارجية ، وكأنه يريد أن يهيئ لنفسه أو لمن يتغنى بقصيدته أن يرتفع بصوته في كلمتين متتاليتين . ولا نشك في أن صور الأوزان المتنوعة التي يمتاز بها الشعر الجاهلي إنما حدثت بتأثير هذا الغناء ، وقد نفذوا منه إلى ضروب من التجزئة في بعض الأوزان ، كمجزوء الكامل والمديد ، بل نفذوا إلى أوزان خفيفة كثيرة كالمقارب والرمل والهزج . وبدون ريب إنما كثرت التجزئة والتعديل في الرجز لأنه كان وزناً شعبياً وكان كثير الدوران في حداثهم وفي كل ما يتصل بهم من حركة وعمل كحفر الآبار والمتنح منها ومبارزة الأقران واستصراخ العشائر ، فكثرت فيه الحذف وكثرت التحريف والتعديل كثرة مفرطة ، حتى زعم الخليل أنه ليس من أوزان الشعر ^(١) ، وهو شعر غير أن التغنى به تغنياً كثيراً حُدِّدَ غير حداثه أحدث فيه تغيرات شتى .

(١) انظر باب الرجز في العمدة لابن رشيق .

الموضوعات

لعل أقدم من حاولوا تقسيم الشعر العربي جاهلياً وغير جاهلي إلى موضوعات أُلّف فيها ديواناً هو أبو تمام المتوفى حوالى سنة ٢٣٢ للهجرة ، فقد نظمته فى عشرة موضوعات ، هى الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والنسيب ، والهجاء ، والأضياف ومعهم المديح ، والصفات ، والسير ، والنعاس ، والملح ، ومذمة النساء . وهى موضوعات يتداخل بعضها فى بعض فالحديث عن الأضياف إما أن يدخل فى المديح أو فى الحماسة والفخر ، والسير والنعاس يدخلان فى الصفات ، كما تدخل مذمة النساء فى الهجاء ، أما الملح فغير واضحة الدلالة . وجاء فى باب الأدب بما يدل على أنه يقصد به المعنى التهذيبي ، غير أنه أنشد فيه أبياتاً فى وصف الخمر ، وأغفل إغفالا تاماً باب العتاب والاعتذار .

ووزّع قدامة فى كتابه نقد الشعر هذا الفن على ستة موضوعات ، هى المديح والهجاء والنسيب والمراثى والوصف والتشبيه وحاول بعقله المنطقى أن يرد الشعر إلى باين أو موضوعين هما المدح والهجاء : فالنسيب مديح وكذلك المراثى ، ومضى يعين المعانى التى يدور حولها المديح ، وهى فى رأيه الفضائل النفسية . ونجد نفس المحاولة فى تصنيف موضوعات الشعر واضحة فى كتاب نقد النثر ، فهو مديح وهجاء وحكمة ولهو ، ويدخل فى المديح المراثى والافتخار والشكر واللفظ فى المسألة ويدخل فى الهجاء الذم والعتاب والاستبطاء والتأنيب ، كما يدخل فى الحكمة الأمثال والزهد والمواعظ ، أما اللهو فيدخل فيه الغزل والطرد وصناعة الخمر والمجون .

وجعل ابن رشيق موضوعات الشعر فى كتابه العمدة تسعة ، وهى النسيب ، والمديح ، والافتخار ، والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب ، والوعيد والإنذار ، والهجاء ، والاعتذار . ومن السهل أن يُردّ موضوع الاقتضاء والاستنجاز إلى المديح ، والوعيد والإنذار إلى الهجاء ، وأن يضم العتاب إلى الاعتذار ، وأيضاً فإنه نسي موضوع الوصف . ويقول أبو هلال العسكري : « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيه والمراثى ، حتى زاد النابغة فيها قسمًا

سادساً وهو الاعتذار فأحسن فيه (١) « وهو تقسيم جيد غير أنه نسي باب الحماسة ، وهو أكثر موضوعات الشعر دوراناً على لسانهم .

ولا نستطيع أن نرتب هذه الموضوعات في الشعر الجاهلي ترتيباً تاريخياً ، ولا أن نعرف كيف نشأت وتطورت ، فإن الأصول الأولى لهذا الشعر انطمرت كما قدمنا في ثنايا الزمن ، وإن كنا نستطيع أن نظن ظناً أنها تطورت من أناشيد دينية كانوا يتجهون بها إلى آلهتهم ؛ يستعينون بها على حياتهم فتارة يطلبون منها القضاء على خصومهم ، وتارة يطلبون منها نصرتهم ونصرة أبطالهم ، ومن ثم نشأ هجاء أعدائهم ومدح فرسانهم وساداتهم ، كما نشأ شعر الرثاء وهو في أصله تعويذات للميت حتى يطمئن في قبره ، وفي أثناء ذلك كانوا يمجّدون قوى الطبيعة المقدسة التي تكمن فيها آلهتهم والتي تبعث فيهم الخوف ، ومعنى هذا كله أن موضوعات الشعر الجاهلي تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة (٢) .

ويظهر أنه كانت لا تزال في نفوسهم بقية من هذه الصلة القديمة بين الشعر ودعاء الآلهة ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما جاء في القرآن الكريم من كثرة الربط بين الشعر والسحر وتعويذ الكهنة فقد كانوا يرمون الرسول في بدء دعوته تارة بأنه شاعر وتارة ثانية بأنه كاهن وتارة ثالثة بأنه ساحر (وقالوا إن هذا إلا سحر مبين) ورد عليهم القرآن دعواهم الكاذبة مراراً في مثل : (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) ومثل : (إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين) . ويقول جلّ وعز في سورة الشعراء : (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون) وبعد ذلك : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون ، والشعراء يتبعهم الغاؤون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

وواضح أن القرآن الكريم يحكى على ألسنتهم ما كانوا يؤمنون به من العلاقة بين

(١) ديوان المعاني ٩١/١ . (طبع دار المعارف) ٤٤/١ وما بعدها .

(٢) انظر تاريخ الأدب العرب لبروكلمان

الشعر والكهانة والسحر ، وكانوا يزعمون أن الشياطين تنزلُ على الشعراء كما تنزل على الكهان . وزعموا أن الأعشى كان له شيطان ينفث في وعيه الشعر يسمى مِسْحَلًا وأن شاعراً كان يهاجيه يسمى عمرو بن قسطن ، كانت له تابعة من الجن اسمها جُهْنَام^(١) .

وظل بعض الشعراء في الإسلام يزعم أن له تابعاً من الجن ، ويؤكد الأسطورة أبو النجم فيزعم أن لكل شاعر شيطاناً إما أنثى وإما ذكراً ، يقول^(٢) :

إني وكلُّ شاعرٍ من البشرِ شيطانه أنثى وشيطاني ذكرٌ
وفي أخبارهم أن الشاعر كان إذا أراد الهجاء لبس حُلَّةً خاصة ، ولعلها كحلل الكهان ، وحلق رأسه وترك له ذؤابتين ودهن أحد شقي رأسه وانتعل نعلاً واحدة^(٣) ونحن نعرف أن حلق الرأس كان من سننهم في الحج ، وكأن شاعر الهجاء كان يتخذ نفس الشعائر التي يصنعها في حجه وأثناء دعائه لربه أو لأربابه ، حتى تصيب لعناتُ هجائه خصومه بكل ما يمكن من ألوان الأذى وضروب النحس المستمر .

فالهجاء في الجاهلية كان لا يزال يُقرَن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى من شعائر ، ولعلمهم من أجل ذلك كانوا يتطيرون منه ويتشاءمون ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . ونحن نعرف أن الغزو والنهب كان دائراً بينهم ، غير أن المغيرين إن أغاروا ونهبوا إبلاً بينها إبل لشاعر ، وتعرض لهم يتوعددهم بالهجاء اضطرراً اضطراراً إلى ردها أو على الأقل يردون ماله هو وإبله . يروى الرواة أن الحارث بن وراق الأسدي أغار على عشيرة زهير ، واستاق فيما استاق إبلاً له وغلاماً ، فنظم زهير أبياتاً يتوعدده بالهجاء المقذع ، يقول فيها^(٤) :

ليأتينك مني منطلقٌ قدعٌ باقي كما دنس القبطيةُ الودكُ

(١) انظر المؤلف والمختلف ص ٢٠٣ ومادة

جهم في لسان العرب ، والحيوان ٢٢٦/٦ والقصيدتين رقم ١٥ ، ٣٣ في ديوان الأعشى

(٢) الحيوان ٢٢٩/٦ .

(٣) أمالي المرتضى (طبعة عيسى الحلبي)

١٩١/١ .

(٤) مختار الشعر الجاهلي للسقا ص ٢٥٥

وديوان زهير (طبعة دار الكتب المصرية)

ص ١٨٣ . القدح : القبيح . القبطية : كل

ثوب أبيض . الودك : الدم .

ففرع الحارث ورد عليه ما سلبه منه ^(١) . وواضح أن زهيراً يستخدم في وصف هجائه المنتظر كلمة الدنس ، فهو سيلحق به عن طريق هجائه الرجس والإثم . ويروى أن رجلاً يسمى زُرْعَة بن ثوب من بني عبد الله بن غطفان خدع غلاماً من عشيرة مزرد بن ضرار الشاعر يسمى خالداً كان يرعى إبله لأبويه فاشتراها منه بغير واستاقها ، ورجع الغلام إلى أبويه فأخبرهما بما فعل ، فقال أبوه : هلكك والله وأهلكتنا ، وركب إلى مزرد وقص عليه القصة ، فقال مزرد : أنا ضامن لك أن تُردَّ عليك أعيانها ، وأنشأ قصيدة طويلة يتوعد فيها زرعة ، ويطلب إليه أن يرد الإبل ، ونراه يعودها بهجائه ، فهي إن لم ترد ستكون ناراً تأتي على الأخضر واليابس عند زرعة وقومه وسيصيبها الحرب والأمراض المستعصية ، يقول ^(٢) :

فيا آل ثوبٍ إنما ذودُ خالدٍ كنار اللظى ، لا خير في ذودٍ خالدٍ ^(٣)
 بهن دروءٍ من نحازٍ وغدةٍ لها ذرباتٌ كالثديِّ النواهدِ ^(٤)
 جربنَ فما يهنأَنَّ إلا بخلقةٍ عطينٍ وأبوالِ النساءِ القواعدِ ^(٥)

وقد تحولوا يصبئون أهاجهم ولعناتهم على خصومهم هم وعشائهم ، فلم يسلم منها أحد من أشرافهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيد في السؤدد الكمال حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به ، وفخرت به عشيرته فلا يزال سفيه من شعراء تلك القبائل قد غاظة ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته فهجاه ، ومن طلب عيباً وجده فإن لم يجد عيباً وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه . ولذلك هجى حصن بن حذيفة ، وهجى زُرارة بن عدس وهجى عبد الله بن جندعان وهجى حاجب بن زُرارة . وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم من سؤددهم وطاعة القبيلة لهم لم يذهبوا فيمن تحت أيديهم من قومهم ومن حلفائهم وجيرانهم مذهب كليب بن ربيعة ولا مذهب حذيفة بن بدر ولا مذهب عيينة بن حصن ولا مذهب لقيط بن زُرارة . . فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون ^(٦) » وبمقدار ما

(١) أغاني ٣٠٧/١٠ وما بعدها .

(٢) المفصليات ص ٧٩ .

(٣) الذود : الجماعة القليلة من الإبل .

(٤) دروء : جمع دره وهو التواء .

والنحاز : داء يصيب الإبل بالسعال . الغدة :

الماعون الإبل . الذربات : جمع ذربة وهي

رأس الخراج ، النواهد : النواهض .

(٥) يهنأ : يطلين . الغلقة : شجر

يدبغ به الحرب . عطين يريد أنه لا يدبغ بها إلا

بمد العطن ، القواعد : العجائز .

(٦) الحيوان ٩٣/٢ .

كان في القبيلة من شرف وأشراف كان هجاؤها عندهم ، إذ كانوا لا يزالون يتعرضون لها ولأشرافها بأقبح الهجاء وأقذعه ، يقول الجاحظ أيضاً :

« إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد ، ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء (النسل) والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء ، وكثير السادات في العشائر وكثير الرؤساء في الأرحاء (القبائل الكبيرة) وكان الآخر قليل الذرء والعدد ولم يكن فيهم خير كثير ولا شر كثير حملوا أو دخلوا في غمار العرب وغرقوا في معظم الناس وكانوا من المغمورين ومن المنسيين فسلموا من ضروب الهجاء . . وسلموا من أن يُضْرَبَ بهم المثل في قلة وفذالة ، إذ لم يكن (منهم) شر وكان محلهم من القلوب محل من لا يغيظ الشعراء ولا يحسدكم الأكفاء . . وإذا تقادم الميلاد . . . وكان فيهم خير كثير وشر كثير ومثالب ومناقب لم يسلموا من أن يُهْجَرُوا ويضرب بهم المثل . ولعل أيضاً أن تنفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة وأمثال تسير على السنة العلماء . فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شر أمثل حالاً في العامة ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولا سيما إذا جاء من يصنعهم مما لقيت عنِّي أو باهلة . . فمن القبائل المتقدمة الميلاد التي في شطرها خير كثير وفي الشطر الآخر شرف وضعة مثل قبائل غطفان وقيس عيَّيلان ومثل فزارة ومرة وثعلبة ومثل عبَّس وعبد الله بن غطفان ثم غنى وباهلة واليعسوب والطفافة ، فالشرف والخطر في عبس وذبيان ، والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنى مما لقيت من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهم آلة لمدارج الأقسام ينكبُّ فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش . وربما ذكروا اليعسوب والطفافة وهاربة البقعة (من ذبيان) وأشجع الخنثى ببعض الذكر . . وجلُّ معظم البلاء لم يقع إلا بغنى وباهلة وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولا ومناقب . حتى صار من لا خير فيه ولا شر عنده أحسن حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تميم بن مرَّة وثور وعُكْل وتيمم ومزينة ، ففي عكل وتيمم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور ، وقد سلمت ثور إلا من الشيء اليسير ، مما لا يرويه إلا العلماء ، والتحف الهجاء على عكل وتيمم . وقد شعَّثوا بين مزينة شيئاً . . وقد نالوا من ضربة مع ما في ضربة من الحصال الشريفة . . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء . كما بكى مخارق بن شهاب وكما بكى

عالمقة بن عُلَّاة وكما بكى عبد الله بن جندعان من بيت لحداش بن زهير^(١) .
وفي السيرة النبوية أن الرسول صلى الله عليه وسلم طلب إلى شعراء المدينة أن يعينوه
بأهائجهم في قريش ، ويروى أنه قال لحسان بن ثابت ، وقد أخذ في هجاء
القرشيين : «لشعرك أشد عليهم من وقع النبيل» وفي ذلك ما يصور مدى أثر الهجاء في
نفوس العرب ، فقد كان سلاحاً لا يقل عن أسلحتهم في القتال ، ولذلك قرنه عبد قيس
ابن خفاف البرجمي إلى ما يلقى به أعداءه من سيف ورمح ودرع ، يقول^(٢) :

فَأَصْبَحْتُ أَعْدَدْتُ لِلنَّائِبَا ت عِرْضًا بَرِيثًا وَعَضْبًا صَقِيلًا^(٣)
وَوَقَعَ لِسَانِي كَعَدِ السَّنَانِ وَرُمَحًا طَوِيلَ الْقِنَاةِ عَسُولًا^(٤)
وَسَابِغَةً مِنْ جِيَادِ الدُّرُو عِ تَسْمَعُ لِلسَّيْفِ فِيهَا صَلِيلًا
كَمَاءِ الْغَلْدِيرِ زَفَّتْهُ الدَّبُورُ يَجْرُ الْمَدَجُّ مِنْهَا فُضُولًا^(٥)

فاللسان كان يَسْنُكاً بهجائه في الأعداء نكاً السيوف والرماح . ويخيل إلى الإنسان
منهم يَريش سهام هجائه ويرى بها أعداءه من الأشراف والقبائل ، وكل يحاول أن
يكون سهمه أنفذ السهام وأصهارها . حتى لا تقوم للشريف وقبيلته قائمة . وكانوا
ينتهبون فرصة تلاقيهم في الأسواق وخاصة سوق عكاظ ، فينشدون أهائجهم لتذيع ،
وليأحقوا بخصومهم كل ما يريدون من خزي وعار ، وفي ذلك يقول راشد بن شهاب
اليشكري لقيس بن مسعود الشيباني^(٦) :

وَلَا تُوعِدْنِي إِنِّي إِنْ تُلَاقِنِي مَعِيَ مَشْرِقِي فِي مُضَارِبِهِ قَضَمٌ^(٧)
وَذَمْ يُغَشِّي الْمَرْءَ خِزْيًا وَرَهْطَهُ لَدَى السَّرْحَةِ الْعَشَاءِ فِي ظِلِّهَا الْأَدَمُ^(٨)
وهو يشير إلى سرحة أو شجرة عظيمة كانت بعكاظ ، حيث تقام السوق

(١) الحيوان ١/٣٥٧ - ٣٦٣ .

(٢) المفضليات ص ٣٨٦ .

(٣) العصب : السيف القاطع ، والصقيل :

المصقول الحاد .

(٤) العسول : اللين المصمى .

(٥) زفته : حركته ، الدبور : ريح غربية

تقابل العبا ، المدجج : تام السلاح ، ويجر

منها فضولاً كناية عن أنها سابعة تفضل عن أطرافه .

(٦) المفضليات ص ٣٠٨ .

(٧) المشرق : السيف ، وقضم : فلول

من كثرة الطعن .

(٨) السرحة : الشجرة ، العشاء ، الخفيفة .

الكبيرة هناك ويضرب العرب قباب الأدم ، وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة ومعها شعراؤها وما يحملون في حجورهم من حجارة الهجاء .

ودار هجاؤهم على كل ما يناقض مثلهم التي صورناها في غير هذا الموضع ، وقد قلنا إنه كانت تجمعها كلمة المروءة ، وهي تعني عندهم فضائلهم من الشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر ، وما هي إلا أن يدخل الشاعر في الهجاء فإذا هو يخلص القبيلة وأشرفها من كل هذه الفضائل وما يتصل بها فهي لا تكرم الجار ولا تحميه ، وهي تفرّ في الحروب وتقعّد عن الأخذ بثأرها . ولا يكتفي الشعراء الهجاءون بذلك بل يتعرضون لمخازي القبيلة في حروبها وأيامها التي ولت على أدبارها فيها منهزمة منكسة الأعلام ، وقرأ في المفضليات قصيدة ربيعة بن مقروم رقم ٣٨ فستره يذكر أجداد قبيلته في أيام بزاخة والنسار وطخّفة والكُلاب وذات السلايم ، وقرأ قصائد بشر بن أبي خازم الأسدي في المفضليات أيضاً فستجده يفصل الحديث عن حروب قومه مع بني عامر في يوم النصار ومعهم ومع أحلافهم من تميم في يوم الجفار وما أنزلوا بهم من خسائر في الرجال ، وتعرض لانتصاراتهم على كثير من القبائل مثل جرّم والرباب وجندام وبني سليم وبني كلاب وبني أشجع ومرة بن ذبيان . ولم يكونوا يقفون عند ذلك ، بل كانوا يقدفون في الأعراض ويطعنون في الأنساب ، متعرضين للأمهات على نحو ما نرى عند الجُمَيْح الأسدي في هجاء بني عامر وقد غدروا بأسدي منهم وقتلوه فقال يعيرهم بما غدروا ، مفدياً أمهم سلمى استهزاء بهم لما ألحقوا بها من العار ، ثم عاد فادّعى عليها البغاء (١) :

سائلٌ معداً من الفوارس لا أوْفُوا بجيرانهم ولا غنموا
فدّى لَسَلْمَى ثوباي إذ دنس الـ قومٌ وإذ يدسّمون ما ديسّموا (٢)
أنتم بنو المرأة التي زعم الـ ناسٌ عليها في الغي ما زعموا
واسترسل يصيّمها أبشع الوصم بأبيات ثلاث لا نستطيع التمثل بها لإمعانه في الفحش . وكثيراً ما يتعرضون لشخص فيزعمون أنه دعى في قومه زَئيم . وشاع بينهم هذا الضرب من الوقوع في الأعراض ، مما نجد آثاره فيما بعد عند جرير والفرزدق

(١) المفضليات ص ٤١ . وهو الدنس . يقول ذلك تهكماً واستهزاء بهم وبأمهم .

(٢) ثوباي : أراد نفسه . يدسّمون : من الدسم

في العصر الإسلامي ، وكأنما أصبح همّ الهاجى أن يضرب عدوه الضربة القاضية ، حتى لو كان شريفاً معروفاً بكثرة المناقب كما يلاحظ الجاحظ ، بل لكان مناقبه كانت تؤذيهم ، فكانوا يلطخونه بالعارما وجدوا إلى ذلك سبيلا ، ومن ثمّ لا نعجب حين نجد شاعراً يزعم أن النعمان بن المنذر لم يولد لرشدة ، فهو ليس سليل المناذرة إنما هو سليل صائغ بالحيرة ، يقول فيه عبد قيس بن خفاف البرجمي (١) :

لعن الله ثم ثنى بلعن ابن ذا الصائغ الظلوم الجهولا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو ثم لا يرزأ العدو فتبلا (٢)

وكان النعمان كثير الوقائع في قبائل العرب وخاصة عبد القيس فتعرض له شاعرها يزيد بن الحذاق بهجاء كثير يتوعده وينذره ويخيفه ، يقول في بعضه (٣) :

نعمانُ إنك خائنٌ خدعٌ يُخفي ضميرك غير ما تُبدى

وقصة هجاء المثلثس وطرفة لعمر بن هند مشهورة .

ولم يكن جمهور هجائهم يُفردُ بالقصائد ، بل كانوا يسوقونه غالباً في تضاعيف حماسهم وإشاداتهم بأعجادهم وانتصاراتهم الحربية ، ولا نُبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم ، فقد سَعرتهم الحروب ، وأمدّها شعراؤهم بوقود جزل من التغنى ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت ، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف والرماح مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها . ويرتفع هذا الغناء بل قل هذا الصباح في كل مكان ، بحيث يخيل إلينا أنه لم يكن هناك صوت سواه ، ولعل ذلك ما دفع أبا تمام إلى أن يسمي مجموعته من أشعارهم وأشعار من خلفهم باسم الحماسة ، فهي التي تستنفد أشعارهم وقصيدهم ، وهي ديوانهم الذي يسطّر تاريخهم ومناقبهم ومفاخرهم ، وهل هناك فخر أعلى من فخر الشجاعة والتنكيل بالأعداء . وقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجد هذا الفخر وما يطوى فيه من حماسة يدور على كل لسان ، وستجد الشاعر فيه يتحدث دائماً عما تعتز به قبيلته من الأخذ بأوتارها ومن تضيق الحناق على أعدائها ، وهو يعدد أيامها مشيداً بحسبها ونسبها وصبرها في

شق النواة .

(١) الحيوان ٣٧٩/٤ .

(٢) المفضليات ص ٢٩٦ .

(٣) يرزأ : ينقص ، والفتيل : الهنة في

الملمّات وكرمها في الجذب وحمايتها للجار وإغايتها للملهوف ، وفي أثناء ذلك يصوب سهام الهجاء إلى نحور أعدائهم ، وكأنه يريد أن يقضى عليهم قضاء مبرماً . ونحس في هذه الحماسة أثر الموجدة الشديدة والحقد البالغ على خصومهم ، فهم دائماً يتعرضون لهم يهددونهم ويتوعدونهم انتقاماً مروّعاً ، وكان أشد ما يهيجهم أن يقتل منهم قتيل ، فحينئذ تهيج القبيلة ويهيج شعراؤها هياجاً لا حد له ، فإذا ثارت لنفسها وشفت غلّتها وحقدتها أخذ شعراؤها ينشدون أناشيد النصر من مثل قصيدة دُرَيْد بن الصَّمّة التي يتغنى فيها بأنه ثار من قتلة أخيه عبد الله ، ومع ذلك لا يزال يتوعدهم ، يقول (١) :

ويا راكباً إما عرضت فبلّغن
قتلت بعبد الله خير لدائمه
فليوم سُميتم فزارة فاصبروا
تكرّ عليهم رجّلتى وفوارسى
فإن تدبروا يأخذنكم في ظهوركم
وإن تسهلوا للخيل تسهل عليكم
ومرة قد أخرجنهم فتركنهم
وأشجع قد أدركنهم فتركنهم
وثعلبة الخنثى تركنا شريدهم
فليت قبوراً بالمخاضة أخبرت

أبا غالب أن قد ثأرنا بغالب (٢)
ذؤاب بن أسماء بن زيد بن قارب (٣)
لوقع القنا تنزون نزو الجنادب (٤)
وأكره فيهم صعدتى غير ناكب (٥)
وإن تقبلوا يأخذنكم في الترائب (٦)
بطعن كإيزاغ المخاض الضوارب (٧)
يروغون بالصلعاء روغ الثعالب (٨)
يخافون خطف الطير من كل جانب
تعلّة لاه في البلاد ولاعب
فتخبرعنا الخضر خضر محارب (٩)

(١) الأصمعيّات ص ١١٧ .
(٢) عرضت : أتيت العروض ، يريد مكة والمدينة وما حولهما .
(٣) لدات : جمع لدة وهو الترب والكف .
(٤) النزو : الوثب ، الجنادب : ضرب صغير من الجراد .
(٥) رجّلتى : جمع راجل ضد الفارس الراكب ، وهم المشاة . والصلعاء : القنّاة . غير ناكب : غير عادل عنهم .
(٦) الترائب : عظام الصدر .
(٧) تسهلوا : تنزلوا السهل من الأرض .
المخاض : الحوامل من النوق ، الضوارب : اللواقيح ، وإيزاغها أن كثرى يبولها شبه رشاش الطعنة من الدم يبولها ورشاشه .
(٨) يروغون : يذهبون هنا وهناك . الصلعاء موضع هو مكان معركته مع مرة .
(٩) المخاضة : موضع من ديار ذبيان ، وخضر محارب : قبيلة .

رَدَسْنَاهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى تَمَلَّاتُ عَوَافِي الضَّبَاعِ وَالذُّنَابِ السَّوَاعِبِ (١)
ذَرِينِي أَطُوفُ فِي الْبِلَادِ لَعْنِي أَلَا قِي بِإِثْرِ ثُلَّةٍ مِنْ مُحَارِبِ (٢)

وواضح أنه يتشفي من قتلة أخيه ، فقد ظفر مع جمع من قبيلته بأعدائه من
فزاره ، فأخذتهم سيوفهم من أمام ومن وراء ، ومسهلين في الأرض . ويصور ما
لقيته مرة في الحرب من بلاء شديد وكيف هربت أشجع وكيف نكلوا ببني ثعلبة
وبني محارب ، حتى شبت منهم الضباع . ويتهددهم بأنه سيعيد الكرة عليهم . وفي
كل مكان يدوي مثل هذا النشيد ، ومن روائعهم في هذا الباب معلقة عمرو بن
كلثوم ، وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المعلمة المشهورة من مثل قوله :

مَتَى نَنْقُلُ إِلَى قَوْمٍ رَحَانَا يَكُونُ ثِفَالُهَا شَرْقَى نَجْدِ
نُطَاعِنُ مَا تَرَاحَى النَّاسُ عَنَا بِسُمُرٍ مِنْ قَنَا الْخَطَى لُدُنْ
نَشَقُّ بِهَا رُغُوسَ الْقَوْمِ شَقًّا كَأَنَّ جَمَاجِمَ الْأَبْطَالِ فِيهَا
وَرِثْنَا الْمَجْدَ قَدْ عَلِمْتُ مَعَدُّ وَنَحْنُ إِذَا عِمَادُ الْحَيِّ خَرَّتْ
نَجْدُ رُغُوسِهِمْ فِي غَيْرِ وَتَرِ مَا يَكُونُوا فِي اللَّقَاءِ لَهَا طَحِينَا
وَلُهُوتُهَا قَضَاعَةً أَجْمَعِينَا (٣) وَنَضْرِبُ بِالسِّيُوفِ إِذَا غُشِينَا
ذَوَابِلَ أَوْ بَبِيضٍ يَغْتَلِينَا (٤) وَنُخْلِيهَا الرُّقَابَ فَتَخْتَلِينَا
وَسُوقُ بِالْأَمَاعِزِ يَرْتَمِينَا (٥) نَطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا (٦)
عَلَى الْأَحْفَاضِ نَمْنَعُ مِنْ يَلِينَا (٧) فَمَا يَدْرُونَ مَاذَا يَتَّقُونَا (٨)

(١) ردسناهم : رميناهم ، العوافي :

الجائعة ، وكذلك السواغب .

(٢) الثلة : الجماعة من الناس .

(٣) الثفال : خرقه توضع تحت الرحى

لاستقبال ما يطحن ، اللهوة : القبض من الحب .

(٤) توصف الرماح بالسمر لذبوطها ، وقنا

الخطى : نسبة إلى الخط وهي بلدة كانت على

ساحل البحرين تشتهر بصناعة القنا ، اللدن :

المرنة . البيض : السيوف .

(٥) الأماعز : الأراضي الصلبة ، الوسوق :

جمع سوق وهو الحمل .

(٦) يبين : يتفصح .

(٧) العمداد : جمع عمود ، خرت : سقطت ،

الأحفاض : متاع البيت ، يقصد بذلك رحلة

الحى للحرب .

(٨) الوتر : الثأر ، ونجد : نقطع .

كَأَنَّ سَيُوفَنَا فِينَا وَفِيهِمْ مَخَارِيقُ بِأَيْدِي لَاعِبِينَا^(١)
كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ خُضْبُنُ بَارْجَوَانٍ أَوْ طُلِينَا^(٢)

والمعلقة جميعها صياح شديد على هذا النحو الذي يرفع فيه قبيلته تغلب على كل من حولها في نجد شريقها وغربها ، فكل من حدثته نفسه منهم بقتالها كان مصيره الهلاك والدمار ، ويقول إن حياتهم سلسلة من الحروب ، ويصف أسلحتهم التي يذيقون بها أعداءهم كثوس الموت المرة ، ومد فخره إلى قبائل معد كلها بما يجذون من رؤوس شجعانها ، واعترف لأعدائه بشجاعتهم ، فالسيوف في أيديهم وأيدي أعدائهم كأنها مخاريق بأيدي لاعبين ، وهم يقتلون فيهم ، كما يُقتل من قومه ، فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء . وليس عمرو وحده الذي يصف خصومه بالشجاعة ، فهناك كثيرون اشتهروا بهذا الإنصاف ، وتسمى قصائدهم المنصفة وفي الأصمعيات أمثلة منها طريفة ، من مثل قول المفضل النُكْرِي يصف موقعة بين عشيرته من بني نكرة بن عبد القيس وعشيرة عمرو بن عوف ، يقول^(٣) :

كَأَنَّ هَزِيزَنَا يَوْمَ التَّقِينَا هَزِيزُ أَبَاةٍ فِيهَا حَرِيقُ^(٤)
وَكَمْ مِنْ سَيِّدٍ مِنَّا وَمِنْهُمْ بَدَى الطَّرْفَاءَ مَنْطِقُهُ شَهِيْقُ^(٥)
فَأَشْبَعْنَا السَّبَاعَ وَأَشْبَعُوها فَرَا حَتَّ كُلْهَا تَثِيقُ يَفُوقُ^(٦)
فَأَبْكَيْنَا نِسَاءَهُمْ وَأَبْكُوا نِسَاءً مَا يَسُوعُ لَهْنَ رِيْقُ
يُجَاوِبَنَّ النَّيَّاحَ بِكُلِّ فَجْرٍ فَقَدْ صَحِلَتْ مِنْ النَّوْحِ الْعُلُوقُ^(٧)

وطببعي وهم يصورون هذه الملاحم أن يصفوا أسلحتهم على نحو ما تقدم عند عمرو بن كلثوم ، وهناك كثيرون يطيلون في وصفها ووصف الخيل التي يركبونها في اللقاء . ومن اشتهر بينهم بوصف الأسلحة أوس بن حَجْر في لامية له مشهورة أطال فيها في تصوير سيفه ورمحه ودرعه وقوسه ، ويلقانا هذا الوصف كثيراً في المفضليات

(١) المخاريق : المناديل تلف ويلعب بها ،
(٢) كانت عندهم .
(٣) الأرجوان : صبغ أحمر .
(٤) الهزيز : الصوت ، الأباة : أجمة الغاب .
(٥) ذو الطرفاء : موضع المعركة .
(٦) تثق : تمتلئ ، يفوق : يأخذه البهر .
(٧) صحت : بحت .

والأصمعيات^(١) ، كما يلقانا معه وصفهم للخليل وكانوا يلقبونها بالأسماء ، ومن اشهر في هذا الوصف أبو دؤاد الإيادي وزيد الخليل وعمرو بن معد يكرب وغيرهم من فرسانهم المعدودين ، وتزخر المفضليات والأصمعيات بهذا الوصف عند من سميناهم وغيرهم .

وفي الحق أن هذا اللون من شعرهم ليس شعر قوة وبطولة فحسب ، فقد تغنوا فيه بكريم الشيم وكل ما اتخذوه مثلاً ربيعاً لهم في حياتهم وسلوكهم ، من كرم ووفاء وغير كرم ووفاء ، فعلى نحو ما صوروا فيه بطولة وشجاعة نادرة صوروا كثيراً من الفضائل الحميدة على شاكلة ما نقرأ في ميمية ربيعة بن مقروم إذ يقول^(٢) :

وإن تسألني فإني امبرؤ	أهين اللثيم وأخبر الكريما
وأبني المعالي بالمكرمات	وأرضي الخليل وأروى النديما
ويحمد بذلي له مُعْتَفٍ	إذا ذم من يعتفيه اللثيما ^(٣)
وأجزى القروض وفاءً بها	ببؤسى بئسى ونعمى نعيما ^(٤)
وقوى فإن أنت كذبتني	بقولي فاسئل بقوى عليما
يُهينون في الحق أموالهم	إذا اللزبات انتحين المسيما ^(٥)
طوال الرماح غداة الصباح	ذوو نَجْدَةٍ يمنعون الحرима

وهو يذكر في البيت الثاني أن من شيمه أن يروى نديمه بالخمير ، ويكثر في حماساتهم تملحهم بأنهم يسقون ندماءهم الخمر وأنهم يأخذون حظهم من الغناء وسماع القيان ولعب الميسر^(٦) ، وكأن في ذلك إعلاناً عن كرمهم وبذلهم على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع عن طرفة وفتوته . وربما كان ذلك هو أصل ذكر الخمر ووصفها في الشعر الجاهلي على نحو ما هو معروف عن الأعشى وعدى بن زيد

(١) انظر المفضليات ص ٩٥ وما بعدها

ورقم ٦٤ و ٧٥ والأصمعيات رقم ٦٢ و ٦٥ .

(٢) المفضليات ص ١٨٣ .

(٣) المعتنى : السائل في غير طلب .

(٤) البؤس والبئسى بمعنى ، يقول يجرى

بالسيئة مثلها وكذلك الحسنة .

(٥) اللزبات : الشدائد ، انتحى : قصد ،

المسيم : الكثير الإبل والغنم ، اشتقه من

السائمة .

(٦) المفضليات رقم ١١٣ ، ١٢٠ .

العبادى ، فقد تحولوا بها من هذا الباب إلى وصفها في ذاتها وصفاً طريفاً .
ومن الموضوعات التي تتصل اتصالاً واضحاً بالحماسة الرثاء ، فقد كانوا يرثون
أبطالهم في قصائد حماسية يريدون بها أن يثيروا قبائلهم لتأخذ بثأرهم ^(١) ، فكانوا
يمجدون خلاهم ويصفون مناقبهم التي فقدتها القبيلة فيهم ، حتى تنفر إلى حرب من
قتلوهم . وكان يشرك الرجال في ذلك النساء ، فقد كن ما يزلن ينحجن على القتيل
حتى تثار القبيلة له . ويظهر أنه كان يشيع عندهم ضرب من (التعديد) الذي
نعرفه في مصر ، فما تزال امرأة تنوح ويرد عليها صواحبتها ، وقد حدثنا الرواة أن
الحنساء كانت تخرج إلى عكاظ فتندب أخويها صغراً ومعاوية ، وكانت هند بنت
عتبة أم معاوية تحكيها نائحة أباه ^(٢) . وفي هذا الخبر ما يدل على أن النساء لم
يكن يندبن موتاهن يوماً أو أياماً ، بل كن يطلن ذلك إلى سنين معدودات ، ويقال
لهن كن يخلقن شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود ، وكن يصنعن
ذلك على القبر وفي مجالس القبيلة والمواسم العظام . ولعل في حلق رؤوسهن ما يجمع بينهن
وبين الهجائين كما قدمنا وما يشهد بأن هذا الرثاء إنما هو تطور عن تعويذات كانت
تقال للميت وعلى قبره حتى يطمئن في لحدّه . وبمر الزمن تطور الرثاء عندهم إلى
تصوير حزنهم العميق إزاء ما أصابهم به الزمن في فقيدهم ، فتلك التعويذات أصبحت
وخاصة عند نساءهم بكاء ونواحاً وندباً حاراً . ونجد بجانب هذا الندب ضرباً من
الرثاء يقوم على تأبين الميت والإشادة بخصاله وصفاته ، وما نشك في أن الصورة
القديمة لهذا التأبين هي تلك النقوش التي عثروا عليها في أنحاء مختلفة من الجزيرة ،
وقد تحدثنا عنها فيما أسلفنا ، وكانوا يكتبون فيها أسماءهم وألقابهم وبعض أعمالهم
تمجيداً لذكراهم وتخليداً لها ، وتحولت هذه الصورة الساذجة إلى هذا التأبين الواسع
الذي نجده عند الجاهليين . وقد ذهبوا يضمنون إليه صورة من العزاء والدعوة إلى
الصبر على الشدائد ، فالموت كأس دائرة على الجميع ، ولا مرد لحكم القضاء .

وقام بالقسط الأكبر من ندب الميت وبكائه النساء ، فكن يشقن جيوبهن
عليه ويلطمن وجوههن ويقرعن صدورهن ويعقدن عليه مأتماً من العويل والبكاء ،
ومن خير ما يصور ذلك كتاب « مرثى شاعر العرب » للويس شيخو ، وسابقتهم

(١) المفضليات رقم ١٠٩ .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٢١٠/٤ .

التي لا تنازعُ هي الخنساء ، فقد قُتل أخوها معاوية في بعض المعارك ، فارتفع
نشيجها وبكاؤها عليه ، وقُتل أيضاً أخوها صخر فاتسع الجرح والتاعت لوعة شديدة ،
ومن رائع ما ندبت به صخرًا :

قَدَى بَعِيدَكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ	أُم ذَرَفَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ ^(١)
كَأَنَّ عَيْنِي لَذِكْرَاهُ إِذَا خَطَرْتُ	فَيَنْضُ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِدْرَارُ ^(٢)
فَالْعَيْنُ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحَقُّ لَهَا	وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أُسْتَارُ ^(٣)
تَبْكِي خُنَاسٌ وَمَاتَنَفَكُ مَا عَمَرْتُ	لَهَا عَلَيْهِ رَنِينَ وَهِيَ مِقْتَارُ ^(٤)
بَكَاءَ وَالْهَةِ ضَلَّتْ أَلِفَتَهَا	لَهَا حَنِينَانِ : إِصْغَارُ وَإِكْبَارُ ^(٥)
تَرْعَى إِذَا نَسِيبَتْ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتُ	فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالُ وَإِدْبَارُ
وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهَدَاةُ بِهِ	كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ ^(٦)

ولعل من الطريف أن بعض شعرائهم كان إذا أحسَّ داعي الموت ندب نفسه
ووصف ما يصنعه به أهله بعد الموت من ترجيل شعره ووضعه في مدارج الكفن ،
ثم لحده ودفنه ، وتنسب للممزق العبدى أو ليزيد بن الحذاق قطعة يصور فيها هذا
المصير الذى ينتظره ، يقول فيها ^(٧) :

هَلْ لِلْفَتَى مِنْ بَنَاتِ الدَّهْرِ مِنْ وَاقٍ	أُم هَلْ لَهُ مِنْ حِمَامِ الْمَوْتِ مِنْ رَاقٍ ^(٨)
قَدْ رَجَّلُونِي وَمَا رُجِّلْتُ مِنْ شَعَثٍ	وَأَلْبَسُونِي ثِيَابًا غَيْرَ أَخْلَاقٍ ^(٩)
وَأَرْسَلُوا فَتِيَةً مِنْ خَيْرِهِمْ حَسْبًا	لِيُسْنِدُوا فِي ضَرِيحِ التُّرْبِ أَطْبَاقٍ ^(١٠)

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت
قطراً متتابعاً .

(٢) مدرار : كثير .

(٣) الأستار : الأحجار ، وكنت
بجديد الأرض عن أنه مات حديثاً .

(٤) خناس : الخنساء ، مقتار : ضعيفة .

(٥) الإصغار : خفض الصوت بالحنين ،

والإكبار : رفعه .

(٦) العلم : الجبل .

(٧) المفضليات : ص ٣٠٠ .

(٨) بنات الدهر : أحداثه ، حمام الموت : دنوه .

(٩) الترجيل : تسريح الشعر ، الأخلاق :

الممزقة .

(١٠) الأطباق : المفاصل .

وكانوا يكثر من تأبين من يموتون منهم في ميادين الحرب ، وقد يضمنون هذا التأبين هجاء لاذعاً لخصومهم وفخراً بعشيرتهم ومآثرها وأيامها ، على نحو ما نجد في قصيدة المرقش^(١) :

هل بالديار أن تجيب صمم لو كان رسم ناطقاً كلم
فقد بدأها بالغزل وخرج منه إلى الرثاء ، فمدح بعض ملوك الغساسنة ، ثم فخر بقومه ، وهجا أعداءهم . وقد يجعلون القصيدة خالصة للتأبين ، على نحو ما صنع دُرَيْدُ بن الصَّمَّة في مراثية أخيه عبد الله^(٢) .

أرث جديده الحبل من أم معبد . بعاقبة وأخلفت كل موعده
وقد استهلها على هذه الشاكلة بالغزل ، ثم مضى يرثي أخاه مصوراً مصرعه وولاه به جزعه ومتحدثاً عن خلاله الحميدة من الشجاعة والحدود والمضاء والصبر والحزم .

ولم يؤبنوا أبطالهم من القتلى فحسب ، بل فسحوا في مراثيهم لتأبين أشرافهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخراً بهم واعتزازاً بمناقبهم وأعمالهم ومآثرهم . وقد نجدهم يستنزلون لهم الغيث من السماء حتى تصبح قبورهم رياضاً عطرة . ومن رائع تأبينهم مراثية أوس بن حجر لفَضالة بن كَلْدَةَ الأسدي ، وفيها يقول^(٣) :

أيتها النفس أجمل جَزَعاً	إن الذي تحذرين قد وقعاً
إن الذي جمع السماحة والد	جدة والحزم والقوى جُمعاً
الألمى الذي يظن لك ال	ظن كأن قد رأى وقد سمعاً ^(٤)
المخلف المتلف المرزاً لم	يُمْتَع بضعف ولم يَمُت طَبِيعاً ^(٥)
أودى وهل تنفع الإشاحة من	شيء لمن قد يحاول البدعاً ^(٦)

يحدث الأمور فلا يخطئ وأنه فطن صادق
الظن جيد الفراسة .

(٥) المرزأ : الذي تصيبه الرزايا في ماله
لكرمه ، يمتع : يصاب ، الطبع : اللثيم .
(٦) أودى : مات ، الإشاحة : الجحد في
طلب الشيء ، البدع : الأمور الغريبة .

(١) المفضليات ص ٢٣٧ .
(٢) الأصمعيات ص ١١١ ، أرث :
أخلق . بعاقبة : بآخرة .
(٣) ديوان أوس بن حجر ص ٥٣ والأغاني
٧٤/١١ .
(٤) الألمى : حاد الذكاء ، يريد أنه

وكانوا أحياناً حين يذكرون الموت يتأسون ويتعزون عنه بأنه حوض لا بد من وروده وقد سبقتهم إليه الأجيال الماضية من ملوك وغير ملوك ^(١) :

وعلى هذا النحو ألمّ الشاعر الجاهلي بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء ، وكان رثاؤه غالباً يتعلق بأفراد وقلما تعلق بمجموعة من الفرسان ، ومن هذا القليل قصيدة أصمعية لأبي دؤاد الإيادي يرثي فيها من أودى من شباب قبيلته وكهولهم ، ونراه يقول في مطلع رثائهم ^(٢) :

لَا أَعُدُّ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ فَقَدْ مَنْ قَدْ رُزِقْتُهُ الْإِعْدَامُ

ويستمر يبكي فيهم الرؤوس العظام وخلاهم من التآني والرفق والكرم وطيب الأرومة وشجاعة الأسد وما يخلط فرط حداثتهم من أحلام وعقول راجحة ، ويقول لهم أصبحوا هاماً وصدى ، إذ كانوا يعتقدون أن عظام الميت تتحول هامة تطير وصدى ما يزال يقول اسقوني :

سُلِّطَ الدَّهْرُ وَالْمَتُونُ عَلَيْهِمْ فَلَهُمْ فِي صَدَى الْمَقَابِرِ هَامُ
فَعَلَى إِثْرِهِمْ تَسَاقَطَتْ نَفْسِي حَسِرَاتٍ وَذَكَرَهُمْ لِي سَقَامُ

وبجانب هذا الرثاء كان عندهم مديح واسع يتمدحون فيه بمناقب قبائلهم وساداتها . وكانوا كثيراً ما يمدحون القبيلة التي يجدون فيها كرم الحوار متحدثين عن عزتها وإبائها وشجاعة أبنائها وما فيهم من فتك بأعدائهم وإكرام لضيوفهم ورعاية لحقوق جيرانهم ^(٣) .

وكان بعض السادة تمتد ماثرهم إلى من حولهم من القبائل فكان يتصدى لهم شعراؤها يمدحونهم لمكرماتهم التي أدّوها ، كأن يفتكوا أسيراً ، على نحو ما صنع خالد بن أنمار بابن أخت المثقب العبدى ، فكان جزاؤه منه مدحة جيدة ، يقول فيها ^(٤) « :

ربيع الندى : نسب نداه إلى الربيع كناية عن كثرته وإمراعه ، والندى : الكرم . ويقول إن مجلسه غير لطم فهو لا يتلاطم فيه ، إنما هو مجلس سكون وحلم .

(١) المفضليات ص ٢١٧ .

(٢) الأصمعيات ص ٢١٥ .

(٣) المفضليات ص ٣٠٥ ، ٣٧١ .

(٤) المفضليات ص ٢٩٤ ، مترع : ملآن .

مُتْرَعُ الْجَفْنَةِ رَبِيعِي النَّدَى حَسَنٌ مَجْلُسُهُ غَيْرُ لُطَمٍ

ولا نصل إلى أواخر العصر الجاهلي حتى يتخذ الشعراء المديح وسيلة إلى الكسب ، فهم يتقدمون به على السادة المبرزين وملوك المناذرة والغساسنة يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الجزيلة . وأخذوا في أثناء ذلك يعنون بهذه القصائد عناية بالغة حتى تحقق لهم ما يريدون من التأثير في ممدوحهم . واشتهر بذلك زهير والنابغة وحسان ابن ثابت ، أما زهير فاختص بأشراف قومه ، وأما حسان فاختص بالغساسنة ، ولعلقمة بن عبيدة فيهم مفضلية بديعة نظمها في الحارث الأصغر يتشفع لأخيه وقد وقع في يديه أسيراً ^(١) . أما النابغة فخص النعمان بن المنذر بمدائح ، وتصادف أن وقع بعض قومه أسرى في أيدي الغساسنة ، فأقبل عليهم يمدحهم ويتشفع فيهم ، مما كان سبباً في غضب النعمان بن المنذر عليه ، وسرعان ما أخذ يقدم له اعتذارات هي من أروع ما دبجه الجاهليون

ومعنى ذلك أن الاعتذار نشأ نشوئاً من المديح وفي ظلاله ، وإن كانت تتداخل فيه عاطفة الخوف مع عاطفة الشكر والرجاء . ومما ينحو نحو الاعتذار ما ظهر عندهم من فنون عتاب كان ينشئه بعض الشعراء ملامة لما قد يصيبه من أذى الأقارب على نحو ما نجد عند ذى الإصبع العُدْوانِي ^(٢) والمتلمس ^(٣) . ولكن عتابهم واعتذارهم قليل ، أما المديح فكثير كثيرة مفرطة ، إذ رحل به الشعراء إلى الملوك والأشراف يمتارون به ، ويرجعون إلى أهلهم بـجُرْ الحقائق . ويظهر أن المناذرة خاصة كانوا يتخذونه وسيلة للدعاية لهم في القبائل ، فكثرت الشعراء حولهم وأخذ يروج بهم بلاطهم منذ عمرو بن هند ، فقد قصده كثيرون من أمثال المثقب العبدى ، الذى لجأ إليه يمدحه بعد إيقاعه بقبيلته ، ومن رحل إليه المتلمس والممزق العبدى وطرفة والمسيب بن علس . وكان النعمان بن المنذر ممدحاً للشعراء ومن بديع ما نُظم فيه قول حُجْر بن خَالِد ^(٤) :

سمعتُ بفعل الفاعلين فلم أجِدْ كفعل أبي قابوس حزماً ونائلاً

(١) المفضليات ص ٣٩٠ وما بعدها . (٣) الأصمعيات رقم ٩٢ .

(٢) انظر قصيدته في المفضليات برقى ٣١٠ ، ٢٩ . (٤) الحيوان ٥٨/٣ .

يُسَاقُ الغَمَامُ الغُرُّ من كل بلدةٍ إليك فأضحى حول بيتك نازلاً
فإن أنت تهلك يهلك الباعُ والنَّدَى وتُضحى قلوُصُ الحمد جَرَباءَ حائلاً (١)
فلا ملكٌ ما يبلغنك سَعْيُهُ ولا سوقَةٌ ما يمدحنك باطلاً

وانتهى هذا الفن من فنون شعرهم إلى الأعشى فأصبح حرفة خالصة للمنالة والتكسب ، إذ لم يترك ملكاً ولا سيلاً مشهوراً في أنحاء الجزيرة إلا قصده ومدحه وفخم شأنه معرضاً بالسؤال .

وإذا تركنا المديح إلى الغزل وجدناه موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة ومعروف أن أول صورة تلقانا في قصائدهم هي بكاء الديار القديمة التي رحلوا عنها وتركوا فيها ذكريات شبابهم الأولى ، وهو بكاء يفيض بالحنين الرائع ، ومرتبنا أنهم يردونه إلى شاعر قديم سبق امرأ القيس هو ابن خيَدام ، وربما كان في ذلك ما يدل على أن هذا الجزء من غزلهم يسبق في قدمه الأجزاء الأخرى فيه .

ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ، ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له ، إذ يتعرضون بلحبيها ونحدها وعنقها وصدرها وعينها وفها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها ، كما يتعرضون لثيابها وزينتها وحليها وطيبها وحياتها وعفتها (٢) ، وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها ، وهي مغامرات تحوّل بها بعض الرواة إلى قصص غرامية على نحو ما قصّوا عن حب المرقش الأكبر لأسماء والأصغر لفاطمة بنت المنذر وعن حب المنخل الشكري للمتجردة زوج النعمان ، وله قصيدة رائعة رواها الأصمعي وهي تجرى على هذا النمط (٣) :

ولقد دخلتُ على الفتاة في الخِدرِ في اليوم المَطِيرِ
الكاعبِ الحسناءِ ترُّ فل في الدَّمَقِيسِ وفي الحريرِ
فدفعتهُا فتدافعتْ مَشَى القِطَاةِ إلى الغديرِ

(٢) المفضليات رقم ٢٠ .

(٣) الأصمعيات رقم ١٤ .

(١) الباع : الشرف ، الندى : الكرم .

القلوص : الناقة الشابة . الحائل : التي

حمل عليها فلم تلقح .

وَلَثَمْتُهَا فَتَنَفَّسْتُ كَتَنَفَّسَ الظُّبَى الْبَهِيرُ^(١)
 فَدَنْتُ وَقَالَتْ يَا مُدَّ خَلَّ مَا بِجَسْمِكَ مِنْ حَرُورِ
 مَا شَفَّ جَسْمِي غَيْرَ حُبِّ لِكَ فَاهْدُثِي عَنِّي وَسِيرِي

ووقف الشعراء طويلاً يصورون حبهـم للمرأة وما يذرفون من دموعهم على شاكـلة قول بشر بن أبي خازم^(٢) :

فَظَلَلْتُ مِنْ فَرَطِ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى طَرَفًا فَوَادُّكَ مِثْلَ فَعْلِ الْإِيْهِمْ^(٣)
 وَكَانَتْ ذِكْرَاهَا لَا تَزَالُ تَلِمُ بِهِمْ ، وَمِنْ سَمٍّ أَكْثَرُوا الْحَدِيثَ عَنْ طَيْفِهَا وَمَا
 يَثِيرُهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ تَبَارِيحِ الْحُبِّ^(٤) وَلِهَمْ فِي وَصْفِ هَذِهِ الذِّكْرَى وَمَا تَصْنَعُ بِهِمْ شَعْرَ
 كَثِيرٍ يَصِفُونَ فِيهِ صِبَابَتَهُمْ عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِ الْمَرْقَشِ الْأَصْغَرِ^(٥) :

صَحَا قَلْبُهُ عَنْهَا ، عَلَى أَنْ ذِكْرَةَ إِذَا خَطَرْتُ دَارَتْ بِهِ الْأَرْضُ قَائِمًا
 وَكَانُوا كَثِيرًا مَا يَصِفُونَ ظُعْنَهَا ، وَهِيَ تَرْحَلُ فِي الْجَزِيرَةِ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ،
 وَكَانَتْ الرِّحْلَةُ أَسَاسًا فِي حَيَاتِهِمْ ، فَهَمْ يَرْحَلُونَ وَرَاءَ مَنَابِتِ الْغَيْثِ ، وَيَنْتَقِلُونَ مَعَهَا
 حَيْثُ حَلَّتْ ، وَفِي مَعْلَقَةِ زَهِيرٍ وَصَفَ طَوِيلَ لِهَذِهِ الظُّعْنِ ، وَرَبَّمَا فَاقَهُ فِي هَذَا الْوَصْفِ
 الْمُثَقَّبُ الْعَبْدِيُّ فِي قَصِيدَتِهِ^(٦) :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكَ مَتَّعْنِي وَمَنْعُكَ مَا سَأَلْتُ كَأَنَّ تَبِينِي
 فَإِنِّي لَوْ تَخَالَفَنِي شِسْمَالِي خِلَافُكَ مَا وَصَلْتُ بِهَا يَمِينِي

وقد مضى يصف ظعنـها ويتتبع سيرها وما تصنع هي وصواحبها في قلوب الرجال
 وهن يظهرن بكـلـة ويسدلن أخرى ويرسلن براقعهن على وجوههن وذوائبهن على
 ظهورهن :

(١) البهـير : من البهر وهو ما يعتري الإنسان والحيوان عند السـمى الشديد من النهـج وتتابع الأنفـاس .
 (٢) المفضليات ص ٣٩ ، ١١٣ والأصمعيـات ص ٥٧ ، ٢٤٦ .
 (٣) طرفاً : يطرف هنا وهناك ، الإيـهم :
 (٤) المفضليات ص ٢٤٥ .
 (٥) المفضليات ص ٢٨٨ .
 (٦) المفضليات ص ٢٨٨ .

أَرَيْنَ مُحَاسِنًا وَكَتَنَ أُخْرَى مِنْ الْأَجْيَادِ وَالْبَشَرِ الْمُصُونِ

ويقول إنهن كن يمددن أعناقهن مستشرفات للنظر وصاحبته بينهن تفوقهن حسناً وجمالاً . وكن كطبيعة النساء في كل عصر ينصرفن عن الشيب ومن قلّ ماله ^(١) . ولذلك كثر عتابهم معهن ، وخاصة من حيث ما يأخذنه عليهم من البذل الذي يذهب بأموالهم ، ودائماً نراهم يحتجون عليهن بأن خلود المرء في بذله لا في ثرائه ^(٢) . وقد يصورون في تعلقهم بالمرأة ضرباً من المتاع الحسى ، على نحو ما يصور ذلك طرفه في معلقته وكذلك امرؤ القيس ، ومرد ذلك إلى ضرب شاع عندهم من الفتوة ، فهم يتمسحون بأنهم يغالون من المرأة ما يريدون ، وكانوا وثنيين ولم يكن هناك دين يردعهم . على أن منهم من كان يتسامى في غزله حتى يمكن القول بأن الغزل العذرى له أصول في الجاهلية عند عنزة وأضرابه .

ومن المؤكد أن المرأة الحرة لم تكن ممتنة عندهم ، بل كانت في المكان المصون ، وكان الشاعر يستلهمها شعره ، ولذلك كان يضعها في صدر قصيده ، ونحس عند كثيرين منهم ، وخاصة فرسانهم من مثل عنزة ، أنهم يقدمون مغامراتهم في الكرم وفي الحرب لها لينالوا حبها ، وكان أكثر ما يشجيههم ويبعث الموجدة في قلوبهم أن تؤسر وتسي ، فكان لا يقر لهم قرار إلا أن يعودوا بها مكرمة إلى ديارهم .

ومن موضوعات شعرهم المهمة الوصف ، وقد وصفوا كل شيء وقعت عليه أعينهم في صحرائهم ، وفي العادة يذكرون ذلك بعد غزلهم وتشبيهم إذ يخرج الشعراء إلى وصف رحلاتهم في الصحراء ، فيتحدثون عن قسوتهم للمفاوز البعيدة ، فوق إبلهم ، ويأخذون في وصفها وصفاً مسهباً على نحو ما هو معروف عن طرفه في وصفه لناقته بمعاقته وقد كاد أن لا يترك فيها عضواً ولا جزءاً دون وصف وتصوير ، والمفضليات والأصمعيات تزخر بأحاديثهم عنها ومقدار ما كانوا يرون فيها من جمال وكانوا يشبهونها بالقصور ويشبهون قوائمها بالأعمدة وقد يشبهونها بالسفن والقناطر ويشبهون قوائمها بجذوع الطلح ويديها بالصخر الغليظ أو يبدى السابح ، وصوتها

(١) المفضليات ص ٣٥ ، ١٨٦ ، ٤١٨ . بيت ٤ وما بعده ورقم ٥٩ ورقم ١٠٤ بيت

(٢) المفضليات ص ١١٨ ، ص ١٢٥ . ١٢ ، ١١ .

بصوت القصب وخفافها بالمطارق . وقد يشبهونها بالجلجل ويشبهون صدرها بالطريق .
وكانوا يشبهونها بكثير من الحيوان مثل الظليم والثور وحمار الوحش ،
وحينئذ يستطردون إلى وصف هذه الحيوانات وما يكون من عراقك بينها وبين كلاب
الصيد^(١) ، يقول الجاحظ : « ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن
تكون الكلاب هي التي تقتل بقر الوحش ، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقي
بقرة من صفتها كذا أن تكون الكلاب هي المقتولة . ليس على أن ذلك حكاية عن
قصة بعينها ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلها . وأما في أكثر ذلك فإنها
تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم »^(٢) . وكأنهم كانوا
يتخذون قتل الكلاب في المديح رمزاً لأعداء الممدوح ، وكانوا فعلاً يشبهونهم
بالكلاب^(٣) .

وعلى نحو ما أكثروا من وصف الإبل أكثروا من وصف الماعز كما أكثروا من
وصف الخيل وشبهوها بضروب من السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار .
ولامرئ القيس قطعة بديعة بمعلقته يصف فيها فرسه الذي اتخذه للصيد ، وفيها
يقول :

له أَيْطَلَا ظَبْيِي وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبٌ تَتَفُلُّ^(٤)
يقول أبو عبيدة : « وما يشبه خلقه من خلق النعامة طول وظيفها^(٥) وقصرُ
ساقها وعُرْيُ نِسْيِيهَا^(٦) وما يشبه من خلقه خلق الأرنب صغر كعبيها ، وما يشبه من
خلقها خلق الحمار الوحشي غلظ لحمه وظمأ فصوصه وسَرَاتِهِ^(٧) وتمحُّصُ^(٨) عصبه
وتمكن أرساغه^(٩) وعرض صَهْوَتِهِ^(١٠) .. وما يشبه من خلقه خلق الكلب هَرَّتْ^(١١)
شِدْقُهُ وطول لسانه وكثرة ريقه وانحدار قَصَبِهِ^(١٢) وسبوغ ضلوعه وطول ذراعيه ورُحْبُ

(١) انظر في ذلك معلقة ليبيد والمفضليات
رقم ١٧ بيت ٦٤ وما بعده حيث وصف مزرد
صائداً مسمياً كلابه الستة .

(٢) الحيوان ٢٠/٢ .

(٣) الأصمعيات ص ١٣٠ .

(٤) أَيْطَلَا الظبي : خاصرته ، الإرخاء :
سير السرحان وهو الذئب . والتتفل : الثعلب ،
وتقريبه : قفزه ووثبه .

(٥) الوظيف : مستدق الساق والذراع .

(٦) النسي : عرق في الساق .

(٧) ظمأ هنا : ضمور ، الفصوص : ملتقى
كل عظمتين ، سراته : أعلاه .

(٨) تمحص : شدة .

(٩) الرسغ في الحيوان : المستدق بين الحافر
وموصل الوظيف من اليد والرجل .

(١٠) الصهوة : مقعد الفارس على الفرس .

(١١) هرت : اتساع .

(١٢) قصه : صدره .

جلده ولُحوق^(١) بطنه^(٢) . وكثيراً ما وصفوا كلاب الصيد وسموها أسماء كثيرة .
ولأبي زُبَيْد الطائي قصيدة طريفة يصور فيها معركة بين كلب له وأسد ، وقد حطمه
الأسد حطماً^(٣) ، وكما ذكروا الأسد ووصفوه وصفوا الذئب كقول طُفَيْل
الغنوي وقد شبه فرسه بذئب^(٤) :

كسَيْدِ الغُضا العادي أَضَلَّ جِرَاءَهُ على شَرَفٍ مُسْتَقْبِلِ الرِّيحِ يَلْحَبُ^(٥)
وذكروا الهر والديك والخنزير في وصفهم لنشاط الناقة فقال أوس بن حجر^(٦) :

كَأَنَّ هِرًّا جَنِيْبًا عِنْدَ مَغْرَضِهَا والتفَّ دِيكٌ بِرِجْلَيْهَا وَخِنْزِيرُ

وقد ذكروا كثيراً الضباع والرخم والعقبان والنسور والغربان وأكلها القتلى^(٧)
كما ذكروا الخباري والضب واليربوع والجُرْذَان والجُرَاد والأرانب والضفادع والوعول
أو المعز الجبلية . وتعرضوا كثيراً لوصف الحيات والأفاعي ، ويشبه عنزة نفسه إزاء
بعض أعدائه بأسود قد علق فيه نابيه ، ويقول في بعض وصفه له^(٨) :

رَقُودٌ ضُحِيَّاتٍ كَأَنَّ لِسَانَهُ إِذَا سَمِعَ الْأَجْرَاسَ مَكْحَالٌ أَرْمَدًا^(٩)

وعلى نحو ما وصفوا الحيوان والزواحف وصفوا الطير ، وكثيراً ما يستطردون من
وصف فرسهم بالعُقاب إلى وصفها^(١٠) ، وكانوا يذكرون الغراب كثيراً ويتشاءمون
به ، وفيه يقول عنزة^(١١) :

ظَنَّ الَّذِينَ فَرَّقَهُمْ أَتَوْعُ وَجَرَى بَيْنَهُمُ الْغَرَابُ الْأَبْقَعُ^(١٢)

(٧) المفضليات ص ٣٠٤ وانظر ص
٢٥٢ والأصمعيات ص ١١٩ ، ١٧٤ ،
٢٣٤ والحيوان ٢١/٧ .
(٨) الحيوان ٣٠٨/٤ .
(٩) رُقود الضحى ، ذلك من شأن الأفاعي
تنام في الضحى وتستيقظ في الظلام ، والأجراس :
الأصوات ، مكحال الأرمد : ما يكتحل به ،
جعل لسانه كالمكحال في دقته وسواده .
(١٠) الحيوان ٣٣٩/٦ وما بعدها .
(١١) الحيوان ٤٤٢/٣ ومختار الشعر الجاهلي
ص ٣٩٢ .
(١٢) الأبقع : الأسود .

(١) لحوق : ضمور .
(٢) الحيوان ٢٧٥/١ .
(٣) الحيوان ٢٧٤/٢ والأغاني ١١/١٣٢ .
(٤) الحيوان ٤١٦/٤ .
(٥) السيد : الذئب ، والغضا . نبت ،
وذئاب الغضا أخبث الذئاب ، أضل جراه :
فقد أولاده فهو يسرع في عدوه ، يلحِب :
يمرمر سريعاً .
(٦) الحيوان ٢٧٧/١ وديوان أوس ص ٤٣
جنيباً : يجنبها ، مغرضها : موضع الحزام منها ،
ولمَّا ذكر الهر لأنه يجمع العض بالناب والحمش
بالمخالب ، يصفها بشدة تفزعها لفرط نشاطها .

حرق الجناح كأنَّ لَحْيَيْ رَأْسِهِ جَلَمَانِ بِالْأَنْخَبَارِ هَشٌّ مَوْلَعٌ^(١)
 إِن الَّذِينَ نَعَبْتَنِي بِفِرَاقِهِمْ هُمْ أَسْهَرُوا لَيْلِي التَّمَامَ فَأَوْجَعُوا^(٢)

وكانوا يذكرون القطا والجراد والعصافير والنمل والعنكبوت والحمام ونوحه وما
 يبيع فيهم من شوق وشجاء . وقد أفاض الجاحظ بكتابه الحيوان فيما جاء على ألسنتهم
 من وصف ذلك كله وتصويره . وينبغي أن لا نعتد بما جاء فيه من قصص أسطورية
 عن طوق الحمامة والديك والغراب والمدهد والحيات مما ساقه على لسان أمية بن
 أبي الصلت ، فقد حمل عليه شعر كثير وضعه القصاصون والرواة . وقد استرعى
 الجاحظ كثرة ما جاء على ألسنتهم من وصف فلواتهم^(٣) ووصف البرد وقوارصه
 والحر وهو أجره^(٤) وما يجرى في ديارهم أحيانا من نضب بعد مطر غزير^(٥) ،
 وفي معلقة امرئ القيس قطعة طويلة يصف فيها سيلا عريما نزل في موطن بني أسد
 بالقرب من تيماء ، ويتردد هذا الوصف في شعره وشعر شاعرهم عبيد بن الأبرص .

وكما أكثروا من ذكر الخصب ورطوبة النبات ولدونة الأغصان وكثرة الماء
 أكثروا من وصف الجذب . وطالما وصفوا وعودته الصحراء وتخافهم في لياليها من الجن
 والشياطين . وكادوا لا يتركون شيئا يتصل بهم إلا وصفوه ، فوصفوا الرعى والمراعى ،
 ووصفوا الأسلحة والحروب ، ووصفوا الخمر وأوانيها وسقاتها ومجلسها وأثرها ، وكانوا
 يُقحمونها كما قدمنا في حماساتهم ، ويفتخرون بأنهم يسقونها الصحاب والرفاق على
 صوت القيان ومع نحر الخزور ، يقول ثعلبة بن صعيتر في حماسية له^(٦) :

أَسْمَى مَا يُذْرِيكَ أَنْ رَبَّ فِتْيَةٍ بِيضُ الْوَجْهِ ذَوِي نَدَى وَمَآثِرِ
 بَاكَرَتِهِمْ بِسِبَاءِ جَوْنٍ ذَارِعٍ قَبْلَ الصَّبَاحِ وَقَبْلَ لَغْوِ الطَّائِرِ^(٧)

(٤) الحيوان ٧٣/٥ ، ٧٨/٥ وما بعدها
 وانظر المفضليات رقم ١٢٠ بيت ٥١ ، ٥١ .
 (٥) الحيوان ١٢٠/٣ والمفضليات ص ٣٣٥ .
 (٦) المفضليات ص ١٣٠ .
 (٧) السبأ : اشتراء الخمر ، الجون : الزق الأسود .
 الذارع : المختلط بالماء .

(١) حرق : أسود ، وشبه لحيه بالجللين
 لأنه يخبر بالفرقة كما يقطع الجلمان أو المقرضان .
 (٢) نعب : صاح ، ليل التمام : الشديد
 الطول .
 (٣) الحيوان ٢٥٥/٦ وانظر الأصمعيات
 رقم ٦١ بيت ٢٩ وما بعده والمفضليات رقم ٧٥ .

فَقَصَرْتُ يَوْمَهُمْ بَرْنَةً شَارِفٍ وَسَمَاعٍ مُدْجِنَةٍ وَجَدَوِي جَازِرٍ^(١)
وهذه الموضوعات التي قدمناها جميعاً كانت تتداخل في القصيدة الطويلة وكان
يتداخل معها ضرب من الحكم والمعاني التهذيبية، فالشاعر ما يزال يُدلى في تضاعيف
قصيدته بتجاربه ، وقد يفرد لها مقطوعات ، إذا اتجه بها إلى تقديم وصية لابنه ، على
نحو ما صنع عمرو بن الأهتم في وصيته لابنه التي يستهلها بقوله^(٢) :

وإن المجد أوله وعُورٌ ومصدر غيبه كرمٌ وخيرٌ^(٣)
ومن كثرت الحكمة في شعرهم زهير والأفوه الأودي وعلقمة بن عبدة ، وهي
تكثر في ميمية الأخير وتتوالى في أبيات متعاقبة من مثل قوله^(٤) :

الحمدُ لا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ ثَمَنٌ مِمَّا يَخْضُنُّ بِهِ الْأَقْوَامُ مَعْلُومٌ
والجودُ نَافِيَةٌ لِلْمَالِ مَهْلَكَةٌ وَالْبَخْلُ بَاقٍ لِأَهْلِيهِ وَمَذْمُومٌ
وَكُلُّ حِصْنٍ وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ عَلَى دَعَائِمِهِ لَا بُدَّ مَهْدُومٌ
ويلخص لنا رأى الجاهليين في المرأة وما تطلبه من الرجل ، فيقول في بائيته^(٥) :
فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدْهِنٍ نَصِيبٌ
ويظهر أن الحكمة قديمة عندهم ، فنحن نجد لها في معلقة عبدة بن الأبرص ،
وفيها يقول :

وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَثُوبُ وَغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَثُوبُ
ويقول عبدة بن الطبيب^(٦) :

وَالْمَرْءُ سَاعٍ لِأَمْرِ لَيْسَ يُدْرِكُهُ وَالْعَيْشُ شُحٌّ وَإِشْفَاقٌ وَتَأْمِيلٌ

(١) الشارف : الناقة ، ورنقها : صوتها
عند النحر . المدجنة : القينة تغنى يوم الدجن
والنيم . وجدوى الجازر : عطايه من أطايب اللحم .
(٢) المفضليات ص ٤١٠ وانظر القصيدة
رقم ١١٦ .
(٣) غبه : عاقبته ، الخير : الكرم .
(٤) المفضليات ص ٤٠١ .
(٥) المفضليات ص ٣٩٢ .
(٦) المفضليات ص ١٤٢ .

ويقول عدى بن رَعْلَاء الغساني (١) :

ليس من ماتَ فاستراح بمَيِّتٍ إنما الميِّتُ ميِّتُ الأحياءِ
وتلك هي الموضوعات الأساسية التي تنظم في سلك القصيدة الجاهلية ،
فالشاعر يبدؤها بالتشبيب أو النسيب بالأطلال والديار ، ويصف في أثناء ذلك
حبه ، ثم يصف رحلته في الصحراء ، وهي أول ما يقدمه للمرأة من ضروب
جراته ، وحينئذ يصف ناقته أو فرسه ، وقد يؤخرهما إلى نهاية القصيدة ، ويقدم
عليهما غرضه من الحماسة أو الهجاء أو الرثاء أو المديح ، مفتتاً في أثناء ذلك في
وصف ما يقع تحت عينه ، وناثراً حكمه وتجاربه .

٤

الخصائص المعنوية

لعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ليس
فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال سراء حين يتحدث عن أحاسيسه أو حين
يصور ما حوله في الطبيعة ، فهو لا يعرف الغلو ولا المغالاة ، ولا المبالغة التي قد تخرج
به عن الحدود المعتدلة .

ومرجع ذلك في رأينا أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء
بل كان يحاول نقلها إلى لروحاته نقلاً أميناً ، يُبقي فيه على صورها الحقيقية دون أن
يُدخل عليها تعديلاً من شأنه أن يمسّ جواهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة
دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملمها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها
وحيواتها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهليين
وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد في
هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد في وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من
سمات ومشخصات . ومعنى ذلك أن الشاعر الجاهلي لم يغتصب الحيوان لنفسه ،

(١) الأصعيات ص ١٧١ .

فيسكب عليه من خياله ما يحيله عن حقيقته ، ونستطيع أن نلاحظ ذلك في وصفه للمعارك الدائرة بينهم ، إذ نراه يعترف بهزيمة قومه إن هُزموا^(١) ، وبفراره إن ولَّى الأدبار ونكص على أعقابهِ^(٢) ، وفي أثناء ذلك لا يبخل على أعدائه بوصف شجاعته وبلاهم في الحروب ، ولهم في ذلك قصائد تلقب بالمنصفات ، مرّ الحديث عنها . وجاءهم ذلك من أنهم لا يبدلون في الحقائق ولا يعدّلون في علاقاتها ومعانيها ، بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم لإزاءها . ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم ، فقد تندّب بعض أبيات تحمل ضرباً من المبالغة ، ولكن ذلك يأتي شاذّاً وفادراً . ونظن ظناً أن شيوع هذه الروح فيهم هو الذي طبع أفكارهم بنزعة تقريرية ، إذ تعودوا أن يسندوا أقوالهم بذكر الحقيقة عارية دون خداع يموّها أو طلاء يزيّفها . ومن هنا كانت معانيهم محدّدة تحديداً يبرزها في أتم ما يكون من ضياء ، ومن ثمّ تبدو في كثير من جوانبها كأنها شيء راسخ ثابت . ويتضح ذلك في حكمهم التي تصور أحكاماً سليمة وخبرات صائبة كما يتضح في جوانب كثيرة من تأبينهم ومدائحهم وغزلهم وحماسهم ، إذ يقدم الشاعر المعاني منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة ، فهي حقائق تُسرّدُ سرّداً وقلما شابها الخيال ، إلا ليزيدها إمعاناً في الوضوح والجلاء . وقرأ في أشعاره فستجد معانيه حسية ، واضحة ، لا يقف بينك وبينها أي غموض أو إشراك ذهنية تضل في ممراتها وشُعَبها الفكرية ، إذ يعرض عليك هذه المعاني دائماً مجسّمة في أشخاص أو في أشياء . ونحذّ فضائلهم التي طالما أشادوا بها في حماسهم ومراثيمهم ومدائحهم ، فستجدها دائماً تساق في مادة الإنسان الحسية ، فهو لا يتحول بها إلى معنى ذهني عام يصور إحساسه بالبشرية جميعها في هذه الفضيلة أو تلك ، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرهما من الفضائل والذائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه .

وهذه النزعة في الشاعر الجاهلي جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه من حب أو غير حب ، فهو لا يعرف التغلغل في خفايا النفس الإنسانية ولا في أعماق الأشياء الحسية . وتتضح هذه النزعة في نفس خياله وتشبيهاته فهو ينتزعها من عالمه المادّي ، ولنرجع مثلاً إلى تشبيهاته للمرأة فهو يشبّها بالشمس

(١) انظر مثلاً المفضليات رقم ١٠٨ .

(٢) المفضليات رقم ٣٢ بيت ١ - ٣ .

والبدن والبيضة والدرّة والدُّمّية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة، ويشبه أسنانها بالأقحوان وبناتها بالعمّ وثغرها بالبلّور ونحدها وتراثبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأتربة وريقها بالحمرو بالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعجزها بالكثيب وساقها بالبردية . أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث والأسد وبالذئب والعقاب والبعير والبدن والقمر وبالرمح والسيف وبالثور والتيس والضبع والأفعوان والحية والكلب والحصار وبالصخرة وبالصقر والفحل .

وعلى هذه الشاكلة من الحسية في التشبيه الشعر الجاهلي جميعه ، فالشاعر يستقي في أخیلته من العالم الحسى المتراعى حوله . وجعلهم تمسكهم بهذه الحسية إذا وصفوا شيئاً أدقوا النظر في أجزائه ، وفصلوا الحديث فيها تفصيلاً شديداً ، وكأنما يريدون أن ينقلوه إلى قصائدهم بكل دقائقه ، وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة وإنما يصنع تمثالاً ، فهو يستوفى ما يصفه بجميع أجزائه وتفصيله الدقيقة . وخير مثل لذلك وصف طرفه لناقته في معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة . ولم يترك منها شيئاً دون وصف أو بيان .

وهذه الحسية فيهم جعلتهم لا يتسعون بمعانيهم ، بل جعلتهم يدورون حول معانٍ تكاد تكون واحدة ، وكأنما اصطلمحوا على معانٍ بعينها ، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة ، فما يقوله طرفه في الناقة يقوله فيها غيره ، وما يقوله امرؤ القيس في بكاء الديار يقوله جميع الشعراء ، وقرأ حماسية كعلقة عمرو بن كلثوم فستجد الشعراء الحماسيين لا يكادون يأتون بمعنى جديد . وقل ذلك في غزلهم ومدحهم وراثتهم فالشعراء يتداولون معاني واحدة وتشبيهات وأخيلة واحدة . ومن ثمّ تبسّد في أشعارهم نزعة واضحة للمحاكاة والتقليد ، وجنى عليهم ذلك ضيقاً واضحاً في معانيهم ، غير أنه من جهة ثانية أتاح لهم التدقيق فيها وأن يحلوها ويكشفوها أتم كشف وجلاء . وقرأ في المفضليات والأصمعيات فستجد دائماً نفس المعاني ، وستجد أيضاً براعة نادرة في إعادتها وصوغها صوغاً جديداً ، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيته ، وخُذْ مثلاً تشبيه المرأة بالظبية ، فشاعر يشبهها تشبيهاً عادياً ، وشاعر يشبهها بها وهي تمد عنقها إلى شجر السلم الناضر ، يريد أن يستم بذلك منظرًا بديعاً

للظبية ، يقول علباء بن أرقم^(١) :

فيوما تُوافيننا بوجهٍ مُقسَّمٍ كأنَّ ظبيةً تَعْطُو إلى ناضِر السَّمَلَمِ
وثالث يشبه جِيدَها بِجِيدِ الظبية في استوائه وطوله وجماله ، يقول الحادرة^(٢) :
وتصدَّفتُ حتى استَبَتَّكَ بواضحٍ صَدَلْتُ كَمُنْتَصِبِ الغزال الأَتَلَعِ
ورابع يجعل وجه الشبه حَوَر العين ، وخامس يجعله في التنفس كقول المنخل
اليشكري :

ولشمتُها فتَنَفَّستْ كتَنَفَسِ الظبي البَهِيرِ

وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلاً جديداً. ونَحْنُ مثلاً تصويرهم للرجال
بالكواكب والنجوم ، يقول عامر المحاربي^(٣) :

وكذا نجومًا كلما انقَضَ كوكبٌ بدا زاهرٌ منهمنٌ ليس بأَقْتَمَا
ويقول طُفَيْلُ الغنوي في مديح قوم^(٤) :

نجومٌ ظلامٍ كلما غاب كوكبٌ بدا ساطعًا في حِنْدَسِ الليل كوكبٌ
ويقول لقيط بن زُرارة وقد أضاف إلى هذا المعنى زيادةً بدیعة^(٥) :

وإني من القوم الذين عرفتُ إذا مات منهم سيِّدٌ قام صاحبه
نجومٌ سماءٍ كلما غار كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبه
أضاءتْ لهم أحسابُهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظَّم الجزعُ ثلَّاقبه^(٦)

وَألمَّ النابغة بهذه الصورة فنقلها نقلاً جديدةً ، إذ قال في النعمان بن المنذر مقارناً
بينه وبين الغساسنة^(٧) :

(١) الأصمعيات ص ١٧٨ ومقسم : من

القسم وهو الجمال ، وأن في كأن زائدة ،
تعطو : تتناول ، والسلم : من أشجار البادية .

(٢) المفضليات ص ٤٤ وتصدفت :
أعرضت . بواضح : يريد بعنق ناصع جميل ،
وصلت : مشرق ، الأتلع : طويل العنق .

(٣) المفضليات ص ٣٢١ الأقم : من

القتام وهو الغبار .

(٤) الحيوان ٣ / ٩٤ .

(٥) الحيوان ٣ / ٩٣ .

(٦) الجزع : خرز فيه سواد وبياض

(٧) الحيوان ٣ / ٩٥ ونختار الشعر الجاهلي
ص ١٧٥ .

وإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ إذا طلعت لم يَبْدُ منهن كوكبٌ
ومعنى ذلك أن ضيق الدائرة في معانيهم لم يحل بينهم وبين النفوذ منها إلى دقائق
كثيرة ، فقد تحولوا يولدونها ويستنبطون منها كثيراً من الخواطر والصور الطريفة .

وملاحظة ثانية هي أنهم لم يعرضوا علينا معانيهم الحسية جامدة ، بحيث تنشر
الملل في نفوسنا ، فقد أشاعوا فيها الحركة ، وبذلك بثّوا فيها كثيراً من الحيوية ،
وما من شك في أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التي لم تكن تعرف الثبات
والاستقرار ، فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلا ، ومن ثم كانوا إذا وصفوا
الحيوان وصفوه متحركاً لا واقفاً جامداً ، وارجع إلى وصف طرفه لناقته فستجده
يصفها وهي سائرة به في طريق إلى غاية تصبو إليها نفسه ، يقول :

أَمُونِ كَأَلْوَا حِ الْإِرَانِ نَسَائُتُهَا عَلَى لَاحِبٍ كَأَنَّهُ ظَهَرُ بُرْجُدٍ (١)

وهو يشبه الطريق بكساء مخطط ، يجد فيه جمالا ، كما يجد فيها روعة وبهاء ،
فيستمر في وصفها وكأنه تدلّه بها حبّاً ، فهو لا يترك شيئاً دون أن يقيده ، وكأنه
يصنع لها تمثالاً يريد أن يحفره حفراً في أذهان العرب الذين كانوا يعجبون بنوقهم
ويودون لو أتيح لهم من ينصبها لهم تمثالاً بديعاً . وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم وكانوا
ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأتن وحمارها
ويصورونها لنا وهي تجري في الصحراء تطلب الماء ، والصائد إما في طريقها بكلا به
أو على الماء مستتراً منها ، وما تلبث أن تنشب معركة هائلة لا تقل عن معاركهم هولا .

وطبعي أن يفيض هذا الجزء من قصائدهم بحركة واسعة ، فالحركة أساسه ،
وقد يدخلون هذه الحركة في المقدمة نفسها ، فالشاعر لا يكتفي بالوقوف بالأطلال
وبكاء الديار ، بل كثيراً ما يصور ظعن حبيبته وصواحبها في القافلة ، وقد خرجت
تطلب مرعى جديداً ، فلا تزال متنقلة من موضع إلى موضع وعين الشاعر بإزائها
تسجل هذه الرحلة الدائبة تسجيلاً بديعاً .

(١) البرجد : كساء مخطط شبه به طرائق الطريق
وما فيه من تعاريج وخطوط وآثار .

(١) أمون : موثقة الخلق ، والإران :
تابوت الموتى ، ونسائها : زجرتها ، اللاحب :
الطريق النين الواضح الذي أثر فيه المشى .

وهذه الحركة في حياتهم التي تسعني عدم الثبات والاستقرار ، وبالتالي تعني عدم التوقف عند شيء وإطالة النظر فيه هي التي جعلت معانيهم سريعة ، أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها ، فالشاعر لا يقف طويلاً عند المعنى الذي يلم به بل لا يكاد يمسه حتى يتركه إلى معنى آخر . فحياته لا تثبت ولا تستقر ، وهو كذلك في معانيه لا يثبت ولا يستقر ، بل ينتقل من معنى إلى معنى في خفة وسرعة شديدة . ومن ثمّ غلب عليه الإيجاز ، فهو لا يعرف الإطناب ولا ما يتصل به من هدوء وسكون ، ولعل هذا هو الذي جعل البيت في قصائدهم وحدة معنوية قائمة بنفسها ، وتتألف القصيدة من الأبيات أو البيوت المستقلة التي يكتبها فيها كل بيت غالباً بنفسه ، غير متوقف على ما يسبقه ولا على ما يلحقه إلا نادراً .

وربما كان هذا هو السبب الحقيقي في أن القصيدة الطويلة لا تلم بموضوع واحد يرتبط به الشاعر ، بل تجمع طائفة من الموضوعات والعواطف لا تظهر بينها صلة ولا رابطة واضحة ، وكأنها مجموعة من الخواطر يجمع بينها الوزن والقافية وتلك هي كل روابطها ، أما بعد ذلك فهي مفككة ، لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها أو عند موضوع بعينه . ومن أجل ذلك زعم بعض النقاد أن الاستطراد أساس في الشعر الجاهلي ، ومن حقنا أن نعطيه اسماً جديداً مشتقاً من حياته ، وهو التنقل السريع . وما أشبه القصيدة عندهم بفضائهم الواسع الذي يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق ، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامي من حولهم في غير حدود هو الذي أملى عليهم صورة قصيدتهم ، فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكرى : إنما هي موضوعات أو أشكال متجاورة يأخذ بعضها برقاب بعض في انطلاق غريب كأنطلاق حياة الشاعر في هذا الفضاء الصحراوي الواسع الذي لا يكاد يتناهى ولا يكاد يحده ، والذي تراءى فيه الأشياء متناثرة غير متجاورة . على أن هذه الحركة قد أتاحت لشعرهم ضرباً من الروح القصصية ، لا نراه ماثلاً في وصفهم للحيوان الوحشي فحسب ، بل نراه أيضاً في وصف الصعاليك لمغامراتهم على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى التي أنشدتها المفضل الضبي والتي يستلها بقوله (١) :

(١) المفضليات ص ١٠٨ ، وأجمعت : عزمت أمرها ، واستقلت : ارتحلت .

ألا أم عمرو أجمعت فاستقلت وما ودعت جيرانها إذ تولت

فإنه يقص علينا بعد غزوها الطريف قصة غزوة له مع بعض رفاقه من الصعاليك ، وهو لا يسردها في إجمال ، بل يسرد تفاصيلها ، إذ يذكر أنهم أعدوا العُدَّة للغزو والسلب ، يحملون قسيهم الحمر ، وقد خرجوا من واديين : مشعل والحبيا راجلين ، وقد حمل زادهم تأبط شراً الصعلوك المشهور ، وكان يقتتر عليهم في الطعام خشية أن تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعاً . ويصف لنا الشنفرى جعبة السهام التي كانت معهم ، وكيف أنهم كانوا يحملون حساماً صارماً ، بل سيوفاً قاطعة كأنها قطع الماء في الغدير لمعاناً ، بل كأنها أذنان البقر الصغير تحركه ، وقد نهلت وعملت من دماء مُخْرِمٍ ساق هدّيته إلى الكعبة ، فقتلوه دون غايته وأخذوا ما معه ، كما قتلوا بعض من كانوا يرافقونه ، ومن لم يقتل أخذوه أسيراً . وينهى القصة مفتخراً بشجاعته وأنه لا يهرب الموت .

ويكثر الصعاليك من قصص مثل هذه المغامرة ، ويلقانا في حماسياتهم كثير من وصف معاركهم ، وقد يحاولون سردها ، وهو سرد تتمشى فيه الروح القصصية على نحو ما تمثل ذلك معلقة عمرو بن كلثوم وقصائد بشر بن أبي خازم في المفضليات ، إذ يتحدث فيها حديثاً مفصلاً عن يومى النصارى والنجار ، فالقصص يتخلل شعرهم ، وقد أفردوا له في مطولاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشى . ونراه ماثلاً في غزلهم على نحو ما مر بنا في غزلية المنخل الشكرى ، وإنما تمثلنا بقطعة منها ، وهو ماثل في غزل المرقش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات . فإذا قلنا بعد ذلك كله إن معانيهم كان يسودها في بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم نكن مبالغين ، وهى روح لم تتسع عندهم ، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز . وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصى ، فقد ظل شعرهم غنائياً ذاتياً ، يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه ، غير محاول صنْع قصة ، يجمع لها الأشخاص والمقومات القصصية ، ويرتبها ترتيباً دقيقاً ، فإن شيئاً من ذلك لم يخطر بباله ، إذ كان مشغولاً بنفسه ، لا يهيمه إلا أن يتغنى بها ويمشاعره .

الخصائص اللفظية

من أهم ما يلاحظ على الشعر الجاهلي أنه كامل الصياغة ، فالتركيب تامة ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه ، وهي في الأكثر مدلولات حسية ، والعبارة تستوفي أداء مدلولها ، فلا قصور فيها ولا عجز . وهذا الجانب في الشعر الجاهلي يصور رقياً لغوياً ، وهورقي لم يحدث عفواً فقد سبقته تجارب طويلة في غضون العصور الماضية قبل هذا العصر ، وما زالت هذه التجارب تنمو وتتكامل حتى أخذت الصياغة الشعرية عندهم هذه الصورة الجاهلية التامة ، فالألفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدّي معانيها بدون اضطراب .

وقد يكون من الأسباب التي أعانتهم على ذلك أن الشعراء كما أسلفنا كانوا يرددون معاني بعينها ، حتى لتتحول قصائدهم إلى ما يشبه طريقاً مرسوماً ، يسرون فيه كما تسير قوافلهم سيراً رتيباً ، وكانوا هم أنفسهم يشعرون بذلك شعوراً دقيقاً ، مما جعل زهيراً يقول بيته المأثور — إن صح أنه له — :

ما أَرَانَا نَقُولُ إِلَّا مُعَارَا أَوْ مُعَادَا مِنْ لَفْظِنَا مَكْرُورَا
فهو يشعر أنهم يبدئون ويعيدون في ألفاظ ومعان واحدة ، ويجرون على طراز واحد ، طراز تداولته مثات الألسنة بالصقل والتهذيب ، فكل شاعر ينقح فيه ويهذب ويصنّف جهده حتى يثبت براعته . ولم تكن هناك براعة في الموضوعات وما يتصل بها من معان إلا ما يأتي نادراً ، فاتجهوا إلى قوالب التعبير ، وبذلك أصبح المدار على القالب لا على المدلول والمضمون ، وبالغوا في ذلك ، حتى كان منهم من يُنْجِزُ قصيدته في عام كامل ، يردّد نظره في صيغها وعباراتها حتى تصبح تامة مستوية في بنائها^(١) .

وربما دل ذلك على أن مطولاتهم لم تكن تُصنَعُ دفعة واحدة ، بل كانت تصنع على دفعات ، ولعل هذا هو سبب تكرار التصريح في طائفة منها ، ولعله أيضاً السبب

(١) البيان والتبيين ٩/٢ وما بعدها .

في تفككها واختلاف عواطفها ، فقد كان الشاعر يصنعها في أزمنة مختلفة . وأغلب الظن أنه كان إذا صنع قطعة عرضها على بعض شعراء قبيلته وبعض من يلزمه من رواته ، فكانوا يروونها بصورة ، وما يلبث أن يُعيد فيها النظر فيبدّل في بعض أبياتها ، يبدل كلمة بكلمة ، وقد يحذف بيتاً . ومعنى ذلك أن صناعة المطولات أعدت منذ العصر الجاهلي لاختلاف الرواية فيها بسبب ما كان يُدخله صاحبها عليها من تعديل وتنقيح . وفي أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدل على البراعة في هذا التنقيح وما يطوى فيه من تجويد ، فقد لقبوا امرأ القيس بن ربيعة التغلبي بالمهلل لأنه أول من هلل ألفاظ الشعر وأرقها^(١) ولقبوا عمرو بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقش الأكبر لتحسينه شعره وتنميقه^(٢) ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقش الأصغر ، كما لقبوا طُفَيْلاً بالمخبّر لتزيينه شعره^(٣) ، ولقبوا علقمة بالفحل لجودة أشعاره^(٤) ولقبوا غير شاعر بالنابعة في شعره ، ومن ألقابهم التي تدل على احتفالهم بتنقيح الشعر المثقّب والمتنخل . وقد استطاعوا حقاً أن يهروا العصور التالية بما وقّروه لأشعارهم من صقل وتجويد في اللفظ والصيغة .

ونحن نعرف أن الصيغة في الشعر صيغة موسيقية ، وقد أسلفنا كيف أحكموا هذه الصيغة ، فقد كان الشاعر يتقيد في قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفون في نغم القصيدة ، حتى استوى استواء كاملاً ، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافي وحركاتها ، وبرعوا في تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ في غزلية المتنخل اليشكري السابقة . وحقاً هو في جمهوره جزل ، ولكنها جزالة تستوفي حظوظاً من الجمال الفني ، ولذلك ظلت ماثلة في شعرنا العربي عند شعرائه الممتازين إلى عصورنا الحديثة . وقرأ في حَوَليّات زهير وقصائده المطولة وفي غيره من المبرزين أمثال النابعة وعلقمة الفحل والمرقشين والأعشى وطرفة والمتلمس وعنزة ودريد بن الصّمة وسلامة بن جندل والحادرة والمثقب العبّدي فستجدك أمام قصائد باهرة ، قد أُحكمت صياغتها وضُبطت أدق ضبط ، وسنعرض قطعاً منها في حديثنا عن الشعراء ، لنصور براعتهم

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٥٧/٥ . (٣) الفضليات ٤١٠/١ .

(٢) انظر الفضليات (طبعة لایل) ٤١٠/١ ، ٤٨٥ . (٤) أغاني (طبعة الساسي) ١١٢/٢١ .

في هذا الجانب وكيف حققوا لموسيقاهم مهما جَزَلَتْ وتضخمت كل ما يمكن من بهاء ورونق .

وقد استعانوا منذ أقدم أشعارهم ، لغرض التأثير في سامعيهم ، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية ، وأكثرها دوراناً في أشعارهم التشبيه ، فلم يصفوا شيئاً إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسى ، فالفرس مثلاً يشبه من الحيوان بمثل الظبي والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب ويشبه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام ، ويشبه بالسيف والقناة والرمح والسهم وبالآفعوان والحبل والهرادة والعسيب والحيدوع وتشبه ضلوعه بالخصير وصدرة بمدالك العروس وغرته بنحمار المرأة والشيب المخضوب ومنخره بالكبير وعترته بالقصبية الرطبة وحافره بقعب الوليد وعنقه بالرمح والصعدة وعينه بالنقرة والقارورة ولونه بسبائك الفضة وارتفاعه بالحباء . وكل هذه الأوصاف والتشبيهات مبثوثة في المفضليات والأصمعيات ، ويعرض علينا امرؤ القيس في وصفه لفرسه بمعلقته طائفة طريقة منها . وعلى نحو ما لاحظنا آنفاً كانوا يحاولون الإطراف في التشبيه ، حتى يخلبوا ألباب سامعيهم ، وقد يقعون على صور نادرة كتصوير المتنخل اليشكري لغدائر بعض النساء بأنها كالحيات ، يقول (١) :

يَعْكُفَنَّ مِثْلَ أَسَاوِدِ الْتَنُومِ لَمْ تُعْكُفْ لَزُورِ (٢)

وكانوا يشبهون المرأة بالبدر والشمس ، وألمَّ سُوَيْدُ بْنُ أَبِي كَاهِلٍ بهذا التشبيه ، وحاول أن يخرجها لإخراجاً جديداً فقال (٣) :

حَرَّةٌ تَجْلُو شَتِيَّتًا وَاضِحًا كَشَعَاعِ الشَّمْسِ فِي الْغَيْمِ سَطَعَ (٤)

فجعل أسنان صاحبه المفلجة البيضاء كشعاع الشمس يبرز من خلال الغيم . وكانوا يشبهون الرمح بالجمهر ولهبه ، وألمَّ عَمِيرَةُ بْنُ جُعْلٍ بهذا التشبيه فأضاف إليه إضافة جديدة ، إذ قال (٥) :

(١) الأصمعيات ص ٥٤ .
(٢) يعكف : يشطن شعره ، والأساود :
الآفاعي ، والتنوم : شجر ، ولم تعكف لزور
كنية عن عفتن .
(٣) المفضليات ص ١٩١ .
(٤) الشيت : المتفرق يريد أسنانها
المفلجة ، واضحاً : أبيض .
(٥) المفضليات ص ٢٥٩ ، والردني : الرمح .

جمعتُ رُدَيْنِيَا كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ
وكان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بوصف عنبرة لبعض الرياض وتصويره
للذباب وحركة جناحيه حين يسقط ، إذ يقول (١) :

جَادَتْ عَلَيْهَا كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةً فتركن كل حديقة كالدرهم (٢)
فترى الذبابَ بها يُغْنَى وحده هزجاً كفعل الشارب المترنم
غَرْدًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ فعل المكب على الزناد الأجذم (٣)

فقد شبه قرارات الروضة وحفرتها بالدرهم ، وشبه صوت الذباب بصوت الشارب
المترنم ، وما زال يطلب صورة نادرة حتى وقع على الصورة الأخيرة إذ شبه الذباب
في حركة أجنحته الدائبة حين يسقط برجل مقطوع اليدين يقدح النار من عودين
أوزندين فلا تقتدح ، فيستمر في قدحه لا يفتر .

وبجانب التشبيهات الكثيرة التي تلقانا في شعرهم نجد الاستعارة بفرعها من
التصريحية والمكنية ، وهي مبثوثة في أقدم أشعارهم . نجدها عند امرئ القيس
ومعاصريه كما نجدها عند من جاءوا بعده ، ومن أمثلتها الطريفة عند امرئ القيس
تصويره طول الليل وفتوره وبطئه ببيعير جاثم لا يريم ، إذ يقول في معلقته مخاطباً الليل :
فقلتُ له لما تمطى بضلبي وأردف أعجازاً وناءً بكذلك (٤)
وأنشد ابن المعتز في كتابه « البديع » كثيراً من استعاراتهم مثل قول أوس بن
حجر :

وإني امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها ناباً من الشرِّ أعصلاً (٥)
وقول علقمة بن عبدة :

بل كل قوم وإن عزوا وإن كرموا عريفهم بأثافي الشرِّ مرجوم (٦)

(١) الحيوان ٣/٣١٢ ومختار الشعر الجاهل للسقا

ص ٣٧١ .

(٢) العين الثرة هنا : السحابة غزيرة المطر ،

وشبه الحديقة بالدرهم في استدارته .

(٣) الأجذم : مقطوع اليدين .

(٤) الكلكل : الصدر .

(٥) الأعصل : الموج في صلاية .

(٦) العريف : الرئيس ، والأثافي : الحجارة

التي تنصب عليها القدر ، استعارها لنواب الدهر .

وقول طُفَيْلِ الغَنَوَى في وصف ناقته :

وجعلتُ كورى فوق ناجيةٍ يفتاتُ شَحْمَ سنامها الرَّحْلُ^(١)

وقول الحارث بن حِلْزَةَ اليشكرى :

حتى إذا التفعَ الظُّبَاءُ بِأَطِّ راف الظُّلالِ وقلْنَ في الكُنُسِ^(٢)

وفي شعرهم كثير من هذه الاستعارات الطريفة ، وسنعرض لطائفة منها ومن التشبيهات في دراستنا لشعرائهم المبرزين ، وكانوا يضيفون إلى ذلك عناية ببعض المحسنات التي شاعت في الشعر العباسي وكثُر استخدامها فيه حتى اتخذها بعض الشعراء مذهباً يطبقها على جميع أبياته أو جمهورها ، ونقصد الطباق والجناس ، فلهما أصول في الجاهلية ، ونحن نجدتهما عند امرئ القيس في وصفه لفرسه إذ يقول :

مِكرٌ مِفَرٌّ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ معاً كجلمود صَخْرٍ حَطَّةُ السَّيْلِ من عَلٍ
كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عن حالٍ مَتْنِهِ كما زَلَّتِ الصَّفَوَاءُ بالمتنزلِ^(٣)

والطباق واضح في البيت الأول ومثله الجناس في البيت الثاني . وقد أنشد المفضل الضبي لعبد الله بن سلمة الغامدي قصيدة كَثُرَ في آخرها الجناس كثرة مفرطة ، حتى لكاننا بلزاء شاعر عباسي من شعراء البديع ، يقول عبد الله^(٤) :

ولقد أصاحبُ صاحباً ذا مَأَقَةٍ بصِحابٍ مُطَّلِعِ الأذى نِقَرِيسِ^(٥)
ولقد أراحِمُ ذا الشِّدَاةِ بِمِزْحَمِ صَعْبِ البِدَاهَةِ ذى شِدَاوِشْرِيسِ^(٦)

(١) الكور : الرحل ، ناجية : ناقة سريعة .

(٢) التفعت الظباء بالظلال : دخلت فيها واكتنت من الحر . وقلن : أمضين القائلة وهي نصف النهار . والكنس : جمع كناس وهي حفرة تحفرها الحيوانات الوحشية في أصل شجرة لتستتر فيها .

(٣) الكميت : الأحمر في سواد ، يزل : يسقط ، يريد أنه أملس المتن . الصفواء : الصخرة الملساء ، المنزل : النازل عليها .

(٤) المفضليات ص ١٠٧ .

(٥) المأقة : حدة الغضب ، وصحاب : مصدر صاحب ، مطلع الأذى : مالك له في استعلاء ، والنقريس : الحاذق .

(٦) ذا الشداة : ذا الأذى . بمزحم : شديد المزاحمة . صعب البداة : شديد المفاجأة . والشدا : الأذى ، والشريس : الشراسة .

ولقد أداوى داء كلَّ مُعَبِّدٍ بِعَنِيةٍ غَلَبَتْ عَلَى النَّطِّيسِ^(١)

فقد جانس في البيت الأول بين أصحاب وصاحبها وصحاب، وجانس في البيت الثاني بين أزاحم وبمزحم والشذاة وشذا وأدخل حرف الشين على كلمة شريس، وجانس في البيت الأخير بين أداوى وداء .

وتلك كلها محسنات كان الشاعر الجاهلي يُعْنَى بها حتى يؤثر في نفوس سامعيه ويخلب ألبابهم، وهي تصور مدى ما كان يودعه قصيدته من جهد فني، وخاصة من حيث التصوير ودقته وبراعته، فقد كان ما يزال يجهد خياله حتى يأتي فيه بالنادر الطريف .

النطيس كالنطاسي : الطبيب الماهر .

(١) المعبد : البعير الأجرب ، أراد به الشرير . العنية : من أدوية الحرب .

الفصل السابع

امرؤ القيس

١

قبيلته وأسرته^(١)

امرؤ القيس من قبيلة كندة ، ومن بيت السيادة فيها ، وهي قبيلة يمنية^(٢) كانت تنزل في غربي حضرموت ، وهاجرت منها جماعة كبيرة إلى الشمال مع هجرات اليمنيين المعروفة ، واستقرت جنوب وادي الرُّمَّة الذي يمتد من شمالي المدينة إلى العراق . وقد احتلت كما مرَّ بنا مكاناً بارزاً في نجد منذ أواسط القرن الخامس للميلاد ، فإننا نجد على رأسها أميراً يسمى حُجراً أكل المُرَّار^(٣) تعاقبت الإمارة في بنيه من بعده ، ويظهر أنه استطاع أن يفرض سيادته على كثير من القبائل الشمالية ، وأنه كان يدين بالطاعة للملك حمير اليمنيين^(٤) .

وهذه الإمارة الكندية النجدية كانت تقابل إمارة المناذرة في الحيرة والغساسنة في الشام ، وقد أدى وقوعها بينهما ومحاولتها بسط نفوذها على قبائل معد من حولها إلى أن تصطدم بالإمارتين المجاورتين لها جميعاً ، وهو اصطدام تُروى أخباره منذ قيام حجر أكل المُرَّار ، إذ كثيراً ما كان يشتبك في حروب مع الغساسنة^(٥) . وما زال يمد رقعة ملكه حتى بلغت حدود المناذرة ، ويتوفى فيخلفه ابنه عمرو ويحافظ على ما ورث عن أبيه من سلطان ، ويُصهر إليه ملك الحيرة^(٦) مما يدل على اتساع نفوذه ، ويعقبه

(١) راجع في كندة وأمرائها كتاب أوليندر السالف ذكره .

(٢) انظر في ذلك الاشتقاق (طبعة جوتنجن) ٢١٨/٢ والأغاني ٧٧/٩ وهناك من يزعم أن كندة قبيلة عدنانية (انظر الأغاني طبعة دار الكتب ٧٩/١٢ والمفضليات طبعة لايل ٤٢٧/١) ولكن هذا الزعم غير صحيح ، ويدل على ذلك دلالة قاطعة أننا نجد في أسماء أعلامها كما قدمنا نفس الأسماء اليمنية مثل شرحبيل ومديكرب

ابن الحارث .

(٣) آكل المُرَّار لقب لحجر ، وأصله فعل الإبل يأكل نباتاً مرا يسمى المُرَّار ، فكأنهم أرادوا به حجراً الفحل .

(٤) الأغاني (طبع الساسي) ٢٨/١٥ وابن خلدون ٢٧٣/٢ وجواد على ٢٢٠/٣ .

(٥) الأغاني ٨٢/١٥ وما بعدها .

(٦) تاريخ الطبري (طبعة أوربا) ٩٠٠/١ وحمة الأصفهاني ص ٦٩ .

ابنه الحارث ، وهو أهم أمراء هذه الأسرة ، والمظنون أنه بدأ حكمه حوالى سنة ٤٩٠ للميلاد . ويذكر المؤرخون البيزنطيون أنه كان كثير الإغارة على الحدود الرومانية وكان يقود غاراته ابنائه حُجْر ومعد يكرب ، وقد أغار على فلسطين الرومانية في عامى ٤٩٧ و ٥٠١ للميلاد ^(١) .

ولا نتقدم فى القرن السادس حتى يعظم سلطان الحارث فى نجد . وحدث أن غضب قُبَاذ ملك الفرس على المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة بسبب رفضه لمذهب المزدكية ، كما مر بنا فى غير هذا الموضع ، فعزله وولى على الحيرة مكانه الحارث ختنه ^(٢) ، فتحقق له حلم آبائه بتقويض الإمارة اللخمية ، وولّى أبناءه على القبائل ، فجعل — كما تقول بعض الروايات — حُجْرًا على أسد وغطفان، وشرحيل على بكر ومعد يكرب على تغلب وسلمة على قيس ^(٣) .

وسرعان ما تطورت الأحداث ، فإن الأحباش استولوا على اليمن وتوفى قُبَاذ وخلفه كسرى أنوشروان سنة ٥٢٨ وكان يكره مزدك والمزدكية ، فاضطهد أنصارها فى بلاده ، وأعاد المنذر بن ماء السماء إلى الحيرة عاصمته ، وقد أدار مع الحارث معارك طاحنة ، انتهت بقتل الحارث . وتبع المنذر أبناءه يوقع بهم ويؤلب القبائل عليهم ، وسرعان ما سقط معد يكرب وسلمة فى معركة تعرف بيوم أواره الأول ^(٤) ويقال إن معد يكرب أصابه الجنون ، وكان شرحيل قد سقط قبل ذلك فى معركة بينه وبين أخيه سلمة تعرف بيوم الكلاب الأول ^(٥) .

أما حُجْر وهو أبو امرئ القيس فقتلته قبيلة بنى أسد، ويرى صاحب الأغاني أربع روايات مختلفة فى قتله ^(٦) ، أما الأولى فقد رواها عن هشام بن الكلبي (المتوفى سنة ٢٠٤ هـ) وهى تزعم أن حُجْرًا كان له على بنى أسد إتاوة يؤدونها كل عام، فلما قُتل أبوه أرسل إليهم جُباته فمنعهم وضربوهم ضرباً مبرحاً، فسار إليهم حُجْر بجند من ربيعة وقيس وكنانة ، فاستسلموا له، فأخذ ساداتهم ، وجعل يقتلهم بالعصا

(١) انظر فى ذلك تاريخ العرب قبل الإسلام
لجواد على ٢٤٥/٣ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٨ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٣ وما بعدها .

(٤) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان)

ص ٨٨٧ وتاريخ ابن الأثير ٢٢٨/١ .

(٥) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٢٠٨/١٢

وما بعدها والمفضليات (طبعة لایل) ٤٢٨/١

وابن الأثير ٢٢٧/١ ومعجم البلدان لياقوت

٢٦٩/٧ .

(٦) أغاني (طبعة دار الكتب) ٨٢/٩ .

— فسُمُّوا عبيدَ العصا — وأباح أموالهم ، وطردهم من منازلهم في جنوبي وادي الرُّمَّة إلى تهامة ، وحبس سيدهم عمرو بن مسعود الأسدي ، وشاعرهم عبيد بن الأبرص وقد استعطفه بقصيدة يقول له فيها :

أَنْتَ الْمَلِيكُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الْعَبِيدُ إِلَى الْقِيَامِ

فأثر ذلك في نفس حُجْر ، وعفا عنهم ، ولكنهم أضمرُوا له الانتقام ، وأصابوا منه غيرةً ، فقتلوه في قُبَّتِهِ ، ونهبوا ما كان معه من أموال .

والرواية الثانية رواها أبو الفرج عن أبي عمرو الشيباني (المتوفى سنة ٢١٣هـ) وهي تزعم أن حَجْرًا خاف على نفسه من بني أسد ، فاستجار بعُويَّير بن شِجَّة التميمي لبنته هند وأهله ، ثم مال على بعض بني سعد بن ثعلبة فأدركه عِلباء بن الحارث الأسدي ، وغافله ، وقتله .

والرواية الثالثة رواها أبو الفرج عن الهيثم بن عدي (المتوفى سنة ٢٠٦هـ) وهي تذكر أن حَجْرًا لما استجار عُويَّير بن شِجَّة لبنيه وأهله تحول عن بني أسد فأقام في عشيرته كندة مدة ، وجمع لبني أسد منهم جمعاً عظيماً ، وأقبل مُدلاًّ بمن معه من الجنود ، فتآمرت بنو أسد بينها ، وقالوا : والله لئن قهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبي ! وما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله أشدَّ العرب فؤوتوا كراماً . فساروا إلى حَجْر وقد ارتحل نحوهم فلقوه ، فاقتتلوا قتالاً عنيفاً ، وكان صاحب أمرهم عِلباء بن الحارث فحمل على حَجْر فطعنه ، فقتله ، وانهزمت كندة وفيهم يومئذ امرؤ القيس بن حَجْر ، فهرب على فرس له شقراء ، وأعجزهم . وقد قتلوا من أهل بيته طائفة وأسروا أخرى وملأوا أيديهم من الغنائم ، وأخذوا جوارى حَجْر ونساءه وكل ما كان معه من أموال ، واقتسموا ذلك جميعه .

أما الرواية الرابعة فرواها أبو الفرج عن ابن السكِّيت (المتوفى سنة ٢٤٤هـ) وهي تزعم أن حَجْرًا أقبل بعد موت أبيه راجعاً إلى بني أسد ، وكان قد أساء ولايتهم . وتشاورت بنو أسد فيه ، وأجمع أمرهم على إعلان الحرب عليه ، وخرج إليه بعض شجعانهم ، فقتلوا من كان يقدم ركبته من غلمانهم وسبوا جواريه . وعلم حَجْر بذلك فقاتلهم غير أنهم هزموه وأسروه ، ووثب منهم فتي كان له عنده ثأر ، فقتله .

والرواية الأولى رواية هشام الكلبي ، وهو متهم فيما يرويه ، فهي رواية ضعيفة ،
ومما يدل على فسادها قصيدة عبيد التي ذكر في تضاعيفها يوم القيامة : ومن أين
له بمعرفة هذا اليوم الذي جاء في القرآن الكريم وهو جاهلي وثني ؟ . ومثلها الروايتان
الثانية والرابعة ، فأثر الافتعال فيهما واضح ، لسبب بسيط ، وهو أن حجرًا يموت
غيلة ، ولا نرى عشيرته كندة تثار له أو تشتبك من أجله في حرب مع بني أسد .
لذلك نرجح الرواية الثالثة رواية الهيثم بن عدي ، وهي تتفق مع ما رده عبيد بن
الأبرص في شعره مراراً من أن قبيلته نكّلت بكندة وصاحبها حجر ، وكان عبيد
معاصراً للحوادث وشاهد عيان لها ، ومن قوله في ذلك يخاطب امرأ القيس (١) :

وَرَكُضُكَ لَوْلَاهُ لَقِيتَ الَّذِي لَقُوا فذاك الذي أنجاك مما هنالك

وهو يشير بذلك في وضوح إلى فرار امرئ القيس من المعركة التي قتل فيها
أبوه ، ونراه يصف هذه المعركة ، ويصرح بهزيمة كندة فيها وقتل حجرٍ إذ يقول
معرضاً بامرئ القيس وساخرأ من وعيده وتهديده لقومه (٢) :

يا إذا المخوفنا بقتل ل أبية إذلاً وحينا (٣)
أزعمت أنك قد قتل سرأتنا كذباً ومينا (٤)
هلاً على حجر ابن أم قطام تبكى لا علينا
هلا سألت جموع كند مدة يوم ولوا أين أينا
أيام نضرب هامهم ببواتر حتى انحنينا (٥)

ويتكرر في ديوان عبيد وصف نهاية حجر ومُلك كندة على أسد بهذه الصورة
مراراً (٦) مما يدل على أن رواية الهيثم بن عدي أكثر قرباً إلى الصحة والصدق وأن
الروايات الأخرى دخلها الفساد والانتحال .

(٤) السراة : السادة ، المين : الكذب .

(٥) السيوف البواتر : القاطعة .

(٦) انظر ديوان عبيد القصائد رقم ٤ ،

١٧ ، ٢٦ .

(١) ديوان عبيد بن الأبرص (طبعة لایل)

ص ٥٣ .

(٢) الديوان ص ٢٧ .

(٣) الجين : الموت .

حياته

تتردد في كتب الأدب أسماء مختلفة لامرئ القيس ، فيسمى حُنْدَجًا وعديًا ومُتَيْكَةً^(١) ، ويكنى بأبي وهب وأبي زيد وأبي الحارث ويلقب بذي القروح والمملك الضليل^(٢) ، وأشهر ألقابه امرؤ القيس ، والقيس من أصنامهم في الجاهلية كانوا يعبدونه وينتسبون إليه . وأبوه حُجْر بن الحارث كما مربنا . أما أمه ففاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلل التغلبيين^(٣) . وهم بعض الرواة في نسبه ، فقالوا إنه امرؤ القيس بن السَّمُط بن امرئ القيس بن عمرو الكندي ، وإن أمه تَمَلْكَ بنت عمرو بن زُبَيْد بن مَدْحَج من رهط عمرو بن معد يكرب^(٤) . وهو خلط أوقعهم فيه تشابه اسمه مع اسم هذا الشاعر ، وكان في الجاهلية ستة عشر شاعراً كلهم يتسمى باسم امرئ القيس .

ولا نعرف سنة مولده ، ويظن أنه وُلد في أوائل القرن السادس للميلاد ، وليس بين أيدينا أى شيء واضح عن نشأته وكيف أمضى أيامه الأولى في شبابه إلا أخباراً تغلب عليها الأسطورة ، من ذلك ما رواه^(٥) هشام الكلبي إذ يزعم أن أباه حجراً طرده وآلى (أقسم) أن لا يقيم معه أنفة من قوله الشعر ، وكانت الملوك تأنف من ذلك ، فكان يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط من شُدَّاذ القبائل : من طيى و كلب وبكر ابن وائل ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه في كل يوم وخرج إلى الصيد ، فتصيّد ثم عاد ، فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر ، وسقاهم ، وغنته قيانة . ولا يزال كذلك حتى ينفد ماء ذلك الغدير ، ثم ينتقل عنه إلى

الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة دار المعارف)

٥٢/١ وما بعدها .

(٣) أغاني ٧٧/٩ .

(٤) أغاني ٧٧/٩ .

(٥) أغاني ٨٧/٩ وما بعدها .

(١) انظر جواد على ٢٥٣/٣ و Olinder

ص ٩٥ وشرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١

وما بعدها والمؤتلف والمختلف للأمدى ص ٩

وجمهرة أشعار العرب ص ٢٠ والمزهر للسيوطي

٤٢٢/٢ وشرح شواهد المغنى له ص ٦ .

(٢) الأغاني ٧٨/٩ وانظر ترجمته في

غيره . فأتاه خبر أبيه ومقتله وهو بدّمتون من أرض اليمن ، أتاه به رجل من بني عجل يقال له عامر الأعور أخو الوصاف ، فلما أتاه بذلك قال :

تَطاول الليلُ على دُمُونٍ دُمُونٍ إنا معشرُ يمانونُ
وإننا لأهلنا محبونُ

ثم قال : ضيَّعني صغيراً وحمَّلني دمه كبيراً ، لا تصحَّو اليوم ولا سكر غداً ، اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ . فذهبت مثلاً ، ثم قال :

خليلٌ لا في اليوم مَصْحَى لشاربٍ . ولا في غدٍ إذ ذاك ما كان يُشربُ
ثم شرب سبعاً ، فلما صحَّيَّ آلى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمرأً ولا يدَّهن بدهن
(طيب) ولا يقرب النساء حتى يدرك بثأره ، فلما جَنَّه الليل رأى برقاً ، فقال :

أَرِقْتُ لبرقٍ بليلى أهلٍ يضيء سناه بأعلى الجبلِ
أتاني حديثٌ فكذبتهُ بأمرٍ تزعزعُ منه القُللُ^(١)
بقتل بني أسدٍ ربهم ألا كلُّ شيءٍ سواه جَلَلُ^(٢)
فأين ربيعةٌ عن ربها وأين تميمٌ وأين الخولُ^(٣)
ألا يحضرون لدى بابي كما يحضرون إذا ما أكل

وواضح أن هذا الخبر يخالف رواية الهيثم بن عدى السابقة في مقتل حُجْرٍ والتي تذكر أن امرأ القيس كان مع أبيه في حربه لبني أسد وأنه فرَّ حين هُزمت كندة وقتل أبوه ، فهو من منحولات ابن الكلبي . ومثله الخبر الذي ساقه ابن قتيبة ، إذ يقول إن أباه طرده لما صنع في الشعر بغاطمة ابنة عمه ما صنع ، وكان لها عاشقاً ، فطلبها زماناً فلم يصل إليها ، وكان يطلب منها غرةً ، حتى كان منها يوم الغدير بدارة جُلجُل ما كان فقال قصيدته : (قفا فَبُك من ذكرى حبيب ومنزل) فلما بلغ ذلك أباه دعا مولى يقال له ربيعة ، فقال له : اقتل امرأ القيس وائتني بعينه ،

(١) القل : قم الجبال .

(٢) جَلَل هنا : هين .

(٣) الخول : العبيد .

فدبّح جُؤذرا^(١) ، فأتاه بعينيه . وندم حجر على ذلك ، فقال : أبيت اللعن ! إني لم أقتله ، قال : فأتني به . . فردّه إلى أبيه ، فنهاه عن قول الشعر ، ثم إنه قال قصيدته : (ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي) فبلغ ذلك أباه فطرده ، فبلغه مقتل أبيه بدّمون^(٢) . وواضح أن هذا الخبر يلتقي بسابقه ويكتمل بنفس أسلوبه فهو متصل ، صنّع تعليقاً وتوضيحاً لبعض أبيات معلقته التي يذكر فيها صاحبه فاطمة ويذكر معها يوم دارة جلّجل . ومثل هذين الخبرين ما قاله بعض الرواة من أن أباه طرده لتغزله ببعض نسائه .

والحق أن هذه الأخبار ظاهرة الانتحال هي وكل ما يتصل بها من أشعار يسوقونها على لسانه ، وكأن ابن الكلبي وغيره من الرواة استلهموا ما تدل عليه أشعاره الصحيحة من أنه كان صَبّاً بالشراب والصيد ومغازلة النساء ، فلفقوا هذه الأخبار ، وضمنوها بعض الأشعار . وفاتهم أنه عاش في عصر الوثنية وأنه كان أميراً من أسرة تفرض سيادتها على كثير من القبائل فلا عجب أن يحيا حياة لاهية لا تتورع عن الإثم .

على أن الدهر لم يلبث أن قلب لهذا الفتى العاكف على الصيد واللهو ظهراجنّ ، فإذا أبوه يقتل ، وإذا هو موتور ، لا بد له من أخذ ثأره على عادة العرب ، ولا بد أن يجاهد في سبيل استرداد ملك آبائه وملك كندة قبيلته على بني أسد قتلة أبيه . ويظهر أن بني أسد خافوا العاقبة ، فأرسلوا إليه — في رواية للخليل بن أحمد — وفداً للمفاوضة ، وعرض عليه الوفد إحدى ثلاث : القصاص أو الفداء أو النظرة (الإمهال) حتى تضع الحوامل ، فتعقّد الرايات وتكون الحرب ، فقال : « لقد علمت العرب أن لا كفاء لحُجّر في دم ، وإني لن أعتاض به بجملا أو ناقة ، فأكتسب بذلك سبّة الأبد ، وفَتّ العَصْد ، وأما النظرة فقد أوجبها الأجنّة في بطون أمهاتها ، ولن أكون لِعَظْها سبياً ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل القلوب حنقاً وفوق الأسنة علقاً (دما) ورويداً ينكشف لكم دجهاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، فنهضوا عنه^(٣) » وقد عرفوا أنه طالبهم .

(١) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية .

(٢) انظر الشعر والشعراء ٥٤/١ وشرح

شواهد المغنى للسيوطي ص ٦ .

(٣) الأغاني ١٠٣/٩ وما بعدها .

. ويلقانا قصص كثير عن طلبه لبني أسد ، وأكثره مما رواه ابن الكلبي (١) ،
 إذ يزعم أنه ارتحل حتى نزل بكرة وتغلب فسألم النصر على بني أسد ، وعلمت بنو
 أسد بما يدبر لهم ، فارتحلوا وبلحوا إلى بني كنانة ، فاختلفوا بهم . وأقبل امرؤ القيس
 بمن معه من بكر وتغلب حتى انتهى إلى بني كنانة ، وهو يحسبهم بني أسد ، فوضع
 السلاح فيهم ، فأعلموه أنهم ليسوا طلبته . وكان بنو أسد قد عرفوا قدومه بمن
 معه ، فرحلوا ، فتبعهم حتى لحقهم ، وقتلهم ، حتى كثرت الجرحى والقتلى فيهم ،
 وحجز الليل بينهم ، فهربت بنو أسد ، فلما أصبحت بكر وتغلب أبوا أن يتبعوهم ،
 وقالوا له : قد أصبت ثأرك ، وانصرفوا عنه . ومضى لوجهه حتى لحق حمير ،
 فاستنصر أزد شنوءة فأبوا أن ينصروه ، فنزل بقبيل (أمير) يدعى مرثد الخير الحميري
 فأمدّه بخمسمائة رجل ، وتبعه شذاذ من العرب واستأجر من القبائل رجالا ، فسار
 بهم إلى بني أسد ، ويقال إنهم عادوا فتركوه ، ويقال إنه لجأ إلى عمرو بن المنذر
 ابن ماء السماء وذكر ما بينهما من صهر فأجاره ، وبلغ المنذر مكانه فطلبه ، فهرب .
 وفي رواية إن المنذر ألح في طلبه ووجه الحيوش إليه فلجأ إلى الحارث بن شهاب من
 بني يربوع بن حنظلة ، فأرسل إليه المنذر مائة من رجاله ينذره بالحرب إن لم يسلم
 امرأ القيس ومن معه من بني آكل المزار . فخرج امرؤ القيس على وجهه حتى نزل في
 أرض طيء وقيل بل نزل قبلهم على سعد بن الضباب الإيادي فأجاره ، ثم تحول عنه
 إلى المعلّى بن تميم الطائي ، فأكرمه . وولى وجهه نحو عشيرة بني نبهان الطائية ، فبذلت
 له من مالها ، ثم خرج عنها فنزل بعامر بن جؤين الطائي . وكان المنذر لا يزال
 يتبعه ، فتحول عن طيء إلى رجل من بني فزارة يسمى عمرو بن جابر فدله على
 السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق بتياء ، فلجأ إليه . وهنا يزعم ابن الكلبي
 وغيره من الرواة أنه طلب منه أن يكتب له إلى الحارث بن جبلة الغساني بالشام
 ليوصله إلى قيصر ، واستودعه أهله وأمواله وما كان معه من سلاح . ومضى حتى
 انتهى إلى قيصر في القسطنطينية ، وهو حينئذ جوستنيان فأكرمه ورفع منزلته ، وضم
 إليه جيشاً كثيفاً . ولا فصل اندس إلى جوستنيان رجل من بني أسد يقال له الطمّاح
 فقال له : « إن امرأ القيس غويّ عاهر ، وإنه لما انصرف عنك بالجيش ذكر أنه

(١) الأغاني ٩/٩٠ وما بعدها .

كان يرسل ابنتك ويواصلها، وهو قائل في ذلك أشعاراً يشهرها بها في العرب ،
فيفضحها ويفضحك . فبعث إليه القيصر حينئذ بحلّة وشئ مسمومة منسوجة
بالذهب ، وقال له : إني أرسلت إليك بحلتي التي كنت ألبسها تكرمه لك ، فإذا
وصلت إليك فالبسها باليمن والبركة ، واكتب إلى بخبرك من منزل منزل . فلما وصلت
إليه لبسها واشتد سروره بها ، فأسرع فيه السم وسقط جلده ، فلذلك سُمّي ذا القُروح ،
وقال في ذلك :

لقد طمّح الطمّاحُ من بُعد أرضه ليُلْبَسني مما يلبس أبوسا^(١)
فلو أنها نفسُ تموت سويّة ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

فلما صار إلى بلدة من بلاد الروم تدعى أنقرة احتضر بها ، فقال :

رُبَّ خُطْبَةٍ مُسْحَنَفِرَةٍ وَطَعْنَةٍ مُثْعَنَجِرَةٍ^(٢)
وَجَمَنَةٍ مُتَحَيِّرَةٍ حَلَّتْ بِأَرْضِ أَنْقَرَةٍ^(٣)

ورأى قبر امرأة من أبناء الملوك ماتت هناك فدُفنت في سفح جبل يقال له عسيب
فسأل عنها ، فأُخبر بقصتها فقال :

أَجَارَتْنَا إِنْ الْمَزَارَ قَرِيبٌ وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبٌ
أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبٌ

ثم مات فدفن إلى جنب المرأة ، فقبره هناك ! » .

وهذه الأخبار عن امرئ القيس بعد مقتل أبيه ومصيره رويت في جملتها عن
ابن الكلبي المتهم فيما يرويه ، والتلفيق فيها بين واضح . ويمكن أن يكون لها أصل ،
تشهد به الحوادث ، وهو أن يكون امرؤ القيس حاول عبثاً استرداد ملك آبائه ، ولكنه
مات دون تحقيق غايته . ومن الممكن أيضاً أن يكون قد حاول اللجوء إلى الحارث بن
جبله الغساني وأنه أوصله إلى جوستينيان في القسطنطينية ، غير أنه مات في الطريق .
ومن المحقق أن قصة ثار جوستينيان لشرفه منه قصة متحلة ، نسجها القصاص حين

(١) يريد بالأبوس ما لبسه من الحلة المسمومة.

سائلة .

(٢) مسحنفرة : مسهبة ، مشعجرة :

(٣) جفنة متحيرة : متكة طعاماً ودسماً .

وجندوه في شعره يفخر بمغامراته الغرامية ، وكأنهم أرادوا أن لا يخلوه في القسطنطينية من ضرب من ضروب هذه المغامرات الجريئة ، وقد تمادوا فجعلوه يدخل مع القيصر الحمام وقالوا إنه كان ينادمه ، وإن ابنته نظرت إليه فعشقتة وواصلته .

والحق أن القصص لعب دوراً واسعاً في حياة امرئ القيس ، بحيث طُغمت معالمها ، سواء قبل مقتل أبيه أو بعده ، ومن ثم ذهب طه حسين إلى أن حياته بتفاصيلها وتماماً تزعمه من ذهابه إلى قيصر وموته في رجوعه من عنده إنما هي تمثيل لحياة عبد الرحمن بن الأشعث الكندي الذي ثار على الحجاج وحاول الاستعانة بملك الترك ، وأخفق في مسعاه^(١) . وفيما ذهب إليه طه حسين ضرب من المبالغة والخيال البعيد .

وإذا رجعنا إلى المؤرخين البيزنطيين لم نجد عندهم أى إشارة إلى امرئ القيس ابن حُجْر الكندي وزيارته لبيزنطة وطلبه النصرة منها ضد المنذر بن ماء السماء ، وقد ورد عند «بروكوبيوس» اسم شخص يدعى قيساً اقترن اسمه بغزو الحبشة لليمن سنة ٥٢٤ للميلاد ، ويقال إن القيصر طلب منه أن يقود الجيوش ضد الفرس ، وذكر «نونوسوس» أن جوستينيان كلفه بالسفارة لديه^(٢) . ومن ثم ظن كوزان دى برسفال أن قيساً المذكور عند هذين المؤرخين هو امرؤ القيس^(٣) ، وخاصة حين رآه يزور القسطنطينية ، وأكبر الظن أن هذا مجرد تشابه في الأسماء .

على أن بعض المصادر التاريخية اليونانية ذكرت في صراحة اسم شخص يدعى امرأ القيس كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، وقد جعل يغير على القبائل في شمالي الحجاز ويبسط سلطانه عليها وقد استطاع أن يستولى على جزيرة يوتابه Iotabe — جزيرة تيران الحالية في مدخل خليج العقبة — ويطرد منها عمال المكوس من الروم ، وعاد فرأى أن يصانع الروم ، مخافة غزوهم له ، فأرسل إلى بيزنطة أسقف العرب الذين خضعوا لحكمه سنة ٤٧٣ للميلاد ، ليفاوض قيصر في أن يعينه حاكماً على جنوبي الأردن وساحل خليج العقبة ، ويمنحه لقب فيلارك . ونجح الأسقف في

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢١١ وما بعدها . (٣) انظر جواد على في نفس الصفحة .

(٢) جواد على ٢٦٥/٣ وما بعدها .

سفارته ، ودعا القيصر امرأ القيس لزيارة عاصمته ، وبالح في إكرامه ، وعاد إلى بلاده^(١) .

وواضح ، مما تذكره تلك المصادر اليونانية عن هذا الأمير وأنه كان من العرب التابعين لملوك الفرس ، أنه كان من اللخمين ، ولعل من الطريف أن محمد بن حبيب يذكر في كتابه « المحبر » أن فيروز ملك الفرس (٤٥٧ - ٤٨٣ م) هو الذي نصب امرأ القيس بن المنذر اللخمي ملكاً ، وإذا رجعنا إلى ملوك الحيرة في هذا التاريخ لم نجد بينهم من يتسمى بهذا الاسم ، وفي ذلك ما يؤكد ما تذكره المصادر اليونانية من أنه كان ملكاً في شمالي الحجاز ، وكأنه بدأ كما تقول المصادر اليونانية موالياً للفرس ، ثم استقل عنهم ، وأصنى ولاءه للروم . ومراً بنا في أخبار الحارث الكندي أنه استطاع أن يفرض سلطانه على القبائل العدنانية في الشمال ، ومراً أيضاً أنه كان يُغير في أواخر القرن الخامس على تخوم الروم ، وكان يقود هذه الغارات ابنه حُجر ومعد يكرّب . وقد يكون في ذلك ما يدل على أن الحارث استطاع أن يقضى على امرئ القيس اللخمي في شمالي الحجاز وسواحل خليج العقبة ، وكأنه قضى على اللخمين في غربي الجزيرة ، ومراً بنا أنه استطاع أن يخضع إمارة الحيرة لسلطانه ؛ فكأنه قضى على دولتهم في الغرب والشرق ، وإن كان ذلك لم يدم طويلاً ، إذ سرعان ما ظهر المنذر بن ماء السماء يمدّه كسرى أنوشروان بجيوشه ، فقضى على خصمه الكندي ، وعادت الإمارة اللخمية الشرقية ، أما الإمارة الغربية فلم تعد ، فقد دخلت أملاكها في ملك الغساسنة .

ولمّا أطلنا في بيان ذلك لندل على أن أخبار امرئ القيس بن حجر الكندي اختلطت في ذاكرة العرب بأخبار امرئ القيس اللخمي^(٢) ، ومن هنا كنا نظن ظناً أن امرأ القيس الشاعر الكندي لم يزر قيصر بيزنطة ، وكنا ندفع هذه القصة

(١) انظر جواد على ٢٦٧/٣ وما بعدها .
(٢) وبسبب من هذا الخلط قال هيار في ترجمته له بدائرة المعارف الإسلامية : عمل الإمبراطور جستنيان بنصيحة الحارث بن جبلة الغساني إلى بادية الشام فدعا امرأ القيس إلى القسطنطينية حوالي عام ٥٣٠ م ليستعين

به على الفرس ومكث هذا الشاعر طويلاً بالقسطنطينية ، ثم استعمل على الشام وعلى القبائل التي تعيش هناك على الحدود ومن ثم لقب بلقب فيلارك أي الوالي ولكنه توفي في أنقرة بين عامي ٥٣٠ و ٥٤٠ في أثناء رحيله لنولي منصبه .

الطويلة التي نسجت حول مقتله . غير أننا لا نرتاب في أنه حاول أن يأخذ بثأر أبيه ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح . ولم يلبث أن مات ، ولا نعرف بالضبط تاريخ موته ، ويغلب أن يكون بين سنَى ٥٣٠ و ٥٤٠ فإن القبائل انتقضت على أبيه وأعمامه منذ سنة ٥٢٨ وهي السنة التي توفى فيها أو قُتل جده الحارث .

٣

ديوانه

طُبِعَ ديوان امرئ القيس مراراً ، وكان أول من طبعه دى سلان (De Slane) بباريس سنة ١٨٣٧ وقد أخرجته من مخطوطتين لكتاب « دواوين الشعراء الستة » للشنتمرى ، وهي دواوين امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة ، ومعروف أن الشنتمرى يحتفظ في شرحه لهذه الدواوين برواية الأصمعى ، وبعد أن ينتهى منها في كل شاعر يضيف إليها بعض الزيادات من روايات أخرى . وقد نشر دى سلان الديوان باسم « نزهة ذوى الكيس وتحفة الأدباء في قصائد امرئ القيس » وجرّد نشرته من شرح الشنتمرى .

وعنى المستشرق ألوارد (Ahlwardt) بنشر الدواوين الستة في سنة ١٨٧٠ ولم يأخذ برواية الشنتمرى في ديوان امرئ القيس ، فقد نشره من نسخة مروية عن السكرى ، وألحق به غير قصيدة ومقطوعة مما وجده منسوباً إليه في كتب الأدب والتاريخ . وطُبِعَ الديوان بعد ذلك من صنعة أبى بكر البطليوسى في مصر والهند وإيران . وأخرجته حسن السندوبى في نشرة مرتبة على حروف المعجم ساق فيها كل ما وجده منسوباً إليه في الكتب الأدبية والتاريخية . كما أخرجته مصطفى السقا مع بقية الشعراء الستة معتمداً على رواية الشنتمرى في مجموعته التي سماها « مختار الشعر الجاهلى » . وفي سنة ١٩٥٨ نشر محمد أبو الفضل إبراهيم الديوان نشرة علمية جديدة بدار المعارف في القاهرة ، واعتمد في نشرته على طائفة من المخطوطات ، استطاع من خلالها أن يوزعه على رواياته . وبدأ برواية الأصمعى نقلاً عن نسخة الشنتمرى التي تضم الدواوين الستة كما قدمنا والتي تحتفظ بسند وثيق يصل بين الشنتمرى والأصمعى ، فهي رواية موثقة ، وهي تشتمل على ثمان وعشرين قصيدة ومقطوعة

بشرح الشنتمري ، وأتبعها بتسع عشرة قصيدة ومقطوعة من رواية الطوسي وهي رواية كوفية ، ويلى ذلك زيادات من هذه الرواية نصّ الطوسي على انتحالها ، وتقع في ٣٢ قصيدة ومقطوعة . ثم زيادات من نُسَخ السكرى وابن النحاس المصرى وأبى سهل عن بعض الكوفيين . وبذلك تبلغ قصائد الديوان ومقطوعاته مائة . وقد ألحق بها أبو الفضل تخريجاً دقيقاً . وإذا أخذنا نبحت في هذه الروايات لاحظنا تواتراً أن أعلاها في الثقة رواية الشنتمري عن الأصمعي ، فهي موصولة السناد ، وقد تلاها زيادات من روايات كوفية ، وبمجرد النظر في تخريجها نجد كثيراً منها شك في الرواة ، ومعنى ذلك أن هذه الزيادات ليست وثيقة ، ولا يصح الأخذ بمضمونها والاعتماد عليها ، ومثلها الزيادات الأخرى عن السكرى وابن النحاس وأبى سهل . وإذن فالرواية التي ينبغي أن نناقش الديوان ونفحصه على أساسها هي رواية الأصمعي ، وقبل مناقشتها ينبغي أن نلاحظ الشبهة العامة التي تحوم حول شعر امرئ القيس ، ولعل أهمها ما جاء على لسان الأصمعي نفسه إذ روى عنه أنه كان يقول : « كل شيء في أيدينا من شعر امرئ القيس فهو عن حماد الراوية إلا انتفاء سمعناها من الأعراب وأبى عمرو بن العلاء »^(١) وحماد في أشعاره يقابل ابن الكلبي في أخباره فأكثرها من منحوه . وفي الموشح للمرزباني : « يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه ، وعن الرياشي يقال إن كثيراً من شعر امرئ القيس ليس له ، وإنما هو لفتيان كانوا يكونون معه مثل عمرو بن قميئة وغيره »^(٢) . ولا بد أن نضيف إلى ذلك قدم عهد امرئ القيس ، فقد بعدت الرواية بينه وبين عصور التدوين ، وقد أدبيل من قومه ، ولم يعد لهم شأن منذ زوال دولة آبائه . ولا بد أن نضيف أيضاً أنه كان في العصر الجاهلي كثير من الشعراء الذين تسموا باسم امرئ القيس ، حتى يقال إنهم بلغوا ستة عشر ، وقد تدخل شعرهم في شعره . وينبغي أن لا ننسى أبداً أن رواية الأصمعي بشهادته غير وثيقة ، لما دخلها من رواية حماد . وأما من الرواة الآخرون غير الأصمعي يلاحظون كثرة ما دخل من انتحال في شعر امرئ القيس حتى لنرى الطوسي يفرد لذلك فصلين في نسخته ، فصل يذكر فيه القديم المنحول ، وفصل يفرده للمستحدث المصنوع .

(١) مراتب النحويين ص ٧٢ .

(٢) الموشح ص ٣٤ وانظر ابن سلام ص ١٣٤

نحن إذن بإزاء شاعر زُيِّفت أخباره وزيف عليه كثير من أشعاره ، ولذلك ينبغي أن نتلقى رواية الأصمعي بغير قليل من الحذر والاحتباس ، وأول ما يلقانا فيها معلقته ، وهى بين المعلقات التى يقال إن حماداً أول من رواها ، غير أن روايته لها شُفِّعت بروايات أخرى لرواة موثقين فقد رواها المفضل الضبي ورواها الأصمعي إلا أنه أنكر منها أربعة أبيات ، وهى التى تبتدىء بقوله :

وَقَرَبَةَ أَقْوَامٍ جَعَلْتَ عَصَامَهَا عَلَى كَاهِلٍ مَنِ ذَلُولٍ مُرَحَّلٍ^(١)

لأنها لا تشاكل شعره ، إنما تشاكل شعر الصعاليك ، ومن ثمَّ نسبها بعض الرواة إلى تأبط شرّاً^(٢) . وتليها قصيدته (ألا عيمٌ صباحاً أيها الظلل البالي) وهى من روح القصيدة السابقة ، ولم يشك فيها الرواة ، فهى وثيقة عند المفضل الضبي والأصمعي وأبى عبيدة ، ولذلك كنا نشبهها له . أما القصيدة الثالثة (خلبلى مُرَّابى على أم جُنْدَب) التى يقال إنه نظمها استجابة لزوجته أم جندب حتى تحكم بينه وبين علقمة الفحل أيهما أشعر فإن القدماء شكوا فيها واتهموها هى وما يطوى فيها من قصة أم جندب^(٣) على أن من الرواة من لاحظ أنها اختلطت بقصيدة على وزنها ورواها لعلقمة بن عبدة^(٤) ، ولعل هذا هو الذى جعل بعض الرواة يصنع قصة المعارضة وأن أم جندب حكمت بين الشاعرين ، غير ملاحظين أن علقمة كان يعيش فى أوائل القرن السابع ، فهو ليس من معاصري امرئ القيس .

والقصيدة الرابعة (سمالك شوق بعد ما كان أقصرا) تصف رحلته إلى قيصر وصفاً مسهباً ، ويكفى ذلك لردّها لأن كل ما يتصل بهذه الرحلة مما وضعه ابن الكلبي وأضرابه . وشك الأصمعي نفسه فى القصيدة الخامسة (أعنّى على برق أراه وميض) وقال إنها تنسب فى بعض الروايات لأبى دُوَادَ الأيادى^(٥) . ويمكن أن نقبل القصيدة السادسة (غشيت ديار الحى بالبكرات) وربما كانت مما قاله بعد مقتل أبيه . أما القصيدة السابعة (ألا إن قوماً كنتم أمس دونهم) وهى فى مديح عُوَيَّير بن

(١) عصام القربة : الحبل الذى تحمل به ،

مرحل : تعود الرحلة .

(٢) انظر ديوان امرئ القيس (طبع دار المعارف)

ص ٣٧٢ .

(٣) الموشح ص ٣٠ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٨١ وانظر

كتاب الحيل لأبى عبيدة ص ١٣٦ .

(٥) الديوان ص ٧٢ .

شِجْنَةُ التَّمِيمِ فلم يروها الطوسي بين ما رواه عن المفضل الضبي^(١) ، ولذلك كنا ندفعها لأنها لم تثبت فيما يظهر عند المفضل . وشك أبو عبيدة في القصيدة الثامنة (لمن طلل أبصرته فشجاني) وقال إنها محمولة عليه^(٢) . والقصيدة التاسعة (قفا نيك من ذكرى حبيب وعرفان) تذكر خشبات كان يُحمَلُ عليها في مرضه ، فهي تتصل بقصة رحلته إلى قيصر ، وهي لذلك لا يمكن الاطمئنان إلى صحتها . والمقطوعة العاشرة (دع عنك نهباً صبح في حَجَرَاتِهِ) قيلت في مديح نَبْهَانِيٍّ أجساره في أثناء طوافه في القبائل ومطاردة المنذر له وربما كانت صحيحة . والقصيدة الحادية عشرة (أرانا موضعين لأمر غيب) جيدة ، وهي مما رواه الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء^(٣) . أما القصيدة الثانية عشرة (أماوى هل لي عندكم من معرّس) فقد روى أبو عمرو الشيباني أنها لبشر بن أبي خازم الأسدي^(٤) . والقصيدة الثالثة عشرة (ألمّا على الربع القديم بعسعسا) تشير بعض أبياتها إلى قصة الحلة المسمومة ، ولذلك كنا نرفضها . ويمكن أن نقبل القصيدة الرابعة عشرة التي نظمها في مديح سعد بن الضباب الإيادي حين أجاره والتي يستهلها بقوله (لعمرك ما قلبي إلى أهله بحُرٍّ) وهي مما أثبت له الأصمعي وأبو عبيدة والمفضل جميعاً . وكذلك يمكن أن نقبل المقطوعة الخامسة عشرة (لمن الديار غشيتها بسُحام) وهي في عتاب سُبَيْع بن عوف ومما قاله بعد مقتل أبيه .

أما المقطوعة السادسة عشرة (يا دارماويةً بالحائل) فقد أنكرها الطوسي وقال عن أحمد بن حاتم إنه لم يجد أحداً من الرواة يعرفها^(٥) . ولاريب في أن المقطوعة السابعة عشرة (رب رام من بني ثعلل) محمولة عليه ، لأنها تصف عمرو بن المسيح الطائي ورميه للصيد ، وكان من أرمى العرب له ، وزمنه متأخر عن زمن امرئ القيس ، إذ وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن وفد عليه من العرب^(٦) . والمقطوعة الثامنة عشرة (يا هند لا تنكحى بوهة) أنكر الآمدي نسبتها إليه ، وقال إنها لامرئ القيس بن مالك الحميري^(٧) . أما المقطوعة التاسعة عشرة (ألا قبح الله البراجم كلها) التي نظمها في

(١) الديوان ص ٣٩٧ .

(٢) الديوان ص ٣٩٨ .

(٣) الديوان ص ٤٠٢ .

(٤) الديوان ص ٤٠٤ .

(٥) الديوان ص ٤١١ .

(٦) الاشتقاق لابن دريد (طبعة جوتنجن)

. ٢٣٢/٢ .

(٧) معجم الشعراء ص ١٢ وانظر الديوان ص ٤١٣ .

هجاء قبائل من تميم حين خذلت عمه شرحبيل في يوم الكلاب فقد كان ابن الأعرابي لا يعرفها^(١). وأما المقطوعة رقم ٢٠ (إن بني عوف ابتنوا حسباً) التي قالها في مدح عُوَيْر بن شِجْنَة فيمكن أن تكون صحيحة . وأما المقطوعة رقم ٢١ (والله لا يذهب شيخي باطلا) فأغلب الظن أنها متحلة لأنهم يروون أنه قالها حين بلغه مقتل أبيه ومراً بنا في رواية الهيثم بن عدي أنه كان حاضراً مقتله . وقد أنكر الأصمعي المقطوعة رقم ٢٢ (ألا إلاتكن إبل" فعزى)^(٢). ويمكن أن تكون المقطوعة رقم ٢٣ (ألا يا لهف هند إثر قوم) التي يقال إنه نظمها حين أخطأ بني أسد وأوقع ببني كنانة صحيحة، ومثلها المقطوعة رقم ٢٤ التي يمدح فيها المعلق الطائي والمقطوعة الخامسة والعشرون وأختها السادسة والعشرون ، وهما مما نظمته في أثناء مطاردة المنذر له . أما المقطوعة السابعة والعشرون (ديمة هطلاء فيها وطف) فما رواه الأصمعي عن أبي عمرو ابن العلاء عن ذى الرمة^(٣) ، وهي لذلك من شعره الوثيق ، أما الثامنة والعشرون التي تدور على إجازة الشطور بينه وبين التوعم اليشكري ، بحيث يقول امرؤ القيس شطراً ويتم البيت التوعم فأغلب الظن أنها من صنع الرواة ، ولعل اتهامها هو الذي جعل الطوسي لا يرويها بين ما أسند روايته إلى الراوى الثبت المفضل الضبي .

ولاذن لا يبقى صحيحاً من رواية الأصمعي سوى القصيدتين الأوليين ، وهما مطولتان ، ومثلهما في الصحة والثقة القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون لأنهما رويتا عن أبي عمرو بن العلاء ، وتظل بعد ذلك المقطوعات أرقام ٦ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ قابلة لأن تكون صحيحة . على أن كثرتها الكثيرة نُظمت — إن صحت — بعد مقتل أبيه ، يتعرض فيها لمن أجاروه ومن ردوه ، وقد رُويت طائفة منها على لسان ابن الكلبي في أثناء حديثه الذي رواه له صاحب الأغاني عن طلب امرئ القيس لبني أسد واستعدائه القبائل عليهم ، ولذلك قلنا إنها يمكن أن تكون صحيحة . وكأنما الثابت الصحيح له إنما هو المعلقة أو القصيدة الأولى في ديوانه ، وتاليها ، ثم ما أنشده له أبو عمرو بن العلاء ، أو بعبارة أخرى القصيدة الحادية عشرة والمقطوعة السابعة والعشرون .

(٣) الديوان ص ١٤٤ .

(١) الديوان ص ٤١٤ .

(٢) الديوان ص ١٣٧ .

شعره

حاول طه حسين أن يردَّ شعر امرئ القيس جميعه ، لأنه يبنى من كندة وشعره قرشيّ اللغة ، وقد مرّ بنا في غير هذا الموضع أن كندة إن كانت يمنية الجنس فقد كانت عدنانية اللغة ، كما مرّ بنا أن لغة قريش هي التي سادت وزادت منذ أوائل العصر الجاهلي على لسان جميع الشعراء الشماليين سواء منهم من ينتسب إلى القبائل العدنانية ومن ينتسب إلى القبائل اليمنية ، وقد أسلفنا أن أشعاره وأخباره دخلها وضع كثير . غير أن هذا كله لا ينتهي بنا إلى إنكار شعره جملة ، وقد رأينا أننا لم نُبْق منه إلا على قلة قليلة .

ولعل أول ما يلاحظ على هذه الأشعار القليلة أنها تنقسم قسمين واضحين :
قسماً نظممه قبل مقتل أبيه وقسماً نظممه بعد مقتله . أما القسم الأول فلا يعدو المعلقة ، والمطولة الثانية في ديوانه (الأعمى صباحاً أيها الطال البالي) وهما جميعاً مما رواه الأصمعي والمفضل الضبي وأبو عبيدة كما يتبين من تخريجهما في طبعة الديوان بدار المعارف . وإذا رجعنا إلى المعلقة وجدنا فيها جزءاً خاصاً بوصف البرق والمطر والسيول ، ونجد نفس الموضوع في القطعة السابعة والعشرين التي رواها أبو عمرو بن العلاء عن ذي الرمة . ولعل في ذلك ما يؤكد صحة هذا الجزء على الأقل . ونحن نعرف أن امرأ القيس شبّ في ديار بني أسد بالقرب من تيماء^(١) ، وأن عبيد بن الأبرص كان يعاصره ، وقد اشتهر بين الرواة بوصفه للمطر وإحسانه فيه^(٢) . واجتماعهما على هذا الوصف دليل بيّن على صحة ما ينسب إلى امرئ القيس منه .
ومعنى ذلك أن المعلقة تحمل بين ثناياها ما يؤكد نسبتها إلى امرئ القيس ، وهو يستلها بقوله :

قفنا نَبْلِكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بين الدخول فحوّمل^(٣)

(٣) السقط : منقطع الرمل ، واللوى حيث يلتوى ويرق . وإنما خص منقطع الرمل وملتواه لأنهم كانوا لا ينزلون إلا في صلابة من الأرض ، والدخول وحول : موضعان .

(١) لعل من أكبر الدلالة على ذلك الأمكنة التي يذكرها في معلقته فجمعها من منازل بني أسد .

(٢) ابن سلام ص ٧٦ .

وقد عدّ القدماء هذا المطلع من مبتكراته ، إذ وقف واستوقف وبكى وأبكى من معه وذكر الحبيب والمنزل ، ثم أخذ يصور لنا كيف كان أصحابه يحاولون أن ينفسوا عنه ، وهو غارق في ذكرياته وبكائه وإرسال دموعه وزفراته وانتقل انتقالاً سريعاً يقصُّ علينا مغامراته مع النساء ، وكأنه يريد أن يستثير صاحبه فاطمة وأن يزرع الغيرة في قلبها ، فهو يذكر لها بعض صواحبه اللاتي أبكينه وبرّح به حين مثل أم الحويّث وأم الرباب ، ثم يفيض في وصف يوم عُنَيْزَة مصوراً كيف كان ينال منها وكيف كانت تدلُّ عليه أحياناً ، وفي أثناء ذلك يتعهر ولا يتستر ، فيقول لعنيزة بيته المشهور :

فمَثَلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتُ وَمُرْضِعاً فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مُغَيَّلٍ^(١)

ثم يعود فيبثُّ فاطمة حبه مصوراً دلالها ، ومعاتباً لها عتاباً رقيقاً ، في تلك الأبيات البديعة :

أَفَاطَمَ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَزْمَعْتَ صَرْمِي فَأَجْمَلِي^(٢)
وَإِنْ كُنْتَ قَدْ سَاءَتْكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ فَسُلِّي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ تَنْسَلِي^(٣)
أَغْرَكِ مِنِّي أَنْ حَبَكَ قَاتِلِي وَأَنْكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلِي
وَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ إِلَّا لَتَقْدَحِي بِسَهْمَيْكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلٍ^(٤)

وما يلبث أن يرجع إلى استشارة فاطمة بمغامرة جريئة له مع مَنْ كُنِيَ عنها ببيضة خِدْرٍ لا يرام خباؤها ، مصوراً كيف اقتحم إليها الأهوال والأحراس وكيف انتحى

(٣) سَلِي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكِ : انزعى أمرى من أمرك ، وتنسل : تسقط .

(٤) ذَرَفَتْ الْعَيْنُ : سال دموعها ، الأعشار : القطع ، نقول : ما بكى إلا لنجرحى قلباً مكسراً .

(١) التَّمَائِمُ : جمع تَمِيمَة وهي العوذة تعلق على الصبي ، المَغْيَلُ : الموضع .

(٢) بَعْضُ هَذَا التَّدَلُّلِ : أى كُنِيَ عن بعضه ، وَأَزْمَعْتَ : عزمت ، وَأَجْمَلِي : من التجميل وهو ترك ما يقيح .

بها ناحية من الحى يتبادلان فيها الصباغة والغرام ، يقول :

وَبَيْضَةٍ خِدْرٍ لَا يُرَامُ خِباؤها
تَجَاوَزْتُ أَحْرَاساً وَأَهْوَالَ مَعْشِرٍ
إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ
فَجِئْتُ وَقَدْ نَضَمْتُ لَنَوْمِ ثِيَابِهَا
فَقَالَتْ يَمِينُ اللَّهِ مَالِكٌ حِيلَةٌ
خَرَجْتُ بِهَا تَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا
فَلَمَّا أَجْزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى
إِذَا التَفَتْتُ نَحْوِي تَضَوَّعَ رِيحُهَا
إِذَا قُلْتُ هَاتِي نَوَّلِينِي تَمَائِلْتُ
فهو يذكرك خيدورها وأحراسها ومنعتها، وكيف وصل إليها وقد استعدت للنوم وما
كان بينه وبينها من حوار، وكيف أطاعته وخرجت معه من الحى إلى مكان بعيد
لا تراهما فيه العيون ، وكيف كانت تعفى آثار أقدامهما بأذيال ثوبها الموشى ،
واسترسل يصف محاسنها ومفاتن جسدها وأطرافها ، مصوراً كيف تستصبي الرجال
وتعبت بقلوبهم .

(١) المرط : إزار من خز ، المرحل :

الموشى .

(٧) أجزنا : قطعنا ، والساحة : الفناء .

والحقف : الموج من الرمل ، وركام :

بعضه فوق بعض ، وعقنقل : منعقد متداخل .

والواو في وانتحى زائدة لأنها جواب لما .

(٨) تضووع : انتشر . الريا : الرائحة .

(٩) هضم : ضامر ، الكشح : الخاصرة ،

وريا المخلخل : أى أن موضع المخلخل من

ساقها ملتصق .

(١) شبه صاحبته بالبيضة لبياضها ورقتها .

(٢) يشرون : يظهرون .

(٣) يقول : تجاوزت هذه الأحراس حين

مالت الثريا للمنيب فأرتك جانباً منها على

نحو ما ترى من جانب الوشاح حين يتلقاتك

بناحية منه ، والمفصل : الذى تجعل بين كل

خرزتين فيه لؤلؤة .

(٤) نضت : نزعت . اللبسة : هيئة

اللباس . المتفضل : اللابس ثوباً واحداً .

(٥) العماية : الغواية والجهالة .

ومن يقرأ هذه المغامرات القصصية عند امرئ القيس تغد على ذهنه تواتر مغامرات ابن أبي ربيعة في غزله ، لا من حيث حوارهِ مع النساء وحكايته لأحاديثهن وكلامهن فحسب ، بل أيضاً من حيث وصف الدبيب إليهن في الليل ومنعة أحراسهن على نحو ما تصور ذلك رائيته المشهورة :

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبْكِرٌ غَدَاةَ غَدٍ أَمْ رَائِحٌ فَمُهْجِرٌ

وقد لاحظ طه حسين هذا التشابه في غزل الشاعرين ، فأنكر ما ينسب إلى امرئ القيس من هذا الغزل القصصي الصريح وقال إنه انتحل انتحالا ، انتحاله بعض القصاص على غيرار ما وجدوا منه عند ابن أبي ربيعة^(١) . وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن أبي ربيعة قد عرف غزل امرئ القيس وتأثر به كما تقضى طبيعة التأثير إذ يتأثر اللاحق بالسابق ، ومن التحكم أن نرفض ذلك ، ولعل خيراً من هذا الرفض أن نقارن بين صناعي الشاعرين في وصف مثل هذه المغامرات وننفذ إلى ما بينهما من فروق ، فكلاهما حقاً يتحدث عن زيارته لصاحبه وما يتجشم فيها من أهوال ، وما يكون بينه وبينهن من هو ، غير أننا نلاحظ عند عمر كما تصور ذلك رائيته تفنناً في رقة النجوى وفي كلف صواحبه به ، بينما يمضي امرؤ القيس في وصف مغامراته مع النساء وصفاً حسيّاً حتى ليتحول في بعض جوانبه إلى صورة من التهلك الخلق الفاحش ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك في حديثنا عن قضية الانتحال .

وكل ما يمكن أن يقال أن هذا المنحى من القصص الغرامي منحى قديم بدأه امرؤ القيس ونمّاه من بعده الأعشى^(٢) ، ثم كان العصر الأموي فتعلق به عمر بن أبي ربيعة وأضرابه . ولعل من الطريف أنه لا يتضح عند امرئ القيس في المعلقة وحدها ، فثلها المطولة (الأعيم صباحاً أيها الطلل البالي) فإنها تذهب نفس المذهب الذي رأيناه في المعلقة ، وهو يفتتحها بالوقوف على أطلال سلمى ، ثم يفيض في وصف مغامراته وعبثه الفاجر مع بعض النساء بالضبط على نحو ما رأينا في المعلقة ، يقول :

(١) في الأدب الجاهلي ص ٢٢١ .

(٢) ابن سلام ص ٣٥ .

سموتُ إليها بعد ما نام أهلها
فقلتُ : سبائك الله إنك فاضحي
فقلتُ : يمين الله أبرحُ قاعداً
فلما تنازعنا الحديثَ وأسمحتُ
وصيرنا إلى الحسنَى ورقً كلامنا
فأصبحتُ معشوقاً وأصبح بعلها
يغطُّ غطيظَ البكر شدَّ خناقهُ
أبقتلني والمشرقي مفساجي
وكان امرأ القيس هو الذي سبق إلى هذا الغزل الفاحش الصريح ، وتبعه الشعراء من بعده وإن لم يبلغوا مبلغه من الفحش والصراحة وقد تبعوه في تشبيهه الذي يودعه مقدمات قصائده وما يطوى فيه من بكاء ولوعة .

ورجع في معلقته بعد حديثه عن بَيْضَةِ الحِدر يصف لصاحبتَه شقاءه بجها وأنه لا يستمع فيه إلى نصيحة ناصح ، ولا إلى عذْل عاذل ، ويصور كيف يقتحم إليها الليل المخوف ، ويسترسل في وصفه فيقول :

وليلِ كموج البحر أرخى سُدولَهُ
فقلت له لما تمطى بصلبِهِ
على بأنواع الهموم لِيَبْتَلِي^(٨)
وأردف أعجازاً وناءً بكلّكل^(٩)

الحال .

(٦) يغط : يردد صوتاً كصوت البكر وهو الشاب من الإبل يشد حبل في خناقهِ ، فيسمع له غطيظ ، كأنه يريد أن يقول إنه يردد صوتاً كصوت البعير المختنق .

(٧) المشرقي : السيف ، والمسنونة الزرق : السهام .

(٨) السدول : الستور .

(٩) تمطى : امتد . بصلبه : بظهره . وفي رواية بجوزة والجوز : الوسط . والكلكل : الصدر ، وناء : نهض .

(١) سموت إليها : يريد نهضت إليها شيئاً فشيئاً لئلا يشعر أحد بمكانى فكنت مثل حجاب الماء يعلو بفضه بعضاً في رفق ومهل .

(٢) سبائك : باعدك وأذهب عقلك .

(٣) تنازعنا : تبادلنا ، وأسمحت : انقادت ومهلّت . وهصرت : جذبت : وأراد بالفصن قامتها وبالشاريخ شعرها شبهه بشاريخ النخل لكثرتِه وغزارته .

(٤) رضت : أذلت ، وذلت : لانت .

(٥) القتام : الغبار يريد أن بعلها ساء ما رآه من ميلها إليه فأصبح كأنه منبر كاسف

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ قِيَاكَ بِأَمْثَلِ (١)
 فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجْوَاهُ بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلُ شُدَّتْ بِبِذْبُلِ (٢)
 كَأَنَّ الثَّرِيًّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِيهَا بِأَمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَى صُمٍّ جَنْدَلِ (٣)

فهو يتصور الليل بسواده وهمومه كأنه أمواج لا تنهى ، ويحس كأنه طال وأسرف في الطول حتى ليظن كأن نجومه شُدَّتْ بأسباب وأمراس من الجنادل والجبال فهي لا تتحرك ولا تزول ، كأنما سُتِّرَتْ في مكانها ، فهي لا تجرى ولا تسير ، وقد ردَّد الشعراء بعده هذا المعنى طويلا . ونراه يخرج منه إلى وصف فرسه وصيده ولذاته فيه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدي صاحبه فروسيته وشجاعته ومهارته في ركوب الخيل واصطياد الوحش ، يقول :

وَقَدْ أَغْتَدَيْ وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ (٤)
 مِكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخْرَحَطُهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِي (٥)
 كُمَيْتٍ يَزِلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كَمَا زَلَّتِ الصَّفَوَاءُ بِالْمَنْزَلِ (٦)
 مَسَحٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى أَثَرْنَ غُبَارًا بِالْكَدِيدِ الْمُرْكَلِ (٧)

أسقطه .
 (٦) الكيت : الفرس الأحمر في سواد .
 يزول : يسقط ، حال المتن : موضعه من وسط الظهر ، الصفواء : الصخرة الملساء ، المنزل : النازل عليها .
 (٧) مسح : عدا ، يصب الجري صبا ، السابحات : الخيل المسرعة ، الونى : الضعف ، والفطور : الكديد : ما غلظ من الأرض ، المركل : الذى ركفته الخيل بحوافرها . يريد أن حوافره لا تكاد تمس الأرض ، وهى لذلك لا تثير بها غباراً كما تصنع السابحات .

(١) انجلى : انكشف . وما الإصباح بأمثل : يريد أنه مهموم في الليل وفي الصبح .
 (٢) مغار : شديد . يذبل : جبل .
 (٣) المصام : مكانها الذى لا تبرحه ، والأمراس : جمع مرس وهو الخيل . والجنادل : الحجارة الكبيرة ، والصم : جمع أصم وهو الصلب الشديد .
 (٤) الوكينات : المواضع التى تأوى إليها الطير ليلا ، والمنجرد : الفرس قصير الشعر ، الأوابد : الوحش ، هيكَل : ضخيم .
 (٥) الجلود : الصخرة الصلبة ، حطه :

على العقب جياش كأن اهتزامة . إذا جاش فيه حميه غلى مرجل^(١)
يُطيرُ الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثل^(٢)
دريـر كخُذروف الوليد أمره تقلب كفيه بخيط موصل^(٣)
له أبطالا ظبي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل^(٤)
كأن على الكتفين منه إذا انتحى مذاك عروس أو صراية حنظل^(٥)

وهو وصف رائع لفرسه الأشقر ، فقد صور سرعته تصويراً بديعاً ، وبدأ فجعله قيداً لأوابد الوحش إذا انطلقت في الصحراء فإنها لا تستطيع إفلاتاً منه كأنه قيد يأخذ بأرجلها . وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكرّ في الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر في آن واحد ، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عال ، وإن لبده لشدة حركته ليسقط عنه وينزل كما تنزل الصخرة من منحدر بعيد . وهو يصب الجرى صباً ، ويسبق كل الخيل سبقاً ، لا يثير غباراً ولا نفعاً ، إنما هو أن يحركه راكبه فإذا به يغلى غليان القدر لا ينى ولا يفتر ، وإذا راكبه لا يستطيع الثبات عليه ، وما أشبهه في سرعة انطلاقه بلعبة الخذروف الدوارة التي يلعب بها الصبيان ، إذ يصلونها بخيط ويسرعون في إمرارها إسراعاً . وهو فرس ضامر كأنه ظبي نافر ، فله خاصرتاه النحيلتان ، بل لكأنه نعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان الصلبتان ، وهو يهوى في الأرض كأنه الذئب الفرع ، ويقفز كأنه الثعلب الخائف ، وإذا اعترضك خيلاً إليك للمعانه وبريقه أنك تنظر إلى مذاك عروس أو صراية حنظل . واستطرد امرؤ القيس يتحدث عن صيده ، فوصف سرباً من بقر الوحش عن لهم في الصحراء مصوراً كيف قيده فرسه ، فإذا هو يلحق بأوائله

(٣) درير : سريع ، خيط موصل : وصلت أجزاءه ، أمره : أمضاه .

(٤) السرحان : الذئب ، التفل : الثعلب والإرخاء : العدو ، التقريب : القفز .

(٥) مذاك العروس : حجر تسحق عليه طيها فيبرق ، شبه به الفرس في بريقه . الصراية : حنظلة صفراء براقه .

(١) العقب : جرى بعد جرى ، اهتزامة : صوت جوفه عند الجرى ، الحمى : الغلى ، المرجل : القدر .

(٢) يطير : يسقط ، الخف : الخفيف ، والصهوات : موضع اللبد من ظهره ، ويلوى بأثواب العنيف : يذهب بها . العنيف : الأخرق ، المثل : الذي لا يحسن الركوب .

تاركاً وراءه ما تخلف منه . فصادوا ما ابتغوا ، وأخذ الطهارة يعدون لهم طعامهم بين مشوى ومطبوخ . وانتقل من ذلك إلى وصف الأمطار والسيول التي ألت بمنازل قومه بنى أسد بالقرب من تيماء في شمالي الحجاز ، يقول :

أَحَارِ تَرَى بَرْقًا كَأَنَّ وَمِيضَهُ
يُضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ
قَعَدْتُ لَهُ وَصَحْبَتِي بَيْنَ حَامِرٍ
وَأُضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ عَنْ كُلِّ فَيْقَةٍ
وَتَيْمَاءٍ لَمْ يَتْرَكْ بِهَا جَذْعَ نَخْلَةٍ
كَأَنَّ طَمِيَّةَ الْمُجَيْمِرِ غُدُوَّةُ
كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَذَقِيهِ
وَأَلْقَى بِصَحْرَاءِ الْغَبِيطِ بَعَاعَهُ
كَأَنَّ سِبَاعًا فِيهِ غَرْقَى غُدِيَّةُ

كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ (١)
أَهَانَ السَّلِيْطَ فِي الذُّبَالِ الْمُفْتَلِّ (٢)
وَبَيْنَ إِكَامٍ بَعْدَ مَا مُتَأَمَّلٍ (٣)
يَكْبُ عَلَى الْأَذْقَانِ دَوْحَ الْكَنْهَبِلِ (٤)
وَلَا أَطْمَأ إِلَّا مَشِيدًا بِجَنْدَلٍ (٥)
مِنَ السَّيْلِ وَالْغُثَاءِ فَلَكَّةُ مِغْزَلٍ (٦)
كَبِيرُ أَنْاسٍ فِي بَجَادٍ مُزْمَلٍ (٧)
نُزُولَ الْيَمَانِ ذِي الْعِيَابِ الْمُخَوَّلِ (٨)
بِأَرْجَائِهِ الْقَصَوَى أَنْابِيْشُ عُنْصَلٍ (٩)

- (٥) الأطم : البيت .
(٦) طمية : جبل ، المجير : أرض
لبنى فزارة ، الغثاء : ما يحمله السيل من فئات
الأشجار . وفلكة المغزل : ما استدار فوق
رأسه .
(٧) أبان : جبل ، أفانين : ضروب .
الودق : المطر ، البجاد : كساء مخطط ،
ومزمل : صفة لكبير أناس أى أنه متدثر
بثيابه ملتف بها .
(٨) الغبيط : موضع ، البعاع : الثقل ،
العياب : الحقائق ، المخول : كثير المتاع
والغلمان الذين يصحبونه .
(٩) غدية : حين يصبح الناس ، وأنابيش
العنصل : جذور البصل البرى .

- (١) حار : ترخيم حارث يعنى يا حارث ،
وميض البرق : لمعانه . الحبي من السحاب :
المتراكم ، وكذلك المكمل ، وقيل الحبي :
الدانى من الأرض .
(٢) السنا : الضوء ، السليط : الزيت ،
الذبال : الفتائل ، وأهانه هنا : أكثر منه ،
ويروى أمال بمعنى رعى ، وهى أجود .
(٣) حامر وإكام : موضعان ، بعد
ما متأمل : تأملته من مكان بعيد .
(٤) الفيقة : ما بين الحلبتين : يريد أنه
يسح ثم يسكن ثم يسح . وعن : معناها هنا
بعد ، يكب على الأذقان : يسقط ويلقى على الوجه ،
الكنهبل : ماعظم من شجر العضاء ، والدوح :
جمع دوحة وهى الشجرة كثيرة الورق والأغصان .

على قَطْنٍ بالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبِهِ وَأَيْسَرُهُ عَلَى السُّتَارِ فَيَذْبُلُ^(١)
أَلْقَى بِبُسْيَانٍ مَعَ اللَّيْلِ بَرَكَهَ فَأَنْزَلَ مِنْهُ الْعُصْمَ مِنْ كُلِّ مَنْزِلٍ^(٢)

وقد استهل القطعة بوصف وميض البرق وتألقه في سحب متراكم ، وشبه هذا التألق واللمعان بحركة اليدين إذا أشير بهما أو كأنه مصابيح راهب يتوهج ضوءها بما يمدّها من زيت كثير . ويصف كيف جلس هو وأصحابه يتأملونه بين حامر وإكام ، والسحاب يسحّ سحّاً ، حتى لتقتلع سيوله كل ما في طريقها من أشجار العِضاه العظيمة . وتلك تيماء لم تترك بها نخلا ولا بيتاً ، إلا ما شيّد بالصخر ، فقد اجتثت كل ما مرت به وأتت عليه من قواعد وأصوله . وهذا طمية جبل الحجير التفت به السيول وما تحمل من غناء ، حتى لكأنه فلكة مغزل . وذاك أبان بما غطاه من هذا السيل والغناء يشبه شيخاً ملتفّاً في كساء مخطط . وقد ألقى بصحراء الغبيط ثقله فنشّره من النباتات والأزهار ما يشبه ضروب الثياب الزاهية الألوان التي ينشرها التاجر اليماني حين يعرضها للشراء . وما زالت السيول تفيض حتى علت آجام السباع فغرقت في لحجها وتراءت رءوسها للعين كأنها جذور البصل البري . وقد تراكم السحاب وملاً أقطار السماء حتى ليظن مبصره أن أيمنه على قطن جبل بني أسد وأيسره على الستار ويذبل مما يلي بلاد البحرين ، وعمّ المطر جبل بسيان حتى أنزل منه الأوعال التي كانت مستقرة به .

ولامرئ القيس مقطوعة في الغيث والسيل تلتقى في كثير من معانيها وصورها بهذه القطعة ، وهي ذات الرقم ٢٧ في ديوانه ، وقد مر بنا أن أبا عمرو بن العلاء رواها عن ذى الرمة ، وهي تمضي على هذا النحو :

دِيمَةٌ هَطْلَاءٌ فِيهَا وَطْفٌ طَبَقُ الْأَرْضِ تَحَرَّى وَتَدْرُ^(٣)

(٣) الديمة : المطر الدائم ، هطلاء : كثيرة الهطل ، والوطف : الدنو من الأرض . طبق الأرض : تطبقها وتعمها لكثرة مطرها . تحرى : تعتمد إلى الأمكنة وتثبت فيها . وتدر : يكثر ماؤها وترسل درتها .

(١) قطن : اسم جبل في ديار بني أسد ، الشيم : النظر إلى البرق والمطر . الستار ويذبل : جيلان .
(٢) بسيان : جبل ، والبرك : الصدر ، العصم : الأوعال .

تُخْرِجُ الْوَدَّ إِذَا مَا أَشْجَذَتْ وَتَوَارِيهِ إِذَا مَا تَشْتَكِرُ^(١)
 وَتَرَى الضَّبَّ خَفِيفاً مَاهِراً ثَانِيَا بُرْثَنَهُ مَا يَنْعَفِرُ^(٢)
 وَتَرَى الشُّجْرَاءَ فِي رَيْقِهِ كَرْمُوسٍ قُطِّعَتْ فِيهَا الْخُمُرُ^(٣)
 سَاعَةً ثُمَّ انْتَحَاهَا وَابِلٌ سَاقِطُ الْأَكْنَافِ وَاهٍ مِنْهُمْ^(٤)
 رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى فِيهِ شُوبُوبٌ جَنُوبٍ مُنْفَجِرُ^(٥)
 ثَجَّ حَتَّى ضَاقَ عَنْ آذِيهِ عَرَضُ خَيْمٍ فَجُفَافٍ فَيُسِرُ^(٦)
 قَدْ غَدَا يَحْمِلُنِي فِي أَنْفِهِ لَاحِقُ الْإِطْلَسِينَ مَحْبُوكٌ مُمَرُّ^(٧)

وهو يصور في هذه المقطوعة منظراً يماثل المنظر السابق ، فالمطر ينهمر حتى يعم الأرض من حوله ، وهو يدرُّ لها ويدنو منها بأهدابه ، وحيناً يُقْلَع فتبدو الأوتاد من الأرض ولا يلبث أن يعود وتكثر سيوله فتتواري عن الأنظار . وتُسْرَعُ القيعان فيخرج الضبُّ من جحره يعدو عدواً سريعاً لما يرى من كثرة المطر . وما تزال السيول تتدفق حتى تغمر الأشجار بل حتى لا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراعى كأنها رموس معممة قطعت في ساحة حرب عنيفة . وظل المطر على هذا الانصباب الشديد فترة لم تنكشف بعدها السماء ، فقد ألفت السحب بوبلها وأثقالها تستدرُّها ريح الصبا الشمالية . ولم تلبث ريح الجنوب أن هبت فانهمرت الأمطار وعلت السيول حتى ضاقت بها خييم

ساقط الأكفاف : دان من نواحي الأرض .
 واه : متخرق ، منهمر : منسكب .

(٥) راح : عاد بالمطر في آخر النهار .
 تمريه : تحركه وتديره . الشوبوب : دفعة المطر ، والجنوب : ريح . منفجر : سائل .

(٦) ثج : سال . الآذى : الموج . وخيم وجفاف ويسر : مواضع .

(٧) يحملني في أنفه : يريد في أنف المطر أي أوله . لاحق الإطلين : فرس ضامر الكشحين ، محبوك : موثق الخلق ومثله ممر ، وأصله من الخيل الممر ، وهو المحكم القتل .

(١) الود : الودد ، أشجذت : أقلمت وسكنت . تشتكر : تحتفل ويكثر مطرها .
 وقيل الود اسم جبل .
 (٢) خفيفاً ماهراً : يريد سريعاً في عدوه .
 وبرثن الضب : كالإصبع للإنسان . وما ينعفر : لا يصيبه العفر والتراب ، يقصد أنه لا يلصق بالتراب لطفة عدوه .

(٣) الشجراء : الأرض ذات الشجر الكثير ، ريق المطر : أوله ، يريد أن المطر يغمر الأشجار فلا يبدو منها إلا أعاليها ، فتتراعى كأنها رموس قطعت وفيها الخمر وفيها العمائم .

(٤) انتحاه : قصدها . وابل : مطر غزير ،

وجُفَافٌ وَيُسِرُّ .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الآن الموضوعات الأساسية التي كان ينظم فيها امرؤ القيس شعره قبل مقتل أبيه ، وهي التشبيب ، والغزل القصصي الصريح ، ووصف الطبيعة المتحركة بما فيها من خيل ووحش والطبيعة الصامتة بما فيها من أمطار وسيول . فتلك هي الموضوعات التي تستغرق أشعاره الأولى . وتجمعها المعلقة جميعاً ، بينما تقف المطولة الثانية (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي) عند التشبيب والقصص المادي ، ووصف الوحش والفرس ، وهو في أثناء وصفهما يعرض لصيده وما يجده فيه من لذة ومتاع وهو .

وكتب لامرؤ القيس أن لا تجرى حياته على هذه الوتيرة من الفراغ الذي يعد لاقتناص اللذات في اتباع المرأة واللهو بها والمتعة بركوب الخيل والصيد عليها وتملئ مناظر الطبيعة ، فقد قُتل أبوه ، وانقلبت حياته من حياة لاهية إلى حياة جادة ومحاولة عائرة في الأخذ بثأر أبيه ورجع سلطان كندة على بني أسد ، وكأنه كان يحس ما ينتظره حين قال في مطولته (ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي) :

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا لِلذَّةِ وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالٍ
وَلَمْ أَشَبِّرْ الزُّقَّ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقْلِ لَخِيلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ^(١)

ولعله نظم هذه القصيدة في إبان الدورة الثانية من حياته .

ونحن لا نتظر منه في هذه الدورة سوى الحزن والألم العميق ، فهذا أبوه حُجِرَ يُقْتَلُ وهؤلاء أعمامه يلقون نفس المصير ، ومن قبلهم قُتل جده الحارث . وهو يسعى في سبيل الأخذ بثأر أبيه ، والمنذر بن ماء السماء يطلبه وتتحاماه القبائل والعشائر وهو يتنقل فيما بينها يستغيث ولا مغيث . وربما لقي في أول الأمر شيئاً من العون ، ولكن ذلك لم يستمر ، فقد ازوروا عنه ، وهو يطلب من يجيره ، وعين المنذر تتبعه وسيف المنذر مُصَلَّتٌ يلمع أمام عينيه . فكان طبيعياً أن يشكو الدهر وأن يتحدث عن مصيره . وهنا تلقانا مقطوعة رواها الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء ، تصور جزئه على آباءه

(١) أسياً : أشتى . الزق : دن الحمر .
الروي : المملوء ، الإجفال : الانهزام في سرعة .

وما تجتمع عليه من البلاء، وهي ذات الرقم الحادى عشر فى ديوانه ، وفيها يقول :

أرانا مُوضِعِينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسَحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ^(١)
 عَصَافِيرُ وَذِبَّانٌ وَدُودٌ وَأَجْرًا مِنْ مُجَلَّحَةِ الذَّنَابِ^(٢)
 وَكُلُّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ صَارَتْ إِلَيْهِ هِمَّتِي وَبِهِ اِكْتِسَابِي
 فَبَعْضُ اللُّومِ عَاذَلْتِي فَإِنِّي سَتَكْفِينِي التَّجَارِبُ وَانْتِسَابِي
 إِلَى عِرْقِ الثَّرَى وَشَجَّتْ عُرُوقِي وَهَذَا الْمَوْتُ يَسْلُبْنِي شَبَابِي^(٣)
 وَنَفْسِي سَوْفَ يَسْلُبُهَا وَجَرْمِي فَيُلْحَقْنِي وَشِيكََا بِالتُّرَابِ
 أَلَمْ أَنْضِ الْمَطِيَّ بِكُلِّ خَرَقٍ أَمَقُّ الطُّولِ لِمَاعِ السَّرَابِ^(٤)
 وَأَرْكَبُ فِي اللَّهَامِ الْمَجْرَ حَتَّى أَنَالِ مَا كَلَّ الْقُحْمَ الرَّغَابِ^(٥)
 وَقَدْ طَوَّقْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ
 أَبْعَدَ الْحَارِثِ الْمَلِكِ بْنِ عَمْرٍو وَبَعْدَ الْخَيْرِ حُجْرَ ذِي الْقِيَابِ^(٦)
 أَرْجَى مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ لِينًا وَلَمْ تَغْفُلْ عَنِ الصَّمِّ الْهَضَابِ^(٧)
 وَأَعْلَمُ أَنَّنِي عَمَّا قَلِيلٍ سَأَنْشَبُ فِي شَبَا ظَفَرٍ وَنَابِ^(٨)
 كَمَا لَاقَى أَبِي حُجْرٌ وَجَدِّي وَلَا أَنْسَى قَتِيلًا بِالْكُلَابِ^(٩)

فقد ضاع منه الماضى بكل أحلامه ، وهو ينظر أمامه فى الأفق البعيد بل القريب ، فلا يرى إلا وادى العدم الذى يشدُّ إليه الناس جميعاً رحالهم ، وهم

(٥) اللهام : الجيش الكثيف . المجر : الكثير . المأكَل هنا : الفَنَاءُ ، القُحْمُ : جمع قحمة من الاقتحام ويريد التزاحم فى شدة .
 الرغبة : الواسعة .
 (٦) القباب : الخيام الكبيرة .
 (٧) الصم المصمتة : الجبال . الهضاب : الصلبة .
 (٨) شبا كل شيء : حده . أنشب : أعلق .
 (٩) قتيل موقعة الكلاب هو عمه شرحبيل .

(١) موضعين : مسرعين . لأمر غيب : يريد الموت المغيب . ونسحر بالطعام : نتلهى ونخدع .
 (٢) مجلحة الذئاب : المصممة التى لا ترجع عما تريد .
 (٣) وشجت : اشتبكت واتصلت . ويشير بعرق الثرى إلى آبائه الذين ماتوا .
 (٤) أنض : أهزل بطول الرحلة . الخرق : الفلاة . أمق الطول : واسع الطول .

يَتَعَلَّلُونَ عَنْهُ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَهُوَ فِي انْتِظَارِهِمْ ، وَهُمْ بِجَادُونَ فِي الْمَسِيرِ إِلَيْهِ . وَيَصْغُرُ النَّاسُ وَتَصْغُرُ أَطْمَاعُهُمْ فِي عَيْنِهِ ، وَيَرَاهُمْ ضِعَافاً كَالْعَصَافِيرِ وَالذِّبَابِ وَالِدُودِ ، وَمَعَ ذَلِكَ يَسْقُطُونَ عَلَى أَطْمَاعِهِمْ كَالذِّثَابِ الضَّارِيَةِ . وَيَطْلُبُ إِلَى عَاذِلَتِهِ أَنْ تَكْفَ عَنْ لَوْمِهِ لِتَرْكِهِ اللَّهْوِ ، فَإِنَّ التَّجَارِبَ غَيَّرَتْ شَخْصِيَّتَهُ خِلَالَ مَا مَرَّ بِهِ مِنْ أَهْوَالِ الْحَيَاةِ . وَهُوَ يَنْتَسِبُ ، فَلَا يَجِدُ أَمَامَهُ إِلَّا مَوْتِي ، وَهُوَ يَتَرَقَّبُ نَفْسَ الْأَجَلِ الْمُحْتَمِ ، وَكَأَنَّهُ شَخْصٌ آخَرُ سِوَى هَذَا الشَّخْصِ الَّذِي كَانَ يَرْكَبُ الْخَيْلَ وَيُنْضِضُهَا فِي الْفَلَاةِ الْوَاسِعَةِ ، وَالَّذِي كَثِيراً مَا انْتَضَمَ فِي جِيُوشِ أَبِيهِ الْكَثِيفَةِ ، يَغْنَمُ الْمَغَانِمَ الْكَبِيرَةَ . وَهِيَ هِيَ الْيَوْمَ يَطُوفُ فِي الْآفَاقِ وَرَاءَ مَجْدِهِ الْمَضِيِّعِ فَلَا يَظْفَرُ إِلَّا بِالْخَيْبَةِ وَالْيَأْسِ الْقَاتِلِ . وَمَاذَا يَرْجُو بَعْدَ هَذِهِ الصُّخُورِ الصَّلْبَةِ مِنْ آبَائِهِ وَقَدْ وَارَاهَا التَّرَابُ . إِنَّهُ يَنْتَظِرُهُ نَفْسُ الْمَصِيرِ ، فَالْمَوْتُ يَفْتَحُ فَاهُ ، وَأُظْفَارُهُ وَأَنْيَابُهُ تَوْشِكُ أَنْ تَفْتَرِسَهُ اقْتِرَاساً كَمَا اقْتَرَسَتْ جَدُّهُ الْجَارِثُ وَأَبَاهُ حَجْراً وَعَمَّهُ شَرْحِبِيلَ يَوْمَ الْكُتْلَابِ .

وَالْمَقْطُوعَةُ رَائِعَةٌ لِأَنَّهَا تَصُورُ لَنَا إِحْسَاسَهُ بِعَبَثِ الْكَفَاحِ ضِدَّ الْمُنْذَرِ وَكَيْفَ كَانَ هَذَا الْإِحْسَاسُ يَتَعَمَّقُهُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ مِنْ حَيَاتِهِ . وَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَشْعَارُ تَسْتَحِقُّ الرُّقُوفَ عِنْدَهَا سِوَى بَعْضِ مَقْطُوعَاتِ قَصِيرَةٍ تَتَدَاخَلُ فِيهَا رَوَايَةُ الْأَصْمَعِيِّ مَعَ رَوَايَةِ هِشَامِ بْنِ الْكَلْبِيِّ ، وَفِيهَا يَمْلَحُ وَيَهْجُو بَعْضُ مَنْ كَانُوا يَكْرُمُونَ جَوَارَهُ أَوْ يَسِيثُونَ هَذَا الْجَوَارَ فَلَا يَمْدُونَ يَدَ الْعَوْنِ إِلَيْهِ ، وَهِيَ شَطَايَا صَغِيرَةٌ لَا تَوْضَحُ مِنْهَجاً فِي مَدِيحٍ وَلَا هِجَاءٍ .

وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ فِيمَا قَدَمْنَا مَا يَدُلُّ عَلَى قِيَمَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ ، فَهُوَ الَّذِي كَانَهُجَ لِلشُّعْرَاءِ الْجَاهِلِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ الْحَدِيثَ فِي بَكَاءِ الدِّيَارِ وَالْغَزْلِ الْقَصَصِيِّ وَوَصْفِ اللَّيْلِ وَالْخَيْلِ وَالصَّيْدِ وَالْمَطَرِ وَالسِّيُولِ وَالشُّكُوى مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَعَلَّهُ سَبَقَ بِأَشْعَارٍ فِي هَذِهِ الْمَوْضُوعَاتِ ، وَلَكِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَعْطَاهَا النِّسْقَ النَّهَائِيَّ ، مَظْهَراً فِي ذَلِكَ ضُرُوباً مِنَ الْمَهَارَةِ الْفَنِيَّةِ ، جَعَلَتْ السَّابِقِينَ جَمِيعاً يَجْمَعُونَ عَلَى تَقْدِيمِهِ ، سِوَا الْعَرَبِ فِي أَحَادِيثِهِمْ عَنْهُ أَوْ النِّقَادِ فِي تَقْدِيمِهِمْ لِلشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ ، يَقُولُ ابْنُ سَلَامٍ : « سَبَقَ امْرُؤُ الْقَيْسِ إِلَى أَشْيَاءَ ابْتَدَعَهَا ، اسْتَحْسَنَهَا الْعَرَبُ وَاتَّبَعَتْهُ فِيهَا الشُّعْرَاءُ ، مِنْهَا : اسْتِيقَافُ صَاحِبِهِ وَالْبَكَاءُ فِي الدِّيَارِ وَرَقَّةُ النَّسِيبِ وَقُرْبُ الْمَأْخِذِ ، وَشَبَّهَ النِّسَاءَ بِالظُّبَاءِ وَالْبَيْضَ وَشَبَّهَ الْخَيْلَ بِالْقَبَانِ وَالْعَصَى ، وَقَيَّدَ الْأَوَابِدَ ، وَأَجَادَ فِي التَّشْيِيهِ ، وَفَصَّلَ بَيْنَ النَّسِيبِ وَبَيْنَ

المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً ^(١) .

وواضح أن هذه الفقرة من كتاب طبقات فحول الشعراء تقرر أن امرأ القيس هو الذى فتح للجاهليين أبواب النسيب والغزل ووصف النساء والحيل ، وهى تضيف إلى ذلك قرب المأخذ ، بحيث جعل العبارات قريبة المنال لا يشوبها عسر ولا صعوبة ، وأيضاً تضيف أنه فصل بين النسيب والمعنى ، فلم يخلطه بشيء ، بل أسهب فيه وأفرده عما يليه .

وكل من يقرأ المعلقة وما أثبتناه له من شعريلاحظ استواءً فى العبارات واتساقاً فى ترتيب الألفاظ ، مما يدل على أنه كان يملك أمانة اللغة فى يده ، وقليل جداً ما قد نلاحظه عنده من بعض النبو كقوله السابق فى المعلقة :

أحارٍ ترى بَرْقًا كأن وميضه كلمع اليدين فى حَبِيٍّ مُكَلَّلٍ
يضيء سَنَاهُ أو مصابيحُ راهبٍ أهان السُّلَيْطِ فى الدُّبَالِ المَقْتَلِ

فقد كان ترتيب السياق ونسقه يقتضيان أن يُكمل وصفه للبرق بأنه فى حَبِيٍّ مكمل وسحاب متراكم وأنه يضيء سناه ، ثم يشبهه بلمع اليدين ومصابيح الراهب . ولكن على كل حال مثلُ هذا قليل فى شعره ، إذ قلما نجد فيه اضطراباً فى ترتيب ألفاظه ومعانيه .

وحقاً ما تقوله الفقرة السابقة عند ابن سلام من أنه أحسن طبقته تشبيهاً ، فتشبيهاته جيدة ، وهى تراكم فى المعلقة وفى قصيدته (الأعم صباحاً أيها الطلل البالى) تراكماً يجعله حقاً صاحب فن التشبيه فى العصر الجاهلى فالتشبيهات تتلاحق فى صفوف متعاقبة ، وقد عقد لها ابن سلام فصلاً فى طبقاته ^(٢) ، استمدته فى جملته من القصيدتين السالفتين . وأول ما يلاحظ فى هذه التشبيهات أنها مستمدة من واقعه الحسى ، وارجع إلى تشبيهاته فى المرأة ، فستراه يشبهها بالبيضة فى بياضها ورقها ، كما يشبهها بالذرة والبقرة الوحشية ، أما ترائبها فكالمرأة وأما شعرها الغزير فكعذوق النخلة المتداخل ، وأما خصرها فليئن كالزمام ، وأما ساقها فكالبردى فى بياضه ،

(١) ابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر
(٢) انظر ابن سلام ص ٦٧ وما بعدها .
والشعراء ٥٧/١ .

وأما أصابعها فكمسأويك شجر الإسحل . وكل هذه الأوصاف مبثوثة في المعلقة .
وإذا تركنا حديثه فيها عن المرأة إلى حديثه عن الفرس وجدناه يشبهه بخذروف الوليد
ومسداك العروس وصراية الحنظل والصخرة الملساء تسقط من عل ، كما يشبهه بالظبي
في خاصرتيه والنعام في ساقيه والذئب في عذوه والشعلب في تقريبه وقفزه . ونحس
دائماً أنه يحاول أن يطرف سامعه بما يورد عليه من الصور الغريبة ، كقوله :

كَأَنَّ دَمَاءَ الْهَادِيَاتِ بَذَحَرِهِ عُصَارَةُ حِنَاءٍ بِشَيْبِ مَرَجَلٍ^(١)

فدم الوحش الذي صاده امرؤ القيس يلطخ صدر الفرس فيترامى كأنه عصارة
حناء صبغ بها شيب ، إذ لا يكاد يفترق عن الحضاب في شيء . ويخرج من ذلك إلى
وصف السيل والمطر ، فيفزع إلى التشبيه الكثير ، كأنه لا يرى الشعر شيئاً بدونه ،
وهو لذلك يوشى به كل شيء يعرض له في المعلقة ، سواء حين يصف الثريا أو
يصف الليل ، وقد أبدع في وصفه لقطعه وأجزائه ، فهي مائى تتدافع وتتلاحق غير
منتهية ، وألم بالوحش ، فشبه بقره بعذارى دوار ، يقول :

فَعَنَّ لَنَا يَرْبُ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي الْمَلَأِ الْمَذِيلِ^(٢)

وبذلك عكس الصورة فشبه البقر بالنساء ، وهو تشبيه مقلوب ، تبعه فيه
الشعراء ، وأصبح ضرباً من ضروب الخيال التي ينسجونها .

وننتقل معه إلى مطولته (الأعم صباحاً أيها الطلل البالى) فتلقانا نفس تشبيهاته
للرأة التي لقيتنا في معلقته ، فهي كالظبية وبيضة النعام ، بل هي كالتمثال الجميل
يقول :

وَيَارِبَّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلِيلَةٍ بِآنَسَةٍ كَأَنَّهَا خَطٌّ تَمَثَّلِ

ويشبه وجهها في إشراقه بالمصباح ، ويقول إنها لينة ممتلئة كحرقف الرمل أو ما
استدار منه ، ويشبهها بالغصن في اعتدال قوامها وتثنيتها ، أما شعرها فكشمار يخ
النخل في تداخله وغزارته . ويعرض الليل ونجومه فيشبهها بمصاييح رهبان ، ويحدثنا

الوحش . ودوار : صنم كانوا يطوفون به في الجاهلية .
المذيل : الطويل السابغ .

(١) الهاديات : المتقدّمات من بقر
الوحش . مرجل : مسرح .

(٢) السرب : القطيع . النعاج هنا : بقر

عن شجاعته وأنه لا يرهب زوج مَنْ يغازلها ولا تهديده ، فيقول :

أَيَقْتُلْنِي وَالْمَشْرِفُ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زُرْقُ كَأَنْيَابِ أَغْوَالٍ

وهي صورة طريفة ، لأنها تقوم على التخيل والوهم . ويخرج إلى وصف فرسه فيشبهه بالهراوة أو العصا في ضموره وصلابته ، ويقول إنه ذعر به قطع بقر ، يجري البياض والسواد في سيقانه ، حتى لكانها وشى برود يمانية بديعة . ويعود إلى فرسه ، فيشبهه بعقاب تنقض انقضاضاً على فريستها ، ويقول إن هذه العقاب تصيد الطير وتحمله إلى وكرها ، فتأكله إلا قلوبه ، فمنها الطرى الغض ، ومنها الجاف المتقبض ، ويعمل خياله ، وما يلبث أن يقول :

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

وواضح أنه يشبه القلوب الرطبة بالعناب واليابسة بالحشف البالي أو التمر الرديء الجاف ، وهو تشبيه كان القدماء يعجبون به لأن امرأ القيس استطاع أن يلائم ملاءمة خيالية بين أشياء متعددة . ويروى عن بشار أنه قال : ما زلت أحسد امرأ القيس على جمعه في هذا البيت بين تشبيه شيئين بشيئين ، حتى قلت :

كَأَنَّ مُشَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رَعْوَسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبَهُ (١)

فجمعت فيه بين ثلاثة وثلاثة (٢) .

ولعلنا لا نُسعد بعد ذلك كله إذا قلنا إن امرأ القيس هو الذي ألهم الشاعر العربي على مر العصور فكرة التشبيه ، بل هو الذي وجهه إلى الإسراف في استخدامه ، حتى عدّ ذلك ضرباً رشيقاً من ضروب الزخرف والبديع (٣) . وبجانب هذا التشبيه نجد عنده بعض أمثلة للاستعارة المكنية والتصريحية ، وهو يأتي بها في قلة ، من ذلك قوله في المعلقة يخاطب الليل :

فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءً بِكَذَلِكَ

(٣) انظر كتاب البديع لابن المعتز (طبعة

(١) النقع : الفبار .

كراتشوفسكى) ص ٥٨ وما بعدها .

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٩٦/٣ .

فقد استعار صورة البعير لهذا الليل الذى لا يزول . ومضى فاستعار صورة
القيد لفروسه ، فسماه قيد الأوابد فهى لا تقوته ، على نحو ما مر بنا فى بيته :
وقد أغتدى والطيرُ فى وُكُنَّاتها بمنجردٍ قَيْدِ الأوابد هَيْكَلِ
وإذا صحت رواية (١) أَمال بدلا من أهان فى قوله يصف البرق :

يضىء سناه أو مصابيحُ راهبٍ أَمال السَّليطَ فى الذُّبال المفتلِ
كان البيت يتضمن استعارة بديعة ، لأن من معانى أَمال رعى ، وكأنه استعار
صورة رعى الأنعام للنبات لما يُفنيه الذبال من الزيت شيئا فشيئا . وإذا تركنا معلقته
إلى مطولته (ألا انعم صباحاً) وجدناه يستعير للحلى على نَحْر صاحبه وتوجهه صورة
الجَمَر ، يقول :

كَأَنَّ عَلَى لَبَّاتِهَا جَمَرَ مُصْطَلٍ أَصَابَ غَضاً جَزْلاً وَكُفَّ بِأَجْذالِ (٢)
ومن الحق أن الاستعارة قليلة فى أشعاره ، ولكنها على كل حال ماثلة فيها ،
مثلها مثل لوفى البديع المسميين بالطباق والجناس ، ومن أمثلة طباقه قوله فى المعلقة
يصف غداثر صاحبه :

غداثره مستشزراتٌ إلى العُلا تفضلُ المَدارى فى مُشْنَى ومُرْسَلِ (٣)
وقوله يصف فرسه :

مَكْرٌ مَفْرٌ مَقْبِلٌ مَدِيرٌ مَعَا كَجَلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ
ومن أمثلة الجناس قوله فى غزله :
وإن كنتِ قد ساءتُك منى خليقةً فُسِّلَى ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسُلِ
وقوله :

أَلا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِي بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَمْثَلِ

بحواره مصطلياً يقلبه ويتعمده ومن حوله أصول
شجر الغضا وعيدانه لا يزال يمد بها النار .
(٣) مستشزرات : مفتولات ، المَدارى :
الأمشاط .

(١) ابن المعتز ص ٧ .
(٢) الغضا : من أشجار نجد . الجزل :
الكثير ، كف : مد . الأجذال : أصول
الشجر . يقول إنه جمر لا يزال متقدماً ، لأن

وبجانب ذلك كله نجده يعنى بالتلاؤم بين ألفاظه ، فقلما تلقانا فيها لفظة نابية في حروفها ، وأيضاً نجد عنده عناية واضحة بموسيقاه ، ولعله من أجل ذلك كان يكثر من التصريح على نحو ما صنع في المعلقة فقد صرّح فيها مراراً ، كما في بيته الذى أنشدناه آنفاً والذى يخاطب فيه الليل . وفي الحلق أن الموسيقى تطرد في المعلقة اطراداً ، فلا نحس بنشاز ، سوى الزخافات التى يكثر منها على شاكلة قوله :

فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى السّترِ إلا لبسة المتفضّل

فإن التفعيلة الثانية في حشو البيت « مفاعلن » وليست مفاعيلن . وإذا قرأنا في المعلقة قوله :

مكرّ مفرّ مقبلٍ مدبرٍ معاً ، كجلمود صخرٍ حطّه السّيلُ من علّ

بضم لام القافية — وهذا ما يقتضيه القياس النحوى تقول : من أسفل الجبل ومن علّ أى من أعلاه فتضم اللام على نية حذف المضاف إليه — أصبح في البيت إقواء ، وهو يكثر في الشعر الجاهلى وخاصة قديمه . وأيضاً إذا قرأنا وصفه للسيل وغثائه الملتف بجبل أبان في قوله :

كأن أباناً في أفانين وذقه كبير أناسٍ في بهجادٍ مزملّ

بضم اللام في كلمة « مزمل » وهو ما يقتضيه القياس النحوى لأنها صفة لكلمة كبير أناس المرفوعة أصبح في هذا البيت هو الآخر إقواء ، إذ اختلفت حركة الروى ، فأصبحت مرفوعة بينما هى في بقية القصيدة مجرورة . ويظهر أن هذا لم يكن يكثر عنده .

والحق أنه يعد أباً للشعر الجاهلى بل للشعر العربى جميعه ، فقد استوى عنده في صورة رائعة ، سواء من حيث سبقه إلى فنون أجاد فيها ، أو من حيث قدرته على الوصف والتشبيه ، وقد مضى يعنى بأخيلته ومعانيه وألفاظه مما نجده ماثلاً في استعاراته وبعض طباقاته وجناساته ، وبذلك أعد الشعراء من بعده للعناية بحسلى معنوية ولفظية مختلفة .

الفصل الثامن النايعة الذبياني

١

قبيلته

النايعة من قبيلة ذُبَيَّان الغطفانية القيسية، إذ تنتسب إلى بَغِيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قَيْس عَيْلَان ، وإلى بَغِيض تنتسب أيضاً قبيلة عَبَس . ومن أهم عشائر ذبيان وبطونها بنو فزارة وبنو مرة وبنو سعد ، ومن فزارة بنو مازن ، وبنو بدر وفيهم كانت رئاسة فزارة في الجاهلية ، ومنهم حذيفة بن بدر وأخوه حَمَل . ومن بني مرة بنو غيظ وبنو سَهْم وبنو صِرْمَة وبنو خُصَيْلَة وبنو نُشْبَة وبنو يربوع عشيرة النايعة، وسيدا بني مرة غير مدافعين هَرِم بن سنان والحارث بن عوف ممدوحا زهير بن أبي سُلَمَى .

وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلي مع حرب داحس والغبراء التي نشبت بينها وبين أختها عبس واستمرت فيما يقول الرواة نحو أربعين عاماً امتدت فيما يُظنّ من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ للميلاد . ومرّ بنا أن السبب في نشوبها سباق داحس والغبراء ، وكان داحس بجواداً لقيس بن زهير سيد بني عبس ، وكانت الغبراء فرساً لحَمَل بن بدر سيد بني فزارة . وسبق داحس إلا أن الفزاريين أقاموا له كميناً في نهاية الشوط نفّره عن غايته ، فسبقت الغبراء . واستشاط قيس غضباً ، وطلب الرهان ، وبعث حَمَل ابنه يطلب منه الرهان المضروب - وقتله قيس . فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين ، واشترك فيها أحلافهما ، فكان مع عبس بنو عامر ، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد ، ودارت سلسلة معارك طاحنة ، من أهمها يوم المريقب وكان لعبس على ذبيان ، وفيه قتل عنزة ضمضم أبا حُصَيْن المري والحارث بن بدر ، ومن قُتل فيه أيضاً عوف بن بَدْر ، ويوم ذي محسى وكان للذبيان على عبس ، ويوم جَنْفَر الهبابة وكان لعبس

على ذبيان وفيه قُتل حذيفة وحمل ابنا بدر، ورثاهما قيس خصمهما رثاء حاراً ،
يقول في بعضه^(١) :

شفيتُ النفسَ من حملي بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
شفيتُ بقتلهم لغيل صَدْرِي ولكني قطعتُ بهم بَنَانِي
وثارتُ ذبيان لنفسها في معركة الجراجر أو ذات الجراجر . ثم تجمعت ذبيان
وأحلافها من تميم وأسد كما تجمعت عبس وعامر ، واشتبكت الفشتان في يوم شعيب
جبله ، وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها ، إذ أثخنت فيهم عبس وعامر القتل
فقتل لقيط بن زُرارة التميمي وأسر أخوه حاجب . ولم تلبث ذبيان أن أرقعت بعبس
وعامر في يوم شعواء وقعة منكرة . ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التي أتت على
الأبطال والرجال ، فأرسلت وفداً إلى ذبيان يطلب الصلح ، ولقي الوفد سيدي بني مرة :
الحارث بن عوف وهريم بن سنان ، فحملا قورمهما على الصلح ، وتحملاً ديات
القتلى ، ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير . وبذلك وضعت هذه الحروب أوزارها ،
ويُظن أنه لم يُكتب للنابغة أن يرى انفضاضها ، فقد توفى قبل ذلك بقليل .

وبينما كانت ذبيان تدبر رحى هذه الحروب كانت تدبر رحى حروب أخرى
مع الغساسنة ، وكان يؤازرها أحلافها من بني أسد ، ولعل في ذلك ما يدل على أن
القبيلتين جميعاً كانتا تدينان بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة ، فهم يشرعون سيوفهم
ويشهرونها في وجوه خصومهم ، وكانوا آونة ينتصرون عليهم وآونة ينهزمون وتمتليء
أيدي الغساسنة بأسراهم ، مما اضطر النابغة على نحو ما سئى بعد قليل أن ينزل
بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء الأسرى حريتهم .

وتدل دلائل مختلفة على أن عشائر ذبيان لم تكن دائماً في رفاق ووثام ، فهي
تتجمع لحرب عبس والغساسنة ، ثم تعود فتنحدر داخلياً ، على نحو ما تصور ذلك
أشعار بشامة بن الغدير والحصين بن الحمام المري وزبّان بن سيار الفزاري والنابغة ،
إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر ، وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها ،
فمن ذلك قول الحصين بن الحمام عقب معركة بين عشيرته بني سهم وبين بني
صيرمة ، وفيها انتصر الأولون^(٢) :

(٢) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٦٥
والهام : الزهوس .

(١) عيون الأخبار ٨٨/٣ والمرزوقي على
الحماسة ٢٠٣/١ وسمط اللالكى للبكري ٣٠٥ .

صَبَرْنَا وَكَانَ الصَّبْرُ فِينَا سَجِيَّةً بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا وَمَغْصَمًا
يُفْلَقْنَ هَامًا مِنْ رَجَالٍ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقًّا وَأَظْلَمًا
ونجد يزيد بن سنان أخى هرم بن سنان يطلق زوجته ، وكانت ابنة النابغة ،
ويشير على عشيرتها يربوع عشيرتي خصيلة ونُسُبة ، عاقدًا بينهما حلفاً سمي حلف
المحاش ، وما يزال يربوع حتى يجلبها عن ديارها إلى ديار بني عُدرة ، وفي ذلك
يقول النابغة :

جَمْعٌ مَحَاشِكُ يَا يَزِيدُ فَإِنِّي أَعْدَدْتُ يَرْبُوعًا لَكُمْ وَتَمِيمًا
حَدِثْتُ عَلَى بَطُونٍ ضِنَّةً كُلِّهَا إِنَّ ظَالِمًا فِيهِمْ وَإِنْ مَظْلُومًا^(١)

فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائماً ، بل كثيراً ما كانت تتحارب وتتقاتل
ويعتزل بعضها بعضاً ، وقد ترك عشيرة منازلها إلى منازل جيرانها من عُدرة وغير عُدرة .
وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد في الجاهلية العُزَّى وتتخذ لها كعبة
تحج إليها ، وتقدم لها النذر والقرايين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى
الله عليه وسلم . ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيها حتى دخلت في الإسلام
الحنيف .

٢

حياته

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب^(٢) بن يربوع ، وأمه عاتكة بنت
أنيس من بني أشجع الذبانيين ، فهو ذباني أبا وأماً ، وكان يكنى بأبي أمامة
وأبي ثمامة^(٣) ، وهما ابتداء ، كما كان يلقب بالنابغة ، وبهذا اللقب اشتهر . واختلف
الرواة في سبب تلقيبه به ، فقيل لقوله في بعض شعره : (فقد نبغت لنا منهم شئون)
وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ومات قبل أن يهتتر ويذهب عقله^(٤) .

(٣) انظر الأغاني ٣/١١ وترجمته في
الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٨/١ وما بعدها .
(٤) الأغاني ٤/١١ وراجع الشعر والشعراء
١٠٨/١ وشرح المعلقات العشر للتبريزي .

(١) ضنة : عشيرة من عُدرة .
(٢) هكذا في ترجمته بالأغاني (طبعة دار
الكتب) ٣/١١ وفي شرح التبريزي للمعلقات
العشر جابر بن يربوع بدلا من جناب بن يربوع .

ونظن ظناً أنه سمي بذلك لنبوغه في شعره وتفوقه فيه ، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقَّبَ بنفس اللقب مثل النابغة الجعدي والنابغة الشيباني والنابغة التغلي ، ويميّز هو منهم باسم النابغة الذبياني .

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولا عن شبابه ، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه كان من أشرف ذبيان وبيوتاتهم ، وقد يكون في مصاهرة يزيد أخى هرم ابن سنان له وهو من أشرف ذبيان ما يقطع بذلك . وإذا كنا نجهل نشأته وشبابه فإن في شعره وأخباره ما يصور لنا الشطر الثاني من حياته ، وهو شطر بداهة النزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة^(١) ولزومه له يملحه ويتغنى بمناقبه . ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضوا على دولة كندة ، وكانت تدخل ذبيان في هذا الولاء ، فطبيعي أن يقصد شاعرها النابغة النعمان بن المنذر وأن يُضقى عليه مدائحه . وسُرَّ النعمان بوفوده عليه ، فقربه منه وناداه ، وأجزل له في العطايا والصلات ، حتى أصبح شاعره الفدَّ ، وكان بلاطه يمجج بالشعراء من أمثال أوس ابن حَجَر التميمي والمثقب العبدى وليبد العامري ولكن أحداً منهم لم يكرمه لإكرام النابغة ، وقد صور ذلك في معلقته ، إذ يقول :

الواهب المائة المعكاء زينها	سعدان توضح في أوبارها اللبد ^(٢)
والأدم قد خيست فتلا مرافقها	مشدودة برحال الحيرة الجد ^(٣)
والراكضات ذيول الریط فانقها	برؤ الهواجر كالغزلان بالجر ^(٤)
والخيل تمزغ غرباً في أعنتها	كالطير تنجو من الشؤبوب ذى البر ^(٥)

(١) واضح أننا لم نعتد بما ذهب إليه بعض الرواة من أن النابغة لحق عمرو بن هند ومدحه بقصيدة مطلعها :

أتاركة تدلها قطام وضنا بالتحية والكلام
وأغلب الظن أنها منتحلة عليه ، وهي ليست على كل حال في رواية الأصمعي للديوان ، وروى الشنمري عن أبي عبيدة أنه مدح بها عمرو بن الحارث التساني .

(٢) المعكاء : الغلاظ القوية ، ويريد الإبل . توضح : موضع . السعدان : مراعى . لبد الشعر : ما تلبس منه .

(٣) الأدم : النوق البيض . خيست : ذلت . فتلا مرافقها : كناية عن قوة خلقها ومتانتها .

(٤) الراكضات : الساحبات . الریط : ثوب طويل . فانقها : نعمها . الجرد : موضع .

(٥) تمزغ غرباً : تسح سحاً شديداً . الشؤبوب : السحاب أو دفعات مطره .

فقد كان يعطيه المائة من الإبل الموثقة الخلق المذلة كما كان يعطيه القطيع من الخيل ، غير الجوارى المتعمات . على أن حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه تَوّاً إلى بلاط الغساسنة ، إذ أوقعوا بذيّان وأحلافهم من بني أسد وقعة منكرة على أثر تعلّيبهم على وادي أقر الحصيب ، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل ، وارتادته ذبيان وأسد ، فنكلوا بهما تنكيلاً فظيماً ، وسبوا كثيراً منهما ومن نساءهما . فألم النابغة ألماً شديداً صورّه في قوله :

لقد نهيتُ بني ذبيانَ عن أقرٍ وعن تربُعهم في كل أصفار^(١)

وقلتُ يا قوم إن اللَّيْثَ منقبضُ على برائنه لوثبة الضاري^(٢)

لا أعرفن ربرباً حوراً مدامعها كأن أبكارها نِعا جُ دُوارٍ^(٣)

ينظرن شزراً إلى من جاء عن عُرض بأوجهٍ منكرات الرقِّ أحرارٍ^(٤)

يَنذرين دمعاً على الأشفار منحدرًا يا ملنَ رِحلةٍ حصنٍ وابنَ سيارٍ^(٥)

وواضح أنه يصور نساء ذبيان وقد أسرن ، وهن يدرفن الدموع ويتلفتن يميناً وشمالاً ، لعل بطلى قومهما حصن بن عيينة وزبّان بن سيار يقدمان بالجيش ، فيخلصانهن من ذل الأسر والعار ، وفي بعض الروايات أنه كان بينهما إحدى بناته . وعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببني أسد ، فقال في قصيدة أخرى مصوراً ما أصابهم من الجهد والبلاء :

لم يبق غير طريدٍ غير مُنْقَلَبٍ وموَدَّقٍ في جبال القِدِّ مسلوبٍ^(٦)

أو حُرّة كمهاة الرَّمْل قد كُيِلَتْ فوق المعاصم منها والعراقيب^(٧)

به في الجاهلية .

(٤) النظر الشذر : النظر بمؤخر العين . عرض : جانب .

(٥) الأشفار : جمع شفر ، وهو هذب العين .

(٦) القد : شراك كانوا يشدون به الأمير .

(٧) المهاة : البقرة الوحشية . المعصم : موضع السوار .

(١) أقر : واد . تربعهم : إقامتهم وقت

الربيع . أصفار : شهور الربيع جمع صفر .

(٢) البرائن : الأظفار . الضاري : متعود الاقتراس .

(٣) الربرب : القطيع من يقر الوحش تشبه

النساء به . حورا : جمع حوراء ، وهي العين

الجميلة واضحة البياض والسواد . النعا ج :

إفاث البقر . دوار : اسم صنم كن يطلقن

تدعوقُ عَيْنًا وقد عَضَّ الحديدُ بها عَضَّ الثُّقَافِ على صُمِّ الْأَنْابِيْبِ^(١)

ولم يجد النابغة بدءاً من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم ، حتى يكفوا عن قومه ، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم ، فنزل بعمر بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة ، ومدحه مدحاً رائعاً كما مدح أخاه النعمان . وأكبرا سفارته لديهما ، فغفوا عن أسراه ، وكان جزاؤهما من النابغة مديحه الرائع لهما ، وظل عندهما يبالغان في إكرامه ويبالغ في مديحهما ، محاولاً بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم . وقد مربنا أن عشيرته يربوع كانت تنزل أحياناً في بني ضنة العذريين وعشائرها من بني حُنَّ ، فتوسع لهم في ديارها ومراعيها ، وحدثت النعمان نفسه بغزوهم ، فتعرض له النابغة يخوفه منعهم ومنعة ديارهم ، ولما رأى منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته يدعوها أن تعين بني حُنَّ ، فأعانتها ومنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة ، وفي ذلك يقول :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بني حُنَّ ببرقةٍ صادرٍ^(٢)
تجنبْ بني حُنَّ فإن لقاءهم كريةٌ وإن لم تلقَ إلا بصابرٍ^(٣)
عظامُ اللهى أولادُ عُدرةٍ إنهم لهاميمٌ يستلْهونها بالحناجرِ^(٤)
وهم منعوا وادى القرى من عدوهم بجمعٍ مُبِيرٍ للعدوِّ المُكاثِرِ^(٥)

وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم ، وما زال يرعى مصالحهم عندهم حتى توفي عمرو ثم أخوه النعمان ، فرأى أن يعود إلى النعمان بن المنذر ، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً ، إذ كان يتخذ دأية له في قومه ، وكان يرى في نزوله بالغساسنة ما يدفع ذبيان إلى أن تخرج على ولائها له ، فهذا شاعرُها وشريفها النابغة يلجُ في مديح خصومه . وكأنه يعلن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم .

- (١) قعين : عشيرة من أسد . الثُفاف : خشبة تقوم بها الرماح . الأنابيب : كموب الرماح .
(٢) برقة صادر : موضع .
(٣) صابر : شجاع في الحرب .
(٤) اللهى هنا : المال . الهاميم : جمع لهموم وهو الضخم العظيم . يستلْهونها : يتلونها ، يصفهم بعظم الخلق وكثرة الأكل وضخم الأجسام .
(٥) مبير : مهلك .

وبذلك كان ذنب النابغة عظيماً ، وقد أخذ يدفع عن نفسه في اعتذاراته المشهورة التي قدمها إلى النعمان ، فعفا عنه ، وعاد إلى بلاطه من جديد ، وحظى برضاه ونائله الغمّر إلا أن كسرى لم يلبث أن غضب على النعمان ، فاستدعاه سنة ٦٠٢ للميلاد ، وألقى به في غياهب السجن حتى مات ، ويقال بل ألقى به تحت أرجل القبيلة . وواضح أننا لم نأخذ بالروايات^(١) التي رواها القدماء في سبب مفارقة النابغة لبلاط النعمان بن المنذر ووفوده على الغساسنة ، فقد زعموا أنه إنما فارق النعمان خوفاً على حياته ، فإن بعض الشعراء الذين نفسوا عليه مكانته عنده صنعوا على لسانه شعراً هجاء به هجاء مقذعاً ، وفي بعض الروايات أنه كان لأحدهم سيف قاطع كثير القرنند والجوهر ، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذه ، واضطغن صاحبه على النابغة فوشى به إلى النعمان وحرضه عليه . وفي رواية أن النابغة وصف زوج النعمان المتجردة وصفاً استقصى فيه أعضاءها ، فغار منه المنخل الإشكري وكان يهواها ، فوسوس إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا من جرب ، فغضب النعمان ، وعلم النابغة فهرب إلى الغساسنة . وسنرى فيما بعد أن قصيدته في المتجردة موضوعة .

وفي الحق أن كل هذه الروايات وما تضم من أشعار مخترعة ، اخترعها الرواة ليفسروا اعتذارات النابغة التي تنبئ بأنه جنى جناية عظيمة ، وأن هناك وشاة أوقعوا بينه وبين النعمان بن المنذر ، ولم تكن هذه الوشاية إلا وفوده على الغساسنة أعداء النعمان وما صاغه من المديح فيهم ، وقد كان يهيم النعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بينهم وبين ذبيان وقبائل نجد الغربية . فلم يكن ذنب النابغة عند النعمان ذنباً شخصياً ، وإنما كان ذنباً سياسياً . وقد عاد إليه يطلب الصفح والعفو ، لا لأنه بلغه أنه عليل كما تزعم بعض الروايات^(٢) .

ونعتقد أن سفارته لقومه في بلاطى المناذرة والغساسنة هي التي أقلت الإشارات في شعره إلى حروب داحس والغبراء ، إذ لم يشترك في وقائعها . ومع ذلك نراه في بعض شعره يأسى لتحول عبس إلى عامر ومفارقتها للديار أبناء عمومتهما من ذبيان ، يقول :

أبلغ بني ذبيان أن لا أخاً لهم بعبس إذا حلّوا الدماخ فأظلم^(٣)

(٣) الدماخ : جبال . أظلم : موضع .
يشير بهما إلى منازل بني عامر .

(١) الأغاني ١٢/١١ وما بعدها وانظر
ترجمته في الشعر والشعراء .
(٢) أغاني ٢٩/١١ .

همُ يَرُدُّونَ الموتَ عندَ لقائه إذا كان وِرْدَ الموتِ لا بُدَّ أَكْرَمًا
 وكأنه يحرّض قومَه أن يعودوا إلى السِّلْمِ مع عبس مستنصرين بها ضد أعدائهم ،
 ففيها شجاعة وجرأة وإقدام وغناء في الحروب . وليس في شعره أى إشارة لوعيد
 أو تهديد لعبس ، وكأنه كان يبقَى على القربى والرحم بينه وبينها ، فهو لا يتوعدّها غارة
 ولا يندد بالوقائع التى انتصرت فيها قبيلته . ولكن إذا كان قد ترك عبساً فقد تعرض
 لعامر حليفها يهددها ويهدد ساداتها وأبطالها من مثل زُرْعَة بن عمرو وعامر بن الطفيل
 بغارات شعواء لقومهما تُسبّي فيها الأطفال والنساء . ويحاول زرعة وبعض بنى عامر
 أن يدفعوا ذبيان لنقض ما بينها وبين أسد من حلف وعقد حتى تُحقّقن الدماء ،
 وعلم النابغة بذلك وأن عُسَيْيْسَةَ بن حِصْنٍ وبعض الديبانيين يفكرون فى الأمر ، فتولى
 غضباً ينشد القصائد مسفها بنى عامر وعيينة وداعياً قومَه إلى الوفاء بما بينهم وبين أسد
 من العهود والعقود ، وفى ذلك يقول قصيدته :

قالت بنو عامرٍ خالوا بنى أسدٍ يا بُؤْسٌ للجَهلِ ضَرَّاراً لأَقوامٍ^(١)

يَا بُيِّ البلاءِ فلا نَبْغى بهم بدلاً ولا نريدُ خِلاءً بعدَ إحكامٍ^(٢)

وتوجه إلى عيينة يعنفه تعنيفاً شديداً فى قصيدة أخرى ، يقول فى تضاعيفها :

إذا حاولتَ فى أسدٍ فجوراً فإنى لستُ منك ولستُ منى

وهو موقف يدل على نبهه وحرصه على الوفاء ، ويدخل فى ذلك مدحه لبنى أسد
 وإشادته بشجاعتهم وبلائهم فى الحروب .

وجميع أخباره وأشعاره الصحيحة تدل على أنه كان سيداً شريفاً من سادات
 قومه ، فهو لا يتفتّى تفتى امرئ القيس وطرفة وأضرابهما ، بل يتراءى سيداً وقوراً
 ذا خلق وشيم كريمة ، فهو لا يتدنّى فى سفاهة ولا يتبذل فى مجون . وفى أشعاره بعض
 إشارات مسيحية ، وقد جاءه ذلك من إقامته الطويلة فى الحيرة ولدى الغساسنة وكأنه
 استمع إلى بعض ما يقوله الأنحبار والرهبان ، ولكن لا شك فى أنه كان على دين

(١) خالوا : من المخالاة وهى نقض العهد . الخلاء : نقض العهد كالمخالاة .

(٢) البلاء : يقصد بلاءهم معهم فى الحرب .

آبائه يتعبَّد العُزَّى وغيرها من آلهتهم الوثنية، ويختلف معهم إلى الحج بمكة ،
وفي معلقته :

فلا لعمرُ الذي مسَّحتُ كَعْبَتَهُ وما هُرِّيقَ على الأنصاب من جَسَدٍ
فهو يقدس الدماء التي كانت تُصبُّ على الأنصاب .

وكان فيه حكمة ، وهي مبثوثة في شعره ، ويقول ابن حبيب إنه ممن حرَّم
الخمر والأزلام في الجاهلية^(١) . وهو بذلك كله يبدو سيداً وقوراً . ويظهر أنه نال
شهرة واسعة في عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب بل أيضاً في داخل
الجزيرة وبين الشعراء ، إذ كانوا يعرضون عليه في المواسم والأسواق أشعارهم .
قال صاحب الأغاني : « كان يُضْرَبُ للنابعة قُبَّةٌ من أَدَمٍ بسوق عكاظ ، فتأتيه
الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها . وحدث ذات مرة أن أنشدته الأعشى أبو بصير ،
ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الحنساء بنت عمرو بن الشريد :

وإن صَخْرًا لتأتُمُ الهداةُ بهِ كأنه عَلمٌ في رأسه نارٌ^(٢)

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ،
فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابعة : يا بن أخي
أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مُدْرَكِي وإن خِلْتُ أن المنشأى عنك واسعٌ
خطاطيفُ حُجْنٍ في حِبالٍ متينةٍ تَمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازِعُ^(٣)

فخَنَسَ حسان لقوله^(٤) . وفي رواية أخرى أنه لما غضب حسان وقال له
أنا أشعر منك ومن أبيك قال له حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرِّيَلَمَعَنُ بالضحي وأسِافُنَا يَقْطُرُنَ من نجدةٍ دما

(١) الحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد)
ص ٢٣٨ .

(٢) العلم هنا : الجبل .

(٣) خطاطيف : جمع خطاف وهو حديدة

(٤) أغاني ٦/١١ .

حجناء تستخرج بها الدلاء من البئر، حجن :

جمع حجناء وهي المروجة. نوازع : جواذب .

ويقصد قصائده التي يستعطفه بها .

(٢) العلم هنا : الجبل .

(٣) خطاطيف : جمع خطاف وهو حديدة

(٤) أغاني ٦/١١ .

ولدنا بني العنقاء وابنى محرقٍ فأكرمُ بنا خالاً وأكرمُ بنا ابناً^(١)

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقللت أجفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك^(٢) . وأكبر الظن أن هذه الزيادة في تلك الرواية من عمل بعض اللغويين الذين يذهبون إلى أن جمع المؤنث السالم ووزن أفعال في جمع التكسير يدلان على القلة . وفي الحقيقة لم يفتخر حسان بالأبناء دون الآباء ، بل لقد افتخر بالآباء ، وإن كان عبّر بكلمة ولدنا ، فهي مماحكة لفظية ، وما كان النابغة ليعمد إلى مثل هذه المماحكة والمغالطة . والمهم في الخبر أنه كان يحكم بين الشعراء فمن أشاد به تألق نجمه ومن أزرى به خمل ذكره .

وقد رجع إلى قبيلته بعد موت النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وأمضى فيها بقية حياته ، ويظهر أنه لم يعيش طويلاً ، فليس في أشعاره أى شيء يتصل بانتهاء حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ ولو أنه حضر نهايتها لأشاد بموقف سيدى قبيلته : هرم بن سنان والحارث بن عوف في حقن الدماء بما تحملا من ديات ، ومن ثمَّ كان لا يبعد عن الصواب ما زعمه لويس شيخو من أنه توفي سنة ٦٠٤^(٣) .

٣

ديوانه

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة نشرة ديرنبورج له في المجلة الآسيوية (١٨٦٨ - ١٨٦٩) وقد استخرجها من شرح الشنتمرى للدواوين الستة ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة . وسبق أن قلنا في حديثنا عن ديوان امرئ القيس إن هذا الشرح يحتفظ برواية الأصمعى لتلك الدواوين ، وبعد أن يفرغ منها يضيف إليها بعض قصائد من رواية الكوفيين . وقد اعتمد ديرنبورج في نشرته لديوان النابغة على مخطوطتين من شرح الشنتمرى وجدهما في

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤٠ / ٩

والموشح للمرزبان ص ٦٠ .

(٣) شعراء النصرانية ص ٦٤٠ .

(١) العنقاء : جد الخزرج الأول . محرق : هو الحارث بن جبلة الفسائي ، ومعروف أن الفسائنة كالخزرج من الأزد ، ولذلك يفخر بهم كما يفخر بقومه .

باريس ومخطوطة ثالثة وجدها في فينا وهي بشرح البطليوسي . وقد نُشر في سنة ١٨٩٩ ملحقاً للديوان في المجلة الآسيوية نقله عن مخطوطة في مجموعة شيفر وجد بها زيادات جديدة .

ونشر الديوان آلود في مجموعة الدواوين الستة التي عُنِي بها الشنتمري ، سنة ١٨٧٠ واستخرج نشرته من عدة مخطوطات إلا أنه لم يكتف بما جاء عند الشنتمري ، فقد ألحق بتلك الدواوين الستة زيادات وإضافات مما وجده منسوباً في كتب الأدب إلى كل منهم ، وقد نُشر الديوان في القاهرة مع هذه الدواوين ، ولكن لا بشرح الشنتمري وإنما بشرح البطليوسي . ونشر نشرة أخرى باسم «التوضيح والبيان عن شعر نابغة بني ذبيان» وقام على هذه النشرة مصطفى أدهم سنة ١٩١٠ . ونُشر في بيروت مع مجموعة دواوين أخرى باسم خمسة دواوين العرب ، وهي دواوين النابغة وعروة ابن الورد والفرزدق وحاتم الطائي وعلقمة الفحل . وقد نشره لويس شيخوف في مجموعته «شعراء النصرانية» معتمداً على نشرة آلود . ونشره مصطفى السقا في مجموعته «مختار الشعر الجاهلي» وهذه المجموعة كما مر بنا هي نفسها مجموعة الدواوين الستة التي عُنِي بها الشنتمري ، وإن كان الناشر لم ينقل معها شرحه ، فقد اختصره ، غير أنه احتفظ بكثير من الإشارات والتعليقات التي بثها الشنتمري فيه . وفي دار الكتب المصرية غير مخطوطة من هذا الشرح . وفي مكتبة أحمد الثالث بإستانبول مخطوطة للديوان بشرح ابن السكيت وكذلك في مكتبة فيض الله مخطوطة أخرى له بشرح الخطيب التبريزي . والمخطوطتان جميعاً مصورتان بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية .

وسنعمد في دراستنا للشاعر على شرح الشنتمري ، لأنه يحتفظ لنا برواية الأصمعي أوثق رواة الشعر الجاهلي ، وهي تنتهي عنده بالقصيدة رقم ٢٢ إذ يقول الشنتمري بعقبها : « كمل جميع ما رواه الأصمعي من شعر النابغة ، ونصل به قصائد متخيرة مما رواه غير الأصمعي إن شاء الله تعالى » وهي سبع قصائد رواها عن الطوسي ، وهو إنما يروي عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني ، ومعنى ذلك أن هذه القصائد مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعي أستاذ البصرة والبصريين . وكان الأصمعي كان يشك فيها أو كان ينكرها ، ولذلك لم يثبتها في روايته ، ومن ثمَّ

لا نستطيع أن نعتمد عليها في دراسة النابغة ، إنما نعتمد على ما رواه الأصمعي ،
ونتخذة أساساً لبحث الشاعر وشعره .

على أننا لا نكاد نمضي في رواية الأصمعي حتى نجد لها في حاجة إلى مناقشة ،
فإن الأصمعي احتفظ فيها بقصيدته في المتجردة : (أمن آل ميثاء رائح أو مغتد)
مع أنه كان لا يسند لها كما يقول الشنتمري . ومعنى ذلك أنها ضعيفة الرواية . ونحن
لا نقرؤها حتى نجد لها تتضمن غزلاً مفحشاً ، وهو غزل لا يتفق وشخصية النابغة
الوقور . ولو أن هذا اللون من الغزل كان دائراً في شعر النابغة لأمكن أن نقبلها ،
ولكنه يأتي شذوذاً في هذه القصيدة ، ليدل — كما مر في غير هذا الموضع — على
خبر مصنوع ، وضعه الرواة ليفسروا به السبب في غضب النعمان بن المنذر على
النابغة ، إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزل المماجن الذي يندى له الجبين ، وكأنما
ضاقّت الدنيا على النابغة فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش سوى زوج
النعمان . ولو أن الرواة كانوا متعمقين في فهم العصر الجاهلي وما كان فيه من
منافسة شديدة بين المناذرة والغساسنة ، بل لو أنهم تعمقوا في درس شعر النابغة
لعرفوا أنه اضطر اضطراراً إلى مغادرة بلاط النعمان والتوجه إلى الغساسنة حتى يفك
أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة ، بل لقد هزمهم هزيمة
منكرة . وبذلك فقد النعمان داعيته في ذبيان ، وغضب عليه غضباً شديداً . وما زال
النابغة عندهم ، ليرد كيدهم عن قومه ، حتى إذا دار الزمن وتوفي خصماً ذبيان من
الغساسنة ، وهما عمرو وأخوه النعمان ، رأى النابغة أن يعود إلى بلاط النعمان بن
المنذر ، لا خوفاً على نفسه كما يقول الرواة ، بل خوفاً من تأليب القبائل على قبيلته .
فالموقف كله كان موقفاً سياسياً ، ولم يكن موقفاً شخصياً ، ولذلك كنا نرد قصيدة
المتجردة ، كما نرد كل ما يتصل بقصة هرب النابغة من النعمان ورجوعه إليه حين
علم بمرضه ، ومن ثمّ كنا نشك في قصيدته الرائية التي يقول فيها :

ألم تر خير الناس أصبح نعشُهُ على فتية قد جاوز الحى سائرا
ونحن لديه نسأل الله خُلده يردُّ لنا ملكاً وللأرض عامرا

فإن الرواة وضعوها وضعاً ، ليصوروا لنا النعمان عليلاً ، ونفس أسلوها وما في
نهايتها من دعاء يدلان على أنها إسلامية ، ومن ثمّ ننكرها كما ننكر مقطوعته التي

تتصل بمرض النعمان والتي يتوجه فيها إلى حاجبه عصام قائلاً في مطلعها :
 ألم أقسم عليك لتخبرني أمحمولٌ على النعش الهمام
 وأيضاً فإننا نشك في قصيدته :

لعمرك ما خشيتُ على يزيدٍ من الفخر المضلل ما أثنى
 لأن الرواة يقولون إنه هجا بها يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابي حين أصاب
 إبلا للنعمان ، و كلاب عشيرة من عشائر بني عامر ، وهي قيسية مضرية ، ومع
 ذلك نجد النابغة يدعوها فيها يميناً إذ يقول في نهايتها : (ولكن لا أمانة لليمان)
 وما كان ليضل عنه أنه مضرى لا يميني ، وكأنما القافية أعوزت في البيت منتحله ،
 بل منتحل القصيدة فدعاه يمانياً ونسبه إلى اليمن . ومن القصائد التي جاءت في
 رواية الأصمعي و يملؤنا الشك فيها قصيدته :

بانت سعاد وأمسى حبُّها انجذماً واحتلت الشرع فالأجزاء من إضماً
 لأنها نسيب خالص ، ولأن بها روحاً إسلامية تتضح في قوله مخاطباً صاحبه :
 حيّاك ربّ فإننا لا يحلُّ لنا لهُوَ النساء وإن الدين قد عَزَمَا^(١)
 مُشْمِرِينَ على خُوصٍ مَزْمَةٍ نرجو الإله ونرجو البرّ والطّعما^(٢)
 وإذن فنحن ننكر خمس قصائد في رواية الأصمعي ونبي على سبع عشرة ، ومع
 إبقائها عليها لا نُخلِّيها من بعض أبيات أدخلت في روايتها ، فمن ذلك قصيدته العينية
 التي يعتذر فيها للنعمان ، فإن الرواة أدخلوا فيها خمسة أبيات تمضي على هذا النحو :

لعمري وما عمري على بهينٍ لقد نطقْتُ بطلاً على الأقارع^(٣)
 أقارعُ عوفٍ لا أحاول غيرها وجوهَ قرودٍ تبتغي من تُجَادع^(٤)
 أذاك امرؤٌ مستبطن لي بغضةً له من عدوٍّ مثل ذلك شافع

(١) الدين هنا : الحج . يريد أنهم عزموا عليه . فهو من باب القلب في التعبير .
 (٢) مشمرين : جادين . الخوص : الإبل غائرة العيون . مزمة : مشدودة بأزمته
 (٣) الأقارع : بنو قريع بن عوف .
 (٤) تجادع : تشاتم . ولفظ وجوه منصوب على الهمزة .

أَتَاكَ بِقَوْلٍ هَذِهِ النَّسِجِ كَاذِبٍ ولم يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعٌ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولِهِ ولو كُئِلْتُ فِي سَاعِدَيَّ الْجَوَامِعِ^(١)

وإنما أدخلوا هذه الأبيات ليُشيروا بها إلى ما قالوه من أن السبب في هربه من النعمان أن مرة بن سعد بن قريع وعبد قيس بن خُصاف نظما هجاء في النعمان على لسانه ، فلما علم به فَرَّ على وجهه . ونحن ننفي هذه الأبيات عن القصيدة ونبقى على ما عداها ونعده صحيحاً . ونقف نفس الموقف من هذه الأبيات التي جاءت في معاقته والتي يقول فيها عن النعمان بن المنذر :

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشَبِّهه ولا أحاشى من الأقوام من أحدٍ
إلا سليمانَ إذ قال الإله له قم في البرية فاحدِّدْها عن القَدِّ^(٢)
وخيسَ الجنِّ إني قد أذنتُ لهم يَبْنُونَ تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ^(٣)
فمن أطاعك فأنفعه بطاعته كما أطاعك وأدُلُّه على الرُّشدِ
ومن عصاك فعاقبه معاقبةً تَنْهَى الظُّلُومَ ولا تقعد على ضَمَدٍ^(٤)
إلا لمثلِكَ أو من أنت سابقه سَبَقَ الجَوَادُ إذا استولى على الأَمَدِ^(٥)

وواضح أنه يَستَرسِل في الحديث عن سليمان كأنه من أهل الكتب السماوية ، وقد كان وثنيّاً على مذهب قومه ، وبحق رأى طه حسين أن الأبيات "أفحمت على المعلقة إقحاماً"^(٦) . وقد نسبت إلى النابغة أبيات في غير رواية الأصمعي يقول فيها معتذراً إلى النعمان :

أتيتك عارياً خَلَقاً ثِيَابِي على خَوْفٍ تُظَنُّ بِي الظُّنُونُ
فَأَلْفَيْتُ الأَمَانَةَ لَمْ تَخُنْهَا كذلك كان نوحٌ لا يَخُونُ

(٤) الضمد : الفيظ وشدة الغضب .
(٥) الأمد : الغاية التي تجرى إليها الخيل .
والبيت معلق بما قبله أي لا تقعد على غيظ
إلا لمن هو مثلك في الناس أو قريب منك .
(٦) في الأدب الجاهلي ص ٣٣٧ وما بعدها .

(١) كبلت : وضعت . الجوامع : الأغلال .
(٢) احدها : امتعها . القند : الخطأ في القول والفعل .
(٣) خيس : ذلل . تدمر : مدينة الزباء في بادية الشام . الصفاح : سحابة عراض . العمد : أساطين الرخام .

ونفى الجللحظ^(١) وابن سلام^(٢) أن يكون النابغة قد قال هذا الشعر ، وكأنهما أحسّا ما أحسّ طه حسين إزاء الأبيات السالفة وأنها خليقة بأن تكون مصنوعة . ومثلها في المعلقة الأبيات التالية التي تصوّر فطنة الإمامة وعدّها الدقيق لحمام طائر في مضيق من الهواء يجعله يشتد في طيرانه ويسرع لإسراعاً :

أَحْكُمُ كَحَكْمِ فَتَاةٍ الْحَيِّ إِذْ نَظَرْتُ • إِلَى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ الثَّمَدِ^(٣)
يَحْفُهُ جَانِبًا نَيْقٍ وَتُبْعُهُ مِثْلَ الزَّجَاجَةِ لَمْ تُكْحَلْ مِنَ الرَّمَدِ^(٤)
قَالَتْ أَلَا لَيْتَا هَذَا الْحَمَامُ لَنَا إِلَى حَمَامَتِنَا وَنُصْفُهُ فَقَدِ^(٥)
فَحَسْبُوه فَالْفَوْهَ كَمَا حَسِبْتُ تَسْعًا وَتَسْعِينَ لَمْ تَنْقُصْ وَلَمْ تَزِدْ
فَكَمَلْتُ مَائَةً فِيهَا حَمَامَتُهَا وَأَسْرَعْتُ حِسْبَةً فِي ذَلِكَ الْعَدَدِ

وهي أبيات واضحة الانتحال . ونحن بعد ذلك نصصح بقية المعلقة ، كما نصصح قصائده ومقطوعاته الأخرى التي جاءت في رواية الأصمعي باستثناء ما أتهمناه .

٤

شعره

قرن ابن سلام النابغة إلى امرئ القيس وزهير والأعشى ، فهؤلاء الأربعة في رأيه هم المقدمون على سائر الشعراء في الجاهلية^(٦) ، وتبعه الرواة والنقاد يؤمنون بهذا الحكم ، وأن الأربعة حقاً هم المجتلون السابقون في اقتدارهم على تصريف الشعر والنظم في فنونه المختلفة .

في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء. وشبه عين زرقاء الإمامة بالزجاجة في صفتها . لم تكحل من الرمذ : لم يصيبها رمذ فتكحل منه .
(٥) قد : حسب .
(٦) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها .

(١) الحيوان ٢/٢٤٦ .
(٢) طبقات فحول الشعراء (طبع دار المعارف) ص ٤٩ - ٥٠ .
(٣) فتاة الحى : زرقاء الإمامة . شرع : مجتمعة . الثمد : الماء القليل .
(٤) يحفه : يحيط به . نيق : جبل . وجمل الحمام يمر في جانبي نيق لأنه إذا مر

وإذا استعرضنا دواوينهم جميعاً وجدنا النابغة يقرب في ذوقه من أوس بن حجر وزهير ومدرستهما التي اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح ، فهو لا يقبل كل ما يفد على خاطره ، بل لا يزال يثقفه ويصقل فيه حتى يستوى له اللفظ المونق والديباجة الجزلة . وقد أتيح له أن يعيش في بيتين متحضرين هما الحيرة وبلاط الغساسنة ، فرقاً ذوقه وسهل منطقته ولفظه ، وإن كان لم ينس البادية ولغتها وغرابة هذه اللغة .

وقد وقف القدماء طويلاً عند إجادته لفنى المديح والاعتذار ، غير أنهم عادوا فقالوا إنه أحد الأشراف الذين غصّ الشعر منهم ، فإنه مدح الملوك وقبل صلتهم ونوالهم ، وكان في غنى عن هذا القبول . « قيل لأبي عمرو بن العلاء : أفن مخافة النعمان بن المنذر امتدحه النابغة وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك؟ فقال : لا ، لعمر الله ما لمخافته فعل ، إن كان لآمنا من أن يوجه النعمان له جيشاً ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة ، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره (إبله) وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك^(١) » .

ويبعد في رأينا أن يكون قد وفد على أبي النعمان وجده كما يقول أبو عمرو بن العلاء وغيره من الرواة فإن ديوانه برواية الأصمعي يخلو من مديحهما . أما أن تكسبه بالشعر وأخذه نوال المناذرة وكذلك الغساسنة قد غصّ منه وأنزله من مرتبة شرفه فغير صحيح ، لأن وفوده عليهما لم يكن القصد منه التكسب ، وإنما كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا ، فقد كان سفيرها في بلاطهما . وحقاً إنه يبالغ في مديحه واعتذاره ، ولكنها مبالغة لا تنتهى إلى ذلة نفس ، بل هى المبالغة التى تأتى من أنه يتحدث إلى أمراء كان لهم سلطان كبير على القبائل العربية ، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته .

وليس شعره جميعه مديحاً واعتذاراً فقد رثى النعمان الغساني ، وهو يقدم لراثه ومديحه واعتذاراته بالنسيب ووصف ناقته ، وقد يخرج من ذلك إلى وصف الحيوان في الصحراء وصيده . وأيضاً فى شعره قصائد ومقطوعات تتصل بأحداث قبيلته

(١) أغاني ٢٩/١١ وما بعدها .

وأحلافها من بني أسد وأعدائها من بني عامر ، وبعبارة أخرى في شعره فخر وهجاء ، وفي تضاعيف ذلك كله نرى عنده أسراباً من الحكمة والتجربة الصادقة ، وما يدل على وفائه وصدق مودته .

ونحن لا نلتم بمدح الغساسنة حتى نؤمن حقاً بأنه كان شاعراً بارعاً ، يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع في معانيه وكيف يستم صورته . وخير مدائحهم فيهم قصيدته البائية ، وهو يستهلها بوصف طول الليل وما تجمع عليه فيه من الهموم ، يقول :

كِلِينِي لَهْمٌ يَا أُمِيمَةُ نَاصِبٍ وَلَيْلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءٍ الْكَوَكِبِ^(١)
تَطَاوَلَ حَتَّى قَلْتُ لَيْسَ بِمَنْقُضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرْعَى النُّجُومَ بِآيِبِ^(٢)
وَصَدْرٍ أَرَا حَ الْلَيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ^(٣)

فهو محزون في أول القصيدة يخاطب بنته أمانة ويشكو لها همومه وأشجانه لما وقع في قبضة الغساسنة من أسرى قومه ، ونراه يصور طول الليل وهمه فيه تصويراً بديعاً ، فالكواكب بطيئة لا تجرى ، حتى ليظن أن الصبح الذي يزعم النجوم بأضوائه ويحصدها حصداً لن يؤوب ، والليل يثقل على صدره بما يرد عليه من موجات الهم والحزن . وهي براعة استهلال رائعة تدل دلالة بيّنة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يجسم معانيه وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيماً بالصور . وقد خرج من ذلك تَوْأماً إلى مدح عمرو بن الحارث الغساني وآبائه وعشيرته ، ووقف طويلاً عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية ، وأطال في هذا التصوير قائلاً :

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ^(٤)
يُصَاحِبُهُمْ حَتَّى يُغْرَنَ مُغَارَهُمْ مِنَ الضَّارِيَاتِ بِالدِّمَاءِ الدَّوَارِبِ^(٥)

(١) كِلِينِي : دعيني . نَاصِبٍ : متعب .

بَطِيءُ الْكَوَكِبِ : كناية عن أنها لا تنور ولا تمضي .

(٢) آيِب : راجع . وَأَرَادَ بِرَاعِي النُّجُومِ الصَّبَاحَ .

(٣) أَرَا حَ : رد . الْعَازِبُ : البعيد .

(٤) عَصَائِبُ : جماعات .

(٥) الضَّارِيَاتُ : المتعودات . الدَّوَارِبُ : المدرّبة .

- تراهن خَلَفَ القوم خُزْرًا عيونُها
جوانحَ قد أيقنَ أنَّ قبيله
لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفنها
على عارفاتٍ للطعان عوابيس
إذا استنزلوا عنهن للطعن أرقلوا
فهم يتساقون المنية بينهم
يطير فضاضاً بينها كلُّ قونَسٍ
ولا عيبَ فيهم غير أن سيوفهم
تورثنَ من أزمانٍ يومِ حليلةٍ
تقدُّ السلوقي المضاعفَ نسجهُ
بضرب يُزيل الهام عن سكناته
- جلوسُ الشيوخ في ثياب المَرانِبِ^(١)
إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبٍ^(٢)
إذا عُرِضَ الخطى فوق الكواثِبِ^(٣)
بهنَّ كلومٌ بين دامٍ وجالبٍ^(٤)
إلى الموت إرقالَ الجمال المصاعِبِ^(٥)
بأيديهم بيضُ رفاقٍ المضاربِ^(٦)
ويتبعها منهم فراشُ الحواجِبِ^(٧)
بهنَّ فلولٌ من قِراعِ الكتائبِ^(٨)
إلى اليوم قد جربن كلَّ التجاربِ^(٩)
وتوقد بالصفاح نارَ الحُبابِ^(١٠)
وطعنَ كإيزاغ المتخاضِ الضواري^(١١)

وهو يبدأ تصويره بأن جماعات الطير من النسور والعقبان تتبع جيش الغساسنة ،
تنتظر زادهما من أشلاء قتلاهم وربما سبقه الأفوه بقوله :

وترى الطير على آثارنا رأىَ عيني ثقةً أن ستمار^(١٢)

فيها الحارث بن جبلة الغساني على المنذر بن ماء السماء .

(١٠) السلوقي : الدرع المنسوبة إلى سلوق من أرض اليمن . تقد : تشق . الصفاح : الحجارة ويريد خوذ الجنود . الحباب : ذباب له شعاع بالليل .

(١١) الهام : جمع هامة وهي الرأس . سكناته : حيث يسكن ويستقر . الإيزاغ : دفع الناقة بولها . المخاض : الحوامل .

(١٢) انظر ديوان الأفوه ص ١٣ . تمار : تعطى الميرة من لحوم القتلى .

(١) خزر العيون : جمع أخزر وهو الذي ينظر بمؤخر عينه . المranِب : ثياب سوداء .

(٢) جوانح : مائلات للوقوع .

(٣) الخطى : الرماح . الكواثِب : القربوس .

(٤) عارفات : صابرات . كلوم : جروح . دام وجالب : مدم ومتجمد عليه الدم .

(٥) أرقلوا : أسرعوا . المصاعب : النافرة .

(٦) بيض : سيوف .

(٧) فضاضاً : متفرقاً . القونس : أعلى الرأس . فراش الحواجِب : عظامها .

(٨) فلول : ثلوم . قراع : مضاربة .

(٩) يوم حليلة : معركة مشهورة انتصر

غير أن النابغة فصل الصورة حتى يحكم المعنى ويكشفه كشفاً دقيقاً ، فالنسور والعقبان خزر العيون ، وهي تشبه في ألوانها ثياب المرانب السوداء التي يلبسها الشيوخ ، وهي تسير خلفهم موقنة بأنها لا بد أن تجد زادها من أعدائهم ، وأنها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد ، وهي لذلك لا تزال بجانبه ، عادة عرفتُها فيهم لا يخلفونها ولا يطلونها . وقد أعجب القدماء طويلاً بهذه الصورة عند النابغة ، فتعاور عليها الشعراء ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته وقدرته^(١) . ويمضى النابغة فيصور شجاعة الجيش ، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بين مدم ومتجمد عليه الدم . ونلاحظ هنا الدقة في الوصف ، وهي دقة استتبعَت ضرباً من الطباق . وقد صورهم يتساقون كثوس المنيّة ، كناية عن جرأتهم في الحرب واقتحامهم لأهوالها ، ثم صور كيف يشخون في أعدائهم ، ولم يلبث أن جاء بصورة طريفة ظاهرها ذم وباطنها مدح شديد ، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد ، وهو ليس في حقيقته عيباً ، بل هو مفخرة من مفاخرهم ، فسوفهم مفلة من طول قراعها ومضاربتها للكتائب . ومثل هذا التعبير الذي سبق إليه يدل على أنه كان يدقق في معانيه وألفاظه جميعاً . ولم ينس أن يشير إلى نصرهم القديم في يوم حكيمة الذي هُزم فيه المناذرة شر هزيمة ، حتى لقد قُتل المنذر بن ماء السماء في ساحة المعركة . وقد جعل سوفهم المفلة تشق الدروع المتينة وتمزق أصحابها تمزيقاً مطيحة برءوسهم ومرساة شرراً لا ينقطع ضياؤه حتى وكأنه أشعة الجباحب ، وسيولا من الدماء كأنها إيزاغ المخاض . حتى إذا استوفى كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة في ميادين الحروب انتقل يصورهم في سلمهم متحدثاً عن شيمهم وشمالهم ودينهم ونعيمهم ، يقول :

لهم شيمَةٌ لم يُعْطِها اللهُ غيرهم من الجود، والأحلامُ غَيْرُ عَوَازِبِ^(٢)
محلَّتْهم ذاتُ الإله ، ودينُهم قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقبِ^(٣)

عازب وهو الغائب .

(٣) محلَّتْهم : منزلَّتْهم ، ذات الإله : يقصد كنائسهم .

(١) انظر الصناعتين للمسكري (طبعة

الخلبي) ص ٢٢٥ والوساطة للجرجاني (طبعة

الخلبي) ص ٢٧٤ .

(٢) الأحلام : العقول . عواذب : جمع

رَقَاقُ النَّعَسَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ يُحَيُّونَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَّاسِ^(١)
 تَحْيِيَّتُهُمْ بَيَاضُ الْوَلَائِدِ بَيْنَهُمْ وَأَكْسِيَّةُ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ^(٢)
 يَصُونُونَ أَجْسَادًا قَدِيمًا نَعِيمُهَا بِخَالِصَةِ الْأُرْدَانِ خُضِرِ الْمَنَاقِبِ^(٣)
 وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرًّا بَعْدَهُ وَلَا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةً لَا زَبَ^(٤)
 حَبَوْتُ بِهَا غَسَّانَ إِذْ كُنْتُ لَاحِقًا بِقَوْمِي وَإِذْ أُغِيَتْ عَلَى مَذَاهِبِي^(٥)

وهو في أول الأبيات يصفهم بالجود ورجاحة الأحلام والعقول ، ثم يأخذ في وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم ، وكان الغساسنة نصارى كما مر بنا في غير هذا الموضع . ويقول إن منازلهم تحل بأمكنة مقدسة ، ولعله يريد كنائسهم ، ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب ، وكأنه يستحثهم على أن يفكوا أسرى قبيلته من أغلالهم . وتحول يصفهم بالترف وما كانوا فيه من رفاهة العيش ، فهم رقاق النعال ، وهم أعفاء ، يحيتون بالأزهار في عيد السَّبَّاس أو يوم الشَّعَّانين ، وهو من أعياد النصارى ، وهم منعمون يلبسون ثياباً بيض المناكب خضر الأكمام . وعاد يستعطفهم على قومه وأنهم إذا كانوا أهاجوهم واستتبع ذلك شراً وبلاء فإن في الغساسنة خيراً كثيراً . ولم يلبث أن صرح بما جاء من أجله ، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه ، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رَحُبَتْ بسبب من أُسِرَ منهم عند ممدوحيه ، وكأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم ، وردوها فعلاً لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع . وواضح أن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء النابغة لمعانيه وعرضها في معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور المونقة الدقيقة . وقد نفذ في أثناء ذلك إلى معان حضرية جديدة ، إذ صور دينهم وترفهم وما هم فيه من نعيم . وهو في ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير في مديحه ، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعاني ولا تلم بخواطرهم ، أما هو فعاش أغلب أيامه في الحيرة وفي بلاط الغساسنة ،

(٣) الأردن : الأكمام . وخلصها :
 نصوع بياضها .
 (٤) لازب : لازم .
 (٥) بها : يريد قصيدته . أُغِيَتْ مَذَاهِبُهُ
 عليه : ضاقت وسدت .

(١) الحجرات : معابد الثياب . طيب
 حجراتهم : كناية عن عفتهم .
 (٢) الولائد : الجوارى والإماء . الإضريح :
 الحريز الأحمر . المشاجب : جمع مشجب
 وهو أعواد تعلق عليها الثياب .

فكان طبيعياً أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتي بمثل هذه المعاني التي تروق بمدوحيه من الأمراء .

وإذا كان النابغة يتفوق في المديح تفوقاً ظاهراً فإنه كذلك يتفوق في الاعتذار ، وكان ذوقه الحضري هو الذي أعدّه لهذا التفوق ، إذ نحس فيه رقة في اللهجة وإلحاحاً في التلطف محاولاً أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه . وقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني والتدقيق فيها ، مدبجاً في ذلك قصائد طوالاً تُعَدُّ من أروع ما خلفه العصر الجاهلي لا طولها فحسب ، بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته . وقد أسعفه في ذلك ذوقه الحضري الذي خلصه من خشونة البدو ومن الأنفة الجاحمة ، فإذا ذنبه يكبر في نفسه ، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغتفر ، فإني يقدم للنعمان المعاذير متخذاً إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة . وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام ، حيفاً على صداقته القديمة له واستبقاء لوده ، وهو حسن تأتٍ لا صغار نفس ولا مهانة ، ولا طلباً لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء ، وإنما هو الذوق الحضري الذي اكتسبه النابغة والذي جعله يختلف عن معاصريه ويقرب من ذوق العباسيين المتحضرين ، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى الممدوحين ويأخذون في التنصل منه ، وتقديم شتى المعاذير . وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه ، وارجع إلى المعلقة فستراه يستهلها بوصف أطلال دارمية ، ثم وصف ناقته التي قطع بها الصحراء إلى مقصده مفتتناً في تصويرها ، ومشبهاً لها بثور تناضله كلاب الصيد ، حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يمدحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والحيل ومن الجوارى المنعمات ، ثم مضى يستعطفه قائلاً :

فلا لعمرُ الذي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وما هُرِّيقَ على الأنصابِ من حَسَدٍ^(١)

والمؤمنُ العائذاتِ الطيرِ تمسحها رُكبانُ مكةَ بين الغيلِ والسَّعدِ^(٢)

العائذات : اللاجئات إلى الحرم . تمسحها
الركبان : يريد أنها تمسح عليها ولا تهيجها
بصيد . الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومنى .

(١) مسحت : لمست أنفك البركة . هريق :
سال . الحسد : الدم . الأنصاب : الحجارة
التي كانوا يذبحون عليها قرابينهم للالهة .
(٢) المؤمن : الذي آمنها من الخوف .

ما قلتُ من سيِّئٍ مما أُتيتُ بهِ إذنُ فلا رفعتُ سَوْطِي إلى يَدِي
إلا مَقَالَةً أَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا كانتِ مَقَالَتُهُمْ قَرْعاً عَلَى الْكَبِدِ^(١)
إذنُ فعاقبني ربي معاقبةً قَرَّتْ بِهَا عَيْنٌ مِنْ يَأْتِيكَ بِالْفَنَدِ^(٢)
أُنبِثُ أَنْ أَبَا قَابُوسَ أَوْ عَدْنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرِ مِنَ الْأَسَدِ^(٣)
مهلاً فِدَاءً لَكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ وَمَا أَثْمَرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدٍ^(٤)
لَا تَقْذِفْنِي بِرُكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ وَإِنْ تَأَثَّفَكَ الْأَعْدَاءُ بِالرَّفْدِ^(٥)
وواضح أنه يقسم له بأيمانه الوثنية المغلظة أنه برىء مما ينتهم به من غدر ،
ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق ، ولتشلَّ يده إن كان ما يقول الوشاة
صحيحاً . ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقرته وبطشه ، ويمثله أسداً
جائعاً يزأر ، وقد وقع منه موقع الفريسة . وسرعان ما يعود إلى الاستعطاف ،
فالناس جميعاً من غساسنة وغير غساسنة فداء النعمان ، بل إنه ليفديه بماله
وولده ، ويقول له لا ترمني بما لا أطيق منك ، وأنت الذي لا يستطيع الأعداء
مهما تآزروا أن يثبتوا له . ويخرج من ذلك إلى مديحه ، ثم يعود إلى استعطافه
فيقول :

فما الفُرات إذا هبَّ الرياحُ لَهُ تَرْمِي أَوَاذِيهِ الْعَبْرِينَ بِالزَّبْدِ^(٦)
يَمْدُهُ كُلُّ وَادٍ مُتَرَعٍ لَجِبٍ فِيهِ رُكَامٌ مِنَ الْيَنْبُوتِ وَالْخَضْدِ^(٧)
يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ الْمَلَّاحُ مُعْتَصِماً بِالْخَيْزُرَانَةِ بَعْدَ الْأَيْنِ وَالنَّجْدِ^(٨)
يوماً بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِلَةٍ وَلَا يَحُولُ عَطَاءُ الْيَوْمِ دُونَ غَدٍ^(٩)

(٧) مترع : مملوء . لجب : ذوصوت شديد .
الينبوت : شجر . الخضد : المحطم من الأشجار .
(٨) الخيزرانة : سكان السفينة . الأين :
التعب . النجد : الكرب .
(٩) سيب : عطاء . نافلة : زيادة .
يريد أن عطائه وفر .

(١) القرع : الضرب .
(٢) الفتد : الكذب .
(٣) أبو قابوس : النعمان بن المنذر .
(٤) أثمر : أنمى وأجمع .
(٥) الكفاء : النظير والمثل . تأثف :
تجمع . الرغد : الجماعات من الناس .
(٦) أواذيه : أمواجه . العبرين : الشاطئين .

هذا الشناء فلن تسمع به حسناً فلم أعرض - أبيت اللعن - بالصفد^(١)
ها إن ذي عذرة إلا تكن نفعت^(٢) فإن صاحبها مشارك النكد^(٣)

وقد بدأ فشبهه بالفرات في كرمه ، ثم أخذ يصف الفرات في ارتفاع فيضانه ،
وعمد إلى تفصيل الصورة ، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية في دقة التصوير ،
فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد ، وهو ينساب حاملاً ما يقتلعه من
الأشجار والنباتات ، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصماً في مركبه
بسكاتها يخشى الغرق . وقد نبي أن يكون الفرات في فيضانه أكرم من النعمان وأكثر
سبيهاً . ودائماً يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة ، ليدل على براعته . ونراه
يعود إلى استعطاف النعمان ، وأنه قدم له هذا الشناء لا يبغى به نواله ، وإنما يبغى
رضاه ، وأنه إن لم يقبل اعتذاره ألقى به في مهاوى النكد والهم . ومن بديع اعتذاراته
قصيدته العينية ، وفيها يقول :

وعيد أبي قابوس في غير كنهه
فبت كاني ساورتني ضئيلة
يسهد من ليل التمام سليمها
تناذرها الراقون من سوء سمها
أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتني
أتاني ودوني راكس فالضواجع^(٣)
من الرقش في أنيابها السم ناقع^(٤)
لحلي النساء في يديه قعاقع^(٥)
تطلقه طوراً ، وطوراً تراجع^(٦)
وتلك التي تستك منها المسامع^(٧)

(١) الصفد : العطاء . أبيت اللعن : تحية
كانوا يحبون بها ملوكهم .

(٢) عذرة : اعتذار . مشارك النكد :
حليف نكد وهم .

(٣) في غير كنهه : كنهه : حقيقته ،
يريد على غير ذنب منه . راكس : واد في

منازل بني أسد . الضواجع : منحى الوادى .

(٤) ساورتني : لدغتنى . ضئيلة : أفى

دقيقة الجسم . الرقش : جمع رقشاء ، وهى

المنطقة نقطاً بيضاء وسوداء . ناقع : قاتل .

(٥) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام :

أطول ليالى الشتاء . السليم : الملدوغ . قعاقع :

أصوات . كانوا يجعلون الحلى في يد الملدوغ

اعتقاداً منهم بأنها تشفيه .

(٦) يقول من خبثها لا تجيب الراقى . بل

مرة تجيب ومرة لا تجيب . تناذرها الراقون :

خوف بعضهم بعضاً منها .

(٧) تستك : تضيق .

وذلك من تلقاء مثلك رائع
 وهل يَأْتَمَنُ ذو أُمَّةٍ وهو طائع^(١)
 يَزُرْنَ إِلَّا لَأَ ، سَيْرُهُنَّ التَّدَافُعُ^(٢)
 لهن رذايا بالطريق ودائع^(٣)
 فهنَّ كأطراف الحَنِيِّ خَوَاضِعُ^(٤)
 كَذَى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو رائع^(٥)
 ولا حَلِيقٍ على البراءة نافع
 وأنت بأمرٍ لا محالة واقع
 وإن خِلْتُ أَنَّ الْمُنتَأَى عنك واسع^(٦)
 تَمُدُّ بها أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ^(٧)
 وتترك عَبْدًا ظالماً وهو ضالع^(٨)
 وَسَيْفٌ أُعِيرَتْهُ المنيَّةُ قاطع^(٩)
 فلا النَكَرُ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائع^(١٠)

مقالةً أَن قد قلتَ سوف أَناله
 حلفتُ فلم أَترك لنفسك ريبةً
 بمصطحباتٍ من لَصَافٍ وَثْبَرَةٍ
 سَمَاماً تُبَارَى الرِّيحَ خُوصاً عيونها
 عليهنَّ شُعْتُ عامدون لِحَجَّهِمْ
 لكُفْتُني ذنب امرئٍ وتركتَه
 فإن كنتَ لاذو الضَّغْنِ عني مكذِّبٌ
 ولا أَنَا مَأْمُونٌ بشئٍ أَقُولُهُ
 فإنك كالليل الذي هو مدركى
 خطاطيفٌ حُجْنٌ في حبالٍ متينةٍ
 أَنوعِدَ عَبْدًا لم يَخُنْكَ أمانةً
 وَأَنْتَ ربيعٌ يُنْعِشُ النَّاسَ سَيْبُهُ
 أَيْ الله إِلَّا عَذْلُهُ ووفاءه

(١) طول السفر . الحنى : القسى . الخواضع :
 المتطامنة رهوسها من الأرض .
 (٥) العر : الحرب . وكانوا يداوون الإبل
 منه بكيها .
 (٦) المنتأى : المكان النائي البعيد .
 (٧) مرشرحه .
 (٨) ضالع : مائل عن الحق ، ويروى
 ظالع وهو الجائر المذنب .
 (٩) الربيع هنا : الغيث . السيب :
 العطاء .
 (١٠) النكر : المذكر . العرف : المعروف .

(١) أمة هنا : دين .
 (٢) بمصطحبات : أقسم بالإبل التي
 تصطحب في المسير إلى الحج . لصف وثرية :
 موضعان في ديار تميم . إلال : جبل بعرفة .
 التدافع : العجلة .
 (٣) سماما : طائر شديد الطيران شبه به
 الإبل في سرعتها . خوصاً : غائرات من شدة
 السير وإجهاده . رذايا : جمع رذية وهي
 الساقطة إعياء من الإبل . ودائع : مستودعات
 في الطريق . يريد ما سقط منهن إعياء فترك .
 (٤) شعث : جمع أشعث وهو المفبر من

وَتُسْقَى إِذَا مَا شَتَّ غَيْرَ مُصَرَّدٍ بزوراء في حافات المسك كانع^(١)
 وهو في أول هذه الأبيات يقول له : إن وعيدك أتاني وأنا آمن في قومي وبيني
 وبينك منازل بني أسد ومن وراءهم ، فألمت حفظاً للعهد وبت مسهداً ، كأنما
 لدغني أفعى ، وهي صورة بارعة ، وقد أخذ يدق فيها حتى يجسم ألمه ، فهي أفعى
 من الرقش تستودع السم في أنيابها الحادة ، فمن عضته لم يطف به النوم من شدة
 الألم ، وعلق عليه أهله الحلى والحلاخيل حتى يفيق ويبرأ . وهي من الأفاعى الخبيثة
 التي قلما أجابت الرقى ، وإن الرقاة والحاوين ليرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا
 حياها . ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه ، ويحلف له بأيمانه
 الوثنية ، ويختار هنا الحلف بالإبل التي كانوا يندرونها لآلهتهم ، ويقف ليعطينا
 صورة عن هذه الإبل ، فهي تقبل على مكة مسرعة سرعة السمام ، حتى لكأنها
 تبارى الريح ، وقد أجهدت من السير وطول السفر ، حتى إن بعضها سقط في
 الطريق إعياء ، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً . وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون
 يقصدون الحج ، وقد أخذها النحول حتى لكأنها القسي الضامرة . وهذا اليمين
 العظيم يقسم به متنبلاً مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغساسنة
 يمدحهم ويهجوهم ، وكان حرياً به أن ينزل سخطه لا عليه ، وإنما على هذا الواشى
 وإلا فثله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السليم يكوى من الحرب ، والأجرب
 رافع بجانبه لا يصيبه كى ولا أذى . وهي صورة أخرى بارعة . ويقول إن كنت
 لا تكذب من يضطغن عليّ ولا تصدق يميني ولا حلني فما أحراني بالرهبة منك
 والخوف من بطشك ، ويودع ذلك صورة رائعة ، إذ يتخيل النعمان كالليل ،
 لا مفر لشخص من أن يطبق عليه . وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده
 التي يرسل بها إليه ليلين قلبه عليه كأنها خطاطيف معوجة ثبّتت في جبال متينة ،
 وأيدى النابغة تمد بها إليه ، تريد أن تظفر بعطفه ورضاه . ويصور له أمانته وأنه
 لا يخون عهده ، بينما من يختانون هذا العهد يقربهم ويرعاهم ، ويختم اعتذاره إليه
 بمدحهم والثناء عليه ، فهو غيث منعش لأوليائه وسيف مصلت على أعدائه ، وقد

(١) مصرد : من التصريد وهو الشرب دون
 الرى : زوراء : كأس طويلة من فضة كان
 النعمان يشرب فيها . كانع : لاصق .

براه الله لرعيته عادلاً وفيّاً ، لا يلتقي المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر ، يجزى على الإساءة إساءة وعلى الإحسان إحساناً ، وانتهى بتمثيل ما هو فيه من نعيم ، فهو يشرب في كأس مفضضة مُزَج ما فيها بالمسك والطيب . ومن رائع اعتذاراته إليه قوله :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لُمْتَنِي
فَبِتُّ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشَنِي
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبَةً
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عَنِي خِيَانَةً
ولكنني كنتُ امرأً لى جانبُ
ملوكُ وإخوانُ إذا ما آتَيْتُهُمْ
كفعلك في قومٍ أراك اصطنعتهم
وإنَّك شمسُ والملوكِ كواكبُ
فلا تتركُنِي بالوعيدِ كأنني
ألم تر أن الله أعطاك سُورَةً
ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمهُ
فإنَّ أك مظلوماً فعبداً ظلمته

وتلك التي أهتمُّ منها وأنصَبُ^(١)
هَرَأْساً به يُعَلَى فِرَاشِي وَيُقَشَّبُ^(٢)
وليس وراءَ الله للمرءِ مذهبُ
لمبلغك الواشي أَعَشُّ وأَكْذَبُ
من الأرضِ فيه مُسْتَرَادٌ ومَذْهَبُ^(٣)
أَحْكَمُ في أموالهم وأقربُ
فلم ترهم في شكرِ ذلك أذنبوا
إذا طلعتُ لم يبدِ منهم كوكبُ
إلى الناسِ مَطْلِي به القارُ أَجْرَبُ^(٤)
تري كلَ مَلِكٍ دونها يَتَذَبَذَبُ^(٥)
على شَعَثٍ، أَيْ الرجالِ المهذَّبِ^(٦)
وإنَّك ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتَبُ^(٧)

وواضح أنه يصور نفسه في أول هذه الأبيات حين بلغه لوم النعمان بمريض ،

(١) أنصب : أجهد جهداً شديداً .
(٢) الهراس : شجر كثير الشوك .
العائدات : الزائرات في المرض . فرشني :
بسطن لي . يقشِب : يحدد .
(٣) جانب من الأرض : متسع . مستراد :
يذهب فيه الإنسان كما يريد . كناية عن إكرام
الغساسة له في ديارهم .
(٤) القار : القطران ، وكانوا يداون به
الإبل الجربى .
(٥) السورة : المنزلة . يتذبذب : يضطرب
ولا يصل إليها .
(٦) شعث : فساد . تلمه : تجمعه وتضمه .
(٧) عتبى : رضا . يعتب : يعطى العتبى
والرضا .

قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفاً عليه . ويحلف له بأنه يرى مما أتهمه به الواشى ، إذ لا يزال يرعى أمانة عهده ، وكل ما هناك أنه ألم بديار الغساسنة ، فأكرموه وحكّموه في أموالهم ، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويغدق عليهم من نواله . وهو بذلك يقيم الحجة على النعمان ، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جهود لولائه ، وما يلبث أن يرفعه على جميع الملوك من غساسنة وغير غساسنة ، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم ، يتوارون في ضيائه ومجده ، وهى صورة باهرة لاشك أنها تركت أثراً بليغاً في نفس النعمان . وقد تلاها باستعطافه ، فصور له ما صبه عليه من غضب بالقار يُصَبُّ على الأجرب فيتحمامه الناس . ويعود إلى بيان منزلة صاحبه وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكائنه ، بل يضطربون دون سمائه . ويقول له : هَبْ أن مديحى للغساسنة هفوة واعفُ عني ، فإن لكل شخص هفوة ، وأين الأخ الذى لا يهفو ولا يعثر ؟ ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياه ومن يخلصون له الولاء ، فإن ظلمتني قبلت ظلمك ، وإن أسدلت على عفوك ورضاك فليس غريباً منك ، فثلك يعتب ويصفح الصفح الجميل .

ولعل في كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة النابغة في اعتذاره ومديحه جميعاً ، فقد كان يعرف كيف ينوع معانيه وكيف يسلك إليها شعاباً لم يسلكها أحد من قبله . والذى لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق ، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعان دقيقة ، يقوده في ذلك ذوقه الحضري الذى نصب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذنباً كبيراً وجرمًا لا يغتفر في حق النعمان بن المنذر ، وقد أخذ يتنصل من هذا الجرم تارة ويعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية . وبذلك كان فاتحاً لباب الاعتذار على مصراعيه ، وعلى هديته تبعه الشعراء في العصور الإسلامية متخذين منه قدوتهم .

وإذا كنا أعجبنا باعتذارات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضاً برثائه للنعمان بن الحارث الأصغر الغساني ، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهاً لها بحمار وحشى ، ويخرج من ذلك إلى الرثاء ، فيقول إنه أحزنه نعي النعمان وإن كان سرّاً قيساً لما أثنى فيها بحروبه . وهو يعبر بذلك عن وفائه واعترافه بالجميل ،

ومن ثمَّ لا يشمت بموت النعمان كما شمت ذبيان وغيرها من قبائل قيس ، بل إنه ليدعو على أعدائه أن لا يهثوا بمصرعه ، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها في القبائل . ويقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد والضم بسابق الود ، فقد ظنوا أنه لن يرثي النعمان ولن يذكره ، ويقول كيف لا يذكره ، وقد حرك موته ما يشبه الداء العضال في فؤاده ، ونحس أنه سَعَرَ قلبه وأشعل صدره بشعلة من الحزن لا تخبو . وما زال يبكيه متعزياً بأن الموت سنة الأحياء وأنه كأس دائر على الجميع ، حتى قال داعياً له ومترحمًا عليه :

سَقَى الْغَيْثُ قَبْرًا بَيْنَ بُصْرَى وَجَاسِمٍ بَغِيْثٍ مِنَ الْوَسْمِيِّ قَطْرٌ وَوَابِلٌ^(١)
ولا زال ريحانٌ ومسكٌ وعَنْبَرٌ على منتهاه دِيْمَةٌ ثم هَاطِلٌ^(٢)
وَيُنْبِتُ حَوْذَانًا وَعَوْفًا مُنَوَّرًا سَائِبِغُهُ مِنْ خَيْرِ مَا قَالَ قَائِلٌ^(٣)

وهو يستمطر على قبره شأبيب الغيث ، ولا يكتفى بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطرًا بالريحان والمسك والعنبر ، ولا تزال تمده الأمطار بما يُنبت عنده النباتات العاطرة من مثل الحوذان والعرف . وحقًا كان الشعراء حوله ومن قبله يستسقون السحاب لقبور من يفقدونهم ، ولكنه مدَّ أطناب الصورة بذوقه الحضري وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر ، ودعا للأرض أن تُنبت من حول النعمان الأزهار والرياض . وهي صورة حضارية تقابل أختها التي مرت في مديحه لأخيه عمرو . وقد قدّم لهذه المراثية كما قلنا بالنسيب ، وهو يقدم به لبعض اعتذاراته مؤتسباً بمن حوله من شعراء الجاهلية إذ كانوا يضعونه غالباً في مقدمات قصائدهم ، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم . ومن نسيبه قوله في فاتحة معلقته التي أودعها إحدى اعتذاراته :

يا دار مَيَّةَ بالعلياء فالسندِ أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأبدِ^(٤)
وقفتُ فيها أصيلاً أسائلُها عَيْتٌ جواباً وما بالربيع من أحدٍ^(٥)

(٤) العلياء والسند : موضعان . أقوت : خلت . الأبد : الزمن .
(٥) أصيلاً : تصغير أصلان جمع أصيل أو لعله مصدر من أصيل على وزن غفران . عيت : عجزت .

(١) بصرى وجاسم : موضعان بالشام .
الوسمي : أول المطر . وابل : غزير .
(٢) منتهاه : قبره . الديمه : المطر ليس فيه برق ولا رعد . الهاطل : المطر المتتابع .
(٣) الحوذان والعوف : نباتان طيبا الرائحة .

إِلَّا الْأَوَارِيَّ لَايًّا مَا أُبَيِّنُهَا وَالنُّؤَى كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلْدِ^(١)
 رُدَّتْ عَلَيْهِ أَقَاصِيهِ وَلَبَّدَهُ ضَرَبُ الْوَلِيدَةِ بِالْمِسْحَاةِ فِي الثَّأْدِ^(٢)
 خَلَّتْ سَبِيلَ آتِيٍّ كَانَ يَحْبِسُهُ وَرَفَعَتْهُ إِلَى السَّجْفَيْنِ فَالْنَّضْدِ^(٣)
 أَمَسْتُ خَلَاءً وَأَمْسَى أَهْلُهَا احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبْدِ^(٤)

وهو يستهلها بنداء دار مية ولا يسمع رجعا لندائه ولا ردّا عليه ، فقد خلت من سكانها وبارحوها منذ أمد طويل . ويقول إنه وقف بها وقت الأصيل يسألها ولا من مجيب ، ويصف آثارها وما أبقى الزمن منها ، ويقول لم يبق منها إلا الأوتاد وإلا النؤى . ويطيل في وصفه ليظهر قدرته الخيالية ، فقد حفرتة بجارية في أرض صلبة ، وما زالت ترد أتربته على حوافيه ، بأسطة طريقه إلى الخيام ليرد عنها سيول المطر . وقد أبدع في تسمية الأرض التي لم تحفر بالمظلومة ، وهو أول من أعطاها هذا الاسم ، كأنه أحس إزاء الصخر الذي لا يُحرث ولا يزرع بضرب من الظلم . وقد ختم نسيبه بإظهار هذه الدار التي رحل عنها أهلها بمظهر بال ، فقد جرّت الأيام عليها أذيال البلى والعفاء ، كما جرّتها من قبل على لبّد نسّر لقمان المشهور بطول عمره وطول سلامته .

وواضح أن هذا النسيب فيه قدرة بارعة على الوصف ، ولكن ليس فيه عاطفة قوية ، وربما رجع ذلك إلى وقار النابغة ، فهو ينسب بالمرأة لايصور حبّا ، وإنما ليتمسك بهذا التقليد الثابت عند الجاهليين من افتتاح قصائدهم بوصف آثار الديار وما صنعت بها الأحداث . وقد أوشك في مقدمته لاعتذاريته العينية أن يصور عواطفه وحبّه ولكنه لم يكذ يقول :

فَكَفَكْتُ مَنِي عِبْرَةً فَرَدَدْتُهَا عَلَى النَّحْرِ مِنْهَا مُسْتَهْلٌ وَدَامِعٌ^(٥)

رفعت : أعلته . السجفان : مصراعا السر في الخيمة . النضد : المتاع .
 (٤) أخنى عليها : أصابها بآفات الدهر .
 لبّد : نسّر للقمان يقولون إنه عمر طويل .
 (٥) كفكف الدمع : مسح . المستهل : السائل . الدامع : الذي يترقق في العين قبل أن يسقط .

(١) الأوارى : الأوتاد وما يربط بها من حبال . النؤى : حفرة حول الخيام تمنع عنها السيول . المظلومة : الأرض صعبة الحفر .
 الجلد : الصلبة .
 (٢) لبده : جمعه . الوليدة : الأمة .
 الثأد : الثرى الندى .
 (٣) خلت : شقت . الأتى : السيل .

حتى أمسك نفسه ، وعاتبها على الصبوة وقد علا رأسه الشيب . ونراه في معلقته يخرج من الغزل إلى وصف ناقتة على عادة الشعراء من حوله ، فيصور قوة متنها وسرعة سيرها ومضائها ، ثم يأخذ في تشبيهها بثور وحشى ، ويدفعه ذلك إلى وصف صائد وأكلبه وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك ، يقول :

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ
أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَازِ سَارِيَّةٌ
فَارْتَاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَابٍ فَبَاتَ لَهُ
فَبِثْنَهُ عَلَيْهِ وَاسْتَمَرَّ بِهِ
وَكَانَ ضُمْرَانُ مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ
شَكَّ الْفَرِيصَةَ بِالْمِذْرَى فَأَنْفَذَهَا
كَأَنَّهُ خَارِجاً مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ
فَظَلَّ يَتَعَجَّمُ أَعْلَى الرَّوْقِ مُنْقَبِضاً
لَمَّا رَأَى وَاشْتَقَّ إِقْعَاصَ صَاحِبِهِ
قَالَتْ لَهُ النَّفْسُ إِنِّي لَا أَرَى طَمَعاً
طَاوَى الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ (١)
تُزْجِي الشَّمَالَ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ (٢)
طَوَّعَ الشَّوَامِتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرْدِ (٣)
صُمَعَ الْكُعُوبِ بَرِيَّاتٍ مِنَ الْحَرْدِ (٤)
طَعَنَ الْمُعَارِكِ عِنْدَ الْمُحْجَرِ النَّجْدِ (٥)
طَعَنَ الْمُبِيطِرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ الْعَصْدِ (٦)
سَفُودُ شَرْبِ نَسُوهِ عِنْدَ مُفْتَادِ (٧)
فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقٍ غَيْرِ ذِي أَوْدِ (٨)
وَلَا سَبِيلَ إِلَى عَقْلِ وَلَا قَوْدِ (٩)
وَإِنَّ مَوْلَاكَ لَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَصِدِ (١٠)

- (١) الفريصة : لحم الكتف . المذرى : القرن . المبيطر : معالج الحيوان . العصد : داء يلم بكتفها .
(٢) السفود : الحديد التي يشوى عليها اللحم . نسوه : تركوه . مفتاد : موضع النار الذي يشوى فيه .
(٣) يعجم : يعلك . صدق : صادق في الطعن . أود : عوج .
(٤) واشق : اسم كلب آخر للصائد . الإقعاص : القتل السريع . العقل : الدية . القود : القصاص .
(٥) المولى : الناصر . يسلم هنا : يأسر .

- (١) وجرة : موضع بنجد . موشى أكارع : مزينة قوائمه بالنقط . طاوى المصير : ضامر البطن . الصيقل : الحداد . الفرد : المسلول .
(٢) أسرت : جاءت ليلاً . الجوزاء : برج في السماء . سارية : سحابة . تزجى : تدفع . الشمال : ريح الشمال .
(٣) الشوامت : . القوائم ويريد بطوعها إسرعها به . والصرد : البرد .
(٤) استمر به : اشتد به وقوى . صمع : ضوامر . بريات : بريئات . الحرد : العرج .
(٥) ضميران : اسم كلب للصائد . يوزعه : ينزعه . المحجر : حمى القبيلة . النجد : الشجاع .

وهو يبدأ برسم صورة هذا الثور ، فقوائمه مزينة بما فيها من نقط ، وهو ضامر كالسيف المسلول ، يجرى في الصحراء خائفاً متوجساً لما تسقط عليه السماء من برَدٍ لا ينقطع . ولم يلبث أن دُعر ذُعراً شديداً إذ سمع صوت قانص يهتف بكلا به ، فأسرع في جَرَّيه ، ولحى القانص فبعث عليه كلابه ، فاشتدت قوائمه وكعوبه مستخرجاً منها كل ما يبتغى من سرعة ، ولكن الكلاب لحقت به ، وكان أول ما لقيه منها ضميران ، ونشب بينهما صراع عنيف ، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه ، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء ، نفذت إلى ظاهر صدره ، فكنت ترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه متقبضاً متألماً إلى أن لفظ أنفاسه . ولما رأى واشق ما أصاب أخاه وأنه لن يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثأره أحجم عن لقاء الثور لإبقاء على نفسه ، وقد أخذه اليأس من أن يصيد صاحبه كما كان ينبغي ، فدون بغيته الموت والهلاك .

وهذا الوصف أكثر حيوية من النسب السابق ، لما بثَّ النابغة في الحيوان من حياة الإنسان وعواطفه وقلقه وطمعه ويأسه ، فالثور خائف يترقب ، والكلاب طامعة تتربص . وتنشب المعركة وكأنها معركة آدمية ، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عرينه وحماه . ويُقتل ضميران . وينظر أخوه واشق فيرى أن القصاص غير ممكن ، وتحذثه نفسه بأنه يطمع في غير طائل ، وما يلبث أن ينصرف عن المعركة ، وقد قذفت به في مهاوى اليأس والقنوط . ولا ينسى النابغة مهارته في التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه أو من حيث التشبيهات وإدخالها في نسيج الأبيات .

وفي ديوانه فخر وهجاء يتصل بشئون قبيلته البدوية وما كان بينها وبين بني أسد من حلفٍ وبينها وبين بني عامر من حرب ، وهو في هذا القسم من شعره لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شأنه في المديح والاعتذار والرثاء ، وكأنه كان يمنعه وقاره أن يتأدى فيه ، وخاصة في الهجاء ، وقرأ له هذه الأبيات في عامر بن الطفيل وقد بلغه أنه يهجوهُ :

فإن يك عامرٌ قد قال جهلاً فإن مَطيَّةَ الجهل السُّبابُ

فَكُنْ كَأَبِيكَ أَوْ كَأَبِي بَرَاءٍ تَوَافَقَكَ الْحَكُومَةُ وَالصَّوَابُ^(١)
 وَلَا تَذْهَبْ بِحِلْمِكَ طَامِيَاتٌ مِنْ الْخِيَلَاءِ لَيْسَ لَهُنَّ بَابٌ^(٢)
 وَإِنَّكَ سَوْفَ تَحْلُمُ أَوْ تَنَاهَى إِذَا مَا شَبَّتَ أَوْ شَابَ الْغُرَابُ^(٣)

وهي أبيات تخلو من الإقذاع في الهجاء المعروف عند الجاهليين ، وهو يعتمد فيها بذوقه الحضري إلى التهكم به والسخرية منه ، فيصفه بالحمق ، ويصغر إليه نفسه بتفضيل أبيه وعمه عليه ، وينهاه عن الخيلاء ، ويؤمله في أنه سوف يحلم حين تتقدم به السن أو لعله لا يحلم أبداً . وواضح أن الشطر الثاني في البيت الأول حكمة سائرة ، وتكثر هذه الحكم عند النابغة يأتي بها في ثنايا شعره وقصيده ، فتكون شطراً كهذا الشطر ، وقد تكون بيتاً كالبيت الأخير من هذه الأبيات ، وفيما تمثلنا من شعره كثير منها ، ومن رائعها قوله :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبِقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعَثٍ ، أَيُّ الرِّجَالِ الْمَهْدَبُ

ومما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكم على صدق نظره ودقة حسه .

وجوانب كثيرة في شعر النابغة تفصح عن مهارته في صوغ القصيدة ونظمها ، سواء من حيث ألفاظه أو من حيث صوره ومعانيه ، أما من حيث الألفاظ فإنك لا تقع منها على لفظة نابغة ، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة في دلالاتها الدقيقة ، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغريبة حين يصف الديار والصحراء والحيوان الوحشي ، أما حين يمدح الملوك أو يرثيهم أو يعتذر إليهم فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجذلة الناعمة . وهذه البراعة عنده جعلت نقاد العصر العباسي يقولون : إنه « كان أحسن الجاهليين ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلم بيتاً^(٤) » . على أنهم لم يلبثوا أن ادعوا عليه أنه كان يُقَوَّى في شعره محتجين على ذلك ببيت في قصيدة المتجردة التي وضعت عليه ، فقد جاء فيها بيت مرفوع الروي ، بينما رويها المطرّد مكسور ، ورووا في ذلك قصة ، هي أن النابغة قدم

(٣) أو شاب الغراب : ضرب النابغة ذلك مثلاً لعامر وأنه لن يحلم أبداً .
 (٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١/ ١٠٨ .

(١) أبو براء : عامر بن مالك ملاعب الأسماء وهو عم عامر بن الطفيل .
 (٢) طاميات : فائضات ومرتفعات . ليس لها باب : لا يخرج منها .

يثرب ، فعاب عليه أهلها ذلك في قصيدته المذكورة ، فلم يأبه لهم حتى أسمعوه إياه في غناء ، ففطن إلى ما قالوا ولم يعد إلى ذلك^(٢) . ولكن القصيدة كما قدمنا مما نُحل على النابغة ، فحري أن تكون القصة مثلها منحولة .

وإذا كان النابغة يُعنى بألفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعنى كذلك بمعانيه ، وهي عناية أتاحت له كثرة الخواطر في اعتذارياته على الرغم من ضيق هذا الموضوع ، وأيضاً فإنها أتاحت له ضرباً من ترتيب أفكاره ، ويتضح ذلك في تنسيقه لموضوعات بعض قصائده ، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع ، وارجع إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجاً تسنده المناسبة ، حتى إذا أتم هذا الوصف قال :

فتلك تبلغني النعمان إن له فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد

وكذلك صنع في اعتذاريته العينية فإنه خرج من النسيب إلى الاعتذار خروجاً متصلاً ، إذ قال إنه كفّ عن التشبيب والحب لشبهه ولما يشغله من هم ، هو غضب النعمان ، على هذه الشاكلة :

وقد حال همٌ دون ذلك شاغلٌ مكان الشَّغاف تبتغيه الأصابع^(٢)

وعيدٌ أبي قابوس في غير كُنْهِهِ أتاني ودوني راكسٌ فالضواجع

وهذه العناية البالغة بالمعاني والألفاظ كان يؤازرها عنده عنايته بالصور وما يُطوى فيها من تشبيهات واستعارات ؛ ولا نلاحظ عنده الكثرة من الصور فحسب ، بل نلاحظ أيضاً القدرة على الابتكار ومفاجأة السامع بالأخيلة التي تخلب لُبّه ، وخاصة حين يتنصّل للنعمان بن المنذر من ذنبه ، وحين يصور بطشه بمن يغضب عليهم مستعظفاً مسترحماً . وكان له ذوق جيد في اختيار صوره ومعانيه جميعاً ، وهو ذوق هذبته الحضارة التي نعيم بها في الحيرة وبلاط الغساسنة ، فإذا هو رقيق الحس رقة شديدة ، وإذا هو يأتي في مديحه وراثته بمعان حضارية غير مألوقة للجاهليين . وليس ذلك فحسب ، فإنه يفتح صفحة جديدة هي صفحة

(١) ابن سلام ص ٥٥ وما بعدها والأغاني (٢) الشغاف : حجاب القلب .

(طبعة دار الكتب) ١٠/١١ .

الاعتذاريات والاستعطافات وما يجري فيها من الحس المرهف والشعور الدقيق ،
وتسربت من ذلك أسراب في جميع موضوعات شعره ، حتى الهجاء .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك عند النابغة أخلاقه الرفيعة التي تتمثل في وقاره
وارتفاعه عن الدنياه ووفائه للأصدقاء والأحلاف وحفاظه الشديد على العهد
وسابق الود أمكننا أن نفهم منزلته التي احتلها في العصر الجاهلي وأسبابها ،
إذ جعلوه محكماً بين الشعراء في عكاظ كما قدمنا ، وكأنه في رأيهم الشاعر الفذ
الذي لا يُشَقُّ غباره والذي لا ينطق عن هوى أو عصبية ، ومن ثمَّ كان حكمه
قاطعاً لا يقبل طعناً ولا نقضاً .

الفصل التاسع

زهير بن أبي سلمى

١

قبيلته

هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح المُرَنيّ ، فأبوه من قبيلة مُزَيَّنة ، وكانت تجاور في الجاهلية بني عبد الله بن غطفان حيث كانوا ينزلون في الحاجر بينجد شرق المدينة وينزل معهم بنو مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان أخوال أبيه ربيعة . ويحدثنا الرواة أنه أقام فيهم زمناً مع أمه ، وحدث أن أغار مع قوم منهم على طيء وأصابوا نعلماً كثيراً وأموالاً ، ولما رجعوا لم يفرّدوا له سهماً في غنائمهم ، فغاضبهم وانطلق بأمه إلى قبيلته مزينة ، ثم لم يلبث أن أقبل في جماعة منها مغيراً على عشيرة أخواله ، ولم يكادوا يتوسطون ديارها حتى تطايروا راجعين وتركوه وحده ، فأقبل حتى دخل في أخواله ، ولم يزل فيهم حتى توفي ومن ثمّ ولد له زهير وأولاده في منازل بني مرة وبني عبد الله بن غطفان^(١) . وكان ذلك سبباً في أن يضطرب الرواة وأن يظن بعضهم أن زهيراً غطفاني القبيلة^(٢) ، وهو في الحقيقة مرنى النسب غطفاني النشأة والمترنّى ، وقد صرح ابنه كعب بهذا النسب إذ يقول في بعض شعره ردّاً على مزرد بن ضيرار وقد عزّاه إلى مزينة^(٣) :

همُ الأصل مني حيث كنت وإنني من المُرَنيّين المصنّفين بالكرم
ويظهر أن ربيعة لم يعيش طويلاً في عشيرة أخواله ، ويقول الرواة إن امرأته تزوجت من بعده أوس بن حَجَر الشاعر التميمي المشهور . وهنا يلحظ في حياة زهير اسم خاله بشامة بن الغدير ، فقد كفله هو وإخوته ، ونعرف منهم سلمى كما نعرف أخرى تسمى الحنساء .

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ٢٩١/١٠

وما بعدها .

(٢) انظر ترجمة زهير في الشعر والشعراء

لابن قتيبة ٨٦/١ .

(٣) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٨

وما بعدها .

وقد عاش زهير في خلال هذه الحروب التي نشبت بين عبّس وذُبيان، حروب داحس والغبراء التي سبق أن تحدثنا عنها في غير هذا الموضع ، وقد أسهمت عشيرة أنحواله ، في تلك الحروب واصلت نازها . وأيضاً فإنها صليت نيران حروب أخرى كانت تنشب بينها وبين بعض العشائر الذيبانية ، وفي شعر خاله بشامة ما يصور تلك الحروب الأخيرة ، فقد روى له صاحب المفضليات قصيدتين يحرض فيهما عشيرته أن لا يخذلوا حلفاءهم «الحُرّة» وأن يقفوا معهم ضد بعض العشائر من بني سعد بن ذبيان . ومعنى ذلك أن الأيام التي عاشها زهير في عشيرة أنحواله الذيبانيين لم تكن أيام استقرار وأمن ، إنما كانت أيام حروب وسفك للدماء، فدائماً تُشَنُّ الغارات، ودائماً تجيش القلوب بالأضغان، فتُسلُّ السيوف وتُقطّع الرقاب. ويعودون من حروبهم دائماً إلى رعى الإبل والأغنام، وإلى صيد بعض الحيوان ، شأن القبائل النجدية في العصر الجاهلي .

وكانت ذبيان وغيرها من قبائل غطفان تتعبد في الجاهلية العُزَّى، ويقال إنها كانت شجرة أقامت حولها كعبة كانت تحج إليها ، وتُهدى القرابين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وربما قال الرواة إنها شجرات ثلاث ، وقد يقولون إنه كان في الكعبة وثن . وأكبر الظن أن هذا هو الصحيح فقد كان فيها وثن العُزَّى ، وكان من جوله شجرات يقدسونها^(١) . ومهما يكن فقد كانوا وثنيين ، وظلوا على وثنيّتهم إلى ظهور الدين الحنيف .

٢

حياته

ليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأة زهير سوى أنه عاش في منازل بني عبد الله ابن غطفان وأنحواله من بني مرة الذيبانيين ، وفي كنف خاله بشامة بن الغدير ، وكان شاعراً مجيداً كما كان سيداً شريفاً ثرياً ، يقول ابن سلام : « وكان كثير المال ، وكان

(١) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لحواد على ٩٧/٥ وما بعدها .

ممن فقاً عيّنَ بعير في الجاهلية، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقاً عين فحلتها^(١)». وكان بشامة من أحزم الناس رأياً فكان قومه يستشيرونه ويصدرون عن رأيه، ولم يكن له ولد، فلما حضرته الوفاة جعل يقسم ماله في أهل بيته وأعطى زهيراً نصيباً منه، ويُرْوَى أنه قال له إني أعطيتك ما هو أفضل من المال، فقال زهير: ما هو؟ فقال له: شعري^(٢)، وهو لم يرث عنه شعره وماله فقط، بل ورث عنه أيضاً خلقه الكريم. وفي أخباره أنه تزوج من امرأتين: أم أوفى وهي التي يذكرها كثيراً في شعره، ويظهر أن المعيشة لم تستقم بينهما، فطلقها بعد أن ولدت منه أولاداً ماتوا جميعاً. والثانية التي تزوجها من بعدها هي كبشة بنت عمار الغطفانية، وهي أم أولاده: كعب وبُجَيْر وسالم، ومات سالم في حياته ورثاه ببعض شعره^(٣). وهو يتحدث في شعره طويلاً عن حروب داحس والغبراء مشيداً بهرم بن سنان والحارث بن عوف سيدي بني مرة اللذين حَقْنَا دماء عبس وذبيان بعد أن طال عليهما الأمد في تلك الحروب، إذ تحملاً ديات القتلى، ويقال إنها كانت ثلاثة آلاف بعير أدّياها في ثلاث سنين^(٤). واعتدَّ زهير بهذه المنّة الجليلة فأشاد بها في معلقته، وظل طوال حياته يمدح هرماً ويمجده، وهرم يُغَنِّدُ عليه^(٥). وبذلك أعطى كل منهما صاحبه خير ما يملك، وقد ذهب ما أعطاه هرم لزهير مع الزمن، أما ما أعطاه زهير هرماً فخلد على الأيام. ومن طريف ما يُرْوَى في هذا الصدد أن هرماً «حلف أن لا يمدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ولا يسلم عليه إلا أعطاه: عبداً أو وليدة أو فرساً، فاستحيا زهير مما كان يقبل منه، فكان إذا رآه في مَلاً قال: عَمُوا صباحاً غير هرم، وخيركم استثنيت^(٦)». ونراه يشيد بحصن بن حذيفة سيد بني فزارة الغطفانيين، وخاصة بحروبه مع أحلافه بني أسد ضد النعمان بن الحارث الغساني وما أنزلوا بجيوشه من هزائم منكراً^(٧). وليس في ديوانه وراء حروب حصن وحروب داحس والغبراء إشارة إلى غارات سوى ما كان من غارة الحارث بن ورقاء الأسدي في جماعة من قومه على عشيرته، وقد أخذ فيما أخذ

- | | |
|-----------------------------------|---|
| (١) ابن سلام ص ٥٦٣. | (٥) أغاني ٣٠٥/١٠. |
| (٢) أغاني (طبع دار الكتب) ٣١٢/١٠. | (٦) أغاني ٣٠٥/١٠. |
| (٣) أغاني ٣١٣/١٠. | (٧) انظر ديوان زهير (طبعة دار الكتب) |
| (٤) أغاني ٢٩٧/١٠. | ص ١٤٣ ومختار الشعر الجاهلي للسقا ص ٢٤٥. |

إبلًا وغلماً لزهير يسمى يساراً . وغضب زهير غضباً شديداً، وهدده إن لم يردّ عليه إبله أن يهجوّه هجاء مقدعاً ، مذكراً له بما بين عشيرتهما من موثيق وعهود نقضها نقضاً ، وخشى الحارث معرة لسانه وما يصبُّ عليه من لعنات فرد عليه ماله وغلّامه^(١) .

وتدل الدلائل على أنه عاش في سعة من المال مما ورثه عن خاله وما كان يقدم له هرم وغيره من أشرف قبيلته من أموال . وكان فيه توقر ونبل ، ولعل ذلك ما جعل شعره يخلو من الفحش والعهر ، فهو من ذوق آخر غير ذوق امرئ القيس المفتون بالنساء وتصوير مغامراته القصصية معهن . ومن غير شك كان وثيقاً ، مثله مثل قومه ، وإن كنا نلاحظ عنده بعض أبيات يؤمن فيها باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، يقول في معلقته :

فلا تَكْتُمَنَّ اللهَ ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكْتَمُ اللهُ يعلم
يؤخرُ فيوضَعُ في كتابٍ فيُدْخَرُ ليوم الحساب أو يعجلُ فيُنْقَمَ

وإذا صحت نسبة البيتين إليه كان ذلك دليلاً على أنه أحد من تحنقوا في الجاهلية وشكوا في دينهم الوثني^(٢) وأغلب الظن أنه لم يفارق دين قومه ، إنما هي خطرات كانت تمر به .

وحياة زهير من الوجهة الأدبية طريفة ، فقد كان أبوه شاعراً، وكذلك كان خاله كما قدمنا ، وأختاه سلمى والخنساء ، وورث عنه الشعر ابنه كعب وبُجَيْرٌ ، واستمر الشعر في بيته أجيالاً ، فقد كان عقبة بن كعب شاعراً ، وكان العوام ابن عقبة شاعراً أيضاً^(٣) ويقولون إنه رحل عن البادية وأقام في البصرة . فنحن بلزاء شاعر اتصل الشعر في بيته اتصالاً لم يعرف لشاعر جاهلي ممن عاصروه ، وليس هذا فحسب ، فإنه عاش للشعر يعلمه ابنه بُجَيْرٌ وكعباً من جهة ، وأناساً آخرين من غير بيته أشهرهم الحطيئة ، فهو تلميذه وخريجه .

(٣) مقدمة ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٩ وقارن بالأغاني ٣١٤/١٠ والشعر والعراء ٩٢/١ .

(١) أغاني ٣٠٧/١٠ وما بعدها .
(٢) انظر في ذلك المحبر لابن حبيب ص ٢٣٨ حيث يذكر أنه كان ممن حرموا على أنفسهم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام .

وفى أخباره مع ابنه كعب ما يدل على الطريقة التى كان يُخرج بها الشعراء، فقد كان يلقيهم شعره ويروونه عنه ، وما يزالون يتلقنونه ، حتى تنطبع فى أنفسهم طريقة نظم الشعر وصوغه ، وهو فى أثناء ذلك يمتحن قدرتهم ، بما يلقي عليهم من أبيات يطلب إليهم أن يجيزوها ، بنظم بيت على غرار البيت الذى ينشده فى الوزن والقافية^(١). ويظهر أنه عُمر طويلاً إذ يقال فى بعض الروايات إنه أدرك الإسلام وله مائة سنة ولم يسلم^(٢) ، ولكن إدراكه الإسلام غير صحيح ، إنما الصحيح أنه مات قبيل الإسلام بمدة قليلة ، والذى أدرك الإسلام حقاً ابنه بجير وكعب ، وقد أسلما وحسن إسلامهما ، وكعب قصيدة معروفة فى مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى ذاتة مشهورة .

٣

ديوانه

طُبِعَ ديوان زهير طبعات مختلفة ، اعل أقدمها طبعة ألوارد فى مجموعة العقد الثمين فى دواوين الشعراء الستة الجاهليين ومرّ بنا — فى حديثنا عن ديوان امرئ القيس — أنه استخرجها من شرح الشنتمرى للدواوين الستة : دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة ، وهى برواية الأصمعى غير أنه جردها من الشرح وأضاف إلى تلك الدواوين أشعاراً أخرى مما وجدها فى كتب الأدب والتاريخ . ونشر الديوان لندبرج السويدى بشرح الشنتمرى سنة ١٨٨٩ فى سلسلته التى سماها « طرفا عربية » ، ومكانه فيها الطرفة الثانية ، وطُبِعَ بعد ذلك فى مصر وغيرها طبعات تعتمد على نشرة لندبرج ؛ ونشره مصطفى السقا فى مجموعته مختار الشعر الجاهلى ، وهى تتضمن كما مرّ بنا نفس الدواوين الستة التى شرحها الشنتمرى ، وقد أضاف إليها شرحاً مختصراً من شرح الشنتمرى . ونُشرت هذه الدواوين برواية الأعلام البطليوسى ، وهى تلتقى برواية الشنتمرى عنده ، وكأنه هو الآخر عُنَى فى عمله برواية الأصمعى .

(١) ديوان زهير ص ٢٥٦ .

(٢) أغاني ٢٩١/١٠ .

وواضح أن هذه الطبقات تعتمد على رواية الأصمعي البصرية ، وكانت هناك مخطوطات عدة لرواية ثعلب الكوفية بدار الكتب المصرية ، ورأى القائمون فيها أن ينشروا هذه الرواية ، مستعينين بنسخة منها قديمة تملكها مكتبة الجمعية الألمانية الشرقية في هلة ، وظهر الديوان بهذه الرواية في سنة ١٩٤٤ للميلاد .

وإذن فعندنا لديوان زهير روايتان مطبوعتان : رواية الأصمعي البصرية ورواية ثعلب الكوفية ، وتمتاز الأولى بالتشدد ، فهي لا تروى سوى ثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة ينهيها الشنتمرى بقوله : « كمل جميع ما رواه الأصمعي من شعر زهير ونصل به بعض الروايات » ويضيف من رواية الكوفيين قصيدتين شك الرواة في ثانيتهما^(١) . وإذا نظرنا في رواية ثعلب الكوفية وجدناها تضيف عشرات القصائد والمقطوعات ، ومن حين إلى حين تنص على أن هذه القصيدة وتلك المقطوعة من رواية حماد أو ابن الكلبي المعروفين بكثرة الوضع . ومن ثمّ كنا لا نستطيع أن نتخذ من الرواية الكوفية أساساً وثيقاً لدراسة زهير ، فنحن نرفضها رفضاً ، متخذين من رواية الشنتمرى أو بعبارة أخرى رواية الأصمعي أساساً لبحثنا في زهير وشعره ، وإذا كان هناك قصيدة يمكن أن تضاف إلى هذه المجموعة فهي القصيدة التي تليها في رواية الشنتمرى ، إذ يظهر أنها صحيحة النسب إلى زهير^(٢) . وقد يكون مما يؤكد صحة شعر زهير برواية الأصمعي أن الشعر كما قدمنا اتصل في ولده أجيالا ، وأن آخرهم العوام نزل البصرة وأقام فيها ، وأكبر الظن أن أبناءه ظلوا يروون شعره حتى أسلموه أو أسلمه العوام إلى رواة البصرة وعلمائها .

وإذا أخذنا نفحص رواية الأصمعي التي تحتفظ بثمانى عشرة قصيدة ومقطوعة وجدنا الشنتمرى^(٣) ينقل عنه أنه كان ينكر ثلاثاً منها ، هي : (أبلغ بنى نوفل عني وقد بلغوا) و (أبلغ لديك بنى الصبيداء كلهم) و (ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى) وكان أبو عبدة ينكر مقطوعته : (إن الرزية لا رزية مثلها)

المصرية رقم ٨١ أدب ش وفي الخزانة التيمورية
بدار الكتب نسخة ثانية برقم ٤٥٠ أدب
— شعر تيمور .

(١) انظر الديوان (طبعة دار الكتب) ص ١٩٣ .

(٢) أغاني ٢٨٩/١٠ وفي الديوان ص ٢١٩

أن المفضل الضبي كان يرويها .

(٣) راجع مخطوطة الشنتمرى بدار الكتب

ويقول إنها لقُرَاد بن حَسَن من شعراء غطفان^(١). ولا يبقى لزهير بعد ذلك من رواية الأصمعي سوى أربع عشرة قصيدة ومقطوعة ، تضاف إليها القصيدة التي رواها المفضل واحتفظ بها الشنتمري ، وهي : (غَشِيْتُ دياراً بالبقيع وثَّهمد). على أنه ينبغي أن نسقط من قصيدته (لمن الديار بقُنتَ الحَجَر) الأبيات الثلاثة الأولى لأن حماداً زادها فيها كما مر بنا في حديثنا عن الانتحال . وقد شك الأصمعي في الحكيم الملحقه بالمعلقة وقال إنها لِصِرْمَة بن أبي أنس^(٢) الأنصاري ، ويمكن أن يكون لزهير طائفة منها اختلطت على الرواة بطائفة أخرى تماثلها ، نَظَمها صِرْمَة ، وسنرى أن زهيراً كان يكثر من الحكيم في شعره .

٤

شعره

لعل الشعر الجاهلي لم يعرف شاعراً عُنِيَ بتنقيحه عناية زهير ، وقد ذهب القدماء يقولون إنه كان يَرَوَى شعر زوج أمه أوس بن حَجَر الشاعر التيمي المشهور ، كما كان يروى شعر طُفَيْل الغنوي^(٣) المعروف ببراعته في وصف الخيل والصيد ، وأيضاً فإنه كان يروى شعر خاله بَشَّامة بن الغدير^(٤) . وهم لا يقفون بملاحظاتهم عند ذلك ، إذ يقولون إنه خَرَّجَ ابنه كعباً في الشعر كما خرج الخطيئة^(٥) .

فنحن إذن بإزاء شاعر ممتاز ، عاش للشعر يرويه ويعلمه ، أو بعبارة أخرى نحن بإزاء مدرسة يتضح فيها زهير وتلميذاه كعب والخطيئة ، وإذا أردنا أن نبحث لزهير عن أستاذ حقيقي تأثره في شعره من بين الثلاثة الذين ذكرهم وجدنا أقربهم إلى شعره أوس بن حجر زوج أمه ، فإنه يتأثره في جميع جوانب فنّه ، يتأثره في الموضوعات التي عالجها وفي طريقة معالجته لها ، وفيما يصوغه من معانٍ وصور ، وسنشير إلى مواضع ذلك عما قليل .

(٤) أغاني ٣١٢/١٠ .
(٥) أغاني (طبع دار الكتب) ١٦٥/٢ ،
٩١/٨ والشعر والشعراء ٩٣/١ .

(١) ابن سلام ص ٥٦٨ .
(٢) المعمرين للسجستاني ص ٦٦ .
(٣) العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية)
١٣٢/١ وانظر الشعر والشعراء ٨٦/١ .

وإذا أخذنا نستعرض شعر زهير وجدناه يَنْظُمُ في المديح والغزل ووصف الصيد والهجاء ، وفي تضاعيف ذلك يجنح إلى الحكمة ووصف مكارم الأخلاق . وإذا أبدلنا المديح بالتأبين كانت هذه الموضوعات هي نفسها التي يدور فيها شعر أوس ، فإنه لم يؤثر عنه مديح إلا أبياتاً متفرقة ، وإذا كان مديحه فُقد فإن تأبينه خلد على الزمن ، وقد أنشدنا منه قطعة في غير هذا الموضع ، وهو يلتقي فيه بزهير حين يشيد بفضائل فضالة بن كملدة ومناقبه ، التي يعود بها إلى المثل العربي الكريم للمروءة .

وتلمع بين مدائح زهير معلقته ، وقد نظمها مشيداً بهـَرَمَ بن سنان والحارث بن عوف حين سعيًا بالصلح بين ذبيان وعبس فأعلنا أنهما يتحملان ديات القتلى حتى تضع الحرب أوزارها بين القبيلتين المتناحرتين ، وتصادف في أثناء ذلك أن قَتَلَ الحُصَيْن بن ضَمْضَم عبسيًّا ثاراً لأخيه هـَرَمَ بن ضَمْضَم ، وكان قتله ورَدَ بن حابس العبسي ، فثارت عبس وشهرت سيوفها تريد أن تعيد الحرب جَدَّةً عَةً ، وسرعان ما تقدم الحارث لهم بمائة من الإبل وبابنه ليختاروا إما الدية وإما قتل فلذة كبده ، فقبلوا الدية ودخلوا في الصلح ، وانتهت الحرب الدامية . وهنا نرى زهيراً يشيد بهذه المكرمة الجليلة ناعياً على حُصَيْن فعلته التي كادت تؤدي بفكرة الصلح ، لاهجاً بالثناء على السديين وما قدما للقبيلتين من ديات حقنت الدماء ، يقول :

يَمِيناً لِنَعْمَ السَّيْدَانِ وَجِدْتُمَا	على كل حالٍ من سَحِيلٍ ومُبَرَمٍ ^(١)
تَدَارَكْتَا عَبْساً وَذُبْيَاناً بَعْدَمَا	تَفَانُوا وَذُقُوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمٍ ^(٢)
وَقَدْ قَلَّمَا إِنْ نُذِرِكَ السُّلَمَ وَاسِعاً	بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْأَمْرِ نَسْلَمَ
فَأَصْبَحْتَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ	بَعِيدِينَ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْتَمٍ ^(٣)
عَظِيمِينَ فِي عُلْيَا مَعَدٍّ وَغَيْرِهَا	وَمَنْ يَسْتَبِيحُ كَنْزاً مِنَ الْمَجْدِ يَعْظُمُ ^(٤)

٣٣٠
(١) يريد أنهما لم يشتركا في تلك الحروب ،
(٢) منشم : امرأة عطارة كانت في مكة ،
فهما يؤديان عن غيرهما الديات .
(٣) يريد بعلياً معد رؤساءها وأشرفها .
(٤) يعظم : يصبح عظيماً .

(١) السحيل : غير المبرم . يريد أنهما خير
عشيرتهما في كل أمر ، أبرمهما أو لم يبرمها .
(٢) منشم : امرأة عطارة كانت في مكة ،
غمس قوم أيديهم في عطرها وتعاهدوا على الحرب
حتى فتوا عن آخرهم . يشبه قبيلتي عبس وذبيان

وجعلته هذه المأثرة يشيد بالسلم والسلام ، فكان بذلك شذوذاً على ذوق الجاهليين وأشعارهم التي تدوى بفكرة الأخذ بالثأر والترامى على الحرب ترامى الفراش على النار . وقد مضى يصور الحرب في صورة بشعة ، فيقول :

وما الحرب إلّا ما علمتم وذقتم^(١) وما هو عنها بالحديث المرجم^(٢)
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة^(٣) وتضر إذا أضرّيتموها فتضرم^(٤)
فتعرككم عرك الرّحى بثفالها^(٥) وتلقح كشفا فأنتم تحمّل فتنتهم^(٦)
فتنتج لكم غلماناً أشام^(٧) ، كلهم كأحمر عادٍ ثم ترضع فتفطم^(٨)
فتغلّل لكم ما لا تغلّل لأهلها^(٩) قرى بالعراق من قفيز ودرهم^(١٠)

وأنت تراه يصور الحرب في صور مخيفة قبيحة ، فهي تارة أسد ضار ، وتارة ثانية نار مشتعلة ، وتارة ثالثة راحى تطحن الناس ، وتارة رابعة تلد ، ولكنها لا تلد إلا ذراري شؤم . ووسع التهمك ، فقال إنهم يربحون منها ما لا يربحه أهل العراق من الغلال والدرهم ، وهو بذلك يدعو إلى السلام وأن يتحول العرب من هذه الحروب والمعارك الطاحنة إلى حياة السلم الوادعة الآمنة التي تنتشر فيها الأخوة والمحبة والرحمة . ونراه يصور ما هم فيه من بوار تصويراً بديعاً ، فيقول :

رَعَوْا ما رَعَوْا من ظمّهم ثم أوردوا غماراً تسيل بالرماح وبالدم^(١١)
فقضّوا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كلاًّ مُستوبلٍ مُتَوخّم^(١٢)

فهم بحروبهم المستعرة كأنهم يرعون مواعى وخيمة وبيلة في سلمهم . وسرعان ما يردون موارد لا تشفى غليلهم ، موارد تزخر بالرماح والدماء .

(٤) أشام : مشوم ، وأحمر عاد : أراد أحمر ثمود وهو قدار عاقر الناقة ، وكان شؤماً لقومه .
(٥) القفيز : مكيال في العراق .
(٦) الظمّ : ما بين الوردتين أو الشربتين ، والغمار : المياه الكثيرة .
(٧) أصدروا : رجعوا ضد أوردوا ، مستوبل : مستثقل ، ومثلها متوخّم أى إنه كرهه تعافه الإبل .

(١) المرجم : المظنون .
(٢) تبعثوها : تهيّجوها ، تضر : من ضرى الأسد إذا تهيّأ للفريسة ، وأضرى : درب وعود ، وتضرم : تشتعل .
(٣) تعرككم : تطحنكم ؛ الثفال : جلد يجعل تحت الرّحى حين تطحن ، ومن أجل ذلك ذكره ، يريد أنها طاحنة . وتلقح كشفاً : تحمل كل عام ، وذلك أردأ النتاج . تتّم : تلد توّماً .

نحن إذن بإزاء شخصية ممتازة من شخصيات الشعر الجاهلي شخصية فيها برٌّ ورحمة وفيها نزعة قوية إلى الخير . وليس معنى ذلك أنه تخلص في مديحه لهرم ابن سنان وابن عمه الحارث بن عوف من الصورة الجاهلية التي تشيد بالشجاعة والكرم المتهور ، فنحن نراه في قصيدة ثانية يتحدث عنهما وعن عشيرتهما على هذه الشاكلة :

إذا فزَعُوا طاروا إلى مُسْتَغِيثِهِمْ	طوالَ الرِّمَاحِ لاضْعافٍ ولا عَزْلُ ^(١)
بِخَيْلٍ عَلَيْهَا جِنَّةٌ عِبْقَرِيَّةٌ	جديرون يوماً أن ينالوا فيَسْتَعْلُوا
وإن يُقْتَلُوا فيُسْتَتَى بدمائهم	وكانوا قديماً من مناياهم القتلُ
عليها أسودٌ ضارياتٌ لبوسهم	سَوَابِغُ بِيضٍ لا تُحَرِّقُهَا النَّبْلُ ^(٢)
إذا لَقِحتْ حربٌ عوانٌ مُضِرَّةٌ	ضُرُوسٌ تُهَرُّ النَّاسَ أنْيَابُهَا عُصْلُ ^(٣)
قُضَاعِيَّةٌ أو أَخْتُهَا مُضِرِيَّةٌ	يُحَرِّقُ فِي حَافَاتِهَا الْحَطَبُ الْجَزْلُ ^(٤)
همٌ خَيْرٌ حَىٌّ مِنْ مَعَدٍّ عِلْمَتُهُمْ	لهم نائلٌ في قومهم ولهم فَضْلُ ^(٥)

وهو يصف سيدي بني مرة وعشيرتهما بالشجاعة ونجدة من يستغيث بهم ، حتى ليكادون يطيطون إليه طيراناً بسوا بقهم وخيلهم وكأنهم جنَّة . وانظر إليهم حين تدور المعارك فستراهم أسوداً ضارية ، لا يرهبون الموت ، حين تشتد الحرب وتعص الناس بأنيابها وتحرقهم بنيرانها . وهم يحاربون في كل مكان ، لا يخشون أحداً ، يحاربون قضاة ومضراً . وهم يضيفون إلى هذه الشجاعة كرمًا مفرطاً ، وفي كل قبيل منهم ثار ، ومن ثم كانوا يُسْتَتَى بدمائهم ، لأنهم خير معد شجاعة وكرمًا فياضاً . ولا يلبث زهير أن يقول :

شديدة . تهر الناس : تخيفهم . عصيل : قوية
تطحن طحناً .
(٤) الجزل : الغليظ ضد الرقيق .
(٥) النائل : العطاء .

(١) العزل : جمع أعزل وهو من لا سلاح معه .
(٢) لبوسهم سوابغ : لبسهم دروع قامة .
(٣) لقحت : حملت ، يريد اشتدت . حرب
عوان : مكررة قوتل فيها مرة بعد مرة . ضروس :

إذا السَّنةُ الشَّهباءُ بالناسِ أَجَحَفَتْ
رَأَيْتَ ذَوِي الْحَاجَاتِ حَوْلَ بَيْوتِهِمْ
هَنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْبِلُوا الْمَالَ يُخْبِلُوا
وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حَسَنٌ وَجُوهُهُمْ
عَلَى مُكْثَرِهِمْ رِزْقٌ مِنْ يَغْتَرِيهِمْ
وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بَيْوتِهِمْ
وَإِنْ قَامَ فِيهِمْ حَامِلٌ قَالَ قَاعِدٌ
وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَأَنَّمَا
وَهْلٌ يُنْبِتُ الْخَطِيئَ إِلَّا وَشِيْجُهُ

ونال كرامَ المالِ في الْحَجْرَةِ الْأَكْمَلُ^(١)
قَطِينًا بِهَا حَتَّى إِذَا نَبَتَ الْبَقْلُ^(٢)
وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسَرُوا يُغْلُوا^(٣)
وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفَعْلُ^(٤)
وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّامِحَةُ وَالْبَذْلُ^(٥)
مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ^(٦)
رَشَدْتُ ، فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ^(٧)
تَوَارِثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ^(٨)

وهو يستمر هنا في مدحهم بالكرم في السنين المجيدة ، حتى إن الناس ليرحلون إليهم ويقطنون حول خيامهم ، وكلما سألوهم شيئاً وهبوه لهم ، وهم في أثناء ذلك يقامرون بخير إبلهم ، حتى يطعموها السائلين والمحتاجين . ولما استتم هذه الصورة وصفهم بجمال الوجوه وجمال الكلام في مجالسهم ، ولم يُنخل مكثرًا ولا مقلًا منهم من سماحة وفضل وبر . وأشاد بمجالسهم ، وأنهم عقلاء حلما يشفون بآرائهم الصائبة جهل الجهلاء . وهم متعاونون ، إن حمل منهم أحد حمالة لم يخذلوه ، بل أعانوه . وذكر فضل آبائهم ، وأحسابهم ، فقال لإنهم ورثة مجد قديم توارثه الأبناء عن الآباء ، وساق دليلاً على ذكاء الفروع بذكاء الأصول من الرماح والنخيل ، فلا يولد الكريم إلا في البيت الكريم .

وظل زهير على شاكلة هذه القصيدة وسابقتها يدبج مدائح في هرم بن سنان ،

- (١) السنة الشهباء : المجيدة ، الحجرة : السنة شديدة البرد .
(٢) قطينا : ساكنين .
(٣) استخبال المال : أن يسألوهم شيئاً فيعطوهم إياه . ييسروا : يتقامروا . يغلوا : يختاروا سمان الإبل :
(٤) المقامات والأندية : المجالس .
(٥) يعتريهم : ينزل بهم .
(٦) الجهل : الحق .
(٧) الحامل : الذي يحمل الحمالة ، وهي الدية ، ويريد أي مفرم .
(٨) الخطى : الرماح ، وشيجه : أغصانه .

ومن أروعها داليتة التي رواها المفضل الضبي والتي يقول فيها مصوراً كرمه وشجاعته
وفصاحته وسبقه إلى المآثر الحمودة :

سواءً عليه أي حين أنيته
ومدرة حرب حميها يتقى به
إذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية
سبقت إليها كل طلق مبرز
فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت
أساعة نحس تتقى أم بأسعد^(١)
شديد الرجام باللسان وباليد^(٢)
من المجد من يسبق إليها يسود
سبوق إلى الغايات غير مجلد^(٣)
ولكن حمد الناس ليس بمخلد

فهو يعطى في السعة وفي القلة ، ويدفع عن قومه بلسانه ويده وسلاحه ، وإذا
تسابق الناس إلى غاية من غايات المجد كان السابق المجلي ، ولو أن حمداً يخلد به
مستحقه لكان هرم أول خالد لكثرة مناقبه ومكارمه . وله فيه قصيدة رائية بديعة
يقول في تضاعيفها :

دع ذا وعد القول في هرم
ولنعم حشو الدرع أنت إذا
حذب على المولى الضريك إذا
ويقيق ما وقى الأكارم من
ولأنت تفرى ما خلقت وبه
والسشر دون الفاحشات وما
أثنى عليك بما علمت وما
خير البداة وسيد الحضير
دعيت نزال ولج في الذعر^(٤)
نابت عليه نواب الدهر^(٥)
حوب تسب به ومن غدر^(٦)
ض القوم يخلق ثم لا يفرى^(٧)
يلقاك دون الخير من ستر
سلفت في النجذات والذكر

(٤) الدعاء في الحرب نزال : حين تشتد
فيتداعى الفرسان بالنزول عن الخيل والتقارع
بالسيوف . ولج في الذعر : اشتد الخوف .
(٥) الضريك : الفقير المجهد .
(٦) الحوب : الإثم .
(٧) تفرى : تقطع . يخلق : يقدر .
يريد أنه إذا عزم على أمر أنفذه .

(١) يريد بساعى النحس والسعد أوقات
القلة والكثرة في المال .
(٢) المدرة : المدافع عن قومه . وحمى الحرب :
شدتها . والرجام : المراماة في الحرب وفي الخطب
والكلام .
(٣) اطلق هنا : المعطاء ، وأصله الفرس
السابق الذي لا يلوى على شيء . المجلد :
الذي يضرب ويجلد . والتشبيه واضح .

وعلى هذا النحو يبدى ويعيد في هَرَم ، وقد تراءى له في الصورة المثالية للسيد البدوى الجاهلى ، فهو شجاع فى معترك الحرب وهو كريم فى معترك المسغبة والجوع ، وليس بفحّاش ولا غادر ، وإذا صمم اندفع يُمضى ما صمم عليه ، لا يستره عن الخير ستر ، بينما تقوم الأستار بينه وبين كل فاحشة . وشاعرنا يثنى عليه بما عرف من فضله وبما قدم من مآثر النجدة وإغاثة الضعفاء واحتمال كل بلاء . ودائماً تلقانا فى مدائحه لهرم هذه المثالية الرائعة ، بل هذه القطع المتوهجة ، ومن رائع ما قاله فيه :

قد جعل المبتغون الخيرَ فى هَرَمِ والسائلون إلى أبوابه طُرُقاً
إن تلقَ يوماً على عِلاته هَرماً تلقَ السباحة منه والندى خُلُقاً
ليثٌ بعثَرٌ يصطادُ الرجالَ إذا ما كذبَ الليثُ عن أقرانه صدقاً^(١)
يطعنهم ما ارتَمَوْا حتى إذا اطَّعنوا ضاربٌ حتى إذا ما ضاربوا اعتنقاً^(٢)
هذا وليس كمن يَعيَا بَخُطَّتِهِ وَسَطَ النَّدَى إذا ما ناطقٌ نطقاً

فهو لكرمه الفياض يسعى إليه الناس من كل حَدَبٍ ، ويسلكون إلى أبوابه كل طريق ، حتى لقد أصبحت الطرق إليه مذلة ممهدة ، وهو يجزل لهم فى العطاء حتى حين تضيق ذات يده . وهو يجمع إلى الكرم المفرط الشجاعة المفرطة ، حتى ليتفوق على الليث فى جرأته وطلبه لفريسته ، إنه يطعن الطعنات النجلاء ، وما يزال على ذلك حتى تنحسر غمرة الحرب ، فإذا كان السلم رأته وسط الندى يبهرك بمقوله كما يبهرك بيده وسلاحه وطعانه ونزله .

وقد أضنى حُللاً من هذا المديح الرائع على سيد بنى فزارة حِصْن بن حُذَيْفَة ، وكانت له مواقع ماثورة فى حروب قومه مع عَبَس وغيرها من القبائل ، وفيه يقول :

المتحاربون بالنبال أبى هَرَم إلا أن يطعن
بسيفه ، وإذا تطاعنوا ضرب بسيفه ضربات
ميتة وإذا ما تضاربوا صرع خصومه . فهو
سابق فى كل حال .

(١) عثر : موضع . كذب الليث : نكل
عن لقاء أقرانه .

(٢) ارتَمَوْا : تراموا بالنبل ، اطعنوا :
تطاعنوا بالسيوف . اعتنق قرنه فى الحرب :
أخذ بعنقه ، كناية عن قتله . يقول إذا تراءى

وأبيضَ فياضٍ يداه غمامةٌ على مُعْتَفِيهِ ما تُغِبُّ فَوَاضِلُهُ^(١)
 بكرتُ عليه غُدْوَةٌ فرأيتُهُ قُودًا لديه بالصَّريِّمِ عَوَازِلُهُ^(٢)
 فأَقْصَرَنَ منه عن كريمٍ مرزأٍ عَزُومٍ على الأمر الذي هو فاعِلُهُ^(٣)
 أخى ثقةً لا تُتْلِفُ الخمرُ ماله ولكنه قد يُهْلِكُ المال نائِلُهُ^(٤)
 تراه إذا ما جثته منهلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائلُهُ^(٥)

وهو يمدحه بنقائه من العيوب وأنه كريم مفرط في كرمه حتى لتشبهه يداه سحابة ، فما تزالان تهطلان على قاصديه بالعطايا ، وعبثاً يهتف به العواذل أن يكف عن كثرة نواله . إنه مثال للرجل الفاضل الذي لا ينفق أمواله في هواها ينفقها في الصنيع الجميل . وإنه ليقبل على معتفيه بالبشر والطلاقة ، حتى ليكادون يظنون أنهم المسئولون لا السائلون . وظل بعد ذلك يمدحه بحسن جداله للخصوم ومنطقه الصائب وكياسته وحلمه ، وأشار إلى وراثته الطيبة عن آبائه فهو شريف حسيب ، كما أشار إلى بلائه في حروبه مع الغساسنة .

وهذه القطع المختلفة التي أنشدناها من مديحه تدل على براعة واضحة ، فقد كان يحسن التعبير عما في نفسه ، وكان يحرص على الاقتصاد في القول فلا يسرف ولا يغلو ، بل يمثل ممدوحه بخصاله التي كان يشغف بها الجاهليون ويرونها أمانة السيادة والشرف . ولاحظ ذلك قديماً عمر بن الخطاب ، فقال : « كان لا يمتدح الرجل إلا بما يكون فيه^(٦) » فهو يعتدل في الثناء ، وهو يمثل شخصية البدوي الحقيقي الذي يحيط كلامه بالصدق والبساطة ، وإذا أحس إزاء صفة من الصفات أو معنى من المعاني بأنه يكاد يخرج عن حده أحاطه بما يجعل قوله مقبولا فيقدم لفظة « لو » ونحوها حتى لا يتجاوز القصد ، كما نرى في قوله يصف هوما وأمجاده :

- (١) المعتفون : السائلون . الفواضل : العطايا . وأبيض كناية عن نقائه من المساوئ .
 وتغيب : تنقطع .
 (٢) الصريم : الصباح . عواذله : لائمه .
 (٣) أقصرن : كففن . مرزأ : مصاب في

- ما له لكثرة ما يبذل منه .
 (٤) النائل : العطاء .
 (٥) منهلاً : طلق الوجه .
 (٦) أغاني ٢٩٠/١٠

لو نال حَيٌّ من الدنيا بِمَكْرُمَةٍ أَفَقَ السَّماءَ لَنالتَ كَفُّهُ الْأَفْقا
وقوله :

لو كُنتَ من شَيْءٍ سِوى بَشَرٍ كُنتَ المنوَّرَ لَيْلَةَ البدرِ
فهو لا يطلق القول في مثل هذين المعنيين إطلاقاً ، بل يجعلهما في حيز
« لو » حتى يخرج من باب المبالغة الذى أوشك على الدخول فيه .
وكان يقدم لقصائده بالغزل والتشبيب ، متبعاً سنة الجاهليين في الوقوف
بالأطلال وذكر الديار ، ونحس عنده إحساساً واضحاً بأنه لم يكن ممن شغف
الحبُّ قلوبهم ، فهو يتغزل ، كى يرضى سامعيه ، لا لكى يرضى نفسه ، وبعبارة
أخرى هو يتغزل أخذاً بتقليد متبع ، ولذلك نراه يختم غزله أحياناً بقوله : « فعد عما ترى »
أو « دع ذا » كأنه يريد أن يكف قلبه عن مثل هذا الحب الذى لا يتلاءم مع
وقاره . وقد يعلن في أول قصيدته إعلاناً أن قلبه قد انصرف عن صاحبه على
شاكلة قوله :

صَحَا القلبُ عن سَلَمَى وقد كاد لا يَسْلُو وأَقْفَرَ من سَلَمَى التَّعَانِيقُ فَالثَّقْلُ^(١)
ولعل من الطريف أن أستاذه أوس بن حجر كان يشركه في هذا الجانب ،
فهما جميعاً لا يتغزلان للغزل ، وإنما يتغزلان جرياً على التقاليد . وقد يلم زهير
بأثر الحب في النفس فيبدع في تصويره ، وهو في هذا التصوير لا يمثل عاطفة
ولا مشاعر حقيقية ، وإنما يمثل قدرته الفنية كقوله في وصف دموعه :

كَأَنَّ عَيْنِي وقد سَال السَّلِيلُ بِهِمْ وَجِيرَةٌ ما هُمْ لو أَنَّهُمْ أَمَمٌ^(٢)
غَرَبٌ على بَكْرَةٍ أو لَوْلُو قَلِقٌ فى السَّلَكِ خان به رَبَّاتِهِ النُّظْمُ^(٣)

فهم قد ساروا سيراً سريعاً ، فأبعدوا ولو كانوا جيرة لقصدهم بالزيارة ، وإن
دموعه لتساقط من عينه تساقط الماء من الغرب أو الدلو ، أو تساقط اللؤلؤ من

(٣) الغرب : الدلو . قلق : لا يستقر
لأنقطاع الخيط . رباته : صواحيبه . النظم :
جمع نظام وهو الخيط أو السلك .

(١) التعانيق والثقل : موضعان .
(٢) سأل السليل بهم : السليل : واد .
وسأل بهم : ساروا سيراً سريعاً . وما في قوله
ما هم زائدة . وأم : قريون يزارون .

عقد انقطع سلكه . وبهاتين الصورتين البديعتين صور زهير الدموع ، وهى ليست دموع حب ، وإنما كل ما فى الأمر أنه شاعر يعرف كيف يصور دموع الحب . وبهذا القياس نفسه تصويره لأسماء فى قوله :

قامتُ تَراءى بذى ضالٍ لتحزنى ولا محالة أن يشتاق من عَشِقا^(١)
 بجيد مُغزلة أدماء خاذلة من الظباء تُراعى شادنا خرقا^(٢)
 كأن ريقتهَا بعد الكرى اغتبت من طيب الراح لما يعد أن عتقا^(٣)
 شج السقا على ناجودها شبما من ماء لينة لا طرقاً ولا رنقا^(٤)

فهو يصور جيدها بجيد ظبية بيضاء ، امتلاً قلبها بحب ابنها ، فهى عاكفة عليه ، كما يصور ريقها بنخر معتقة مزجت بالماء لشدتها وحدتها . وهما صورتان أريدتا لأنفسهما ، أو بعبارة أخرى رسمهما زهير ليدل سامعيه على قدرته فى التصوير ، أما بعد ذلك فلا عاطفة ولا حب حقيقى ، ولذلك يكرر دائماً أن قلبه صحا عن حبه ، وأنه راجع نفسه فكفّت عن الهوى وما يتبع الهوى ، على شاكلة قوله :

لقد طالبتها ولكل شىء وإن طالت لجاجته انتهاء

فهو ليس من العشاق ولا ممن يشغلون أنفسهم بالغزل وبيان لوعة الحب ، وإنما هو يتحدث فى ذلك مترسماً سنناً موضوعة كى يظهر قدرته على التصوير الفنى . ولعله من أجل ذلك ملأ مقدماته الغزلية بوصف الظعن ، وكأنه يريد بها أن يتلافى ما يفوته من وصف الحب والصبابة على نحو ما رأينا عند امرئ القيس ، وفى الوقت نفسه يريد أن يدل على براعته فى الوصف الدقيق ، فهو يستقصى ويدقق ، وما يزال يتبع صاحبته وصواحبها وهن راحلات فى نجد مع عشيرتهن من واد إلى

(٣) الكرى : النوم . الغتبت : من الغبوت وهو شرب الليل ، لما يعد أن عتقا . يريد أن الخمر معتقة ولم تفسد .

(٤) شج : صب . الناجود : أول ما يخرج من الخمر أو إناؤها . الشم : الماء البارد . لينة : اسم يثر . الطرق والرنق : الكدر .

(١) تراءى : تبدى وتظهر . وذو ضال : موضع به الضال وهو السدر .

(٢) الجيد : العنق ، مغزلة : الظبية التى معها غزال . أدماء : بيضاء . خاذلة : مقيمة على ولدها لا تتبع الظباء . الشادن : الذى شذن أى تحرك ولم يقوبعد . الحرق : الضعيف .

وَاد ، محاولاً أن يحفر الصورة في أذهاننا حَفَرًا على نحو ما نجد في معلقته
إذ يقول :

تَحْمَلْنَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْثُمٍ ^(١)	تَبْصُرُ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ
وِرَادٍ حَوَاشِيهَا مَشَاكِهِ الدَّمِ ^(٢)	عَلَوْنَ بِأَنْمَاطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ
عَلَيْهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ الْمُتَنَعِّمِ ^(٣)	وَوَرَّكْنَ فِي السُّوبَانِ يعلون مَتْنَهُ
أَنِيْقُ لَعَيْنِ النَّاظِرِ الْمُتَوَسِّمِ ^(٤)	وَفِيهِنَّ مَلْهَى لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرُ
فَهْنٍ لَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ اللَّفْمِ ^(٥)	بَكْرُنَ بَكُورًا وَاسْتَحْرَنَ بِسُحْرَةٍ
وَمَنْ بِالْقَنَانِ مِنْ مُحِلٍّ وَمُحْرِمِ ^(٦)	جَعَلْنَ الْقَنَانَ عَنْ يَمِينِ وَحَزْنَهُ
عَلَى كُلِّ قَيْنِيٍّ قَشِيبٍ وَمُقَامِ ^(٧)	ظَهَرْنَ مِنَ السُّوبَانِ ثُمَّ جَزَعْنَهُ
نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنَاءِ لَمْ يُحْطَمِ ^(٨)	كَأَنَّ فُتَاتَ الْعِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلِ
وَضَعْنَ عِصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ ^(٩)	فَلَمَّا وَرَدْنَ الْمَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ

وواضح أنه يصور الرحلة التي سلكتها ظعن صاحبته ، وهن يعلون الروابي
ويهبطن الوديان ، وعلى هوادجهن الكلل والستائر الحمراء وعلى وجوههن دلال
النعمة ، والأصدقاء من الشباب يطلبونهن ليمثلوا النظر بحسنهن ويتمتعوا برؤيتهن ،
وهن يقطعن وادياً إثر واد ، ويمررن على منازل الأحلاف والأعداء ، يأخذن في
طريق ويعدلن عن طريق ، وفي أثناء ذلك ينزلن ثم يرحلن وقد خلفن وراءهن فُتات

رحلن سحراً . كاليد للقم أي إن ما يقصده
لا يخطئته كما لا تخطئ اليد القم .
(٦) القنان : جبل لبني أسد . حزنه : أرضه .
الصعبة الغليظة . المحل : الحليف ضد المحرم .
(٧) جزعته : قطعته . القيني : الرجل .
قشيب : جديد . مقام : واسع رحب .
(٨) العهن : الصوف . حب الفناء :
عنب الثعلب .
(٩) جمامه : سطحه ومجتمعه . ووضع
العصى كناية عن الإقامة .

(١) الطعائن : النساء الراحلات في الهواذج .
العلياء : اسم موضع . جرثم : ماء لبني أسد
أحلاف ذبيان .
(٢) الأنماط : الستائر على الهواذج .
وراد : حمراء . مشاكهة : مشابهة .
(٣) وركن : ثنين أرجلهن للراحة . السوبان :
واد في ديار بني تميم . متنه : ظهره . دل
الناعم : أثر النعمة .
(٤) المتوسم : المتفرس في الوجه .
(٥) بكرن : رحلن صباحاً . استحرن :

الصوف المتساقط من هوداجهن ورحلن كأنه حبُّ الفنا ، حتى إذا انتهين إلى الماء الذى يطلبنه والمرعى الذى يلتمسونه ألقين مع عشائرهن عصا الترحال . وكان زهير يبدع فى مثل هذا التصوير الذى يعرض به عرضاً حياً مليئاً بالحركة ظعن صواحبه ، وهى ترحل فى الصحراء تلك الرحلة الدائبة ، ومعها العشائر ، طلباً للآبار ومساقط الغيث والكلأ . وهو تصوير للتصوير فحسب ، فليس فيه وصف حب ، إلا ما قد يأتى عفواً أو عرضاً كالبیت الرابع من هذه القطعة ، وكان حريّاً به أن يقف ليصور جمال هؤلاء النساء وأثره فى نفسه وفى الشباب من حوله غير أن ذلك لم يكن يعنيه ، إنما كان يعنيه الوصف للوصف ، فهو يصور قدرته الفنية لا عواطفه ولا مشاعره ، ومن غير شك كان يحسن الوصف والتصوير لا بما يسوقه من صور بيانية فحسب ، بل بما يعتمد إليه من رسم دقائق المنظر الذى يصفه وبما يبت فيه من حياة وحركة .

ولزهير هجاء فى بعض القبائل التى كانت تُغير على عشيرته ، وخاصة فى الحارث بن ورقاء أحد بنى أسد الذى أغار على قبيلته ونهب غلامه يساراً وبعض أمواله ، وهو فيما صحّ من هذا الهجاء لا يوغل فى الإقذاع وهتك الأعراض إيفال أستاذه أوس والجاهليين من حوله ، بل يُبقي على مهجوه وعلى نفسه ، عامداً إلى السخرية كقوله فى عشيرة حصن من بنى عُلَيْم الكلبين :

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء
فإن تكُن النساء مخبّاتٍ فحق لكل مُحصنة هِدَاء^(١)

فهن نساء خُبّتن فى الخلدور ، وينبغى أن يزوّجن . وهى سخرية مرة ، تحمل كل ما يريد من وصفهم بالجن . وكان يجد فى مثلها ما يكفيه عن الإقذاع المفحش . وكأنما كان الإقذاع لا يتفق ووقاره ، فتحاشاه ، بينما كان أستاذه أوس من جهة وتلميذه الخطيئة من جهة ثانية يقذعان فيه ، وقد استعار منه تلميذه هذه الأداة أداة السخرية فأشاعها فى أهاجيه على شاكلة قوله المشهور فى الزبرقان ابن بدر :

(١) الهداء : الزفاف .

دَعِ المَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لُبُغَيْتِهَا واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي
فجعل مروعته لا تبلغ به إلا أن يأكل ويلبس . وليس بين أيدينا رثاء مأثور
صحيح لزهير .

ولم نتحدث حتى الآن عن أهم الموضوعات التي تتجلى فيها براعة زهير ودقة فنه
في التصوير ، ونقصه وصف الوحش والصيد ، وقد أشاد القدماء كثيراً ببراعة
أستاذه أوس في هذا الباب^(١) ، ووقفوا عند معان وصور اقتبسها منه زهير ، ولكن
من الحق أنه نمتى هذا الموضوع ، بحيث يعد في الطليعة من شعراء الجاهلية في
وصف الوحش والصيد . وكأني به كان يخبرُ اللغة خبرة أوسع من خبرة أستاذه ، وكان
له خيال دقيق ساعده على تجسيم الصور وتمثيل الحيوان بكل ما يتصل به من منظر
وهيئة وحركة ، وهو يعرض علينا ذلك تارة في بيت أو أبيات قليلة ، وتارة في قطع
كبيرة ، وكأننا إزاء شريط يُعرّض في دار من دور الخيالة ، وقرأ له هذا البيت
في معلقته يصف رسوم دار صاحبه ، وقد ألمّ بها بعد عشرين عاماً ، فلم يجد بها
إلا بقر الوحش والظباء ، يقول :

بِهَا الْعَيْنُ وَالْآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْشَمٍ^(٢)
وهو بيت واحد ، ولكنه عرف كيف يعرض علينا منظر البقر والظباء في
بعض مواضع البادية عرضاً كاملاً إذ نتمثلها وهي تمشي في جهات متضادة ،
وأطلاؤها أو أولادها تنتثر هنا وهناك ، ناهضة من كل موضع . وانظر إليه يصور
ناقته بظلم في بيتين ، يودعهما وصفاً دقيقاً له إذ يعرض هيئته وسرعة حركته وذعره
الدائم وانطلاقه المستمر في الصحراء كأنه مجنون لا يلوى على شيء ، يقول :

كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظَّلْمَانِ جُوجُوهٌ هَوَاءُ^(٣)
أَصْلِكَ مُصْلَمٍ الْأَذْنَيْنِ أَجْنَى لَهُ بِالسِّيِّ تَنُومٌ وَآءُ^(٤)

جميع ظليم . الجوجوه : الصدر . هواء : فارغ .
(٤) أصك : مقارب العرقوبين . مصلم :
مقطوع . أجنى من الجنا ، وهو إدراك الثمار
ونفضها . السى : موضع . التنوم والآء من
أشجار البادية .

(١) خزانة الأدب للبغدادى ٢/٢٣٥ .
(٢) العين : بقر الوحش ، والآرام : الظباء
البيض . خلفه : من جهات متضادة . الأطلاء :
أولاد الوحش . مجثم : مريض .
(٣) الصعل : صغير الرأس . الظلمان :

وتلك صورة كاملة للظلم أو ذكر النعام فهو صغير الرأس متقارب العرقوبين ليس لأذنيه حجم . وهو ليس ظليماً صغيراً فقد أدرك ، وهو هناك يرعى في السّيِّ بعض أشجار البادية . وماذا بقي من هيئة الظلم ؟ إنه لم يبق شيء إلا سرعته وحركته الدائبة ، وهو يصورها تصويراً دقيقاً في قوله « جَوْجُوهُ هَوَاء » فصدره فارغ كأنما لا قلب أو لا عقل له ، فهو يعتسف الصحراء اعتساف مجنون يسرع في العدو هرباً من كل شبح ، فلا يكاد يقف . ولما تمت له هذه الصورة بتفاصيلها الدقيقة الجسمية والنفسية انتقل يصور ناقته في سرعتها بحمار وحش يسوق أثنه سوقاً عنيفاً ليرد بها ماء ، وهو لا يغفل عنها ، وهي خاضعة لمشيئته ، يدعوها في كل فجر فتجيب ، وصَوَّرَ هذا الدعاء تصويراً بديعاً ، فقال :

كَأَنَّ سَخِيْلَهُ فِي كُلِّ فَجْرِ عَلَى أَحْسَاءٍ يَمْثُودُ دُعَاءُ^(١)

فهو ينادى أثنه كل صباح كي يرد بها الحياض والمناهل ، وهي تلبّيه . وكأنه يرسم بذلك صورة عشيرة تتبع شيخها حين يدعوها . وقرأ له هذه القطعة الطويلة في وصف النبات والمطر والفرس والصيد فستلذك خصائصه في التصوير مجتمعة :

وغيث من الوسميِّ حَوْ تِلَاعُهُ أَجَابَتْ رَوَابِيهِ النَّجَاءَ هَوَاطِلُهُ^(٢)
هبطت بَمَمْسُودِ النَّوَاشِرِ سَابِحِ مَمْرٌ أَسِيلِ الْخَدِّ نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ^(٣)
تميم فَلَوتَنَاةٍ فَأَكْمَلِ صُنْعُهُ فَتَمَّ وَعَزَّتْهُ يَدَاهُ وَكَاهِلُهُ^(٤)
أَمِينِ شَظَاهٍ لَمْ يُخْرِقْ صِفَاقَهُ بِمَنْقَبَةٍ وَلَمْ تَقْطَعْ أَبَا جِلُّهُ^(٥)
إِذَا مَا غَدَوْنَا نَبْتَغِي الصَّيْدَ مَرَّةً مَتَى فَرَّةً فَإِنَّا لَا نُخَاتِلُهُ^(٦)

يريد أنه ضخم الجوف .
(١) : موضع . الأحساء : جمع حمى ، وهو الموضع كثير المياه .
(٢) : الغيث : المطر . الوسمي : أول الغيث . حو : سوداء . تلاءه : مسايله ، وهي سوداء لسواد أطراف النبات . النجاء : المرتفعة .
(٣) : النواشر : عصب الذراع . ممسود : مفتول : مر : محكم الخلق . أسيل : ناعم . نهدي : ضخم . المراكل : مواضع ركل الفارس من الفرس
(٤) : تميم : تام الخلقة . فلوتاه : فطمناه . عزته : قوته .
(٥) : أمين : قوى . شظاه : عظامه اللاصقة بالذراع . الصفاق : الجلدة الباطنة وراء البشرة ، لم يخرق بمنقبة : لم يدار بآلة بيطار . الأباجل : عروق في اليد .
(٦) : لا نخاتله : لا نأخذه بالحديعة .

(١) السحيل : نهيق الحمار . يمثود : موضع . الأحساء : جمع حمى ، وهو الموضع كثير المياه .
(٢) : الغيث : المطر . الوسمي : أول الغيث . حو : سوداء . تلاءه : مسايله ، وهي سوداء لسواد أطراف النبات . النجاء : المرتفعة .
(٣) : النواشر : عصب الذراع . ممسود : مفتول : مر : محكم الخلق . أسيل : ناعم . نهدي : ضخم . المراكل : مواضع ركل الفارس من الفرس

فبينما نُبغى الصَّيْدَ جاء غلامنا
 فقال : شِياهٌ راتعاتٌ بقفرةٍ
 ثلاثٌ كَأَقْوَاسِ السَّراءِ ومِسْحَلٌ
 وقد خَرَّم الطُّرَّادُ عنه جِحاشه
 فقال : أميري ما ترى رأى ما نرى
 فبيننا عُرَاةٌ عند رأسِ جِوَادِنا
 ونضربه حتى اطمأنَّ قَدَالُهُ
 ومُلْجِمُنَا ما إن ينالُ قَدَالَهُ
 فلأياً بلأى ما حملنا وليدنا
 فقلت له : سَدِّدْ وَأَبْصِرْ طَريقَه
 وقلت : تعلِّمْ أَن للصيدِ غِرَّةٌ
 فتبع آثارَ الشِياهِ وليدنا
 نظرتُ إليه نظرةً فرأيتُه
 يُثْرِنُ الحَصَا في وجهه وهو لاحقٌ

يَدِبُ وَيُخْنِي شَخْصَه وَيُضَائِلُهُ (١)
 بِمُسْتَأْسِدِ الْقُرَيَّانِ حُوٍّ مَسَائِلُهُ (٢)
 قد اخضرُّ من لَسِّ الغميرِ جَحَافِلُهُ (٣)
 فلم تبقِ إلَّا نَفْسُهُ وَحَلَالَتُهُ (٤)
 أَنْخَلَتُهُ عَنْ نَفْسِهِ أَمْ نُصَاوَلُهُ (٥)
 يُزَاوِلُنَا عَنْ نَفْسِهِ وَنَزَاوَلُهُ (٦)
 ولم يطمئنَّ قلبه وَخَصَائِلُهُ (٧)
 ولا قدماه الأَرْضَ إلَّا أَنَامَلُهُ
 على ظهرِ محبوبٍ ظِمَاءٍ مَفَاصِلُهُ (٨)
 وما هو فيه عن وصائى شَاغِلُهُ
 وإلَّا تُضَيِّعُهَا فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ (٩)
 كشَوْبِوبٍ غَيْثٍ يَخْفِشُ الْأُكْمَ وَأَبْلُهُ (١٠)
 على كلِّ حالٍ مرَّةً هو حَامِلُهُ (١١)
 سِرَاعٌ تَوَالِيهِ صِيَابٌ أَوَائِلُهُ (١٢)

- (١) نُبغى : نبتنى ونطلب . يدب : يمشى
 راجلاً ببطء . يضائل : يصنر .
 (٢) الشياه هنا : الأتن . القرىان : مجارى
 الماء . مستأسد النبت : ما طال منه . حو :
 سوداء .
 (٣) السراء : شجر تصنع منه القسي .
 المسحل : حمار الوحش . جحافله : شفاهه .
 الغمير : نبت . لسه : أكله .
 (٤) خرم : نفر وأبعد . حلالتله :
 زوجاته من الأتن .
 (٥) نختلله : نخادعه . نصاوله : نجاهره .
 (٦) عراة : فى أرض عارية من الشجر .
 وقيل عراة من العروراء : وهى الرعدة عند الخرص .

- يزاولنا : يدفعنا لشدة نشاطه .
 (٧) القدال : مؤخر الرأس . خصائله :
 لحم العصب .
 (٨) محبوبك : متين . ظماء مفاصله : قليلة
 اللحم لا تترهل .
 (٩) الغرة : الغفلة .
 (١٠) الشؤبوب : الدفعة من المطر . يخفش
 يملأ .
 (١١) يقول إن الفرس كان يحمل فى كل
 حال الغلام ، يحمله على الطمع وعلى اليأس .
 (١٢) التوالى : الأواخر يريد الرجلين والعجز .
 ويقصد بأوائله يديه وصدوره . وصياب : سراع .

فرد علينا العير من دون إلفه على رغمه يدعى نساء وفائله (١) وهو في مستهل هذه الأبيات يصف مطراً يتساقط على بعض المرتفعات والوهاد ، وقد انتشر فيها النبات الضارب إلى السواد ، وهو يقبل مع بعض رفاقه على فرس محكم الخلق ، فطعم منذ عهد قريب ، فهو أشد ما يكون قوة ، لم يصبه مرض ولا علة . ويعرض علينا هيئته وخلقته كاملة . وسراه بعد قليل يصور أحاسيسه وهو أجسه ، فتكتمل صورتيه الجسدية والنفسية . ويستطرد إلى وصف الصيد فيذكر أن غلامه الذي ذهب يستطلع الحيوانات الوحشية في الصحراء جاء يدب ويخفي شخصه ويضائله . وبهذه العبارة الموجزة رسمه لنا رسماً دقيقاً ، رسم حركته وسيره وأنه كان يحاول أن يخفي شخصه حتى لا تفزع الوحوش . وأخبرهم أنه رأى غير بعيد ثلاث أتن وحشية ، وهي ضامرة كأقواس السراء ، ومعها حمارها وقد أقبل على الطعام من النبات حتى اخضرت مشافره . واخضرار المشافر لمسة من لمسات زهير الذي كان يبتغي الدقة في التصوير بما يعطى من ألوان الأشياء وما يذكر من تفاصيلها . وينتقل فيحدثنا أنهم باتوا يروضون الجواد ، حتى كان الصباح ، فألحمه الغلام ، وهو لا يكاد يطوله لضخامته . وزهير يوصيه كيف يتبع فريسته . ويبدع زهير في هذا الجزء من وصفه ، فهم منذ أخبرهم الغلام بنجر الصيد مفزعون لشدة ما هم فيه من حرص على طلب الصيد والحصول عليه ، وقد أحس الجواد ما هم فيه وما ينتظره في الصباح الباكر ، فأخذته الخوف من جميع أطرافه ، فهو يجاهدهم وهم يجاهدونه ويضربونه ، حتى اطمأن وأمكنهم منه ، غير أن قلبه وأعصابه لم تطمئن ، فلا يزال يستحوذ عليه الفزع والخوف الشديد . ولم يكن الغلام من هذه الحالة النفسية غير بعيد ، فقد كان زهير يوصيه كيف يطارد الصيد وهو في شغل عنه بمخاوفه وما ينتظره في تلك المعركة . وزهير بهذا كله يعد مصوراً بارعاً ، إذ يصور الهيئات الجسدية والأحوال النفسية فيما يصفه ، وكأنما كانت له عين كبيرة تعرف كيف تلتقط قسماات الجسد وسرائر النفس ، لانفس الإنسان وحده بل أيضاً نفس الحيوان وما يلم بهما جميعاً من وساوس وهواجس . وقد مضى يصور مطاردة الغلام — ولعله غلامه يسار — للأتن وحمارها وكيف انصب عليها كأنه شؤبوب

(١) المير : حمار الوحش . والنساء والفائل : عرقان .

أو صاعقة من السماء ، وهي تثير الحصى في وجه فرسه ، والفرس لا يتثنى عنها حتى أفرد الحمار من دون صواحبه وصاده الغلام ، وجاء به جريحاً تنزف دماؤه .
 وواضح أن زهيراً استم في هذا الوصف الدقيق كل براعته سواء من حيث توشيته بالتشبيهات ، أو من حيث ملؤه بالحياة والحركة الجسدية والنفسية . وله قطعة لا تقل عن هذه القطعة جمالاً وروعة في قصيدته الدالية التي رواها المفضل الضبي ، وفيها يصف بقرة وحشية شبه بها ناقته في سرعتها ، ومضى يستكمل وصفها مستطرداً إلى مطاردة الصائد لها بينما تفرس السباع أحد أفلاذ كبدها ، يقول :

كَخَنَسَاءِ سَفْعَاءِ الْمَلَاظِمِ حُرَّةٌ مُسَافِرَةٌ مَزْعُودَةٌ أُمٌّ فَرْقَدٌ^(١)
 غَدَتْ بِسِلَاحٍ مِثْلَهُ يُتَّقَى بِهِ وَيُؤْمِنُ جَأَشُ الْخَائِفِ الْمُتَوَحِّدِ^(٢)
 وَسَامِعَتَيْنِ تَعْرِفُ الْعِتْقَ فِيهِمَا إِلَى جِذْرِ مَذْلُوكِ الْكَعُوبِ مَحْدَدِ^(٣)
 وَنَاطِرَتَيْنِ تَطْهَرَانِ قَسْدَاهُمَا كَأَنَّهُمَا مَكْحُولَتَانِ بِإِثْمِدِ^(٤)
 طَبَاهَا ضَحَاءٌ أَوْ خَلَاءٌ فَخَالَفَتْ إِلَيْهِ السَّبَاعُ فِي كِنَاسٍ وَمَرْقَدِ^(٥)
 أَضَاعَتْ فَلَمْ تُغْفَرْ لَهَا غَفْلَاتُهَا فَلَاقَتْ بَيَاناً عِنْدَ آخِرِ مَعْهَدِ^(٦)
 دَمًا عِنْدَ شِلْوٍ تَحْجِلُ الطَّيْرُ حَوْلَهُ وَبَضْعَ لِحَامٍ فِي إِهَابٍ مَقْدَدِ^(٧)

(١) ناطرتين : عينين . تطهران قذاهما : ترميان به وتنقيانه . الإثم : كحل أسود .
 (٥) طبها : دعاها . ضحاه : رعى الضحى .
 خلاء : خلو المكان . فخالفت إليه السباع : أي اختلفت إلى ولد البقرة . الكناس : بيت في الشجر تستتر فيه البقرة أو تستر أولادها من الحر والبرد .
 (٦) أضاعت : تركت ولدها وغفلت عنه .
 البيان : ما استبانته عند ما رجعت ووجدت بقايا ولدها من بعض الجلود واللحم والدماء .
 آخر معهد : آخر موضع تركته فيه .
 (٧) الشلو : بقية الجسد . البضع : جمع بضعة وهي القطعة . اللحام : جمع لحم . الإهاب : الجلد . المقدد : المشقق المخرق .

(١) الخنساء : بقرة الوحش سميت بذلك لتأخر أنفها ومثلها الظباء لأنها جميعاً فطس خنس . سفعاء الملاطم : السفع سواد في حمرة . والملاطم : الخدان . مزعودة : مذعورة ، مسافرة : ترحل من موضع إلى موضع . الفرقد : ولد البقرة .
 (٢) يريد زهير بالسلاح قرني البقرة . الجأش : الصدر . المتوحد : الوحيد المنفرد .
 (٣) سامعتين : أذنين . العتق : الأصالة . ومعرفة العتق كناية عن أنهما محددتان متصبتان . إلى جذر : إلى هنا بمعنى مع ، والجذر : الأصل . مذلولك : أملس . والكعوب : جمع كعب وهو ما بين العقدتين في القرن . وزهير يريد بالشرط الثاني وصف قرنيها بأنهما أملسان محدد الرأس .

وتنفض عنها غيب كل خميلة
فجالت على وحشيها وكأنها
ولم تدرو شك البين حتى رأهم
وثاروا بها من جانبيها كليهما
تبذ الألى يأتينها من ورائها
فأنقذها من غمرة الموت أنها
نجاء مجد ليس فيه وتيرة
وجدت فألقت بينهن وبينها
بملتحات كالخذايرف قوبلت
إلى جوشن خاظم الطريقة مسند^(٩)

وزهير يستهل حديثه عن البقرة بوصفها الجسدى والنفسى فهى خنساء فى حدودها حمرة مشربة بسواد ، وهى طليقة فى الصحراء ترحل من موضع إلى موضع مذعورة فقد خلفت ولداً لها فى كناس ، وهى تخشى عليه من السبع والإنسان . وإنها لشاكية السلاح ، كأنها معدة خلقة لكفاح أعدائها ونزالهم ، فقد برز لها قرنان وإنهما حريان بأن يقياها الخطر ويؤمننا وحدتها وخوفها ، إذ هما محددان ألسان كأنهما السيوف القاطعة ، ومن ورائهما أذنان ترهف بهما السمع خشية العدو المفاجئ وباصرتان

(٥) تبذ : تسبق . تصطد : تضرب بقرنيها ما يتقدمها من الكلاب .
(٦) تنظر النبل : يريد زهير تنتظر أصحابها وهم الرماة . تقصد : تقتل .
(٧) النجاء : سرعة العدو . الوتيرة : التلبث والانتظار . تذببيها : دفاعها . الأعجم : الأسود . المنود : قرنها الذى تنود به عن نفسها .
(٨) جدت : أسرع فى العدو . الدواخن : جمع دخان . الغرقد : شجر .
(٩) الملتحات هنا : القوائم شبهها بالخذايرف . إلى جوشن : مع صدر . خاظم الطريقة : مكثز اللحم فى أعلى الصدر . مسند : مرتفع .

(١) تنفض : تنظر هل ترى ما تكروه . الخميلة : الرملة بها شجر . الغوث : قبيلة من طي تشتهر برماها وقناصها .
(٢) جالت : ذهبت وجاءت . الوحشى : الجانب الذى لا يركب منه وهو الأيمن يريد أنها مالت على عطفها الأيمن . مسربة : لابسة مربالا وهو القميص . الرازق : ثوب أبيض . معصد : مخطط .
(٣) وشك البين : سرعتة ، والبين هنا : فقدها لولدها . الأنفاق : الطرق والمسالك .
(٤) يجشمها الشد : يكلفنها العدو ويحملنها عليه . تجهد : تسرع وتجهد .

سوداوان كأنهما مكحولتان تحدُّ بهما النظر إلى ما حولها .

وعلى هذا النحو يعرض علينا زهير تلك البقرة بهيئة جسدها وهيئة نفسها ،
لنستعد إلى ماسيفجؤها من كوارث . وهو يثبت هيئتها في نفوسنا بما يصوره من
تفاصيل جسدها ولون خديها وعينيها . ولا يلبث أن يصور لنا فاجعتها في ولدها ،
وقد أعدنا لذلك منذ البيت الأول ، فهي مسافرة ، مسرعة في العودة ، وقد أخذها
الدعر . لقد خرجت تطلب الرى والرعى ، وعاودها الحنين إلى ولدها ، بل عاودها
الخوف الشديد ، وكأنها تعرف أنها تركته وراءها للسباع ، وعادت وبالهول ما رأت ،
لقد رأت بقايا ابنها من أشلاء وجلود ودماء ، والطير تحجل حوله ، فأخذها الحزن
الشديد . إن أملها في الحياة فقدته . وقد عادت تجرى في الصحراء مذعورة تتلفت
يميناً وشمالاً تنظر هل هناك ما تخشاه ، وإنها لتخشى رماة عشيرة الغوث الذين
تعودوا أن يطاردوها بسهامهم وكلابهم من كل مرصد ، ومرت على جانبيها الأيمن ،
كأنها تظنه أكثر أمناً ، وهي تترأى في لونها الأبيض وقوائمها المخططة كأنها الثوب
الناصع الجميل ، ولم تكن تدرى أن الموت يرصدها ، حتى رأت رأى العين رماة
الغوث ، وقد أخذوا عليها جميع الطرق والمسالك ، وأرسلوا عليها كلاب الصيد ،
فولت مسرعة ، والكلاب تلاحقها وهي تارة تسبق أوائلها ، وتارة تلاحقها الكلاب
فتنوشها بقرنيها ، وما زالت تعدو حتى أفلتت من غمرة الموت يسعفها قرنبا الأسود
وما أثارته بينها وبين الكلاب من غبار كأنه الدخان . ويصور زهير سرعة قوائمها
ونخفة حركتها بخذاريه الصبيان التي يديرونها دوراناً سريعاً بنحيط يشدونها إلى
أيديهم ، وقد سبقه امرؤ القيس إلى هذه الصورة في وصف سرعة فرسه ، إذ قال
فيه كما مرّ في غير هذا الموضع :

دريـر كخـذروف الوليد أمره تقلّب كفيه بخيط موصّل
وقد حاول زهير أن يضيف زيادة جديدة فجعل القوائم ملتئمة متناسقات
كما جعلها متقابلات ، فهي كخذاريه لا كخذروف واحد ، يقابل بعضها بعضاً .
والحق أننا نحس إزاء زهير أنه استوفى كل ما كان ينتظر الشاعر الجاهلي من
براعة في التصوير . وكان يحفّ هذه البراعة بضروب من الوقار تتضح في مدائحه
وأهاجيه وغزلياته جميعاً ، فهو يحتفظ بكرامته دائماً ، ولعل ذلك ما جعله ينفر من

الحمير والميسر كما قدمنا في غير هذا الموضع . وقرأ مدائحهم وأنعم النظر فيها فستراه
يمثل لك في هـريم والحارث بن أبي عوف وحِصْن بن حذيفة صورة السيد الفاضل ،
لا من حيث الشجاعة والكرم فحسب ، بل أيضاً من حيث الحلم والعفو عن المسيء
في العشيرة والدفع بالمعروف من القول والحذب على الفقراء وتجنب الفواحش والآثام .
واقترنت هذه الصورة المثالية للسيد الفاضل في شعره بكثير من الحكم والدعوة إلى
مكارم الأخلاق . وقد ذيل المعلقة بطائفة من الأبيات التي تذهب هذا المذهب ،
وقدمنا أن الأصمعي كان يشك فيها ويقول إنها لشاعر أنصاري يسمى صِرْمَة ،
ويظهر أن حِكْمًا له اختلطت بحكم لهذا الشاعر ، ونستطيع أن نفرّد منها له مثل قوله :
وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الزُّجَاجِ فَإِنَّهُ يَطِيعُ الْعَوَالِي رُكِّبَتْ كُلُّ لَهْذَمٍ (١)

فإن هذا البيت يتفق وما لاحظناه عنده من ميله إلى إخراج أفكاره ومعانيه في
صور متلاحقة . فقد أراد أن يقول من أبي الصلح لم يكن له بد من الحرب ، فلم
يقل ذلك مباشرة ، بل ذهب يبحث عن صورة تمثل الصلح عندهم ، وسرعان
ما لمعت في خياله عادة كانت معروفة لديهم ، وهي أن يستقبلوا أعداءهم إذا أرادوا
الصلح بأزجة الرماح ، ومن ثم قال « ومن يعص أطراف الزجاج » يريد « ومن لا يطع
الدعوة إلى الصلح والسلام » ومضى يمثل الدخول في الحرب بإطاعة أسنة الرماح
والسيوف . وفكرة البيت متصلة بالمعلقة وما تدعو إليه من السلام والاستجابة
إلى الصلح . وقد تكون الأبيات التي تتصل بفكرة الحياة والموت صحيحة النسبة إلى
زهير لأنها تتصل كالبيت السابق بموضوع القصيدة ، كقوله :

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءَ مِنْ تُصِيبُ ثُمْتَهُ وَمِنْ تُخْطِي يَعْمَرُ فِيهِمْ

وفي البيت أيضاً صورة بديعة ، إذ يشبه الموت بناقة عشواء لا تبصر طريقها ،
فهى تخبط الطريق خبطاً أعمى ليس له نظام ولا قياس . والتفكير في الحياة والموت
يكثّر عند زهير كقوله في إحدى قصائده لهرم :

رفع كعوب الرماح كناية عن الصلح والمسألة
إذ كانت تلك عاداتهم في الجاهلية .

(١) الزجاج : جمع زج وهو الحديد في
أسفل الرمح . والعوالى : سنان السيوف والرماح .
اللهزم : السنان القاطع . وواضح أنه جعل

تزوّد إلى يوم المماتِ فإنه ولو كرهته النفسُ آخرُ موعدٍ
 وإذا أخذنا نقرأ في أشعاره لقينا فيها حِكَمَ كثيرة ، وهو ينثرها نثراً خلال
 الموضوعات المختلفة التي يلم بها ، فمن ذلك قوله :
 وكنتُ إذا ما جئت يوماً لحاجةٍ مضت وأجمتُ ، حاجةُ الغدِ ما تخلو^(١)

وقوله الذي أنشدناه :

وهل يُنبت الخطيُّ إلا وشيجه وتغرُسُ إلا في منابتها النخلُ
 وقوله :

كذلك خيمهم ، ولكلِّ قومٍ إذا مسّتهم الضرائمُ خيم^(٢)
 وقوله الذي أنشدناه :

فلو كان حمداً يخلد الناسَ لم تمتُ ولكنَّ حمداً الناسَ ليس بمُخلدٍ
 وقوله :

فإن الحقَّ مقطّعه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاء^(٣)
 وكان عمر بن الخطاب يُعجّب بهذا البيت ويتعجب من صحة القسمة فيه ،
 ويقول : لو أدركته لوليتهُ القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه^(٤) .

ولعل في كل ما قلنا ما يوضح مكانة زهير في الشعر الجاهلي ، فقد كان
 شاعراً من طراز ممتاز ، شاعراً له نظراته في الحياة والأخلاق ، وهو إلى ذلك شاعر
 مصور يحسن أدوات صناعته من جميع وجوهها ، فقد تمرّس بنماذج أوس وغيره
 من فحول الجاهلية ، ولم يكده ينظم أشعاره حتى ذاع اسمه في القبائل ، فالتسمه
 بعض الشبان يتعلمون عليه هذه الصناعة الدقيقة التي يحسنها إلى أبعد حدٍّ ، ونبلغ

(٣) النفار : المنافرة إلى شيوخ القبائل
 للحكم . الجلاء : انكشاف الأمر .
 (٤) الصناعتين للعسكري (طبعة عيسى
 الحلبي) ص ٣٤٢ .

(١) مضت وأجمت : مضت حاجة الأمس
 ودنت حاجة الغد . ما تخلو : يريد : لا يخلو
 المرء من حاجة ، فحاجة من عاش لا تنقضي .
 (٢) الخيم : الشيمة والخلق .

منهم الخطيئة ، ولقّن الشعر ولديه بُجَيَّرًا وكعبًا ، وطار صيت الأخير في العصر
التالى عصر المخضرمين .

نحن إذن بإزاء شاعر ممتاز خبّر صناعة الشعر الجاهلى وعرف أساليبها ، واستطاع
أن يؤدّى أجمل صورة لها فى لفظه وقوالبه وصيغته ، وقد لاحظ القدماء ذلك وعبروا
عنه عبارات مختلفة ، فقالوا إنه كان يصنع قصائده الطويلة فى حول كامل وإنه
صنع سبع حَوَلِيَّات^(١) ، وينسبُ الجاحظ هذا القول إلى زهير نفسه ، فيقول :
« كان زهير بن أبى سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات ، ولذلك قال الخطيئة :
خير الشعر الحولى المحكك (يقصد شعر أستاذه وشعره) وقال الأصمعى : زهير بن
أبى سلمى والخطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من جود فى شعره ووقف
عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى
الجودة^(٢) » . ويعلق الجاحظ على صناعة زهير وشعره فى موضع آخر ، فيقول :
« من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (كاملا)
وزمنا طويلا يردّد فيها نظره ويحيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله وتبعاً على
نفسه ، فيجعل عقله زمناً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفافاً على أدبه ،
وإحرازاً لما نحوله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات
والمفتحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً (تاماً) وشاعراً مفلحاً^(٣) » .

وسواء سمى زهير قصائده الطويلة بالحوليات أو سماها الرواة بهذا الاسم فإن
هذه التسمية تدل على مدى ما أحس به القدماء تلقاء مطولاته ، فقد أحسوا فيها
بجهد شديد ، وتصوروا أن هذا الجهد يستنفد آماداً بعيدة من الزمن ، وتخيّلوا
حولا كاملا ، ومضوا يسمون زهيراً والخطيئة وأضرابهما عبيد الشعر لما شعروا عندهم من
طول الثّفاف والتنقيح والتجويد والتعبير ، وكأنهم يُلغون حريتهم وإرادتهم ، فهم
عبيد فن الشعر ، يخضعون لإرادته الفنية وما يُطوَى فى هذه الإرادة من تنسيق محكم
للألفاظ والصيغ . ويظهر أن زهيراً كان يُعرَفُ بذلك من قديم ، فهم يروون عن
عمر بن الخطاب أنه كان يقول : « زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظم فى

والترجمة والنشر) ١٣/٢ .

(٣) المصدر نفسه ٩/٢ .

(١) الخصائص لابن جنى (طبع دار الكتب

المصرية) ١/٢٢٤ .

(٢) البيان والتبيين (طبع لجنة التأليف

الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه^(١). والمعازلة بين الكلام المداخلة فيه بحيث لا ينضد نضداً مستويًا. والحق أن صياغة زهير تستوفي حظوظاً بديعة من صفاء التعبير ونقائه وخلوصه من الأدران التي قد تؤذيه، وارجع إلى القطع التي أنشدناها له في المديح، فإنك ستجدها متوهجة، وما ذلك إلا من دقة التعبير وصقله إلى أبعد غاية وصل إليها شاعر جاهلي، والذي لا ريب فيه أنه كان يستولي على لغته ويسيطر عليها ويجمع منها خير ما فيها من ألفاظ وكلمات، وما يزال ينسّقها حتى تتراءى كأنها عقود من الجواهر. وعلى نحو ما كان يستوفي حظوظاً مختلفة من الجمال في عباراته وصيغته كان يستوفي ضرورياً من الإتيان والكمال في موسيقاه، فليس فيها نشاز من إقواء وليس فيها اجتلاب قافية وإكراهها على إحلالها في أماكنها، فقوافيه تتمكن في مواضعها، ومهما ضاق عليه هذا الموضع نفذ منه على أجمل صورة، وانظر إلى قوله في معلقته:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عمي
فقد وصل إلى القافية، فوجد نفسه مضيقاً عليه، ولم يلبث أن نفذ إلى كلمة «عمي» فتمم البيت في غير عسر ولا مشقة. ومن ذلك قوله:

هم يضربون حبيك البيض إذ لحقوا لا ينكصون إذا ما استلجموا وحموا^(٢)
فقد نفذ من الدرب الضيق في القافية، بما جاء به من كلمة «حموا» ولم ينفذ فحسب، فقد استخدم كلمة تتناسق في حروفها مع الفعل السابق لها، فهي كلمة من نفس أسرتها، وهو ما يعبر عنه علماء البيان العربي باسم الجناس، وله أمثلة مختلفة في شعره كقوله الذي أنشدناه:

كأن عيني وقد سال السليل بهم وجيرة ما هم لو أنهم أمم
فقد جانس بين سال والسليل، وتعلق بحرف الميم في ألفاظ الشطر الثاني، فأحدث بينها تلاؤماً واضحاً. ومن أمثلة الجناس عنده:

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً بمالٍ ومعروف من القول نسلم

(١) أغاني ٢٨٩/١٠. خوذهم في الحرب. استلجموا: من التلاحم والمخالطة في القتال. حموا: اشتد غضبهم.
(٢) حبيك البيض: طرائقه. البيض: حياض.

وقوله :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكْثِرْ غَنِيمَةً بنهكة ذى القُرْبَى ولا بِحَقْلَدٍ^(١)
وعلى نحو ما كان يستخدم الجناس كان يستخدم الطباق ، وله أمثلة كثيرة
عنده كقوله الذى أنشدناه فى وصفه للظُّعن :

جعلنَ القَمَانُ عن يمينِ وحَزَنه ومَنْ بالقَمَانِ من مُجِلٍّ ومُحْرِمِ

وقوله :

يَمِينَا لَنَعْمَ السَّيْدَانِ وَجَدْتُمَا على كلِّ حالٍ من سَحِيلٍ ومُبْرَمِ

وقوله :

وقد كنت من سَلَمَى سِنِيناً ثَمَانِيَا على صَبْرٍ أَمْرٍ ما يَمُرُّ وما يَحُلُو^(٢)

وقوله الذى أنشدناه :

لَيْثٌ بَعَثَرٌ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا ما كَذَّبَ اللَّيْثُ عن أَقْرَانِهِ صَدَقَا

على أن زهيراً إنما كان يستخدم الطباق والجناس من حين إلى حين فهما ليسا
لونين فاقعين فى شعره، إنما اللون الفاقع فى شعره هو التصوير، إذ كان يودعه كل
مهارة، وكان يأبى أن يُخْرِجَ كثيراً من أبياته إلا ويوشَّيها به ، بحيث لا نبعد إذا
قلنا إنه شاعر التصوير فى الجاهلية ، ومن ثَمَّ كَثُرَتْ عنده التشبيهات والاستعارات
كثرة مفرطة ، وكان يسعفها بها خيال متوثب متهيئ ليخرج من جديد ما سمعه من
أستاذه أوس وغيره ، وليضيف إلى ذلك ثروة من عنده . ثروة خيالية تنعقد
فيها مشابهاة كثيرة بين الأشياء ، وهى مشابهاة من شأنها أن تجعلنا نحس بأننا
ندخل معه فى عالم خيالى محالم ، وخاصة حين تلقانا استعاراته وما يملؤها به من
أشباح وأرواح ، فإننا نستشف معه كثيراً من الأشياء وعلاقاتها ببعضها ببعض ، كما
نستشف الجمال فى داخلها ونشعر بغير قليل من المتاع .

أقربائه ، وليس يبخيل لثيم .
(٢) صبر أمر : منتهاه وما يصير إليه .

(١) النهكة : الإضرار . الحقلد : البخيل
السيىء الخلق ، يقول إنه لا يكثر ماله بظلم

وارجع إلى ما عرضناه من أشعاره فستجد التشبيهات تراكم فيها ، وستراه دائماً حين يفكر في شيء يلمع في ذهنه نظيره ، محاولاً أن يربط بين الشبيه والشبيه بعلاقة لا تنفصم . وهي علاقات نتقل بينها معجبين ، بل هي مشاهد تجلب لنا البهجة والمسرة ، إذ كان يعرف كيف يأتي منها بالندر الطريف على شاكلة قوله الذي أنشدناه في وصفه للظعن وقصدها إلى غايتها :

بُكْرُنَ بُكُورًا وَاسْتَحَرْنَ بِسُحْرَةٍ فَهِنَّ لَوَادِي الرَّسِّ كَالْيَدِ لِلْفَمِ

وليس كل ما يلاحظ عنده كثرة التشبيهات ولا وقوعه على نوادرها ، بل لعل أهم ما يلاحظ أنه يعنى بتفصيل التشبيه إذ لا يزال يلحّ على الصورة التي يعرضها ، وكأنه يريد أن يستوفيها بجميع دقائقها وتفصيلها استيفاءً ، كقوله في وصف بعض صواحيبه :

تَنَازَعَهَا الْمَهَا شَبَهَا وَدُرُّ الدُّ حُورٍ وَشَاكَهَتْ فِيهَا الظُّبَاءُ^(١)
فَأَمَّا مَا فُؤِيقَ الْعِقْدِ مِنْهَا فَمِنْ أَدْمَاءَ، مَرَّتَعَهَا الْخَلَاءُ^(٢)
وَأَمَّا الْمُقْلَتَانِ فَمِنْ مَهَاءٍ وَلِلدَّرِّ الْمَلَا حَةُ وَالصَّفَاءُ

فهو لا يشبه صاحبه ببقر الوحش والدر والظباء تشبيهاً عاماً ويمضي ، بل يعود إلى تفصيل تشبيهه ، فهي تشبه الظباء في جيدها الطويل الجميل وبقر الوحش في سواد عينيها الفاتنتين والدر في ملاحته وصفائه وإعانه وبهائه .

وإذا كان زهير أتقن لون التشبيه من حيث كثرة الصور والتعمق فيها والإلحاح عليها بالتفاصيل فإنه أتقن لون الاستعارة إتقاناً لعل شاعراً بجاهلياً لم يبلغ مبلغه فيه ، وارجع إلى معلقته وإلى صور الحرب التي أنشدناها فإنك تجد الاستعارات فيها تتلاحق ، فالحرب أسد ضار ، بل هي نار مشتعلة ، بل هي رحي تطحن الناس ، بل هي ناقة تنتج غلمان شؤم ، بل هي أرض مغلّة غلة قبيحة ليس فيها منافع للناس إنما فيها الموت الزؤام . وقد مثل - كما مرّ بنا - حياة العرب في حروبهم الدائرة وما يتخللها من فترات راحة بصورة قوم يرعون مراعى وخيمة ، حتى

(١) المها : بقر الوحش . شاكهت : شابهت .

(٢) الأدماء : الظبية البيضاء . الخلاء : الموضع الخالي .

إذا أخذهم الظماً الشديد وردوا على مياه وخيمة ، بل على دماء مسفوحة . ونراه في نفس المعلقة يصف شجاعاً ويصوره في صورة أسد فيقول :

لدى أسدٍ شاكى السلاحِ مقذِفٍ له لِبْدٌ أَظْفَارُهُ لم تُقَلِّمِ (١)
وواضح أنه استتم في استعارته صورة الأسد بشعره المسترسل على منكبيه وأظفاره المسنونة التي لم تقلِّم يوماً والتي إن نشبت في شيء أتت عليه .

ولم يكن زهير يكثر من الاستعارة في شعره فحسب ، بل كان أيضاً يحاول أن يأتي فيها بالصور النادرة الغريبة كقوله في أحد مطالعه :

صَحَا الْقَلْبُ عَنْ سَلَمَى وَأَقْصَرَ بِاطْلُهُ وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَّاحِلُهُ (٢)

وهو في الشطر الأول يقول إن قلبه كفَّ عن حب سلمى ، وقد أراد على طريقته أن يعبر عن هذا المعنى بصورة ، فذهب يتخيل ، وبعد به خياله ، فإذا هو يتصور أسباب حبه وصبوته التي كان دائماً يلزمها أفراساً ورواحل يركبها إلى صاحبتة ، وكان طريقه إليها مشغولاً دائماً بهذه الرواحل والأفراس . وقد انتهى اليوم كل شيء ، فقد انصرف عن سلمى وحبها ، ولم تعد تشغله أسباب صبوته القديمة . وهي صورة بعيدة لا تقع إلا في ذهن يكثر من التخيل والإغراق في التصور ، ذهن يتعمق في الأشياء والمعاني ، حتى يتخيلها أحياء حقيقية .

وأكبر الظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن زهيراً كان شاعراً مصوراً ، فالتصوير أساس فنه ، وكأنما تحول عقله إلى آلة لاقطة ، وهي ليست آلة فوتوغرافية ، بل هي آلة خالقة ، آلة تفكر في الأشياء من خلال أشياء أخرى فتعقد ما لا يحصى من مشابهاً ومشاكلات ، وما تلبث أن تتمثل فيما يقع تحت حسها أشباحاً وأطياراً تراءى لها واضحة تمام الوضوح .

ومهما تحدثنا في هذا الجانب فلن نستطيع أن نوفى زهيراً حقه من بيان مقدرته التصويرية ، وكأنى به كان الثمرة النهائية للجهود الفنية التي أودعها الجاهليون أشعارهم ، فهو من جهة قد صقل أسلوبه إلى أبعد غاية من الصقل ، ومن جهة ثانية

(٢) أقصر : كف . الأفراس : جمع فرس . الرواحل : الإبل .

(١) شاكى السلاح : تام السلاح . مقذِف : غليظ اللحم . لبدة الأسد : ما تلبد على كتفيه من شعره .

عُنى بموسيقاه وألحانه عناية واسعة بحيث لا يبدو فيها أى شذوذ ، ومن جهة ثالثة استتم فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة .

وكل هذه ألوان جمال نُعْجَبُ بها عند زهير ، فهو شاعر الجمال ، وهو شاعر الحقيقة بحكمه ، وهو شاعر الخير بدعوته إلى السلام وبما رسمه للفضيلة من مثل فيمن مدحهم ، حتى ليُرْوَى أن عمر بن الخطاب استمع إلى بعض قطعه المتألقة في مديح هرم ، فقال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)

والحق أنه يصور مثلاً جيداً من أمثلة الشعر الجاهلى ، فقد انتهى عنده هذا الشعر إلى صورة رفيعة للخير والحق والجمال ، وكان ما يزال يجهد نفسه فى رسم خطوط هذه الصورة لإجهاداً عبَّّرَ عنه القدماء بأنه حيَوَلِيّ صاحب حوليات ، وهل يمكن أن نتصوره محققاً لهذه البراعة التى وصفناها بدون جهد عنيف كان يستنفد منه آماداً طويلة من الزمن ؟ إن كل جانب فى شعره يدفعنا دفعاً إلى الإيمان بأنه كان يعاني طويلاً فى صنع قصائده وما يتخذها لها من هذا الإطار الفنى الدقيق .

الفصل العاشر

الأعشى

١

قبيلته

ينتسب الأعشى إلى قبيلة بكر بن وائل الكبيرة التي كانت تمتد فروعها وبطونها في شرقي الجزيرة من وادي الفرات إلى اليمامة . ومن أهم هذه الفروع والبطون شيبان ويشكر وجشم وعجل ، ثم حنيفة وقيس بن ثعلبة وكانتا تنزلان في اليمامة ، وتتشعب قيس شعباً أهمها مالك بن ضُبَيْعَة ومن عشائريهم بنو عَبْدَان وبنو كعب ، وربيعة ابن ضبيعة ومن بيوتاتهم بنو جَحَلر ، وسعد بن ضبيعة وإليهم ينتمي الأعشى .

وتاريخ عشيرة بني سعد بن ضبيعة في العصر الجاهلي يندمج في تاريخ قبيلتها الكبيرة ، فقد وقعت معها في حروب البسوس التي ظلت أربعين عاماً ، كما وقعت معها في يوم الكلاب ، ودخلت معها بعد هذا اليوم فيما دخلت فيه من الولاء للمناذرة وطالما نصرتهم في حروبهم مع الغساسنة . ولما طلب كسرى أبرويز النعمان بن المنذر احتفى هو وأسرته ببني شيبان إحدى قبائل بكر وخلف عند سيدهم هاني بن قبيصة الشيباني أولاده وسلاحه الذي يقال إنه بلغ نحو ألف درع . وقتل كسرى النعمان كما مرّ في غير هذا الموضع وولى على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي ، فثارت شيبان وقبائل بكر ضده وأخذت جموعهما تغير على سواد العراق ، فاضطر كسرى أن ينازلها ، ودارت على جيوشه الدوائر في يوم ذي قار المشهور الذي انتصر فيه العرب على الفرس ، وقد اختلف المؤرخون في توقيت تاريخه^(١) .

ولم تشترك قيس بن ثعلبة في هذه الحروب وحدها ، فقد أسهمت مع بني حنيفة

الأثير ٢٩٠/١ والعقد الفريد ١١١/٦ .
وراجع معجم ما استعجم للبكري ومعجم البلدان
لياقوت في « ذي قار » .

(١) انظر في يوم ذي قار الأغاني (طبعة
الساسى) ١٣٢/٢٠ والطبرى (طبعة دى غويه)
١٠١٥/١ ، ١٠٢٨/١ وما بعدها ، وابن

وغيرها من البكرين في حروب ضد تميم وغيرها من القبائل . وقد تقع حروب ومناوشات داخلية بين عشائرها ، مثلها مثل بقية العشائر في الجاهلية إذ كانت كثيراً ما تنشب بينها خلافات تؤدي إلى بعض الدماء . ويظهر أنها على الرغم من استقرارها في اليمامة وسكنائها بعض القرى مثل « منقوحة » كانت تنزع إلى حياة البداوة وما يتصل بها من رعي الإبل والغنم ، ولعل ذلك ما جعل الأعشى يهجو إياداً في بعض شعره بأنها تعتمد على الزراعة يقول (١) :

لسنا كمن جعلت إياد دارها تكريت تنظر حبها أن يحصداً
جعل الإله طعامنا في مالنا رزقاً تضمنه لنا لن ينفداً (٢)
مثل الهضاب جزارةً لسيوفنا فإذا ترأع فإنها لن تطردا (٣)
ضمنت لنا أعجازهن قدورنا وضروعهن لنا الصريح الأجرداً (٤)

وواضح أنه يصرح بأن إياد تعتمد على الزراعة والحصاد ، أما هم فما لهم الإبل التي لا تنفد ، وهي إبل ضخمة كالهضاب ، يعقرونها لضيوفهم ، ولا يلم بها من يروعها أو يغير عليها خوفاً من بسالتهم ، وهي تملأ قدورهم بلحمها وبيوتهم بالبانها .

وعلى العكس كان أبناء عمومتهم من بني حنيفة أكثر استقراراً ، وقد اتخذوا الحنجر قصبة لهم ، وكان سيدهم في أواخر العصر الجاهلي هوذة بن علي ، وكان يحمي القوافل الفارسية في طريقها إلى اليمن ، ولعله من أجل ذلك وقف بعيداً بقبيلته عن يوم ذي قار ، فلم تشرك فيها . وأغلب الظن أن هذه القبيلة لم تعتمد على الرعي وحده شأن قبيلة الأعشى ، بل كانت تعتمد أيضاً على الزراعة ، فكانت نصف حضرية . وقد شاعت فيها النصرانية ، أما قيس بن ثعلبة فظلت في جملتها وثنية تعبد الأصنام . وليس هذا كله ما بينهما من خلاف ، فبينما حنيفة لا يعرف

(١) ديوان الأعشى طبعة جابر . القصيدة

رقم ٣٤ ، الأبيات : ٣٣ وما بعده .

(٢) المال هنا : الإبل .

(٣) جزارة : مصدر جزره أى ذبحه ومنه

يسمى البعير جزوراً .

(٤) الصريح : اللبن الخالص . الأجر : الصافي .

لها شاعر مذكور في الجاهلية^(١) إذا قيس كثيرة الشعر والشعراء ، وقد يكون ذلك بسبب بداهة قيس وكثرة الحروب التي عانتها ، يقول ابن سلام : « وبالطائف شعر وليس بالكثير ، وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء . والذي قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُثمان^(٢) » ونقول أيضاً إنه الذي قلل شعر حنيفة في الإمامة .

أما قيس بن ثعلبة فقد كانت كثيرة الحروب ، فكانت تغير ويُغار عليها ، وفي أثناء ذلك ينشد لها شعراؤها القصائد والأناشيد الحماسة ، فما الشعر فيها وازدهر ، وقد اشتهر فيها غير شاعر من مثل المرقش الأكبر والمرقش الأصغر والمتلمس وابن أخته طرفة والمسيب بن علس . وقد أنشدنا في غير هذا الموضع قطعة طرفة في المعلقة التي يصور فيها فتوته وأنه ينفق حياته في الكرم والحرب والنساء والخمر . ونجد هذه الروح في شعر المرقشين ، كما نجد عندهما غزلا خفيفاً رقيقاً ، ولكل منهما قصة عشق مأثورة .

٢

حياته

عاش الأعشى في أواخر العصر الجاهلي ، وليس بين أيدينا شيء واضح عن نشأته ، وكل ما يقوله الرواة أنه وُلد بمنفوحة في الإمامة وأن أباه كان يلقب بقتيل الجوع « لأنه دخل غاراً يستظل فيه من الحر ، ف وقعت صخرة عظيمة من الجبل ، فسدت فم الغار ، فمات فيه جوعاً ، وفي ذلك يقول جُهَنَّم يهجو ، وكانا يتهاجيان :

أَبوك قَتِيلُ الْجُوعِ قَيْسُ بْنُ جَنْدَلٍ وَخَالِكُ عَبْدٌ مِنْ خُمَاعَةَ رَاضِعٌ^(٣)

وخُمَاعَةُ — فيما يظهر — جدُّ بعيد لأمه ، وهي أخت المسيب بن علس ، وعنه حمل الشعر الأعشى ، إذ كان راويته ، ولا شك في أنه روى لغيره من شعراء قبيلته ، فهو امتداد لهم جميعاً .

(٣) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠٨/٩ .

(١) ابن سلام ص ٢٣٤ .

(٢) ابن سلام ص ٢١٧ .

واسم الأعشى ميمون ، وإنما سمي الأعشى لضعف بصره ، ومن أجل ذلك كان يكنى بأبي بصير^(١) . وإذا كنا لا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته فإنه يتبين لنا من أخباره ومن اسمه « صنّاجة^(٢) العرب » أنه انتقل بالشعر الجاهلي نقلة ، فإن كلمة صنّاجة تعني أنه كان يتغنى بشعره ، وببالغون في ذلك حتى يجعلوا كسرى يستمع لبعض غنائه فيه^(٣) !!

وتدلّ أخباره وأشعاره على أنه كان كثير التنقل والأسفار البعيدة في أنحاء الجزيرة يمدح ساداتها وأشرافها ، وفي ديوانه مديح للأسود بن المندر وأخيه النعمان وإياس بن قبيصة الطائي وإلى الحيرة من بعده ، ويظهر أنه كان يقيم بها كثيراً . وفيه أيضاً مديح لقيس بن معديكرب الكندي ولسلامة ذي فائش أحد أمراء اليمن ولبنى عبد المطلب بن الديان سادة نجران وهودّة بن علي سيد بني حنيفة . وكان يفد على سوق عكاظ ، ويمدح من يمرّ به في طريقه إليها من شيوخ العرب وأشرافهم^(٤) .

ولا يكتفي الرواة بما يدل عليه شعره من الرحلة إلى الحيرة واليمن وديار كندة في حضرموت ونجران وعكاظ بل يذهبون به إلى الفرس وعمان وبلاد الشام متغلغلا فيها إلى حمص وأورشليم (بيت المقدس) ويجتازون به البحر إلى نجاشي الحبشة ، ويسجرون على لسانه شعراً يتحدث فيه عن هذه الرحلات البعيدة ، فيقول^(٥) :

وقد طُفْتُ للمال آفاقه عُمانَ فَحِمَصَ فأوريشليمَ
أتيتُ النجاشيَّ في أرضِهِ وأرضَ النّبيطِ وأرضَ العجمِ

وأكبر الظن أنه لم يصنع شيئاً من ذلك وأنه إنما اقتصر في أسفاره ورحلاته على أطراف اليمن ونجد والحيرة يمدح شيوخ العرب وساداتهم . ووقع — كما يقول الرواة — في بعض رحلاته بديار بني عامر ومعه هداياه من بعض ممدوحيه ، فخشي على نفسه وعلى هداياه ، فاستجار بعلمة بن علالثة ، فقال له قد أجرتك ، فقال له الأعشى من الجن والإنس ؟ قال : نعم ، قال الأعشى : ومن الموت ،

(١) ذهب ابن قتيبة إلى أنه كان أعشى .

انظر الشعر والشعراء (طبع دار المعارف) ٢١٢/١ .

(٢) أغاني ١٠٩/٩ .

(٣) أغاني ١١٥/٩ والشعر والشعراء ٢١٤/١ .

(٤) أغاني ١١٣/٩ وما بعدها .

(٥) ديوانه القصيدة رقم ٤ وقارن بالقصيدة

رقم ٦٣ .

فقال : لا . وتمضى القصة فتذكر أن علقمة كان قد اختلف مع ابن عمه عامر ابن الطُفَيْل على سيادة القبيلة ، وتنافرا منافرة حادة ، اشترك فيها كثير من الشعراء ، فكان مع علقمة مروان بن سُراقَة والحطيئة ومع عامر لبيد الشاعر المشهور . ولما لم يُجِرْ علقمة الأعشى من الموت أتى عامر بن الطفيل فقال له : أجزئني قال : قد أجزتك ، قال : من الجن والإنس ؟ قال : نعم . قال : ومن الموت قال : نعم . قال : وكيف تجيرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلِكَ الدية ، فقال : الآن علمت أنك قد أجزتني من الموت . فمدح عامراً وهجا علقمة^(١) .

والأعشى في شعره لا يعيش لمديح السادة والأشراف وأخذ نوالهم فحسب ، بل هو يعيش أيضاً لقبيلته ومنازعاتها الكثيرة مع بكر ضد الفرس ، ففي ديوانه مطولة يهددهم فيها ويتوعددهم كما يتوعد من يقف معهم من العرب مثل إياد^(٢) ، وهو يعيش كذلك في منازعات قبيلته مع بني شيبان ، فيتعرض بالوعيد والتهديد ليزيد بن مُسَهر الشيباني ، على نحو ما تصور ذلك معلقته . فإذا حدثت منازعات صغرى بين عشيرته وأبناء عمومته من عشائر قيس بن ثعلبة ناصرها ذاكراً ما بينهم وبينها من أواصر الرحم ، على نحو ما نرى في قصائده التي وجهها إلى بني جَحْدَر وبني عَبْدَان . وقد اصطدم عند الأخيرين بشاعرهم جُهَنَّم ، فهاجيا طويلاً .

ويقال إنه لما سمع بالرسول صلى الله عليه وسلم وانتصاراته وانتشار دعوته رغب في الوفود عليه ومديحه ، وعلمت قريش بذلك فتعرضت له تمنعه ، وكان مما قاله له أبو سفيان بن حَرْب : إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك ، وكلُّها بك رافق ولك موافق ، قال : وما هن ؟ فقال أبو سفيان : الزنا والقمار والربا والخمر . فعدل عن وجهته ، وأهدته قريش مائة من الإبل ، فأخذها وانطلق إلى بلده معرضاً عن الرسول ودعوته ، فلما كان بقاع منفوحة رمى به بعيده ، فقتله^(٣) سنة ٦٢٩ للميلاد . وهذه الخلال التي ذكرها أبو سفيان والتي جعلته يصدّ عن لقاء الرسول الكريم تدل على أنه كان وثنيّاً مغرقاً في وثنيته ، وفي شعره نفسه ما يصور معالم هذه الوثنية ،

(٢) الديوان ، القصيدة رقم ٣٤ .
(٣) أغاني ١٢٥/٩ وما بعدها والشعر
والشعراء ٢١٢/١ .

(١) انظر في هذه المنافرة وصلة الأعشى
بها الأغاني (طبعة الساسي) ٥٥/١٥ وديوان
الأعشى ص ١٦٥ .

إذ نراه كثير الحديث عن القيان مثل هُرَيْرَة وَقُتَيْبَة وَجُبَيْرَة ، بل إنه ليتحدث عن البغايا اللائي يبعن أعراضهن^(١) ، ويقرنه ابن سلام في هذا الصدد بامرئ القيس فيقول : « وكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شعره ولا يستبهر بالفواحش . . . ومنهم من كان يتعهر ولا يبقى على نفسه ولا يتستر ، منهم امرؤ القيس ومنهم الأعشى^(٢) » . وقد تمدح في شعره كثيراً بالقمار كقوله مفتخراً بعشيرته^(٣) :

من شبابٍ تراهمُ غير ميلٍ وكهولاً مراجعاً أحلاماً^(٤)
ولقد تُصَلِّقُ القِدَاحُ على الذِّيبِ إذا كان يَسْرُهِنَّ غَراماً^(٥)

فهم يضربون قداح الميسر على النوق الضخمة التي يتأبى غيرهم أن يضربها عليها اعتزازاً بها . أما الخمر فهو أكبر شاعر تغنى بها في الجاهلية .

وطبعي لمن تكون حياته على هذا النحو من المجون والإثم فيه أن يكون وثنيًا متعمقًا في وثنيته وأن لا يعتنق الإسلام ولا غير الإسلام من الأديان السماوية ، وقد زعم لويس شيخو أنه كان نصرانيًا ، وشاركه في هذا الزعم بعض المستشرقين مستدلين على ذلك بأنه كان يمدح أساقفة نجران ويتصل بالبيثاب المسيحية في الحيرة وبمثل قوله في القصيدة رقم أربع وثلاثين :

رَبِّي كريمٌ لا يكدرُ نعمةً وإذا يناشدُ بالمهارق أنشدًا

والمهارق هنا الصحف الدينية . فكأنه يعترف بأنه نصراني ، ترتل لربه الأناشيد الكنسية ، غير أن هذا ليس حتمًا ، فقد تكون لدى الوثنيين من الجاهليين مهارق كانوا يتلون فيها بعض أدعيتهم ، وقد يكون البيت دخيلاً على القصيدة ، وسنعرف بعد قليل أن راوى ديوانه كان مسيحيًا ، وأغلب الظن أنه هو الذي أدخل هذا البيت في القصيدة ، كما أدخل في قصيدة أخرى قسمه بالمسيح في قوله^(٦) :

(١) الديوان ، القصيدة رقم ٢٢ .
(٢) ابن سلام ص ٣٤ ويستبهر في الفواحش : يتبجح بذكرها ويفصح عما حقه أن يكتتم .
(٣) الديوان ، القصيدة رقم ٣٨ .
(٤) ميل : جمع أميل وهو الجبان . مراجعاً :
راجعي العقول .
(٥) تصلق : تضرب . الذيب : الإبل الكبيرة .
الميسر : القمار .
(٦) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٢٣ البيت ١٦ .

ولانى ورب الساجدين عَشِيَّةً وما صَكَ ناقوس النصارى أبيلها^(١)

وقد جعله فى قصيدة ثالثة يقسم براهب اللج ، بل بثوبه^(٢) . وقد يكون فى ذلك ما يدل على أن القصيدتين جميعاً موضوعتان فقد كان الأعشى وثنياً غالباً فى وثنيته ، كما تدل على ذلك خلاله التى وصفناها فى شعره ، وأيضاً أقسامه الوثنية التى رواها نفس هذا الراوى المسيحى ، إذ نراه يقسم بالكواكب والنجوم^(٣) ، كما يقسم بالكعبة التى يحج إليها العرب وبما يهدون إليها من القرابين فى مثل قوله^(٤) :

لانى لعمر الذى خطت مناسمها تخدى ويسبق إليه الباقر الغيل^(٥)

والحق أنه لم يكن نصرانياً ، إنما كان وثنياً على دين آبائه ، وقد احتفظ فى وثنيته بكل ما كان فيها من إثم وفجور .

٣

ديوانه

للأعشى ديوان كبير نشره جاير فى لندن^(٦) سنة ١٩٢٨ وقد اعتمد فى نشره على مخطوطة فى الإسكوريال برواية ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ للهجرة ثم مخطوطة دار الكتب المصرية ونسختين نقلتا عنها فى استراسبورج وزاخو ، ومخطوطة فى باريس وأخرى فى ليدن . وأضاف إلى الديوان ملحقين بما وجدته من شعر الأعشى فى كتب الأدب وما وجدته من أشعار لمن لقبوا بالأعشى وهم كثيرون .

وكان اعتماده الأساسى على مخطوطة الإسكوريال ، لأنها برواية ثعلب ، وعلى الرغم من أنها تنقص أوراقاً من نهايتها تحتفظ للأعشى بسبع وسبعين قصيدة ومقطوعة . وقد أضاف إليها خمس قصائد من المخطوطات الخمس الأخرى ، وجميعها تتفق فى رواية خمس عشرة قصيدة له . كما تتفق فى أنها مجهولة النسب . ولذلك لا يمكن الاعتماد

جمع منسم وهو طرف الخف . تخدى : تسرع فى السير مع اضطراب . الباقر : اسم جمع للبقر . الغيل : جمع غيول وهو الكثير . (٦) شرح محمد حسين هذا الديوان ونشره بمكتبة الآداب بالقاهرة سنة ١٩٥٠ .

(١) صك : ضرب . الأيل : الراهب .
(٢) القصيدة رقم ١٥ البيت ٤٤ .
(٣) القصيدة رقم ٢٧ البيت ١٨ .
(٤) القصيدة رقم ٦ البيت ٦٢ .
(٥) خطت : شقت التراب . المناسم :

على هذه المخطوطات وأغلب الظن أنها مختارات جُمعت من نسخة ثعلب ، وليس رواية مقابلة لها . وقد صورت دار الكتب المصرية مخطوطة من المكتبة المتوكلية اليمنية بها ست وأربعون قصيدة ومقطوعة للأعشى ، ويفجؤنا كاتبها في فاتحتها بأن هذا كتاب فيه من شعر الأعشى ، فهي لا تتضمن ديوانه إنما تتضمن مختارات منه ، وهي مختارات تدل على أنها جُمعت من نفس الرواية الكوفية ، وإن كنا نجد فيها قصائد غير مثبتة في رواية ثعلب ، ولكن هذا لا يقوم دليلاً على أنها لم تشتق من روايته ، فروايته التي نشرها جابر كما قدّمنا غير كاملة ، إذ تنقص بعض أوراق . ومعنى ذلك أننا نفتقد في شعر الأعشى الرواية البصرية ، فيما عدا القصيدتين رقم ١١، ٦ فقد نصّ شارح الديوان على أن أبا عبيدة قرأ الأولى على أبي عمرو بن العلاء وأن الأصمعي سمع أبا عمرو ينشد الثانية حفظاً ، ونصّ الشارح أيضاً على أن القصائد ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٦ برواية أبي عمرو ، وظن جابر — كما ذكر في مقدمته — أنه أبو عمرو بن العلاء ، وليس بصحيح إنما هو أبو عمرو الشيباني ، فهو الذي كانت تُروى عنه الدواوين ، وهو رواية كوفي ينقل عنه السكري وثعلب وأضرابهما من رواة الدواوين . على أن الشارح نصّ في القصائد ١ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ أنها من رواية أبي عبيدة البصري ، وإن كنا نلاحظ أن القدماء شكوا في القصيدة رقم ٦٠ وقالوا إنها لابن دأب^(١) . على كل حال ليس بين أيدينا رواية بصرية كاملة للديوان ، إنما بين أيدينا رواية كوفية فيها إشارات إلى بعض ما تضمنته الرواية البصرية .

فإذا لاحظنا أن الرواية الكوفية للشعر الجاهلي غير دقيقة وأنها تتزيد فيه كما لاحظنا سابقاً في دواوين امرئ القيس والنابعة وزهير كان من الواجب ألا نقبل روايتها للديوان الأعشى دون احتياط واحتراس شديد ، وقد تصادف أن روايته الذي حمّله عنه وأذاعه في الناس كان نصرانياً معمرّاً هو يحيى^(٢) أو يونس بن متى وأن هذا الراوى من الممكن أن يكون قد عبث بالديوان فأدخل فيه ما ليس منه ، ليزيد بعض المعاني المسيحية ، وقد روى عنه أنه كان يقول : « كان الأعشى قنّديّاً إذ يقول :

استأثر الله بالفاء وبال عدل وولى الملامة الرجال

(١) الديوان ص ٢٠٧ . (٢) الأغاني ١١٢/٩ ومصادر الشعر الجاهلي ص ٢٣٨ .

فسأله سائل : من أين أخذ الأعشى قوله ومذهبه فأجاب : « من قبل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتهم يشتري منهم الخمر ، فلقنوه ذلك^(١) » .
ويبعد أن يكون الأعشى حقاً قد تغلغل نظره كل هذا التغلغل ، فإذا هو يقول بالقدر وأن الإنسان حرٌّ في تصرفاته ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقول بالعدل على الله كما تقول المعتزلة ، والمعقول أن يكون يحيى هو الذى وضع البيت ، بل لقد شك ابن قتيبة فى القصيدة جميعها ، وقال بعد أن روى طائفة من أبياتها هذا شعر منحول^(٢) . وينبغى أن نشك كما شك ابن قتيبة فى قصائد الأعشى الأخرى التى تصور أفكاراً مسيحية أو أفكاراً إسلامية ، أما الأفكار المسيحية فلأن راويه الذى نشره نصرانى ، وأما الثانية فلأنها معان جديدة لم تعرفها الجاهلية ، لا هى ولا كل ما يتصل بها من ألفاظ القرآن وأساليبه . ويصور ذلك تصويراً واضحاً قصيدته رقم ١٧ التى قالوا إنه مدح بها الرسول صلوات الله عليه ، مع أنه — كما قدمنا — لم يلقه وصدته قريش عن لقائه ، وبمجرد أن نقرأ القصيدة وقوله فيها :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من الثقى	ولا قيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثل	وأنا لم تُرصد لما كان أرضداً ^(٣)
فإياك والmithقات لا تأكلنها	ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصداً ^(٤)
وذا النصب المنسوب لا تنسكنه	ولا تعبداً الأوثان والله فاعبداً ^(٥)
وصل على حين العشيات والضحى	ولا تحمد الشيطان والله فاحمداً
ولا السائل المحروم لا تتركه	لعاقبة ولا الأسير المقيداً
ولا تسخرن من بائس ذى ضرارة	ولا تحسبن المرء يوماً مخلصاً ^(٦)
ولا تقربن جارة إن سرها	عليك حرام فأنكحن أوتابداً ^(٧)

الكعبة ويقدمونها أو هى الأوثان .
(٦) الضرارة : ذهاب البصر أو النقص فى الأنفس والأموال .
(٧) السرهناء : البضع . النكاح : الزواج .
التأبد : البعد عن النساء والتعزب .

(١) الأغاني ١١٣/٩ وما بعدها .
(٢) الشعر والشعراء (طبعة دار المعارف) ص ١٤ .
(٣) أرصد : أعد وهياً .
(٤) يشير إلى أنه لابد من الذبح كما تقضى تعاليم الإسلام .
(٥) النصب : حجارة كالوا ينصبونها حول

نعرف توّاً أنها موضوعة ، لأنه فيها يدعو إلى تعاليم إسلامية فحسب ، بل لأنه ينظم فيها آيات قرآنية من مثل قوله تعالى : (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وقد نظم في البيتين الثالث والرابع قوله تعالى : (حرّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُمِلَّ لغير الله به) أما في البيت الخامس فنظم قوله تبارك وتعالى : (واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار) . ونظم في البيت السادس قوله بجلّ وعزّ : (والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) . وفي البيت السابع نظم قوله بجلّ ذكره : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخّر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم) أما البيت الثامن فنظم فيه مثل قوله تعالى : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً) وقوله : (وليستمتعف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله) .

وواضح من هذا كله أن القصيدة منتحلة ، وهي لا تتفق في شيء ونفسية الأعشى ، وما كان ليسمع القرآن ويؤمن بتعاليمه على هذا النحو ، ثم ينصرف عن رسوله الكريم وهديه . ونحن لا نشك فقط في هذه القصيدة ، بل نشك كذلك في القصائد الأخرى التي تردّد معاني الإسلام ومثاليته الخلقية أو تردد بعض المعاني المسيحية . وبهذا القياس نهم قصيدته رقم ٥ لقوله فيها يمدح قيس بن معد يكرب الكندي :

وما أَيْبُلِيُّ عَلَى هَيْسَكَلٍ بِنَاءٍ وَصَلَّبٍ فِيهِ وَصَارَا^(١)
يُراوِجُ مِنْ صَمَلَوَاتِ الْمَلِئِكَةِ طَوْرًا سَجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارَا^(٢)
بِأَعْظَمِ مِنْهُ تُقَى فِي الْحِسَابِ إِذَا النَّسَمَاتُ نَفَضْنَ الْغُبَارَا

وواضح أنه يصفه بالتقوى وأنه يراقب ربه ، ويقول إن الراهب الذي يصلّب له في هيكله ويصلي له ساجداً ويتضرع ليس أعظم منه تقوى وخشية ، حين تهب الريح اللينة نافضة للغبار . وقد نظم منتحلها قوله تعالى : « فإنه يعلم السرّ وأخفى » فقال :

عطاء الإله فإن الإله ٤ يسمع في الغامضات السّرارا

صور الصليب بيده . صار : سكن .
(٢) الجوار : التضرع بالدعاء .

(١) أيلى : راهب . الهيكل : موضع في
صدر الكنيسة توضع فيه القرايين . صلب :

ومثلها القصيدة رقم ١٥ التي أنشد فيها منتحلها قسمة بثوبى راهب اللج فقال :

وإني وثوبى راهب اللج والى بناها قصى والمضاض بن جرهم^(١)
وحقاً أنه أضاف إلى ثياب الراهب القسم بالكعبة ، ولكن مما يزيد الشبهة في
القصيدة أننا نجد فيها هذا البيت ، يهجو به خصمه :

وما جعل الرحمن بيتك في العلا بأجساد غربي الفناء المحرم^(٢)
ولم تشع كلمة الرحمن بين الشعراء إلا في الإسلام أخذاً من قوله تعالى :
(بسم الله الرحمن الرحيم) ، وقد دارت في القرآن الكريم . ونقف نفس الموقف من
القصيدة رقم ٢٣ للبيت الذي مر بنا والذي يقسم فيه بالمسيح وضرب الراهب
للقوس ، وما لا شك فيه أن قوله في قصيدة النعمان رقم ٢٨ :

فلا تحسبني كافراً لك نعمة على شهيد شاهد الله فاشهد
مما يضعفها ، لأنه يلخص فكرة الملائكة الشاهدين المعروفة في الإسلام .
وقد شك ابن قتيبة في القصيدة رقم ٣٥ وبها بيت القدر الذي أنشده يحيى بن متى
فيما أسلفنا . وتكاد تكون القصيدة رقم ٦٦ في كثير من أبياتها نظماً لمواد قرآنية على
هذه الشاكلة :

وربك لا تشرك به إن شركه يحط من الخيرات تلك البواقيا
بل الله فاعبد لا شريك لوجهه يكن لك فيما تكدح اليوم راعيا
وقد مضى واضعها يدعو إلى تقوى الله وصلة الرحم ورد الأمانات إلى أهلها
والتعفف عن الجارة ، ويقول محذراً من معصية الله : « فإنك لا تخفى على الله
خافياً » ويقول أيضاً : « كفى بكلام الله عن ذلك ناهياً » . فلا شك في أن هذه القصيدة
إسلامية . على أنها تلفتنا إلى شيء مهم ، وهو أن الأعشى أضيفت إليه أشعار
تذهب مذهب العظة والاعتبار ، ولا نرتاب في أن يحيى بن متى لعب في ذلك

(٢) أجياد : موضع في بطحاء مكة ، والفناء
المحرم : حرم مكة .

(١) اللج : غدير عند دير هند . ويريد
بثوبيه أعماله الصالحة . ومعروف أن أمر الكعبة
كان إلى جرهم ثم صار إلى قصى .

دوراً كبيراً ، وقد تبعه القُصَّاص والعواظ المسلمون يزيدون في النسيج خيوطاً ، فإذا الأعشى كأنه واعظ من وعاظ الكوفة ، يتحدث إلى الناس حديث عظة عن الدهر وتقلباته والموت وما طوى من الملوك وأسباب ترفهم ونعيمهم ، وكيف يأتي على الناس ، فالكل إلى فناء ، ولا يبقى سوى وجه ربك ذي الجلال والإكرام . ولا يبدو ذلك في قصيدة من ديوانه أو قصيدتين ، بل إنه يجري في قصائد كثيرة ، وقرأ قصيدته ذات الرقم ٢ فإنك ستراه يستهلها بالحديث عن حياة الإنسان وما يلحق فيها من العناء والشقاء بالموت وما ينزل به من الأمراض والأحزان ، وكيف أن أحداً لا يستطيع الفرار من المنيّة ، ويسترسل في الحديث عن مات من الملوك الأولين . وفجأة يخرج إلى الحديث عن لذاته . ولعل من الطريف أن القدماء أنكروا القصيدة^(١) . ومثلها القصيدة رقم ٤ وفيها يتحدث عن طوافه في البلاد ، وقد أنشدنا منها فيما مر البيتين اللذين يذكر فيهما أنه زار أورشليم والنجاشي في أرضه ، ولكن ليس هذا هو الذي نقف عنده فحسب ، فقد مضى يتحدث عن قصة حصن الحضر وتخریب سابور له بجنوده ، ويُنهي قصته تلك بقوله

وفي ذاك للموتى أسوة . ومأرب قفى عليها رِم^(٢)

ويمضى في هذه القصة قصة سد مأرب وخرابه وتشت حمير في البلاد ، متخذاً من ذلك عظة جديدة . وعلى هذا المثال قصيدته رقم ١٣ وفيها يحدثنا عن زرقاء اليمامة وكيف عصاها أهلها ولم يأتمروا بأمرها حين خوفهم جيوشاً قادمة ، هي جيوش حسان تَبَعَ ، وقدمت الجيوش فجعلت عاليها سافلها وحطمتهم حطماً ، وقد شك القدماء في القصيدة أنكروها^(٣) . وليس في القصيدة رقم ١٤ ذكر للملوك الأولين ، ولكنها تحمل وصية خلقية بها كثير من الحيوط الإسلامية تجعلها أشبه بموعظة ، إذ لا يعد القريب قريب النسب ، وإنما هو قريب الود والبر ، ويقول إنه ليس عاقباً ولا ذا نعمة ، وإنه لا ينتظر من الناس جزاءه وإنما ينتظره من ربه . ومثل هذه المعاني تجعلنا نشك فيها كما نشك في القصيدة رقم ٣٣ وفيها حديث طويل عن فناء الحياة وأن كل شيء فيها إلى زوال ، فالكل هالك كما هلك ساسان

(٣) الموشع ص ٤٩ .

(١) انظر الموشع للمرزباني ص ٤٩ .

(٢) العرم : سيل مشهور .

ملك الفرس ومورق ملك الروم وكسرى شاهنشاه ، وهذا عادياء لم يغنه حصنه بتياء
الذى بناه سليمان ، ويسهب في وصف الحصن ، وكذلك كان أمر النعمان إذ لم
تنفعه أمواله ولا ما كان يُيجي إليه ، فلم يَسْجُ من القضاء . ومن هذا النمط نفسه
قصيدته رقم ٣٦ التى يقول فيها :

إنما نحن كشيء فاسدٍ فإذا أصلحه الله صلح
ويحدثنا عن هلاك الملوك الأولين مثل عمرو بن هند حديثاً كله عظة واعتبار ،
فإن الناس هالكون لا محالة ، وكذلك يصنع في قصيدته رقم ٣٩ ، ومثلها رقم ٥٣
أما القصيدة رقم ٥٤ فإنه يتحدث فيها عن قصر ريمان قصر الحميريين الذى تداوله الحبش
والفرس وما أصابه من البلى والخراب . وقد أنكر القدماء نسبة المقطوعة رقم ٥٦^(١)
إليه كما أنكروا أنها رقم ٦٠ وأشارنا إلى ذلك فيما أسلفنا ، وأبيات الأخيرة تختلط
بأبيات القصيدة رقم ٧٢ ولذلك كنا نهمها هي الأخرى ، وأنكر القدماء القصيدة
رقم ٦٢ وقالوا إنها تختلط بشعر لنابغة بنى شيبان^(٢) . ونراه في القصيدة رقم ٧٩
يدعو لإياس بن قبيصة أن يجزيه الله جزاء نوح إذ أوحى إليه أن يصنع الفلك
ليعصمه من الطوفان . ونلتقى في نهاية الديوان بالقصيدة رقم ٨٢ وهى تلتقى في بعض
أبياتها بقصيدة رواها المفضل الضبي في المفضليات لعوف بن الأحوص وهى فيها ذات
الرقم ٣٦ ونسب الجاحظ بعض أبياتها في الحيوان إلى مضر^(٣) بن زرة
ابن لقيط .

وليست هذه القصائد وحدها في الديوان هى التى ينبغى أن لا نطمئن إليها ، لما
يدخلها من الوعظ والمعاني الإسلامية والمسيحية ، فقد أضاف إليه الرواة الوضائع
غير قليل من القصائد والأشعار ، ويمكننا معرفة وضعها من عرضها على تقاليد
الشعر الجاهلى وأسلوب الأعشى نفسه في مطولاته التى لا يعتورها الشك . وقد تأخذ
القصيدة شكلاً قصصياً غير مألوف لدى الشعراء الجاهليين . وإذا أخذنا نقرأ في
الديوان على هذه الأسس وجدنا غير قليل من القصائد يستوقفنا ، من ذلك القصيدة
رقم ١٢ لما يصور فيها من قصة عماء وقائده ، وتدل رحلاته الكثيرة أنه كان ضعيف

(٢) الديوان ص ٢٠٨ .

(٣) الحيوان ٧٨/٥ .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٦٦/١ وانظر

الديوان ص ٢٠٤ .

البصر ولم يكن مكفوفاً ، ومثلها القصيدة رقم ٢٠ للين أسلوبها وضعفه ، وهو أشبه بأساليب العباسيين . ونراه في القصيدة رقم ٢٥ يسوق في تفصيل قصة السموأل وما كان من إيداع امرئ القيس عنده مائة درع قبل رحيله إلى قيصر وحصار الحارث بن ظالم أو الحارث الغساني له حتى يأخذها وتحصنه منه بحصنه ، ومفاجأته له بأحد أبنائه ، وكان يصطاد ، وقوله له إما أن تسلم الأدرع إلى وإما أن أقتل ابنك ، وأبي السموأل أن يسلم الأمانة وفاءً ، وقتل الحارث ابنه تحت عينه . وهي قصة مشكوك في أصلها ، ويزيدها شكاً في قصيدة الأعشى أنه رواها منفصلة بصورة تدل على أنها موضوعة ، وربما وضعها أحد أولاد السموأل في الإسلام ، ومن أجل ذلك نشك في القطعة رقم ٢٤ التي تقدم لها . وإذا تقدمنا في الديوان وأعدنا النظر في القصيدة رقم ٣٩ التي اتهمناها لما فيها من حديث عن هلاك القرى والأهم لاحظنا أنها تتضمن في نحو عشرين بيتاً قصة غزلية ، يصور لنا فيها كيف بعث لصاحبه رسولا شيطانياً لا يخشى الرقباء ، وكيف تخلص إليها هذا الرسول فنازعها الحديث مخافتاً ، حتى إذا أنكرته ظل يغويها حتى أسلس له قيادها ، فشاورها متى يأتيها الأعشى وكيف يدخل إليها ، ويحدثنا أنه ألم بها وقد غفل الرقباء ، وبات إلى جنبها لا يفصلهما حجاب ، ويمضي فيصف مبيته عندها وصفاً صريحاً . وليس من ريب في أن هذه القصة تعلن بدورها عن انتحال القصيدة وأنها موضوعة ، ولكن ليس هذا ما نريده ، إنما نريد أن نقول إنه ينبغي أن نشك فيما يجري مجرى هذه القصيدة المنتحلة وقصتها الغزلية . ومن أجل ذلك كنا نشك في القصيدة رقم ٥٢ وخاصة أنها غزل ووصف خالص ، وليس لها موضوع من مديح أو فخر أو هجاء كما تعودنا عنده ، ولما يزيدنا شكاً فيها استرساله في الخيال مع كل ما يشبه صاحبه به ، وخاصة حين شبه مذاق ريقها بطعم الزنجبيل والتفاح ممزوجين بعسل النحل ، فقد أخذ في وصف من يشتار العسل ويجنه ، ولم يكن العسل واشتياره مما تُعرَفُ به قيس بن ثعلبة في الجاهلية ، إنما كانت تعرف به هذيل . ونقف نفس الموقف من القصيدة رقم ٥٥ لكثرة ما فيها من ألفاظ فارسية ، وكذلك القصيدة رقم ٦٣ لأنها تفتقد الغرض الواضح ، وكأن من نحلوها الأعشى أرادوا بها أن يجرؤوا على لسانه حديثه عن أسفاره البعيدة إلى الغساسنة في الشام وبني الحُلَنداء

في عُثمان وغيرهم . وليس في القصيدتين رقمى ٦٤ و ٦٥ غرض واضح إنما فيهما غزل وخمر أو غزل ووصف ، ولذلك كنا نشك فيهما كما نشك في القصيدة رقم ٧٦ ؛ لأنها كما يقول رواتها في مديح قيس بن معد يكرب ، وليس له فيها سوى ثلاثة أبيات في مطلعها ثم تمضى القصيدة في الغزل والخمر ، وهى صورة معكوسة للصورة الطبيعية عنده ، إذ يبدأ بالغزل ، ثم يطيل في المدح . ونحن نشك أيضاً في القصيدة التى تليها برقم ٧٧ لا لغزلها الماجن فحسب ، بل لأن هذا الغزل يستنفد منها ٢٤ بيتاً ، ويليه وصف للناقة في ٣ أبيات وفخر لا يتجاوز ٥ أبيات . ومثلها القصيدة رقم ٧٨ إذ نراه يصور فيها لهوه ومجونه في ٢٢ بيتاً ، ثم يترك لمدوحه ٥ أبيات . ومثلها القصيدة رقم ٨٠ وهى غزل خالص أُودع في أسلوب ركيك . أما القصيدة رقم ٨١ فاعتذار لعلقمة بن عُلانة أجراه الوضاعون على لسانه حتى يمحوا هجاءه المقذع فيه ، وما كان ليهجوه في قصيدتين مطولتين ويدور هجاؤه له في العرب ثم يعتذر له بستة أبيات .

وإذا أضفنا إلى هذه القصائد التى شككنا فيها مقطوعاته القصيرة التى لا تتجاوز أحياناً بيتاً والتى لا نستطيع أن نقيم عليها مراصد نمتحنها بها لقصرها وهى ذوات الأرقام ٣١ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ استطعنا أن ندرس ما بقى له دراسة نظمتن إليها على الأقل بعض الاطمئنان . ولم يبق له قليل بعد هذا الفحص للديوان ، بل إنه كثير ، إذ يتضمن القصائد ذوات الأرقام : ١ ، ٣ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ . على أن أعلاها ثقة هى القصائد ذوات الأرقام ١ ، ٦ ، ١١ ، ٢٩ ، ٣٤ ؛ لأن الشارح أسند الأولى والاثنتين الأخيرتين إلى أبى عبيدة كما أسند الثانية والثالثة إلى أبى عمرو بن العلاء ، فتلك القصائد إذن من رواية البصرة التى نرفعها على رواية الكوفة في التوثيق . على أننا نضرب صفحاً عما ألحقه جابر ناشر الديوان به من أبيات وأشعار وجدها تنسب للأعشى في بعض الكتب ، إذ بمجرد النظر فيها نعرف خطأ نسبتها إليه أو على الأقل خطأ نسبة الكثير الأكثر منها .

شعره

يمتاز الأعشى بكثرة قصائده الطويلة ، كما يمتاز بكثرة تصرفه في فنون الشعر من مديح وهجاء وفخر ووصف وخمر وغزل . أما المديح فقد قالوا إنه أول من سأل بالشعر واستجدى بالقريض^(١) واتخذهُ مستَجْتَرًا يطوف به البلاد^(٢) ، وحقاً سبقه غير شاعر إلى المديح كزهير والنابغة ، ولكن أحداً منهم لم يحرص على الاستعطاء وطلب النوال كما حرص الأعشى فقد طاف في أطراف الجزيرة العربية يمدح السادة والأمراء ، ذاكرًا ما يفيضون عليه من الإبل والحياد والإماء وصحاف الفضة وثياب الخبز والديباج ، منوهاً في أثناء ذلك بسؤاله لهم ، غير مُبْتَقٍ على شيء من نفسه . ومعاني المديح عنده لا تفرق عن المعاني العامة في مدائح الجاهليين ، فهو ما ينسب يمدح بالكرم والشجاعة والوفاء وعَوْنُ الضعفاء في القبيلة ، وكثيراً ما يعرض لجيوش ممدوحه إذا كان أميراً أو شيخاً لقبيلته مصوراً ما تنزله على الأعداء من التقتيل والنكال ، وقد يطبل في وصف ما تشنه من غارات على الأعداء ، وفي تضاعيف ذلك يورد على ممدوحه ثناء مفرطاً .

ومن أهم ما يميز مديحه بالقياس إلى الجاهليين كثرة إسرافه فيه ، ولا نقصد الإسراف في الأوصاف من حيث هي وإنما نقصد الغلو فيها والإفراط ، بحيث يُعَدُّ مقدمة لمبالغات العباسيين في مدائحهم ، وقد يكون ذلك من أثر رغبته الشديدة في العطاء ، وقد يكون من أثر الحضرارات التي ألمَّ بها في طوافه ، وهذا هو معنى ما نقوله من أنه يشبه العباسيين ، فذوقه في المديح يقترب من ذوقهم وما نعرفه عندهم من غلو دفعهم إليه ملق الخلفاء والوزراء بنفس الباهت الذي بعث الأعشى على إفراطه في مديحه ، ونقصد طلب النوال والعطاء الجزيل . وقرأ له هذه القطعة من مديحه لقيس بن معد يكرب إذ يقول :

وَسَعَى لِيَكُنْدَةَ سَعَى غَيْرِ مُوَآكِلٍ قَيْسُ فَضَرَّ عَسَدُوهَا وَبَنَى لَهَا

(١) ابن سلام ص ٥٤ .

(٢) العمدة لابن رشيقي (الطبعة الأولى) ١/ ٤٩ .

وأهـان صالـح ماله لفـقيرها وأسـى وأصلـح بيـنـها وسـعى لها^(١)
 فـتـرى له ضـراً على أعدائـه وتـرى لنـعمته على مـن نالها
 أثـراً من الخـير المزيـن أهـله كالغـيث صابـ ببلـدة فأسـالها^(٢)
 وإذا تـجىء كـتيبة مـلمـومة خر ساءـ بخشـى الدار عـون نـزالها^(٣)
 كـنت المـقـدم غير لابس جـنة بالسـيف تـضرب مـعلـماً أبـطالها^(٤)
 وعـلمت أن النـفس تـلقـى حـتفـها ما كان خالـقها المـليك قـضى لها

فإنك تحس فيه روح العصر العباسي ، لا من حيث سهولة اللفظ فحسب ، ولا من حيث المقابلة بين المعاني فحسب ، بل من حيث ما يجري في ذلك من أثر رقة الذوق بتأثير الحضارة ، وهي رقة دفعته إلى الغلو في وصف شجاعة ممدوحه ، فإذا هو لجرأته وبسالته يقتحم ميادين الحرب بدون ترس يحميه ، ويبيده سيفه يضرب به في الأقران تاركاً فيهم آثاره ، وقد آمن بينه وبين نفسه بأن الإنسان لا بد أن يسموت ، فلا داعي للخوف ، فلكل امرئ أجل مضروب ، لا يتأخر عنه ولا يتقدم . وقرأ له هذه القطعة في مديحه لهوذة بن علي سيد بني حنيفة :

إلى هـوذة الـهـاب أهـديت مـدحـتي أـرجـى نوالاً فاضلاً من عـطائـكا
 سمعت برحـب الباع والجود والنـدى فأذليت دلوـى فاستقت برشائـكا^(٥)
 فتى يـحمل الأعباء لو كان غيرـه من الناس لم يـنـهـض بها مـتـاسـكا
 وأنت الذي عودتني أن تـريشـني وأنت الذي آويتني في ظلالـكا^(٦)
 وإنك فيما نابني بي موزع بخير وإني مولع بشنائـكا^(٧)

(٥) الباع : الكرم وكذلك الندى . الرشاء : حبل الدلو .

(٦) تريشني : تعينني وتغنييني .
 (٧) هكذا رواية البيت في المخطوطة اليمنية وهو مضطرب في الديوان . موزع : مولع .

(١) أسى : داوى .
 (٢) صاب المطر : سقط وانصب .
 (٣) ملمومة : مجتمعة . خرساء : لا يسمع لها صوت من كثرة الدروع أي ليس لها قعقة .
 (٤) الجنة : الترس .

وجدت علياً بانياً فورثته وطلقاً وشيبان الجواد. ومالكا^(١)
بحور تقوت الناس في كل لزبة أبوك وأعمامهم هؤلثكا^(٢)
وما ذاك إلا أن كفيك بالندى تجودان بالإعطاء قبل سؤالك
يقولون في الأكفاء أكبر همهم ألا رب منهم من يعيش بمالكا^(٣)
وجدت انهدام ثلثة فبنيتها فأنعمت إذ ألحقتها بينائكا^(٤)
وربيت أيتاماً وأنعشت صبية وأدركت شأو السبق دون عنائكا^(٥)
ولم يسع في العلياء سعيك ماجد ولا ذو إنى في الحى مثل إنائكا^(٦)

فإنك تحس المبالغة في المديح واضحة ، وهو يمزجها بالتبذل في السؤال تبذلا
لم يعرف في عصره ، وكل ذلك واضح فيه رقة اللهجة وأن الأعشى من ذوق يخالف
ذوق الجاهليين ، وهو ذوق بجاءه من طول اختلاطه بأهل الحضرة .

ولا نشك في أن هذا الذوق هو الذى جعله في أهاجيه ينحو نحو السخرية
من مهجوه في كثير من شعره ، وكأنما يجد فيه مرارة أشد والذع من مرارة الهجاء
المقذع ، وقرأ معلقته أو قصيدته السادسة في الديوان التى وجهت بها إلى يزيد بن مسهر
الشيباني ، وكان قد قتل أحد بني قيس بن ثعلبة رجلا من قومه ، فحمتهم للثأر
لقتيلهم ، فتعرض له الأعشى يهدده ويهجوهم مستهلا تهديده وهجاءه بقوله :

أبلغ يزيد بنى شيبان مألكة أبا ثبيت أما تنفك تأتك^(٧)
ألمست منتها عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطت الإبل^(٨)

(١) واضح من الشطر الثاني أن مالكا وشيبان وطلقاً أعمام هؤلة .

(٢) لزبة : شدة وأزمة .

(٣) يريد بالشطر الأول أن مدوحه يتهم بأنه يظلم أكفاءه .

(٤) الثلثة : فرجة المهذوم أو ما فيه من شقوق .

(٥) هكذا رواية البيت في المخطوطة اليمنية وبه

بعض الاضطراب في الديوان .

(٦) إنى : مقصور إناء .

(٧) مألكة : رسالة . تأتك : تسعى بالشر أو تغضب وتغلى حتى لكأنك تأكل نفسك .

(٨) الأثلة : شجرة . ونحت أثلته : تنقصه وعابه . أطت : أنت . ويريد بقوله ما أطت الإبل التأيد .

كناطح صخرة يوماً ليُوهِنَها فلم يَضُرُّها وأوهى قَرْنَهُ الوَعْلُ^(١)
 وواضح أنه يوبِّخه ساخرًا منه مزدريًا له ، إذ يقول : يا أبا تُبَيِّتَ أما تنفك
 تسعى بالشر والفساد وتقع في أعراضنا بالدم والقدح ؟ ألسنت منهيًا عن ذمنا
 وتنقصنا ؟ وإنك مهما أتيت من قوارع الطعن لن تضر أصلنا الشامخ مدى الدهر ،
 وما مثلك إلا كمثل وَعْلٍ ينطح صخرة ليضعفها ، فاستعصت عليه ولم يضرها ولم
 يوهنها إنما ضر قرنه وأوهنه . وارجع إلى قصيدتيه اللتين يهجو بهما علقمة بن عُلَاثة ،
 فستجده يعتمد إلى هذا اللون من السخرية المرة بعلقمة ، إذ يقول له في أولاهما
 موازنًا بينه وبين خصمه ومنافرة عامر بن الطفيل :

علقمَ ما أنت إلى عامرِ الناقضِ الأوتارَ والواترِ^(٢)
 يا عَجَبَ الدهرِ متى سُويَا كم ضاحكٍ من ذا وكم ساخرِ
 ولستَ بالأكثر منهم حصيً وإنما العِزَّةُ للكاثِرِ^(٣)
 علقمَ لا تَسْفَهْ ولا تجعلنِ عِرْضَكَ للواردِ والصادرِ
 ولستَ في السُّلَمِ بذي نائلٍ ولستَ في الهيجاءِ بالجاسِرِ^(٤)

وهذا من أشد الهجاء وأمضه ، ولو أنه شتم وأفحش لعُدَّ سفيهاً ، أما أن يهجو
 على هذا النحو من التعريض فإنه يجعل الظنون تتسع كما يجعل النفوس تتعلق بمعنى
 كلامه وتكثر من تأويله . وهو يشير في الأبيات إلى حكم هرم بن قُطَيْبة حين تنافر
 إليه علقمة وعامر ، فسوى بينهما في عبارته الماثورة : « إنكما كثرُ كُتْبَتِي البعير
 الأدرَم (الفحل) تقعان على الأرض معاً » والأعشى يردّ هذا الحكم وينقضه
 قائلاً : أين الثرى من الثريّا . وقد مضى في القصيدة الثانية يذمه ، ولم يكن من
 أبياتها بيت أشد إيلاماً لعلقمة من قوله :

تبیتون فی المَشْتَى مِلَاءً بطونکم وجاراتکم غرثی یبیتن خِمائصاً^(٥)

(٣) الحصى هنا : العدد .
 (٤) النائل : العطاء . الجاسر : الجريء .
 (٥) المشتى : زمن الشتاء . غرثى : جماعة .
 خمائص : ضامرات البطون .

(١) الوعل : ضرب من الماعز الجبلى .
 (٢) الأوتار : جمع وتر وهو الثار .
 زناقضها : الآخذ بثأره . الواتر : الذى
 يترك ثأره فى الأعداء فلا يستطيعون نقضه .

حتى لقد زعم الرواة أنه بكى حين سمعه . وواضح أنه لم يجعله بخيلاً فحسب ، بل جعله هو وعشيرته يملأون بطونهم ويُسَخِّمُونَ في ليالي الشتاء الباردة على حين يشتد كَلَبُ الجوع والمنسغبة على جاراتهم . واختار النساء لينزع من قلوبهم كل عطف ورحمة ، فهم ليسوا بخلاء فحسب ، بل إن قلوبهم لأشد قسوة من الحجارة . واستمع إليه يسخر من كسرى قبل وقعة ذي قار :

واقعدُ عليك التاجُ مُعْتَصِباً بِهِ لا تطلبين سَوامنا فتعبدًا^(١)

وفي كلمة «اقعد» من الهجاء ما يفوق كل إقذاع ، إذ يستخف به وبجيوشه التي يعدّها لقتالهم وقتال شيبان ، وكأنه يلوح له أنه إن هاجمهم مُنَى بهزيمة تطيح بتاجه . ولعلنا الآن نفهم ما كان يقال عن الأعشى من أنه « إذا مدح رفع وإذا هجا وضع » ، فهو إذا مدح غالى في مدحه حتى رفع ممدوحه على جميع الناس ، وإذا هجا أوجع لا بالشتم والهجاء المقذع وإنما بالتهكم والسخرية والاستهزاء .

والأعشى كثير الفخر في شعره بقبيلته وعشيرته ، وهو يجمع لهما ضروب المفاخر والمناقب التي كانوا يعتزون بها في الجاهلية من الجود في الجذب والشجاعة في الحرب والرعى في المكان المخوف وإغاثة المستصرخ . وكثيراً ما يضمن هجاءه لمن يختلف معهم من قبيلته الكبرى بكر وقبيلته الصغرى قيس بن ثعلبة فخراً مدوياً ، كقوله في معلقته التي أشرنا إليها آنفاً متوعداً يزيد بن مُسَمَّر الشيباني ومفتخراً بشجاعة قبيلته وما أثخنت في القبائل من جراح :

سائلُ بني أسدٍ عَنَّا فقد علموا أن سوف يأتيك من أنبائنا شَكْلُ^(٢)
واسألُ قُشَيْرًا وعبد الله كلَّهم واسألُ ربيعةَ عنا كيف نفَتَّلُ^(٣)
إنا نقاتلهم حتى نقتلهم عند اللقاء وهم جاروا وهم جهلوا
لئن مُنيت بنا عن غِبٍّ معركةٍ لم تُلَفنا من دماء القوم ننتفِلُ^(٤)

(١) السوام : الإبل الراعية ويقصد بها الأعشى ديار العرب . تعبد : تصبح كالعبد ، يريد أنه يهزم ويقهر .
(٢) شكل : أزواج مختلفة يريد خبراً من بعد خبر .

(٣) نفتل هنا : نفعل العظام .
(٤) غب : عقب ، يقصد أنهم لا يتعبون من لقاء الأعداء ، فإن لقيهم بعد معركة فسيجدهم على أتم استعداد للقاء . ننتفل : ننتفى ، ويرى ننتقل .

قد نَخْضِبُ الْعَيْرَ من مكنون فائِله وقد يَشِيطُ على أرماحنا البَطْلُ^(١)
نحن الفوارس يومَ العَيْنِ ضاحيةً جَنَبَى فُطَيْمَةً لا مِيلَ ولا عَزْلُ^(٢)
قالوا الركوبَ فقلنا تلكَ عادتنا أو تنزلون فإننا مَعَشَرُ نُزْلُ^(٣)

وقد ذهب بعض القدماء إلى أن البيت الأخير أشجعُ بيتٍ لما صور فيه
الأعشى قومه وأنهم يحسنون الطعان فرساناً كما يحسنون الضراب راجلين منوهاً بأن
تلك سجية لهم دَرَجَ عليها شيونهم وشبابهم .

ونراه يكثر من وصف الصحراء وناقته ، وهذا طبيعي لكثرة رحلاته وأسفاره ،
وهو في هذا الموضوع يجرى على عادة الجاهليين ، فيصور الأودية وما يجرى فيها من
ظلام أو سموم أو مياه أمطار كما يصور طرقها الوعثة ورمالها ومناهلها ووحشتها
وعزيف الجن ليلاً بها ، يقول في معلقته :

وبلدةٍ مثلِ ظهرِ التُّرسِ موحشةٍ للجنِّ بالليلِ في حافاتها زَجْلُ^(٤)
لا يَتَنَمَّى لها بالقيظِ يركبُها إلا الذين لهم فيما أتوا مهْلُ^(٥)
جاوزتُها بطليحٍ جَسْرَةٍ سُرحٍ في مِرْفَقَيْهَا إذا استعرضتها فتلُ^(٦)

وواضح أنه في هذه الأبيات يفخر بتحملة لمشقات السفر في مثل هذه الأرض
الوعرة الصلبة الموحشة التي لا يسمع فيها صوت سوى صوت الجن والتي لا يركبها
في حمارة القيظ واشتعال الرمال إلا من تعود الصبر واحتمال المكاره ، ويقول إنه
يقطع مثل هذه الأرض بناقة نِضْوٍ أسفار ضامرة موثقة الخلق صلبة قوية . وهو

بالترس لبيان أنها غليظة وصعبة على من ينفذ
فيها . موحشة : كثيرة الوحش . زجل : صوت .
حافاتها : نواحيها .
(٥) يتنمى : يرتفع . القيظ : شدة الصيف .
مهْل : أناة وصبر .
(٦) طليح : مهزولة لكثرة أسفارها .
جسرة : ضخمة . سرح : سريعة . قتل :
قوة وصلابة .

(١) العير : حمار الوحش استعاره للفارس
لأن العير يتقدم الأتن : الفائل : القناة الدموية
كالشريان . يشيط : يهلك .
(٢) يوم العين : يوم كان بين بني قيس بن
ثعلبة وشيبان بجانب موضع في البحرين يسمى
فطيمة . ميل : جمع أميل وهو الجبان .
عزل : جمع أعزل : من لا سلاح له .
(٣) يريد بالنزول التضارب بالسيوف .
(٤) البلدة : القطعة من الأرض . وشبهها

لا يطيل في وصف أعضاء الناقة صنيع طرفة ، بل يقتضب الحديث عنها غالباً ،
ويكثر حين يلم ببيان سرعتها أن يشبها بجمار وحش أو ثور أو نعامة ، ويطيل
في وصف ما يلم به منها على عادة الجاهليين. وقرأ هذه القطعة :

وفلاة كأنها ظهْرُ تُرْسٍ	ليس إلا الرجيعَ فيها عَلاقٌ ^(١)
قد تجاوزَتْها وتَحْتِ مَروَحٌ	عنتريسُ نَعَابَةٌ مِغْناقٌ ^(٢)
عِرمُسُ تَرْجُمُ الإِكامَ بِأَخْفا	فِ صِلابٍ منها الحصى أَفلاقٌ ^(٣)
وكانَ القَتودَ والعِجَلَةَ الوَفْ	راءَ لَمَّا تَوادَقَ السُّواقُ ^(٤)
فوق مُسْتَبْقِلٍ أَضَرَّ به الصَّيْدُ	فُ وَزَرَ الفُحولِ والتَّنْهاقُ ^(٥)
أو فريدٍ طاوٍ تَضِيفُ أَرْطَا	ةً عليه من الغصونِ رُواقٌ ^(٦)
أَخْرَجَتْهُ شَهْبَاءُ مُسْبِلَةَ الوَدِّ	قِ رَجوسُ قُدَّامَها فُراقٌ ^(٧)
وتعادى عنه النهارُ تُوارِي	هَ عِراضُ الرِّمالِ والدَّرْداقُ ^(٨)
وتَلَّتْهُ غُضْفٌ طَواردُ كالنَّحْ	لِ مغاريثُ هُمْنُ اللَّحاقِ ^(٩)

وهو يصور فيها فلاة مقفرة ، لا تجد فيها الإبل ما تأكله سوى الاجترار ،
ويقول إنه تجاوزها بناقة نشيطة قوية مسرعة سرعة شديدة ، كانت ترجم
المرتفعات بأخفافها الصلبة ، فتشق ما فيها من حصي شتقاً وسرعان ما يشبها
في سرعتها بجمار وحش ، يقاسى من لظى الصيف وعضس أمثاله وتنهاقها عليه ،

(١) الرجيع : ما تجتره من طعامها . العلاق :
ما تظمه الإبل من الشجر .
(٢) مروح : نشيطة . عنتريس : صلبة .
نعابة : تمد عنقها في سيرها . مغناق : من العنق
وهو سير واسع للإبل .
(٣) عرمس : صلبة . الإكام : المرتفعات .
(٤) القتود : الرجل بأدواته . العجلة :
المزادة ، وهي قرية الماء . الوفراء : كثيرة
المياه . السواق : طويل الساق . توادق :
مد عنقه في السير . وتلك رواية المخطوطة اليمنية ،
والبيت في الديوان مضطرب .
(٥) مستبقل : حمار وحش يأكل البقل ،

زر : طرد وعض .
(٦) فريد : منفرد ، ويقصد ثور الوحش .
طاو : جائع . الأرطاة : من أشجار البادية .
رواق البيت : شقته التي دون شقته العليا .
وتلك رواية المخطوطة اليمنية .
(٧) شهباء : سحابة بيضاء يصدعها سواد .
مسبلة : مرسله . الودق : المطر . رجوس :
مرعدة . فراق : جميع فراق وهي السحابة المنفردة .
(٨) تعادى : تباعد . الدرداق : ذلك متلبد
من الرمال .
(٩) الغضف : كلاب الصيد مسترخية
الأذان . مغاريث : جائعة .

فهو يسرع لا يلوى . ولا يمضى طويلاً مع هذا الحمار ، بل يتركه إلى ثور وحش يشبه به ناقته ، ويصوره طاوياً في ليلة من ليالى الشتاء القاسية ، وقد بات مستظلاً بأغصان أرطاة ، والمطر يسقط من حوله والفرع يأخذه من كل جانب ، ولم تلبث نفسه أن راودته على الخروج من كناسه ، فخرج يتوارى في عراض الرمال وكتبانها ، ولم تلبث كلاب الصيد أن رآته فأسرعت تحاول اللحاق به ، وأسرع يحاول فتوتها . والأعشى يشبه ناقته به وهى تترامى فوق الرمال مسرعة كأنما شئ يطاها .

وتتكرر مثل هذه الصورة لا عند الأعشى وحده ، بل عند جميع شعراء الجاهلية ، إذ يشبهون الناقة بوحش الفلاة ، وخاصة حين يناضل كلاب الصيد ، وإن كنا نلاحظ أن الأعشى لا يطيل في تصوير ذلك إطالة النابغة أو لبید أو غيرهما من الجاهليين ، وربما جاءه ذلك من ذوقه المتحضر ، فكان يوجز في وصف الصحراء والناقة والحيوانات الوحشية ، على حين كان يتسع في الحديث عن الحمر والغزل .

وحقاً نجد عند الجاهليين تعرضاً كثيراً للخمر ، ولكنهم عادة يسوقونها مع الحديث عن فتوتهم وكرمهم وبذلهم ، على نحو ما نرى في معلقة طرفة ، أما عند الأعشى فإننا نجد لها في فاتحة كثير من قصائده تالية لبعض غزله ، ونحس كأنها لذته من الدنيا ، فهو يطيل الحديث عنها وعن تأثيرها في نفوس شاربها ، وكأنه يقدسها تقديساً ، فهي وثنه وصنمه ، ولذلك لم يكذب يسمع من قريش — كما أسلفنا — أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحرمها حتى كفَّ عن لقائه وانصرف لساعته .

وهو يجيد وصفها إجابة لفتت القدماء إليه ، فقالوا إنه أشعر الجاهليين إذا طرب^(١) ، يقصدون إذا شرب الخمر ووصفها ، وهو وصف يفيض بالحيوية ، إذ يجسم فيه بيئتها ومجالسها وما يُنشَرُ فيها من الورود والرياحين وما يقوم فيها من السقا والمغنين والإماء الخليعات اللائي يَلْبَسْنَ الشفوف الرقيقة وما يضربُ عليه العازفون من آلات طرب كالصنج والعود ، واستمع إليه يقول في معلقته :

(١) أغاني ١٠٨/٩ .

وقد غدوتُ إلى الحانوت يتبعني
 في فتية كسيوف الهند قد علموا
 نازعتهم قُضْبَ الرِّيحان مُتَكثًّا
 لا يَسْتَفِيقون منها وهى راهنة
 يَسْعَى بها ذو زُجاجاتٍ له نُطْفُ
 ومستجيب تخال الصَّنَج يَسْمَعُهُ
 والساحباتِ ذيولَ الخَزِّ آوَنَةُ
 من كل ذلك يومٌ قد لهوتُ بهِ
 شاوٍ مِشَلُّ شُلُولٍ شُلْشُلٌ شُولٌ^(١)
 أن ليس يَدْفَعُ عن ذى الحيلة الحِجَلِ
 وقهوةٌ مُزَّةٌ راووقها خَضِلٌ^(٢)
 إلا بهاتٍ وإن عَلُّوا وإن نَهَلُوا^(٣)
 مُقْلَصٌ أَسْفَلَ السَّرْبَالِ مُعْتَمِلٌ^(٤)
 إذا تُرَجَّع فيه القَيْنَةُ الْفُضْلُ^(٥)
 والرافلاتِ على أعجازها العِجَلُ^(٦)
 وفي التجارب طولُ اللُّهُو والغَزَلُ

وهو يصف في الأبيات يوماً من أيام لهوه غدا فيه إلى خمار مع رفيق ناشطٍ خفيف الحركة طيب النفس في فتية كسيوف الهند مضاء وقوة ورونقاً . ويقول إنهم تجاذبوا أغصان الرياحان وخمرة مزة ما زالوا يتعاطونها ، فراووقها لا يحف ، وهم لا يسأمون من تعاطيها ولا يفيقون من شربها إلا ليقولوا للساقى : هات ، ويكررون هذه اللفظة مهما شربوا . ويصف الساقى بأنه غلام أو شاب حدث ، كان يعلّق في أذنه قرطاً ويلبس قميصاً قصيراً ، وقد طُبِع على العمل بجِد ونشاط . ويضيف إلى ذلك وصف عود كانت ألحانه تتسق مع صنج كانت تعزف عليه وتغنى قينة في ثوب واحد رقيق ، ومن ورأها نساء ترفل في ثياب الخز والحرير ، وقد علت أعجازهن كأنها قرب ممتلئة ، فهى تهتز وترتج . ويختم أبياته بأنه تمتّع بكل ذلك

نطف : جمع نطفة وهى القرط به لؤلؤة صافية .
 مقْلَص أسفل السربال : قصير القميص .
 معتمل : مطبوع على العمل والنشاط .
 (٥) المستجيب : العود ذو الأوتار لأنه يجيب صاحبه كما يجيب الصنج وهو الآخر من آلات الطرب . وجعل الصنج يسمعه كناية بذلك عن اتساق ألحانهما . القينة : الأمة المغنية .
 الفضل : اللابسة ثوباً واحداً .
 (٦) العجل : جمع عجلة بكسر العين وسكون الجيم وهى قربة الماء .

(١) غدوت : ذهبت . شاو : يشوى اللحم .
 ومعنى مشل شلول شلشل شول أنه خفيف الحركة نشيط .
 (٢) قُضْب : جمع قضيب وهو النصف ، القهوة : الخمر . الراووق : الوعاء الذى تروق فيه الخمر . خضل : ندى ، كنى بذلك عن اتصال شربهم .
 (٣) علوا : من العلل وهو الشرب بعد الشرب تهاجراً ، نهلوا : من النهل ، وهو أول الشرب .
 إلا بهات : إلا بمقدار قولهم هات .
 (٤) ذو زجاجات : يريد الساقى .

ولها به وجربه مراراً وتكراراً .

والأعشى لا يصف مجالس الخمر فحسب ، بل يصف وصفاً دقيقاً أوانها وألوانها وما تفعله بعقول شاربها وما تُحدث في قلوبهم من نشوة ، مما يدل على أنه كان مشغولاً بها مفتوناً ، بل سكيراً مغرقاً في السكر ، وهو في ذلك يقترب من ذوق جماعة المجان في العصر العباسي أمثال أبي نواس ، وفي الوقت نفسه يفتقر من ذوق معاصريه الذين لم يكونوا يسرفون على أنفسهم لإسرافه في اللهو والمجون . ولا نشك في أن هذا بجاءه من أثر الحضارات التي ألمَّ بها في الحيرة وغير الحيرة ، بحيث تحول مدمناً لها ، يلزم حوانيتها ، فإن ولَّى وجهه نحو منازل قومه حمل منها ما يكفيه هو ورفاقه هناك ، فيهلون ويعلثون ولا يفتقون ، وهو في أثناء ذلك ينشدهم ما ينظمه فيها ، وهم يصفقون استحساناً . ولم يكن يحسن وصفها فحسب ، بل كان يُضفي عليه حيوية بما يمزجه به من قصص على شاكلة قوله :

أَتَانِي يُؤَامِرُنِي فِي الشَّمْرِ	ل لَيْلَا فَقُلْتُ لَهُ : غَادِهَا ^(١)
أَرَحْنَا نَبَاكُرُ جِدَّ الصَّبْوِ	ح حِرَّ قَبْلِ النُّفُوسِ وَحُسَادِهَا ^(٢)
فَقُمْنَا وَلَا يَصِحُّ دِيكُنَا	إِلَى جَوْنَةٍ عِنْدَ حَدَادِهَا ^(٣)
تَنْخُلُهَا مِنْ بَكَارِ الْقِطَافِ	أَزِيرِقُ آمِنُ إِكْسَادِهَا ^(٤)
فَقُلْتُ لَهُ : هَذِهِ هَاتِهَا	بِأَدْمَاءٍ فِي حَبْلِ مُقْتَادِهَا ^(٥)
فَقَالَ : تَزِيدُونَنِي تِسْعَةً	وَمَا ذَاكَ عَدْلًا لَأَنْدَادِهَا ^(٦)
فَقُلْتُ لِمَنْصَفِنَا : أَعْطِهِ	فَلَمَّا رَأَى حَضَرَ شُهَادِهَا ^(٧)
أَضَاءَ مِظَلَّتِهِ بِالسَّارِ	ج وَاللَّيْلُ غَامِرٌ جُدَادِهَا ^(٨)

(٥) أدماء : ناقة بيضاء . مقتادها : غلامها الذي يرعاها .
(٦) أندادها : أمثالها .
(٧) منصف : خادم . حضر : حضور .
شهادها هنا : الدرام .
(٨) مظلته : حائوته أو غبائه . الجداد : الأهداب والأستار .

(١) يؤامرني : يشاورني . الشمول : الخمر .
غادها : انطلق بنا إليها .
(٢) جد : نشاط . الصبوح : خمرة الصباح .
(٣) جونة : جرة وخاوية . حدادها : خمارها .
(٤) تنخلها : تمخيرها . بكار القطاف : أول ما يقطف . أزيرق : أزرق العينين .
آمن إكسادها : آمن من كسادها لا يخاف .

دَرَاهِمُنَا كُلُّهَا جَيِّدٌ فلا تَحْبِسُنَا بِتَنْقَادِهَا (١)
 فقام فصبَّ لنا قَهْوَةً تُسَكِّنُنَا بعد إِرْعَادِهَا (٢)
 كُمَيْتًا تَكْشِفُ عَنْ حُمْرَةِ إذا صرَّحتْ بعد إزْبَادِهَا (٣)
 كَحَوْصَلَةِ الرَّأْلِ فِي جَرِيهَا إذا جُلِيَّتْ بعد إِقْعَادِهَا (٤)
 وجال علينا بِإِبريقِهِ مخضَّبُ كَفِّ بِفِرْصَادِهَا (٥)
 فباتت رِكَابُ بَأَكْوَارِهَا لدينا وخيلُ بِأَلْبَادِهَا (٦)
 ورُحْنًا تَنعَّمُنَا نَشْوَةً تجورُ بنا بعد إِقْصَادِهَا (٧)

ولا تختلف هذه الأبيات المنتزعة من القصيدة الثامنة في الديوان عن خمريات
 أبي نواس وأضرابه في شيء ، لولا ذكره للأكوار والألباد في نهايتها ، ولوحذفنا بيتيها
 لأصبحنا إزاء خمزية عباسية تعتمد على القصص والإطراف به . وهو في أولها يذكر
 أن في طريقه قبل أن يسفر الصباح يدعو أن يذهبها معاً لتناول الخمر . وذهبها في
 هزيع الليل الأخير - قبل أن تصيح الديكة وقبل أن يسبقهما أي كاشح حسود - إلى
 حانوت خمار أعجمي ، كنى عنه بزرقة العين ، وهو خمار حاذق لصنعتة ،
 استخلص خمره من بكار القطاف ، وهي خمر معتقة ومثلها لا يكسند ولا يبور .
 وطلبا إليه أن يسقيهما بناقاة قاداها إليه ، وهي واقفة ببابه مزومة بجبل غلامها ،
 فلم تكفه وطلب فوقها تسعة دراهم ، مشيداً بخمره وأن هذا الثمن ليس كفوّاً لها ،
 ويقول الأعشى إنه قال لصاحبه : اعطه ما يريد . ويضئ الخمار خبائه
 أو حانوته ، ويعدّ الدراهم ويتبينها خشية زيفها ، حتى إذا اطمأن لها وللأعشى ورفيقه
 أو رفاقه قام ، فناولهم خمرأ تمشت في أجسادهم ، فسكنوا إليها ، وهي خمر حمراء

(١) تنقادها : نقدها وعدّها حتى يتبين زائفها من صحيحها .

(٢) تسكننا : تسكن إلينا .

(٣) كيمتاً : حمراء . صرحت : ذهب زبدها .

(٤) الرأل : فرخ النعام . شبه الخمر بحوصلة في الحمرة . جليت : أخرجت ، مأخوذ

من جلوة العروس . القاعدة ، إذا قعدت عن الطلب . وانظر الحيوان ١٤/٤ .

(٥) الفرصاد : التوت الأحمر .

(٦) الأكوار : الرجال . الألباد :

جمع لبد وهو قطعة الصوف توضع تحت السرج

(٧) إقصاد : قصد واعتدال .

فاقعة كأنها الفرصاد أو التوت الأحمر ، وما يزال صاحبها يسقيهم ، وهم بها مشغوفون ، حتى انبثقت أضواء الصباح ، فنهضوا بركابهم وخيلهم ، تستخفهم النشوة استخفافاً خرجوا به عن أطوارهم وما تعودوه في صحوهم من قصد واعتدال .

وأنت تراه قد وصف الحمر ودنّها ولونها وخمارها وحانوتها وتعرّض لصياح الديكة في السحر ومساومة صاحبها في ثمنها وأثرها في النفس وما تصيب به شاربها من انتشاء يتمشى في المفاصل . وهذه المعاني جميعها تدور فيها وفي أفلاكها خمريات العباسيين . واستمع إليه يقول :

وَأَذْكَنَ عَاتِقِي جَحْلِي سِبْخَلِي	صَبَحْتُ بِرَاحِيهِ شَرْباً كِرَاماً ^(١)
مِنَ اللَّاتِي حُمِلْنِ عَلَى الرَّوَايَا	كَرِيحِ الْمِسْكِ تَسْتَلُّ الزُّكَامَا ^(٢)
مُشْعَشَعَةً كَأَنَّ عَلَى قَرَاهَا	إِذَا مَا صَرَّحْتُ قِطْعاً سَهَامَا ^(٣)
تَخِيرُهَا أَخُو عَانَاتٍ شَهْرًا	وَرَجَّيْ أَوْلَهَا عَامًا فَعَامَا ^(٤)
يُؤْمَلُ أَنْ تَكُونَ لَهُ ثَرَاء	فَأَغْلَقَ دُونَهَا وَغَلَا سِوَامَا ^(٥)
فَأَعْطَيْنَا الْوَفَاءَ بِهَا وَكُنَّا	نُهَيِّنُ لِمَثَلِهَا فِينَا السَّوَامَا ^(٦)
كَأَنَّ شُعَاعَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِيهَا	إِذَا مَا قُتِّ عَنْ فِيهَا الْخَتَامَا ^(٧)

وواضح أنه يتحدث عن دن من دنان الحمر أسود عتيق ، صبح به رفاقه ، ويقول إنه من نادر الدنان التي تعجلب من البلاد البعيدة والتي تنفذ رائحة خمرها بطيها إلى الأنف ، فتستل منه الزكام . ويصف هذه الحمر فيقول إنها مروقة ، صافية كأنها بياض الحر أو سرابه اللامع ، وقد انتقاها صاحبها في «عانات» ، وظل

وما يكون معه من البياض .
(٤) عانات : بلد بالشام . أولها : ما تقول إليه من ثمن غال .
(٥) السوام : بكسر السين المساومة في البيع والمغالة .
(٦) السوام : بفتح السين الإبل الراعية .
(٧) قرن الشمس : أول ما يبدو منها في الصباح . الختام : السداد .

(١) أذكن : هو الدن لأنه يطل بالقطران .
عاتق : قديم . الجحل : السقاء الكبير أو القربة الكبيرة . سبخل : ضخيم . الشرب : جماعة الشاربين . صبحت : ناولت ، وهو خمر الصباح .
(٢) الروايا : جمع راوية وهو البعير .
(٣) مشعشة : مروقة . قراها : ظهرها .
صرحت : صفت . السهام : وهج الصيف

يعلق عليها الآمال عاماً بعد عام ، مغالياً في ثمنها ، حتى اشتريناها منه ، ويصورها وهي تسقط من دَنِّها بشعاع الشمس الوهاج ، وهي من الصور التي أكثر العباسيون من تداولها ، كما أكثروا من الحديث عن رائحتها ووصف دَنِّها ، ومن قوله في كأس من كتوسها :

وكأْسٍ كَعَيْنِ الدِّيكِ باكرتُ حَدَّها بفتيانِ صِدْقٍ والنواقيسُ تضربُ^(١)
سُلافٍ كأنَّ الزعفرانَ وعندماً يصفقُ في ناجودها ثم تُقَطَّبُ^(٢)

وهو يشبهها بعين الديك في صفائها ، ويقول إنه باكرها أو باكر سورتها برفاق مخلصين ، يشربونها معه في الأديرة على قرع النواقيس ، ويحدثنا عن رائحتها وأثرها في نفسه ، حتى ليتصورها زعفراناً أحمر خُطَّاط بصيغ العندم ، وقد سطعت منه رائحة زكية . وعلى هذا النحو ما يزال يصف الخمر وصف مفتون بها ، معلناً أنه لا يستطيع عنها انصرافاً ، فهي كل لذته ومتاعه ، يقول :

وكأْسٍ شربتُ على لَذَّةٍ وأخرى تداويتُ منها بها
لكي يعلم الناسُ أني امرؤٌ أتيتُ المعيشةَ من بابها

وما ينى يتحدث عن مجالسها وما ينثر فيها من ورود وما يكون فيها من قيان وآلات طرب ، بنفس الصورة التي تلقانا عند أصحاب الخمر والمجون في العصر العباسي . ونحن إنما سقنا ما وثقناه من أشعاره ، ومن يرجع إلى ديوانه وما رفضناه من قصائده يستطيع أن يلاحظ عبث الرواة بشعره ، فقد أجروا على لسانه خمرية تزخر بالألفاظ الفارسية ، وكأنه فارسي أباً وأماً ممن أتقنوا الشعر العربي في العصر العباسي وأتقنوا فن الخمرية بنوع خاص ، وهل تفرق قصيدته رقم ٥٥ من قصائد أبي نواس وأضرابه في شيء ؟ إنها تكتظ بأسماء الرياحين والأزهار وآلات الطرب الفارسية ، ولا يبخل عليه واضعها بذكره لنيل مصر في تضاعيفها وإجرائه على لسان الأعشى بعض ما كان يجري على لسان أبي نواس ونظرائه من أن صاحبها مجوسى يصلى عليها

(١) باكر : شربها في الصباح الباكر .
حدها : سورتها وحدتها .
(٢) السلاف : أجود الخمر . العندم :
شجر عروقه حمراء يصيغ به . يصفق :
يروق . ناجودها : جرتها . تقطب : تمزج .

ويزمزم . فماذا بقي لمجان الفرس في العصر العباسي . وقُلْ ذلك نفسه في قصيدته رقم ٣٦ وقد رفضناها لما فيها من حديث عن هلاك الملوك الأوائل ، وهي ترفض أيضاً لما فيها من صور خمريّة تنبؤ على ذوق الجاهليين ، إذ يوصفُ زقُّها الأسود وقد طُلّي بالقار وطُرح على الثرى بحبشى نام وانبطح ، كما يوصفُ السكارى وقد تمددوا على الأرض وخذلتهم أرجلهم من غير كسّحٍ فلا يستطيعون حراكاً بالحبال الممدودة لصيد بعض الطير .

وإذا تركنا خمره إلى غزله لاحظنا أنه لا يقف طويلاً عند الأطلال صنيع غيره من الجاهليين ، بل يأخذ في وصف صاحبتّه ووصف عواطفه نحوها ، وقد يعتمد إلى نفس الصورة القصصية المبنوثة في معلقة امرئ القيس ، فيتحدث عن مغامراته ووصوله إلى محبوباته من المتزوجات على شاكلة قوله :

فَظَلِلْتُ أَرعَاها وَظِلَّ يَحْوَطُها حتّى دنوتُ إذا الظلامُ دَنَا لَهَا

فَرَمِيتُ غَفْلَةً عَيْنِيهِ عَنْ شَاتِيهِ فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطَحَّالَهَا^(١)

حَفِظَ النَّهَارَ وَبَاتَ عَنْهَا غَافِلًا فَخَلْتُ لِصَاحِبِ لَذَّةٍ وَخَلَا لَهَا

فهو يخالس الزوج ويخاتله ، حتى يظفر ببغيته . وطبيعي أن يكون غزله مادياً صريحاً لما رأينا من لهوه وخمره ، غير أننا نلاحظ عنده رقة في الغزل وشدة في الوله والتعلق بالمحبوبة ، حتى إن روحه لتكاد تسقط من بين جنبيه جزعاً وصبابة ، وخاصة حين الوداع . واستمع إليه يقول في فاتحة معلقته :

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنْ الرُّكْبَ مُرْتَحِلُ وهل تطيقُ وداعاً أيها الرَّجُلُ

فهو يأمر قلبه أن يودعها قبل الرحيل ، وسرعان ما يرجع إلى نفسه ينكر ما ظنه فيها من الصبر على الوداع . وهي صبابة لا نعرفها عند الجاهليين ، إنما نعرفها عند الأعشى صاحب الذوق الرقيق الذي أثرت فيه الحضارة ، وحولته دقيقاً الحس دقة شديدة فإذا هو يتدلل في حبه وينخضع ، وامض معه في المعلقة فستجده يشبّب بصاحبته منحرفاً عن طريقة الجاهليين في بكاء آثار الديار والأطلال ، فهي موضوع حبه وغزله ، ولا داعي لأن يذهب بعيداً مع الذكريات ، وإذن

(١) الشاة هنا : كناية عن المرأة .

فليأخذ في وصفها مفتناً في ذلك افتناناً ، فتارة يصف بشرتها وشعرها وعوارضها
وتارة يصف مشيتها الوانية وحسنيها ، وتارة يصف تعلق الناس بطلعتها الفاتنة وما تغرق
فيه من ترف ونعيم وعطور ، ولا يلبث أن يُورد علينا هذا البيت الغريب :

عُلِّقْتُهَا عَرَضاً وَعُلِّقْتُ رَجُلَا غَيْرِي وَعُلِّقْتُ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ

وهو يصور فيه شقاءه بحبها ، فهو يحبها ، وهي تعرض عنه ، وتحب رجلاً
آخر ، والرجل يعرض عنها ويحب فتاة أو امرأة ثانية . وسرعان ما يعود ،
فيتذكر كيف كانت تشفق عليه وعلى نفسها حين زارها ذات مرة ، فقال :

قَالَتْ هُرَيْرَةٌ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا وَيْلِي عَلَيْكَ وَيْلِي مِنْكَ يَا رَجُلُ

فقد بالغ في وصف ارتياعها وخوفها على نفسها وعليه ، حتى إنها لتتفجع
وتتوجع إشفاقاً وضعفاً . ولعل في هذا كله ما يوضح غزل الأعشى وأنه يمتاز
من ناحية بأنه حسي مادي ومن ناحية أخرى برقته المفرطة وتصويره لعواطف
المحبين وأحاسيسهم التي يبوحن بها ولا يستطيعون كظمها ولا كتمها ، بل يندفعون
في تصويرها معبرين عن ولهم وعشقمهم .

والحق أن الأعشى في شعره جميعه يعد تمهيداً للشعر الحضري الذي ظهر
من بعده ، سواء في غزله وخمره أو في هجائه ومديحه ، فهو في هذه الموضوعات
جميعاً يفصح عن ذوق متحضر ، سواء في خطاب الأمراء والأشراف والخضوع لهم
أو في خطاب النساء والتذلل لهن أو في اللعب بمهجويته والاستهزاء بهن والاستخفاف ،
أو في وصف الخمر ومجالسها ودنانها وكثوسها .

ولعلنا بعد ذلك لا نعجب إذا رأيناه يشبه العباسيين في مبالغاتهم ، فقد كان
يسرف على نفسه مثلهم في تصور ممدوحيه ، فإذا هو يقول في هـَوْذَة بن علي الحنفي :

فَتَى لَوْ يُبَارَى الشَّمْسُ أَلْقَتْ قَنَاعَهَا أَوَ الْقَمَرِ السَّارِي لَأَلْقَى الْمَقَالِدَا (١)

فهو لو يبارى الشمس لألقت قناعها خجلاً ولو بارى القمر لذل له وانقاد
صغاراً . وهي مبالغة مفرطة ، ومثلها قوله متغزلاً :

(١) ألقى المقالدا : ذل وانقاد ، وفي رواية ينادى
بدلاً من يبارى بمعنى يجالس

لو أسندت ميتاً إلى نحرها عاش ولم يُنقل إلى قابر
حتى يقول الناس مما رأوا يا عجباً للميت الناشر^(١)

فلو ضمت ميتاً إلى نحرها لدبت فيه الحياة من جديد ، وعجب الناس لما يرون
من هذا الميت المبعوث . ويبالغ الأعشى أو قل يزيد مبالغته إفراطاً ، فيقول إن
هذا الميت حين يبعث إلى دنياه يخلد فيها ولا ينقل إلى مقبرة من المقابر .

ولا يلاحظ عنده أطرافه بمثل هذه المبالغات فحسب ، بل يلاحظ أيضاً
تعمقه في صنع الأخيصة والصور ، فإذا هو يقع منها على مبتكرات كثيرة ، نلاحظها
لا في موضوعه الجديد فحسب ، ونقصه الخمر ، وإنما في أقدم الموضوعات وأكثرها
دخولاً في البداوة ، ونقصه وصف الناقة ، إذ يقول في بعض شعره إنها تجترع
الأكام اجتراحاً ، لما تطوى منها ، يقول :

إذا ما الآثمات ونين حطت على العلات تجترع الإكام^(٢)

ويقول مصوراً سرعة ناقتة في الهاجرة :

بجلالة سرح كأن بدفها هراً إذا انتعل المطى ظلالها^(٣)

فهى تجرى مذعورة كأن هيراً يخذشها ، وليس ذلك الذى يلفتنا عنده ، إنما
يلفتنا أنه عبر عن تقلص الظلال في الهاجرة بأنه لم يبق لناقته إلا ظل أخفافها ،
وهى تنتعله في خطاها . وتكثر عنده الصور المخترعة في الخمر ، وهى مبهوثة فيما أنشدناه
من شعره .

ومن أهم ما يلاحظ عنده سهولة لفظه بالقياس إلى معاصريه وسابقيه من قبيلته
أمثال طرفة ، وما نشك في أن هذا يرجع إلى أنه تأثر بالحضارة ، فرقت معانيه ،
ورقت ألفاظه رقة لم تعرف لشاعر جاهلي ، وليس لفظه وحده الذى رقى ، بل إن
نفسه رقت هى الأخرى ولانت ، فإذا هو يأتى بنحرياته وغزلياته السابقة . وحققاً
تأثر النابغة مثله بالحضارة ، ولكننا نحس عنده أنه يبتقى على كثير من بداوته ، ولذلك

(١) الناشر : المنشور أو المبعوث .

(٢) الآثمات هنا : الرانيات . العلات :

الحالات المختلفة . حطت : أسرمت .

الإكام : المرتفعات .

(٣) جلالة : ناقة ضخمة . سرح :

سهلة . الدف : الجانب .

لم يرقّ غزله ولا خاض في الخمر ، أما الأعشى فأقبل على اللهو والطرب والعكوف على الخمر والاستماع إلى القيان . فكان طبيعياً أن يسهل الشعر عنده بأكثر مما يسهل عند النابغة ، وأن تظهر فيه رقة الحضارة ونعومتها .

ولا يظهر تأثير الحضارة في سهولة ألفاظه فحسب ، بل يظهر أيضاً في خفة أوزانه وجمال موسيقاها ، وكأنما أثر فيه كثرة استماعه للمغنيات والغناء ، فإذا هو يُحِيل شعره ألحاناً وأنغاماً خالصة . وهو كثير التنويع في أوزانه يستخدم منها التام والمجزوء ، ويُحسن هذا الاستخدام إلى أقصى الحدود ، إذ كان يقتدر على الإتيان بالألفاظ العذبة والكلمات الرشيقة والقوافي المتمكنة .

على أنه ينبغي أن نلاحظ شيئين ، هما كثرة ما نُحِيلَ عليه ، وقد أدّى ذلك إلى دخول ألفاظ فارسية في بعض قصائده ، حمل عليه من أجلها المرزباني في كتاب الموشح ، والذي لا شك فيه أن هذا من صنْع المنتحلين ، ولا يصح أن نحمل على الأعشى بسببه بل ننحّي عنه هذا الشعر على نحو ما نحينا عنه القصيدة رقم ٥٥ . أما الشيء الثاني فهو أن الأسلوب عند الأعشى ينفك قليلاً عن صورة الأسلوب الجاهلي ، ولذلك مظهر واضح هو أننا نفتقد عنده الأبيات المفردة التي تدور في الحكم والأمثال ، وكأنما لم تكن لديه مقدرة زهير والنابغة في التركيز وحشد المعاني في الألفاظ القليلة . وربما كان هذا هو سبب كثرة التضمين في أشعاره كقوله في مطلع قصيدته الأولى في ديوانه :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي فهل تردُّ سؤالي
دِمنَةُ قَفْرَةٍ تعاورها الصبي فُ بريحين من صَباً وشمال^(١)

فقد جاء بفاعل تردّ في أول البيت الثاني ، ومن ذلك قوله في قصيدته التي يفخر فيها بتغلُّب شيبان على الفرس في يوم ذي قار :

ولله عَيْنَا مَنْ رَأَى مِنْ عِصَابَةٍ أَشَدَّ عَلَى أَيْدِي السَّعَاةِ مِنَ الَّتِي^(٢)

(١) الدمنة : آثار الدار . الصبا : ريح جنوبية
(٢) السعاة : الذين يسعون في الحرب ويهيجونها .

أَتَتْنَا مِنَ الْبَطْحَاءِ يَبْرُقُ بَيَظُّهَا وقد رُفِعَتْ رَايَاتُهَا فَاسْتَقْلَتْ (١)

وهو يوازن في البيتين بين بنى شيبان وجيوش الفرس ، فيقول ألا سلمت عينا من رأى عصابة بنى شيبان وإنما لأشد على من يثرون الحروب من تلك التى أتتنا من البطحاء تبرق خوذاتها وتخفق راياتها . وواضح أنه فصل بين الصلة والموصول في البيتين . وكأنه لم يعترف بأن البيت الأول نهاية يقف عندها . وهذا التضمين فى شعره أكثر من أن تمثل له ، فليرجع إليه من أراد ، والمهم أنه يدل على انفكاك التعبير عنده ، فهو لا يتمه فى البيت ، بل يتمه فى بيت ثان أو أبيات ، ولعل ذلك هو سبب كثرة صيغة التفضيل التى اشتهر بها فى شعره ، وذلك أنه حين يبتغى تفضيل شىء على شىء يجعل المفضل عليه مبتدأ منفيًا بما ، ثم يسترسل فى وصفه ، حتى إذا استوفى ما أراد من هذا الوصف جاء بنجر المبتدأ ، على شاكلة قوله فى المعلقة يصف صاحبه وما ينتشر من طيبها :

ماروضة من رياض الحزن مُعْشِبَةٌ خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلٌ (٢)
بُضاحك الشمس منها كوكبٌ شَرِيقٌ مؤزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهِلٌ (٣)
يوماً بأطيب منها نَشَرَ رائحةٍ ولا بأحسن منها إِذْ دَنَا الْأَصْلُ (٤)

فقد بدأ بالمبتدأ وهو الروضة ، ووصفها فى بيتين مادحاً جمالها وما تمدها به الأمطار وكيف تضاحك الشمس أزهارها ونباتاتها ، ثم قال إن هذه الروضة على حسنها وشذاها العطر ليست أطيب من صاحبه شذى ولا أبهى منظراً .

وواضح من كل ما قدمنا أن الأعشى يُعَدُّ حلقة مهمة من حلقات الشعر الجاهلى ، وهى حلقة تضيف جديداً واضحاً إلى هذا الشعر سواء فى موضوعاته أو فى معانيه أو فى أحاسيسه أو فى سهولة ألفاظه أو فى خفة أوزانه وجمال أنغامه وألحانه .

(٣) كوكب : أراد به ما طال من النبات .
شرق : ريان من الماء . وأراد بالمضاحكة
تفتح الأزهار . مؤزَّر : لابس إزاراً . عميم
النبت : ما اجتمع منه وتكاثر . مكتهل : تام .
(٤) الأصل : جمع أصيل وهو الوقت
قبل الغروب .

(١) البطحاء : موضع بقرب ذى قار .
البیض : الخوذ . استقلت : ارتفعت
وعلت .
(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض وارتفع .
وعندهم رياض الحزن أجود وأنضر من رياض
المنخفضات . مسبل مطل : كثير الأمطار .

الفصل الحادى عشر طوائف من الشعراء

١

الفرسان

رأينا القبائل فى الجاهلية تعيش معيشة حربية ، فهى كتائب تنزل للرعى ، وفى الوقت نفسه تجهز بالأسلحة كى تدفع خصومها عن مراعيها ، أو تغير عليهم وتسبى نساءهم وتنهب أموالهم من الإبل وغير الإبل . وكانوا يحاربون راجلين وركباناً على الإبل والخيل ، وكانوا يرون فى الثانية مزية على الأولى لسرعتها فى الطراد والإغارة ، فأحبوها وعشّوا بها وبتربيتها وصيانتها واستنتاج كرائمها وترويضها للحروب والسباق . وقد دارت أوصافهم لها فى شعرهم الجاهلى ، فلم يكادوا يتركون عضواً من أعضائها إلا وصفوه ، ولا خصلة ولا عيباً إلا ذكروهما ، وفى معلقة امرئ القيس صورة من وصفهم لخيّلهم ، ومن اشتهر بوصفها أبو دؤاد الإيادى وطُفيل الغنوى وسلامة بن جندل التميمى .

واشتهر كذلك جماعة من الفرسان الذين أظهروا بطولة نادرة فى حربهم عليها لخصومهم وأقرانهم ، وهم كثيرون ، فقد كان لكل قبيلة فارسها أو فرسانها الذين يتدربون على ركوب الخيل طويلاً وكيف يقفزون عليها ويشهرون سيوفهم ويلوحون برماحهم وكيف يسددون ضرباتهم إلى أعدائهم . وتلقانا دائماً أسماؤهم وخاصة فى حروبهم الطويلة مثل حرب البسوس وفارسها المهلهل التغلبى ، وهو الذى أشعل نيرانها ثاراً لأخيه كليب ، ويقال إنه أول من هلل الشعر وأرقه^(١) . وشعره يدور فى رثاء أخيه وتوعّد قبيلة بكر بما سينزله بها من هزائم لا تقل شدة ولا فتكاً عن هزائمها السابقة ، وكانت الحرب كما قدمنا فى غير هذا الموضع بين بكر وقبيلته تغلب

وخزاة الأدب للبغدادى ٣٠٢/١ .

(١) انظر أخباره فى الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤/٥ والشعر والشعراء ٢٥٦/١

سِجَالاً ، تارة تنتصر هذه وتارة تنتصر تلك . وكان لا ينى يحمس قومه ويدعوهم إلى مواصلة القتال ، مفصحاً في أثناء ذلك عن رغبة حارة في الانتقام ، واسمعه يقول : (١)

وإني قد تركتُ بوارداتٍ بُجَيْرًا في دَمٍ مثلي العبيرِ (٢)
 وهمَّام بن مرةٍ قد تركنا عليه القشعمان من النسورِ (٣)
 وصبَّحنا الوُخومَ بيومِ سوءٍ يُدافعن الأسنةَ بالنُّحورِ (٤)
 كأننا غُدوةٌ وبني أبينا بجوفٍ عُنيزةٍ رَحياً مُديرِ (٥)
 فلولاً الريحُ أسمعَ أهلُ حجرٍ صليلَ البَيْضِ يُقرعُ بالذكورِ (٦)

وواضح أنه يفخر بانتصاراته على بكر في موقعة واردات وموقعة عنيزة ، وقد قتل في الأولى بجير بن الحارث بن عبَّاد أحد فرسان بكر كما قتل همام بن مرة أخا جسَّاس ، وكم قتلوا من عشيرة الوخوم ، ولم يكن يوم عنيزة بأقل من يوم واردات فيما اصطَلته بكر من حرِّ اللقاء .

ومن فرسانهم المشهورين عامر بن الطُّفَيْل (٧) فارس بني عامر بن صعصعة أقوى عشائر هوازن وأشدّها بأساً ، وكان بنو عامر ينتشرون في أواسط نجد شرق الحجاز ، وجنوبي منازل عبس وذبيان ، وغربي منازل بني تميم ، وكانت مراعيهم تمتد جنوباً حتى بني حنيفة في اليمامة وبني الحارث بن كعب في نجران ومذحج في شمالي اليمن . ولما نشبت الحروب بين عبس وذبيان أخذوا صف عبس ، فاصطدمت بذبيان وأحلافها . وقد جعلهم انتشارهم في أواسط نجد يحاربون

(١) الأصبميات (طبع دار المعارف)

ص ١٧٤ والأغاني ٥/٥٣ .

(٢) واردات : موضع سميت به موقعة حدثت فيه بين بكر وتغلب في حرب البسوس . العبير : الزعفران .

(٣) القشعم من النسور : الضخم ، وهمام : أخو جسَّاس قاتل كليب .

(٤) الوخوم : عشيرة من بكر .

(٥) عنيزة : موضع سميت به إحدى وقائع حرب البسوس . والرحيان إذا أدارهما مدير أثرت كل منهما في الأخرى ، والصورة واضحة .

(٦) حجر : قرية باليمامة . البيض :

خود الحرب . يقرع : يضرب . والذكور : أجود السيوف وأيسبها وأشدّها .

(٧) انظر أخبار عامر في الأغاني (طبعة

الساسي) ٥٠/١٥ ، وراجع ترجمته

الشعر والشعراء ٢٩٣/١ وانظر الخزائن ١/٧٢ ،

٤٩٢/٣ والمعمرين ص ٦٠ وشرح النقائض في

يوم فيف الريح ص ٤٦٩ وشعب جبلة ص

٦٥٤ وتاريخ ابن كثير ٥/٥٦ والسيرة

النبوية ٢١٣/٤ .

قبائل كثيرة مضرية ويمينية .

ولعامر بن الطفيل ديوان نشره لایل مع ديوان عبید بن الأبرص في سلسلة جب التذكارية ، وهو فيه دائم الحديث عن فروسيته وحسن بلائه في حروب قومه مع ذبيان في يوم الرقم ويوم ساحوق وغيرها من الأيام . وقد أظهر بطولة نادرة في يوم فيف الرياح وكان لقومه على بني الحارث بن كعب النجرانيين وعشائر مذحج ، وتغنى به طويلاً في شعره على شاكلة قوله (١) :

لقد علمتُ علّيا هوازنَ أننى	أنا الفارسُ الحامى حقيقةً جعفر (٢)
وقد علمَ المزنوقُ أنى أكره	على جَمْعهم كَرَّ المَنِيحِ المشهر (٣)
إذا ازورَّ من وَقَع الرماح زَجَرْتُهُ	وقلتُ له : ارجع مقبلاً غير مُدْبِر (٤)
وأنبأته أن الفِرار خَزَايَةُ	على المرء ما لم يُبَلِّ جهداً ويُعْذِر (٥)
ألستَ ترى أرماحهم في شُرْعَا	وأنتَ حصانُ ماجد العِرْقِ فاصبر (٦)
وقد علموا أنى أكرُّ عليهم	عشية فيفِ الرياح كَرَّ المدور (٧)
وما رمتُ حتى بَلَّ نخري وصدْرَه	نجيعُ كهْدَابِ الدَّمْقِسِ المُسَيِّر (٨)

وهو يصور في هذه القطعة اقتحامه للحروب ، وكيف أنه لا يتسخرى عن بسالته الحربية ، حتى يحصى عشيرته وضعفاءها ونساءها ، ويقول إنه لا يزال يردّ إلى الحرب فرسه المزنوق كلما خرج منها ، وإن ازورَّ عنها أو انحرف دفعه فيها دفعاً ، أما الفرار وعاره فدونه الموت ، ويدعو فرسه إلى التأسى به ، فالرماح تنوشه من كل جانب وهو يهجم على أعدائه غير مبال ، ويدعو فرسه إلى الصبر معه ، حتى

(١) المفضليات ص ٢٦١ .

(٢) علّيا هوازن : مجموعة من قبائلها هي سعد وجشم ونصر وثقيف . وحقيقة : حمى . جعفر : عشيرة عامر ، وهى جعفر بن كلاب ابن ربيعة بن عامر .

(٣) المزنوق : اسم فرسه . المنيح : من قداح الميسر ويكثر جولانه في القداح . فكلما خرج منها رد فيها .

(٤) ازور : مال وانحرف .

(٥) خزاية : خزي . يعذر : يأتى بعذر .

(٦) شرعاً : مسددة .

(٧) المدور : الذى يطوف بالدوار وهو من أصنامهم .

(٨) ما رمت : ما برحت . النجيع : الدم . الدمقس : الحرير . المسير : برود من اليمن بها خطوط .

ينالاً شرف النصر جميعاً ، ويلمع أمام عينيه يوم فيف الرياح وما أظهر فيه من
بسالة ، ويقول إنه لم يبرح موضعه في ميدان القتال ، حتى غرق نحره وصدر فرسه
بالدماء .

واشتهر عامر كما مر بنا بمنافرتة لعلقمة بن عُلَثة ابن عمه ، بسبب منافستهما
على سيادة عشيرتهما ، وقد احتكما إلى هيرم بن قُطبة الفزاري ، فسوى بينهما - كما مر بنا -
في عبارته الماثورة إذ قال لهما : « أنما كركبتى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان إلى
الأرض معاً » . وقد تقدم أن الأعشى كان ممن وقفوا في صف عامر ضد علقمة .
وقد وفد عامر على الرسول صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة ، غير أن الله لم يوفقه
للإسلام ، فمضى على وجهه ، والرسول غضبان عليه ، ولم يلبث أن مات بالطاعون
عن اثنتين وستين سنة .

ولا نغلو إذا قلنا إن أهم فارس احتفظت به ذاكرة العرب في أجيالهم التالية
إلى يومنا الحاضر هو عنتر بن شداد ^(١) (وقيل ابن عمرو بن شداد) العَبَسِيّ ،
وكان أبوه من أشرف عبس ، أما أمه فكانت حبشية يقال لها زبيبة ، وقد ورث
عنها سواده ، ولذلك كان يعد من أغربة العرب ، كما ورث عنها تشقق شفتيه ،
ولذلك كان يقال له عنتره الفلّحاء . وكان من عادة العرب في الجاهلية إذا استولدوا
الإماء أن يسترقوا أبناءهم ولا يلحقوهم بأنسابهم إلا إذا أظهروا نجابة وشجاعة .
ومن ثم لم يعترف شداد بعنتره ابناً له إلا بعد ما أبداه من بسالة في حروب داحس
والغبراء ، وقد ظل يذكر هذا الجرح الذي أصابه في الصميم ، وفي ذلك يقول ^(٢) :

إني امرؤ من خير عبس منصّباً شطري ، وأحمى سائري بالمنصّل ^(٣)
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألفت خيراً من معمم مخول ^(٤)

وواضح أنه يشير إلى كرم أصله الأبوي أو شطره الأول ، أما شطره الثاني
من جهة أمه فتنوب عنه شجاعته واقتحامه للحروب ، حتى غدا في قومه خيراً ممن

مجموعة « مختار الشعر الجاهلي » . وطبع الديوان
طبعت أخرى في بيروت والقاهرة وليدن .
(٢) مختار الشعر الجاهلي ص ٣٨٨ .
(٣) منصّباً : أصلاً . المنصّل : السيف .
(٤) تلاحظت : نظرت من يقدم على العدو .

(١) انظر في عنتره الأغاني (طبعة دار
الكتب) ٢٣٧/٨ والشعر والشعراء ٢٠٤/١
وما بعدها والخزانة ٥٩/١ وراجع ديوانه برواية
الأصمعي ، في مخطوطة الشتمري « شرح الدواوين
الستة » بدار الكتب المصرية . وقد طبع
مصطفى السقا نص المخطوطة بشرح مختصر في

عمه ونحاله من سادتهم ، إذ لا يغنى القبيلة أحد غناءه ولا يذود عن حماها
زياده ، ويصور لنا في نفس القصيدة شجاعته وجراته تصويراً باهراً إذ يقول :

بكرت تخوفنى الحُتوفَ كأننى أصبحْتُ عن غرض الحُتوفِ بِمَعزِلِ^(١)
فأجبتُها إن المنيّة منهلٌ لا بد أن أسقى بكأس المنهلِ^(٢)
فاقتنى حياءك لا أبالك واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل^(٣)
إن المنيّة لو تمثّل مُثَلَّتْ مثلى إذا نزلوا بضنك المنزلِ^(٤)
والخيلُ ساهمةُ الوجوه كأنما تُسقى فوارسها نقيع الحنظلِ^(٥)

فهو لا يستمع إلى تخويف صاحبه له مما قد يلقاه من المكارة والمتالف بسبب
تهافته على الحروب ، بل إنه ليصم أذنيه عن نداءها قائلاً لها إن المنيّة مورد كل إنسان
ولا بد أن أموت ، فليكن موتى شريفاً في ميدان الحروب . ويدعوها أن تصون
حياءها ، فهو ميت على كل حال ، وخير له أن يموت مناضلاً عن قومه مدافعاً
عن نساءهم وأطفالهم وضعفائهم . ولا يلبث إحساسه ببطولته أن يتضخم في نفسه ،
فإذا هو يتصور أن المنيّة لو خلقت في مثال لكانت في مثل صورته وخلقه ،
وهو يقتحم الصفوف ، والخيل ساهمة من هول الحرب ، والفرسان كالحية وجوههم
كأنما يشربون من نقيع الحنظل .

وقد طارت شهرة عنزة بالفروسية والشجاعة النادرة منذ الجاهلية ، وما زالت
ذكرها عالقة بأذهان العرب إلى اليوم ، فهو مثلهم الأعلى في البسالة والبطولة الحربية ،
وقد اتخذت من أخباره نواةً للملحمة المعروفة باسمه والتي يمكن أن تعدّ إلياذة
العرب ، وهو فيها يحارب في الجزيرة العربية وخارجها في الحبشة وإيران وبلاد الروم
والفرنج وشمال إفريقيا والأندلس ، وينازل الصليبيين ، وبذلك كانت هذه القصة
أو السيرة تلخص تاريخ العرب وملحمة فروسيتهم في الجاهلية وفي الفتوح الإسلامية
وبعد الفتوح في حروبهم مع الروم والصليبيين في الشرق والغرب .
ونحن لا نعتنى الآن بعنزة الأسطورة ، إنما نعتنى بعنزة الفارس الجاهلي الذي

(٤) الضنك : الضيق .

(٥) ساهمة : متغيرة .

(١) الحُتوف : المتالف .

(٢) منهل : مورد .

(٣) اقتنى : احفظى وصونى .

دوَّخ الأقران والأبطال في حروب داحس والغبراء ، وبذلك غسل مذمة ولادته ولونه وفسَّح شفتيه ، والذي لاشك فيه أنه كان على خلق عظيم وأنه كان يجمع إلى فروسيته المادية فروسية معنوية أو خلقية .

ولا بد أن نلاحظ بصفة عامة أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس أصحابها ضرباً من التسامى والإحساس بالمرودة الكاملة فإذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والحصال الحميدة ، وقرأ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض ووفائهم وحلمهم وأنفهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار . وهو جانب واضح في أشعار عنترة ، ونظن ظناً أنه نمَّاه عنده ما قصه الرواة من أنه طلب صَبْلَةً من عمه مالك فأبأها عليه لسواده ، ولأنه ابن أمة ، وقد ظل يتغنى بها طوال حياته تغنى المحب المحروم ، وهو تغن نستشف فيه غير قليل من الإحساس بالحزن واليأس . ومن ثمَّ كان يمكن أن يُعمدَ أباً لشعر الحب العذري عند العرب ، كما يعد فعلاً أباً للفروسية العربية بخصالها وخلالها النبيلة السامية التي استرعت أنظار الصليبيين ، فاتخذوا منها مثالا لفروسياتهم وما انطوى فيها من حب عُدْرى^(١) .

وَرَدَّ البَصَر في أشعار عنترة فستجده يأسر لبك بمثله الخلقية الرفيعة ، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه في سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغى على غيره ولا يحتمل البغى ولا يظلم ولكنه لا يستكين للظلم ، فإن ظلم تحول كالإعصار العاصف حتى يأتي على ظالمه . وقد يشرب الخمر ولكنها لا تفسد مروءته ، وإذا دعاه داعي المكرمات لبى باذلاً كل ما يملك عن طيب نفس ، يقول — في معلقته — مخاطباً ابنة عمه عبلة التي شغف قلبه بها حباً :

أثني على بما علمت فيأني سَمَحُ مُخالقتي إذا لم أظلم .
فإذا ظلمتُ فإن ظلمي باسلٌ مرُّ مذاقته كطعم العَلَقَمِ^(٢) .

بالفروسية ص ٤٤٦ وما بعدها .

(٢) باسل : كربه .

(١) انظر قصة الحضارة لول ديورانت الجزء الثالث من المجلد الرابع ، الفصل الخامس الخاص

وإذا شربتُ فإننى مستهلكٌ مالى ، وعِرضى وأفرُّ لمُ يكَلِّمْ^(١)
وإذا صحتُ فما أقصّر عن نَدَى وكما علمتِ شمائلى وتكرمى

ويتحدث إليها عن فروسيته وبسالته فى الطعن والنزال وصراع الأقران وكيف
ينصبُّ عليهم كالقضاء النازل أو كشواظ من نار يحرق ويُصْنَمى. ولا يلبث أن يعود
إلى الحديث عن كرم نفسه وشرف طباعه ، فيقول :

يخبرك من شهد الوقائع أننى أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم^(٢)

فهو يتقدم فى أهوال الحروب وخطوبها ، أما عند الأسلاب فيتردد ويحجم
ويتعفف وكأنه ليس صاحبها . إنه لا يحارب من أجل الأسلاب والغنائم ، وإنما
يحارب ليكسب لقومه شرف الانتصار . وما يزال يحدثنا فى شعره عن كرامته ،
وشعوره القوى بعزته وأنه لا يقبل الضيم والهوان ، يقول فى لاميته^(٣) :

ولقد أبيتُ على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكلي

فالجوع حتى الموت خير من الطعام الخبيث الدنى . وعلى هذه الشاكلة ما تزال
تلقانا فى أشعاره معان نبيلة ، وهى معان ارتفعت عنده إلى أروع صورة للنبل
الخلقى ، حتى لنراه يرقُّ لأقرانه الذين يسفك دماءهم ، يقول — فى معلقته —
وقد أخذته التأثير والانفعال الشديد لبطشه بأحدهم :

فشككتُ بالرمح الطويل ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرّم^(٤)

فهو يرفع من قدر خصمه ، فيدعوه كريماً ، ويقول إنه مات ميتة الأبطال
الشرفاء فى ساحة القتال . وكان يجيش بنفسه إحساس عميق نحو فرسه الذى يعايشه
ويعاشره حين تنال منه سيوف أعدائه ورماحهم ، يقول مصوراً آلامه وجروحه
الجسدية وقروحه النفسية :

والطوى : ضمور البطن ، ويريد به الجوع
الشديد .

(٤) يريد بالثياب جسده ويدنه .

(١) يكلم : يجرح .

(٢) الوغى : الحرب .

(٣) مختار الشعر الجاهل للسقا ص ٣٨٧ ،

فازورٌ من وقَّع القنا بِلَبَّانِهْ وشكا إلى بَعْبِرَةٍ وَتَحْمَحُمُ^(١)
لو كان يَذْرَى ما المحاورَةُ اشتكى ولكن لو عَلِمَ الكلامَ مُكَلِّمِي

وكأنما فرسه بضعة من نفسه . وبهذه الرقة والرحمة كان يعامل النساء سبيات
وغير سبيات ، فإذا سبي امرأة لم يقربها إلا بعد أداء صداقها إلى أهلها . وكما للسبية
حُرْمَتها كذلك لامرأة جاره ، وخاصة إذا كانت زوجة صديق ، فإنه يَغْضُ
طرفه عنها ولا يُتَّبِعُها قلبه وهواه ، يقول^(٢) :

ما استمت أنثى نفسها في موطنٍ حتى أوفى مَهْرَها مولاها^(٣)
أَغْشَى فتاة الحي عند حَلِيلِها وإذا غَزَا في الحرب لا أغشاها^(٤)
وأغض طَرْفِي ما بدت لي جارتي حتى يوارى جارتي مأواها
إني امرؤ سَمَحُ الخليفة ماجدٌ لا أتْبِعُ النفسَ اللَّجُوجَ هواها

وعنزة بهذا كله يصور لنا المروءة الجاهلية الكاملة ، وهي مروءة طرَّزها حب
عذري عفيف لابنة عمه عبلة ، وحقاً إن هذا الحب إنما شاع في بوادي نجد في أثناء
العصر الأموي ، بسبب المعاني الروحية التي بثَّها الإسلام في نفوس العرب ،
وهو لم يشع في الجاهلية ، إنما ظهر عند بعض الأفراد من الفرسان مثل عنزة ،
فقد كان يتسامى لا في خلقه فحسب ، بل أيضاً في حبه ، وقد جعله ذلك يستشعر
غير قليل من الأسى والحزن حين رفض عمه يده ، فلم يزوجه من ابنته . ومضى يحبها
حباً عنيفاً ، أو قل حباً يائساً محروماً فيه طهارة النفس ونقاؤها وفيه الفؤاد الملدِّع
الذي يكظم حزنه فتفضحه عبراته ، يقول^(٥) :

أفمن بكاءٍ حمامةٍ في أَيْكَةٍ ذرفت دموعك فوق ظهر المِحْمَلِ^(٦)

-
- | | |
|---------------------------------------|------------------------------------|
| (١) ازور : مال وانحرف . اللبان : | (٤) أغشى : أزور . |
| الصدر . التحمحم . صهيل فيه شبه الأنين | (٥) مختار الشعر الجاهل ٣٨٧ . |
| (٢) مختار الشعر الجاهل ص ٤٠٩ . | (٦) أَيْكَة : شجرة . ذرفت : سالت . |
| (٣) استام المرأة : راودها عن نفسها . | المحمل : علاقة السيف . |
| الموطن هنا : موطن القتال . | |

فالحمام يهيجه كما يهيجه النسيم الذى يهب من صَوْبِهَا ، وكما تهيجه الرسوم والأطلال ، إذ يعبث الحنين بعقله وبقلبه ، يقول فى معلقته :

حُيِّتَ من طَلَلٍ تقادِمَ عهدُهُ أقوى وأقفرَ بعد أمِّ الهَيْثَمِ (١)
ولقد نزلتِ - فلا تَظُنِّي غيره - منى بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَمِ

ودائماً نراه يعبر عن ظمأ شديد إلى رؤيتها ، لا لغاية حسية ، ولكن ليمتع طرفه بجمالها . ومن أهم ما يلاحظ عنده أنه يقدم لها فى معلقته وغير معلقته مغامراته الحربية ، فمن أجلها يحارب ويستبسل فى القتال ، ومن أجلها يذود عن قومه ويحمى حماهم ، ومن أجلها يسوق كل مناقبه ومحامده . وكان حين يشتد القتال يلمع خيالها أمام عينيه فيندفع كالثور الهائج ، يقول :

ولقد ذكرتكَ والرِّمَاحُ نواهلُ منى وببيضُ الهندِ تقطُرُ من دى
فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها لمعت كبارقِ ثغركِ المتبسِّمِ

فهو دائم الذكر لها فى وغى الحرب ، حتى حين تعبث به سيوف أعدائه ورماحهم ، إنه من أجلها يحارب ويخاطر ويغامر ، فلا غرو أن يذكرها فى ساعات القتال الحرجة ، فإذا هو يتحول إلى أسد ضار لا يعبس ، بل يبتسم ، لأنها تراءى له من خلال بريق السيوف ، فيؤمن بأنه منتصر .

وعلى هذا النحو تكاملت الفروسية عند عنتره ، فلم تصبح فروسية حربية فجسب ، بل أصبحت فروسية خلقية سامية ، فيها الحب الطاهر العفيف الذى يجعل من المحبوبة مثلاً أعلى والذى يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تتم عن صفاء النفس ونقاء القلب ، وفيها التسامى عن الدنايا والنقائص الذى يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق . ويقال إنه قُتل فى غارة له على بنى نَبْهَانِ الطائيين بعد أن تقدمت به السن ، إذ أصابه أحد رماتهم بسهم من سهامه ، ويقال بل مات حتف أنفه (٢) .

(١) أقوى وأقفر : خلا ممن كان يسكنه . (٢) انظر الأغاني ٨ / ٢٤٥ .

الصعاليك (١)

الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق . ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات : مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحسد أدية وأبي الطمحان القيسني ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ، ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السُلَيْك بن السُلَيْكة وتأبط شراً والشَّنْفَرى ، وكانوا يَشْرُكون أمهاتهم في سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب ، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً ، حينئذ قد تكون أفراداً مثل عُرْوَة بن الورد العبسي ، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هُدَيْل وفَهْم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي .

وتتردد في أشعارهم جميعاً صيحات الفقر والجوع ، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء ، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو حتى ليسمون بالعدائين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو ، فيقال : « أعدى من السُلَيْك » و « أعدى من الشَّنْفَرى » وتُروى عنهم أقاصيص كثيرة في هذا الجانب ، من ذلك ما يقال عن تأبط شراً من أنه « كان أعْدَى ذى رِجْلَيْن وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الأطباء ، فينتقى على نظره أسنمها ، ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته ، حتى يأخذه فيذبجه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله » (٢) . وكما كانوا يحسنون العدو كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها ، ويقال إنه كان للسليك فرس يسمى النَحَام (٣) ،

(٢) الأغاني ١٨/٢١٠ .

(٣) ذيل الأمل للقال ص ١٨٨ .

(١) راجع بحثاً في الشعراء الصعاليك ليوسف

خليف (طبع دار المعارف) .

وللسنفرى فرس يسمى اليَحْمُوم^(١)، أما اسم فرس عروة بن الورد فقَرْمَل^(٢).
وكانوا يغيرون أحياناً فرادى وأحياناً فى جماعات .

وكانت أكثر المناطق التى يغيرون عليها مناطق الحصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة ، ومعنى ذلك أنهم كانوا ينتشرون حولها فى جبال السَّراة كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية فى كل هذه الجهات يكثر هؤلاء الذؤبان من قطاع الطرق وقراصنة الصحراء . وهم فى أشعارهم يتغنون بمغامراتهم ونراهم فى أثناء ذلك يتمدحون بالكرم كما نرى فيهم كثيراً من البر بالأقارب والأهل ، وأيضاً فإننا نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة فى الحياة ، ويصور لنا ذلك أبو خيراش الهذليّ فيقول^(٣) :

ولم يذهب لم يذنب ثيابي ولا جرمي ^(٤)	ولم يأت لأثوى الجوع حتى يملني
إذا الزاد أمسى للمزلاج ذا طعم ^(٥)	وأغتبى الماء القراح فأنتهى
وأثر غيري من عيالك بالطعم	أردُّ شجاع البطن قد تعلمينه
وللموت خير من حياة على رغم	مخافة أن أحيّا برغم وذلة

فهو يفتخر لزوجته بأنه يصبر على الجوع ، حتى ينكشف عنه ، دون أن يلحقه فيه ضيم ، وإنه ليكفيه الماء القراح بينما يتخيم من حراره أشقاء النفوس بالطعام ، أما هو فحتى إن وجد الطعام أثر به عياله وأولاده . وكل ذلك يصنعه حتى لا يوصم بعار الذل . وسرى عما قليل عروة بن الورد يعبر عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالاً عن مثالية عنترة . وكأنما تحولت الصعلكة فى أواخر العصر الجاهلى إلى نظام يشبه نظام الفروسية ، وهى حقاً تقوم على السلب والنهب ، ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيلاً كريماً ، وأقرأ فى صعليك هذيل من مثل أبى كبير والأعلم فى السليك وتأبط شرّاً وغيرهم فستجد للصعلوك مثاليته فى الحياة أو على

(١) ديوانه المطبوع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٤٠ .

(٢) ديوانه (طبع الجزائر) ص ١٢٠ .

(٣) ديوان الهذليين (طبعة دار الكتب

المصرية) ١٢٧/٢ والأغاني ٤٢/٢١ .

(٤) أثوى : أطيل حبسه .

(٥) أغتبى : أشرب عشاء . القراح :

الصافي . المزلاج : البخيل .

الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقاً رفيعاً من البير، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة . ونقف قليلاً عند أكثرهم دوراناً على الألسنة ، وهم تأبط شرّاً والشنفرى وعروة بن الورد .

أما تأبط شرّاً فن قبيلة فهم واسمه ثابت ^(١) بن جابر بن سفيان ويعد في أغربة العرب ، إذ كان ابن أمة حبشية سوداء ، فورث عنها سوادها ، وقيل بل أمة حرة من فهم تسمى أميمة . واختلاف القدماء في تعليل لقبه «تأبط شرّاً» فقيل لقبته به أمه إذ تأبط سيفاً وخرج ، فلما سُئِلت عنه قالت : تأبط شرّاً ومضى لوجهه ، وقيل بل سمته أو لقبته بذلك لأنها رآته يتأبط جراباً مليئاً بالأفاعى . وربما كانت قبيلته هي التي لقبته بهذا اللقب لكثرة ما كان يرتكب من جنایات وجرائر ، أى إنه يحمل دائماً في أطوائه شرّاً يريد أن ينقذه . ويظهر أن أباه مات وهو صغير ، فتزوجت أمه بأبي كبير الهدلى ، وكان صعلوكاً كبيراً ، فخرّجه على شاكلته ، وربما كان لسواده وتغيير عشيرته له به وبأنه ابن أمة أثر في تصعلكه . وكان يرافق الشنفرى في كثير من غاراته كما كان يرافقهما صعلوك آخر يسمى عمرو بن براق . وليس له ديوان شعر مطبوع ، غير أن له أشعاراً كثيرة منشورة في كتب الأدب ، وتُرْوَى له مغامرات مختلفة ، وهي مطبوعة بطابع القصص الشعبي ، مما أتاح للانتحال أن يلعب دوراً واسعاً فيما نُسب إليه من أشعار ، فن ذلك لاميته التي أنشدها أبو تمام في حماسته يرثى بها خاله والتي تسهل بقوله : « إن بالشعب الذى دون سلع » فقد ذكر الرواة أنها مما نحله إياه خلف الأحمر ^(٢) . ويمكن أن ندخل في هذا الباب من الانتحال ما يُروى له من أشعار يقص علينا فيها لقاءه للجنّ أو للغول . وقد روى له صاحب المفضليات قصيدة طويلة جعلها فاتحة كتابه ، وهو يستهلها بالحديث عن الطيف ، ولا يلبث أن يحلثنا عن إحدى غاراته أو مغامراته الفاشلة مع صديقيه الشنفرى وعمرو بن براق على بجيلة في الطائف ، إذا أرصدوا لهم كميناً على ماء أوثقهم غير أنه وصاحبيه دبروا حيلة بارعة ، نسجوا بها عتدوا على الأقدام ، ويصور لنا عدوه وشدة السريع حينئذ فيقول :

(٢) انظر تعليق التبريزى على القصيدة في

شرحه لديوان الحماسة .

(١) انظر ترجمته في الأغاني ٢٠٩/١٨ والشعر

والشعر ٢٧١/١ وشرح شواهد المغنى للسيوطى

ص ١٩ ، ٤٣ والخزانة ٦٦/١ .

ليلةً صاحوا وأغروا بي سراعهم^(١) بالعيكتين لدى معدى ابن براق^(٢)
 كأنما حثحثوا حصاً قوادمه^(٣) أو أم خشف بذي شت وطباق^(٤)
 لا شيء أسرع مني ليس ذا عذر^(٥) وإذا جناح بجانب الريد خفاق^(٦)
 حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى^(٧) بواله من قبض الشد غيداق^(٨)

وواضح أنه يذكر كيف فات عدائي بجيلة ليلة صاحوا به وأسرعوا من خلفه هو وصاحبه ابن براق ، ويقول إنهم أثاروه حتى غدا أسرع من الظليم والظبية ، وحتى أصبحت الخيل الجياد لا تلحق شأوه ، بل حتى الطير أصبحت تقصر عن عدوه ، وكأنما جن جنونه. ويمضي في رسم لنا صورة الصعلوك من أمثاله الذي يقدره ويحلّه ، قائلاً :

لكنما عولى إن كنت ذا عول^(٩) على بصير بكسب الحمد سباق^(١٠)
 سباق غايات مجد في عشيرته^(١١) مرجع الصوت هداً بين أرفاق^(١٢)
 عارى الظنابيب ممتد نواشره^(١٣) مدلاج أدهم واهى الماء غساق^(١٤)
 حمال ألوية شهاد أندية^(١٥) قوال مُحَكِّمة جواب آفاق^(١٦)
 فذاك همى وغزوى أستغيث به^(١٧) إذا استغثت بضافى الرأس نعاق^(١٨)

كالعويل .

- (١) العيكتان : موضع . معدى : عدو .
 (٢) حثحثوا : حركوا وأثاروا . القوادم : ما يلي الرأس من ريش الجناحين . الحص : جمع أحص وهو ما تنثر ديشه وتكسر لسرعته ، يريد بذلك الظليم . الخشف : ولد الظبية . الشث والطياق : من نباتات الصحراء .
 (٣) ذا العذر : الفرس . والعذر : ما أقبل من شعر الناصية على الوجه . وإذا جناح : يريد الطير . الريد : حرف الجبل .
 (٤) السلب : ما يسلب في الحرب . الواله : ذاهب العقل . القبيض : السريع . الشد : العدو . غيداق : واسع .
 (٥) العول : الاستغاثة ، وأصله رفع الصوت .
 (٦) مرجع الصوت : يعيخ آمراً ناهياً . أرفاق : رفاق . الهد : الصوت الغليظ .
 (٧) عارى الظنابيب : خفيف اللحم ، وأصل الظنوب عظم الساق . النواشر : عروق ظاهر الذراع . تمتد النواشر كناية عن طول الذراع واكتمال الخلق . الأدهم : الليل . واهى الماء : مطره شديد . غساق : شديد الظلمة .
 (٨) المحكمة : الكلمة الفاصلة .
 (٩) غزوى هنا : مقصدي . ضافى الرأس : كثير الشعر لا يتعاهده لكثرة غزوه . نعاق : يكثر من الصياح .

- (١٠) على بصير : بكسب الحمد سباق^(١١) مرجع الصوت هداً بين أرفاق^(١٢) مدلاج أدهم واهى الماء غساق^(١٣) قوال مُحَكِّمة جواب آفاق^(١٤) إذا استغثت بضافى الرأس نعاق^(١٥)

فهو إنما يعوّل على هذا الصعلوك المثالي الذي يشركه في غزواته والذي يتصف بسبقه إلى المحامد في عشيرته ، كما يتصف بجهارة صوته وزعامته بين الرفاق وبضمور جسمه وقوته وصلابته وجراته في اقتحام الليالي المظلمة الممطرة حتى إذا كانت الحرب كان المقدم فيها الذي يحمل لواءها ، وإذا كانت السلم كان ذا رأى صائب يتردد في مجالس العشيرة وأنديتها . ولا ينسى أن يضيف إلى هذه الخصال خصلة الكرم ، ويجعلها حواراً بينه وبين شخص يعذله على كثرة كرمه وإفراطه فيه ، حتى إنه لا يبقى على شيء لغده ، ويزجره زجراً شديداً ، يقول :

بَلْ مَنْ لَعْدَالَةٍ خَذَالَةٍ أَشْبِ حَرَقَ بِاللُّومِ جِلْدِي أَيْ تَحْرَاقِ^(١)
يقول أهلك ما لا لو قنعت به من ثوبِ صِدْقٍ ومن بَزٍّ وَأَعْلَاقِ^(٢)
عاذلتني إن بعض اللوم مَعْنَفَةٌ وهل متاعٌ وإن أبقيتُه باقِ^(٣)

ولعل في هذه الأبيات وما سبقها ما يدل في وضوح على أن الصعلوك الذي كان يقطع الطريق في الجاهلية كانت تنعكس عليه أحياناً صفات الفروسية وما بعثت لعصره من سمو في الأخلاق . وما زال تأبط شرا يقوم بمغامراته حتى قُتل في إحدى غاراته بمنازل هُدَيْل .

أما الشَّنْفَرَى فكان من عشيرة الإواس^(٤) بن الحجر الأزدية اليمنية ، فهو قحطاني النسب ، ويدل اسمه ، ومعناه الغليظ الشفاه^(٥) ، أن دماء حبشية كانت تجري فيه من قبل أمه ، فهي أمة حبشية ، وقد ورث عنها سوادها ولذلك عُدَّ في أغربة العرب . ولا نراه ينشأ في قبيلة الأزد ، إنما ينشأ في قبيلة فَهْم ، ويضطرب الرواة في سبب نزوله مع أمه وأخ له بها ، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه ، فتحولت أمه عنها إلى بني فهم ، ومما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزواته بني سلامان الأزديين معلناً في أشعاره أنه يقتصّ لنفسه منهم . ويقال

(٤) انظر في ترجمة الشنفرى الأغاني (طبع الناسي) ٨٧/٢١ وخزانة الأدب ١٤/٢ وما بعدها وشرح المفضليات لابن الأنباري ١٩٥ وما بعدها وذيل الأملاني ص ٢٠٨ وما بعدها ، والشعراء الصعاليك ص ٣٢٨ .
(٥) خزانة الأدب ١٦/٢ .

(١) العذالة : كثير العذل . الخزالة : كثير الخذلان لصاحبه . أشب : معترض . يريد من يعينني على هذا العذالة .
(٢) ثوب صدق : ضد ثوب سوء . البز : الثياب والسلاح . الأعلاق : كرائم المال .
(٣) معنفة : عنف .

إن الذي رَوَّضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرا ، فكان يغير معه ، حتى صار لا يُقام لسبيله^(١). وما زال يغير على الأزد ، وينكل بها ، حتى قَتَلَ ، فيما يقص الرواة ، تسعة وتسعين ، انتقاماً لأبيه . وأخيراً يرصدون له كميناً ، فيقع فيه ، ويمثلون به تمثيلاً فظيماً ، يقطعون فيه جسده تقطيعاً ، ويرمون به للسباع . ويقال إن رجلاً عثر بجمجمته ، فعقرته ، فمات . وبذلك يبلغ قتلاه من الأزد مائة . وخبوط الأسطورة واضحة في مقتل الرجل المكمل للمائة ، وتلعب هذه الخيوط في أخباره جميعاً كما تلعب في أخبار تأبط شرا رفيقه .

وللشنفرى ديوان شعر صغير طُبِعَ في لجنة التأليف والترجمة والنشر بمجموعة الطرائف الأدبية ، وما اشتهر له لامية العرب ، وهي مما نُحِلَ عليه ، فقد نصَّ الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر^(٢) ، وقد أحكم صناعتها وساق فيها اسم موضع في جنوبي اليمن هو إحاطة ليدل على أن قائلها كان يتجول في هذه الأنحاء ، وحتى يكون ذلك أدعى إلى تصديقها والثقة بها . وهي تصور تصويراً حياً حياة الصعلوك الجاهلي وروحه البدوية الوحشية . وبجانب هذه القصيدة المنتحلة نجد له قصيدته الثائية الطويلة التي رواها المفضل في مفضلياته ، ثم مجموعة من المقطوعات ، ويبدو في أشعاره على شاكلة تأبط شرا هزيعاً نحيلاً يلبس ثياباً بالية ونعلاً ممزقة . ولو لم يصلنا إلا تائيته لكان ذلك كافياً في تصور حياته ومغامراته ، وقد سبق أن تمثلنا بأبيات منها في وصف زوجته أميمة نعتها فيها بأخلاقية مثالية ممتازة ، ثم مضى يصف غارة أغارها على بني سلامان في جدمع من رفاقه الصعاليك وعلى رأسهم تأبط شرا ، ونراه في مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذي سلكوه ، وأنهم كانوا راجلين ، يقتحمون الصعاب ، غير هيايين ولا وجيلين ، يقول :

وَمَنْ يَغْزُ يَغْنَمُ مَرَّةً وَيُشَمَّتْ^(٣)
وبين الجبَا ، هيهات ، أنشأت سُربَتِي^(٤)

وباضعة حُمُرِ القِيسِيِّ بعثتها
خرجنا من الوادي الذي بين مشعل

(١) تحمر لقدمها وطول تعرضها للشمس . يشمت : يخيب ويفشل .
(٢) (٤) مشعل والجبَا : موضعان . السربة : الجماعة . أنشأت : أظهرت من مكان بعيد .

(١) شرح المفضليات ص ١٩٦ وما بعدها .
(٢) الأما للقال (الطبعة الأولى) ١٥٧/١ .
(٣) باضعة : قاطعة . ويريد بها رفاقه الصعاليك ، بعثتها : غزوت بها . حمر القسي ، يقال إنها

أَمْشَى عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي لَن تَضُرَّنِي لَأُنْكِي قَوْماً أَوْ أَصَادِفُ حُمْتِي^(١)
أَمْشَى عَلَى أَيْنِ الْغَزَاةِ وَبُعْدَهَا يَقْرُبُنِي مِنْهَا رَوَاحِي وَغُدْوَتِي^(٢)

وهو يعترف في البيت الأول بأنهم قد يرجعون خائبين أو مهزومين من غارتهم أو غزوتهم ، ولكن ذلك لا يردهم عن الغزو ، بل يدفعهم دفعاً إليه ، فهم لا يتهيبون الموت ولا وعشاء الطريق . ويصور لنا كيف كان تأبط شرا يحمل زادهم ويقتصر عليهم في الطعام خيفة أن تطول الغزاة بهم فيموتوا جوعاً ، ويقص علينا ذلك في مداعبة طريفة له ، إذ يدعوهم أمهم ، وهو وأصحابه عيالها ، يقول :

وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدَتْ تَقْوَتَهُمْ إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ أَوْتَحَتْ وَأَقْلَتْ^(٣)
تَخَافُ عَلَيْنَا الْعِيْلَ إِنْ هِيَ أَكْثَرَتْ وَنَحْنُ جِيَاعٌ ، أَيَّ آلٍ تَأَلَّتِ^(٤)
مُصْغِلِكَةً لَا يَقْصُرُ السُّتْرُ دُونَهَا وَلَا تُرْتَجَى لِلْبَيْتِ إِنْ لَمْ تُبَيَّتِ^(٥)
لَهَا وَفْضَةٌ فِيهَا ثَلَاثُونَ سَيْحِفًا إِذَا آذَنْتِ أُولَى الْعَدِيِّ اقْشَعَرَّتِ^(٦)
وَتَأْتِي الْعَدِيَّ بَارِزًا نِصْفُ سَاقِهَا تَجُولُ كَعَيْرِ الْعَانَةِ الْمُتَلَفَّتِ^(٧)
إِذَا فَزَعُوا طَارَتْ بِأَبْيَضٍ صَارِمٍ وَرَامَتْ بِمَا فِي جَفْرِهَا ثُمَّ سَلَّتِ^(٨)
حُسَامٍ كُلُّونِ الْمِلْحِ صَافٍ حَدِيدُهُ جُرَازٍ كَأَقْطَاعِ الْغَدِيرِ الْمُنْعَتِ^(٩)
تَرَاهَا كَأَذْنَابِ الْحَسِيلِ صَوَادِرًا وَقَدْ نَهَلَتْ مِنَ الدِّمَاءِ وَعَلَّتِ^(١٠)

النصل . العدى : العداءون أو الرجال .
اقشعرت : تهيأت للقتال .
(٧) بارزاً نصف ساقها : كناية عن الجدى الأمر .
العير : حمار الوحش . العانة : جماعة أنه الوحشية .
(٨) فزعوا : دهمهم محاربون وتهيأوا لقتالهم .
أبيض صارم : سيف قاطع . الجفر : الجمبة .
رامت بمافيه أى بسيفها . سلت السيف : شهرته .
(٩) جراز : قاطع . أقطاع الغدير : قطع الماء فيه . شبه السيف بها في اللعان والبريق .
(١٠) الحسيل : جمع حسيلة . وهى أولاد البقر . والنهل : الشرب الأول والعلل : الشرب المكرر .

(١) لن تضرنى : لن يخيفنى بها شيء . أنكى .
العدو : أصيب منه . الحمة : المنية .
(٢) أمشى : إشارة إلى غزوه على رجله .
أين : تعب .
(٣) أم عيال هنا : تأبط شراً . تقوتهم : تطعمهم . أوتحت : أقلت وقوت .
(٤) العيل : الفقر وفقد الطعام . أى آل تألت : أى سياسة ساست من آله بمعنى ساسه .
(٥) مصعلكة بكسر اللام : صاحبة صعاليك .
لا يقصر الستر دونها : لا تغطى أمرها .
(٦) وفضة : جعبة . سيحف : سهم عريض

وواضح أنه ينتقل من تصوير شح هذه الأم بالطعام إلى بيان أنها ليست أمًا حقيقية ، فهي صاحبة صعايلك ، لا تتخذ الستر ولا تبين في الخيام ، ولها جعبة سهام ، تناضل بها عن أصحابها حين يفجئهم بعض الأعداء ، وما تزال ترعاهم رعاية حمار الوحش لأتفه ، حتى إذا دهمهم غزاة أو مغبرون بادرت إلى سهامها ، ثم نازلتهم هي ومن معها بسيوفهم القاطعة اللامعة التي تنهل من دماهم وتعل ، فتسرى وكأنها أذنان الحسيل ، وهي أولاد البقر المستأنسة . ووقف لآيل في ترجمته للمفضليات عند هذا التشبيه واتخذ منه دليلا على أصل الشنفرى وأنه يبنى حقًا ، لأن البقر المستأنس كما يقول لم يعرف عند العرب قديماً إلا في بلاد اليمن (١) .

ونمضى مع الشنفرى في القصيدة فإذا هو يحدثنا عن أهداف غارته وأنه كان يقصد بها بنى سلامان ، حتى يأخذ بثأره لأبيه ويشفى حقه وغليله ، يقول :

جَزَيْنَا سَلَامَانَ بْنَ مُفْرِجٍ قَرَضَهَا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ وَأَزَلْتَ (٢)
وَهُنَّى بِي قَوْمٌ وَمَا إِنْ هَنَأَتْهُمْ وَأَصْبَحْتُ فِي قَوْمٍ وَلِيسُوا بِمَنْبَتِي (٣)
شَفِينَا بِعَبْدِ اللَّهِ بَعْضَ غَلِيلِنَا وَعُوفٍ لَدَى الْمَعْدَى أَوْ أَنْ اسْتَهَلَّتْ (٤)
وإِنِّي لَحُلُوٌّ إِنْ أُرِيدْتُ حِلَاوَتِي وَمُرٌّ إِذَا نَفَسَ الْعُرُوفُ اسْتَمَرَّتْ (٥)

وهو يصرح بأنه جَزَى بنى سلامان بما قدمت أيديهم ، ويأسى أن يكونوا قومه ولا ينتفعوا به وببأسه ، وأن يقعد لهم ويقعدوا له ، لما بينه وبينهم من ثأر قديم ، ويحدثنا أنه شفى بعض غليله بقتله لرجلين منهم هما عبد الله وعوف ، ويقول إنه حاول لأصداقائه مر على أعدائه كأنه الحنظل . وهكذا كانت حياته غارات ومغامرات ، حتى أصاب أعداؤه منه مقتلا فقتلوه .

وثالث صعايلك الجاهلية المشهورين عروة بن الورد العبسى (٦) ، وكان أبوه

والمراد ساحة المعركة ، أو أن استهلت : في الوقت الذي ارتفعت فيه الأصوات للحرب .
(٥) العزوف : المنصرف عن الشيء .
استمرت : من المارة .

(٦) راجع في ترجمة عروة الأغاني (طبعة دار الكتب) ٧٣/٣ والشعر والشعراء ٦٥٧/٢ والخزانة ١٩٤/٤ والشعراء الصعايلك ص ٣٢٠ .

(١) راجع ترجمة المفضليات للآيل ٦٨/٢
(٢) أزلت : قدمت .
(٣) معنى الشطر الأول أن الأزديهنثون به ويشجاعته لأنه منهم وفي الوقت نفسه هو لا يهنئهم لأنهم لا ينتفعون به . وهو يشير في وضوح إلى أنه ينزل في بنى فهم وليس منهم .
(٤) الغليل في أصله حرارة العطش ، وهو هنا العطش إلى القتل . المعدي : موضع العدو ،

من شجعان قبيلته وأشرفهم ، ومن ثمَّ كان له دور بارز في حرب داحس والغبراء^(١) .
أما أمه فكانت من ذَهْد من قضاة ، وهي عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف ولا خطر ،
فأذى ذلك نفسه ، إذ أحس في أعماقه من قبيلها بعار لا يُمَحَى ، يقول^(٢) :
وما بي من عارٍ إخال علمته سوى أن أخوالى - إذا نُسبوا - نهْدُ

فهى عاره ، الذى حَلَّت البلية عليه منه ، والذى دفعه دفعاً إلى الثورة على
الأغنياء ، وهى ثورة كانت مهذبة ، إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد
يرود مجاهل الصحراء ، فقبيلته لم تخلعه ، بل ظل ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة
كانت تروع معاصريه ومن جاءوا بعدهم ، إذ اتخذ من صعلكته باباً من أبواب
المروءة والتعاون الاجتماعى بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها ، ومن أجل ذلك لُقِّبَ
عروة الصعاليك بلجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم وضائق بهم
الدنيا . وفي الأغاني « كان عروة بن الورد ، إذا أصابت الناس سنة (أزمة جلد)
شديدة وتركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف ، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس
من عشيرته في الشدة ، ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكشف عليهم الكُشف (الحظائر)
ويكسبهم . ومن قَوَى منهم - إما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته -
خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقيين في ذلك نصيباً . حتى إذا أخصب
الناس وألبسوا وذهبت السنة ألحق كلَّ إنسان بأهله ، وقسم له نصيبه من غنيمة إن
كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سُمى عروة
الصعاليك^(٣) » . وفي خبر آخر أن عبساً كانت إذا أجذبت أتى ناس منها ممن
أصابهم جوع شديد وبؤس فجلسوا أمام بيت عروة ، حتى إذا أبصروا به صرخوا ،
وقالوا أيا أبا الصعاليك أغثنا ، فكان يرق لهم ويخرج بهم فيصيب معاشهم^(٤) .

وعروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة ، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب
كالشَّنْفَرى وتأبط شرا ، وإنما يغزوليعين الهلَّالَ والفُقراء والمرضى والمستضعفين من
قبيلته ، والطريف أنه لم يكن يُغِير على كريم يبذل ماله للناس ، بل كان يتخير

(١) أغاني ٨٨/٣ .

(٢) ديوانه ص ١٥٧ .

(٣) أغاني ٧٨/٣ وما بعدها والشعر والشعراء

٦٥٧/٢ .

(٤) أغاني ٨١/٣ .

لغارتهم من عُرِفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج في قبائلهم ، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقاً من حقوق أقوامهم^(١) . وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضرباً من ضروب النبل الخلقى ، وكأنها أصبحت صنواً للفروسية ، بل لعلها تتقدمها في هذه الناحية من التضامن الاجتماعى بين الصعلوك والمعوزين في قبيلته . وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشيء على من يرعاهم من صعلائكه ، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف . وهو يضرب بذلك مثلاً رفيعاً في الرحمة والشفقة والبذل والإيثار .

وعروة ديوان برواية ابن السكيت ، طُبع مراراً ، في جوتنجن والجزائر والقاهرة وبيروت ، وتردُّ أشعاره فيه هذه المعاني الكريمة التى قدمناها ، وهى معان جعلت معاصريه ومن جاءوا بعدهم يعجبون به إعجاباً شديداً ، فقد كانت قبيلته تأتمُّ به فى خلالة وخصاله ، وكان معاوية يقول : « لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم^(٢) » أما عبد الملك بن مروان فكان يقول : « من زعم أن حاتماً أسمع الناس فقد ظلم عروة بن الورد^(٣) » وكان يقول أيضاً : ما يسرُّنى أن أحداً من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة بن الورد لقوله :

إنى امرؤ عافى إنائى شُرْكةً وأنت امرؤ عافى إنائك واحد^(٤)
أتهزأ منى أن سمئت وأن ترى بجسمى شحوب الحق ، والحق جاهد^(٥)
أفرق جسمى فى جسم كثير وأحس قراح الماء ، والماء بارد^(٥)

وعروة يعبر عن معنى إنسانى رفيع ، إذ تعرض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضْنى هزيل شاحب اللون ، فقال له : إننى يشركنى كثيرون من العفاة والسائلين ذوى الحاجة فى إنائى أو طعامى ، أما أنت فلا يشركك أحد ، ولذلك سمئت أما أنا فأصبحت ضامراً نحيلاً ، وما شحوب وجهى إلا أثر من آثار نهوضى بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين ، فليست أنا الخلق بالخرؤ والسخرية ، إنما الخلق بذلك السمين

بقوله : عافى إنائك واحد أنه يأكل وحده .
(٥) حسا الماء : شربه شيئاً بعد شىء . القراح : الخالص الذى لا يخالطه لبن ولا غيره .

(١) أغاني ٨١ / ٣ .
(٢) أغاني ٧٣ / ٣ .
(٣) أغاني ٧٤ / ٣ .
(٤) العافى : طالب المعروف . ويريد

البسطيين . وما لبث أن قال : إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جسومهم ، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد ، على حين يعصف الشتاء بزمهريره . والذي لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل في البير والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء . ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعي في أصمعياته^(١) ، وهي بذلك من أوثق شعره وأصدق . وهو يستلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلمى التي تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته في الغزوات والغارات ، وقد ردت عليها بأنه ينبغي حسن الأحذوثة وبقاءها ، وأنه إنما يرمى بنفسه في المهالك من أجلها ، حتى يغنيها ، وحتى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان ، وهي تماريه شفقة عليه :

تقول : لك الويلات هل أنت تارك ضبوءاً برجل تارة ويمنسر^(٢)

فهى تقول له إنك لن تنهى عن غاراتك بالصعاليك من الراجلين تارة ومن الفرسان تارة ثانية ، وحرى بك أن تكف عن ذلك ، حتى لا تلقى حتفك ، ويرد عليها :

أبى الخفض من يغشاك من ذى قرابة ومن كل سوداء المعاصم تغترى^(٣)
ومستهنىء ، زيد أبوه ، فلا أرى له مدفعاً ، فاقنى حياءك واضبرى^(٤)

فهو لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد زوجه ، لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته ، ونسائها المعوزات ، والنفقة ، طالب العطاء من الضعفاء ، فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً . ويعرض عليها صورتين للصعلوك ، صورة رديئة ، وصورة جيدة ، أما الصورة الأولى ففيها يترأى الصعلوك خاملاً ، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة ، لا يهتم أهله ولا عياله

(١) الأصمعيات (طبع دار المعارف)

ص ٣٥ .

(٢) ضبوء : غزو . رجل : جمع راجل ضد راكب . المنسر كجلس ومنبر : الجماعة من الخيل بين الثلاثين والأربعين .

(٣) الخفض : الدعة ولين العيش . ويريد

بسوداء المعاصم التي أجهدتها الجوع والهزال . تغترى : تغشى .

(٤) مستهنىء : طالب للهنء وهو العطاء ، وزيد من أجداد عروة يريد أنه قريبه . اقنى حياءك : صونيه واحفظه .

ولا قوتهم ، يقول :

لَحَى اللَّهُ صُغْلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ مُصَافِي الْمُشَاشِ آلِفًا كُلَّ مَجْزَرٍ (١)
يَعُدُّ الْغِنَى مِنْ دَهْرِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مَيْسَرٍ (٢)
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ قَاعِدًا يَحُثُّ الْحَصَا عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَغَفَّرِ (٣)
يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعْنُهُ فَيُضْحِي طَلِيحًا كَالْبَعِيرِ الْمُحْسَرِ (٤)

وواضح أنه ينعمه بأنه ضعيف المهمة فحسبه لقمة تشبعه ، مما يتساقط من فضلات
الموسرين ، وإنه لينام ملء جفونه فليس هناك ما يشغله ، وحتى هو في النهار
ليس هناك ما يعمل به سوى خدمة النساء ، فهو ذليل مهين يعيش عائلة على مجتمعه .
ومثل هذا الصعلوك جدير بكل ملامة ، لأنه يتحيا حياة وضيفة . أما
الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة ،
يقول في وصفه :

وَلِلَّهِ صَعْلُوكٌ صَحِيفَةٌ وَجْهُهُ كَضَوْءِ شِهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ (٥)
مُطِلًّا عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ الْمَنِيحِ الْمُشْهَرِ (٦)
وَأِنْ بَعُدُوا لَا يَأْمَنُونَ اقْتِرَابَهُ تَشَوُّفُ أَهْلِ الْغَائِبِ الْمُتَنْظَرِ (٧)
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ يَلْقَاهَا حَمِيدًا ، وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْمًا فَأَجْدِرِ

فهذا هو الصعلوك الذي يعجب به عروة ، صعلوك وجهه مشرق بأعماله الحميدة ،
لا يزال يطل على أعدائه ويشرف عليهم ، فيظفر منهم بكل ما يريد ، على الرغم من
صياحتهم به وزجرهم له . وهم مهما بعدوا لا يأمنون غزوه ، بل إنهم لينتظرونه

أو يأخذها . المتنور : المضيء .
(٦) مطلا : مشرقا . يزجرونه : يصيحون
به كما يزجر القدح إذا ضرب . المنيح :
قدح سريع الخروج ولا نصيب له . المشهر :
المشهور .
(٧) تشوف : تطلع . المتنظر : المنتظر
قدومه .

(١) لحي : قبح ولمن . المشاش : روس
العظام اللينة . المجزر : موضع الجزر .
(٢) قراها : طعامها . ميسر : غنى
كثرت إبله .
(٣) يحث : يحرك .
(٤) الطليح : المعبي ، ومثله المحسر .
(٥) صحيفة الوجه : بشرته . الشهاب : شعلة
ساطعة من النار . القابس : الذي يقبس النار

انتظار أهل الغائب له ، علماً منهم بأنه لابد راجع إليهم ومصيب منهم . ويقول إن مثل هذا الصعلوك المغامر الجريء إن يمت تظل ذكراه خالدة لمحامده ومناقبه . ويمضى فيحدثنا عن غزواته وغاياتها ، يقول :

أَيْهَلِكْ مُعْتَمٌ وَزَيْدٌ وَلَمْ أَقُمْ عَلَى نَدَبٍ يَوْمَ أُولَى نَفْسٍ مُخْطَرٍ^(١)
 سَتْفَزِعُ بَعْدَ الْيَأْسِ مَنْ لَا يَخَافُنَا كَوَاسِعُ فِي أُخْرَى السَّوَامِ الْمُنْفَرِ^(٢)
 نَطَاعِنُ عَنْهَا أَوَّلَ الْقَوْمِ بِالْقَنَاءِ وَبَيْضُ خِفَافٍ وَقَعْنُ مَشْهَرٍ^(٣)
 وَيَوْمًا عَلَى غَارَاتِ نَجْدٍ وَأَهْلِهِ وَيَوْمًا بِأَرْضِ ذَاتِ شَثٍ وَعَرَعَرٍ^(٤)
 يُرِيحُ عَلَى اللَّيْلِ أَضْيَافَ مَاجِدٍ كَرِيمٍ وَمَالِي سَارِحًا مَالُ مُقْتَرٍ^(٥)

وهو في أول هذه الأبيات يستنكر أن تهلك عشيرتنا معتم وزيد ، وهو قاعد في الحى ، لا يخاطر بنفسه من أجلهما فذلك عار ما بعده عار . لقد خُلِقَ لرعاية الضعفاء والهلألك من قبيلته ، وهو لذلك لابد مقتحم مع رفاقه من الصعاليك الفرسان حيمى بعض القبائل ليسوقوا منها ما يشاءون من الإبل السائمة ، وهم يهجمون تارة في الحجاز وتارة في نجد . وكل ذلك حتى يغنم ما يقدّمه لضيافته ، وكم يغنم ! إلا أنه لا يُبْقَى على شيء في يده ، فماله مال مقتر أو فقير مقل .

والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً ، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة ، إذ كان يستشعر في قوة فكرة التضامن الاجتماعى وما يطوى فيها من إيثار وبرٍّ بالفقراء ، فهو لا يسعى لنفسه فحسب ، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء .

ورواية الديوان : ذات لون مشهر ، ولو صحت لم يكن في البيت إقواء .
 (٤) الشث والععر : من أشجار البادية .
 (٥) يريح : يرد . ويقصد بالماجد الكريم نفسه ، كما يقصد بماله إبله . سارحاً : سائماً في المرعى . مقتر : فقير مقل .

(١) معتم وزيد : بطنان من عبس . ندب : خطر .
 (٢) كواسع : خيل تطرد إبلًا وتكسها .
 السوام : الإبل السائمة . أخرى : آخر .
 المنفر : المذعور .
 (٣) بيض : سيوف . وفى البيت إقواء .

شعراء آخرون

مرّ بنا في غير هذا الموضع أن جماعات من اليهود نزلت في أواخر القرن الأول للميلاد وأوائل الثاني بالمدينة والواحات المنتشرة في شمالها بالحجاز مثل فدك وخيبر ووادي القرى وتيسمساء ، واضطرتهم مواطنهم الجديدة إلى تعلم العربية ، وإن ظلوا على دينهم ، وما يلفت النظر أنهم لم يتركوا أى أثر مكتوب ، وقد عني هؤلاء اليهود بالزراعة والصناعات اليدوية . وأخبارهم في الجاهلية توحى بأن العرب لم يأمنوهم ، إذ كانوا يعدونهم من أعدائهم ، وكانوا يزدرئونهم ازدراء شديداً ، ومن يتابع موقفهم من الإسلام وكيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم اضطُرَّ - لكيدهم له وتقضهم لما بينهم وبينه من عهود موثقة مراراً وتكراراً - إلى إجلالهم عن المدينة ، وأتمَّ عمر من بعده هذا الإجلال عن الجزيرة ، من يتابع ذلك يعرف أن العرب كانوا في الجاهلية يحفونهم وينفرون منهم ومن دينهم ، فلم يؤثروا فيهم شيئاً ، وعلى العكس نجد اليهود يتعلمون العربية ، وينفذ بعضهم إلى النظم بها .

على أنه ينبغي أن نحتاط إزاء ما يحدثنا الرواة عن شعرائهم وأشعارهم ، فلا نثق بكل ما روه في هذا الصدد ، فقد يكون بعض أبنائهم ممن أسلموا هم الذين زيفوا هذه الأشعار ووضعوها على ألسنتهم . ويظهر أن هذا الوضع قديم فنحن نجد ابن سلام يفتح لشعرائهم فصلاً^(١) في كتابه « طبقات فحول الشعراء » يسوق فيه ذكر ثمانية من شعرائهم وينشد لكل شاعر بعض ما اشتهر له ، وهم على التوالي السموأل بن الغريض بن عادياء ، والربيع بن أبي الحقة-يئق ، وكعب بن الأشرف ، وشريح بن عمران ، وشعبة بن الغريض أخو السموأل ، وأبوقيس بن رفاعة ، وأبو الذيال ، ودرهم بن يزيد . ويضيف أبو الفرج في الأغاني^(٢) وابن هشام في السيرة النبوية أسماء أخرى مثل أوس بن دنى وسماك والغريض بن السموأل .

(١) ابن سلام ص ٢٣٥ .

(٢) الأغاني (طبعة الساسي) ٩٤/١٩ وما بعدها.

وأشهرهم جميعاً السموأل^(١) صاحب حصن الأبلق بتياء ، وكان معاصراً
لامرئ القيس ، ومرت بنا أسطوريته معه وما قالوا من أن امرأ القيس استودعه
سلاحه ، فسار إليه الحارث بن أبي شمر الغساني أو الحارث بن ظالم المري على
اختلاف الروايات ، فطلب منه سلاح امرئ القيس ، فأغلق حصنه من دونه ،
وتصادف أن كان له ابن خارج الحصن ، فأخذه الحارث ، وهدده إن لم يعطه
السلاح قَتَلَ ابنه ، فقال له : اقتله ، فلن أعطيه لك . وبذلك وفتى على غير عادة
قومه ! . وسبق أن قلنا إن هذا من باب الأساطير كما سبق أن اتهمنا قصيدة الأعشى
التي عرضت لهذه القصة في إسهاب . وما نُسب إلى السموأل خطأ القصيدة
المشهورة :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عِرْضَهُ فكلُّ رداءٍ يَرْتَدِيهِ جميلٌ

وهي لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي^(٢) ، وهو شاعر إسلامي . وقد نشر
لويس شيخو ديواناً له برواية نفطويه في مجلة المشرق ببيروت سنة ١٩٠٩ وهي
رواية ضعيفة ، إذ تشتتل على مقطوعات كثيرة يتضح فيها أنها منحولة . وروى
الأصمعي تائيداً له^(٣) ، لا نكاد نقرأ فيها حتى نحس أثر الصنعة والانتحال ،
وهي تستهل بالحديث عن نشأة الإنسان وحياته وبعثه بعد موته على هذا النمط :

نُطْفَةٌ مَا مُنِيَتْ يَوْمَ مُنِيَتْ أَمِرتُ أَمْرَهَا وفيها وُبِيتُ^(٤)
كَنَّهَا اللَّهُ فِي مَكَانٍ خَفِيٍّ وَخَفِيٍّ مَكَانُهَا لَوْ خَفِيَتْ
أَنَا مَيِّتٌ إِذْ ذَاكَ تُمِتُّ حَيٌّ ثُمَّ بَعْدَ الْحَيَاةِ لِلْبُعْثِ مَيِّتٌ

وصلة هذه الأبيات بما جاء في القرآن الكريم عن نشأة الإنسان وأنه من نُطْفَةٍ
يُمَيَّتُ وأنه يحيى ثم يموت ثم يُبْعَثُ ؛ فهو ينتقل من موت إلى حياة ، وما حياته الثانية
في الآخرة بمستغربة ، إنها تلي موته وحياته الأولى التي تحول إليها من ماء دافق
يخرج من بين الصُّلب والتراتب ويقول جَلَّ وعز : (أولم يتر الإنسان أنا خلقناه

ص ٨٤ وراجع ابن سلام ص ٢٣٦ .

(٤) ما منيت : ما زائدة . ومنيت : قدرت
وخلقت . وبیت : هيئت .

(١) انظر ترجمته في الأغاني ٩٨/١٩ .

(٢) شرح المرزوق على ديوان الحماسة

لأبي تمام (طبع لجنة التأليف) ١١٠/١ .

(٣) الأصمعيات (طبع دار المعارف)

من نُظُمَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وضرب لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم). وتردد ذلك دلالة قاطعة أننا نحس إزاء بعض أبياتها أنها نظمٌ مباشر لبعض آي القرآن الكريم مثل :

ليت شعري ! وأشعرن إذا ما قيل إقرأ عُنوانها وقريت^(١)

وأصل هذا البيت قوله تعالى في سورة الإسراء: (وكلَّ إنسانَ أَلَمَنَاه طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » وعلى هذه الشاكلة :

مَيِّتَ دَهْرٍ قَدْ كُنْتُ ثُمَّ حَيِّتُ وَحَيَاتِي رَهْنٌ بِأَنْ سَأَمُوتُ
فإن البيت ترديد لمثل قوله سبحانه : (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون) .

والحق أن الشعر المضاف إلى يهود الجاهلية من أمثال السموأل ينبغي أن نحذر منه ، وخاصة حين يُعَلَى من أخلاقهم ويسمو بها ، أو حين يندمج في بعض ما يردده القرآن الكريم من أفكار ومعان لم تكن معروفة قبله ، ولعله من أجل ذلك لم يرو المفضل الضبي في مفضلياته شعراً ليهودي ، وكأنه لم يثبت عنده شعر لهم .

وإذا كان العرب الشماليون في الجاهلية استشعروا البغضاء لليهود فلم يتهود منهم أحد ، فإنهم لم يحسوا نفس الإحساس إزاء النصرانية والنصارى ، وإن ظلوا في الحملة يحتفظون بدينهم الوثني ويرون فيه رمز استقلالهم وسيادتهم ، وأنه ينبغي أن لا تتخطفهم الديانات من حولهم . وكانت المسيحية أمامهم في الشام دِيناً للدولة ، ودخل فيها الغساسنة كما قدمنا في غير هذا الموضع ، وكانت منتشرة بين الآراميين فيما بين النهرين بالعراق ، واعتنقها اللخميون في أواخر القرن

(١) رواية هذا الشطر في ابن سلام : « قريوها منشورة فقريت » . وقريت : لغة في قرأت .

السادس للميلاد ، وكانت منتشرة قبل اعتناقهم لها في جمهور عربي من سكان الحيرة سمي بالعباديين ، وتشير الكلمة التي سُموا بها ، إلى أنهم عباد الله ، وكانوا أخلاطاً من قبائل شتى . وقد انتشرت في الجنوب بنجران فكانت مركزاً مهماً من مراكزها ، كما عُرُفت في بعض القبائل الشمالية والشرقية مثل قضاة و كلب وطيء وبكر وتغلب وتنوخ وتميم ، ويزعم اليعقوبي أن نفرأ من مكة تنصروا قبيل الإسلام^(١) . وكل ذلك معناه أن المسيحية كانت منبثة في الجزيرة وأن كثيرين من العرب الجاهليين دخلوا فيها ، ويتردد عند شعرائهم الوثنيين ذكر الراهب المسيحي ، وكأنه كان شخصية شعبية معروفة للجميع .

وأشهر شعراء المسيحية في الجاهلية عدديُّ بن زيد^(٢) شاعر الحيرة المشهور ، وهو من العباديين ومن بيت شريف من بيتهم النصرانية ، خدم أبوه في دواوين الفرس وفي دواوين المناذرة بالحيرة ، ولما أيفع ابنه عدى عدنى بتربيته وتأديبه على الطريقة الفارسية ، فكان يُحسِّن لغة الفرس كما كان يحسن لغة العرب وتعلَّم الرمي بالنشَّاب ولعب العجم على الخيل بالصَّوَّالِجَة . ولم يلبث أن التحق بديوان كسرى أبرويز بن هرمز (٥٩٠ - ٦٢٨ م) وعُهد إليه فيه بالشئون العربية ، ويقال إن كسرى أرسله إلى ملك الروم في بيزنطة بهدية ، فلما أتاه بها أكرمه . وفي أثناء عودته مرَّ بدمشق وهناك انطلق لسانه بالشعر . وعاد إلى الحيرة فوجد أباه قد توفي . وظل مدة متنقلاً بين الحيرة والمدائن ، وما نلبث أن نرى الأمور تفسد بينه وبين النعمان أبي قابوس ، مع أنهم يقولون إنه لعب دوراً في توليته على الحيرة بعد أبيه دون بقية إخوته . ويقال إن الذي أفسد ما بينهما بعض بني مَرِيَّنا ، إذ زعموا للنعمان أنه يقول إنه عامله وإنه هو الذي ولاه ما ولاه . فاضطغن عليه النعمان ، وانتهز فرصة مجيئه من لدن كسرى ذات مرة ، وأمر بحبسه ولم يُجِدْه عنده استعطافه ولا ما نظمه من أشعار في مديحه . وعلم كسرى فكتب إلى النعمان يأمره

والشعراء لابن قتيبة ١٧٦/١ وخزانة الأدب ١٨٤/١ وما بعدها والموشع للمرزباني ص ٧٢ وكتاب لويس شيخو : « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » .

(١) تاريخ اليعقوبي (طبعة أوربا) ٢٩٨/١ وراجع المحبر لابن حبيب ص ٧١ ، وابن هشام ٢٣٩/١ .
(٢) انظر في عدى بن زيد الأغاني (طبعة دار الكتب) ٩٧/٢ وما بعدها ، والشعر

بإطلاقه ، غير أن الرسول وجد عدياً قد مات في سجنه محتقلاً . وغضب كسرى حين علم بذلك على النعمان غضباً شديداً ، وربما كان هذا الغضب أهم الأسباب في قضائه عليه كما مرّ بنا في غير هذا الموضع .

وأهم الموضوعات التي يدور فيها شعر عديّ الحمر ، وذكر الموت والفناء ، وهو في الموضوع الأول يعدّ أباً لشعراء الحمر في الجاهلية من مثل الأعشى ، ثم لمن ظهروا في العصور الإسلامية بعد ذلك من مثل الوليد بن يزيد وأبي نواس . وفي أخبار الوليد أنه كان من ندمائه القاسم بن الطويل العبادي ، وكان أديباً ظريفاً شاعراً ، وكان لا يصبر عنه ، ونظن ظناً أنه هو الذي وصله بشعر عدي ، إذ كان يرويه له ويغنيّ فيه معبد وغيره من المغنين بمثل هذا الصوت ^(١) :

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضَحِ الصَّبِّ حَ يَقْوَاونَ لِي أَلَا تَسْتَفِيقُ
لَسْتُ أَدْرِي وَقَدْ جَفَانِي خَلِيلِي أَعْدُوْ يَأُوْمَنِي أَمْ صَدِيقُ
ثُمَّ قَالُوا أَلَا أَصْبَحُنَا فَقَامَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ ^(٢)
قَدَّمْتُهُ عَلَى عُقَارٍ كَعِينِ لَدَيْكَ صَفَى سُلَافَهَا الرَّأُوْقُ ^(٣)

وواضح أن الأبيات من نفس الألحان والأنغام المعروفة للوليد ومن جاءوا بعده من شعراء الحمريات ، وكأن القاسم العبادي هو الذي وجه الوليد ليحتذى في خمرياته على أسلوب عدي وليجري في طريقتيه .

ويروى الرواة لعدي بجانب شعره في الحمر أشعاراً في الفناء وزوال الحياة ، وهي تجري في أسلوبين : أسلوب يتحدث عن الحياة والموت وأن الدنيا غير باقية ، وأسلوب قصصي يتخذ من التاريخ وهلاك الملوك والأوائل وسيلة إلى العظة والعبرة ، ومن الأسلوب الأول قوله على لسان المقابر ^(٤) :

مَنْ رَأَانَا فَلْيَحْدِثْ نَفْسَهُ أَنَّهُ مَوْفٍ عَلَى قَرْنٍ زَوَالٍ ^(٥)
وَصُرُوفِ الدَّهْرِ لَا يَبْقَى لَهَا وَلَمَّا تَأْتِي بِهِ صُؤْمُ الْجِبَالِ

(٤) الأغاني ٢/١٣٤ .

(٥) قرن : طرف .

(١) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٦٥/٧ .

(٢) أصبحونا : اسقونا خمر الصباح .

(٣) الراوق : الدن .

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِنْدَنَا يشربون الخمرَ بالماء الزُّلالِ^(١)
عُمُّرُوا دَهْرًا بَعِيشَ حَسَنِ آمِنِي دَهْرَهُمْ غَيْرَ عِجَالِ
ثُمَّ أَضْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وكذلك الدهرُ يُودِي بالرجالِ
وكذلك الدهرُ يرمى بالفتى في طَلَابِ العيشِ حالا بعد حالِ
فاللّٰهيا إلى زوالٍ وكلُّ من عليها فان، حتى صُمُّ الجبال، ولا يغرنك ما يغرق
فيه بعض الناس من ترفٍ ونعيم، فعمّا قليل يعصف بهم الدهر كما عصف بمن
قبلهم . ومن الأسلوب الثاني قوله^(٢) :

أَيُّهَا الشَّامِتُ الْمَعِيرُ بِاللَّهِ رِ أَأَنْتَ الْمَبْرَأُ الْمَوْفُورُ
أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْوَثِيقُ مِنَ الْإِيَّةِ أَمْ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
مَنْ رَأَيْتَ الْمَنُونِ خَلَّدَنَ أَمْ مَنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَضَامَ خَفِيرُ^(٣)
أَيْنَ كَسْرَى : كَسْرَى الْمَلُوكِ أَنْوَشِرُ وَأَنْ أَمْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكِرَامُ مَلُوكُ الْإِ رُّومِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ مَذْكُورُ
ويستمر في ذكر ملوك مختلفين شيدوا قصوراً شامخة، وانتهى أمرهم إلى الفناء،
وطوتهم الحُفَرُ واتقبور كأن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، إلى أن يقول :

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَّاحِ وَالْمَلِكِ وَالْإِمَّةِ إِهْ وَارْتَهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ^(٤)
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَ فَتْ فَأَلُوتُ بِهِ الصَّبَا وَالْدَّبُورُ^(٥)
ويكثر البحترى في حماسته من إنشاد مثل هذه الأبيات لعدي بن زيد التي
يتحدث فيها عن الحياة والموت ومصير الملوك السابقين . ونحن لا نطمئن إلى
كل هذه الأشعار، بل نقف منها موقفنا من نظيرها عند الأعشى ، فإن
القُصَّاصَ والوعاظ على ما يظهر أضافوا إليه أشعاراً كثيرة حتى لممكن القول
بأن أكثر ما روى له من أشعار منحول عليه ، ولعل ذلك ما جعل اللغويين

(١) الزلال : الصافي العذب .
(٢) الأغاني ١٣٨/٢ .
(٣) المنون : الموت، وأعاد عليه الفصير مجموعاً .
(٤) الإمّة : النعمة .
(٥) ألوت : ذهبت . الصبا والدبور :
ريحان .

يرفضون الاستشهاد بشعره ، ولاحظ ابن سلام كثرة الوضع عليه فقال : « عدى بن زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه وسهّل منطقته ، فحُمِل عليه شيء كثير وتخليصه شديد^(١) » وأكبر الظن أن هذا هو السبب في أن المفضل والأصمعي لم يُثبتا له في مجموعتيهما شيئاً من شعره . وقد قلنا في غير هذا الموضع إنه لا يفصح في شعره عن فكرة التثليث المسيحية ، وينبغي أن لا نغلو في فهم مسيحية أمثال عدى في الجاهلية ، فإنها لم تكن تتعمق نفوسهم ، وإن كان من المؤكد أنها أثرت فيهم . بل لقد سقط منها تأثيرات إلى الشعراء الوثنيين فرأيناهم يذكرون أحياناً الرهبان والنواقيس ومحاريب الكنائس وقد يذكرون بعض الأنبياء مما جعل لويس شيخو يسلك أكثر شعراء الجاهلية في النصرانية ، وهو مخطئ في ذلك خطأ بيناً .

وربما كان أهم شاعر جاهلي وثني ظهر عنده واضحاً التأثير بأهل الكتاب أمية^(٢) ابن أبي الصلت الشَّعْبِيّ ، وهو من الطوائف ويقال إنه اتصل بالأخبار وتحنّف ولبس المسوح وتنسك . وكان يزور مكة قبل البعثة ، وله مدائح في سيد من ساداتها المشهورين هو عبد الله بن جُدعان ، الذي يقول له في بعض مديحه^(٣) :

أَذْكُرُ حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياءُ
كريمٌ لا يغيّره صباحٌ عن الخلقِ الكريمِ ولا مساءُ
وأرضيك كلُّ مكرمةٍ بنتها بنو تميمٍ وأنتَ لهم سماءُ^(٤)
ويقول أيضاً^(٥) :

عطاؤك زينٌ لامرئٍ قد حبّوتهُ بخيرٍ ، وما كلُّ العطاءِ يزِينُ
وليس بشينٍ لامرئٍ بذلٌ وجهه إليك ، كما بعضُ السؤالِ يشينُ
ولما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه أضلّه الله فعاداه ، وزين له

الأدب ١/ ١٣٠ وحياة الحيوان للدميري ٢/ ١٥٤
والشعر والشعراء لابن قتيبة ١/ ٤٢٩ .
(٣) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغاني ٨/ ٣٢٨ .
(٤) بنو تميم : عشيرة عبد الله بن جدعان .
(٥) ابن سلام ص ٢٢٢ والأغاني ٨/ ٣٢٨ .

(١) ابن سلام ص ١١٧ وانظر الحيوان
٧/ ١٤٩ والشعر والشعراء ١/ ١٧٦ .
(٢) انظر في أمية الأغاني (طبعة الساسي)
١٦/ ٦٩ وطبعة دار الكتب ٨/ ٣٢٧
وما بعدها وابن سلام ص ٢٢٠ وما بعدها وخزافة

الشیطان سوء عمله وأغواه ، فلم یُسَلِّم ، بل أخذ فی معاندة الرسول ومحادته بلسانه ، ولما هُزِمَتْ قریش فی موقعة بدر هزیمتها المشهورة ، فقتل كثير من رجالها وسادتها حزناً ذلك فی نفسه ، فراح علی قتلها بقصيدة طويلة یقول فیها (١) :

ماذا ببدرٍ فالعقدُ قتلٍ من مرآزبةٍ جحاجحٍ (٢)
هلاً بكيت على الكرام م بنی الكرام أولى الممايح

وجمع له شولتهس Schulthess مجموعة من أبياته ترجمها إلى الألمانية ونشرها فی لیبرج سنة ١٩١١ وفي سنة ١٩٣٦ نشر له بشير يموت فی بیروت طائفة من أشعاره باسم دیوان أمية . وتدور هذه الأشعار فی موضوعین أساسیین أما الموضوع الأول فیتحدث فیہ عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون مستدلاً بذلك علی وجود الله ، ومتحدثاً عن الموت والفناء والبعث والنشور والعذاب والثواب علی شاکلة قوله (٣) :

إلهُ العالمین وكل أرضٍ وربُّ الراسیاتِ من الجبالِ
بناها وابتنى سبْعاً شِداداً بلا عَمَدٍ يُرینَ ولا رِحالٍ (٤)
وسواها وزینها بنورٍ من الشمسِ المضيئة والهِلالِ
ومن شهبٍ تَلَأُّ في دُجَاهَا مرامیها أشدَّ من النُّصالِ (٥)
وشقَّ الأرضَ فانبجست عیوناً وأنهاراً من العذبِ الزُّلالِ (٦)
وكلُّ معمرٍ لا بُدَّ یوماً وذی دُنیا یصیر إلى زوالِ
ویفنی بعد جدته ویبلى سوى الباقی المقدس ذی الجلالِ
وسیق المجرمون وهم عراةٌ إلى ذات المقامع والنِّکالِ (٧)
فنادوا ویلدنا ویلاً طویلاً وعجوا فی سلاسلها الطَّوالِ (٨)

(٤) السبع الشداد : السموات السبع .
(٥) النصال : جمع فصل وهو حد السیف .
(٦) انبجست : انفجرت .
(٧) المقامع : محاجن من حديد یضرب بها الحيوان الشکس .
(٨) عجوا : صاحوا ورفعوا أصواتهم .

(١) ابن سلام ص ٢٢١ .
(٢) العقنقل : كتيب رمل ببدر .
المرآزبة : جمع مرزبان وهو رئیس القوم المقدم علیهم . الجحاجح : جمع جحجج وهو السید الکريم .
(٣) دیوان أمية (طبعة شولتهس) ص ٣٠ .

فليسوا ميتين فيستريحوا وكلهم بحر النار صال
وحل المتقون بدار صدق وعيش . ناعم تحت الظلال

وهذه المعاني تستمد من القرآن الكريم بصورة واضحة ، وأسأوبها ضعيف
واهن ، ولذلك كنا نظن ظناً أنها وما يماثلها مما نُحل على أمية . والموضوع الثاني
الذى يدور فيه شعره ليس أقل من الموضوع الأول اتهاماً ، بل لعل الاهتمام فيه
أوضح ، إذ نراه يقص علينا سير الأنبياء ، قصصاً لا يكاد يفترق في شيء عما جاء
في القرآن الكريم كقوله في رؤية إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل وما كان من اقتدائه
بذبح عظيم^(١) :

ولإبراهيم الموفى بالنذ	ر احتساباً وحامل الأجزاء ^(٢)
بكره لم يكن ليضير عنه	أو يراه في معشر أقتال
يا بُنى أننى نذرتك لئلا	شحيطاً فاضبر فدى لك حالى ^(٣)
فأجاب الغلام : أن قال فوه	كل شيء لله غير انتحال
فاقضى ما قد نذرت لله واكففت	عن دمي أن يمسه سربالى ^(٤)
بينما يخلع السراويل عنه	فكته ربه بكبش جلال ^(٥)
قال : خذه وأرسل ابنك لئلى	للذى إن فعلتما غير قال

وواضح أن هذا شعوركك ساقط الأسلوب نظمه بعض القصاص والوعاظ في
عصور متأخرة عن الجاهلية . وقد ذهب هيار يزعم حين اطلع على شعر
أمية أنه اكتشف فيه مصدراً من مصادر القرآن الكريم^(٦) ، ولو كان له علم
بالعربية وأساليب الجاهليين لعرف أنه وقع على أشعار منتحلة بينة الانتحال ،
ولما تورط في هذا الخطأ البين ، وقد رد عليه غير واحد من المستشرقين^(٧) . ويظهر

(٦) انظر الجزء العاشر من المجلة الآسيوية
قسم ٤ (١٩٠٤) ص ١٢٥ .
(٧) انظر تاريخ الآداب العربية لبروكليجان
١١٣/١ ودائرة المعارف الإسلامية في « أمية » .

(١) ديوان أمية ص ٣٣ .
(٢) الأجزاء : المظالم .
(٣) شحيطاً : ذبيحاً .
(٤) سربالى : ثوبى .
(٥) جلال : عظيم .

أن الانتحال على أمية قديم ، ففي ابن سلام أن الحسن بن علي بن أبي طالب استنشد النابغة الجعدي بعض شعره ، فأنشده قصيدته :

الحمدُ لله لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

فقال له : « يا أبا ليلى ما كنا نروى هذه الأبيات إلا لأمية بن أبي الصلت ، قال : يا بن رسول الله ! والله إنى لأول الناس قالها ^(١) » وكأن اختلاطاً حدث بين شعر النابغة الجعدي وأمية . ومما نحلوا أمية من قديم أيضاً أشعار مختلفة في قصص الحيوان والطير وبعض الزواحف كالحيات ، ويشركه عدى في بعض هذه الجوانب ، وكان القصاص والوعاظ أجروا على لسانهما كثيراً من الشعر الذي أرادوا به إلى العظة والاعتبار ، وإنما نقول إنهم نحلوها ذلك من قديم ، لأننا نجد الجاحظ ينشد لهما أشعاراً كثيرة في هذا الاتجاه ^(٢) .

وواضح مما قدمناه أن ما روى من أشعار على ألسنة اليهود ومن تنصّر من العرب في الجاهلية وكذلك من تحنّف كأمية دخله وضع كثير ، ولذلك ينبغي أن نحترس منه وأن لا نتسع في الحكم عن طريقته على ديانات القوم ومعتقداتهم ، إذ يجري فيه الانتحال ، وقد دخله كثير من الغناء والإسفاف في اللفظ والتعبير .

(١) ابن سلام ص ١٠٦ وما بعدها . ٥١١/٣ ، ١٩٦/٤ وما بعدها .

(٢) انظر مثلاً الحيوان ٣٢٠/٢ وما بعدها ،

الفصل الثاني عشر

النثر الجاهلي

١

صور النثر الجاهلي

حين نتحدث عن النثر الجاهلي ننحى النثر العادي الذي يتخاطب به الناس في شؤون حياتهم اليومية ، فإن هذا الضرب من النثر لا يعدّ شيء منه أدباً إلا ما قد يجرى فيه من أمثال ، إنما الذي يُعدّ أدباً حقاً هو النثر الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء ، وهو أنواع ، منه ما يكون قصصاً وما يكون خطابة وما يكون رسائل أدبية محبّرة . ويسمى بعض الباحثين النوع الأخير باسم النثر الفني .

وليس بين أيدينا وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية وتداولوها ، وليس معنى ذلك أنهم لم يعرفوا الكتابة ، فقد عرفوها ، غير أن صعوبة وسائلها جعلتهم لا يستخدمونها في الأغراض الأدبية الشعرية والنثرية ، ومن ثمّ استخدموها فقط في الأغراض السياسية والتجارية^(١) . ولا ينقض ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أن سُوَيْد بن الصامت قدم مكة حاجباً أو معتمراً .. فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سُوَيْد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذي معك ؟ قال : مجلّة لقمان ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعترضها عليّ ، فعرضها عليه ؛ فقال له : إن هذا لكلام حسن . والذي معي أفضل من هذا : قرآن أنزله الله عليّ ، هو هُدًى ونور ، فتلا عليه رسول الله القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يسبّمه منه ، وقال : إن هذا القول حسن^(٢) .. «

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (طبعة الحلبي)

٦٨/٢ .

(١) انظر الفن ومذاهبه في النثر العرب

(الطبعة الثالثة بدار المعارف) ص ١٩ .

وهذا الخبر إنما يفيد أنه كان عندهم صحيفة بها بعض أمثال وحكم مما كانوا ينسبونهم إلى لقمان ، ووجود مثل هذه الصحيفة لا يدل على أنهم استخدموا الكتابة في التعبير عن وجدانهم نثراً وشعراً ، فقد كانت محدودة الانتشار بينهم ، ومن التعسف أن نزع ذلك لمجرد الظن ، بينما تنقصنا أو تعوزنا النصوص الحسية . وإذا كنا نفتقد الأدلة المادية على وجود رسائل أدبية في العصر الجاهلي فمن المحقق أنه وُجدت عندهم ألوان مختلفة من القصص والأمثال والخطابة رسجج الكهان . ومن المؤكد أنهم كانوا يُشغفون بالقصص شغفاً شديداً . وساعدتهم على ذلك أوقات فراغهم الواسعة في الصحراء، فكانوا حين يُرخي الليل سدوله يجتمعون للسمر ، وما يبدأ أحدهم في مضرب من مضارب خيامهم بقوله : كان وكان ، حتى يرهف الجميع أسماعهم إليه ، وقد يشترك بعضهم معه في الحديث ، وشباب الحى وشيوخه ونساؤه وفتياته المخدرات وراء الأخبية كل هؤلاء يتابعون الحديث في شوق ولهفة .

ومن غير شك كان يُفيض القصص على قصصه من خياله وفنه ، حتى يهر سامعيه ، وحتى يملك عليهم قلوبهم فيحولهم من الشفقة إلى عجة الانتقام ومن الضحك إلى الجِدِّ ، وعيونهم تلمع في وجوههم السمر وقلوبهم تخفق من آن إلى آن ، وليس بين أيدينا شيء من أصول هذا القصص الذي كان يدور بينهم ، غير أن اللغويين والرواة في العصر العباسي دونوا لنا ما انتهى إليهم منه ، وطبعي أن تتغير وتتحرّف أصوله في أثناء هذه الرحلة الطويلة التي قطعها من العصر الجاهلي إلى القرن الثاني الهجري ، وإن كان من الحق أنها ظلت تحتفظ بكثير من سمات القصص القديم وظلت تنبض بروحه وحيويته .

ويمكننا بواسطة ما دونته العباسيون أن نعرف ألوان هذا القصص الذي كانوا يتناقلونه بينهم ، وربما كان أكثر هذه الألوان شيوعاً على ألسنتهم أيامهم وحروبهم وما سجّله أبطالهم فيها من انتصارات مروعة وما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة، وقد ظلوا يقصّون هذه الأيام والحروب إلى أن تناولها منهم لغويّو القرن الثاني للهجرة وروّاته، فدونها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق ، وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع .

وكانوا يقصون كثيراً عن ملوكهم من المناذرة والغساسنة ومن سبقوهم أو عاصروهم مثل ملوك الدولة الحميرية ومثل الزبّاء ، مما نجده مبثوثاً في تاريخ الطبرى وفي السيرة النبوية لابن هشام ، وسقط من ذلك كثير إلى أبي الفرج في أغانيه ، ومن المحقق أن كثيراً من هذا القصص يخالف التاريخ الحقيقى لهؤلاء الملوك ، على نحو ما هو معروف عن قصة الزبّاء ، فإنها لا تتفق في شيء ووثائق التاريخ الرومانى الصحيحة^(١) حتى اسمها وهو زنوبيا Zenobia حُرِّف إلى الزبّاء ، وربما جاء هذا التحريف من أن أباهما كان يُدعى زباى ، فنسبوا إليه وقالوا بنت زباى ، ومع مر الزمن حذفوا كلمة بنت ، وأبدلوا الياء المتطرفة بعد الألف بحسب قواعدهم الصرفية همزة ، وأدخلوا على الاسم أداة التعريف فأصبحت الزبّاء .

وعلى نحو ما كانوا يقصّون عن ملوكهم وأبطالهم كانوا يقصّون عن ملوك الأمم من حولهم وشجعانهم ، يدل على ذلك ما جاء في السيرة النبوية من أن النّضر بن الحارث كان من شياطين قريش ومن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتنصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم وإسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً ، فذكر فيه بالله ، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه في مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه ، فهل إلى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسفنديار^(٢) . . .

ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يقصون كثيراً عن كُهانهم وشعرائهم رسالتهم ، وهو قصص استمدت منه كتب التاريخ والشعر والأدب متعيناً لا ينضب من الأخبار ، وارجع إلى تراجم صاحب الأغاني فستراها تحفل بمادة غنية من القصص ، وقد بثوا فيها غير قليل من قصص الهوى ، كقصة المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف ، وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها ، واعتذار الأب له بحداثة سنه وأنه لم يُعرف بعد بشجاعة ، وما كان من انطلاق المرقش إلى بعض الملوك ومديحه له وبقائه عنده زمناً ، وفي هذه الأثناء أصاب عَوْفاً زمان شديد ،

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ٣٢١/١
٩٩/٣ وما بعدها .

فأتاه رجل من مُرَاد، فأرغبه في المال، فزوجه ابنته على مائة من الإبل، ورحل بها إلى أهله. وقال إخوة المرقش لا تخبروه بخبرها حين يرجع، بل قولوا له إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشاً، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه، فلما قدم المرقش قالوا له إنها ماتت، ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء، وبعد مغامرات يتعرف على راعي زوجها، ويترسل إليه أن يحدثها عنه، فيقول له: إني لا أستطيع أن أدنو منها، ولكن تأتيني جارتها كل ليلة، فأحلب لها عنزاً، فتأتيها بلبنها، فقال له مرقش: خذ خاتمي هذا، فإذا حلبت فألقه في اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك، فأخذ الراعي الخاتم. ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه، فانطلقت الجارية به وتركته بين يدي أسماء. فلما سكنت الرغوة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع، ففرع الخاتم ثنيتين، فأخذته واستضاءت بالنار، فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: مالى به علم. فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران، فأقبل فزعاً، فقال لها: لم دعوتني؟ قالت له: ادعُ عبدك راعي غنمك، فدعاه، فقالت: سكه أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل في كهف خبان، فقال لى: اطرحه في اللبن الذى تشربه أسماء، فإنك مصيب به خيراً، وما أخبرني من هو، ولقد تركته بآخر رمق. فقال له زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش، فأعجل الساعة في طلبه. فركب فرسه وحملها على فرس آخر وسارا حتى طرّقاها من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلهما، فمات عند أسماء وقال: قبل أن يموت:

سرى ليلاً خيالاً من سُليّمي	فأرقني وأصحباني هجود
فبت أدير أُمري كلّ حال	وأذكر أهلها وهم بعيد
سكن ببلدة وسكنت أخرى	وقطعت الموائق والعهود
فما بالي أفي ويخان عهدي	وما بالي أصاد ولا أصيد

ثم مات فدفن في أرض مُرَاد^(١).

(١) أغاني (طبعة دار الكتب) ١٢٩/٦ وما بعدها.

ولم نَسْتَقْ هذه القصة مؤمنين بأنها نفس قصة المرقش التي دارت في الجاهلية بلغتها وبجميع تفاصيلها ، ولكننا سقناها لندل بطوابعها على صورة أمثالها في الجاهلية ، وما كان يتيح القصص لملئها من عناصر التشويق ، تارة بما يضيف إلى القصة من خياله ، وتارة بما يضيف إليها من أشعار ، وقد يضيف إليها أمثالا ، على نحو ما نعرف في قصة الزبَاء ، وهي تتضمن عند الضبِّي اثني عشر مثلاً^(١) .

وإذا صح ما ذهب إليه بروكلمان من أن تعرف أحد العاشقين على الآخر عن طريق الخاتم شائع في كثير من الحكايات عند أمم غير العرب^(٢) كان معنى ذلك أن قصص الجاهليين حتى في الحب تسربت إليها عناصر من حكايات العشق المماثلة عند الأمم الأجنبية ، ويدخل في هذا الجانب بعض خرافاتهم عن الحيوانات التي يلتقون فيها بخرافات الأجانب^(٣) ، كخرافة الحية والفأس ، وقد رواها الضبِّي على هذه الشاكلة^(٤) :

« زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما ، فأجدبت بلادهما ، وكان قريباً منهما واد فيه حية ، قد حمته من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المكائي ، فرعيت فيه إبل وأصلحتنا ، فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته ، قال : فوالله لأهبطن . فهبط ذلك الوادي ، فرعا إبله به زماناً ، ثم إن الحية لدغته ، فقتلته . فقال أخوه : ما في الحياة بعد أخى خير ، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخى . فهبط ذلك الوادي ، فطلب الحية ليقتلها ، فقالت : أأست ترى أني قتلت أخاك ، فهل لك في الصلح ، فأدعك بهذا الوادي ، فتكون به ، وأعطيك ما بقيت ديناراً في كل يوم . قال : أفاعلة أنت ؟ قالت : نعم ، قال : فإني أفعل . فحلف لها وأعطاه الموائيق ، لا يضيرها . وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله ونمت إبله ، حتى كان من أحسن الناس حالاً . ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعني العيش ، وأنا أنظر إلى قاتل أخى فلان ؟ . فعمد إلى فأس ، فأحدّها ، ثم قعد لها ، فمرت به ، فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت البحر ،

(١) أمثال العرب للمفضل الضبِّي (الطبعة الأولى بالقاهرة) ص ٨١ وما بعدها .
(٢) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/ ١٠٢ .
(٣) انظر كتاب الأمثال في النثر العربي القديم لعبد المجيد عابدين ص ٤٢ .
(٤) أمثال العرب للضبِّي ص ١٠٦ .

فرمى الفأس بالجلبل فوق وقع فوق جُحُرها، فأثّر فيه . فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذى كانت تعطيه ، ولما رأى ذلك تخوّف شرها وندم ، فقال لها : هل لك فى أن نتواثق (نتعاهد) ونعود إلى ما كنا عليه ، فقالت : كيف أعاهدك ؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر ، لا تبالى العهد . فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهوراً من أمثال العرب ، قال نابغة بنى ذبيان (من قصيدة يعاتب بها بنى مرة) :
 وإني لألقى من ذوى الضغن منهم بلا عشرة ، والنفس لا بُدَّ عاثره
 كما لقيت ذات الصفاً من حليفها وما انفكت الأمثالُ فى الناس سائرهُ
 ويُشيدُ الضبي بقية القطعة التى يتحدث فيها النابغة عن قصة الحية مع هذا الراعى الذى اختان عهده . ونحن نشك فى الأبيات كما نشك فى أن القصة حافظت على الأصل الجاهلى ، وإن كنا فى الوقت نفسه نظن ظناً أنها تعطينا جانباً من روح القصص الجاهلى ، وأنه كان يلتقى فى بعض جوانبه بقصص الحيوان المعروف عند الهنود ، والذى تسرب منهم إلى الأمم الأخرى على نحو ما نعرف فى قصص إيسوب اليونانى ، وبين قصصه الزارع والحية^(١) ، وكأنما تسرب هذا النوع من الهند إلى العرب واليونان جميعاً .

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية قصّوا كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين ، وقد زعموا أنها تتحوّل فى أى صورة شاءت إلا الغول فإنها دائماً تبدو فى صورة امرأة عمداً رجلها ، فلا بد أن تكونا رجلى حمار . وكثيراً ما تراءى الجن فى صورة الثيران والكلاب والنعام والنسور . وكانوا يزعمون أن أهم منازلها أرض وبار وصحراء الدهناء ويَسْبَرْنَ . ومن غير شك دخل كثير من قصصهم عنها فى كتب الأساطير والعجائب التى ألقت فى العصر العباسى .

ونحن لم نسق ذلك لتؤكد أنه بقيت لنا من القصص الجاهلى بقية صالحة للدراسة ، فإن شيئاً من هذا القصص الذى يضاف إلى الجاهليين لم يصلنا مدوناً مكتوباً ، ولذلك كنا نتهمه بجملة ، وإن كنا بعد هذا الاتهام نعود فنزعم أنه يصور لنا مادة قصصهم وروحه وطبيعته وكثيراً من ملامحه ، ولكن لا بصورة دقيقة ، وإنما بصورة عامة .

(١) انظر الأمثال فى النثر العربى القديم ص ٤٣ .

الأمثال

إذا كان القصص الذي أضيف إلى الجاهليين لا يحمل لنا صورة دقيقة للنثر الجاهلي بحكم تأخره في التدوين فإن الأمثال تحمل لنا غير قليل من هذه الصورة ، إذ أن من شأنها أن لا تتغير ، وأن تظل طويلاً بصورتها الأصلية ، بحكم إيجازها وكثرة دورانها على الألسنة . وقد سارع العرب إلى تدوينها منذ أواسط القرن الأول للهجرة ، إذ ألف فيها صُحُوح العبيدي أحد النسابين في أيام معاوية بن أبي سفيان (٤١-٦٠ هـ) كتاباً كما ألف فيها عبيد بن شَرِيَّة معاصره كتاباً آخر ، ويقول صاحب الفهرست إنه رآه في نحو خمسين ورقة ^(١) . وإذا انتقلنا إلى القرن الثاني وجدنا التأليف في الأمثال يكثر ، إذ أخذ علماء الكوفة والبصرة جميعاً يهتمون بها ويؤلفون فيها ، وقد وصلنا عن هذا القرن كتاب أمثال العرب للمفضل الضبي ، ونمضي إلى القرن الثالث ، فيؤلف أبو عبيد القاسم بن سلام فيها كتاباً يشرحه من بعده أبو عبيد البكري باسم « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام » . وما تزال المؤلفات في الأمثال تتوالى ، حتى يؤلف أبو هلال العسكري كتابه « جوهرة الأمثال » ويخلفه الميداني ، فيؤلف كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول في مقدمته إنه رجع فيه إلى ما يربو على خمسين كتاباً . ومن يرجع إلى هذه الكتب يجدهم يسوقون الكلمة السائرة التي تسمى مثلاً ، ولا يكتفون بذلك ، بل ينفون غالباً لسرد القصة أو الأسطورة التي تمخض عنها المثل ، وقد تمخض عن أمثال أخرى فتُروى في تضاعيفها . وموقفنا من هذه الأقاصيص والأساطير لا يختلف عن موقفنا من القصص الجاهلي بعامة ، فنحن لا نتخذ منها صورة للنثر الجاهلي وإن اختلفت بروحه وطبيعته وحيويته ، لنفس السبب الذي ذكرناه ، وهو تأخر تدوينها . أما الأمثال نفسها فننحى إلى طائفة كبيرة مما روته الكتب السالفة يتحتم أن تكون جاهلية ، وخاصة أكثر ما رواه عبيد ابن شَرِيَّة ، ولو أن كتابه لم يسقط من يد الزمن ووصلنا لاطمأننا إلى ما يرويه

(١) الفهرست ص ١٣٢ .

من هذه الأمثال ، غير أنه فقد . ولم يحاول من جاءوا بعده أن يفرّدوا الأمثال الجاهلية من الإسلامية ، إذ درّج أكثرهم على ترتيب الأمثال حسب الحروف الأولى على نحو ما ترتّب المعاجم ألفاظها ، فهم يرتّبونها أو يؤلفونها في تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . وبذلك أصبح من الصعب تمييز جاهليها من إسلاميها في كثير من الأحيان ، ومع ذلك قد يورد أصحاب هذه الكتب مع ما يروونه من الأمثال إشارات تدل على جاهليتها وقدمها ، وهي تتخذ عندهم طريقين : الطريق الأول أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره ، أو أن يساق هو في أثناء قصة جاهلية ، كذلك الأمثال التي نقرأها في قصة الزبّاء من مثل : « لا يطاع لقصير أمر » و « لأمرٍ ما جَدَّ عَ قصيرٌ أنفه » و « بيدى لا بيد عمرو » وقد بلغت أمثال هذه القصة عند الميداني ثمانية عشر مثلاً . ومن هذا الطريق ما يتصل بأحداث أو أساطير جاهلية كالذي زعموا أن النعمان بن امرئ القيس اللخمي ابنتى قصرآ له يسمى الخورنق ، بناه له رومي يسمى سنيمار ، فلما أتمه قال له سنمار : إني أعرف موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله ، فقال له النعمان : أيعرفها أحد غيرك ؟ فقال : لا ، فقال : لا جرم لأدعّنها وما يعرفها أحد ، ثم أمر به فرمى من أعلى القصر إلى أسفله فتقطع ، فضرب به الجاهليون المثل فقالوا : جزاء سنيمار .

وأما الطريق الثاني فهو أن ينسبوا المثل إلى جاهليين ، فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه ، وهناك كثيرون اشتهروا فيهم بالحكمة والأمثال السائرة ، ومنهم من يُغرق في القدم مثل لقمان عاد ، تلك القبيلة اليمنية التي كانت تنزل في الأحقاف ، والتي بادت ولم تبق منها باقية في الجاهلية ، وقد ظل اسم لقمان يدور على ألسنة شعرائهم^(١) وظلوا يذكرونه بالحكمة والبيان والحلم . يقول الجاحظ : « من القدماء ممن كان يُدّكرُ بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والذكراء لقمان عاد » وينص على أنه غير لقمان الحكيم المذكور في القرآن الكريم^(٢) كما ينص على ذلك المفسرون^(٣) . ولقد تم حفت الأسطورة به وبحياته وكل ما يتصل بصلاته مع الناس والنساء . فقال الأخباريون إنه كان عملاقاً كبير الرأس قوياً قوة

(٣) قصص الأنبياء للثعلبي (طبعة القاهرة) ٣٤٠ وتفسير أبي حيان ١٨٦/٧ وانظر خزائن الأدب للبغدادى ٧٧/٢ .

(١) البيان والتبيين ١٨٣/١ وما بعدها و ٣١٤/٣ .
(٢) البيان والتبيين ١٨٤/١ .

خارقة حكماً بحكمة بالغة، وقالوا إنه عاش عمر سبعةِ سنين وأن كل نسر منها عاش ثمانين سنة وكان لُبْد آخرها، وبه ضربوا المثل في طول العمر فقالوا « طال الأبد على لبْد »^(١). ونُسبت إلى لقمان في عصور متأخرة طائفة من الأقاصيص أريد بها إلى العظة والاعتبار، وسميت أمثال لقمان، وهي مكتوبة بأسلوب ركيك ضعيف. وقد زعم هالر « Heller » كاتب مادة لقمان في دائرة المعارف الإسلامية أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل: (أ) مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لقمان عاد الأسطوري الذي يقال إنه عاش عمر سبعة سنين وكلما هلك منها نسر خلفه نسر آخر، حتى كان لُبْد الذي ذكره شعراؤهم كثيراً. (ب) مرحلة قرآنية، وفيها نجد للقمان سورة خاصة به في الذكر الحكيم وقد ربط بعض المفسرين بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بني إسرائيل فسردوا له نفس نسبه إذ قالوا إنه لقمان بن باعور^(٢) بن ناحور ابن تارخ. (ج) مرحلة متأخرة، وهي مرحلة نُسج فيها ولفق قصص كثير حول لقمان كما يصور ذلك كتاب « أمثال لقمان ».

ومن المحقق أن « هالر » مخطئ فيما ذهب إليه من هذا التطور لشخصية لقمان، لسبب بسيط، وهو ما قلناه من أن قدماءنا فرقوا بين لقمان عاد ولقمان القرآن الكريم، فهما ليسا شخصا واحداً بل هما شخصان. وبينما تُعنى بالأول كتب الأمثال نجد الثاني تُعنى به وبوصاياه كتب الفقه والتفسير مثل موطأ مالك وتفسير أبي حيان، وقد روى الجاحظ طرفاً من تعاليمه، وهي تُطَبَّعُ بطابع ديني^(٣). واشتهر في الجاهلية بينهم كثيرون بهذا اللون من الأمثال وما يتصل بها من حكم، يقول الجاحظ: « ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكرم بن صَيْفِي وربيعة بن حُذَار وهرم بن قُطَيْبَة وعامر بن الظَّرِب ولَبِيد بن ربيعة »^(٤) وأحكمهم أكرم بن صَيْفِي التَّمِيمِي وعامر بن الظَّرِب العدَوَانِي، فأما أكرم فكان من المعمرين^(٥)،

(١) انظر المعمرين للسجستاني ص ٣

وأخبار عبيد بن شريفة ص ٣٥٦ والخزانة

٧٧/٢ والميداني ٣٧٥/١.

(٢) انظر الثعلبي ٣٤٠ وتفسير أبي حيان

١٨٦/٧.

(٣) البيان والتبيين ١٤٩/٢.

(٤) البيان والتبيين ٣٦٥/١.

(٥) انظر في أكرم المعمرين للسجستاني ص ١٠

والأغاني (طبعة الساسي) ٧٠/١٥ ومجمع

الأمثال ١٤٥/٢ وجمهرة الأمثال للعسكري

على هامشه ١٢٠/١.

ويقال إنه لحق الإسلام وحاول أن يعلن إسلامه فركب متوجهاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، غير أنه مات في الطريق . وتدور على لسانه حكم وأمثال كثيرة ، وقد ساق السيوطي في المزهرة طائفة منها نقلاً عن ابن دريد في أماليه ، وهي تجري على هذا النسق^(١) :

« رَبِّ عَجَلَةٍ تَهْبِثُهَا^(٢) . ادَّرِعُوا اللَّيْلَ فَإِنَّ اللَّيْلَ أَخْفَى لِلْوَيْلِ . المرء يهجز لا محالة . لا جماعة لمن اختلف . لكل امرئ سلطانٌ على أخيه حتى يأخذ السلاح ، فإنه كفى بالمشرفية واعظاً . أسرع العقوبات عقوبة البغى . شر النصرة التعدى . آلم الأخلاق أضييقها . أسوأ الآداب سرعة العقاب . رَبِّ قَوْلٍ أَنْفَذَ مِنْ صَوْلِ^(٣) . الحرُّ حُرٌّ وَإِنْ مَسَّهُ الضَّرُّ . العبد عبد وإن ساعده الجَدُّ^(٤) . إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد . رَبِّ كَلَامٍ لَيْسَ فِيهِ اكْتِتَامٌ . حافظ على الصديق ولو في الحريق . ليس من العدل سرعة العدل . ليس بيسير تقويم العسير . إذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة . لو أنصف المظلوم لم يبق فينا مَلُومٌ . قد يبلغ الخَضَمُ بالقَضَمِ^(٥) . استأن أخاك فإن مع اليوم غدا . كل ذات بَعْلٍ سَتِثِيمٌ^(٦) . الحرَّ عزوف . لا تطمع في كل ما تسمع . »

وعامر مثل أكنم يدخل في المعمرين^(٧) ، ويقال إنه « لما أسنَّ واعتراه النسيان أمر ابنته أن تقَرَّعَ بالعصا إذا هوفه^(٨) » عن الحكم وجارٍ عن القصد . وكانت من حكميات العرب حتى تجاوزت في ذلك مقدار صَحَرِ بنت لقمان وهند بنت الحُسن وجمعة بنت حابس . . وقال المتلمس في ذلك :

لدى الحِلْمِ قبل اليوم ما تُقَرَّعُ الْعَصَا وما عُلِمَ الْإِنْسَانُ إِلَّا لِيَعْلَمَا^(٩) «
وكان مثل أكنم حكماً للعرب تحتكم إليه ، وافتخر بذلك ذو الإصبع العَدُوَّاني في بعض شعره فقال^(١٠) :

(٦) تئيم : يهلك عنها الزوج .
(٧) انظر المعمرين ص ٤٤ وأمثال الميداني في المثل : إن العصا قرعت لدى الحليم .
(٨) فه : حاد وجار وانحرف .
(٩) البيان والتبيين ٣ / ٣٨ .
(١٠) الأغاني (طبعة دار الكتب) ٣ / ٩٠ .

(١) المزهرة للسيوطي (طبعة الحلبي) ١ / ١
(٢) الريث : البطء أى رب عجلة تفوت على صاحبها حاجته
(٣) الصول : الاستطالة في الحرب .
(٤) الجد : الحظ .
(٥) الخضم : الأكل ملء الفم . القضم : الأكل بأطراف الأسنان .

ومنا حَكَمٌ يَقْضِي فلا يُنْقَضُ ما يَقْضِي
وتنسب إليه حكم ووصايا كثيرة لقومه^(١).

وأكثر حكمهم وأمثالهم لا يعيّنون قائلها ، وهذا طبيعي لأنها تنبعث غالباً من أناس مجهولين من عامة القبائل ، ممن لا يمجّدون ولا يحفل بهم الناس ، وهم أيضاً لا يحفلون بأنفسهم لأنهم من العامة ، والعامة عادة لا يهتمون بنسبة فضل إليهم . ولا بد أن نلاحظ أن بعض أمثالهم يخفى المعنى المراد منه . ومن أجل ذلك كان لا يفهم إلا بالرجوع إلى كتب الأمثال ، كقولهم : « بَعَيْنِ ما أريناك » فإن معناه : أسرع ، وهو معنى لا يتبادر إلى السامع من ظاهر اللفظ ، ومن ثم علق عليه أبو هلال العسكري بقوله : « هو من الكلام الذي قد عُرِفَ معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه^(٢) » . ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن الأمثال لا تتغير ، فتقول : « الصيف ضَيَّعَتِ اللبن »^(٣) بكسر التاء إذا خاطبت الواحد والواحدة والاثنتين والاثنتين والجماعة . ومن ثم كانوا يستجيزون في المثل مخالفة النحو وقواعد التصريف والجمع ، . ففي أمثالهم : « أعط القوسَ باريها^(٤) » بتسكين الياء في باريها والقياس فتحها ، وفيها أيضاً : « أجنأوها أبناؤها » جمع جان وبان ، والقياس : « جُنَّاتُها بُنَّاتُها » لأن فاعلاً لا يجمع على أفعال .

وإذا كانت بعض الأمثال تخالف نظام التصريف والنحو فإن الكثرة الكثيرة لا تشذ على هذا النظام ، بل إن طائفة منها تدخل في الصياغة الجاهلية البليغة ، إذ نطق بها بعض بلغاتهم رفصحاتهم من أمثال أكرم بن صَيْقِي وعامر بن الظَّرب ، وكان خطبائهم المفوّهون كثيراً ما يعمدون إلى حشدها في خطابتهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع^(٥) » وتبع شعراؤهم خطباءهم يودعونها أشعارهم . ومن ثم كنا نجد كثيراً منها يتم له لحنه الموسيقي ، فإذا هو شطر

(١) البيان والتبيين ١/٤٠١ ، ٢/١٩٩ .

(٢) جمهرة الأمثال للعسكري على هامش

مجمع الأمثال للميداني ١/١٦٨ .

(٣) يضرب هذا المثل لمن يطلب حاجته

بعد فوت أوانها .

(٤) أي استعن على ما تعمل بأهل الخلق

والمهارة .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

أو بيت . وكثيراً ما نلاحظ في بعض عباراتها احتفالا بتوازن الكلمات توازناً ينتهي بها إلى السجع كما نلاحظ في بعض جوانبها اهتماماً بالتصوير ، ومن أجل ذلك يقول النّظام إنها « نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية ^(١) »
واقراً هذه الأمثال :

تجوع الحرّة ولا تأكل بثدّ يسيها ^(٢) — المقدرة تذهب الحفيظة — مقتل الرجل بين فكّيه ^(٣) — إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه — من استرعى الذئب ظلم — في الجريرة تشترك العشيرة ^(٤) — وقد يأتلك بالأخبار من لم تزود ^(٥) — كذى العرّ يَكْوِي غيره وهو راتع ^(٦) — استنوق الجمل ^(٧) — كالمستجير من الرمضاء بالنار ^(٨) — حلسب الدهر أشطّره ^(٩) — يخبّط خبّط عشواء ^(١٠) — المنيّة ولا الدنيّة ^(١١) — تحت الرّغوة اللبن الصّريح ^(١٢) — هُدنة على دخن ^(١٣) — رمتني بدائها وانسلت .
فإنك تحس جمال الصياغة وأن صاحب المثل قد يعمد إلى ضرب من التنعيم الموسيقي للفظه ، فإذا هو يسجع فيه أو إذا هو ينظمه شطراً من بيت . وقد يعمد إلى ضرب من الأخيلة ، ليجسم المعنى ويزيده حدة وقوة . والحق أن كل شيء يؤكد أن العرب في الجاهلية عُنُوا بمنطقهم واستظهار ضروب من الجمال فيه ، سواء ضربوا أمثالهم أو تحدثوا أو خطبوا ، وقد وصفهم جحلّ وعزّ أو وصف فريقاً منهم بقوله : « ولتعرفنّهم في لَحْنِ القول » وقوله : « ومن الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا » . وكأنما أصبحت المقدرة البيانية عندهم سليقة من سلاقتهم ، ولذلك لم يكن عجباً أن تكون آية الرسول صلى الله عليه وسلم على صدق رسالته معجزةً بلاغية لا يستطيعون أن يجاروها هي القرآن الكريم . « وإنه لكتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

- | | |
|---|--|
| (١) مجمع الأمثال ٥/١ . | (٨) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة . |
| (٢) يضرب في صيانة الرجل الكريم نفسه عن المكاسب الخسيسة . | (٩) أشطّره : الأشر : أخلاف الناقة ، يضرب مثلاً لمن عرك الدهر . |
| (٣) بين فكّيه : أي لسانه وما يتكلم به . | (١٠) العشواء : الناقة ضعيفة البصر ، يضرب مثلاً في التعثر . |
| (٤) الجريرة : الجناية . | (١١) الدنيّة : العمل الدنيء . |
| (٥) شطر بيت لطرفة . | (١٢) الصريح : الخالص . |
| (٦) شطر بيت للنايفة . | (١٣) دخن : حقد . |
| (٧) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلاً لمن يظهر أن عنده رأياً ثم يتضح عجزه . | |

الخطابة

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية ، لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه وعصور تدوينها ، ولذلك كان ينبغي أن نحترس مما رواه منها صاحب الأملى وصاحب العقد الفريد ، فأكثره أو جمهوره منحول . على أن اتهمنا لنصوصها لا ينتهى بنا إلى إنكارها على الجاهليين ، بل إنه لا ينتهى بنا إلى إنكار ازدهارها كما حاول بعض الباحثين^(١) ، فقد كان كل شيء عندهم يؤهل لهذا الازدهار ، إذ لم يكن ينقصهم شيء من الحرية ، وكثرت المنازعات والخصومات بينهم والدعوة إلى الحرب مرة وإلى السلم مرة أخرى . وقد اتخذوا من مجالسهم في مضارب بخيامهم ومن أسواقهم ومن ساحات الأمراء ووفاداتهم عليهم ميادين لإظهار براعتهم وتفننهم في المقال وحوك الكلام ، وأسعفتهم في ذلك ملكاتهم البيانية وما فُطروا عليه من خلاصة ولّسن وبيان وفصاحة وحضور بديهة ، حتى ليقول الجاحظ : « وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجمالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام . . عند المقارعة أو المناقلة أو عند صراع أو في حرب ، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب وإلى العمود الذي إليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالا (أفواجا) وتنثال عليه الألفاظ انثيالا . . وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، وله أقهر ، وكل واحد في نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطبائهم للكلام أوجد ، والكلام عليهم أسهل ، وهو عليهم أيسر . . من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب^(٢) » .

وكل ذلك عمل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ، وأن تتناول أغراضاً مختلفة ، فقد استخدموها في منافراتهم ومفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب ، كمنافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل إلى هريم بن قُطَيْبَة الفزاري^(٣) ومنافرة

(١) في الأدب الجاهلي لطلح حسين ص ٣٧٤ . (٢) أغاني (سأى) ٥١/١٥ .

(٢) البيان والتبيين ٢٨/٣ .

القعقاع بن معبد التميمي وخالد بن مالك النهشلي إلى ربيعة بن حنذار الأسدي^(١) .
واستخدموها في الحضر على القتال وبعث الموجددة في نفوس قبائلهم ودفعها إلى
نيران الحرب وتراهم في أوارها كأنهم الفراش ، يقول أبو زُبَيْد الطائي^(٢) :

وخطيب إذا تمعرت الأَوْ جهُ يوماً في ماقِطٍ مشهود^(٣)

ويقول عامر المحاربي في مديح قومه^(٤) :

وهم يدْعَمُونَ القولَ في كل موطنٍ بكل خطيبٍ يترك القوم كُظْماً^(٥)
يقوم فلا يعيا الكلامَ خطيبُنَا إذا الكرب أنسى الجبس أن يتكلما^(٦)

وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحرب وسفك الدماء كانوا يدعون إلى الصلح
وإصلاح ذات البين وأن تضع الحرب أوزارها ، يقول ربيعة بن مقروم الضبي^(٧) :

ومتى تَقُمُ عند اجتماع عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

وكانوا كثيراً ما يخطبون في وفادتهم على الأمراء ، إذ يقف رئيس الوفد بين يدي
الأمير من الغساسنة أو المناذرة ، فيحياه ، متحدثاً بلسان قومه ، وفي السيرة النبوية
ما يصور جانباً من هذه الوفود ، إذ وفد كثير منها على الرسول منذ السنة الثامنة ، وكان
يقوم خطيب الوفد بين يديه متحدثاً ، ويرد عليه خطيب الرسول على نحو ما هو
معروف عن وفد تميم وخطبة عطار بن حجاب بن زُرارة بين يديه^(٨) . وكان ذلك
سنة شائعة بينهم في الجاهلية حين يفدون على الأمراء أو على من له رئاسة وسيادة .
يقول أوس بن حجر في رثاء فضالة بن كَلْدَة^(٩) :

أبادُلَيْجَةً مَنْ يَكْفِي العشيرة إذ أَمْسُوا من الخطبِ في نارٍ وبلْبَالٍ
أَمْ من يكون خطيبَ القوم إذ حَفَلُوا لدى الملوك ذوى أَيْدٍ وَأَفْضَالٍ^(١٠)

(١) البيان والتبيين ٢/٢٧٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٧٦ .

(٣) تمعرت الوجوه : تغيرت واصفرت .
الماقط : موضع القتال .

(٤) المفضليات ، القصيدة ٩١ .

(٥) كظماً : جمع كاظم وهو الساكت غيظاً .

(٦) الجبس : اللثيم المنقطع .

(٧) أغاني (سأسي) ٩/٩٣١ .

(٨) تاريخ الطبري ، القسم الأول ص ١٧١١

والأغاني (طبعة دار الكتب) ٤/١٤٦ .

(٩) نقد الشعر لقدماء (طبعة الجوائب)

ص ٣٥ وديوان أوس (طبعة بيروت) ص ١٠٣

(١٠) أيد : قوة .

وقد يتسبرون في الأسواق العظام ينصحون قومهم ويرشدونهم ، على نحو ما هو معروف عن قُسٍّ وخطبته بسوق عكاظ ، وربما نصح الخطيب عشيرته وقومه الأقربين ، كبعض ما يروى عن عامر بن الظرب وأكثم بن صيفي . وكان من عادتهم في الزواج ، وخاصة زواج أشرافهم وأبنائهم أن يتقدم عن الخاطب سيد من عشيرته ، يخطب باسمه الفتاة التي يريد الاقتران بها ، وخطبة أبي طالب السيدة خديجة للرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة ، ويقول الجاحظ : « كانت خطبة قريش في الجاهلية - يعني خطبة النساء - : باسمك اللهم ذكرت فلانة ، وفلان بها مشغوف ، باسمك اللهم ، لك ما سألت ، ولنا ما أعطيت »^(١) . ويقول كان من عادة العرب في هذه الخطبة أن يطيل الخاطب ويقصر الحبيب^(٢) ، ويتحدث عن خطاباتهم عامة فيقول : « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل الممدّر والوبّر والبدو والحضر على ضربين منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستويّاً في الجودة ، ومتشاكلاً في استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقر الحسن والنثف الجياد . . . ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع »^(٣) .

وليس كل ما يدل على ازدهار الخطابة في الجاهلية ما رأيناه آنفاً من تعدد أنواعها وخصوصها في أغراض مختلفة من المصاهرة أو الوفاة على الأمراء أو النصيح والإرشاد أو الدعوة إلى الحرب أو الكف عن القتال أو في المنافرات والمفاخرات ، فقد استقر في نفوس العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ أنهم كانوا يكثر من الخطب وأن قبيلة من القبائل بل عشيرة من العشائر لم تكن تخلو من خطيب ، وهو يسوق في البيان والتبيين أثباتاً طويلة بأسمائهم ومواقفهم مؤرداً من حين إلى حين فقراً وشظايا من أقوالهم . ولعل من الخير أن نعرض أطرافاً من ذلك ، حتى تتضح لنا هذه النهضة الخطابية عندهم من بعض وجوهها ، وخاصة أننا لا نطمئن إلى ما يروى لهم في كتب الأدب والتاريخ من خطب ، ومن ثمّ سنعمد عمداً إلى سرد أسماء خطبائهم من جهة وإنشاد بعض الأشعار التي تصور بيانهم وبراعتهم في هذا اللون من ألوان نثرهم : لما هو معروف من أن الشعر يمكن أن ينقل عن طريق الرواية آماداً من الأئمة بفضل ما فيه من موسيقى تحفظه من الاضطراب على ألسنة الرواة

(٣) البيان والتبيين ٧/٢ .

(١) البيان والتبيين ٤٠٨/١ .

(٢) البيان والتبيين ١١٦/١ .

وتحولُ بينه وبين دخول خلل واسع في صورَه الأصلية .

وإذا رجعنا نستعرض أسماء خطبائهم وجدنا البيان والتبيين يموج بهم ، من مثل قيس بن شماس في يثرب ، وابنه ثابت وهو خطيب النبي صلى الله عليه وسلم . ومن خطباء الأنصار أيضاً سعد بن الربيع ، وهو الذي اعترضت ابنته النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد ابن الربيع^(١) . أما مكة فمن قدماء خطبائها هاشم وأمية ونُفَيْل بن عبد العزى جد عمر بن الخطاب ، وإليه تنافر عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية^(٢) . ويظهر أنه كان فيها خطباء كثيرون ، وربما كان مما هيا لكثرتهم وجود دار الندوة بها ، وهي تشبه مجلس شيوخ مصغراً ، كانوا يجتمعون فيها ويخطبون ويتحاورون^(٣) ، ومن عُرف فيها بالخطابة عتبة بن ربيعة وسُهَيْل بن عمرو الأعلم ، وهو الذي قال فيه عمر للرسول صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ! انزع ثنيتي^(٤) السفليين حتى يُدْلَعَ^(٥) لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً » فقال الرسول عليه السلام : « لا أمثل فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً ، دعه يا عمر ، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده^(٦) » ومن اشتهروا بالخطابة في القبائل عامر بن الظرب في عَمَدَوَان وربيعة^(٧) بن حُذَار في أَسَد وحنظلة بن ضرار في ضَبَّة وقد طال عمره حتى أدرك يوم الحمل^(٨) ، وعمرو ابن كلثوم في تغلب^(٩) وهاني بن قبيصة في شيبان ، وهو خطيب يوم ذي قار^(١٠) ، وزهير بن جَنَاب في كَلْب وقُضَاعَة^(١١) ، وابن عمار في طي ، وهو خطيب مذحج كلها^(١٢) . ومن خطبائهم لبید بن ربيعة العامري ، ومن قوله^(١٣) :

وَأَخْلَفُ قُصًّا لَيْتَنِي وَلَوْ أَنِّي وَأُعْبَى عَلَى لَقْمَانٍ حَكَمَ التَّدْبِيرُ

وهيذان بن شَيْخ الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه : رب خطيب من عَبَسَ^(١٤) ، وخُوَيْلِد بن عمرو والعُشْرَاء بن جابر الغطفانيان^(١٥) ، ومن خطباء

- | | |
|--|------------------------------|
| (١) البيان والتبيين ٣٥٨/١ - ٣٦٠ . | (٨) نفس المصدر ٣٤١/١ . |
| (٢) تاريخ الطبري ، القسم الأول ص ١٠٩١ . | (٩) نفس المصدر ١٤١/٢ . |
| (٣) السيرة النبوية (طبعة الحلبي) ١٢٤/٢ . | (١٠) أغاني (ساسي) ١٣٧/٢٠ . |
| (٤) الثنيتان : الأضراس في مقدم الفم . | (١١) نفس المصدر ٦٥/٢١ . |
| (٥) يدلّع : يسترخي ، فلا يحسن النطق . | (١٢) البيان والتبيين ٣٤٩/١ . |
| (٦) البيان والتبيين ٣١٧/١ . | (١٣) البيان والبيان ١٨٩/١ . |
| (٧) نفس المصدر ٣٦٥/١ والأغاني | (١٤) البيان والتبيين ٢٧٣/١ . |
| (ساسي) ٦١/١٠ . | (١٥) نفس المصدر ٣٥٠/١ . |

غطفان أيضاً قيس بن خارجة بن سنان الذي خطب في حرب داحس والغبراء يوماً إلى الليل^(١) وهــرِم بن قُطَيْبَة الفزاري^(٢) الذي احتكم إليه علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، فقال لهما - كما مر بنا - : « أنتما كركبتى البعير الأدْرَم (الفحل) تقعان على الأرض معاً^(٣) » .

ومن خطباء تميم المفوّهين أكرم بن صيفى وضَمْرَة بن ضَمْرَة، ويروى أنه لما دخل على النعمان بن المنذر زَرَى عليه للذي رأى من دَمَامته وقصره وقلته، فقال للنعمان : « تسمعُ بالمُعَيْدِيّ لأن تراه » فقال : أبيتَ اللَّعن ! « إن الرجال لا تُكَال بالقُفْزَان^(٤) ولا توزن بالميزان، وليست بمُسُوك^(٥) يُسْتَقَى بها، وإنما المرء بأصغريه : بقلبه ولسانه، إن صال صال بِجَنَان، وإن قال قال ببيان^(٦) » . ومن خطباء تميم أيضاً عَطَّار دبن حاسب بن زُرارة وهو خطيب وفدها، كما مر بنا بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنهم عمرو بن الأَهم المنقرى ، ولم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه^(٧) ، ويروى أن الرسول سأله عن الزَّبْرَقَان بن بدر فقال « مانعٌ لحوزته ، مطاعٌ في أدنّيه » فقال الزَّبْرَقَان : « أما إنه قد علم أكثر مما قال ، ولكنه حسدنى شرفى » فقال عمرو : « أما لئن قال ما قال ، فوالله ما علمته إلا ضيقتُ الصدر ، زَمِير^(٨) المروعة ، لثيم الخال، حديث الغنى . فلما رأى أنه قد خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى الإنكار في عيني رسول الله قال : « يا رسول الله ! رضيتُ فقلتُ أحسن ما علمت ، وغضبتُ فقلتُ أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الآخرة » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : « إن من البيان لسحراً^(٩) » . ومن خطباء بني منقر التميميين أيضاً قيس بن عاصم الذي قال فيه الرسول صلوات الله عليه حين رآه : هذا سيدُ أهل الوبر^(١٠) ، وهو الذي قال فيه عَبْدَة بن الطبيب حين مات^(١١) :

وما كان قيسٌ هُلكُهُ هُلكٌ واحدٍ ولكنه بُنيانٌ قومٍ تهدّما

(٧) البيان والتبيين ١/٣٥٥ .

(٨) زمر : قليل .

(٩) البيان والتبيين ١/٥٣ .

(١٠) البيان والتبيين ٢/٣٣ .

(١١) البيان والتبيين ٢/٣٥٣ .

(١) البيان والتبيين ١/١١٦ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٦٥ .

(٣) أغاني (سامي) ١٥/٥١ .

(٤) القفزان : جمع قفّيز ، وهو مكيال عراقي .

(٥) المسوك : جمع مسك وهو الجلد .

(٦) البيان والتبيين ١/١٧١ .

ومن خطباء إِيَاد قُسُّ بن ساعدة، وهو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : رأيتُه بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعَمُوا ، من عاش مات، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت^(١) . ويقول الجاحظ : « ولإِيَاد خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى رَوَى كلام قُسِّ بن ساعدة وموقفه على جملة بعكاظ وعظته ، وهو الذى رواه لقريش وللعرب ، وهو الذى عَجَّب من حُسْنه وأظهر من تصويبه . وهذا إسنادٌ تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال^(٢) » . على أن ابن حَجَر اتهم هذا الإسناد^(٣) ، وخاصة بعد توسُّع الرواة فى خطبة قس وتحميلهم لها إشارات بقرب مبعث الرسول عليه السلام، ومما لا ريب فيه أن لها أصلاً صحيحاً تزيد فيه الرواة .

وواضح أن هذه كثرة من الخطباء الجاهليين ، إن لم يصح ما أُثِر عنهم من خطب فإن من المحقق أنهم خطبوا كثيراً فى أقوامهم وقبائلهم وإلا ما اشتهروا بالبراعة فى هذا اللون من ألوان اللِّسَنِ والبيان . وكان مما بعثهم على إحسانه حاجتهم إليه فى مواطن ومواقف عدة، وكان قلما يرتفع نجم سيد من ساداتهم إلا والخطابة صفة من صفاته وسجية من سجايه، حتى تساق له القلوب بأزمته وتُجمع له النفوس المختلفة من أقطارها . وكل شيء يؤكد أن منزلة الخطيب عندهم كانت فوق منزلة الشاعر ، فهى قرين السؤدد والشرف والرياسة ، يقول أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرض حاجتهم إلى الشعر الذى يقيّد عليهم مآثرهم ، ويفخم شأنهم، ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم، ويهيّب من فرسانهم، ويخوّف من كثرة عددهم ، ويهاجم شاعر غيرهم ، فيراقب شاعرهم . فلما كثّر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورجلوا إلى السوق وتسرحوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر^(٤) » . وعلى هدى هذا القول مضى الجاحظ يقول : « كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوج لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم ، فلما كثّر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر^(٥) » .

وقارن باللائق المصنوعة للسيوطى ٩٥/١ .

(٤) البيان والتبيين ٢٤١/١ .

(٥) البيان والتبيين ٨٣/٤ .

(١) البيان والتبيين ٣٠٨/١ .

(٢) نفس المصدر ٥٢/١ .

(٣) السيرة الحلبية (طبعة مصر) ٢١٠/١ .

وربما كان من أسباب ذلك أن الشاعر — إذا استثنينا زهيراً — كان هو الذي يهيج النفوس للحرب بما يدعو للأخذ بالثأر ، أما الخطيب فكان غالباً يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها ، وكثيراً ما يقف من قومه موقف الناصح الأمين يهديهم ويرشدهم ، أما الشاعر فأكثر مواقفه هجاء وتنايد بالألقاب والأحساب والمآثر والمعائب .

وقد تعارف خطباؤهم على جملة من السنن والتقاليد في خطاباتهم ، فكانوا يخطبون على رءوسهم في الأسواق العظام والمجامع الكبار^(١) ، وقد لاثوا العمائم على رؤوسهم ، وفي أثناء خطاباتهم كانوا يمسكون بالعصي والخناصر والقضبان والقنن والقيسي راكبين أو واقفين على مرتفع من الأرض ، وأشار إلى ذلك لبيد إذ يقول^(٢) :

ما إنَّ أَهَابُ إِذَا السُّرَادِقُ عَمَّهُ قَرَعُ الْقَيْسِيُّ وَأَرْعَشَ الرَّعْدِيدُ

ووقفت الشعوبية طويلاً عند عادة خطباء العرب من اتخاذ العصي والخناصر ، وردت عليهم الجاحظ في بيانه مبيناً فوائد العصا ، ومن قوله في تلك العادة : « إن حَمَلُ العصا والمخضرة دليل على التأهب للخطبة والتهيؤ للإطناج والإطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصود عليهم ومنسوب إليهم ، حتى إنهم ليذهبون في حواراتهم ، والمخاصر بأيديهم إلفاً لها وتوقعاً لبعض ما يوجب حملها والإشارة بها^(٣) » وكانوا يمدحون في الخطيب ثبات الجنان وحضور البديهة وقلة التلفت وكثرة الريق وجهارة الصوت وقوته ، وكانوا يعيبون فيه التنحنع والارتعاش والحصر والتعثر في الكلام ، يقول النَّمِر بن تَوَلِّب^(٤) :

أَعَذَّنِي رَبٌّ مِنْ حَصَرٍ وَعِيٍّ وَمِنْ نَفْسٍ أَعَالَجَهَا عَلاَجًا
ويقول أبو العيال الهذلي :

وَلَا حَصْرٌ بِخُطْبَتِهِ إِذَا مَا عَزَّتِ الْخُطْبُ

وذموا في الخطيب أن يُكثر من مسسه لذقنه وشواربه ولحيته ، وكأنما رأوا في ذلك

(٤) انظر في هذا البيت وقاليه البيان والتبيين

٣/١ .

(١) البيان والتبيين ٧/٣ .

(٢) نفس المصدر ٣٧٢/١ ، ٩/٣ .

(٣) البيان والتبيين ١١٧/٣ .

ضرباً من الخرق في استخدام الجوارح ، يقول معن بن أوس المزني في بعض هجائه (١) :

إذا اجتمع القبائلُ جِثَّتْ رِدْفاً وراء الماسحين لك السبب (٢)
فلا تُعطى عصا الخطباء فيهم وقد تُكفى المقادة والمقالا

وكثيراً ما كانوا يتزيدون في جهازة الصوت وينتحلون سعة الأشداق وهذل الشفاء ، ومن أجل ذلك قال الرسول صلوات الله عليه : إياي والتشادق ، وقال : أبغضكم إلى الثرثارون المتفسيهون (٣) .

وإذا ذهبنا نستنطق النصوص عن أساليب خطابهم ، وهل كانوا يعمدون فيها إلى الأسلوب المرسل أو إلى الأسلوب المسجع وجدنا أنفسنا بإزاء تراث متهم لا يمكن الاعتماد عليه في الاستنتاج ، لما قلنا مراراً من أن حقبة متطاولة تفصل بين العصر الذي دُوِّنت فيه تلك الخطب والآخر الذي قيلت فيه . ومع أن الكثرة الكثيرة من هذه الخطب منتحلة نلاحظ أن من نحلوها الجاهليين إنما قاسوها على أمثلة رويت لهم ، فإذا لاحظنا أن أكثر مفاخراتهم ومنافراتهم روي مسجوعاً كان معنى ذلك أنه ثبت عند من نحلوها الجاهليين هذه المفاخرات والمنافرات أنهم كانوا يسجعون فيها . وتستطيع أن ترجع إلى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية وتحكيمهما لنُفَيْسِل بن عبد العزى في تاريخ الطبري (٤) فستجدها مسجوعة ، ومثلها منافرة جرير بن عبد الله البجلي وخالد بن أرقطاة الكلبي إلى الأقرع بن حابس ، فقد رويت في شرح نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة ، وهي مسجوعة (٥) ، ومثلها منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل المروية في كتاب الأغاني ، فهي الأخرى مبنية على السجع (٦) . ويجعل الجاحظ ذلك قاعدة عامة أو كالقاعدة العامة ، فيقول : « إن ضمرة بن ضمرة وهريم بن قُطبة والأقرع بن حابس ونُفَيْسِل بن عبد العزى كانوا يحكمون وينفرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حُندار (٧) »

(٤) الطبري ، القسم الأول ص ١٠٩١ .

(٥) النقائض ١/١٤١ .

(٦) أغاني (طبعة الساسي) ١٥/٥١ .

(٧) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

(١) البيان والتبيين ١/٣٧٢ .

(٢) السبال : مقدم اللحية . يهجو به بأنه ليس رئيساً ولا خطيباً .

(٣) البيان والتبيين ١/١٣ . المتفهيق :

الذي يفتح بالكلام جوانب فمه ويملؤه به .

كما يقول في موضع آخر إنهم كانوا يستخدمون الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة ،
بينما كانوا يستعملون المنشور المرسل في خطب الصلح وسكّ السخيمة وعند المعاقدة
والمعاهدة . وكأنهم عرفوا في الجاهلية لونين من الخطابة لوناً مسجوعاً ولوناً مرسلًا .
ولا تظن أنهم في خطابتهم المرسل لم يكونوا يروّون فقد كانوا يعمدون إلى ما يثير
السامعين من كلم بليغ ، حتى يؤثروا فيهم ويبلغوا ما يريدون من استمالتهم ،
يقول الجاحظ : « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم في طوال القصائد وفي صنعة طوال
الخطب ، وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأي في معاظم التدبير ومهمّات الأمور ميثوه^(١)
في صدورهم وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومته الشّفاف ، وأدّخل الكبير ، وقام على
الخلاص أبرزوه محكّكاً منقحاً ومُصنّفًى من الأدّ ناس مهذباً^(٢) » .

ومن يقرأ الفقر القصار والمحاورات المختصرة التي بقيت من تراثهم ، تلك التي
يرويها الجاحظ ، يشعر حقاً أنهم كانوا يبتغون التجويد في كلامهم ، تارة بما
يصوغونه فيه من سجع ، وتارة أخرى بما يخرجونه فيه من استعارات وأخيلة .
ودائماً يعنون ببهاء اللفظ وقوته ونصاعته ، كما يعنون بوضوح الحجّة ، وتصوّر أشعارهم
جوانباً من ذلك كقول لبيد لهزم بن قُطَيْبَة حين احتكم إليه عامر بن الطفيل
وعلقمة بن عُلَازَة^(٣) :

إنك قد أوتيت حُكْماً معجِبا فَطَبَّقِ الْمَفْصِلَ وَاغْنَمِ طَيْباً
وواضح أنه يقول له : إنك قد أوتيت حكماً فاصلاً قاطعاً يفصل بين الحق
والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مَفْصِلَ الْعَظْمَيْنِ . ومن ذلك قولهم فلان يفلُّ الحَزَّ
ويصيب المَفْصِلَ ويضع الهِئَاءَ مواضع النُّقَبِ^(٤) . والعبارة الأخيرة مستعارة من
صنيع الحاذق حين يلتمّ الجرب بإبله فيضع دواءه في مواضعه الدقيقة ، يمشكون بذلك
للمصيب الموجز في خطابته وبيانه ، كما مثله في التعبيرين الأولين بالجزار الحاذق
الذي يصيب عين الموضع من جَزْوَره سواء في العظم أو في اللحم . وقد يشبهون
كلامهم بالسهم المصمّية ، ومن ثم استخدموا كلمة مِيدْرَه للشجاع والخطيب المفلق
في الوقت نفسه ، وأصل معناها المُرَامِي ، فاستعيرت من رامى السهم لرامى الكلام

(٤) نفس المصدر ١٠٧/١ . الهناء :
القطران . والنقب : أول ما يبدو من الجرب
في الإبل .

(١) ميثوه : ذلوه .
(٢) البيان والتبيين ١٤/٢ .
(٣) البيان والتبيين ١٠٦/١ .

الذى يبلغ به ما يريد من إصابة خصمه والنكابة به ، يقول زهير بن أبى سلمى^(١) :

وَمِدْرَةٌ حَرْبٍ حَمِيْهَا يُتَّقَى بِهِ شَدِيدُ الرَّجَامِ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ
ونراهم يصفون خطباءهم بأنهم مصاقع ولُسن، وافتخروا بذلك طويلا على
نحو ما نجد عند قيس بن عاصم المِنْقَرِي يصف ما فيه وفي عشيرته بنى
مِنْقَرٍ مِنَ الْخَطَابَةِ وَالْفَصَاحَةِ^(٢) :

إِنِّى أَمْرٌ لَا يَعْتَرِي خُلُقِي دَنْسٌ يُفْنِدُهُ وَلَا أَفْنٌ^(٣)
من «مِنْقَرٍ» فى بيت مكرمة والأصلُ ينبت حوله الغُصْنُ
خطباءً حين يقوم قائلهم بيض الوجوه مصاقعُ لُسن

وقد حذروا طويلا من شدة وقع اللسان ، وقالوا إن جرح اللسان كجرح اليد
ولأنه غضب وقاطع كالسيف ، يقول طرفة^(٤) :

بِحُسامِ سَيْفِكَ أَوْ لِسَانِكَ وَالْكَلِمُ الْأَصِيلُ كَأَرْغَبِ الْكَلِمِ
ولعل مما يدل دلالة قاطعة على أنهم أحسوا بجمال ما يلفظ به خطباؤهم أننا
نراهم يشبهون كلامهم بالثياب الموشاة وبالخلل والدِّياج وأشباه ذلك ، يقول
أبو قُرْدُودَةَ الطَّائِي فى رثاء ابن عَمَّارٍ خطيب مَدْحِجٍ وقد مات مقتولا^(٥) :

وَمِنْطَقِي خُرَّقَ بِالْعَوَاسِلِ لَدَّ كَوْشَى الْيُمْنَةِ الْمَرَّاحِلِ^(٦)

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن الخطابة كانت مزدهرة
فى الجاهلية ، فقد كانوا على حظ كبير من الحرية ، وكانوا يخطبون فى كل موقف :
فى المفاخرات وفى الدعوة إلى السلم أو الحرب وفى النصيح والإرشاد وفى الصهر
والزواج . وابتغوا دائماً فى كلامهم أن يؤثر فى نفوس سامعيهم بما حققوا له من ضروب
بيان وبلاغة .

(٤) البيان والتبيين ١/١٥٦ . أرغب :
أوسع : الكلم بسكون اللام : الجرح .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .
(٦) العواسل : الرماح . المراحل : جمع
مرحل وهو ما نقش فيه تصاوير الرجال .

(١) ديوان زهير (طبعة دار الكتب)
ص ٢٢٣ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢١٩ .
(٣) يفند : ينقض ويضعف . الأفن :
ضعف الرأى .

سجع الكهان

كانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطالع على الغيب وتعرف ما يأتي به الغد بما يُسَلَّى إليها توابعها من الجن ، وكان واحدها يسمَّى كاهناً كما يسمَّى تابعه الذي يوحى إليه باسم «الرَّئِيَّ» . وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم ، فكانت لهم قداسة دينية ، وكانوا يلجأون إليهم في كل شئونهم ، وقد يتخذونهم حُكَّاماً في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم ابن عبد مناف وأمّية بن عبدشمس واحتكامهما إلى الكاهن الحزاعي ، وقد نفّر هاشماً على أمية^(١) . وكانوا يستشيرونهم ويصدرون عن آرائهم في كثير من شئونهم كوفاء زوجة أو قتل رجل أو نجس ناقة^(٢) ، أو قعود عن نصرة أحلاف^(٣) ، أو نهوض لحرب ، ففي أخبار بني أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رقى لهم ، فبعث في إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهّن كاهنهم ، وهو عوف بن ربيعة ، فقال لبني أسد : « يا عبادي ! قالوا لبيك ربنا ، قال : من الملك الأصهب ، الغلاب غير المغلب ، في الإبل كأنها الربرب^(٤) ، لا يعلق رأسه الصَّخَب ، هذا دمه يَنْشَعِب^(٥) ، وهذا غداً أولٌ من يُسَلَّبُ ، قالوا : من هو يا ربنا ؟ قال : لولا أن تهجش نفس جاشية ، لأخبرتكم أنه حُجْر ضاحية . فركبوا كل صعب وذلول فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عسكر حُجْر فهجموا على قُبَّتِه « وقتلوه^(٦) . وكثيراً ما كانوا يندرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر^(٧) ، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رؤؤهم وأحلامهم^(٨) .

فنزلة كهانهم في الجاهلية كانت كبيرة ، إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم ، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تعاورها ،

-
- | | |
|-------------------------------------|---|
| (١) السيرة الحلبية ٤/١ . | (٦) أغاني ٨٤/٩ . |
| (٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ١١٨/١١ . | (٧) الأماي للقالى ١٢٦/١ والسيرة النبوية |
| (٣) أغاني ١٤٠/١١ . | ٤٣/١ ، ٢٢١ . |
| (٤) الربرب : القطيع من الظباء . | (٨) السيرة النبوية ١٥/١ وما بعدها . |
| (٥) ينشعب : يسيل . | |

ومن ثمَّ كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة، ومما يلاحظ أنهم كانوا يكثرُونَ في اليمن وفي بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة مَنْ يتعمقون في القدم، ولعل في ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب وعرب الشمال. وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم وقد يبالغ القُصَّاص، فيسمون لبعضهم صوراً خيالية، فمن ذلك أن شَيْقَ بن الصَّعْب كان شقَّ إنسان أو شطره فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيج بن ربيعة الذئبي لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وأن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق^(١)، وربما كان أحذب. ومن كهانهم في أواخر العصر الجاهلي سواد بن قارب الدَّوسِّي وقد أدرك الإسلام ودخل فيه^(٢)، ومنهم المأمور الحارثي، كاهن بني الحارث بن كعب^(٣)، وخنافر الحميري، وكان يقول إنه أسلم بمشورة تابعه «شِصار»^(٤). وأكهنهم عَزَّى سلمية، يقول الجاحظ: «أكهن العرب وأسجعهم سلمية بن أبي حنيفة وهو الذي يقال له عَزَّى سلمية»^(٥). ومن قوله^(٦): «والأرض والسماء، والعُقَاب والصَّقْعَاء، واقعةٌ بْبَقْعَاء، لقد نَفَّرَ المجدُّ بني العُشْرَاء للمجد والسناء»^(٧). ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كنَّ في الأصل من النساء اللاتي يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها، ومن أشهرهن الشَّعْثَاء^(٨) وكاهنة ذى الخلصة^(٩) والكاهنة السَّعْدِيَّة^(١٠) والزرقاء^(١١) بنت زهير والغَيْطَلَّة القرشية^(١٢) وزَبْرَاء كاهنة بني رِثَام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: «واللوح الخفاق والليل الغاسق والصباح الشارق والنَّجْم الطارق والمُزْنُ الوادق، إن شجر الوادي ليأدو وختلاً، ويَحْرِقُ أنياباً عُصْلاً، وإن صخر الطَّوْدَ ليُنْذِرُ ثُكْلًا، لا تمجدون عنه مَعْلاً»^(١٣).

-
- (١) عجائب المخلوقات للقزويني ١٧١/١. (٢) السيرة النبوية ٢٣٣/١. (٣) الأمل ٢٧٦/١ واسمه فيه المأمون، وانظر ١٥١/٣ والأغاني ٧٠/١٥. (٤) الأمل ١٣٣/١. (٥) البيان والتبيين ٣٥٨/١. (٦) نفس المصدر ٢٩٠/١. (٧) الصقعاء: الشمس، بقعاء: ماء أو موضع. نفر: حكم بالغبلة. بنو العشاء: عشيرة من فزارة. السناء: الرفعة.
- (٨) مجمع الأمثال للميداني ٩١/١. (٩) نفس المصدر ٢٢٣/١. (١٠) نفس المصدر ٥٤/٢. (١١) أغاني (دار الكتب) ٨١/١٣. (١٢) سيرة ابن هشام ٢٢١/١. (١٣) اللوح هنا: الريح. الوادق: المطر. يأدو: يختل. يحرق أنياباً عصلاً: كناية عن الغضب والشر. عصلاً: معوجة. الطود: الجبل. المعل: الملجأ. انظر الأمل ١٢٦/١.

ونحن لا نطمئن إلى ما يُروى في كتب التاريخ والأدب من أقوال جرت على السنة هؤلاء الكهان والكاهنات ، فإن بُعد المسافة بين عصور التدوين والعصر الجاهلي يجعلنا نتهم مثل هذه الأقوال ، إذ من الصعب أن تُروى بنصّها وقد مضى عليها نحو قرنين من الزمان . وإنما استشهدنا ببعض منها لندل على أنه ثبت في أذهان من تحدثوا عن الكهّان والكاهنات في الجاهلية أنهم كانوا يعتمدون على السجع في كلامهم ، ولذلك حين أجروا ألسنتهم بالكلام جعلوه مسجوعاً على شاكلة ما رويناه من أقوالهم . ومعنى ذلك أنه وُجد في العصر الجاهلي سجع كان يقوله الكهان ، وقد اختلط الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم ، فقرنوه بسجع كهنتهم وردّ عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جلّ وعز : (ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون) وقال سبحانه وتعالى : (فذكر ، فما أنت بنعمة ربك بكاهن) وقال : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون) .

ومما يدلّ على أن كهنتهم كانوا يسجعون ، بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع ، الحديث المروى عن أبي هريرة ، فقد حدث أنه « اقتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر ، فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقضى رسول الله أن دية جنيها غرة : عبد أو وليدة ، وقضى بدية المرأة على عاقلتها^(١) . . . فقال حمل بن النابغة الهذلي : يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل^(٢) ، فمثل ذلك يُطْل^(٣) ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما هذا من إخوان الكهّان ، من أجل سجعه الذي سجع^(٤) » . ويقول الجاحظ : « كان حازي (كاهن) جهينة وشيق^(٥) وسطيح وعزّي سلمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع^(٥) » . وإذا صح أن ما يروى في كتب التاريخ والأدب من سجع الكهان تقليد دقيق لما كانوا يأتون به من هذا السجع لاحظنا أنهم لم يكونوا يسجعون فحسب ،

(٤) صحيح مسلم (طبعة الآستانة) ١١٠/٥
وانظر موطأ مالك (طبع حجر بالقاهرة) ١٩٢/٢ .
(٥) البيان والتبيين ٢٨٩/١ وما بعدها .

(١) عاقلة المرأة : عصبتها الذين يتضامنون معها في دفع الدية .
(٢) استهل : صاح .
(٣) يطل : يهدر دمه .

بل كانوا يعمدون أيضاً إلى ألفاظ غامضة مبهمه ، حتى يتركوا فسحة لدى السامعين كي يؤوّل كل منهم ما يسمعه حسب فهمه وظروفه . ومن ثم دخل الرمز في كثير من أقوالهم ، إذ يومتون إلى ما يريدون إيماء ، وقلما صرحوا أو وضّحوا ، بل دائماً يأتون المعاني من بعيد ، بل قل إنهم كانوا لا يحبون أن يصوروا في وضوح معنى ، ويتخذوا له أشباحاً واضحة من اللفظ تدل عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تنبيههم الذي يقوم على الإبهام والوهم واختيار الألفاظ التي تخدع السامع وجوهاً من الخدع ، ومن ثمّ كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل .

وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذي يضاف إليهم ، فإنه يلاحظ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير . وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية ، ومن أجل ذلك يحلفون بها ، ليؤكدوا كلامهم وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين .

وهذا السجع الديني كان يقابله — كما قدمنا — سجع آخر في خطابتهم ، بل في كلامهم وأمثالهم التي دارت بينهم . ولعل في ذلك كله ما يدل على أن الجاهليين عُنُوا بنثرهم كما عُنُوا بشعرهم ، فقد ذهبوا يحاولون تحقيق قيم صوتية وتصويرية مختلفة فيه ، تكفل له جمال الصياغة وروعة الأداء .

خاتمة

خلاصة

حاولتُ في الصحف السابقة أن أؤرخ للأدب العربي في العصر الجاهلي ، فتحدثت عن صفة الجزيرة العربية وتاريخها القديم ، وكيف أنها كانت مهد الساميين ، إذ خرجوا منها موجة في إثر موجة ، وكانت موجة العرب الجنوبيين الذين يمتلأوا بحوض المحيط الهندي آخروموجاتهم ، وكانت تفصلهم من عرب الشمال صحراوات واسعة جعلتهم يستقلون عنهم في لغتهم وخصائصها النحوية ، كما جعلتهم يستقلون عنهم في حضارتهم . ومع ذلك فقد ظلت قائمة بين الجنوبيين والشماليين أو القحطانيين والعدنانيين صلات اقتصادية ودينية وسياسية أتاحت لهم ضروباً من التداخل والتشابك . واستطاع الشماليون أن ينفذوا في آخر الأمر إلى صورة خطتهم العربي المعروف .

ومضيتُ أتحدث عن العصر الجاهلي وحدّته بنحو قرن ونصف قبل الإسلام ، أما ما قبل ذلك فهو الجاهلية الأولى ، وكل ما بأيدينا من شعر قديم إنما يرجع إلى العصر الجاهلي أو الجاهلية الثانية . ونحن نفاجأ في أول هذا العصر باكتمال الخط العربي ، كما نفاجأ بهذا الشعر الناضج الذي يضاف إلى الجاهليين . وأخبارهم واضحة تمام الوضوح ، فقد كانت تقوم في الشمال إمارات الغساسنة والمناذرة وكندة ، بينما كانت تتجمع قلوب العرب حول مكة ، فهي بيت كعبتهم وعبادتهم الوثنية ، وهي مركز تجارتهم وقوافلهم التي تربط بين حوضي المحيط الهندي والبحر المتوسط ، ووراءها قبائلهم البدوية ، وكانت تنتظم قسمين كبيرين من عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين الذين هاجروا من ديارهم إلى ديار الشماليين منذ أزمان بعيدة . وكانت كل قبيلة وحدة قائمة بنفسها ، وهي وحدة دعمها وشائج متينة من العصبية . وكان لكل قبيلة سيد ومجلس يضم شيوخ عشائرها ، وواجبات السيد دائماً أكبر من حقوقه ، ومن ورائه أفراد قبيلته متضامنين أوثق ما يكون التضامن ، وخاصة حين يُطلب ثأر أو تنشب حرب ، وقد تحولوا بجزييتهم إلى ما يشبه ميداناً حربياً كبيراً ، ففي كل مكان عراك وقتال وفي كل مكان دماء تسيل . ولهم حروب

مشهورة سجلها علماء اللغة والأدب في العصر العباسي كحرب البستوس وحرب
داحس والغبراء .

وانتقلت من ذلك أبحاث في حياتهم وأحوالهم الاجتماعية ولاحظت أن مجتمع
القبيلة كان يتألف من ثلاث طبقات ، هي أبناؤها ومواليها وعبيدها ، وكان أهم
شئ يشد من بنيان هذا المجتمع حرصهم على الشرف وما سموه المروءة ، إذ كان
كل منهم يحرص على البذل والشجاعة والوفاء وحماية الجار وإباء الضيم ، وتخللت
ذلك آفات ، أهمها : الخمر والقمار واستباحة النساء . وقد تأخذ هذه الآفات
عند بعض الشباب أمثال طرفة شكل فتوة جاحدة . ومن المؤكد أنه كان للمرأة الحرة
عندهم منزلة كريمة . ولم تكن معيشتهم واحدة ، فقد كانت الزراعة منتشرة في
الجنوب والشرق وواحات الحجاز ، وكان أهل مكة يعيشون على التجارة ، على حين كان
البدو يعيشون على رعى الأغنام والأنعام وصيد الحيوان ، وكان بينهم سادة يملكون
مئات الإبل وصعاليك لا يملكون شيئاً . ومع أنهم كانوا على صلة بالحضارات
المجاورة كانوا لا يزالون أقرب إلى طور البداوة ، وكان علم الأنساب أهم علومهم ،
ولم يكن لهم وراءه إلا معارف محدودة تقوم على التجربة الناقصة كبعض معارفهم
الطبية والفلكية . وكانت كثرتهم وثنية تتعبد لآلهة وأصنام وأوثان كثيرة ، وكانت
الكعبة في مكة أكبر معابدهم ، وكانوا يجمعون إليها في أشهر معلومات . على أن
نفرًا منهم شكوا في أواخر هذا العصر في دينهم الوثني والتمسوا دين إبراهيم ويسمى
المتحنفة والحنفاء وكانما كانوا إرهاباً لظهور الإسلام والدعوة المحمدية . وكانت
النصرانية في أثناء ذلك تنتشر في القبائل الحاذية للشام والعراق بينما كان كثير من
اليهود ينزلون في واهات الحجاز وفي اليمن ، وتعربت كثرتهم إلا أن العرب ظلوا يزدرونهم
وينفرون من دينهم .

ولما تم لي بيان هذه الجوانب أخذت أبحث في اللغة العربية وعناصرها السامية
القديمة ، ووقفت عند أقدم لهجاتها المشتقة في النقوش ، وهي الثمودية واللحيانية
والصقوية ، تلك التي كتبت نقوشها بالخط المسند الجنوبي ، ثم اللهجة النبطية ،
وكانت نقوشها تكتب بالخط الآرامي ، ومنه نشأ تطور الخط العربي في الحجاز .
وتختلف هذه اللهجات الأربع اختلافات كثيرة عن لغة الجاهليين ، وإن كان

من المؤكد أن اللهجة النبطية أقربها جميعاً إليها ، وقد أخذت في الدثور منذ القرن الثالث للميلاد ، بينما أخذت تحل محلها مقدمات الفصحى بحيث لا نصل إلى نهاية القرن الخامس وأوائل السادس الميلادي حتى تتكامل تكاملاً تاماً وتعم بين القبائل النجدية وفي الحيرة وبين الغساسنة ، وتصبح هي اللغة العامة المتداولة بين الشعراء . وكانت هناك لهجات قبلية كثيرة ولكن الفصحى ظفرت بها جميعاً في المجال الأدبي ، بحيث كان الشعراء في كل قبيلة ينظمون بها مرتفعين عن لهجاتهم القبلية أو المحلية . وقد حار المستشرقون طويلاً في معرفة اللهجة التي سادت بين القبائل في الشمال وأصبحت اللهجة الأدبية الشائعة على كل لسان ، وأثبت أنها لهجة قريش ، إذ تآزرت بواعث دينية واقتصادية وسياسية على أن تم لها هذه السيادة منذ أوائل العصر الجاهلي .

وبحث عقب ذلك في رواية الشعر الجاهلي وتدوينه ، مبيناً كيف تضافرت جهود القبائل العربية ورجالها وشعرائها على حتمه جيلاً بعد جيل ، حتى تسلمه منهم طبقة من الرواة المحترفين في البصرة والكوفة ، وكان بينهم الثقة الذي لا يرتفع شك إلى روايته مثل المفضل الضبي والأصمعي والمتهم الذي يجمع العلماء على إبطال روايته مثل حماد وخلف الأحمر . وفي تضاعيف ذلك كان الشعر الجاهلي يدون ، بحيث لا نصل إلى أوائل القرن الثالث للهجرة حتى يتكامل تدوينه . والذي لا شك فيه أنه دخله انتحال كثير ، ولم يكن القدماء غائبين عن ذلك ، فقد نصروا على كل ما شكوا فيه من رُواة ومن شعر ، حتى يحيطوه بسياج من التوثيق ، أو بعبارة أدق حتى يحيطوا الصحيح منه . ومنذ أواسط القرن الماضي يلم المستشرقون بالمشكلة ، واندفع منهم مرجليوث في هذا القرن يزعم أن الشعر الجاهلي جميعه منحول على أهله ، وهب كثير من المستشرقين يردون عليه ، ومن ذهب مذهبه في تعميم الحكم على الشعر الجاهلي بالانتحال والوضع طه حسين ، وإن لم يتسع بحكمه اتساع مرجليوث ، وعلى همدى من آراء طه حسين ومرجليوث جميعاً تناول القضية بلاشير في الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأدب العربي » . وقد ناقشت آراءه وآراء غيره من الباحثين ، وانتهيت إلى أن هناك شعراً منتحلاً كثيراً لا سبيل إلى الثقة به ، ولكن بجانبه شعر صحيح رواه الثقات وعلى رأسهم المفضل الضبي

والأصمعي ، وهو الذي نستند عليه في دراسة الأدب الجاهلي ، دراسة نُخضعه فيها لبحث داخلي دقيق . ومن أجل ذلك وقفتُ عند مصادره لأدلّ على قيمتها ومدى توثقها .

ومضيتُ أبحث في خصائص الشعر الجاهلي ، فتحدثت عن نشأته وأنها انطمرت في ثنايا الجاهلية الأولى، بحيث لا نجد منذ أوائل العصر الجاهلي أو الجاهلية الثانية شيئاً نستين منه طفولته ، إنما نجد هذه الصورة الندوذجية المعروفة للقصيد الجاهلي ، وهي صورة شاعت بين القبائل جميعاً ، وكان للقبائل المضرية منها بالذات الحظ الأوفر . ووقفتُ عند موضوعاته ، ولاحظت فيها بقايا من الصلة القديمة بين شعرهم والأناشيد الدينية التي كانوا يرتلون لها لأهنتهم ، كما وقفتُ عند معانيه ولاحظت أنها حسية تغلب عليها السطحية والتقريرية والسرعة السريعة، أما ألفاظه فكاملة الصياغة حافلة بالصقل والتجويد، زاخرة بقيم موسيقية وتصويرية كثيرة .

وأفردتُ بعد ذلك فصلاً لأربعة من الشعراء ، يعدهم النقاد السابقين المجلّين في العصر الجاهلي ، وهم امرؤ القيس والنابعة وزهير والأعشى . واعتمدت في دراسة الثلاثة الأولين على رواية الأصمعي لدواوينهم ، وبدأت بامرئ القيس ، فتحدثت عن حياته وكيف دخلتها الأسطورة ، ثم تحدثت عن ديوانه ، وبحثه بحثاً داخلياً ، فإذا أكثر ما يضاف إليه تشوبه الريبة بشهادة الأصمعي ، واستظهرت أن تكون المعالقة وتاليتها في ديوانه صحيحتين في جملتهما ومثلتهما القصيدتان الحادية عشرة والسابعة والعشرون لأنهما من رواية أبي عمرو بن العلاء ، الثقة الصدوق . ولا يبقى له بعد ذلك إلا مقطوعات قصيرة تعرض فيها لمن أجاروه ومن رفضوا جواره . واستطعتُ من خلال هذه النصوص القليلة أن أوزع شعره على دورتين في حياته، دورة غلب عليه فيها اللهو والعبث، ودورة ثانية غلب عليه فيها الحزن والإحساس بسوء المصير . وأخيراً صورتُ خصائصه الفنية مبيناً منزلته في الشعر الجاهلي وكيف عُدَّ أباه غير منازع ولا مدافع .

وبحثتُ بعده النابعة الذبياني ، فتحدثت عن حياته ، وكيف أمضاها في بلاط المناذرة والغساسنة سفيراً لقومه الذبيانيين ، وكيف كان يحتلّ بين الشعراء مكانة مرموقة في داخل الجزيرة وفي مكة وسوق عكاظ . وبحثُ في ديوانه على ضوء رواية

الأصمعي ، وأنكرت منها خمس قصائده على رأسها قصيدته في المتجردة . وشعره من هذه الناحية أوثق من شعر امرئ القيس لأنه أقرب منه عهداً ، ولم تدخل الأسطورة في حياته ولا في شعره . ووقفتُ عندما اشتهر به من مديح واعتذار ، مبيناً قدرته على الوصف ورصف الموضوعات وتنسيق المعاني وابتكار الصور والأخيلة ، يهديه في ذلك كله ذوق مهذب ، هذبته الحضارة التي نعم بها في الحيرة وعند الغساسنة ، فإذا هو صاحب حسن دقيق وشعور رقيق .

وكان يعاصره زهير بن أبي سلمى المزني ، وقد نشأ في بني مرة الديبانيين بحيث عُددَ فيهم ، وتصادف أن كان خاله شاعراً وأن كان زوج أمه أوس بن حجر من كبار الشعراء الجاهليين ، فحتمل عنهما جميعاً الشعر ، وعاش له يتعلمه ويعلمه شعراء من بيته ومن غير بيته ، بحيث أصبح أستاذاً لمدرسة عُرِفَتْ به . وقد وقفتُ عند ديوانه وأسقطت منه ما أسقطه الأصمعي . ولاحظت أن الشعر عنده انتهى إلى صورة مثالية من التنقيح والتحجير في قوالبه وصيغته تحبيراً لاحظته القدماء إزاء بعض مطولاته ، فقالوا إنه يصنع القصيدة في حول كامل وإن له سبع حوليات . وهو يضم إلى هذا التحجير عناية بعيدة بالتشبيهات والاستعارات ، بحيث يُعدّ حقاً شاعر التصوير في العصر الجاهلي وكان يكثر من الحِكَم ومن الدعوة إلى الخير والسلام ، فلا نغلو إذا قلنا إن شعره يعد صورة رفيعة للخير والحق والجمال .

وانتقلتُ إلى الأعشى ، فتحدثت عن حياته التي كان ينفقها متنقلاً في أنحاء الجزيرة ، ثم عرضت لديوانه ، واضطرت لبحثه من خلال رواية يكثر فيها الانتحال ، وتصادف أن كان راوية شعره مسيحياً ، فنحله كثيراً من الأفكار المسيحية ، وتداول شعره القمصان والوعاظ المسلمون ، فأضافوا إليه أشعاراً كثيرة ، لغرض العظة والاعتبار . كما أضاف إليه الرواة غير قصيدة ، كقصيدته رقم ٢٤ التي تحكي قصة وفاء السموأل . وجعلنا هذا كله نشك في كثير من قصائده وأشعاره ، وإذا بنا نرفض أكثرها ، ولا نُبقي له إلا على نحو عشرين قصيدة . وقد لاحظتُ عليه غلوّاً في المديح وتأثراً دقيقاً بالحضارة التي عاصرتها في الحيرة ، حتى يقترب شعره من شعر العباسيين لا في معانيه فحسب ، بل أيضاً في سهولة ألفاظه وخفة أوزانه . ونفس الموضوعين الأساسيين اللذين يدور فيهما شعره لا يختلفان

فى شىء عما نقرؤه للعباسيين ونقصده وصفه للخمر وغزله وتدلّه فيه وما قد يلاحظ
عنده من المبالغة المسرفة وكثرة التضمين .

ونخرجت من هؤلاء الشعراء المبرزين إلى دراسة طوائف من الشعراء اتفقوا فى
اتجاه من اتجاهات الحياة الجاهلية ، فدرست أولاً الفرسان وما يصورون فى أشعارهم
من بطولتهم ومثالياتهم الخلقية الرفيعة . ثم درست الصعاليك وما يصورونه فى أشعارهم
من غاراتهم وما نحسّه عند نقر منهم من تسام وعون للفقراء والمعوزين . ثم بحثت
فى شعراء اليهود مبيّنًا كثرة ما نُحلّ عليهم . ووقفت عند النصارى من الشعراء
أمثال عدى بن زيد العبادى ، ولاحظت أن شعراً كثيراً زيّف عليه .
ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر ما يضاف إلى أمية بن أبى الصلت ، إن لم يكن كله ،
موضوع منتحل . وتدور الأشعار المضافة إليه فى موضوعين أساسيين ، هما
نشأة الكون وما يتصل بها من خلق السموات والأرض ، والموت أو الفناء وما يعقبه
من العذاب والثواب .

ولما فرغت من بحث الشعر الجاهلى وشعرائه انتقلت أبحث فى النثر الجاهلى ،
فلاحظت أن الجاهليين لم يعرفوا الرسائل الأدبية المحبرة ، ولكنهم عرفوا القصص
والأمثال والخطابة وسجع الكُهَّان . ومن الحق أنهم لم يدوّنوا شيئاً من قصصهم ،
غير أن ما أضافه العباسيون إليهم يصور غير قليل من روحه وطبيعته . وعرضت
لأمثالهم وما كان من ازدهار الخطابة بينهم واصطلاحهم فيها على طائفة من السُّنن
والتقاليد . وكان كُهَّانهم يحاولون التأثير البالغ فى نفوس سامعيهم بما يسوقون إليهم
من أسجاع وألفاظ غريبة وأقسام وأيمان موهمة . وكل ذلك يؤكّد أن الجاهليين
حاولوا فى نثرهم ما حاولوه فى شعرهم من روعة الأداء ، حتى يستأثروا بقلوب سامعيهم
ويخلبوا عقولهم وألبابهم .

تعليق

واضح أن الصورة السابقة للأدب الجاهلى إنما تُعنى بإبراز خطوطه الأساسية ،
ومن المحقق أن هناك خطوطاً صغرى لا يبرزها البحث ، فنحن مثلاً إنما تحدثنا عن
الشعراء المجلّين ، وتركنا كثيرين لم نكد نلمّ بهم إلا بعض اقتباسات من

أشعارهم نثرناها نثراً في بعض الفصول . وإنما تركنا تفصيل الحديث عنهم ، إما لأن ما وصلنا من أشعارهم قليل لا يسوّى صورة أدبية تامة لهم ، وإما لأن الانتحال باد في كثير مما يضاف إليهم من أشعار وأخبار . ولتقف قليلاً عند أصحاب المعلقات الذين لم نفردهم بالدرس ، وهم عمرو بن كلثوم والحارث بن حذّزة وعبيد بن الأبرص وطرفة وعنترة وليبد ، فأما عمرو والحارث فلنهما مقلّان ، وقد تشكك ابن سلام في شعر عبيد بن الأبرص ولم يصحح له سوى المعلقة وقال إن شعره مضطرب ذاهب^(١) . أما طرفة فيقول ابن سلام إنه أشعر الناس واحدة^(٢) ، وهي قوله :

لخَوْلَةٍ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدُ وقفتُ بها أبكى وأبكى إلى الغد^(٣)

وفيهما أبدع في وصف ناقته ، إذ لم يترك فيها صغيرة ولا كبيرة إلا رسمها ، وكأنه يريد أن ينحت لها تمثالا ، لا يغادر ذاكرة الجاهليين . والتصوير والحكمة جميعاً يتداخلان في شعره ، وهو من هذه الناحية يشبه النابغة وزهيراً ، على أنهما يتقدمانه ويفضلانه . وأيضاً فإنه مقل للأسطورة تجري في أخباره ، ولذلك كله لم نفرده بالبحث . وأما عنترة فقد تحدثنا عنه في تضاعيف كلامنا عن الفرسان . وليبد مع أنه لحق الجاهلية عاش طويلاً في الإسلام ، فأولى أن يدرس في المخضرمين .

وقل ذلك نفسه فيمن تركناهم من شعراء الجاهلية غير أصحاب المعلقات ، فقد تركنا أوس بن حَجَر لأن فنه يندمج في فن تلميذه زهير ، ولأن الرواة خلطوا بين أشعاره وأشعار ابنه شُرَيْح^(٤) وعبيد^(٥) بن الأبرص . ونرى ابن سلام يسلك معه في طبقته — وهي الثانية — بشر بن أبي خازم الأسدي وهو مقل ، وفي شعره مصنوع كثير^(٦) . وجميع الطبقة الثالثة عند ابن سلام من المخضرمين ، أما الطبقة الرابعة فسلك فيها طرفة وعبيداً ومرّ رأينا في أشعارهما . ونراه يضم إليهما عدى بن زيد العبادي ، وأسلفنا الحديث عنه بين أصحاب الديانات السماوية ، كما يضم علقمة ابن عبدة ويذكر له ثلاث قصائد جياد ، ويقول : لا شيء له بعدهن يُذَكَّر^(٧) .

(١) ابن سلام ص ١١٦ .

(٢) ابن سلام ص ١١٥ .

(٣) الرواية المشهورة للشطر الثاني في البيت :

« تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد » .

(٤) الحيوان ٢٧٩/٦ .

(٥) ابن سلام ص ٧٦ - ٧٧ .

(٦) الحيوان ٢٧٩/٦ .

(٧) ابن سلام ص ١١٧ .

وهو يشتهر بإحسانه لوصف الظِّلِّم ونعامته (١) . ومن ذكرهم ابن سلام في الطبقة الخامسة الأسود بن يعفر النَّهْشَكِيُّ التَّمِيمِي ، ويقول ابن سلام : « له واحدة طويلة رائعة لاحقة بأجود الشعر لو كان شَفَعَهَا بِمَثَلِهَا قَدَمَاهُ عَلَى مَرْتَبَتِهِ (٢) » . أما الطبقة السادسة فنظم فيها عمرو بن كلثوم والحارث بن حِلْزَة وعَنْتَرَة ، وقد عرضنا لهم بالحديث فيما أسلفنا . وجعل الطبقة السابعة لأربعة مقلين هم حُصَيْن ابن الحُمام المَرِّي والمتلمس (خال طرفة) والمسيَّب بن علس (خال الأعشى) وسلامة بن جَنْدَل السَّعْدِي التَّمِيمِي . أما الطبقة الثامنة فنظم فيها عمرو بن قَسِيَّة (عم طرفة) وعوف بن عطية بن الحَرَج ، وهما مقلان . وجعل في الطبقة التاسعة الحادرة أو الحويدرة ، وقصيدته (٣) :

بَكَرَتْ سُمَيَّةٌ بُكْرَةً فَتَمَتَّعَ . وَغَدَتْ غَدَوْ مَفَارِقٍ لَمْ يَرْبِعَ .

من جيد الشعر ومختاره ، وليس له وراءها شعر يذكر . أما الطبقة العاشرة فجميعها مخضرمون أو إسلاميون . وأفرد لأصحاب المرائي فصلا ، ولكنه لم يسلك بينهم جاهليا . وتحدث عقب ذلك عن شعراء القرى العربية ، وأهمهم أمية ابن أبي الصَّلْت شاعر الطائف ، ومرَّبنا في حديثنا عن أصحاب الديانات كثرة ما وضع عليه من أشعار . وفي قبيلة عبد القيس بالبحرين شعر جيد ، وربما كان خير شعرائها المَثَقَّب العبدى المعاصر للنعمان بن المنذر ، وهو يُسَلِّك في المقلين . وليس وراء هؤلاء الذين ذكرهم ابن سلام شعراء فيهم غَنَاء ، سوى الصعاليك ، وقد أفردناهم بالحديث . وما لاشك فيه أن الأسطورة تغلب على أخبارهم ، لاندراج كثيرين منهم في القصص الشعبي ، ويشبههم في هذا الجانب حاتم الطائي الذي طالما تحدث الرواة عن كرمه . وواضح من ذلك كله أننا لم نتسع في الترجمة لشعراء الجاهلية ، لقلة ما بأيدينا من شعر وثيق لهم يقفنا على خصائصهم ، ومن ثمَّ اكتفينا بالترجمة للطبقة الأولى منهم تلك التي عني الرواة بدواوينها وأجمعوا على تقديمها وأنها لا تبارى في حسن الدِّبَاجَة ورونق الكلام .

(١) الحيوان ٣٦٦/٤ .

(٢) ابن سلام ص ١٢٣ .

(٣) المفضليات رقم ٨ . يربع بالمكان .

يقيم .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٦ - ٥	مقدمة
١٥ - ٧	تمهيد
٧	١ - كلمة أدب
١١	٢ - تاريخ الأدب
١٤	٣ - تقسيمات تاريخ الأدب العربي وعصوره
٣٧ - ١٧	الفصل الأول : الجزيرة العربية وتاريخها القديم
١٧	١ - صفة الجزيرة العربية
٢٢	٢ - الساميون
٢٦	٣ - العرب الجنوبيون
٣٠	٤ - العرب الشماليون
٣٢	٥ - النقوش ونشأة الكتابة العربية
٦٦ - ٣٨	الفصل الثاني : العصر الجاهلي
٣٨	١ - تحديد العصر
	٢ - الإمارات العربية في الشمال (الغساسنة - المناذرة - كندة)
٤٠	٣ - مكة وغيرها من مدن الحجاز
٤٩	٤ - القبائل البدوية
٥٥	٥ - حروب وأيام مستمرة
٦٢	
١٠٣ - ٦٧	الفصل الثالث : الحياة الجاهلية
٦٧	١ - الأحوال الاجتماعية
٧٦	٢ - المعيشة
٨١	٣ - المعارف

٨٩	٤ — الدين
٩٧	٥ — اليهودية والنصرانية
١٣٧ — ١٠٤	الفصل الرابع : اللغة العربية
١٠٤	١ — عناصر سامية مغرقة في القدم
١١١	٢ — لهجات عربية قديمة
١١٧	٣ — نشوء الفصحى
١٢١	٤ — لهجات جاهلية
١٣١	٥ — سيادة اللهجة القرشية
١٨٢ — ١٣٨	الفصل الخامس : رواية الشعر الجاهلي وتدوينه
١٣٨	١ — رواية العرب للشعر الجاهلي
١٤٨	٢ — رواة محترفون
١٥٨	٣ — التدوين
١٦٤	٤ — قضية الانتحال
١٧٦	٥ — أهم مصادر الشعر الجاهلي
٢٣١ — ١٨٣	الفصل السادس : خصائص الشعر الجاهلي
١٨٣	١ — نشأة الشعر الجاهلي وتفاوته في القبائل
١٨٩	٢ — الشعر الجاهلي شعر غنائي
١٩٥	٣ — الموضوعات
٢١٩	٤ — الخصائص المعنوية
٢٢٦	٥ — الخصائص اللفظية
٢٦٥ — ٢٣٢	الفصل السابع : امرؤ القيس
٢٣٢	١ — قبيلته وأسرته
٢٣٦	٢ — حياته
٢٤٣	٣ — ديوانه
٢٤٨	٤ — شعره

صفحة	
٢٩٩ — ٢٦٦	الفصل الثامن : النابغة الذبياني
٢٦٦	١ — قبيلته
٢٦٨	٢ — حياته
٢٧٥	٣ — ديوانه
٢٨٠	٤ — شعره
٣٣٢ — ٣٠٠	الفصل التاسع : زهير بن أبي سلمى
٣٠٠	١ — قبيلته
٣٠١	٢ — حياته
٣٠٤	٣ — ديوانه
٣٠٦	٤ — شعره
٣٦٥ — ٣٣٣	الفصل العاشر : الأعشى
٣٣٣	١ — قبيلته
٣٣٥	٢ — حياته
٣٣٩	٣ — ديوانه
٣٤٨	٤ — شعره
٣٩٧ — ٣٦٦	الفصل الحادى عشر : طوائف من الشعراء
٣٦٦	١ — الفرسان
٣٧٥	٢ — الصعاليك
٣٨٨	٣ — شعراء آخرون
٤٢٣ — ٣٩٨	الفصل الثانى عشر : النثر الجاهلى
٣٩٨	١ — صور النثر الجاهلى
٤٠٤	٢ — الأمثال
٤١٠	٣ — الخطابة
٤٢٠	٤ — سجع الكهان
٤٣٢ — ٤٢٤	خاتمة
٤٢٤	خلاصة
٤٢٩	تعليق

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- عصر الدول والإمارات
ليبيا - تونس - صقلية
الطبعة الأولى ٤٤٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزائر - المغرب الأقصى - موريتانيا - السودان
الطبعة الأولى ٧٠٨ صفحة
- في مكتبة الدراسات الأدبية
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة الثانية عشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة الثانية عشرة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة العاشرة ٣٤٠ صفحة
- دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة التاسعة ٢٩٢ صفحة
- شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة الثالثة عشرة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة الثانية عشرة ٣٠٨ صفحة
- البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الخامسة ٣٠٨ صفحة
- الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية
الطبعة الخامسة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبي :
طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره
الطبعة الثامنة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة
- في التراث والشعر واللغة
الطبعة الأولى ٢٧٦ صفحة

في الدراسات القرآنية

- الوجيز في تفسير القرآن الكريم
الطبعة الثانية ١٠٥٢ صفحة
- سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة الطبعة الثالثة ٤٠٤ صفحات
- عالمية الإسلام
الطبعة الأولى ١٢٠ صفحة
- الحضارة الإسلامية في القرآن والسنة
الطبعة الأولى ٣٣٤ صفحة

في تاريخ الأدب العربي

- العصر الجاهلي
الطبعة الحادية والعشرون ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامي
الطبعة الثامنة عشرة ٤٦١ صفحة
- العصر العباسي الأول
الطبعة الخامسة عشرة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسي الثاني
الطبعة الحادية عشرة ٦٥٧ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية - العراق - إيران
الطبعة الرابعة ٦٨٨ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الشام
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة
- عصر الدول والإمارات
مصر
الطبعة الثالثة ٥٠٠ صفحة
- عصر الدول والإمارات
الأندلس
الطبعة الثالثة ٥٥٢ صفحة

• المقامة	• فى الشعر والفكاهة فى مصر
الطبعة السابعة ١٠٨ صفحات	الطبعة الأولى ١٢٨ صفحة
• النقد	فى الدراسات النقدية
الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة	• فى النقد الأدبى
• الترجمة الشخصية	الطبعة الثامنة ٢٥٠ صفحة
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة	• فصول فى الشعر ونقده
• الرحلات	الطبعة الثالثة ٣٦٨ صفحة
الطبعة الرابعة ١٢٨ صفحة	• فى الأدب والنقد
فى التراث المحقق	الطبعة الأولى ١٥٢ صفحة
• المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد	فى الدراسات البلاغية واللغوية
الجزء الأول - الطبعة الرابعة ٤٦٨ صفحة	• البلاغة : تطور وتاريخ
الجزء الثانى - الطبعة الرابعة ٥٧٢ صفحة	الطبعة العاشرة ٣٨٠ صفحة
• كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد	• المدارس النحوية
الطبعة الثالثة ٧٨٨ صفحة	الطبعة الثامنة ٣٧٦ صفحة
• كتاب الرد على النحاة	• تجديد النحو
الطبعة الثالثة ١٥٢ صفحة	الطبعة الرابعة ٢٨٢ صفحة
• الدرر فى اختصار المغازى والسير	• تيسير النحو التعليمى قديما وحديثا
لابن عبد البر	مع نهج تجديده
الطبعة الثالثة ٣٥٦ صفحة	الطبعة الثانية ٢٠٨ صفحة
السيرة النبوية	• تيسيرات لغوية
• محمد خاتم المرسلين	الطبعة الأولى ٢٠٠ صفحة
الطبعة الأولى ٤٨٠ صفحة	• تحريفات العامية للفصحى
	الطبعة الأولى ٢٠٣ صفحة
	فى مجموعة نوايغ الفكر العربى
	• ابن زيدون
	الطبعة الثانية عشرة ١٢٤ صفحة
	فى مجموعة فنون الأدب العربى
	• الرثاء
	الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

فى سلسلة اقرأ

الطبعة الثانية	• الفكاهة فى مصر	• العقاد
الطبعة الثانية	• معنى (١)	الطبعة الخامسة
الطبعة الأولى	• معنى (٢)	• البطولة فى الشعر العربى
		الطبعة الثانية

رقم الإيداع ٢٠٠٠/١٠٢٤٤

الترقيم الدولى ISBN 977-02-6025-8

١/٢٠٠٠/٣٧ طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)